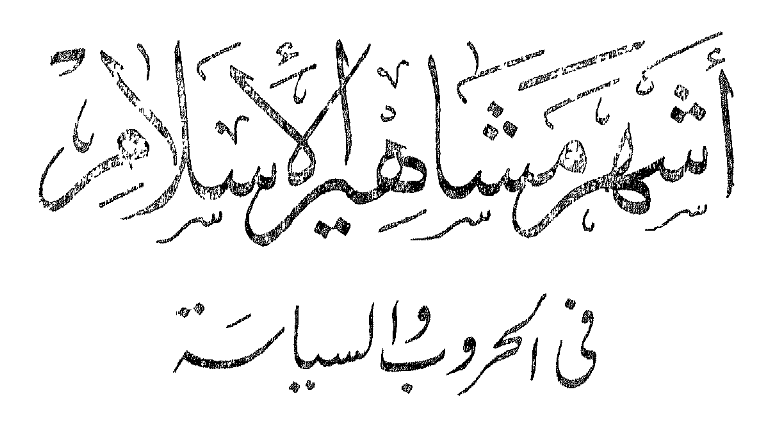
رفيق العظم



الطبعة الثانية ١٩٧٢ — ١٩٧٣

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها : محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨



بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالمؤلف

المرحوم رفيق «بك» العظم

هو المرحوم رفيق بن محمود بن خليل العظم وينتهي نسبه عند فارس بك ابن الوزير إبراهيم «باشا» العظم جد الأسرة العظمية الأكبر :

ولد المؤلف بدمشق الشام سنة ١٨٨٢ ميلادية ، ونشأ فى مهد المجد والفضائل، وكان والده رحمه الله شاعراً وأديباً ومؤلفاً من أهل العلم والأدب فنشأ المرحوم رفيق بك على سنة والده وكان شاعرا وأديبا وله مؤلفات عديدة كثير منها لم يطبع بالأسف فعاجله المرض ولم يتمكن من طبعها .

كان المؤلف حاد الذكاء فأخذ مبادىء اللغة العربية عن المرحوم الشيخ توفيق الأيوبى العالم الشهير بدمشق .

وبقوة ذكائه ووفرة مطالعاته أصبح فى مصاف العلماء المضيفين والشعراء المجيدين فامتلك ناصية القوافى فى ميادين الشعر قبل سن العشرين كما جاء فى كتاب (أعلام الأدب والفن) للأستاذ أدهم الجندى — وقد رفعته مواهبه إلى مقام الزعماء السياسيين ورجال الأدب والعلم بين المؤرخين .

وكان نسيبه شريف «باشا» الكبير والى سورية وقتئذ، ولما رآه من أهل العلم والأدب وتوسم فيه الخير والنجابة — أخذه معه إلى مصر عندما أحيل على المعاش، وكان ذلك فى عام ١٨٩٣ ميلادية - ثم مرض مرضا عصبيا بسبب وفرة الدراسة والمطالعة والسهر - فاضطر إلى ترك المطالعة وسافر إلى الآستانة

ثم عاد إلى دمشق للراحة وتغيير الهواء ، ولما عوفى هجر الشعر ونظمه ، ومال إلى الإنشاء والتأليف ومعاشرة العلماء من أئمة العلم والأدب ، وكانت الأحوال الاجتماعية فى البلاد السورية التى ترزح تحت وطأة الحكم التركى فى عهد السلطان عبد الحميد ، وهى تختلف عما عليه الحالة الروحية ، والحرية الفكرية فى مصر .

ثم سافر إلى مصر للمرة الثانية فى عام ١٨٩٥ م. واكتسب من بيئتها الثقافية ما أوقد نباهته ومواهبه فاستوطن مصر وتأهل فيها .

وأخذ يكتب فى جريدة الأهرام ثم تابع محاضراته التاريخية والعلمية وخطبه السياسية الشهيرة فى الجرائد المصرية كالمؤيد واللواء والأهرام والمقطم ، والمجلات العلمية الكبرى (كالمقتطف والهلال والمنـــار والموسوعات) ثم ألف رسالة فى كيفية انتشار الأديان ، ثم ألف كتاب الدروس الحكمية فقرظه له الإمام الشيخ محمد عبده (مفتى الديار المصرية) وقرر تدريسه فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ثم ألف كتاب (تنبيه الأفهام) إلى مطالب الحياة الاجتماعية طبع سنة ١٣١٨ ﻫ. ثم رسالة (العالم الإسلامى وأوروبا) مطبوعة سنة ١٣٢٥ ﻫ ثم طبعت أخيراً ، ثم استفزه الولع بتاريخ الإسلام إلى وضع تاريخ جديد لمشاهير الإسلام من أهل الحرب والسياسة على غير النمط المعهود عند المسلمين — أى على أسلوب جديد يمثل رجال الإسلام فى أجلى مثال — وقد تناول ذلك التاريخ كثيراً من أخبار دول الإسلام الاجتماعية والسياسية ، وأفاض البحث فى فلسفة التاريخ الإسلامى على وجه يتضح فيه رجال التاريخ الإسلامى فى أجلى مثال ، وقد تناول كثيراً من أخبار دول الإسلام الاجتماعية والسياسية وأفاض البحث فى فلسفة التاريخ الإسلامى على وجه يتضح به حال تاريخ الإسلام ، فباشر ذلك التأليف على صعوبته ، فأصدر الجزء الأول فى سيرة أبى بكر ومن اشتهر فى دولته بتلك السنة تأليفا وطبعا ، ثم فى أواخرها

أتم الجزء الثانى فى سيرة عمر بن الخطاب ، ولشدة البحث والتنقيب فى الكتب عاوده فى أثناء تأليفه المرض القديم (الربو) فأتمه بكل مشقة، واستراح نحو ثلاث سنوات ثم كتب الجزء الثالث فى سيرة المشهورين فى دولة ابن الخطاب وطبعه مع الجزء الرابع . ثم الف كتاب (السوانح الفكرية) فى المباحث العلمية والجامعة الإسلامية .

وقد أوصى رحمه الله بمجموعة آثاره العلمية فأهداها إلى المجمع العلمى العربى بدمشق ، أما الكتب الخطية التى شرع فى تأليفها ولم يتمها لمرضه فأولها « أشهر مشاهير الإسلام» ولم يتمه ولو أتمه على المنهج الذى وضعه لكان من أجل الكتب التى يحتاج إليها المسلمون على الإطلاق . والثانى « رسالة فى الخلاف بين الترك والعرب» فيرجى من المجمع العلمى العربى أن يعتنى بإخراج وطبع مؤلفاته الخطية ونشرها ليطلع الناس على آثاره النفيسة ومآثره الحميدة .

ثم إن المؤلف من أعاظم الرجال الذين قلّ أن يجود بأمثالهم الزمان. ولم يكن المؤلف عظاميا فحسب بل كان من خيار العظاميين وقادة جيوش العصاميين جمع بين نبل الأرستقراطية الشريفة وحرية الديمقراطية النزيهة إذ انتقت فطرته السليمة خيرة الخصال فهو مع شممه وإبائه وعلو جانبه وطهارة يده خال من الغطرسة والفخفخة الفارغة ، ويعتبر من أقطاب الأخلاقيين وأرباب المبادىء السامية الشريفة . وهذه مؤلفاته شاهدة بعلمه وأدبه، وهى كثيرة ومما اطلعت عليه منها كتاب (الدروس الحكمية) ورسالته فى كيفية انتشار الأديان طبعت عام ١٣١٤ هـ. وغيرها من الكتب التى طالعتها له رحمه الله وأهمها أشهر مشاهير الإسلام ، وقد ناقش الآثار الشيخ سعيد البانى من العلماء المجتهدين السوريين ناقش هذه الكتب مناقشة طويلة

وحللها تحليلا وافيا، وهى حرية بالمطالعة كما وردت فى مجلة (التمدن الإسلامى فى الأجزاء ٢٥ إلى ٢٨ من المجلد ٢٦ صفحة ٥٨٢ الذى ننقل عنه هذا البيان .

ولقد تزوج رحمه الله ولم يرزق ولدا — ووهبه الله الشمائل المثالية وتحلى بالآداب الاجتماعية التى عز نظيرها بين البشر فى هذا العصر .

أما عزة نفسه وتواضعه ووفاؤه لأصدقائه وبره بأهله وطهارة قلبه ونزاهة لسانه وحبه الخير للناس، وحسن ضيافته ، وكثرة تصدقه ومساعداته للجمعيات الخيرية — فتلك سجايا ومناقب لا يستعظم صدورها عمن ورث المجد والسؤدد كابرا عن كابر .

ولقد أجهد المؤلف نفسه فى المطالعة والتأليف فساءت صحته ، واعتزل السياسة وغيرها من الأعمال ، واشتد عليه مرض (الربو) وضاعف تصلب الشرايين ضعف القلب ، فاختطفه المنون فجأة وهو كوالده المرحوم محمود «بك» فى سن الكهولة المبكرة - ففقدت الأمة العربية زعيما كبيرا ونابغة حكيما ودفن بمصر .

ولو امتد أجله وكان فى صحته لأنتج من الآثار والتآليف ما يشق على غيره إخراجها وقد توفى رحمه الله يوم عرفة ، فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا .

القاهرة فى ١٩٧٠/١٢/١٦م

سامى العظم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أفاض على الإنسان من نور العقل ماشرف به على سائر المخلوقات . وجعل التفاضل بالعلم مرقاة للبشر آيتها العظمى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فانتشروا فى أكناف الأرض يبتغون إلى ذلك الوسيلة . ويتذرعون إلى السبق فى مضمار الحياة بالأعمال الجليلة . فشيدوا صروح المدنية فشادوا الممالك ، فمنها الموجود ومنها الهالك ، وصلى الله على سيدنا محمد أعظم البشر بلا مراء ، ومؤسس الشريعة الإسلامية على دعائم الحرية والعدالة والإخاء ، الذى دانت لدينه الأمم ، وتضاءلت دون جليل عمله شوامخ القمم ، وعلى آله وأصحابه الذين انتصروا للحق فنصروا شريعته الغراء ، وخلفائه الذين اهتدوا بسنته فخضعت لهم الشعوب لارهبة ولا رياء (أما بعد) فإن الله سبحانه وتعالى منذ دحا الأرض جعلها مضماراً تتسابق فيه الأحياء ، ويتبارى فيه الأكفاء ، والإنسان ابن بجدتها ، والسابق فى حومتها ، كل فريق منه يبارى فريقاً ، وكل امرىء ينتهج إلى المجد طريقاً ، فمن استمسك بعروة الجد استعلى ، ومن استمهل عزيمة النفس ونى واسترخى ، فكانت يده فى هذا الوجود هى الدنيا ، ويد السابق هى العليا ، وبعيد الهمة يأبى الأدنى ، والغضاضة لايرضاها إلا ضعيف الحجى ، ومن ثم كانت مراتب الناس فى هذا الوجود بنسبة الأعمال ، وخلائقهم سبب تفاوت الرجال ، فرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير ، وآخر لا فى العير ولا فى النفير .

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى الفضل حتى عد ألف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد به الأمة ، وآخر تهلك به الدولة ويشقى الناس ، وإنما قامت الدول واتصلت بالشعوب أسباب السعادة بأفذاذ

من كل أمة معدودين ، وأفراد من الرجال مشهورين ، كبرت نفوسهم عن أن تخلد إلى الدنايا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم إلى معالى الأمور وانصرفت بهممهم إلى غايات الكمال، فنالوا بهذا حياة لا تفنى، وغادروا فى الوجود آثاراً لن تزول .

لم يخل من هؤلاء الرجال عصر من العصور ولا دولة من الدول ، لأنهم أقطاب العالم الذين تقوم بهم أركانه ، ودعامة الوجود الاجتماعى التى يشاد عليها بنيانه ، وبالخاصة منهم رجال السياسة والحرب الذين رفعوا منار الدول ودوخوا ممالك الأرض فإنهم على قلة عددهم من كل قبيل ، وندرتهم فى كل جيل ، لم يخل تاريخ كل أمة من ذكرهم ، ولم تمح عن صفحات الوجود آيات فخرهم ، وللأمم فى تخليد ذكر أبطالها هؤلاء مذاهب من العناية تختلف باختلاف الأزمنة والأقوام ، وقد بلغ بالأقدمين منهم كاليونان مثلا أن أنزلوهم منزلة الآلهة ورفعوا لهم فى هياكل العبادة الأنصاب ، وأما أهل العصور المتمدينة فقد أفردوا لأفرادهم التواريخ تشهد لهم بجميل الذكر ، وشيدوا باسمهم الآثار ليبقى مذكوراً بالتعظيم أبد الدهر .

ولو نقبنا عن هؤلاء الرجال فى تاريخ كل أمة لوجدنا أعظمهم عملا ، وأعلاهم كعباً ، وأبعدهم همة رجال الإسلام الذين نبتت أصولهم فى منابت الشيح والقيصوم ، وأظلت فروعهم فارس والترك والصين والمغرب وأوربا والروم ، فدانت لهم أعظم دول الأرض لذلك العهد واستخضعوا لسلطان حكمهم أشد الأمم صولة وأرقاهم قوة ومدنية كالفرس والرومان والغوط وغيرهم .

إن ممن اشتهر فى التاريخ ذكره وعظم فى عهده أثره هنبال بطل قرطاجنة الشهير ، الذى ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم ، فاجتاز إليهم جبال البرنيه بجيوش جرارة ، وجند كثيف لينازلهم فى صميم

بلادهم ويستنزل أقيالهم عن منصات مجدهم ، ومع هذا فأين هو من موسى ابن نصير ومولاه طارق اللذين جاءا من أقصى العربية إلى أقصى المغرب ، فدوخا ممالك هنبال القديمة فى أفريقيا الشمالية . وقطعا بجندهما القليل البالغ اثنى عشر ألف مقاتل مضيق سبتة إلى القارة الأوربية ، ففتحا مملكة الأندلس وقضيا على دولة القوط بالدمار . بل أين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى اقتحم ماوراء البرنيه على عهد الخليفة هشام الأموى وانساح بجيشه القليل فى أحشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة ألف ميل من جبل طارق ، فذعرت منه سكان الممالك الأوربية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنساوية والكوكسون والقوط والجرمان حتى تمكنوا من إرجاع جيشه على أدراجه وأوقفوا تياره الذى كاد يكتسح الممالك الأوربية بقوة عجاجة .

أين نابليون الذى طبقت شهرته التاريخية الآفاق ، وعده الأوربيون من أشهر القواد فى العالم لحروب طويلة أصلاهم نارها ، وأذاقهم شدة أوارها ، لم تأت لدولته بفتح جديد ، أو خير عتيد ، من قتيبة بن مسلم فاتح السغد وتركستان أو عبد الملك بن مروان الذى تولى منصب الخلافة ، وقد تنازعتها أطماع الطامعين ، واشرأبت إلى التحزب والانقسام أعناق المسلمين ، فبادر إلى تلافى الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد ببعد النظر والرأى فذلل صعاب الأمور وأرغم من خالفه من الناس على الطاعة ، ثم بعد أن استصفى لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمأنينة أطلق للجيوش الإسلامية عنان الفتح والغارة فجاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين رافعة أعلام الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها .

ومع أن هؤلاء الرجال وأضرابهم كثير عددهم فى الإسلام فإن العناية باستقصاء أخبارهم وتتبع تواريخ حياتهم وإفرادها بكتب خاصة تخليداً لذكرهم

وتقديراً لقدر كل فرد منهم غير متوافرة عند المسلمين . ولاملتفت إليها عند المؤرخين . اللهم إلا ماأوردوه من أخبارهم مبعثراً فى بطون التواريخ متفرقاً فى كتب التراجم التى تكاد الاستفاضة فيها بذكر الرجال تقصر على أرباب القلم دون أرباب السيف .

نعم قد عنى بعض المؤرخين بإفراد كتب خاصة بتاريخ أفراد من رجال الإسلام ، كسيرة السلطان محمود الغزنوى ، وسيرة صلاح الدين ، وسيرة تيمورلنك ، إلا أن الأحرى ببعض هذه السير أن تسمى كتب أدب لا كتب سير وتاريخ ، كسيرة السلطان محمود الغزنوى المشهورة بتاريخ العتبى ، وسيرة تيمور المسماة عجائب المقدور ، لالتزام مؤلفيهما طريق التقفية وتكلفهما للسجع الممل للنفوس المخل بأصول التاريخ ، وفضلا عن هذا فإن فى المسلمين من رجال السياسة والحرب عدداً غير قليل لو أفردت لكل واحد منهم سيرة خاصة أو أفردوا بتاريخ خاص لكان ذلك أبقى لذكرهم . وأظهر لشهرتهم . وأقرب لتناول أخبارهم التى تكون داعية الاقتداء بهم . والاعتبار بجليل أعمالهم . فإن لبعض النفوس ميلا غريزياً إلى حب الشهرة وسلوك مسالك الظهور ، فإذا عرف أربابها كيف ساد أسلافهم ، واشتهر عظماء قومهم ، ورأوا التنويه بشأنهم خاصة والإشارة إلى انفرادهم بالشهرة واتصافهم بالفضائل ربما يدعوهم ذلك متى كانوا من زعماء الأمة وقادة الأفكار والسياسة إلى التشبه بأولئك فى جلائل أعمالهم ، وتدقيق النظر فى سيرهم للوقوف على مواضع الإصابة ومظان الخطأ من أعمالهم ، والأخذ بما يصلح منها لزمانهم ومكانهم .

عرف هذا الغربيون فلم يكتفوا بإفرادهم التواريخ لرجالهم ، والعناية بالتنويه بشأنهم ، بل صنعوا لهم التماثيل تقام على قوارع الطرق وساحات المدن ، وشيدوا بأسمائهم الآثار العظيمة كالمدارس والملاجىء ، ليكون ذلك أدعى لتوجيه الأنظار إليهم . وأبقى بين الخاصة والعامة لجميل ذكرهم . كما أنهم

اجتنبوا فى تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وإيراد الاستعارات والمجاز فى الوصف ورص الألقاب الكثيرة رصاً تضيع معه صفات المترجم الفطرية . وتغمض على الناقد أوصافه الحقيقية ، ليكون فى بساطة الترجمة وقصرها على إيراد الحقائق فى منشأ المترجم ومآثره فى حال ظهوره وإبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثله للمطالع فى قالب الوجود حتى كأنما هو يراه .

ولعمرى إن رجال الأمم العظام لخليقون بمثل هذه العناية جديرون بإعظام الشأن . وتخليد ذكرهم على صفحات الزمان . ولما كان الإسلام قد أنجب كثيراً من أمثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكرهم مشتتاً فى بطون التواريخ ، متفرقاً فى ثنايا الكتب والسير ، فقد نهضت بى عزيمة النفس ، واستفزنى الولع برجال الإسلام إلى أن أستقصى أخبارهم وأتتبع آثارهم وأفرد لمشاهيرهم فى الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتى به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياستهم وأخلاقهم ، وكل مايتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم ، على أسلوب مبتكر بديع الترتيب سهل على المتناول جامع الأوصاف التى تمثل حقيقة المترجم تمثيلا لا يدع حاجة فى النفس إلى المزيد ، ولا يحوج المطالع إلى الإمعان فى جمع مزيج الأخبار إلى مقر الذاكرة من دماغه والعقل من فؤاده للوقوف على أغراضها . والتفريق بين جواهرها وأعراضها .

هذا وقد أخذت على نفسى أن أطلق لها فى كل مجال عنان القول ، وأرمى بسهام الفكر إلى كل غرض يبدو للنظر ، عسانى أن ألم بشىء من الأدواء الاجتماعية التى طرأت على المسلمين . وأستطيع من إسداء النصح ما أخدم به فى هذا العصر قومى الذين ما إخالهم يردون نصيحة الناصحين .. سيما إذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة معضدة بالتاريخ مستندة إلى الدين .

ولما وطنت النفس على مباشرة هذا العمل رأيت أن أقصر الاستقصاء والبسط فى الكلام على أشهر مشاهير الإسلام خاصة ، وأورد فى ختامه ملخصاً

تاريخياً لمشاهير رجال الإسلام عامة ، يكون كفهرس تعلم منه ذواتهم ويرجع فيه إلى ملخص تاريخهم .

وإنى وإن كنت عزمت على اجتناب الخوض فى الفتن التى ثار ثائرها بين المسلمين فى عهد الخلفاء عثمان وعلى ومعاوية رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ولم أر بدا من إيراد ذكرهم مع الخليفتين السابقين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، لأنهم جميعاً من دعائم الإسلام التى قامت عليها صروحه . وأعضاد الدين الذين بان بهم صريحه . فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر فى النفس ، إلا ما كان فيه حجة بالغة يجرى بها القلم ، أو حكمة زاجرة يحتاج إليها العاقل . ويتعظ بها الجاهل. لهذا لا يؤخذ علىّ ما يُرَى من الاختصار فى تراجمهم، والاقتصار على ذكر بعض سيرتهم .

وقد جعلت الكتاب أقساماً على ترتيب الدول الكبيرة ومن عاصرها ، مقدماً فى الذكر الأقدم من الخلفاء والسلاطين ، ومن يليه . وهكذا إلى آخر الكتاب ، وأتبع كل خليفة أو سلطان بذكر من قام فى دولته . واشتهر من بين زمرته ، من أمراء الحروب والسياسة الذين اشتهر ذكرهم . وعظم فى الإسلام أثرهم . والله المسئول أن يعصمنا من الخطأ ويفيض علينا روح النطق بالحق والصواب إنه مجيب السؤال .

دولة الخلفاء الراشدين

هذه الدولة التى أسست مجد الإسلام ، ورفعت منار الدين الحنيف ، وبلغت خيلها شطوط المحيطين ، ونشأت على الخشونة فى العيش والإعراض عن أعراض الدنيا والتعفف عما بأيدى الناس ، هى الدولة الأولى التى كان بها فخر الإسلام وإلى خلفائها الأربعة تنتهى الشهرة فى المجد الذى ليس فوقه مجد ، وإنما قامت الدولة الإسلامية على أساس هم واضعوه . وأنجبت دول الإسلام من الرجال العظام من أنجبت بفضل هم السابقون به وفتح هم فاتحوه . وقد قام فى عصرهم الذى هو أفضل العصور كثير من رجال الحرب والسياسة الذين أدهشت أعمالهم الباحثين فى تاريخ الأمم . وقضوا بعزائمهم الماضية على دولتى الروم والعجم . ومن أشهر مشاهيرهم الذين يشار إليهم بالبنان . ويعدون من أفراد ذلك الزمان . فى الحرب والسياسة خالد بن الوليد فاتح العراق العربى وقسم من الشام . وأبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام . وعمرو ابن العاص فاتح مصر . وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق العجمى وهادم عرش الأكاسرة . والأحنف بن قيس فاتح خراسان . والمغيرة بن شعبة داهية السياسة ، وقد عزمنا على أن نأتى على سيرتهم فى دولة الخلفاء فنذكر كل رجل منهم مع خليفته إلا الأحنف والمغيرة فلأنهما خدما هذه الدولة إلى نهايتها سنأتى على ذكرهما بعد آخر الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

أبو بكر الصدّيق

— ١ —

حاله فى الجاهلية

نسبه وأصله :

اسم أبى بكر رضى الله عنه عبد الله ، واسم أبى قحافة أبيه عثمان ، وكان اسم أبى بكر فى الجاهلية عبد الكعبة ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله ، ولقبه عتيقاً لجمال وجهه ، ويقال لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أنت عتيق من النار ، كما ورد فى حديث رواه الترمذى ، وسمى صديقاً لأنه بادر إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو عبد الله بن عثمان ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وينسب أبو بكر إلى تيم قريش ، فيقال التيمى وهو فى التعدد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه يلتقى هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب ، وبين كل واحد منهما و بين مرة ستة آباء . وأم أبى بكر سلمى بنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم ، وهى بنت عم أبى قحافة ، وتكنى أم الخير ، و كان مولد أبى بكر لسنتين وأشهر من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم .

شرفه :

انتهى الشرف من قريش إلى عشرة رهط من عشرة أبطن ، منهم أبو بكر الصديق ، وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق . وهى الديات والمغرم ، ولما كان

هؤلاء الرهط الذين إليهم انتهت مكارم قريش فى الجاهلية ، واتصلت بالإسلام منهم من صارمن مشاهير الإسلام ، وستأتى ترجمتهم بعد ، فقد رأيت أن آتى هنا على بيان هذه المكارم ، وعامة من انتهت إليهم اكتفاء بها عن التكرار عند ذكر من يترجم له منهم فى هذا الكتاب ، فأقول :

قال فى العقد قال ابن المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى ، تسمية من انتهى إليه الشرف من قريش فى الجاهلية فوصله بالإسلام ، عشرة رهط من عشرة أبطن .

وهم هاشم . وأمية . ونوفل . وعبد الدار . وأسد . وتيم . ومخزوم . وعدى . وجمح . وسهم . فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسق الحجيج فى الجاهلية وبقى له ذلك فى الإسلام . ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب ، كانت عنده العقاب راية قريش، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب،فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بنى نوفل الحرث بن عامر ، وكانت إليه الرفادة ، وهى ماكانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة ، كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار . ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الأسود ، وكانت إليه المشورة ، وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فإن وافقه ولاهم عليه وإلاتخير،وكانوا له أعواناً واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن بنى تيم أبو بكر الصديق، وكانت إليه الأشناق وهى الديات والمغرم ، فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه . ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد كانت إليه القبة والأعنة ، فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها مايجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان على

خيل قريش فى الحرب . ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حى لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهى الأزلام ، فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تسييره على يديه . ومن بنى سهم الحرث بن قيس، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم . فهذه مكارم قريش التى كانت فى الجاهلية يتوارثونها كابراً عن كابر ، وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام وصله لهم ، وقد رأيت مكانة أبى بكر من الشرف فى قريش، هذا فضلا عن مكانته الخاصة عندهم واحترامهم له لكرمه وتفضله .

صناعته :

كانت قريش مع ما تمتعت به من النسب وتحوزه من شرف المكانة عند العرب لما أنها حامية البيت ، وصريح ولد إسماعيل لا يستنكف أشرافها من الاحتراف أو المتاجرة ، والاعتماد فى الاسترزاق على عمل اليد ، ترفعاً عن الاتكال على فضلات العجز ، والاعتماد على تراث الآباء ، فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترف بها . ونحن ذاكرون لك هنا حرف الصحابة الذين ستأتى ترجمتهم فى هذا الكتاب فقط . فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجراً ، ومنهم سعد بن أبى وقاص وكان يبرى النبل ، ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازاً . ومنهم عمرو بن العاص وكان جزاراً ، وأما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة ، قالوا إنه يبلغ أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة للنبى صلى الله عليه وسلم ، على مصالح المسلمين ، والذى بقى عنده مازال يتجر به حتى مات رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

مكانته عند قومه وسيرته فيهم :

كان ذا مكانة محترمة من قومه ومروءة وإحسان وتفضل فيهم ، ولهذا

قال له ابن الدغنَّة يوماً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر ، وتقرى الضيف ، وكان عالماً بالأنساب ، وأخبار العرب ، رغاباً عن الدنايا ، عفيف النفس حرّم على نفسه شرب الخمر فى الجاهلية . قال السيوطى أخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت ، لقد حرم أبو بكر الخمر على نفسه فى الجاهلية .

اللهم إن امرأ ينشأ بين الأوثان حيث لادين زاجر . ولا شرع للنفوس قاهر . وهذا مكانه من الفضيلة ، واستمسا كه بعرى العفة والمروءة ، لجدير بأن يتلقى الإسلام بملء الفؤاد . ويكون أول مؤمن بهادى العباد . مبادر بإسلامه لإرغام أنوف أهل المكابرة والعناد . ممهد لهم سبيل الاهتداء بدين الله القويم الذى يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه، المستمسكين بمتين سببه « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » وأولهم أبو بكر .

— ٢ —

إسلامه وصحبته

إسلامه :

اختلف الرواة فيمن كان أول الناس إسلاماً ، فقال بعضهم إنه على، وقال بعضهم إنه أبو بكر ، وقال بعضهم خديجة، وقد أخرج ابن عساكر من طريق الحارث عن على رضى الله عنه قال (أول من أسلم أبو بكر الصديق) ، ومما يؤيد أنه أول الناس إسلاماً قول حسان بن ثابت رضى الله عنه .

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها إلا النبى وأوفاها بما حملا
والثانى التالى المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

وقال السيوطي وجمع بين الأقوال بأن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، وعلي أول من أسلم من الصبيان ، وخديجة أول من أسلمت من النساء ، وأول من ذكر هذا الجمع الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه (وهو الصواب) .

تجسم أبو بكر رضي الله عنه من الفضيلة ، وخلص جوهره من الدغل ، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد ، وطهارتها من عمى البصيرة عن درك الصواب ، والمماراة في الحق ، فقامت لديه الحجة على الشرك ، وظهرت له محجة الرشد لأول وهلة من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للإيمان ، فبادره بالدعوة فلم يتردد . وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . لهذا قال عليه الصلاة والسلام (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر) .

سبق أبو بكر بالإيمان ، فكان له الفضل على السابقين بمتابعتهم له وسبقهم ببركة إسلامه إلى نيل السعادة بالإسلام ، لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبي) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرهما من طرق عن أبي الدرداء . ولما كان أبو بكر محبباً سهلا ، وكانت رجالات قريش تألفه ، فقد أسلم منهم على يديه من بني أمية عثمان بن عفان . ومن بني عمرو بن كعب طلحة بن عبيد الله ، ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص . وغيرهم كثيرون .

صحبته :

صحب أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم إلى حين توفي خير صحبة ، وكان أحب رفيق إليه ، وأعز صاحب لديه ، حمل من أجل الرسول من قريش ما تنوء به العصبة أولو القوة ، ووقف أمامه موقف المدافع عن الحق الداعي إلى الخير . صحبه يوم الهجرة وهو يبكي فرحاً بصحبته ،

واستبشاراً بتخفيف أذى قريش عنه . ورافقه فى الغار ثلاثاً . وعينه من أجله لا تنام ، ولم يذق خوفاً عليه لذة الراحة ، حتى قال له النبى صلى الله عليه وسلم لا تحزن ، إن الله معنا ، ليسكن اضطرابه ، ويأمن على نبيه ، وأنزل فيه قرآن (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه) .

علم أبو بكر أن لله عليه حقاً ، وأن للإيمان بكتابه شرطاً ، وهو الامتثال لما جاء به ، والعمل بما فيه ، وأن الله سبحانه وتعالى يقول بهذا الكتاب (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فسمح بماله فى سبيل الإسلام ، وأنفقه على النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان يشترى من ماله المعذبين على الإسلام ، لإنقاذهم من الآلام ، كما كان يشترى على الإسلام أيضاً [١] حتى أثنى عليه الرحمن ، ونوه به القرآن ، ومنه قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى) الآية ، وقوله تعالى (وسيجنبها الأتقى) وقوله تعالى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) إلى آخر السورة ، كل هذه الآيات وغيرها نزلت فى أبى بكر .

سمح بنفسه فلم يترك مشهداً من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حضره ، ولازم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميه بنفسه ، ويقف فى وجه الأعداء دونه ،

أخرج البزار فى مسنده عن على أنه قال : أخبرونى من أشجع الناس ؟ فقالوا أنت . قال أما إنى ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ، ولكن أخبرونى

---

(١) أخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه أى بنى أراك تعتق أناساً ضعافاً فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك، قال أى أبت أنا أريد ما عند الله وأخرج الطبرانى عن عروة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله اهـ .

بأشجع الناس . قالوا لا نعلم فمن . قال (أبو بكر) إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله عريشاً فقلنا من يكون مع رسول الله لئلا يهوى إليه أحد من المشركين ؟ فوالله مادنا منا أحد إلا أبا بكر شاهراً السيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى إليه أحد إلا هوى إليه فهو أشجع الناس قال على رضى الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخذته قريش فهذا يجبؤه وهذا يتلتله وهم يقولون أنت الذى جعلت الآلهة إلهاً واحداً فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، ثم رفع على بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم فقال ألا تجيبونى ، فوالله لساعة من أبى بكر خير من ألف ساعة من مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه .

— ٣ —

خلافة أبى بكر

كلام على الخلافة

قبل الكلام على خلافة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه نأتى بتمهيد مختصر فى الخلافة الإسلامية ، فيه بيان يحتاج إلى النظر فيه كل باحث فى تاريخ الإسلام فنقول :

إن مؤازرة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تتخلف ، سواء عن الشرائع الإلهية أو الأوضاع البشرية . وقد ترتب عليها قيام الدول فى كل ملة من الملل ، لضرورة وجود الوازع الذى يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم

ولو بالقوة إلى حدود الشرع ، وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق من الرسل أولى الشرائع (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وفيه الإشارة إلى ملازمة القوة للدين إرهاباً للناس وكبحاً لجماح النفوس التى لا يقومها مجرد الإرشاد واللين ، وهذه القوة إنما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة .

ومن المقرر أن وظيفة الرسل هى تبليغ الشرائع وتقريرها بين الناس على وجه يجمع إليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسول لمن يخلفه فى قومه إلا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنة الرسول، وهذه وظيفة يشترط فيها عندنا معاشر المسلمين الحرية والعقل والعدالة والعلم، ولا يشترط فيها شيء من النبوة، بل النبوة رسالة إلهية يتعلق بها تبليغ الدين، ووضع أصول الدعوة ، وتقرير الشرائع، وتلك رئاسة دنيوية تتعلق بها حماية الشرائع وإقامة أركان الدين، ولا تناسب بين الوظيفتين البتة . لهذا تضافرت الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب السمع والطاعة لكل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين من أى قبيل كان بلا تخصيص بآل بيته الكرام عليهم السلام، وأيد هذا سنته العملية، فقد فارق هذه الدنيا إلى الملأ الأعلى، وليس لأحد من آل بيته أمر من أمور الناس. أو ولاية من ولايات الأطراف، ولما طلب منه عمه العباس أن يوليه عملا من الأعمال أبى عليه ذلك، لئلا يظن بعده أنه أراد بقاء الإمارة فى بنى هاشم متصلة بالنبوة مع أن النبوة شيء والإمارة شيء آخر .

وقد علم هذا الحسن بن على رضى الله تعالى عنه ، لما تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان فقال (أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا) وحسب آل البيت شرفاً أن تكون النبوة فيهم .

قلنا إن الخلافة رئاسة دنيوية باعتبار أنها شيء والنبوة شيء آخر، وإنما قالوا إنها رئاسة دينية وخلافة نبوية، لما يتعلق بها من إقامة أركان الدين كما تقدم، وهي بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين، وصارت بعد ذلك ملكا دنيوياً بحتاً، إذ ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الإمارة وهي الصلاة بالناس، التي استخلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فكان خليفته على الأمة في الدين، كما صار أميراً عليها في أمور سياستها في الدنيا، ومن هنا اشتق اسم إمارة المؤمنين. إذ لا بد لكل أمة اجتمعت على دين أو أمر آخر من رئيس يضم شملها ويقيم أحكام شرائعها ويدبر سياسة ملكها ولا سيما أن الإسلام جاء بقسمي السياسة والدين، ولم يقتصر على أصول التوحيد والعبادات، لهذا كان وافياً بحاجات الدين والدنيا.

ومن ثم كان أول مقصد من مقاصد المسلمين وأهل السابقة من المهاجرين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد متجهاً إلى وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الإسلامية على كتاب الله وسنة رسوله، ويأخذ بالقوة على أيدي ذوي العبث بالنظام. إلا أنهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الأمر اختلافاً ليس فيه ما ينافي المصلحة الإسلامية، بل غايته تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجمع على تأميره كلمة الجمهور الأعظم من المسلمين، ليكون أثبت قدماً في الخلافة وأشد حجة على المخالفين، فاختاروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

علم هذا كله جمهور الصحابة والمسلمين فاختاروا للخلافة رجلا من غير بيت النبوة، ولو علموا خلافه لما عدلوا عن بيت النبوة البتة، ولكان أولى الناس بهذا الأمر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، أو علي بن أبي طالب لسابقته في الإسلام، وكونه أقرب الناس من النبي عليه الصلاة والسلام نسباً وصهراً بعد العباس.

هكذا كان أيضاً بعض بنى هاشم وبعض بنى أمية يتوقعون أنه لا يعدله بعلى كرم الله وجهه أحد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن لخصوصيات ومزايا له ترشحه للخلافة وتحملهم على الاعتقاد بترجيح انتخاب المسلمين له لذلك المنصب الرفيع ، لا لاعتقادهم بوجوب الخلافة لبنى هاشم ، وإلا لو صح عندهم شيء من وجوب الخلافة لبنى هاشم لكان العباس رضى الله عنه أولى بها من على، لأنه عم النبي صلى الله عليه وسلم ولما لم يكن الأمر كذلك لم يتخلف على عن مبايعة أبى بكر سوى ستة أشهر كما يقولون ، ثم بايعه بعد وهو أعظم الناس اعتقاداً بأهليته وطاعة له وعونا على أمره .

هذا إذا صح أنه تخلف عن بيعته ولم يصح ، وإنما وجد عليه وعلى عمر ابن الخطاب لما حكما بحرمان فاطمة رضى الله تعالى عنها من ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وهى قرية بخيبر لما ثبت عند أبى بكر يومئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال) حتى كان مما قاله يومئذ أبو بكر وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التى كانت فى عهده صلى الله عليه وسلم . فوجدت عليه فاطمة وهجرته وهجره على أيضاً إلى أن توفيت فاطمة رضى الله عنها بعد ستة أشهر من بيعة أبى بكر ، وكان لعلى من الناس وجهة حياة فاطمة ، فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر فصالحه ، وربما وهم الرواة من هذا الأمر أنه لما صالحه بعد ستة أشهر بايعه أيضاً ، وسترى من الروايات الآتية ما يدل على أن علياً لم يتخلف عن البيعة إلا قليلا والله أعلم .

ولكن ما الحيلة وقد رزىء هذا الدين بشراذم من المنافقين إنما دخلوا فى هذا الدين للتشويش على أهله ، لكن وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أحوالهم وهيبة الإسلام التى ملأت قلوبهم لم يمكناهم من بث الفتنة

فى الدين فبثوها وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من طريق السياسة حتى نشأ عنها من الخلاف على الخلافة أمور ، ورأى بعد منافقو الأعاجم ومجوسهم الذين ابتز الإسلام ملكهم وثل عروش ملوكهم فهالهم أمره وساءتهم غلبة شأنه أن يتخذوها وسيلة لإدخال الوهن على الإسلام ، وتعطيل حدوده وشعائره فخلطوا السياسة بالدين وضربوا بسلاحهما فى وجوه المسلمين ، فزعموا أن منصب الخلافة فرع من النبوة لا يتخلف عن أصله . ولا يصح وضعه فى غير محله . واشترطوا فيه ما يشترط فى النبوة من العصمة وهى لا تكون على زعمهم إلا فى على وأهل بيته وإلا فلا إمام يؤتم به ولا جمعة تصح ولا حكم ينفذ . وهو عين التعطيل الذى رموا إليه يومئذ بسهم نفذ فى كبد المسلمين . وفرق وحدة المؤمنين ، ولا يزال يتابعهم عليه إلى الآن فريق الشيعة الذين أعماهم التقليد على غير علم بمن يقلدون ، ولا فهم لحقيقة ماهم فيه من تعطيل أركان الدين مسترسلون . انتظاراً لإمام موهوم ويوم معلوم .

وامصيبتاه من هذه العقول التى لم تدرك إلى الآن مرامى غرض السالفين ، ومهاوى ضلال الزنادقة الكاذبين ، الذين جعلوا مسئلة الإمام المعصوم عقبة دون إقامة شعائر الدين . لن تزول من وجه الإسلام إلى يوم الدين . مادامت مدعمة بأحاديث المهدى الموضوعة . وأخبار الإمامة المصنوعة . التى يدل على أنها مكذوبة على الرسول مفتراة على أهل بيته الطاهرين ما أصاب المسلمين من جرائها من التفريق وما أصيب به الإسلام من الوهن وهذا شىء لا يرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى لدينه ، ولو صح شىء منه لما ترك الله عباده إلى الآن يتخبطون فى ظلمات الفوضى بلا إمام معصوم ، والعصمة إنما هى لله وللأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله رحمة للعالمين ، ولن يرسل للبشر الأئمة والسلاطين المعصومين، كما

يريد فريق المتخرصين من الشيعة . وهذا العالم البشرى على اختلاف الأمم والشعوب ما زال ولن يزال قائماً بمن يتولى شؤون الناس من الرؤساء والسلاطين وفيهم وثنيون وهم أعدل من ساس الممالك كملك اليابان حديثاً أو كسرى فى قديم الزمان . فاللهم نسألك هداية هذه العقول الزائغة ، وتأليف تلك القلوب المتفرقة إنك مجيب السؤال .

ولنرجع إلى الكلام على خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ونبدأ من ذلك بذكر بيعته فنقول :

بيعة أبى بكر

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائباً فى أهله بالسنح ، فلما أتاه منعاه أقبل على الناس فوجدهم فى اختباط عظيم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنهم المصدق ومنهم المكذب ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال : بأبى أنت وأمى قد ذقت الموتة التى كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة أبداً . ثم خرج إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال . أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ثم تلا (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية ، فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية فى المنزل لما أصابهم من الدهشة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عمر فما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى . فاللهم ارزقنا قلوباً كهذه القلوب ملئت بالإيمان وأشربت بحب الرسول حتى ما تصدق أنه قد مات ، لدهشة أخذتها ، وحزن أصابها وأسى أراعها ، وبلاء فاجأها ، ولما لم تطق حمل هذا كله ذهلت لحظة كما يشرب الطير ثم ثابت إلى نفسها . وعاد إليها وعيها . بآية تلاها أبو بكر كأنما المسلمون كانوا فى ذهول عنها وما هو إلا ذهول الحزن ووقع أليم المصاب .

وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فأخبرهم باجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، بقصد المفاوضة فى شأن الخلافة ،فأسرع إليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ،ليتداركوا هذا الأمر قبل افتراق الكلمة ، فأتوا الأنصار وقد اجتمعوا بالسقيفة يبايعون سعد بن عبادة ، فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه ، وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة وكان مما قاله :

يامعشر الأنصار إنكم لاتذكرون فضلا إلا وأنتم له أهل . وإن العرب لاتعرف هذا الأمر إلا لقريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح فكثر حينئذ اللغط بين الأنصار وقال قائلهم منا أمير ومنكم أمير. ثم إن عمر لما رأى أن بعض الأنصار ، ومنهم بشير بن سعد يرون رأى المهاجرين بجعل الخلافة فى قريش ، وأن الأمر إذا أجل النظر فيه ربما صعب حله ، قام إلى أبى بكر وقال : ابسط يدك أبايعك فبسط يده فسبقه بشير فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس .

وتخلف عن بيعته على وطلحة والزبير وبنو هاشم لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة إليهم وعدم صرفها عنهم ، حتى كان مما قال يومئذ عقبة بن أبى لهب .

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبى الحسن

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس إلى البيعة لأبى بكر ، واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من أن الخلافة غير النبوة وأن أبا بكر أحق الناس بها بعد أن أنابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة بالمسلمين فى حال مرضه ، أقبلوا على بيعته وبايعه على رضى الله تعالى عنه بعد أيام على الأرجح لا بعد ستة أشهر ، وقد سبق الكلام على هذا فى أول الفصل ويؤيده ما رواه

الرواة عن أبى سعيد الخدرى أنه قال فى حديث طويل إن أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا بالزبير فجاء فقال قلت ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب ياخليفة رسول الله فقام فبايعه .

ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير علياً فدعا به فجاء فقال . قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب ياخليفة رسول الله فقام فبايعه .

وأخرج ابن عساكر عن على أنه قال . لقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أبابكر أن يصلى بالناس[1] وإنى شاهد وما أنا بغائب وما بى مرض فرضينا لدنيانا مارضى به النبى صلى الله عليه وسلم لديننا . وأخرج الدارقطنى فى الأفراد والخطيب وابن عساكر عن على رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله أن يقدمك ثلاثاً فأبى علىّ إلا تقديم أبى بكر .

هذا كله يدل على أن علياً رضى الله عنه لم يتردد عن بيعة أبى بكر إلا قليلا ، ويعضده أيضاً أن جماعة من بنى أمية منهم أبو سفيان بن حرب وخالد ابن سعيد أرادوه على الخلافة يومئذ فزجرهم زجراً وقرعهم تقريعاً .

هذا ولما استقرت الخلافة لأبى بكر وذلك سنة إحدى عشرة صعد على المنبر ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) أخرج الشيخان عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : مرض النبى صلى الله عليه وسلم فاشتد مرضه ، فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالت عائشة إنه رجل رقيق القلب إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلى بالناس ، فقال مرى أبابكر فليصل بالناس ، فعادت ، فقال مرى أبابكر فليصل بالناس فإنكن صواحب يوسف .

أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ،وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له الحق إن شاء الله تعالى ، لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله .

كلام يمثل معنى الرئاسة التامة فى الإسلام تمثيلا تستكن أمامه القلوب التى أشربت حب العدل ، وتقصر عن التطاول إلى نتائجه أعناق زعماء الحرية فى كل أمة وجيل .

كلام صدر عن أول خليفة فى الإسلام ، يبشر الأمم بنزع أغلال الذل والاستعباد من أعناقهم وانتزاع قيود السيطرة الجائرة من أيديهم وأرجلهم.

بل كلام يقرر صاحبه أول قاعدة للحكومة فى الإسلام ، ويسجل الشقاء على من تسامح بها من المسلمين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على ما كان بعد ذلك فى المسلمين وما سيكون .

إنفاذه جيش أسامة بن زيد :

لم يكن أمر البيع أول عقبة قطعها المسلمون بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكد ينتشر نعيه فى الآفاق ، حتى ظهر النفاق واشرأبت من الأمم المجاورة الأعناق . ومنع العرب الزكاة والمسلمون يومئذ فى ارتباك عظيم لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم .

كان النبى عليه الصلاة والسلام أعد قبل وفاته جيشاً وعليه مولاه أسامة ابن زيد لبعثه إلى الشام ، فتأخر ذلك الجيش عن السفر بسبب مرضه ووفاته عليه الصلاة والسلام . ولما استقرت الخلافة لأبى بكر قال له الناس إن هؤلاء

(يعنون جيش أسامة) جند المسلمين ، والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله ﷺ .

وهو ثبات أمام الأخطار واستصغار للخطب ومضاء عزيمة نافذ فى مثل ذلك الموقف الحرج الذى وقف به المسلمون ، لا تصدر إلا عن مثل أبى بكر رضى الله تعالى عنه . ثم أمر بالتجهز وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف . فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقى من تلك القبائل التى كانت لهم الهجرة فى ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل .

لما خرج الجيش إلى معسكرهم وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان معه فى جيشه إلى أبى بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال: إن معى وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون .

وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب إن أبا بكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغه عنا أن يولى أمرنا رجلا أقدم سناً من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبى بكر ، فأخبره بما قال أسامة فأصر على ثبات رأيه واستمر فى مضاء عزيمته على إنفاذ جيش أسامة ، وقال لعمر لو خطفتنى الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته .

قال عمر فإن الأنصار تطلب رجلا أقدم سناً من أسامة . فأدرك أبو بكر من هذا ما يخالج ضمائر القوم من تأمير أسامة عليهم لما لم يزل فى نفوسهم

من آثار الفخر الجاهلية ، والاستمساك بعرى التفاضل بالأنساب ، فرأى أن يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل إلا بالتقوى والأعمال ، وأن يبدأهم من ذلك بنفسه فماذا صنع ؟

خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وأشيعهم وهو ماش وأسامة راكب ، فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ، فقال والله لا نزلت ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمىّ ساعة فى سبيل الله . فلم يسع الأنصار لما رأوا خليفة رسول الله ماشياً فى ركاب أسامة إلا السكوت ، ولم يبدر من أحد منهم بادرة قط بل صاروا صحبة أسامة وأبدوا ما عرفوا به من الإخلاص فى الجهاد ، والذب عن حياض الإسلام ، والاستماتة فى قتال الأعداء فرضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ولما أراد أبو بكر أن يرجع قال لأسامة إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل فأذن له .

إمام أمره نافذ فى جيوشه ، وسلطته مبسوطة على قواده ، أحب استبقاء عمر بن الخطاب عنده ، ليستعين برأيه فلم يشأ أخذه من الجيش إلا بإذن قائده أسامة بن زيد ، تنبيهاً لمن فيه إلى وجوب الطاعة لأمره ، وعدم الحيد عن إشارته مادام فيهم أميراً ولهم قائداً ، وقد كان فى استطاعته أن يشافه الجيش بمثل هذا التنبيه ، لو لم ير أن يبدأهم بنفسه ويؤدب نفوسهم بأدبه ، وهيهات هيهات أن تلد الولادات مثل أبى بكر وعمر .

هذا وقد أوصاهم أبو بكر قبل رجوعه عنهم بوصية قصارى ما يقال فيها ، إن الدول المتمدينة الآن مع حرصها على تخفيف بلاء الحروب ودعواها العريضة فى خدمة الإنسانية والإنسان ، ومراعاة حقوق العمران ، لم تستطع واحدة منهن أن تقيد جيوشها بمثل مضمونها أو ترتبطن جميعاً بقاعدة من قواعدها وها هى ذى بنصها .

لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً .

ثم قال اندفعوا باسم الله ، وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ ، فسار وأوقع بقبائل من قضاعة ، وأغار على أبنى موضع بناحية البلقاء (١) وغنم وعاد بعد أربعين يوماً وقيل بعد سبعين يوماً .

— ٤ —

الكلام على الردة

بحث فى الردة :

ربما يتوهم متوهم من إيراد الكلام على أهل الردة على علاته أن الردة إنما هى ارتداد العرب عن الإسلام إلى الشرك ، كما توهم بعضهم فى مناظرة جرت بينى وبينه من بضع سنين فى مجلة الهلال التى تطبع فى مصر ، والحال أن ردة العرب يومئذ لم تكن بهذه المثابة ، وإنما اعتبرهم أبو بكر مرتدين لتركهم ركناً من أركان الدين وهو الزكاة . وللعلماء والمؤرخين مباحث بهذا الشأن أحببت أن ألخصها فى هذا الكتاب ليظهر بها معنى الردة يومئذ على وجهه الصحيح فأقول :

رأى العرب ضعف المسلمين واضطرابهم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لا سيما لما بلغهم استفحال أمر مسليمة الكذاب وطليحة الأسدى

---

(١) فى الجنوب الغربى من الشام .

فأخذوا يتناجون فى الامتناع عن دفع الزكاة التى ثقلت عليهم وعدوها كالإتاوة التى لا تطيب نفس العرب بدفعها ، ولم تلبث أن فشت هذه المقالة بينهم حتى أظهروا الامتناع وطردوا عمال الزكاة ، ولما انتهى الخبر إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه جمع الصحابة للشورى ، فاختلفوا فى هل يقاتل العرب على تركهم شيئاً من الدين كما لو قوتلوا عليه كله .

(قال الشهرستانى فى الملل والنحل) فقال قوم لا نقاتلهم قتال الكفرة ، وقال قوم بل نقاتلهم ، حتى قال أبو بكر : لو منعونى عقالا [1] ، مما أعطوا رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم عليه ، ومضى بنفسه إلى قتالهم ووافقه الصحابة بأسرهم ، وقد أدى اجتهاد عمر فى أيام خلافته إلى رد السبايا والأموال إليهم وإطلاق المحبوسين منهم .

وفى سياق حكاية إقرار الصحابة على قتال أهل الردة بيان كاف فى حقيقة تلك الردة التى قوتلوا عليها ، فقد نقل ابن شاكر فى عيون التواريخ أن أبا بكر لما جمع الصحابة للشورى فى قتال العرب يومئذ أشار عمر بعدم قتالهم ، فقال أبو بكر والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم على منعها ، فقال عمر كيف نقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ ، (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله [2] ، وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله) .

---

(١) فى مشكاة المصابيح نقلا عن النهاية — أراد بالعقال الحبل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى الصدقة لأن على صاحبها التسليم وإنما يقع القبض بالرباط وقيل أراد ما يساوى عقالا من حقوق الصدقة إذا أخذ المصدق أعيان الإبل قيل أخذ عقالا وإذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً اهـ . وقال المبرد فى الكامل إن المصدق إذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالا وإذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً .

(٢) هكذا فى الأصل ولم ترد فى هذه الرواية وإنما وردت فى رواية حتى يشهدوا أن لا إله الخ

فقال أبو بكر . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال وقد قال إلا بحقها . قال عمر رضى الله عنه فو الله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق اه .

وذكر العلامة أبو الحسين عروة الحنبلى فى رسالة البدع فى الجزء العشرين من كتاب الكواكب[1] أن قتال الصديق رضى الله تعالى عنه لأهل الردة إنما كان لمنعهم الزكاة فقط ، وأفاض فى هذا البحث مبيناً أن من ترك شيئاً من الدين يقاتل عليه كما لو قتل عليه كله ، والزكاة من الدين ، فاجتهاد أبى بكر أداه لقتال العرب عليها اه .

وفى حديث ابن مسعود الذى يقول فيه (وسيأتى بتمامه) فوالله مارضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية . فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار . دليل على أن الردة لم تكن ردة عن الإسلام إلى الشرك وإلا فما معنى إقرارهم على أن من قتل منهم فى النار ولو كانوا على الشرك فهم فى النار بالطبع أنكروا أو أقروا .

وإنما حمل العرب على منع الزكاة استثقالهم لها وعدها كالإتاوة بدليل ما رواه المؤرخون من أن عمرو بن العاص مر عند منصرفه من جيفر على بلاد بنى عامر ، فنزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم قدماً ويؤخر أخرى ، ومعه عسكر من بنى عامر فذبح له وأكرم مثواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال ياهذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم . وكان عمرو من

(١) هذا الكتاب موجود فى مكتبة دمشق الشام فى جامع الملك الظاهر وهناك اطلعت عليه وهى المكتبة التى عنى بجمعها من بقايا الكتب الموجودة فى المدارس القديمة المرحوم مدحت « باشا » لما أسندت إليه ولاية سورية سنة ١٢٩٥ وأحسن ما فيها هذا الكتاب والتاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر فى نيف وأربعين مجلداً .

صناديد قريش ودهاتها ، فلم يعبأ بقوله بل أظهر لديه من الشهامة والشمم فوق ما ينتظر منه حيث قال له . أكفرت ياقرة وتخوفنا بالعرب ، فو الله لأوطئن عليك الخيل فى حفش أمك والحفش بيت صغير ينفرد فيه النفساء ثم قام وذهب .

هذه حقيقة الردة فيمن لم يرتد حقيقة كمن شايع مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدى ، قد بسطناها ليكون القارىء منها على علم ، وهى وإن تكن بتلك المثابة إلا أنها كانت تدل على شر عظيم يلحق بالمسلمين لو استفحل أمرها واستهين بشأنها ولكن نهض لها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعزيمته الماضية . وحكمته السامية . فجزاء الله عن الإســـلام خير الجزاء .

قتال أهل الردة

اعلم أنه كما كان للمهاجرين والأنصار فضل وسابقة فى نصرة الإسلام ومظاهرة النبى عليه الصلاة والسلام حتى طامن بهم من إشراف من ناوأه . واستخذى من عاداه فلعامة قريش أيضاً مثل هذا الفضل بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، فإن قريشا استقبلت بصدورها حوادث الردة المريعة ونيرانها المتأججة ، وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة أو خاصة إلا ثقيفاً وقريشاً فاقتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والأنصار وثقيف وبعض الأحلاف ذلك الفجاج الذى يرتج بأهل الردة ارتجاجاً . وخاضت بخيلها من حروب القوم بحراً عجاجاً . وممن عقد له يومئذ من رجالات قريش خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن سعيد ، والمهاجر بن أبى أمية ، ولم يلبث أن أطفأ أبو بكر نيران الردة بأمثال هؤلاء الرجال حتى رمى برجال قريش

أيضاً جيوش القياصرة وجنود الأكاسرة ، وتابعه على ذلك عمر بن الخطاب فكان من قوادهما فى استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التى شيدت فيها صروح الإسلام ، وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام . خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعياض بن غنم ، وحبيب بن مسلمة الفهرى ، وسعد بن أبى وقاص ، وأضرابهم من صناديد قريش ورؤسائها . الذين ذللوا من الصعاب وقطعوا من العقاب ولاقوا من الأهوال ما لا يحلم بذكره الإنسان ، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان ، كما سترى بعد إلا أنه يؤخذ على بعضهم تساهلهم فى أمور الفتن العظمى حتى استشرى شرها ، وعظم على الأمة ضرها ، وهى شؤون وإن كانت تحدث فى كل قوم ، وتصاب بها الدول فى كل عصر ، إلا أن قريشاً كانت أولى فى مثل عصرها الذى نزل فيه القرآن باطراح أسباب التخاذل والمزاحمة . والأخذ بأسباب الحزم والتضافر . بعد إذ انتهت إليهم السيادة فى الإسلام كما انتهت فى الجاهلية ، ومع هذا فلا يسعنا إنكار فضلهم على المسلمين بخدمتهم للإسلام فى أيام الفتوح العظيمة ، وأما ماعدا هذا فلهم فيه شؤون ، ربما فاتهم فيها الحزم أو قام لهم فى مقامهم ذلك عذر ، وليست العصمة إلا لله وللرسول ، ولله فى خلقه شؤون .

نعود إلى ذكر قتال أهل الردة وذلك الموقف الحرج الذى وقف فيه المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول :

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه ، لولا أن الله من علينا بأبى بكر . أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم فوالله مارضى منهم إلا بالخطة

المخزية أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم فى النار ومن قتل منا فى الجنة ، وأن يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم وأن ما أخذوا منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم .

بلغ بعزيمة أبى بكر وعظيم رأيه بعد إذ رأى ما أصاب المسلمين من الغم أن آلى على نفسه ألا يدع العرب يقر لهم قرار إلا والسيف آخذ برقابهم ، والإسلام ضارب بينهم بجرانه ، وبينما هو يطاول فى الأمر انتظاراً لرجوع أسامة بجيش المسلمين ، أعجلته عبس وغطفان وأسد وطيء ، وكان بعضهم نازلا بذى القصة وبعضهم بالأبرق ، فأرسلوا إليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم خائبين ، فرجعوا وأخبروا القوم بقلة المسلمين وضعفهم ، وقد غرتهم كثرتهم وأعماهم الجهل عن أن مع المسلمين قوة الإيمان واليقين ، وفيهم من الصيد الصناديد وليوث الحرب الشجعان ، مثل عمر وعلى وطلحة والزبير الذين لا يفل لهم حد ولا يدرك لهم جد .

خشى أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود ، وأمرهم بملازمة المسجد خوف الغارة من العدو فما لبثوا ثلاثاً حتى طرق العدو المدينة غارة مع الليل ، وخلفوا بعضهم بذى حسى ليكونوا لهم ردءاً فوافوا ليلا الأنقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم ، وأرسلوا إلى أبى بكر فخرج بالمسلمين على النواضح ، فردوا العدو وأتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى[1] فخرج عليهم الردء بأنحاء قد نفخوها وفيها الحبال ثم دهدهوها[2] على الأرض ، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصرع أحد منهم .

---

(١) ذو القصة وذو حسى « أو ذوخشب على رواية البعض » أماكن قرب المدينة لجهة نجد وهى منازل القوم .

(٢) أى نفخوها والأنحاء هى القرب .

ثم خرج أبو بكر ليلا على تعبية فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد ، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الأدبار وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة . وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرن فى عدد ، ورجع إلى المدينة فطرقت المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس وقدم فى أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين ، فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم ثم خرج فيمن كان معه فقام إليه على والمسلمون وناشدوه الله ليقيم فأبى ، وقال والله لأواسينكم بنفسى وسار إلى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالأبرق فقاتل من به فهزمهم وغلب على بنى ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ، ثم رجع إلى المدينة فلما استراح أسامة وجنده وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم بادر أبو بكر إلى تسيير الجيوش إلى أهل الردة .

تسيير الجيوش إلى أهل الردة :

عقد أبو بكر لقتال أهل الردة أحد عشر لواء .

الأول : عقده لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فإذا فرغ سار مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له .

الثانى : لعكرمة بن أبى جهل القرشى ، وسيره إلى مسيلمة .

الثالث : للمهاجر بن أبى أمية المخزومى القرشى ، وأمره بجنود العنبسى فى اليمن ومعونة الأبناء على قيس بن مكشوح ، ثم يمضى إلى كندة بحضرموت

الرابع : لخالد بن سعيد بن العاص القرشى وبعثه إلى مشارف الشام .

الخامس: لعمرو بن العاص القرشى ، وأرسله إلى قضاعة .

السادس: لحذيفة بن محصن الغلفانى من حمير ، وأمره بأهل دبا .

السابع : لعرفجة بن هرثمة البارقى من الأزد ، وأمره بمهرة .

الثامن : لشرحبيل بن حسنة حليف بنى زهرة ، وأرسله فى إثر عكرمة ابن أبى جهل وإذا فرغ يلحق بقضاعة .

التاسع : لمعن بن حاجز السلمى ، وأمره ببنى سليم ومن معهم من هوازن.

العاشر : لسويد بن مقرن من أوس ، وأمره بتهامة باليمن .

الحادى عشر : للعلاء بن الحضرمى حليف بنى أمية ، ووجهه إلى البحرين.

لما سير ابو بكر هؤلاء الأمراء كتب لهم عهداً ستأتى صورته فى باب كتبه وخطبه ، وكتب لجميع المرتدين أيضاً كتاباً وسيره مع الرسل وستأتى صورته أيضاً .

— ٥ —

حروب الأمراء مع أهل الردة وأخبارهم

طليحة الأسدى :

هو طليحة بن خويلد الأسدى من بنى أسد بن خزيمة وكان قد تنبأ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر جمعه ومات النبى صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك ، فتبعه كثير من العرب عصبية لهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء ، ولما قصد مهاجمة المدينة أمد هذه القبائل بأخيه حبال ، فافترقوا فرقتين فرقة أقامت بالربذة وفرقة سارت إلى ذى القصة ، ثم أوفدوا وفداً إلى أبى بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك ، وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما تقدم قبل ، ولما سار أمراء المسلمين بالجيوش قصد خالد بن الوليد رضى الله عنه طليحة فهزمه وفرق جمعه ، وأسر منهم عيينة بن حصن الفزارى كما سيأتى تفصيل ذلك فى سيرة هذا البطل المغوار إن شاء الله .

ولما تفرق هذا الجمع أقبل فلالهم إلى امرأة اسمها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر ، كانت سبيت فى مدة الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لعائشة فأعتقتها فرجعت إلى قومها ، ولما اجتمع هذا الفل أمرتهم بالقتال فجاءها خالد ففل جمعها وقتلها .

تميم وسجاح :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون بنى تميم ستة أمراء ، وهم الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وصفوان بن صفوان ، وسبرة بن عمرو ، ووكيع بن مالك ، ومالك بن نويرة ، فلما وقع إليهم الخبر بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم سار صفوان بن صفوان إلى أبى بكر بصدقات بنى عمرو ، ووافى الزبرقان فأتبع صفوان بصدقات الرباب وهى ضبة بنت أد بن طابخة ، وعدى وتيم وعكل وثور بنو عبد مناة بن أد بصدقات عوف والأبناء وكلها من بطون تميم ، ومنها قيس ابن عاصم ومالك بن نويرة ، فأما قيس فندم ولما أظله العلاء بن الحضرمى أخرج الصدقات فتلقاه بها ثم خرج معه ، وأما مالك فتحير وتشاغلت تميم بعضها ببعض فقام من بقى على الإسلام فى وجه من ارتد ، وبينما هم على اختلافهم إذ جاءتهم من الجزيرة سجاح بنت الحرث بن سويد بن عقفان التميمية وكانت ورهطها فى أخوالها من بنى تغلب فى الجزيرة ، فادعت النبوة وجاءت تريد غزو أبى بكر فطلبت من مالك بن نويرة الموادعة فوادعها وردها عن غزو المدينة وحملها على غزو المسلمين من بنى تميم ، فجاءهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم ففروا أمامها ، أما هى فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباج قرية بالبادية ، فأغار عليها أوس بن خزيمة الهجيمى فى بنى عمرو من تميم وأسر بعض رجالها ، ثم تحاجزوا على أن يطلقوا أسراها وتطلق أسراهم وترجع فلا تجتاز عليهم ، فيئست بذلك من الذهاب إلى المدينة وانقلبت تريد اليمامة ، وجرى لها مع مسيلمة أمور لا محل لذكرها هنا ، ثم رجعت إلى

الجزيرة ولم تزل فى تغلب حتى نقلهم معاوية عام الجماعة وجاءت معهم وحسن إسلامها وإسلامهم .

مالك بن نويرة

ندم بنو تميم كلهم على ماصنعوا ، وتراجعوا إلى الإسلام وأدوا الصدقة إلا مالك بن نويرة فإنه بقى متردداً بين الأمرين ، واجتمع إليه قومه بالبطاح فسار إليه خالد بعد أن انتهى من أمر طليحة ، فلما علم مالك بمسيره إليه أمر قومه فتفرقوا فى المياه ، فبث خالد السرايا فى إثرهم فأتى بجماعة منهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم فقتلوا وسيأتى تفصيل هذا الخبر فى سيرة خالد بن الوليد .

مسيلمة وأهل اليمامة

كان مسيلمة ممن وفد مع قومه بنى حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما رجع ومن معه إلى منازلهم باليمامة ادعى مسيلمة النبوة وأنه أشرك مع محمد بالأمر ، واجتمع عليه بنو حنيفة وكانوا أربعين ألف مقاتل ، ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث أبو بكر البعوث عقد لعكرمة بن أبى جهل إلى اليمامة كما تقدم ، وأمده بشرحبيل بن حسنة فلم يتربص ريثما يصله المدد ، بل تعجل ليكون له الفضل خاصة وتقدم فواقع القوم فنكب ، فكتب إلى أبى بكر بالخبر فغضب عليه أبو بكر ، وكتب إليه لا أرينك ولا ترانى فتوهن الناس ، امض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة ، ثم تسير أنت وجندك تستبرئون الناس حتى تلقى مهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت .

وكتب إلى شرحبيل بالمقام إلى أن يأتيه المدد مع خالد بن الوليد ، فإذا فرغوا من مسيلمة تلحق بعمرو بن العاص تعينه على قضاعة . فلما رجع خالد من البطاح إلى أبى بكر واعتذر إليه عما صنع بمالك وقومه فقبل عذره ورضى عنه ، وجهه إلى مسيلمة وأوعب معه المهاجرين والأنصار وعلى الأنصار

ثابت بن قيس بن شماس . وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب .
وسار خالد للقاء مسيلمة فأمده أبو بكر بسليط ليكون رداء له لئلا يؤتى من خلفه ، فلما علم مسيلمة ومن معه بدنو جنود خالد خرجوا فعسكروا فى منتهى ريف اليمامة ، واستنفروا الناس فنفر إليهم عدد كثير .

تقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل، ولما كان على ليلة من معسكر بنى حنيفة التقى بسرية منهم راجعة من بلاد بنى تميم وعامر لإدراك ثأر لهم ، وعليهم مجاعة بن مرارة من سادات بنى حنيفة ، فأمر بهم خالد فقتلوا إلا مجاعة فإنه استبقاه لشرفه ، ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين فى مكان يدعى بعقرباء وجرى بينهم قتال شديد بيعت فيه الأرواح بيع السماح وأصيب المسلمون بناس من ذوى البصائر والشرف ، وانتهى الأمر بقتل مسيلمة وانهزام بنى حنيفة ، وسيأتى هذا الخبر مفصلا فى سيرة خالد بن الوليد إن شاء الله تعالى ، فإن هذا الموطن من مواطنه العظيمة فى حروب الردة .

ردة أهل البحرين

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته وأسلموا ، فأمر عليهم المنذر بن ساوى فلما توفى عليه الصلاة والسلام كان المنذر مريضاً فتوفى عقبه فارتد أهل البحرين، فأما بكر فتمت على ردتها، وأما عبد القيس فراجعت الإسلام بهمة الشهم الجليل الجارود بن المعلى العبدى ، وكان جاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام وتفقه فى الدين وامتلأ قلبه بنور اليقين ، وعاد إلى قومه عبد القيس فكان فيهم إلى حين الردة فجمعهم لما قالوا لو كان محمد نبياً لم يمت ، وقال لهم : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى . قالوا نعم . قال فما فعلوا قالوا ماتوا . قال فإن محمداً قد مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فأسلموا وثبتوا على إسلامهم .
هكذا تسعد الأمم بواحد وتشقى بآخر ، وليس بين الشقاء والسعادة

إلا عقبة لا يقطعها إلا المخفون من الشهوات ، الغالبون على هوى النفس ، المالكون للإرادة التى لا سلطان عليها من الشهوات ، ولا قائد لها من التقليد ، وإنما هى مطلقة فى عالم الحس تتناول منه ما طاب وتنبذ ما خبث .

فكما منى الإسلام بناس من المعطلين الذين ران الهوى على قلوبهم ، واستحكمت عادة الضلال والإضلال فى نفوسهم ، فأثاروا ثائرة الفتنة ، وأبوا إلا الاسترسال فيما وجدوا عليه آباءهم من الضلال ؛ فقد رزق ناساً على العكس من هؤلاء قد غلبت إرادتهم على الهوى ، واستنارت بصائرهم بنور الهدى . فكانوا للحق أنصاراً ، وللإسلام أعواناً ، وفيمن كان من هؤلاء فى أهل الردة فاهتدى به قومه وسعدت بالتمسك بعرى الإسلام عشيرته ، فكانت عوناً للمسلمين على المرتدين ، هذا الشهم أى الجارود بن المعلى العبدى ، وصفوان بن صفوان التميمى ، وعدى بن حاتم الطائى وأمثالهم من أهل البصيرة والرأى ، الذين أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدين ، ويكونوا عوناً للمسلمين ، لتعلو كلمة هذا الدين ، ولو كره المشركون .

لما اجتمع إلى الجارود قومه من المسلمين ، واستمروا على الإسلام خرج إليه الحطم بن ضبيعة من بكر بن وائل ، ومعه جمع عظيم من المشركين والمرتدين ، ليستبيحوا حماه وينتقموا على زعمهم ممن جاراه ، فنزلوا على القطيف وهجر وحصروا أصحاب الجارود ، فأرسل أبو بكر كما تقدم العلاء ابن الحضرمى لأهل البحرين ، فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفى ، فى مسلمة بنى حنيفة وقيس بن عاصم المنقرى فى قومه ، وأتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى إذا كان فى بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول فى الليل ، فنفرت إبلهم بأحمالها فما بقى عندهم بعير ولا زاد ولا ماء ، فلحقهم من الغم ما لا يعلمه إلا الله ، ووصى بعضهم بعضاً فدعاهم العلاء فاجتمعوا إليه فقال ، ما هذا الذى غلب عليكم من الغم ؟ فقالوا كيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك .

حقاً إنه لموقف يروع القلوب ، ويستدعى اليأس من الحياة . إبل نافرة بالزاد والماء ، وصحراء رملية تتلظى تلظى الرمضاء ، منقطعة عن العمران لا يعهد فيها الماء ولا يقطعها إلا المزود بالكفاية توسطها المسلمون وهم لا زاد لديهم ، ولا ماء يبل صداهم ، فماذا يصنعون ؟

رحماك اللهم فإن العلاء آلى ألا تهلك هذه العصابة المسلمة فى مثل هذه الدهناء ، مادام فى سبيل الله سعيها ، وإلى نصرة الحق قصدها ، فقال لهم : لن تراعوا أنتم المسلمون وفى سبيل الله وأنصار الله ، فأبشروا فوالله ان تخذلوا : فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه ، فلمع لهم الماء فمشوا إليه وشربوا واغتسلوا ، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تجمع من كل وجه ، فأناخت إليهم فسقوها .

فكأن الله سبحانه وتعالى امتحن بهذه النازلة قلوباً لم يتمكن منها اليقين ، وأسعفهم بعد الشدة برحمته ، ليوقنوا أنه لا يتخلى عن عباده المخلصين .

ثم أرسل العلاء إلى الجارود يأمره أن ينزل بالحطم مما يليه ، وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلى هجر ، فاجتمع المشركون إلى الحطم إلا أهل دارين ، واجتمع المسلمون إلى العلاء وخندق كل نفسه ، وكانوا يتراوحون القتال ، فإذا أمسوا رجع كل إلى خندقه ، حتى إذا كان ليلة سمع المسلمون ضوضاء من ناحية المشركين ، فأرسل العلاء من يستعلم الخبر ، فجاء بأنهم سكارى فبيتهم المسلمون شر بيات ووضعوا فيهم السيف كيف شاءوا حتى هربوا وهم بين مقتول ومأسور وقتل زعيمهم الحطم ، ثم قصد فلُّهم جزيرة دارين فى الخليج الفارسى ، وعبروا إليها فى السفن فعبر خلفهم المسلمون وقاتلوهم هناك فظفروا بهم ، وتم النصر للمؤمنين فكتب العلاء إلى أبى بكر بالفتح .

عمان ومهرة :

لما أسلم أهل عمان فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولى عليهم الأخوين جيفراً وعياداً ابنى الجلندى ، وكان قد نبغ فى عمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى ، وكان يسمى فى الجاهلية الجلندى ، وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ وغلب على عمان مرتداً ، فتبعه كثير من أهلها نخافه ابنا الجلندى فعاذ بالجبال وبعث جيفر إلى أبى بكر فبعث إليه حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة كما تقدم الخبر عن هذا ، وأرسل فى أثرهما عكرمة بن أبى جهل بعد هزيمته فى اليمامة ، فلحقهما قبل أن يصلا عمان ، فلما قاربوها كاتبوا جيفراً فأتاهم وعسكروا بصحار عاصمة عمان ، أما لقيط فإنه جمع جموعه وعسكر بدبا ، فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا شديدا كاد المسلمون ينهزمون فيه ، لولا أن الله من عليهم بمدد عظيم من بنى ناجية ، وعليهم الخريت بن راشد ، ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان وغيرهم ، فاستظهروا بهم وهزموا المشركين ، ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا إلى أبى بكر بالخمس مع عرفجة وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس .

وأما مهرة فإن عكرمة بن أبى جهل سار إليهم ، لما فرغ من عمان ومعه جمع من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد ، فاقتحم بلادهم فوافق بها جمعين من مهرة مختلفين ، أحدهما مع سخريت رجل منهم ، والثانى مع المصبح أحد بنى محارب ، ومعظم الناس معه فالتمس عكرمة الحيلة بأن كاتب سخريتاً فأجابه وأسلم وكاتب المصبح يدعوه فلم يجب ، فرأى أن يمحو ما لحقه من غضب أبى بكر لانهزام جيشه فى حرب مسيلمة ، فقاتل المرتدين قتالا شديداً فانهزموا ، وقتل رئيسهم وأصاب المسلمون ما شاءوا من الغنائم ، فبعث عكرمة بالأخماس إلى أبى بكر مع سخريت ، وأقام هناك يدبر الأمور ويدعو الناس إلى الإسلام ، حتى اجتمع الناس على ما يحب وضرب الإسلام بجرانه .

ردة اليمن :

لما فتحت اليمن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليها باذان الفارسى ، الذى كان عاملا للأكاسرة على اليمن ، ثم دان بالإسلام وكان مقره صنعاء ، فلما مات قسم النبى صلى الله عليه وسلم عمله على ولده شهر ونفر من الصحابة . منهم أبو موسى الأشعرى وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم ، فثار عليهم رجل من عنس اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار وشهرته الأسود ، فادعى النبوة فأجابه بعض العرب ، ثم جرت معه أمور يطول ذكرها انتهت بقتله ، وأقام أصحاب الأسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون إلى أحد وتراجع عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أعمالهم وبعثوا إلى المدينة بالخبر ، وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المنهزمين من جنود الأسود فاجتمعوا إليه ، وأراد أن يحتال فى قتل كبار الأبناء (وهم جماعة أصلهم من فارس واستوطنوا اليمن وهم الذين قتلوا الأسود العنسى) فهيأ لهم طعاماً ودعاهم إليه فظفر بواحد منهم وهو داذويه ، ونجا الباقون وهما اثنان فيروز وخشنش [1] فطلبهما فامتنعا بقبيلة خولان ، فرجع قيس إلى صنعاء فاستأثر بها وعمد إلى عيالات الأبناء فغرّبهم وأخرجهم ، فلما علم بذلك فيروز استمد بنى عقيل ابن ربيعة وعك فساروا واستخلصوا عيالات الأبناء التى سيرها قيس ، وقتلوا من معها من الرجال ، ثم انصرفوا إلى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزمهم ، وفى غضون ذلك أتاهم المهاجر بن أبى أمية الذى عقد له أبو بكر لواء وسيره لقتال جنود العنسى ومعاونة الأبناء ، وجاء على أثره عكرمة ابن أبى جهل بعد أن انتهى من عمان ومهرة فساعدا الأبناء على قتال جنود

---

(١) وفى تاريخ الطبرى جشيش .

قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا وأسر قيس وعمرو بن معد يكرب الزبيدى الذى كان ارتد واتبع الأسود فسيرا معهما إلى أبى بكر .

كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يتألف القلوب بالأناة ولا يتعجل بالعقوبة، فلما وصل إليه قيس أنبه على ما فعل ، فأنكر أن يكون قارف من أمر داذويه شيئاً ، ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله له ، لأن القتل كان خلسة فتجافى له عن دمه وتجاوز له عن سوء عمله . وقال لعمرو بن معديكرب أما تستحى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور[1] لو نصرت هذا الدين لرفعك الله . فقال لا جرم لأقبلن ولا أعود . ورجعا إلى عشائرهما مؤمنين ، وكان لعمرو بن معديكرب البلاء الحسن فى فتوح نهاوند بعد ، وفيها استشهد على ما سترى .

كندة وحضرموت :

كان زياد بن لبيد الأنصارى عاملا على كندة وحضرموت، بالنيابة عن المهاجر بن أبى أمية الذى تولى هذا العمل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما تأخر بالمدينة بسبب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم استخلف على عمله زياداً ، وكان قد ولى صدقات بنى عمرو بن معاوية من كندة بنفسه ،فقدم عليهم فوقع بينه وبينهم خلاف على بكرة وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً ، فطلبوا إليه استبدالها بغيرها فأبى، وأغلظ على شيطان بن حجر وأخيه العداء، فاستغاثا بحارثه بن سراقة بن معديكرب ، فأقبل إلى زياد وحل عقال الناقة ، وبعثها وقام دونها فأمر زياد شبابا من حضرموت والسكون فمنعوه وكتفوه وكتفوا أصحابه، وأخذوا البكرة وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة

(٢) كان عمرو قد انهزم من خالد بن سعيد بن العاص فى أول ردته وأخذ منه خالد سيفه الصمصامة ولم يزل عنده حتى استشهد بالشام فصار الى بنى العاص ثم الى بنى أمية ثم الى بنى العاص الى عهد الواثق حيث أمر بدفعه الى صيقلى ليسقيه فتغير ،

وأظهروا أمرهم، وغضبت حضرموت والسكون لزياد وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء، ولم تحدث معاوية شيئاً خوفاً على أسراهم ولم يجد أصحاب زياد سبيلا يتعلقون به عليهم ، وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا ، ونهد إليهم ليلا فقتل منهم وتفرقوا .

لما تفرق القوم اطمأن زياد من جهتهم ، فأطلق حارثة ومن معه ولم يتربص ريثما يصل إليه المهاجر بجيشه ليأمن غدرهم ، فلما رجع الأسرى إلى أصحابهم حرضوهم على زياد ومن معه ، واجتمع منهم عسكر ونادوا بمنع الصدقة . ومن هذا يعلم أن كندة آخر من منع الصدقة بعد ردتهم الأولى مع الأسود العنسى ، وإنما ألجأهم إلى ما فعلوا الآن ما وقع بينهم وبين زياد من الخلاف .

اجتمع الملوك الأربعة منهم ونزلوا المحاجر ، وهى أحماء حموها ونزلت بنو الحرث بن معاوية محاجرها ، فنزل الأشعث بن قيس محجراً ، والسمط ابن الأسود محجراً ، وأطبقت بنو معاوية على منع الصدقة إلا الشهم الهمام شرحبيل بن السمط وابنه، فإنهما قالا لبنى معاوية .إنه لقبيح بالأحرار التنقل، إن الكرام ليلزمون الشبه فيتكرمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار ، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل إلى القبيح ، ومن الحق إلى الباطل اللهم إنا لا نمالىء قومنا على ذلك .

فلله ما أسمى هذه النفوس وأشرف هذه الشيم وأعلى هذه المدارك ! وإنما ساد المسلمون لا بكثرة ، وغلبوا على من غلبوا من الأمم لا بقوة عدد وعديد ، وإنما هو برجال مثل هذين لم تضعف فى مواطن الشدة قلوبهم ، ولم تلفتهم عن الحق رغبة بأهل أو وطن أو رهبة من عدو ذى شوكة ، فاللهم ارزق المسلمين الآن أمثال أولئك الرجال وغير حالهم الذى انتهوا إليه بأحسن حال ، إنك مجيب السؤال .

قال شرحبيل وابنه لقومهما ما قالا ،ثم انتقلا إلى المسلمين ومعهما امرؤ

القيس بن حابس ، وكان من حسن رأيهما وعظيم فضلهما وبعد نظرهما أن أشارا على زياد ببيات القوم ، وقالا له إن أقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا إليهم ، وكذلك شداد من حضرموت ، فإن لم تفعل خشينا أن تتفرق الناس عنا إليهم ،فاستحسن رأيهما وأجابهما إلى تبييت القوم فطرقوهم في محاجرهم وجاءوهم من خمسة أوجه وهم جلوس مكبون على نيرانهم ،فقتلوا الملوك الأربعة ، وقد كان لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركتهم لعنته ، وفر من قومهم من نجا من القتل ، وعاد زياد بن لبيد بالسبي واجتاز بالأشعث بن قيس فثار في قومه واستنقذهم ، وجمع الجموع فكتب زياد إلى المهاجر بن أبي أمية يستحثه ، فلقيه الكتاب في الطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل في سرعان الناس،وقدم على زياد وسار إلى كندة فالتقوا بمحجر الزبرقان ، فاقتتلوا فانهزمت كندة وخرجوا هراباً إلى ملجأ لهم يسمى النجير وقد رموه وأصلحوه وسار المهاجر فنزل عليهم وتحصنت كندة بالنجير فحصرهم المسلمون ، وقدم عكرمة فاشتد الحصار على كندة وتفرقت السرايا في طلبهم فذلوا وخشعوا وخاف من بالنجير من الأمراء على نفوسهم ، فخرج الأشعث مع تسعة نفر فطلبوا من زياد أن يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا لهم الباب فأجابهم إلى ذلك وقال اكتبوا ماشئتم ثم هلموا بالكتاب حتى أختمه ففعلوا ، ونسى الأشعث نفسه فأخذوا وأرسل مع السبي إلى أبي بكر .

لما قدم الأشعث المدينة أنبه أبو بكر وشدد عليه النكير ، فلما خشي القتل قال أو تحتسب في فتطلق إسارى وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل مافعلت بأمثالي وترد على زوجتي ،(وقد كان خطب أمه فروة أخت أبي بكر فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم أخرها أن يقدم الثانية) فإن فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله ، فحقن أبو بكر دمه ورد عليه أهله ،وأقام بالمدينة حتى فتح العراق وكان له شأن ربما يمر معنا ذكره .

كلمة فى حروب الردة :

انتهت حروب الردة على ما رأيت . وثاب العرب إلى السكون بعد أن علموا أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، وأن المسلمين قوم نصروا الله والحق فنصرهم الله على أعدائهم ومكن لهم السلطان فى الأرض .

لو علم العرب ما أعد لهم بوساطة الإسلام من سعادة الدنيا والآخرة ، وكشف لهم الغطاء عن ذلك الملك العظيم ، الذى سيؤول إليهم ، والسلطان العميم الذى سيصبح بأيديهم لما لعبت الأهواء برءوسهم ، وأخذت الجاهلية الأولى بمجامع نفوسهم ، ولكن هو الدين دأبه أن يلقى من الناس عناداً ، ومن العقول القاصرة إعراضاً . حتى يتبين لها أنه الحق فترضاه ، وأنه سبيل الهدى والسعادة فتقصد إليه وتتوخاه .

تبين معنا من أخبار الردة أمور جديرة بالاعتبار حرية بإمعان النظر لانحب أن يفوتنا النظر إليها وبيان مايستنتج منها وهى :

١ — أن المرتدين منهم من توقف عن أداء الزكاة فقط وهم عامة العرب ، ومنهم من ارتد فعلا وهم بعض القبائل التى قام فيها المتنبئون الأربعة .

٢ — ظهور دعوى النبوة بين العرب ، حتى ادعاها أربعة رجال وامرأة من عهد الرسالة إلى نهاية أيام الردة وهم الأسود العنسى فى اليمن ، وطليحة فى أسد ، وغطفان ومسيلمة فى بنى حنيفة ، وسجاح فى أخوالها من بنى بكر ورهطها من بنى تميم ، ولقيط بن زرارة فى عمان .

٣ — انقسام معظم العرب فى حروب الردة ، فبعضهم للإسلام وبعضهم عليه .

٤ — سرعة التوفيق فى إنهاء حروب الردة .

٥ — مصاحبة النصر للمسلمين فى كل وقائعهم .

فأما الأمر الأول فهو يؤيد ما تقدم معنا فى مقدمة الكلام على الردة ،

من أنها ليست على إطلاقها وإنما هو اجتهاد من أبى بكر رضى الله تعالى عنه خالفه فيه كثير من الصحابة ، ثم لما رأوا أن المصلحة تؤيد وقتئذ ماذهب إليه أبو بكر وافقوه على مارتآه ، ومع هذا فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ورأى أن هذه المصلحة زالت بزوال أسبابها ، وأن بقاء من أسر من المرتدين فى حالة الرق ، مع أنهم لم يكونوا ممن يجوز عليهم الرق عار على العرب محظور فى الإسلام قال : إنه لقبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً ، وقد وسع الله وفتح الأعاجم ، فاستشار الصحابة فى فداء سبايا العرب ، ثم وضع الفداء ورد السبايا .

وأما الأمر الثانى وهو فشو دعوى النبوة بين العرب ، فهو عندى معجزة من معجزات النبوة ، وقد حملها بعضهم على ترقى أفكار العرب قبيل ظهور الإسلام ولا دليل لهم على ذلك ، وإنما هو الغرض يثير بالنفوس ثائرة البغضاء ، ويستل من بين الجوانح روح الحق ، فيعمى البصائر ويكشف ماتكنه من ذلك السرائر ، وإلا فأى باحث فى التاريخ طلاب للحقيقة يقول إن فشو دعوى النبوة يومئذ منشؤه ترقى أفكار العرب ، مع أن هذه الدعوى إنما فشت بعد ظهور الإسلام وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام لاقبل ظهوره ، وإذا ادعاها واحد واثنان قبل البعثة فلأن بعض الحكماء منهم كانوا يعلمون ببعثة نبى فى العرب بشرت به الكتب السابقة فكانوا يترقبونها لأنفسهم ، وأما عامة العرب فقد كانوا كالصم البكم مستغرقين فى عبادة الأوثان ، لا يعرفون معنى الرسالة ولا يسمعون باسم النبوة إلا أهل الكتاب منهم كطيء مثلا ، وهم أول من خذل مسيلمة ، وكان للإســـلام نصيراً ، وللموحدين ظهيراً .

والحقيقة التى يشهد بها التاريخ ويؤيدها العقل ، أن دعوى النبوة إنما ظهرت فى العرب بعد الإسلام حسداً للرسول عليه الصلاة والسلام ، وطلباً

للرياسة ، وظناً من القائمين بهذه الدعوى أن مجرد الاعتصام بالقوة وجمع الجموع يكفي لتأييد دعوى النبوة ، ثم التذرع بها للقبض على زمام السيادة مجاراة للرسول على زعمهم ، وحسب العاقل أن يفرق بين النبوة وبين التنبؤ بما اقترن بهاتين من الحوادث يومئذ،ومنها أن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام ظل عشرين سنة يدعو إلى الإسلام،ومات ولم يجمع لديه من المقاتلة ما اجتمع في بضعة أشهر لمسيلمة ، الذى كان جيشه الذى قاتل به خالد بن الوليد أربعين ألفاً باتفاق المؤرخين ،ومع هذه فقد سحق هو ودعواه وجيشه بصدمة واحدة من صدمات الإسلام ، كما سحق غيره من المتنبئين الذين حشدوا الجيوش ، وأعدوا العدة لمكافحة الإسلام ، فصدمهم بقوة رجاله القليلين وأرداهم . ومحاهم من الوجود فى أقل من سنة ودعواهم .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ظلت العرب تناصبه العداوة ، وتنازله ومن تبعه فى ساحة القتال مدة رسالته كلها ، ومع هذا فقد كانت كلمته هى العليا والمسلمون على قلتهم هم الظافرون . فلم هذا ؟

لأنه صلى الله عليه وسلم كان مؤيداً بمدد النبوة الصحيحة،والفيض الإلهى العظيم ، الذى لا تغنى عنه الجيوش الكثيفة ، ولا يقوم مقامه ترقى الأفكار ولو أنصف أولئك الناس ، وأنعموا النظر فى كثرة المتنبئين فى عهد الرسالة، وكثرة ما حشدوا وجندوا لتأييد دعواهم ، ثم انطفاء نارهم وانسحاق جندهم وانمحاق دعوتهم ، فى تلك المدة القليلة واستمرار قوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم نامية مهيبة ، ودعوته قائمة منتشرة ، وأتباعه فى ازدياد ، حتى بلغوا إلى هذا العهد سدس البشر وضرب الإسلام بجرانه فى معظم أنحاء الأرض، لعدوا هذا كله معجزة من معجزات النبوة ، أراد الله بيانها للناس ليؤيد بها رسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام،ويظهر الباطل فى جانب الحق ليميز بين الاثنين. ويعلم المعاند أن محمداً نبي الله حقاً بلامين . ولكن ما الحيلة (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

وأما الأمر الثالث وهو انقسام العرب فى حروب الردة بين منتصر للإسلام ، وقائم عليه ، فهو من لطف الله تعالى الذى أراد به تأييد جانب المسلمين . وتعجيل الفتح المبين . وفيه دليل على أن الناس إنما يصلحون بالرؤساء ويفسدون كذلك لأنهم لرؤسائهم تبع ولزعماء السيطرة عليهم مقلدون فإن كلمة من عدى بن حاتم الطائى مثلا كفت لانحياز أنجاد طىء وفرسانها لجانب المسلمين ، وقتالهم فى صفوف الموحدين ، فإن عدياً لما كان شهماً يأبى النقيصة وقد سبق منه الإيمان بدين الله القويم . وتوكيد العهد على مظاهرة المسلمين . بادر إلى قومه لما انحازوا إلى طليحة الأسدى ونصحهم على الوفاء بالعهد . وعدم الخروج عن الإيمان فسمعوا له وأطاعوا . ولما أشار به انصاعوا حتى قيل يومئذ (كان عدى خير مولود فى طىء وأعظمه بركة عليهم) وذلك لتخلقهم بكريم أخلاقه . وتمسكهم بالإسلام اقتداء به . واتباعاً لنصيحته .

وكذلك ما كان من صفوان بن صفوان ، والزبرقان بن بدر ، فى قومهما من تميم ، حتى اقتدوا بهما وأطاعوا إشارتهما فقاموا فى وجه من ارتد من أحياء تميم . وانحازوا مع ذينك الشهمين إلى المسلمين .

وأما الأمر الرابع . وهو سرعة التوفيق بإنهاء حروب الردة . والأمر الخامس وهو مصاحبة النصر للمسلمين . فإنهما ولاريب من نتائج حسن اليقين عند المجاهدين ، وتجردهم لنصرة الإسلام تجرد من لايرى الحياة إلا بالموت ، ويرجو من ثواب الشهادة فى إعلاء كلمة المسلمين ، أكثر مما يرجو من متاع الدنيا ومكافأة المكافئين ، وحق لرجال باعوا نفوسهم فى سبيل الدين وإعزاز جانب إخوانهم الموحدين أن تدك أمامهم شوامخ الجبال ، لاصفوف الرجال ويستخذى لهم الملوك الكبار ، لا سكان القفار .

ولا ينكر ما لأبى بكر رضى الله تعالى عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة ، من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة فى أحشاء

بلاد العرب ، وجابوا أنحاءها القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالا ، وشطوط البحر الهندى جنوباً ، والعراق العربى وخليج فارس شرقا وشطوط البحر الأحمر ومضيق باب المندب غربا ، ولم تكن غيبتهم إلا كما يغيب المرتاد للمناجع ، ثم انقلبوا ظافرين ، وقد عمموا فى جزيرة العرب دعوة القرآن ، وجمعوا سكانها على كلمة الإيمان .

وقد نتج عن هذا كله أن وقعت هيبة الإسلام فى قلوب العرب ، وأيقنوا أنه الدين الحق الذى لا يفلح مناوئه ، ولا ينجح شانئه ، فأقبلوا بأجمعهم إليه وجمعوا كلمتهم المتفرقة عليه .

— ٦ —
فتوحات أبى بكر

تمهيد الفتح الإسلامى

رأى أبو بكر رضى الله تعالى عنه ألا يدع لبعض المنافقين الذين لا يروق لهم سمو شأن الإسلام وقتاً ، لدس سموم الفتنة فى جسم تلك الأمة العظيمة ، التى جمعتها كلمة الإسلام ، وأن يشغلهم مع الجيوش الإسلامية بالفتح تعميما للدعوة الإسلامية ، وبثاً لروح العدل والحرية بين الأمم ، فما هو إلا أن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفأوا على الأمم التى مزقت أحشاءها سيوف الأهواء والأوهام ، وقضى على مجدها القديم ظلم أرباب السيطرة على النفوس والأجسام ، فلم يلبث أن وافاها المسلمون يحملون لفريق أهل الكتاب منها (قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) ولفريق الصابئة ومن على نحلتهم من المشركين (الإسلام أو الجزية أو السيف[1]) حتى اشرأبت لعدل سلطانهم أعناق الناس . ودانت

(١) قاعدة الجهاد وبث الدعوة فى الإسلام هى ألا يقبل من مشركى العرب إلا الإسلام وأما أهل الكتاب فالإسلام ولمن أبوا فالجزية ، وهى ما يستعان به على إصلاح شأن الأمة .=

لدينهم الشعوب . وخضعت لسطوتهم الأمم فعمروا المسالك، وشادوا الممالك ومصروا الأمصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى، كما يأخذون على يد الظالم حتى يخذى .

أما والله لن تبلغ أمة بالظلم والقوة ، وكثرة العديد والعدة ، ما بلغه المسلمون فى ربع قرن من استخضاع الأمم بالعدل والإيغال فى أحشاء الممالك بدعوة القرآن فليمسك المتخرصون ، ولينصف الغربيون، فإن سلطان الظلم إذا أسرع بسيفه إلى الرقاب ، فلا سلطة له على النفوس ، وإنما تملك النفوس بالعدل ، وتلتف الناس على القائم بالقسطاس ، السائس بالرحمة ، الباسط بساط الحرية والأمن ، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الأخيار، وأنى يجاريهم ساسة الممالك فى هذا المضمار ، فجزاهم الله خير جزاء على ما تركوا من حسن الأثر للمسلمين ، وبئس من غلبتهم الشهوات بعد فغيروا وبدلوا فكانوا من الخاسرين ، وقذفوا بالأمة من حالق مجدها إلى وهدة الذل المهين .

أجل إن أكثر ما فتح أولئك الفاتحون البواسل بالعدل لا بالسيف ، وبنصفة المغلوبين لهم لا بالحيف ، ولما ثقلت على الأمم القديمة وطأة الاستعباد ، واستحكمت نفوس ساستهم شكيمة الظلم والاستبداد ، تلقوا المسلمين فى الظاهر بالحرب ، وفى الباطن بالمسرة والحب ، ولا يسع المغلوب

= وإن أبوا فالسيف أى الحرب ، وهى منتهى درجات الدعوة ، وإنما كانت الحرب مصاحبة للدعوة لحمايتها كما يفعل الآن وقبل الآن دول الإفرنج فى حماية المبشرين بالأساطيل والجند والعدة والعديد .

وقد اختلف فى المشركين من غير العرب ، أى المجوس هل يحاربون على الإسلام أو الجزية أم على الإسلام فقط ، والمشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم قبل من المجوس من أهل هجر الجزية ، وأما العرب فلن يقبل منهم إلا الإسلام ، وبهم نزل كثير من آيات الجهاد ، ومن ثم تعلم خطأ القائلين بقيام الإسلام بين الأمم بالإكراه وهو لم يقم إلا بالدعوة كما فصلنا ذلك فى رسالتنا المسماة كيفية انتشار الأديان تفصيلا شافياً .

على أمره من مستبد قاهر إلا أن يساق بعصاه كما سيق المحاربون لأهل الإسلام، وهم مكروهون، ولأدالة دولتهم من العرب متمنون، وأى شاهد على هذا أعدل من التاريخ الذى ينطق عليهم بالحق ولا يقول إلا الصدق.

روى البلاذرى فى فتوح البلدان، أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود وقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها. وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود، وقالوا إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد.

واحزناه على ذلك العدل. قوم نشأوا فى مهد دولتهم ونشأت فى أحضانهم، ودانوا بدينها ودانت بدينهم، يغلقون فى وجهها الأبواب ويظاهرون عليها العدو ويقسمون على الوفاء للمسلمين ما بقى منهم عدد يقاوم دولتهم، وينكس أعلام سلطانهم. وهم ليسوا على دينهم، ولا من جنسهم، وهل مرقوا من الدين. وخافوا الدولة، وباعوا الوطن وماتت فيهم طواطف العزة.

كلا وإنما هو العدل العدل. العدل الذى جمع بين الأمير والمأمور والخادم والمخدوم والكبير والصغير فصيرهم فى شرعة الحق سواء وضمهم تحت راية الحرية والإخاء.

شىء شاهده أولئك القوم من العرب وشهدوه وذاقوا طعمه بعد أن لم يذوقوه، فحبب إليهم دولة المسلمين بعد إذ أصبحوا من حقيقتها على علم، وقالوا لهم لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم.

اللهم إنك إذا حببت بسلطان الأرض قوما فقد أذنت له ولهم بالسعادة وأنزلت عليهم من سماء رحمتك روح السكينة ، وأفرغت عليهم لباس الأمن ، وأردت له سعة السلطان ومكنت له في الأرض كما مكنت لأنصار دينك يومئذ سلطانهم ، وجعلت أعداءهم أعوانهم ، ومن استمسك بعروة كتابك الوثقى فإن رحمتك قريب منه ، وأنى يشتبه بأولئك غيرهم وأولئك قوم رضى الله عنهم ورضوا عنه .

من يصدق أن تلك القبائل البدوية التى نشأت على حب العصبية والتهالك على قتال بعضها بعضا ، والبعد عن معنى سياسة الأمم وحكم الشعوب ، والنفرة من مظاهر الحضارة ودواعى المدنية ، تنتهى إليها فى بضع سنين سياسة فارس والروم ورياسة آسيا وأفريقيا لو لم ينزل إليها القرآن وتستنير بشريعة سيد ولد عدنان .

لله ما أعظم فضل القرآن وما أسمى مقاصد الإسلام ؛ بالأمس كانت هذه القبائل مشهرة سيوفها على المسلمين ، والسمط بن الأسود الكندى والأشعث بن قيس فى محاجرهما بقومهما من كندة ، يضربون بالسيوف فى وجوه المسلمين ، واليوم أحدهما الأشعث فى العراق يخوض بقومه غمرات الموت ويقتحم صفوف الفرس ، وينادى يا للإسلام ، والثانى فى حمص يقسم منازلها على المسلمين ، وأهلها من ورائه يغلقون فى وجه دولتهم الأبواب ، ويدفعون عنه جند الروم إن هذا لمن العجب العجاب .

أصبح العرب بعد تلك الهمجية المعروفة من قادة السياسة والحرب وأفضل من ساس الأمم فبات المغلوبون لهم ، الخاضعون لسلطانهم من الروم أحرص الناس على حكمهم ، وأرغبهم فى شرعهم ، أفليس فى هذا كله ما يكف عن الإسلام ألسنة المخرصين ؟ ويشهد بأن الفتح الإسلامى كان خيراً وبركة على الناس أجمعين .

لو قدر المسلمون قدر هذه النعمة وحافظوا على سنن السلف من الصحابة ،

ولم يحد أمراؤهم عن صراط القرآن ، ويشاق بعضهم بعضاً بسيف الخذلان ، خدمة للأهواء وانقياداً لغلبة الشهوات لما ازداد المسلمون إلا مجداً ورقياً والإسلام إلا انتشاراً وتعمما ولكن هي الأخلاق إذا فسد جوهرها ، والأهواء إذا انفجرت ينابيعها صارت طوفانا إذا اندفع على البشر ، لا يبقى ولا يذر ، والنعم لا تدوم إلا بالشكر ، ولا تزول إلا بالكفران ، وحسبنا من هذا قوله تعالى فى القرآن (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

فتح العراق :

أول من حرك فى نفس أبى بكر رضى الله تعالى عنه أمر العراق ، هو البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيبانى ، من بكر بن وائل وهو ممن لم يتابع بكراً على ردتها ، وبقى هو وقومه على الإسلام وكان يغير على سواد العراق على رجال مع قومه فبلغ أبا بكر الصديق خبره فسأل عنه ، فقال له قيس بن عاصم سنان المنقرى . هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى .

والظاهر أن المثنى بمجاورته لبلاد فارس وتوالى غارته على أطراف ملكهم من جهة العراق خبر حالهم ووقف على أمورهم وعلم اضطراب حبل دولتهم فقدم على أبى بكر ورغب إليه أن يستعمله على من أسلم من قومه ليغزو بهم ، أطراف فارس ، وسهل لديه أمرهم ورغبه بغزوهم فكتب له أبو بكر فى ذلك عهداً ، وسار إلى بلاده ثم إن أبا بكر رأى أن المثنى وحده لا يقوم بالمهمة التى خالجت فؤاد أبى بكر ، وهى نشر راية الإسلام على أرجاء العراق ثم فارس فاستدعى إليه خالد بن الوليد المخزومى من اليمامة فى المحرم من سنة اثنتى عشرة للهجرة ، وأمره بالمسير إلى العراق وأن يبدأه من أسفله ، وكتب إلى عياض بن غنم الفاتح الشهير الذى كان على يده فتح الجزيرة ، وقسم من أرمينيا بعد وأمره أن يأتى العراق من أعلاه ، ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضاً

ألا يضرا بفلاحى العراق وأهل السواد ،حرصاً منه رضى الله تعالى عنه على منابع الثروة، وعلماً بأن العمران أمر لا تقوم بدونه الدولة . والفلاحة كما لا يخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك ، وإنما هى قائمة بالفلاح فهو أولى الناس برعاية السلطان وحراسته من أذى الجند ، فما أبعد هذه الهمة وما أسمى هذا النظر . يبعث بالجند ليثلوا عرش الملوك ويستخضعوا جبابرة الأقوام ، ويدكوا صروح أولى السيطرة الظالمين ، ثم يبث فيهم روح الرأفة بالفلاحين . والمحافظة على المستضعفين . ليزرع فى نفوسهم احترام حقوق أهل الفلح . الذين هم مصدر قوى الدولة ويرشدهم إلى مبلغ عناية أرباب السلطان بالطبقة العاملة منهم ، ليحفظوا عليهم مصدر قوتهم ومنبت قوتهم ، وليعلموا أن أولى الناس برعاية الأمير عامل يعمل بأرضه ، ويشتغل لقومه ولنفسه فيكونوا من العاملين .

وأوصاهما أيضاً ألا يغزون معهما أحد ممن ارتد ، وذلك لضعف ثقته رضى الله عنه بأهل الردة بعد ما ظهر منهم ماظهر من حرب المسلمين ، ولعله خشى من أن يكون فى قلوب بعضهم ضغن على المسلمين ، فيبثون فيهم روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح، وهو احتياط وحذر لا يعجب من صدورهما من مثل أبى بكر ، لبعد نظره فى العواقب وتأنيه فى الأمور ، ومع هذا فإن عمر رضى الله تعالى عنه لما رأى حاجة المسلمين إلى الجند أيام خلافته استنفر العرب للجهاد ، وأذن لعامتهم بالانضمام إلى جيوش الفتح ، وكان لزعماء الردة منهم كطلحة الأسدى وعمرو بن معد يكرب والسمط بن الأسود الكندى والأشعث بن قيس وأمثالهم البلاء الحسن فى فتوح الشام والعراق والإخلاص العظيم فى إعلاء كلمة الإسلام ، ومعظمهم استشهد فى أيام الفتوح وإنما قويت ثقة عمر رضى الله عنه بالعرب ؛ لاتساع الفتوح وامتداد سلطان الإسلام ولأن فى توالى الجهاد شاغلا لأهل الفتنة عن الفتنة . ولعل ما أصاب المسلمين

من بلاء التشيع والتحزب والانقسام فى خلافة عثمان رضى الله عنه وما بعده لما استقر أمر المسلمين فى فارس والروم وأخلدوا إلى الراحة من عناء الفتح ، كان لايخلو من أصابع كثير من أولئك الذين حذرهم أبو بكر . والله بالحقيقة عليم .

لما سار خالد إلى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف ، واستقبله المثنى ابن حارثة بثمانية آلاف ، وبعد مسيره أمده أبو بكر بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار . فقيل له أتمده برجل واحد . فقال لايهزم جيش فيهم مثل هذا . وكذلك أمد عياض بن غنم بعبد يغوث الحميرى ، وكتب إلى المثنى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة لخالد ، وكان مذعور بن عدى العجلى قد كتب إلى أبى بكر يعلمه حاله وحال قومه من الإسلام والطاعة وحب الجهاد ويستأذنه بقتال الفرس ، فأمره أن ينضم إلى خالد . وكذلك كان سويد بن قطبة الذهلى من بكر بن وائل يتربص فى البصرة مجىء خالد ليكون هو وقومه معه على قتال الفرس . فحيا الله هؤلاء الرجال الكرام . ورضى عن تلك النفوس الطاهرة . التى بيعت فى سبيل الإسلام وأخلصت النية لهذا الدين الذى هيأ الله لأهله أسباب النصر لما نصروه . وأعزهم لما أعزوه .

وقد اختلف المؤرخون فى أول بلد قصده خالد ، فقال بعضهم إنه سار إلى الأبلة (١) وقال الدينورى فى الأخبار الطوال إنه سار إلى الحيرة وإن فتح الأبلة كان فى عهد عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان . ولعلها انتقضت فأرسل عمر عتبة لإخضاع أهلها ، إذ المشهور أن خالداً بلغ الحفير والكواظم عند مصب الفرات ودجلة فى خليج العجم ، ثم عاد إلى الأبلة ففتحها عنوة

---

(١) قال الدينورى فى الأخبار الطوال « الموجود منه نسخة فى المكتبة الخديوية طبع ليدن » لم يكن موضع البصرة يومئذ إلا الخريبة وكانت الأبلة مرفى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين اه .

وخلف عليها سويد بن قطبة وقال له . قد عركنا هذه الأعاجم بناحيتك عركة أذلتهم لك . ثم أتى الخريبة وكانت مكان البصرة الآن وهى منازل خربة بها مسالح لكسرى تمنع العرب من العيث فطردهم منها ، واستخلف فيها عامر بن فين من بنى سعد بن بكر من بنى هوازن ، ثم تتبع شط الفرات فجاء بأنقيا وباروسما وآليس فصالحه أهلها على مال معلوم وعلى أن يكون أهل آليس عيوناً له ، ثم سار إلى الحيرة فناوش أهلها الحرب فخرج إليه إياس ابن قبيصة الطائى من أشراف الحيرة ، وكانوا من أهل الكتاب فدعاهم (إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب) فقال له إياس مالنا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطى الجزية فصالحهم على الجزية ، واختلفوا فى مقدارها فقال بعضهم إنها كانت تسعين ألفاً وقال بعضهم مائة ألف ، وروى البلاذرى أن أهل الحيرة كانوا ستة آلاف رجل فألزم كل رجل منهم أربعة عشر درهما وزن خمسة فبلغ ذلك أربعة وثمانين ألفاً تكون ستين وزن سبعة . وروى الطبرى أنها كانت مائة وتسعين ألفاً ويؤيده ماجاء فى كتاب عهد خالد لأهل الحيرة على ما سترى .

وأهدى أهل الحيرة هدايا إلى خالد على عادتهم مع الفرس ، فبعث بها مع خبر الفتح وما اجتمع لديه من الفيء إلى أبى بكر ، فقبل الهدايا وعدها لأهل الحيرة من الجزية تعففاً عما لم يأذن به الشرع ، وقطعاً لدابر العادات الأعجمية التى كان يحتال بها على سلب أموال الناس .

هذا أول فتح بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فتحه أبو بكر خارج جزيرة العرب ، وقد رأيت أنه لم ترق فيه نقطة من الدم فى غير الأبلة ، وفيه دليل على ارتياح أهل البلاد إلى حكم المسلمين ومللهم من ظلم الفرس وتوقعهم لاضطراب حبل دولتهم وزوال ملكهم ، وإنما قوبل خالد بعد هذا بالحرب لدماء أصابها من النمر وتغلب وإياد وغيرهم من نصارى العرب الذين امتنعوا عليه ثم استجاشوا جيوش الفرس طلباً للثأر .

ثم إن خالداً بعد أن استخضع أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التى كانت تحكم العراق من قبل الأكاسرة وقاعدتها الحيرة ،أخذ يتمم فتح العراق العربى فسار مصعداً جنوباً فافتتح الأنبار الواقعة شرقى الفرات وبادقلى وعين النمر وقطربل الواقعة شرقى دجلة ، ولما وصل إلى دومة الجندل التقى بعياض ابن غنم فجاءها عياض من أعلاها وخالد من أسفلها فافتتحاها عنوة . وكانت آخر حروب خالد فى الفرات التى هى آخر تخوم العراق مما يلى الشام والجزيرة وكان كلما فتح فتحاً وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمس إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه مع خبر الفتح ، حتى قال فيه أبو بكر (عجزت النساء أن يلدن مثل خالد) .

وسيأتى معنا بعض الكلام على حروب خالد فى العراق فى سيرته ، ونورد كتبه التى كتبها إلى الفرس بعد فتح العراق وجغرافية البلاد التى افتتحها إن شاء الله .

انصرف خالد بعد وقعة الفرات إلى الشام ، واستخلف المثنى بن حارثة الشيبانى على جند العراق ، فأقام فى الحيرة يرتب المقاتلة ويذكى العيون وكان ملك فارس يومئذ شهريران بن أزدشير ،فظن أن غياب خالد ربما يوهن جانب المسلمين ، فجهز جيشاً عظيما بقيادة قائد يسمى هرمز فلاقاه المثنى فى بابل شرقى الفرات والتحمت هناك الحرب بين المسلمين والفرس ، وكانت حرباً شديدة انجلت عن هزيمة جنود الفرس ومات عقبها شهريران ملك فارس ، فعاد الاضطراب فى المملكة إلى ما كان عليه ، واختلف الفرس فيمن يولونه أمر الملك اختلافاً يؤذن بإزالة دولتهم من المسلمين وينذر بالانحلال العاجل الذى يصيب الممالك عند بلوغها منتهى درجات الترف والنعيم واشتغالها بالسفاسف والأوهام دون الجد والحزم . (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) .

— ٧ —

فتوح الشام

تمهيد :

لما انتهى فتح العراق العربى وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم فى تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدخرون بها معدات القوة للإجهاز على ممالك الفرس ، ورأى أبو بكر أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده الذى وعد المؤمنين ، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) انصرفت همته إلى الشام التى هى مركز التجارة بين الشرق والغرب ، ومدخر الخيرات التى أعدها الله للمسلمين .

كانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم تبعية أشبه بالاسمية، وكان سلطان الروم هناك فى تقلص ، ونفوذهم فى اضمحلال، ومعظم ولاية الشام فى أيدى العرب وإليهم ترجع الإمارة ، وعلى الملوك من بنى غسان حراسة البلاد ، ولم يكن القيصر فى باطن الأمر على أهل الشام سوى الإتاوة والنفوذ والسلطان إنما كان العرب الذين كانوا لا يميلون إلى الروم ويودون إجلاءهم إلى حيث نبت بهم بقاع الغرب لما كانوا عليه من الظلم الذى يصاحب غالباً أواخر الدول الفاتحة الغريبة من البلاد المخالفة لها فى الجنس والعادة ، فلهذا ولأن الشام فى الحقيقة أشبه بجزء طبيعى من جزيرة العرب كانت الأسباب متوفرة لضم هذه البلاد إلى سلطان المسلمين ، وطرد ذلك الفاتح الغريب العابث بنظام العدل المتعدى على حقوق الملك الطبيعى والاستقرار الثابت للعرب ، يضاف إلى هذا أن انضواء الأمة العربية إلى لواء الإسلام واجتماعها على كلمة الأيمان أمر لا مندوحة عنه يومئذ بحكم الوحدة فى الجنس واللغة التى تقضى بوحدة الدين والسلطان .

وأنت ترى أن الشام بهذه المثابة كحق طبيعى للمسلمين ، وهى لما حكمت

بالاسلام إنما حكمت بالعرب أرباب هذا الحق وأصحاب البلاد لحكمين حكم الجوار واللغة وإن لم تكن عامة ، وحكم الجنسية الشرقية والشرقى أولى بالشرق .

إذن فما أسخف عقول طائفة من الغربيين يدعون حقاً قديماً فى البلاد يسمونه المسألة الشرقية ، ولم يكن لأسلافهم فى الشرق إلا ما يكون لكل فاتح غريب من السيادة إلى حين ، ثم يتقلص ظله ، وينكمش إلى وطنه . كما انكمش الرومان إلى حيث نبت بقاعهم وتقلص عن المشرق ظلهم (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

وحبذا لو كان حاكمنا الغربيون بهذه الدعوى إلى مجلس العدل والمناقشة ، وولجوا بنا باب الإنصاف فى المناضلة ، إذن والله لأدلينا بالحجة ، وكنا فى جانب الحق ، وكانوا فى جانب الباطل ، ولكنها القوة تغلب كل حق وإن كانت فى نفسها حجة للمغلوب لا يستظهر بها إلا إذا عادل خصمه واستعلى على عدوه وأنى لنا هذا معاشر المسلمين الآن وليس فينا كأبى بكر وإخوانه ومعاوية والخلفاء من بنى عمه ، والمنصور وأحفاده ، وعبد الرحمن الداخل وأشبال أشباله ، وصلاح الدين وعزيمته ، والسلطان سليمان وأضرابه من آل عثمان الذين قضوا بعزائمهم على بقايا دولة الرومان فى الشرق .

ذكرى تمزق الأفئدة والقلوب ، وحال من ضعف البصائر وغلبة شهوات النفوس قد انتهينا إليه ، أفقدانا كل صبر ، وسلكا بعقول النابغين فى الأمة من مذاهب الحيرة كل مذهب ، ودون اهتدائهم إلى التخلص من شرك الحيرة وخروجهم بالأمة من وهدة هذا الضعف أسوار من شهوات الأمراء وائتلاف الأمة لحكم الاستبداد الذى أوهن عقولها ، وذهب بآثار الشمم من نفوسها ، لا يزول إلا بخلق جديد فى الإسلام فقد استقلاله ، وقضى حب الذات على دوله ، فلم يبق له أمل بغير نفسه ، واعتماد إلا على جده ، يهب

هبة الغافل أيقظته الصيحة من كل مكان وأخذت بناصيته يد العدو ، وفي قول علي بن أبي طالب ما يشير إلى هذا (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) .

هذا الحق الذي يعظم وقعه في نفوس العقلاء ويثقل سماعه على البسطاء ، نقوله بحكم المشاهدة لما يحيط بنا من الوسط . والتحقق من حالة المسلمين وحكوماتهم ، والنظر إلى سنن الله في خلقه التي أبانها لنا القرآن وأيدها تاريخ الإنسان - وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون - ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون - يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق — وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا - إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم - وتلك الأيام نداولها بين الناس - إلى غير ذلك من آيات البيان التي تثبت أن لله في خلقه سننا لا تتخلف وللمعرضين عنها من عباده جزاء لا مهرب منه ، ومع هذا فإنا نرجو أن تخالف ظننا الأقدار ويخلق الله لهذه الأمة ما لم يكن في الحسبان فتعود على بدئها وتسترد بقوة العلم والعمل ذاهب مجدها وليس على المجد إذا عزم أن يتوقف . وكل سالك في طريق إلى نهايتها يصير . وإذا نصر الله المسلمين في عهد أبي بكر ومن بعده بجدهم وسودهم على الأمم بالغلبة على شهواتهم والاستظهار بقوة يقينهم والله ولي الصالحين .

استدراك

ربما يظن ظان بما قدمناه في هذا التمهيد أنا بالغنا في القول بسيادة العرب في سورية إبان الفتح ، وأنهم كانوا حماة البلاد وأصحاب السلطة العظمى على قسم عظيم منها ، والحال أن ما ذكرناه من ذلك في هذه المقدمة إنما هي

حقائق تاريخية أوردناها على وجه الإجمال ، لهذا ودفعاً لخطأ الظن أوتهمة التشيع للعرب أحببنا أن نستدرك مافات ببيان تاريخي لما تقدم فنقول .

إن قسما عظيما من سورية كان ماهولا يومئذ بالعرب فكان سكان القسم الجنوبي منها ومن حوران وما يليها من البلاد الواقعة في الجنوب الغربي وهي الكرك ومعان إلى العقبة قرب البحر الأحمر كانت ماهولة بالعرب من غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وغيرهم ، وكانت عاصمة هذا القسم بصرى المدينة الشهيرة في حوران التي لم تزل آثار العظمة بادية على بقاياها إلى الآن وكانت حاضرة الملوك من بني غسان .

وكان قسم عظيم من الجزء الشرقي والشمالي الشرقي الممتد من غوطة دمشق إلى مدينة تدمر وما بعدها إلى شط الفرات ماهولا بالعرب أيضاً من بني غسان والنمر وبهراء وتغلب وغيرهم وعاصمة هذا القسم مدينة دمشق .

فأما القسم الجنوبي وكونه كان ماهولا بالعرب وفيه نشأت دولة بني غسان الشهيرة فمشهور لاحاجة فيه إلى البيان .

وأما القسم الآخر وكونه كان ماهولا بالعرب فالدليل عليه مارواه الطبري وغيره من المؤرخين عن الفتح الذي فتحه خالد ، والبلاد التي مر عليها أثناء مجيئه من العراق إلى الشام ، لنجدة المسلمين ومنه يستنتج أن كل البلاد التي مر عليها يومئذ منذ أشرف على وادي الفرات حتى انتهى إلى دمشق بلاد ماهولة بالعرب . وإليك البيان .

لما قصد خالد بن الوليد الشام وقطع إليها المفازة أشرف منها على حدود سورية الشرقية في وادي الفرات وهو المعروف الآن ببلاد الزور وعاصمته الدير المعروف الآن بدير الشعار ، وكانت كلها مساكن للعرب في بهراء والنمر وتغلب وغيرهم لم تزل إلى الآن ، كذلك فأتى أرك وهي واقعة بين

تدمر والدير ، ومنها سار إلى تدمر وهى على حدود البادية الشرقية ، وسار منها إلى القريتين (ولم تزل معروفة إلى الآن بهذا الاسم) ومنها سار إلى دمشق (عن طريق القلمون الأسفل وهو الجزء الشرقى من العمالة المعروفة الآن بجبل قلمون ويسمون هذا القسم القلمون التحتى وهو طريق القوافل لهذا العهد من الشام إلى العراق) فأتى خالد فى طريقه على حوارين وقصم وكانت آخر مافتحه من البلاد الواقعة فى طريقه من شمال دمشق ، فقاتله أهلها وكانوا من بنى مشجعة من قضاعة فظفر بهم ، ثم سار عنهم إلى ثنية العقاب (التى تشرف على المرج المعروف الآن بمرج عذراء الواقع فى الجهة الشمالية الشرقية من دمشق) ومنها انحدر إلى مرج راهط (وهو المرج المتصل بمرج عذراء ممتداً إلى جهة الجنوب) فأغار على بنى غسان فى يوم فصحهم فقتل وغنم وبعث بالأخماس إلى أبى بكر .

هذا ما أثبته الطبرى بشأن البلاد التى مر عليها خالدوفتحها أثناء مجيئه من العراق إلى الشام ، ومنه علمت أن آخر ما افتتحه خالد من جهة الشمال الشرقى عن دمشق (قصم) وأهلها من العرب من بنى مشجعة ، وهو يدل على أن القلمون الأسفل ومايليه شرقاً إلى شطوط الفرات كان مأهولا بالعرب من النمر وتغلب وإياد وبهراء وغيرهم [1] .

وكذلك القسم الواقع شرقى دمشق وهو مرج راهط قد كان مأهولا ببنى غسان ، والظاهر أن دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل أنها كانت

---

(١) هذا الاستنتاج يصح فيما لو صح ماذكره الطبرى فى تاريخه من أن خالد بن الوليد أتى القريتين ثم حوارين وبعدها قصم ومنها أتى ثنية العقاب لجعل قصم آخر الفتح إلى جهة دمشق ، وبعده كانت غارته على غسان فى مرج راهط لكن ذكر ياقوت فى معجمه أن قصم موضع بالبادية قرب الشام فإذا صح هذا ضعف استدلالنا على أن قلمون الأسفل كان مأهولا بالعرب .

تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان في عهد الفتح الإسلامي ، فهي إذن كانت عاصمة ذلك القسم العظيم الممتد منها إلى الشمال والشرق حتى البادية والفرات ، ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة ، وكله كان مأهولا بالعرب .

إذا تقرر هذا علمت أن لا مبالغة فيما قلناه من أن سورية كانت أشبه بولاية عربية كان النفوذ والسلطان فيها للعرب ، وإليهم ترجع حماية البلاد وحراستها ، ولم يكن للروم فيها إلا الاسم اللهم إلا ما كان منها واقعاً في الجهة الغربية والشمالية كفلسطين والأردن وحلب وأنطاكية وما يليها فربما كانت سلطتهم عليها أظهر وكلمتهم أنفذ والله أعلم .

بعث البعوث إلى الشام :

كان بعث أبي بكر البعوث إلى الشام في أوائل سنة ثلاث عشرة بعد عودة من الحج ، وكان أول لواء عقده إلى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص ، وقال ابن الأثير وتابعه عليه كثير من المؤرخين إنه عزله قبل أن يسير بإيعاز عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك لما في نفسه عليه من تربصه ببيعة أبي بكر كما تقدم الكلام عليه وأمره أن يكون بتيماء ردءاً للمسلمين ، وألا يفارقها وأن يدعو من حوله من العرب وألا يقاتل إلا من قاتله ، فاجتمع إليه جموع كثيرة ، واتصل خبره بالروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام ، ثم جاءه ماهان بالجيوش ففرقهم ثم جمع له فقاتله فهزمه ، فكتب إلى أبي بكر بذلك فاهتم لأمر الشام واستنفر العرب وجهز البعوث إلى آخر ما ذكروه من خبره .

هذا ما ذكره ابن الأثير وغيره وروى البلاذري في فتوح البلدان عن أبي مخنف قال :

لما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد كره عمر ذلك ، ، فكلم أبا بكر فى عزله وقال إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب ، فعزله أبو بكر ووجه أبا أروى الدوسى لأخذ لوائه فلقيه بذى المروة فأخذ اللواء منه وورد به على أبى بكر رضى الله عنه ، فدفعه أبو بكر إلى يزيد بن أبى سفيان فسار به معاوية أخوه يحمله بين يديه ويقال بل سلم إليه اللواء بذى المروة ، فمضى على جيش خالد وسار خالد بن سعيد محتسباً فى جيش شرحبيل اهـ .

والذى يستنتج من هذه الرواية أن أبا بكر عقد لخالد بن سعيد ليكون ردءاً للمسلمين ، لا ليغزو مع الأمراء ، ثم بعد مسيره كلمه بشأنه عمر فعزله واستعاد لواءه ، فدفعه إلى يزيد وسيره على أثر مسير الأمراء . وروى الطبرى فى تاريخه عن سيف نحو هذه الرواية ، وروى أيضاً عن طريق آخر أن أبا بكر لما عقد الألوية للأمراء ، عقد لخالد بن سعيد فيمن عقد ولما كلمه بشأن عزله عمر أطاعه أبو بكر فى بعض أمره وعصاه فى بعض ، وأمر خالداً أن ينزل بتيماء وألا يبرحها وأن يدعو من حوله إلى الإسلام ففعل ، واجتمع إليه جموع كثيرة ، فلما بلغ الروم ذلك جمعوا له فكتب إلى أبى بكر بذلك ، فكتب له أن أقدم ولا تحجم ، فسار إليهم خالد فتفرقوا فكتب إلى أبى بكر بذلك ، فكتب إليه أبو بكر أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك . فسار فيمن كان معه ، فلقيه باهان بجيوش الروم فقاتله خالد فظفر به وهزم جنده ، وكتب إلى أبى بكر يستمده فاهتم أبو بكر لأمر الشام ، وجهز البعوث فتعجل خالد بالحرب قبل وصول الأمراء فنكبه الروم فعاد إلى المدينة مهزوماً فغضب أبو بكر عليه ثم استأذن أبا بكر وذهب متطوعاً فى جيوش الأمراء . وهذه الرواية توافق مارواه ابن الأثير ، وتخالف رواية البلاذرى ، وفى كلا الحالين فإن يزيد بن أبى سفيان صار أميراً على جيش خالد بن سعيد ، كما يتضح ذلك من وصية أبى بكر له .

لما استنفر أبو بكر المسلمين من أطراف البلاد العربية للجهاد أخذوا يفدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ، ولما تكامل جمعهم وذلك فى مستهل صفر سنة ثلاث عشرة عقد الألوية فعقد لواء لعمرو بن العاص ، وكان قد استدعاه من ولايته على صدقات سعد هزيم من قضاعة ووجهه إلى فلسطين . وعقد لواء لشرحبيل بن حسنة وكان قد وفد إليه من العراق ووجهه إلى الأردن . وعقد ليزيد بن أبى سفيان على جمهور من انتدب إليه فيهم سهيل بن عمرو وأشباهه من وجوه مكة وأشراف قريش ووجهه إلى البلقاء ، وقال بعضهم إلى دمشق . وعقد لأبى عبيدة عامر بن عبدالله ابن الجراح الفهرى ووجهه إلى حمص . وكان العقد فى بدء الأمر لكل أمير على ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم الأمداد حتى صار مجموعهم أربعة وعشرين ألفا ؟

هذا هو الجيش القليل العدة فنائى الديار الذى سار على بركة الله ليغزو الروم فى عقر دارهم ، ويجوس خلال ديارهم ، ويزعزع أركان ملكهم ، وينذر بتقلص سلطانهم وينشر راية الإسلام على ربوع الشام وآسيا الصغرى والجزيرة وأرمينيا وقد فعل فكيف وبماذا ؟

بقوة العزيمة والصبر ، والاعتماد على الله فى السر والجهر ، وعدم المبالاة بالحياة فى سبيل إعلاء كلمة الدين ، ونصرة الإسلام ، والتعفف عما بأيدى الناس ، وإنصاف المغلوب وحماية ماله ونفسه ، وإطلاق الحرية له فى عوائده ودينه ، مادام يدفع للمسلمين جزءا من ماله ، يستعينون به على إصلاح حاله ، وتأمين بلده ، وتمهيد طرق الراحة والنظام لقومه ، ويكون له من الحقوق حينئذ ما للمسلمين ، وعليه من واجب المعونة وطاعة الأمير والأمانة فى الجوار ما عليهم ، لايضار فى عرض ولا نفس ولا مال ، هذا إذا اختار البقاء على

دينه ، ورضى بأداء جزيته ، وأما إذا أسلم فالمسلمون كما فى الحديث (تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم) .

أضف إلى هذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأى بمن يصاحبهم من رجال الإسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ ، كعمرو بن العاص وأبى عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبى سفيان ، ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ومن ورائهم مثل أبى بكر يمدهم بالرأى ويتابع إليهم النصائح . وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد ابن أبى سفيان التى تعجز أقطاب السياسة وتنفع قادة الجيوش وساسة الأمم فى كل عصر . وقد أوصاه بها لما شيعه ماشياً كما أوصى سائر الأمراء .

وصية أبى بكر ليزيد :

إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك ، وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك . مثل الذى يرى من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد[1] فإياك وعبية الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وأبدأهم بالخير وعدهم إياه . وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها ، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك ، وأنزلهم فى ثروة عسكرك . وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك ، وإذا استشرت

---

(١) يريد خالد بن سعيد .

فاصدق الحديث تصدق المشورة . ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك . واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك . وأكثر مفاجآتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما لقربها من النهار . ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مدفعاً . ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده . ولا تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء . واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس . واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر . وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له اهـ .

ابتداء الفتوح بالشام :

علمنا مما سبق أن الجهاد مبنى على الدعوة وأن المسلمين لا يبدءون أهل الكتاب بحرب ما لم يدعوهم إلى خصلة من ثلاث (الإسلام أو الجزية أو السيف) أى الحرب ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل فى جملة من كتب إليهم من الملوك يدعوه إلى الإسلام ، ففى رواية أنه أجابه وأسلم سراً ، وفى راوية أنه لم يجبه ، ولما سار الأمراء وكتبوا إليه يدعونه إلى خصلة من الثلاث وقد كان وقتئذ بالقدس جمع إليه البطارقة وكبار القواد وشاورهم فى أمر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم ، فأبوا عليه إلا الحرب وكان مما قال لهم (والله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم) ولما لم يوافقوه على رأيه أخذ بإعداد الجنود والعدة ، وأرسل

لكل أمير جيشاً ليشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه .

واما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم فى أحشاء البلاد فنزل أبو عبيدة الجابية . ونزل شرحبيل الأردن . ونزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين ، ونزل يزيد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون فى كيفية ترتيب الوقائع فمن قائل إن أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ، ومن قائل غير ذلك والذى قال بالأول بنى قوله على أن المسلمين لما تفرقوا فى البلاد وراعهم ما جمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا عمراً فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا إلى أبى بكر فأمده بخالد بن الوليد ، ولما وصل إليهم وجد الأمراء متساندين فتأمر عليهم ثم هاجم جنود الروم وجرى بين الفريقين قتال شديد ، انتهى بانكسار الروم وبينما هم فى اليرموك جاء الخبر بوفاة أبى بكر وتولية عمر رضى الله عنهما ومع المخبر أمر بعزل خالد وتأمير أبى عبيدة بن الجراح .

مع أن إمعان الأمراء بجيوش المسلمين فى الجزء الجنوبى والجنوب الغربى من البلاد ووصول بعضهم إلى الأردن قرب طبرية ، والبعض الآخر إلى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين فى عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم فى اليرموك كل هذا يؤيد أن واقعة اليرموك إنما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر (على وزن سكر) وواقعة أجنادين التى بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق ووقعة العربة من فلسطين وغيرها ، وإن المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً ويؤيد هذا ما ذكرناه سابقاً نقلاً عن البلاذرى من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك .

وقد اتفق ابن الأثير والبلاذرى على حصول وقائع للمسلمين مع الروم قبل وقعة اليرموك ، وهى وقعة بصرى فى حوران وداثن فى فلسطين ومرج الصفر وغيرها .

والظاهر من هذه الروايات أن الروم فى ابتداء الأمر لم يحفلوا بأمر المسلمين ، ولم يظنوا فيهم القوّة والجرأة على اقتحام عواصم البلاد والتغلغل فى أحشاء الممالك بجيشهم القليل وعدتهم الضعيفة ، وهو من سوء الرأى المبنى على الكبرياء الباطلة والغرور المضر ، فإن الاستهانة بالعدو مهما قل وهن فى السياسة منشؤه مايصيب عقول السياسة فى الدول الهرمة من فقد قوة التجارب ، أو الإعراض عن مصالح الملك حباً بمصالح النفوس وشهواتها .

قد مهدت سياسة الروم هذه للمسلمين أن يقتحموا بجيوشهم البلاد اقتحام المجربين فى الحروب ، العارفين بمواضع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد ، فإنهم أوغلوا فى جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه فى البلقاء مع يزيد بن أبى سفيان مما يلى الحجاز ، وطرفاه الواحد فى الجنوب الغربى فى فلسطين وهو مع عمرو بن العاص ، والآخر فى الجنوب والجنوب الشرقى فى حوران ، وهو مع أبى عبيدة بن الجراح وفى الوسط بميلة إلى الغرب أيضاً شرحبيل بن حسنة وهو فى الأردن . بحيث يمد بعضهم بعضاً من قرب ، ومن ورائهم يزيد يحفظ عليهم خط الرجوع ويديم النظر فى طرق المواصلات .

على هذه الصفة دخلت الجيوش الإسلامية إلى الشام ، وافتتح كل أمير مامر عليه من البلاد صلحاً أو حرباً ، حتى إذا أخذت الصيحة الروم من كل مكان هبوا من غفلتهم هبوب المذعورين ، وانتبهوا انتباه الفارين ، فضرب هرقل البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام ، وهم يومئذ حماة البلاد وإلى الملوك من بنى غسان ينتهى

القول والعمل ، فاجتمع لديه منهم ومن الروم زهاء مائة وخمسين ألفاً ، فقسمهم وبعث لحرب كل جيش من جيوش المسلمين قسما منهم بقيادة أحد مشاهير القواد .

اجتماع الأمراء فى اليرموك ووفود خالد بن الوليد عليهم .

لما رأى أمراء الجيوش الإسلامية كثرة ما أعد لهم هرقل من الجنود ، كتبوا بذلك إلى عمرو بن العاص وهو صاحب الرأى فيهم ، فأشار عليهم بالجلاء عن البلاد والتقهقر إلى اليرموك وهو نهر فى واد واقع فى الجهة الشمالية من جبل عجلون إلى الجنوب الغربى من الشام ، وكتبوا إلى أبى بكر فأشار عليهم بالاجتماع أيضاً ريثما يصلهم المدد ، وكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى الشام وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة بطل العراق الشهير ، ولا يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك عند المثنى مثله ، فامتثل خالد الأمر وسار بمن معه حتى أتى تدمر ، وهى على حافة البرية مما يلى وادى الفرات وموقعها إلى الشمال الشرقى من دمشق على بعد ١٥٠ ميلا منها ، بعد أن عانى هو وجيشه مشقة عظيمة فى الطريق ، وغزا من صادفه من القبائل كما سترى فى سيرته بعد ، ثم قام من هناك إلى ثنية العقاب ، ومنها إلى مرج راهط الواقع شرقى الغوطة ، فأغار على أرباض دمشق ، ثم اتجه جنوباً إلى بصرى وقاتل أهلها فظفر بهم ، وأرسل بالأخماس إلى أبى بكر ، ثم سار فطلع على المسلمين فى ربيع الآخر ، وقيل فى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة .

كان المسلمون إلى ذلك الحين يراوحون العدو القتال ويطاولونه فى النزال ، متساندين كل أمير على جيشه والعدو أمامهم بجنده الكثيف ، الذى يبلغ المائة والخمسين ألفاً لا يتزعزع بل هو أشبه بالمحصور من ورائه الوادى ومن أمامه جند الإسلام ، فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وكان عظيم الرأى

فى الحرب بعيد النظر فى ترتيب الجيوش لم يرق لديه تساند الأمراء وليس لهم أمير يجمعهم فجمعهم إليه ، وخطب فيهم خطبة أنبهم فيها على ماهم فيه من الافتراق فى الإمارة ، على ماسترى ذلك فى سيرته ، وطلب إليهم أن يجتمعوا على أمير واحد ويتناوبوا الإمارة العامة كل يوم واحد ، وأن يؤمروه ذلك اليوم فأطاعوا إشارته ، وأمروه فرتب الجيش ترتيباً حسناً ، ثم نشب القتال وكانت معركة عظيمة ظهر فيها من حمية قريش وشجاعتهم مايؤيد قولنا فيما سبق أن الله سبحانه وتعالى كما أيد الدين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنصار أيده بعده بقريش . وانجلت المعركة عن انهزام الروم شر هزيمة ، بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة جداً ، وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء ثلاثة آلاف ، فيهم من وجوه المهاجرين وجلة قريش عدد كبير ، منهم عكرمة بن أبى جهل من أبطال حروب الردة ، وعمرو ابنه وسعيد ابن الحرث بن قيس بن عدى ، وهو قديم الإسلام ومن مهاجرة الحبشة وأمثالهم من أهل البلاد ووجوه قريش من المهاجرين الأولين ومهاجرة الفتح .

لاجرم أن واقعة اليرموك سواء كانت أول وقائع المسلمين مع الروم بالشام أو غير ذلك ، فإنها كانت آخر وقعة قضى فيها على سلطان الروم فى سورية ، حتى لم يقم لهم بعدها قائمة ولم يستتب لهم فيها أمر ، وإذا رأينا كثرة من أصيب يومئذ من المهاجرين علمنا أنهم كانوا محور الحرب التى دارت عليه رحاها ، وجنتها التى تلقت سهام أذاها . وإليهم ينتهى الفضل فى كسر شرة الروم وتمهيد السبيل لتدويخ بلاد الشام . واستنارة أهلها بنور الإسلام .

ليس بعجيب أن يظهر من قريش ما ظهر منهم فى اليرموك وهم سادة العرب وحماة الذمار ، وإنما العجب لهذا الرهط أن ينهض بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر نهوضاً يدهش ساسة الممالك من الفرس والروم ،

ويقضى على كثير من ممالك الأرض بذلك الانقلاب العظيم فى السياسة والدين. والعرب يومئذ على ما نعلم من الاستغراق فى البداوة والبعد عن نعيم الحضارة. وإنما كان يقودها هذا الرهط من المهاجرين الذين سبقوا إلى العلم بالدين وامتلأت قلوبهم بنور الإيمان .

لاريب أن هدى الإسلام قد نفذ منهم إلى أعماق القلوب ، وكشف عن بصائرهم غشاء الغرة ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فرأوا طريق السيادة على الأمم واضحاً فسلكوه . وسبيل سعادة الآخرة بيناً فانصرفوا بكليتهم إليه . ففازوا بالنعمتين . وسلكوا بالعرب طريق السعادتين . فجاهدوا فى الله حق جهاده . وعمموا هدى دينه بين عباده .

وممن أبلى بهذه الحرب يومئذ أبو سفيان بن حرب ، وذهبت فيها عينه، وخالد بن الوليد ، والسمط بن الأسود الكندى ، وعكرمة بن أبى جهل ، وهو الذى قال لما اشتد الأمر على المسلمين وبلغت جنود الروم فسطاط ، خالد قاتلت النبى صلى الله عليه وسلم فى كل موطن ثم أفر اليوم[١]، ثم نادى من يبايعنى على الموت ، فبايعه الحرث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد قتال من باع نفسه فى سبيل الله ، وأصبح الموت أحب إليه من الحياة ، حتى أصيبوا جميعهم بالجراحات والقتل ، وأصيب عكرمة وابنه عمرو بجراح ، فأتى بهما ثانى يوم إلى خالد فوضع رأسيهما على فخذيه ، وجعل يقطر فى حلقيهما الماء ويقول ، زعم ابن حنتمة يعنى عمر أنا لا نستشهد .

رحم الله تلك النفوس التى استهانت بالدنيا ومتاعها ، فتخلى الأمير عن إمارته ، والغنى عن ماله وملذته ، والشريف عن عزته ، والعائل عن أهله وولده ، التماساً للشهادة . ورغبة بنصرة الإسلام ، وطلباً لقهر العدو وخذلانه ، ونصر الدين وأعوانه .

---

(١) يعنى من مواطن قريش لأن إسلام عكرمة كان بعد فتح مكة .

أبلى النساء المسلمات فى ذلك اليوم ، كما أبلى الرجال ، وحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل إذا لوت ، وينادين إلى أين ياحماة الإسلام ، وطلاب الشهادة ، يشددن بذلك عزائم الرجال ، ويواسينهم بأنفسهن فى ساحات القتال ، حتى بلغن من كيد العدو مالاتبلغه منه السيوف ، وقمن بخدمة الإسلام ، كما قام رجالهن الذين أوردوا الروم موارد الحتوف .

فكان النساء يومئذ مجاهدات محرضات ممرضات ، يجاهدن العدو ، ويحرضن المسلمين ، ويمرضن الجرحى ، وربما قتل للمرأة ولد فبعثت إلى ساحات الحرب أباه ، أو تسلت عنه بأخيه .

بينما المسلمون فى ذلك اليوم فى أشد حالات الحرب والصدام ، قدم البريد من المدينة ، واسمه محمد بن زنيم ، فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وإمداد ، وإنما جاء بموت أبى بكر ، وتأمير أبى عبيدة ، فكتم هذا الخبر عن المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولى الروم أدبارها .

وقد اختلف المؤرخون فى هل جاء الخبر بوفاة أبى بكر والمسلمون فى اليرموك أو على دمشق ، كما اختلفوا فى هل فتح شىء من الشام قبل اليرموك فى خلافة أبى بكر ، ومما لاريب فيه أن جيوش المسلمين لما أوغلت فى القسم الجنوبى من الشام افتتحت كل مامرت عليه من البلاد ، وربما بلغت حمص شمالا ، كما رواه البلاذرى ، إلا أن انجلاءهم بعد عن البلاد ، وتقهقرهم إلى اليرموك ، جعل ذلك الفتح الأول كأن لم يكن لانتقاض البلاد بعد خروج المسلمين عنها ، وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها ، لقلة عددهم وكثرة جنود عدوهم ، لهذا عول المؤرخون فى سياق أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وحار بعضهم فأوردها مشوشة ، وفى كلا الحالين فإن الفتح الحقيقى للديار الشامية إنما تم فى زمن عمر بن الخطاب ، ولأبى بكر الفضل العظيم فيه ،

لسبقه إليه وإعداده مثل جيش اليرموك له ، وأما عزل خالد بن الوليد فالأصح أنه جاء وهم على دمشق كما سترى بعد .

— ٨ —

مناقب أبي بكر وأخلاقه ومآثره

إن أحسن وصف يمثل أبا بكر بفضائله وأخلاقه تمثيلا لا يدع فى النفس حاجة إلى المزيد ، ماوصفته به أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنه وعنها ، بخطبة وجيزة العبارة ، عظيمة المعنى ، جامعة لشمائل أبي بكر وأخلاقه ، وإذا أتيت بشيء من ذكر فضائله ومناقبه فإنما يكون تفصيلا لما أجملت ، وشرحاً لما أوجزت ، فقد روى أنه بلغها أن أناسا يتناولون من أبيها ، فأرسلت إليهم فلما حضروا قالت .

أبى ما أبيه لا تعطوه الأيدى ، ذاك والله حصن منيف ، وظل مديد ، أنجح إذا أكديتم ، وسبق إذ ونيتم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد ، فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلا ، يريش مملقها ، ويفك عانيها ، ويرأب صدعها ، ويلم شعثها ، حتى حليته قلوبها ، واستشرى فى دينه ، فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ماأمات المبطلون ، وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة ، وقيذ الجوانح ، شجى النشيج ، فانصفقت عليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به « والله يستهزيء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » ، وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت له قسيها ، وفوقت إليه سهامها ، فامتثلوه غرضاً فما فلوا له صفاة ، ولا قصفوا له قناة ، ومر على سيسائه ، حتى إذا ضرب الدين بجرانه ، وأرست أوتاده . ودخل الناس فيه أفواجاً من كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لرسوله

صلى الله عليه وسلم ماعنده ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه ، وشد طنبه ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله وألقى بركبه واضطرب حبل الدين والإسلام ، ومرج عهده ، وماج أهله ، وعاد مبرمه أنكاثاً ، وبغى الغوائل وظن رجال أن قد أكثبت أطماعهم نهزها ، ولا حين الذى يرجون ، وأنا والصديق بين أظهرهم فقام حاسرا مشمراً ، قد رفع حاشيتيه ، وجمع قطريه فرد نشر الدين على غرة ، ولم شعثه بطيه وأقام أوده بثقافه . فابذعر النفاق بوطأته . وانتاش الدين فنعشه . فلما اراح الحق على أهله ، وأقر الرءوس على كواهلها ، وحقن الدماء فى أهبها ، وحضرته منيته ، فسد ثلمته بشقيقه فى المرحمة ، ونظيره فى السيرة والمعدلة ذاك ابن الخطاب ، لله أم حملت به ودرت عليه ، لقدأوحدت ففنخ الكفرة وديخها ، وشرد الشرك شذر مذر وبعج الأرض وبخعها فقاءت أكلها ، ولفظت خبئها ترأمه ويصد عنها ، وتصدى له ويأباها ، ثم وزع فيئها فيها وتركها كما صحبها فأرونى ماذا ترتؤون ، وأى يومى أبى تنقمون ، أيوم إقامته إذ عدل فيكم ، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم (١) .

سياسته فى الخلافة :

لم يكن بعد وفاه النبى صلى الله عليه وسلم موقف أشد وأحرج على المسلمين من موقف وقفه أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ كان حياً يتحدى العرب بالقرآن ـ ويتألفهم بالمعجزات ويملك عليهم طرق الزيغ بتوالى نزول الوحى بالدلالة على المنافقين منهم ،

(١) نقلنا هذه الخطبة عن كتاب النثر المختار بهذا الضبط فلتحرر وقد أوردها ابن عبد ربه فى العقد إلا أن أيدى النساخ مسختها مسخاً جاءت ناقصة عن هذه فى بعض الجمل ومختلفة عنها فى البعض فتقابل .

وكشف خبايا ضمائرهم ، ومع هذا فقد عانى منهم ماعانى ، ولقى أشد مايلقى نبى من قومه ، ولما تولى الخلافة أبو بكر وجاء المسلمين من أخبار الردة ، وانتقاض العرب ماأوهن عزائمهم ، وفت فى عضدهم ، نظر أبو بكر فرأى أن العرب كان يتألفها النبى بالوحى والمعجزات وقد انقطع الوحى ، وهم مع حداثة عهدهم بالإسلام عريقون بالبداوة ، ساذجو الفطرة قل أن يتأثر وجدانهم إلا بما يتأثر به حسهم ، فلا سبيل إلى اجتذاب قلوبهم ، وامتلاك ضمائرهم واستخذاء نفوسهم بلين الكلام ، أو قواصر التقريع للاحتيال على ضمائرهم ، والتوصل إلى كبح جماحهم وأن القوة هى أحسن ماترتاض به نفوسهم ، وتتأثر به حواسهم . وتلين من عريكتهم ، وتخضع عاصيهم فانفرد بهذا الرأى دون كثير من الصحابة كما علمت مما مر فى أخبار الردة فكان رأيه الصائب ، وقوله الحق ، وعمله الموفق وسياسته الناجعة ، حتى اعترف له بالأصالة وحزم الرأى بعد جميع الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وكان من وراء عمله فى الردة سلامة الإسلام والمسلمين ، من هجمات الشرك وغوائل الهمجية وسطوات الأعداء ، بدليل ماأخرجه البيهقى وابن عساكر عن أبى هريرة قال (والذى لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ، ثم قال الثانية ثم قال الثالثة) فقيل مه يا أبا هريرة فذكر لهم موقف أبى بكر فى إنفاذ جيش أسامة وجيوش الردة ، فى حديث طويل قد مضى معنا ماهو بمعناه من أخبار أبى بكر فلا حاجة لإيراده هنا .

وكذلك رأيه فى إنفاذ جيش أسامة يدل على علو كعبه فى السياسة ، وبعد نظره فى مهمات الأمور ، فإنه ظهر به للعرب بمظهر القوة ، واستهان بإنفاذه بخطب الردة . فنفث فى روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها ومتردد بين الأمرين حتى وافتهم جيوش المسلمين وهم على فرقتهم وتشتت رأيهم فأخذتهم بما صنعوا ، وردتهم عما ابتدعوا ، وضرب الإسلام بينهم بجرانه ، وقضى على شيطان الجهل وأعوانه .

ومن حسن سياسته أنه لما استخضع العرب وأراهم سطوة المسلمين وبأس الموحدين ، فاستكانوا للإسلام وأخلدوا إلى الطاعة ، ولم ير بعد ذلك من حاجة لاستعمال الشدة معهم ، رفع العقوبة عن زعمائهم ، وألان القول لأمرائهم ، تأليفاً لقلوبهم واستفادة من نفوذ رأيهم فى أقوامهم ، فلما جىء له بالسمط بن الأسود الكندى أحد ملوك كندة ، وعمرو بن معد يكرب والأشعث بن قيس أسراء مكبلين غفر لهم زلتهم وعفا عما صدر عنهم فأسر قلوبهم ، وامتلك ضمائرهم ، فكانوا فى المستقبل من أنصار الإسلام الكبار ، وأعوانه الشداد .

ومن حسن سياسته رفقه بخالد بن الوليد وإغضاؤه عن هفوته ، فى قتل مالك بن نويرة مع إلحاح عمر عليه باستدعاء خالد إلى المدينة ليحاكم وتجرى العقوبة عليه ، ولما قال له عمر إن سيف خالد فيه رهق وأكثر فى اللائمة على خالد ، قال ياعمر تأول خالد فأخطأ ، فارفع لسانك عنه ، فإنى لا أشيم سيفا سله الله ، وودى مالكا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل ، وأخبره الخبر واعتذر إليه ، فعنفه أبو بكر ثم تجاوز عنه وقبل عذره .

كان خالد ذا عصبية فى قومه محبوبا من الجند عظيم الرأى فى الجهاد موفقا فى الحروب . فرأى أبو بكر أن رجلا هذا شأنه لما يضن به ويحرص عليه ، ولا سيما أنه كان يضمر أن يرمى به الفرس والروم ، ويجمع تحت رايته العرب لبث الدعوة ونشر الإسلام فى الممالك القاصية ، لما يعهده فيه من سداد الرأى والشجاعة والتوفيق ، فاكتفى بتعنيفه علما منه بأنه إن أخطأ هذه المرة فالتعنيف كاف فى تنبيه مثله إلى ألا يعود إلى مثلها .

ولا يخفى ما كان بعد ذلك لخالد من البلاء العظيم فى جهاد الأعداء ، وما افتتحه من البلاد الواسعة فى العراق والشام ، بحسن اختيار أبى بكر له وعفوه عنه فرضى الله تعالى عنهم أجمعين .

ومن حسن سياسته استجلابه لمن توقف عن بيعته من بنى هاشم وغيرهم وهم نفر قليل فيهم طلحة والزبير بلين القول ، والإدلال بالحجة دون العنف واستعمال سلطة الخلافة وسلطان القوة ، وذلك لحرج الموقف الذى وقف فيه المسلمون وقتئذ - واشرئباب الأعناق إلى الخلاف ، وتلظى نار الردة ، وترقب المنافقين لفرصة الاختلاف ، وتربصهم الشر بالخلافة ، وناهيك به موقفاً يحتاج إلى الأناة والبصيرة ، والصبر والعزيمة ، وما زال به أبو بكر حتى بدد غيومه ، ومهد للسكون والسكينة طريقه ، فوافته الأمور كما شاء . وانقضت خلافته على أحسن حال كما أحب ، ومما قاله يومئذ وهو يدل على إخلاصه فى القول والعمل وتوجه نيته إلى درء الأخطار المحيطة بالخلافة والفتنة المهددة للمسلمين بتوليه الخلافة وقبوله لها وأخرجه الحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن عوف قال خطب أبو بكر فقال :

(والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله فى سر ولا علانية ، ولكنى أشفقت من الفتنة ومالى فى الإمارة من راحة لقد قلدت أمراً عظيما مالى به من طاقة ، ولا يد إلا بتقوية الله) فقال على والزبير ماغضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة وإنا نرى أبابكر أحق الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخيره ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حى ا هـ

وناهيك بعظيم سياسته وثاقب رأيه ، ووصاياه للقواد والأمراء بالرفق بالأمم المغلوبة ، وتجنب كل مايثير بالمحارب ثائرة الأشجان ، أو يدعو إلى مس جانب الإنسانية أو يخدش وجه العمران ، حتى كان من ذلك أن قام ميزان الشريعة بين الأمم المغلوبة بالقسط ، وانتشر نور الإسلام على الأرض ، فأخذ عدله بمجامع قلوب الشعوب فانضووا تحت لوائه ، وكانوا من أنصاره وأوليائه .

كان جند الأعاجم من الفرس والروم إذا وطئوا أرضاً أفسدوها . وإذا ظفروا بعدو مثلوا به واستباحوا حماه ، فجاء جند الإسلام يحمل الدعوة قبل الحرب فى يد ، وأمان البلاد من أمثال تلك المنكرات الخسيسة فى يد أخرى ، وكانوا إذا انتصروا على عدو واستباحوا حمى ملك أو أمير يحملون رءوس البشر إلى سدة ملوكهم كبشائر للنصر ، وإعلان للفخر ، فرأى أمراء المسلمين فى حرب الروم أن يعاملوهم بنفس عملهم ، فبعث عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة برأس بنان أحد بطارقة الشام إلى أبى بكر مع عقبة ، ابن عامر . فلما قدم به عليه أنكر ذلك عليه . فقال له عقبة ، ياخليفة رسول الله فإنهم يصنعون ذلك بنا قال ، أفيستنان بفارس والروم لايحمل إلىّ رأس إنما يكفى الكتاب والخبر ا ه أخرجه البيهقى .

اللهم ليست المدنية بالزخارف التى يتحلى بها الغربيون الآن ومن ورائها الشهوات تهدم مايبنون ، وتضع مما يرفعون ، تنزع بالقوى إذا استعلى على الضعيف منازع الظلم والجبروت فلا يبالى أخيراً صنع أو شراً ، وعدلا أتى أو ظلماً ، يحشرون إلى الغرمثات من البشر ويسدون عليهم فوهته بالحطب يوقدون فيه النار ليميتوهم خنقاً بدخانه . ويروهم التمدين الجديد بسائر ألوانه (١) ، أو يصفون الناس صفاً ، وينسفونهم بقذائف البارود نسفاً (٢) أو يجعلون المعابد مرابط للخيل والكلاب ، ويحشرون الطائفة المسالمة للموت كما يحشر للمادة اللزجة الذباب (٣) ، وإنما المدنية ماسننت لعبادك فى كتابك ، وما فطرت عليه من الرحمة نفوس أوليائك ، الذين آمنوا بنبيك ، وعدلوا بين خلقك ، وتجافوا عن مضاجع الراحة فى سبيل

---

(١) هكذا صنع الفرنساويون بمسلمى الجزائر لما دوخوا بلادهم

(٢) هكذا صنع الإنكليز لما استخضعوا ثوار الهند فى ثورتهم الكبيرة

(٣) هكذا صنع جنود الدول الأوربية هذه السنة فى الصين ، وهكذا تصنع الدول الأوربية فى كل حرب إلا بعضها مع بعض فربما يرفق قليلا .

مرضاتك ، وأقاموا الميزان بالقسط لا يظلمون ولا يظلمون

أجل رفع الإسلام نفوس المسلمين عن أمثال تلك الخسائس التى كانت فاشية بين الأمم ، وهذبها على الرأفة والعدل صدراً من خلافة الخلفاء الراشدين كان من ورائهم فيه حكمة أبى بكر ويقظة عمر تسدان على دنىء العادات الوثنية ، وخسيس السنن الرومية منافذ التسرب إلى نفوس المسلمين ، ويقيمان فى وجهها حواجز الدين الإسلامى المبين ، وما نشب أن امتد الفتح وكثر الاختلاط وامتزج الأمم بحكم الوحدة الإسلامية روميها وعربيها وعجميها وتركيها حتى أعجز الخلفاء الأمر ، وأرهق غاشيتهم من العلماء والمقربين الافتتان بحب الدنيا ، فتسامحوا طوعاً بحكم المخالطة ، أو كرهاً بحكم الغلبة ، ففسدت الفطرة ، وامتزجت الأخلاق بالأخلاق ومن ثم كان معظم المصائب التى حلت بالمسلمين متأتياً عن غلبة العادات الأعجمية ، وفقد التربية الإسلامية ، وليس هذا محل الإسهاب وربما نأتى بالمناسبة على شىء من ذلك فى هذا الكتاب

أخرج البخارى عن قيس بن حازم قال ، دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب ، فرآها لاتتكلم ، فقال مالها لاتتكلم ، فقالوا حجت مصمتة قال لها : تكلمى فإن هذا لايحل هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت فقالت من أنت : قال امرؤ من المهاجرين ، قالت أى المهاجرين ، قال من قريش قالت ، من أى قريش ، قال إنك لسئول أنا أبو بكر ، قالت ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذى جاء الله به بعد الجاهلية ، قال بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم ، قالت وما الأئمة ، قال أو ما كان لقومك رءوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ، قالت بلى ، قال فهم أولئك الناس .

هذا هو الحق الذى أنطق الله به أبا بكر ، فحسبنا الله ونعم الوكيل ، وهو بحسن عافيتنا كفيل (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) .

سياسته فى الرعية :

كانت سياسته مع الرعية بشدة من غير عنف ، ولين من غير ضعف بطىء العقوبة غير متعجل فيها إلا بقصاص واجب ، لهذا كان يأخذ على العمال إيغالهم فى العقوبة ، ويأمرهم بالرفق والأناة .

ذكر السيوطى أن المهاجر بن أبى أمية كان أميراً على اليمامة ، فرفع إليه امرأتان مغنيتان غنت إحداهما بشتم النبى صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع ثنيتها ، وغنت الأخرى بهجاء المسلمين ففعل بها مثل ذلك ، فكتب إليه أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

بلغنى الذى فعلت بالمرأة التى تغنت بشتم النبى صلى الله عليه وسلم ، فلولا ماسبقتنى فيه لأمرتك بقتلها ، لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد ، أو معاهد فهو محارب غادر ، وأما التى تغنت بهجاء المسلمين فإن كانت ممن يدعى الإسلام فأدب وتعزير دون المثلة ، وإن كانت ذمية فلعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم ، ولو كنت تقدمت إليك فى مثل هذا لبلغت مكروهاً ، فاقبل الدعة وإياك والمثلة فى الناس فإنها مأثم ومنفرة إلا فى قصاص اه .

ومن سياسته فى الرعية أن كان يحذرهم من الدخول فى غمار الفتن التى تسفك فيها دماء المسلمين ، ويحملهم على التعفف عن المغانم ، والقناعة بالكفاف فى إبان الفتوح الذى تحولت فيه كنوز الروم وفارس إلى المسلمين ، خشية أن تحيا فيهم ملكة الطمع ، فتنزع بهم منازع الظلم ، وتحرك بواعث الطلب من المزيد فيميلون إلى الترف والنعيم اللذين يقعدان بهم عن متابعة الجهاد ، ويشغلانهم عن بث الدعوة بين العباد .

أخرج أحمد فى الزهد عن سلمان قال : أتيت أبا بكر فقلت اعهد إلىّ فقال .

يا سلمان اتق الله واعلم أنه سيكون فتوح ، فلا أعرفن ما كان حظك منها ما جعلته فى بطنك أو ألقيته على ظهرك ، واعلم أنه من صلى الصلوات الخمس فإنه يصبح فى ذمة الله ، ويمسى فى ذمة الله تعالى فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله ، فتخفر الله فى ذمته ، فيكبك الله فى النار على وجهك .

أدبه وتأديبه :

إذا أطلق لفظ الأدب فأحر به والله أن يطلق على الصحابة الكرام ، الذين تأدبوا بآداب النبى عليه الصلاة والسلام . فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وأشرف قدوة فى مكارم الأخلاق ، يقتدى بها المسلمون ، وناهيك بأبى بكر وصحبته لرسول الله من بدء عهد النبوة إلى آخره .

أدبه مع رسول الله :

أخرج ابن عساكر والإمام أحمد عن يزيد بن الأصم ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر أنا أكبر أو أنت ، قال أنت أكبر وأكرم وأنا أسن منك (١) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، قال لما نزلت (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية ، قال أبو بكر يارسول الله لو أمرتنى أن أقتل نفسى لفعلت ، فقال صدقت .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها ، أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضى .

---

(١) نقلت هذا الحديث فى الطبعة الأولى دون أن أبين أنه جاء فى رواية أخرى عن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الأصح لأن النبى أسن من أبى بكر وعمه العباس أسن منه .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أدبه مع نفسه :

أخرج ابن عساكر عن الأصمعى قال ، كان أبو بكر إذا مدح قال اللهم أنت أعلم منى بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون ، واغفرلى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون .

تأديبه لنفسه :

أخرج أحمد بسند حسن عن ربيعة الأسلمى رضى الله عنه قال : جرى بينى وبين أبى بكر كلام فقال لى كلمة كرهتها وندم فقال ياربيعة رد علىَّ مثلها حتى يكون قصاصا قلت لا أفعل ، قال لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت ما أنا بفاعل ، فانطلق أبو بكروجاء أناس من أسلم فقالوا لى ، رحم الله أبا بكر فى أى شىء يستعدى عليك ، وهو الذى قال لك ماقال ، فقلت أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثانى اثنين ، وهذا ذوشيبة المسلمين ، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونى عليه فيغضب ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة وانطلق أبو بكر وتبعته وحدى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الحديث كما كان ، فرفع إلىَّ رأسه فقال . ياربيعة مالك والصديق ، فقلت يارسول الله كان كذا وكذا ، فقال لى كلمة كرهتها فقال لى قل كما قلت حتى يكون قصاصاً فأبيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل لاترد عليه ولكن قل قد غفر الله لك ياأبا بكر اه .

لله أى وجدان هذا الوجدان ، وأى نفس تلك النفس ، بادرة بدرت منها لمسلم فلم ترض إلا اقتصاصه منها ، وصفحه عنها ، تناهيا بالفضيلة ، واستمساكا بالأدب ، وشعوراً تمكن من الجوانح وأخذ بمجامع القلب فكانت عنده زلة اللسان ولو صغيرة ألماً ، يتململ منه الضمير فلا يستريح إلا بالاقتصاص منه ، ورضا ذلك المسلم عنه ، فاللهم هبنا من عظيم رحمتك أخلاقا تغلب على شهواتنا ، وتطهر من أدران الكبرياء الباطلة قلوبنا ، لنرى مواطن الخطأ فنتجنبها ، وطرق الزلل فنتنكبها ، فتبعد عن ظلمات الرذائل خطانا، وتتمكن فضائل السلف الصالح من نفوسنا ، فتمكن لنا فى الأرض سلطان عزنا ، ونجعل إلى ملتك الأعلى مصيرنا ، إنك سميع الدعاء .

تأديبه المسلمين :

كان رضى الله تعالى عنه يتلطف بأن يحمل الناس على طريقته ، ويؤدبهم بأدب نفسه ، مع ما كان عليه المسلمون يومئذ من سلامة الفطرة ، وطهارة الأخلاق ، والتمسك بآداب الشرع ، مبالغة فى النصيحة لهم ، وحناناً عليهم، وقياماً مقام الوالد الرءوف بينهم .

أخرج أبو عبيد فى الغريب عن أبى بكر أنه مر بعبد الرحمن بن عوف وهو يماظ (أى ينازع) جاراً له ، فقال له لا تماظ جارك ، فإنه يبقى ويذهب عنك الناس .

وخطب الناس يوما خطبة قال فيها : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد ضل ضلالا مبينا ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله الذى شرع لكم وهداكم به ، فإن جوامع هدى الإسلام بعد كلمة الإخلاص ، السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم ، فإن من يطع الله وأولى الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر فقد أفلح ، وأدى الذى عليه من الحق ، وإياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب ، وإياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب ، ثم إلى التراب يعود ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم حيٌّ وغدا ميت .

وستأتى هذه الخطبة برمتها فى فصل الخطب ، وكثير أمثالها مما تلين له قلوب الجماد ، وتسترشد به إلى الفضيلة عقول ذوى العناد ، وتوضح للمؤمنين سبل الهدى والرشاد .

أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم :

أخرج الإمام أحمد فى الزهد عن ميمون بن مهران قال : جاء رجل إلى أبى بكر فقال السلام عليك يا خليفة رسول الله : قال من بين هؤلاء أجمعين (يشير إلى من كان معه من الصحابة أدباً معهم وتأديباً للقائل) .

وأخرج ابن عساكر عن أنيسة قالت نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل أن يستخلف وسنة بعد ما استخلف فكان جوارى الحى يأتينه بغنمهن فيحلبهن لهن .

وأخرج ابن عساكر أيضاً عن أبى صالح الغفارى ، أن عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ماأرادت فجاءها غير مرة كى لا يسبق إليها ، فرصده عمر فإذا هو بأبى بكر الذى يأتيها ، وهو يومئذ خليفة فقال عمر أنت هو لعمرى .

هكذا التسابق إلى الفضيلة ، والتسارع إلى الخيرات ، وهذا منتهى الرأفة وغاية الغايات من التواضع ، وحق لأمة هكذا يكون رؤساؤها ، وبهذه الأخلاق يتخلق ساداتها أن تمتلك رقاب البشر ، وتسود على البدو والحضر .

وإن ديناً هذا تأثيره فى الأخلاق ، وتهذيبه للفطرة لدين الحق الذى لو تمسك أهله بهديه ، واهتدوا فى ظلمات الحياة بنوره لكانوا إلى هذا العهد أسعد الأمم حالا ، وأعلى الناس كعباً ، ولكنهم فرطوا والمفرط بالخسارة أولى » وبالندامة أحرى ، (ولا يظلم ربك أحداً) .

وحسب أبى بكر من الأدب والتواضع قوله فى خطبته يوم السقيفة ، يخاطب المسلمين كبيرهم والصغير وعظيمهم والحقير وغنيهم والفقير (قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى) :

يقول أبو بكر لهذا الجمع لست بخيركم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر[1] ولو كنت متخذاً خليلا غير ربى لاتخذت أبابكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام) أواه كيف لا يكون أبو بكر بعد هذا الحديث خير المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أبرهم بالشىء وأقربهم إليه وأقدمهم صحبة له ، وإنما هو الأدب النبوى الذى تأدبت به نفسه ، والتواضع الذى أشرب به قلبه لا ينفكان عن مثله ولا يحطان من جلالة قدره ، بل يعليان مكانته فى النفوس ، ويحببان به القلوب ويمهدان لرعيته طرق الطاعة لأمره ، والخضوع له والالتفاف حوله ، والعمل بإشارته ، والذب عن حوزته .

---

[1] قال فى مشكاة المصابيح قوله أبو بكر هكذا بالرفع فى صحيح مسلم ، وعند البخارى بالنصب وهو الظاهر ووجه الرفع بأن تكون (من) زائدة على مذهب الأخفش وقيل (إن) بمعنى نعم فيكون أبو بكر مبتدأ ومن أمن الناس خبره وقيل اسم إن ضمير الشأن وهو نادر مع إن المكسورة كما عرف فى النحو والأوجه ما ذكره بعضهم أنه يحكى على ما هو عليه وقد ثبت من قول أمير المؤمنين على فيما أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم تميما الدارى (شهد به أبو بكر بن أبو قحافة) الخ .

أين هذا ممن اتخذوا بعد اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين ، ويمزقون أحشاء الإسلام ، ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس ، والتحجب وراء الستور ، والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء ، حتى انتزعوا لأنفسهم من صفات الألوهية ألقاباً ، واتخذوا من لباس الأعجمية جلباباً ، وركبوا من متن الغرور مراكب صعاباً ، فحكموا الناس بالظلم والاستبداد ، وساقوهم بعصا الاستعباد ، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين فاندفعوا من قرون طويلة في غمار الفتن وشغلوا عن أمر دنياهم بأمر أولئك الجبابرة العتاة بين خارج عليهم ، ومقاتل معهم ، ومنابذ لهم ، يأخذ بأسباب الحيطة لنفسه ، ومظاهر لهم شغلوه في خدمة شهواتهم عن النظر إلى يومه وأمسه ، نخمدت من جراء ذلك جذوة العقول ، وفترت القوى ، وانحطت الأخلاق وفقد العلم ، وبارت الصنائع .

ومن وراء هذا كله الكذابون والوضاعون ، يستدرجون أولئك الجبابرة بالطغيان ، ويتزلفون إليهم بوضع الحديث ، ليدوسوا بأقدامهم على رقاب الأمة ، ويبددوا نظام الإسلام ، حتى لقد اجترأ أحدهم على أبي جعفر المنصور على قرب عهده بالتابعين ، وعلمه بالحديث وبعد غوره في الدين ، فذكر له حديثاً وضعه يطريه فيه فأنكره عليه وطرده من حضرته .

لهذا لم يزل فريق من الناس ينسب أسباب تقهقر المسلمين إلى الدين والدين يبرأ إلى الله من كل ما يخالف سيرة الصحابة ، ويصادم قوانين الترقي ، كالعلم والحرية والعدل ، وإنما هي نزعات قامت في النفوس تذرع بها أربابها إلى إلصاق كل شيء بالدين ليحاربوا باسمه كل شيء خالف أهواءهم ، ونابذ أغراضهم ، ومن لنا بمؤرخ صادق اللهجة شديد العارضة عظيم الاطلاع غير هياب من أعداء الحق ، ولا رغاب في غير الثواب من الله والشكر من الناس ، يضع لنا تاريخاً يستقصي به أخبار الماضي ، ويتتبع مظان العلل فيكشف عن

بصائر هذه الأمة الغطاء ، ويزيل عن أبصارهم الغشاء ، فقد والله سئمت نفوسنا من سرد تاريخ الأمة الإسلامية كما يسرد المنشد قصيداً اختلط غثه بثمينه ، وضعيفه بمتينه ، ونحن مع ذلك لاهون بالسفاسف ، ولعون بما ابتدعه لنا المبتدعون ، من وسائل الرضا بالحرمان من العلم ، والسكوت على أذى هذا الظالم ، ولله فى خلقه شؤون .

زهده وورعه

اعتادت أسماعنا وألفت أذهاننا من معنى الزهد بما ابتدعه لنا المبتدعة ، ووضعه الوضاعون ، أنه عبارة عن ترك الدنيا والانزواء فى زوايا البطالة والكسل ، ليكون الزاهد عالة على سواه ، مترقباً للرزق ممن عداه ، وهو بهتان على الزهد وعكس لمعناه إذ الزهد فى الحقيقة هو التعفف عما بأيدى الناس ، والقناعة بالكفاف عن الفضول ، والتماس الحلال من طريق العمل دون الاعتماد على كفاية الأغيار ، كما سترى ذلك مبسوطاً فى غير هذا المحل .

ومذهب الصحابة فى الزهد هو العفة عن الفضول ، والقناعة بالكفاف ، وليس منهم إلا من كانت له وسيلة للارتزاق من الحلال ، هذا مع الرضا بالقناعة ، وعدم الطموح إلى الفضول ، تهذيباً لنفوسهم واقتداء بنبيهم صلى الله عليه وسلم ، وذلك هو زهد أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

مما يروى عن زهده وعفته ورضاه بالكفاف من العيش ، أن زوجته اشتهت حلواً ، فقال ليس لنا مانشترى به ، فقالت أنا أستفضل من نفقتنا فى عدة أيام مانشترى به ، قال افعلى ففعلت ذلك فاجتمع لها فى أيام كثيرة شىء يسير ، فلما عرفته ذلك ليشترى به حلواً أخذه فرده إلى بيت المال ، وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار مانقصت كل يوم ، وغرمه لبيت المال من ملك كان له .

وروى أنه لما ولى الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه ، والارتزاق من وراء عمل يده ، ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً . فأصبح يوماً وعلى ساعده أبراد ، وهو ذاهب إلى السوق فلقيه عمر ، فقال أين تريد؟ قال إلى السوق ، قال أتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ، قال فمن أين أطعم عيالى ؟ فقال انطلق يفرض لك أبو عبيدة . فانطلقا إلى أبى عبيدة فقال ، أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلفت شيئاً رددته وأخذت غيره ، ففرضا له كل يوم نصف شاة ، وما كساه فى الرأس والبطن : أخرجه ابن سعد عن عطاء ابن السائب .

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال زيدونى فإنّ لى عيالا وقد شغلتمونى عن التجارة فزادوه خمسمائة .

ومما يدل على شدة ورعه ، وأنه إنما قبل فرض العطاء اضطراراً لاشتغاله بأمر المسلمين عن التجارة ، ما أخرجه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت لما استخلف أبو بكر ، قال لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مؤونة أهلى ، وشغلت بأمر المسلمين ، فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ويحترف للمسلمين .

وروى عن عائشة أم المؤمنين أنها دخلت على أبيها فى مرضه الذى توفى فيه ، وطلبت إليه أن يعهد بالأمر وهى حزينة كئيبة فرفع رأسه وقال : يا أمه هذا يوم يجلى لى عن غطائى ، وأشاهد جزائى إن فرحا فدائم ، وإن ترحا[1] فمقيم ، إنى أطمت أمانة هؤلاء القوم[2] حين كان النكوص إضاعة والخذل تفريطاً . فشهيدى الله ما كان يقيلنى إياه ، فتعلقت[3] بصحفتهم

(١) وفى نسخة لئن فرح فدائم لئن ترح فقيم

(٢) وفى النثر المختار لانى اطلمت بإمامة هؤلاء القوم

(٣) فى النثر تبلغت

وتعللت بدرة لقحتهم ، فأقمت صلاتى[1] معهم لا مختالا أشراً ، ولا متكاثراً بطراً ، لم أعد سد الجوعة ، وورى العورة ، وقواتة القوام ، حاضرى الله من طوى ممض تهفو منه الأحشاء ، وتجب له المعى[2] ، فاضطررت إلى ذلك اضطرار المريض إلى المعيف ،الآجن[3]، فإذا أنامت فردى إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ، ورحاهم ودثارة مافوقى اتقيت بها أذى البرد ، ودثارة ماتحتى اتقيت بها نز الأرض ، كان حشوها قطع السعف المشع .

يترك هذا الخليفة العظيم تجارته ، ويتخلى عن ذرائع كسبه ، اشتغالا عنها بأمور المسلمين ، وقياما بوظائف الخلافة ، فيضطر إلى أخذ نفقته من بيت المال ، بما لا يزيد عن الحاجة ، إلى سد الجوع وستر العورة ، ثم هو يؤدى للمسلمين خدمة هيهات أن تؤدى حقها الخزائن ، ويقابلها الشكر ، ولما يقضى واجبه ويشرف على يومه ، ويرى عنده فضلة من مال المسلمين ، وهى ذلك المتاع الحقير ، يأمر بردها إلى المسلمين ، ليلقى ربه آمناً مطمئناً ، نزيه القلب ، طاهر النفس ، خفيف الحمل ، إلا من التقوى ، فارغ اليدين إلا من الإيمان إن فى هذا لبلاغاً وإنها لموعظة لقوم يعقلون .

فاللهم إن هذه التقوى وهذا الزهد وإن كان أليق بمثل أبى بكر ، وألصق بمن أدرك عهد النبوة ، وأجدر بالخلفاء المهديين الراشدين ، إلا أن فيهما عظة لو تذكرها بعد خلفاء المسلمين ، وادرعوا منها جلباباً ليس بالصفيق فيثقل عليهم حمله ، ولا بالرقيق فيتكشف عن ضمائرهم مادونه ، لما زجت بهم نزعات النفوس فى ظلمات المراسم الأعجمية (المنتزعة من محض الوثنية التى هدمها وكل توابعها الإسلام ، ونعى على أهلها عوائدهم الخسيسة القرآن) فتركتهم مثلا فى

(١) وفى النثر فأقمت صلاتى معهم فى لداماتهم .
(٢) وفى العقد ويجف له الأمعاء .
(٣) وفى النثر اضطرار البرض الى المعتب الآجن .

الجبارين ، حاشا أفراداً منهم اختاروا لأنفسهم الاعتدال دثاراً ، والتقوى شعاراً فألحقوا بالراشدين وتركوا أحسن الذكر فى تاريخ المسلمين .

وهيهات لتلك النفوس الهائمة فى قضاء الحياة الفانية ، أن ترضى لنفسها من المتاع الدنيوى ما رضيه لنفسه أبو بكر . وأنى للمؤرخ الناقد أن يتتبع منافذ القضاء التى أرسلت علينا من شواظ الوثنية الغابرة شرراً - مازال يعظم ويشتد حتى أعاد لنا سيرتها الأولى ، وأتى على الخضراء واليابسة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

جمع القرآن :

من مناقب أبى بكر العظيمة ومآثره الكبيرة جمعه القرآن ، ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل إلا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجترأ فيه على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة القصاص والوضاعين ، الذين شوشوا على الأمة فى الدين والسياسة والأخلاق تشويشاً الله أعلم بما جر على الأمة من البلاء ، ولو لم ينهض أئمة الحديث وحفاظه من أواخر القرن الثانى وما بعده إلى تلافى هذا الخطب ، وتتبع الأسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع عن الصحيح لكان الخطب أعظم والمصيبة أشد .

أما القرآن فلله الحمد والمنة على أنه سبحانه تكفل بحفظه ، قال تعالى فيه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) لهذا ألهم الله أبا بكر وعمـــر ما ألهم من النهوض إلى جمعه من صدور القراء وبعض الصحف ، فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفا واحداً منه تغيير أو تبديل . وأما سبب جمعه فيظهر مما يلى:

أخرج البخارى عن زيد بن ثابت قال (أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل

اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه ، وإنى لأرى أن يجمع القرآن ، قال أبو بكر . فقلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ، فرأيت الذى رأى عمر . قال زيد وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر إنك شاب عاقل ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، فو الله لو كلفنى نقل جبل ما كان أثقل على مما كلفنى به من جمع القرآن ، فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى الذى شرح الله صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبه آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهما) .

قضاؤه

أخرج البغوى عن ميمون بن مهران ، قال كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله فإن وجد فيه مايقضى بينهم قضى به ، وإن لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ ، فى ذلك الأمر سنة قضى به فإن أعياه خرج فسأل المسلمين ، وقال أتانى كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ ، قضى فى ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر عن رسول الله ﷺ ، فيه قضاء . فيقول أبو بكر الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا .

فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ ، جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به ، وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فإن أعياه أن يجد فى القرآن والسنة ، نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ؟ فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به وإلا دعا رءوس المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر قضى به .

— ٩ —

كلام على القضاء فى الإسلام

لا يخفى على من له إلمام بأصول الشريعة أن الأحكام القرآنية التى كانت تنزل بإزاء الحوادث والسنة النبوية التى ورد فيها حكم قضى به الرسول ﷺ ، إنما هى أصول عامة أو كليات ليس من شأنها الإحاطة بجزئيات الحوادث ، التى تتجدد فى كل وقت ومكان ، لهذا لما أرسل رسول الله ﷺ ، معاذاً إلى اليمن قال له بماذا تحكم ، قال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد ، قال بسنة رسول الله ، قال فإن لم تجد ، قال أجتهد برأيى ، وفى رواية أجتهد رأيى . فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله .

وأنت ترى من هذا أن لأبى بكر رضى الله عنه أن يجتهد برأيه فى الحوادث التى لا يكون بإزائها نص صريح فى الكتاب ، ولا سنة ثابتة عن النبى ﷺ ، ومع هذا فهو على بصيرته فى الدين وعلمه وتقواه وعدله ، كان يرى أن لا ينفرد بحكم فى نازلة ، ولا يقضى قضاء ليس بإزائه نص صريح ، إلا برأى جماعة من الصحابة ، مبالغة فى الاحتياط ودفعاً لشبه الضمائر ، وقد تابعه على هذا عمر رضى الله عنه وحذا حذوه فيه ، وإذا علمت أن

رسول الله ﷺ ، قال . (اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر)(١)، اتضح لك من جميع ما قدمناه ، أن هناك أموراً لا ينبغى فى هذا الكتاب السكوت عليها وعدم الإلمام بأطرافها .

إن الاجتهاد بمعناه اللغوى هو بذل الجهد ، وقول معاذ لرسول الله ﷺ ، أجتهد برأيى ، ظاهر معناه أنه يحكم بما يراه ، بعد بذل الجهد فى تمحيص الرأى ، وتحرى الحق ، واستشارة أهل الرأى ، وليس هناك قرينة أو شىء آخر ، يدل على أن معاذاً أراد بقوله أجتهد برأيى معنى غير ما ذكرناه (٢) ، وقد رضيه رسول الله ﷺ ، ورخص به لمعاذ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإسلام دين اليسر لا دين العسر ، فقال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما رخص لمعاذ بالاجتهاد كى لا تتعطل مصالح المسلمين ، ولا يكون عليهم حرج فى الدين .

ومن البديهى أن هذا الترخيص تشريع للاجتهاد ، الذى هو إدارة الأحكام على المصلحة على تمادى الزمان ، وأول من تحرى مصلحة المسلمين وحكم بالحق أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، ومع هذا ومع ما رخص له به من الاجتهاد ، فإنه رأى ورأيه الحق أن لا ينفرد برأيه فى الأحكام ، ولا يقضى بقضاء مبنى على الرأى ، إلا باستشارة جمع من الصحابة وإجماعهم على ذلك الرأى تمحيصاً للحق وتحريا للصواب وأخذاً بالأصلح والأحوط .

إذن ينتج معنا من هذه المقدمات أمور هى من الأهمية بمكان (منها) مشروعية الترخيص بالاجتهاد عند الحاجة ، أى عند عدم وجود النص ، (ومنها) أن الاجتهاد بمعناه اللغوى دائر مع المصلحة والحق ، مرخص لوضع

---

(١) أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه .

(٢) أى ما اصطلح عليه الأصوليون .

الأحكام بإزاء الحوادث التي لا يقابلها نص من الكتاب والسنة (ومنها) أن أبابكر سن سنة الشورى ، وعدم الانفراد سواء بالرأى بوضع لحكم أو بالقضاء فيه ، وتابعه على ذلك عمر رضي الله عنهما ، وهما أولى من يستن بسنتهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقتدى بهمـــا للحديث السابق .

إذا تقرر هذا علمنا أن المسلمين بما دخل على نظامهم الاجتماعى من الوهن ، وما تخلل حكوماتهم من فساد النظام ، إنما أتوا من قبل أنفسهم لا من قبل الدين كما يفتريه أعداؤه ، أو يقول به فريق من سوائم البشر ، الذين هاموا بمظاهر التدين ، كما تهيم السائمة فى منابت الكلأ ، فيجتر من هنا تارة ومن هناك أخرى بلا نظام ولا ترتيب ، إذ الدين لم يحص كل ما تحتاج إليه المجتمعات الإسلامية من الأحكام الجزئية فى المعاملات ، ولم يقيد الأمة بقيود الحصر بما جاء فيه من كليات الأحكام ، دون التوسع فيما يقتضى لها من الجزئيات .

أجل قد أصيب القضاء فى الإسلام بآفات عظيمة ، أثرت كثيراً فى الحالة الاجتماعية عند المسلمين ، ولكن ما ذنب الإسلام وهو دين اليسر الذى دفع عن الأمة الحرج ، ونبهها إلى وجوب التوسع فى القضاء بتوسع الحاجات ، وبما لا ينافى قاعدة الحق والعدل ، التى تدور عليها مصلحة المسلمين وقد عمل بهذا الخلفاء الراشدون مدة خلافتهم ، التى كانت الأمة فيها على حال من سذاجة الفطرة وجدة الدين وصفاء القلوب ، تكاد تجعل التخاصم بين الناس فى حكم المفقود لقيام الزواجر النفسية مقام الوازع بالشرع الرادع بالتأديب من جهة ، ولانحصار المعاملات فى دائرة لم تتعد طور السذاجة المذكورة من جهة أخرى ، ثم أعقب ذلك فترة اشتغل بها الناس بالجهاد ، وتوسعوا بالفتح وخالطوا الأمم ، فطرأ بعد ذلك انقلاب فى السياسة

والملك وتغيير عظيم فى أصول المعيشة ، تشعبت فيه طرق الأعمال ، وتوسعت أحوال المعاملات والقضاء فى غضون ذلك لم يتعد طوره الأول إلا بانتقاله من أيدى الخلفاء إلى أيدى أشخاص آخرين هيهات لأخير خيرهم أن يبلغوا عشر معشار الخلفاء من العلم بالشريعة والأخذ بأسباب الحزم والمصلحة وانتهاج منهج العفة والعدل فكان ينتهى إليهم فصل الخصومات فيفصلون بها على قدر مبلغهم من العلم ، ومكانتهم من عفة النفس ونزاهة الضمير ، بلا سيطرة عليهم ممن هو أرفع منهم أو قيد بنظام خاص يلزمهم جادة الإنصاف ، ويضطرهم إلى تنكب طرق الخطأ أو الجور إلا ما جاء من ذلك فى كتاب الله ، من أمر بالعدل ونهى عن الظلم وتحذير من اتباع الهوى ، وإنما يستصلح بالتحذير والزواجر نفس تطهرت بأصل الفطرة من شوائب الهوى ، ونشأت على سذاجة الفطرة ، وأولئك هم المسلمون الأولون ، وأما من انغمسوا بعد ذلك بحمأ الحضارة وافتتنوا بزخارف العالم الفانى فإنهم إلى سيطرة السلطان أحوج منهم إلى التذكير بالقرآن ، لهذا جاء فى بعض الآثار (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ولابد دائماً من قوة تصاحب الشرائع « فتقيم شعائرها وتنفذ أوامرها ، وإلى هذا وردت الإشارة فى كتابه الكريم (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) والإسلام بما جاء به من وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جعل الناس رقباء على أولى السلطة كما جعل هؤلاء مسيطرين على إقامة أحكام الشرع فقط ، ، ولكن غفلة الناس وأهواء الحكام أضاعا مزايا الإسلام ، وترك الأمة منقادة لجور الرؤساء محكومة بالأهواء ، لا تعرف لها حقاً قبل رؤسائها ، ولا تفتأ تعتمد فى تدبير كل شؤونها على قادتها .

قام فى غضون ذلك من التابعين جماعة نشطوا لجمع السنة فى السطور بعد إذ كانت فى الصدور ، ضبطا لقواعد الشريعة وتقييداً للأهواء ثم تلاهم

ومعاذ الله أن نريد بهذا القول رمى الأئمة بالتقصير فى جانب الحاجة الاجتماعية إلى التوسع فى الأحكام بتوسع طرق المعاملات فإن هذا فوق طرق الآحاد ، أو نبخسهم حقهم من الاحترام ، وهم لعمر الله أول من يحترم عملهم ويشكر صنيعهم ، بما خدموا به الشريعة وما عانوا من استنباط الأحكام وتدوينها تسهيلا لتناول الأحكام ودفعاً لفوضى الرأى ، حتى إنا لنفاخر غيرنا بما بلغوه من بعيد الشأو وقصى الغاية فى تتبع أحكام المعاملات المدنية أو فى الحقوق . وإنما هناك أمور ربما فاتهم النظر إليها اعتماداً منهم على قرب عهد الناس بالإسلام ، وتمكن التقوى والعدل من النفوس ، ولم يصلوا إلى مكان النظر فى الغيب ليروا ماذا يحدث من الأقضية بعد المسلمين ، وإلى أية درجة تنتهى إليه الأخلاق وتتبدل العوائد ، وقد فسحت تلك الأمور لقادة الأمة مجال العبث بالشريعة ومهدت للحكام سبيل الهوى ، فكانوا فى كثير من العصور الإسلامية آفة الأمن وسم الاجتماع ، إلا من عصم ربك وهؤلاء لا يبنى عليهم حكم .

وأما تلك الأمور فهى ، أولا كثرة الاختلاف بين المخرجين والمرجحين حتى على المسألة الواحدة ، مما جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لأحد من الناس أن يتناول منه حكما جازماً إلا بواسطة الفقهاء والمفتين ، وقليل من الناس المعصوم عن الخطأ أو الغرض ، فيحلل أحدهم من طريق أحد المرجحين ما يحرمه الآخر من طريق غيره[1] هذا بين علماء المذهب الواحد ، فما بالك بتعدد المذهب أيضاً .

ثانياً : أحكام العقوبات التى لم يرد منها نص صريح فى الكتاب أو السنة كالضرب والتعذير والحبس ، ووضع لها الأئمة والعلماء أحكاما من طريق

(١) راجع حاشية الدر المختار لابن عابدين ، وأنت ترى فيها ما كتبه بشأن المفتين فى عصره وكيف توسعوا بالإفتاء إلى أن أضاعوا الحقوق وبالخاصة حقوق الأوقاف .

الأئمة والفقهاء الذين وجدوا القرآن مجموعا يسرا والأحاديث قد أحرزت فضبطت فتفقهوا فى القرآن والحديث ، ثم اشتغلوا بالاستنباط والتفريع فوضعوا علم الفروع الذى يشتمل على قسمى العبادات والمعاملات ، وتعمقاً لخدمة خدموا بها الإسلام ، وضبطوا بها أمور القضاء ، بما وصل إليه اجتهادهم لو لم يزعم من جاء بعدهم من فقهاء كل مذهب أنهم تركوا الأمور على أكمل الحالات ، ولم يبق للناس إلا أن يحفظوا ما استنبطوه ويعلموا ما بينوه .

أجل إن الأمر كذلك فى قسم العبادات والاعتقادات ، لأنه ليس مبنياً على شيء من الرأى ، وإنما هو أصول ثابتة فى الكتاب والسنة توسعوا فى بيانها وتوضيحها ، وأما فى قسم المعاملات فليس الأمر كذلك إلا من بعض الوجوه بدليل ما كان بينهم من الاختلاف الكثير فى المسألة الواحدة ومنشؤه اجتهاد كل فرد منهم برأيه فى طريقة الوضع والقياس والاستنباط ، ولو ألهم الله القوم ما ألهم أبا بكر وعمر من عدم الانفراد بالرأى فيما لا يكون بإزائه نص صريح من الكتاب أو السنة وأجمع أهل الرأى والعلم منهم على جعل علم الفروع قائماً بالتكافل خالياً من شوائب الظنون والاختلاف ، دائراً مع المصلحة التى تناسب كل عصر ، ولم يأت بعدهم من ينزل أقوالهم منزلة الكتاب العزيز ، من حيث لزوم الاكتفاء بها وعدم الحيد عنها أو النظر فيما يصلح أو ما لا يصلح لكل زمان منها لما عرا نظام القضاء فى الإسلام ما عراه من الخلل والنقص وتلاعب الأهواء .

إن لنظام القضاء أثراً عظيما فى ترقى الأمم وتدنيها إذ متى انحرفت حكومة من الحكومات عن طريق العدل ، وحاولت حكم الأمة بالجور والاستبداد فإنها أول ما تتكىء فعلى القضاء ، فإن كان نظام القضاء قوياً ثابتاً منعها من الجور وصدها عن سبيل الهوى فحفظ على الناس أرواحهم وأموالهم وحقوقهم والعكس بالعكس .

الرأى أو الاستنباط لم تعين فيها درجات الجرائم عن وجه يمنع من تحكم هوى النفوس ، وتوزع الاختصاص بالحكم فيها وتنفيذها بين الولاة والقضاء والمحتسبين ، فكان من ذلك أن تذرع بها الحكام الظالمون للتطاول على أموال الناس وحقوقهم وسلب الراحة والأمان من بين ظهرانيهم ، لا سيما بعد مبالغة الخلفاء بالتحجب وترفعهم عن النظر فى المظالم وانزوائهم فى زوايا القصور عن أنظار الناس .

والظلم على ذلك الوجه إذا طال فى أمة دمرها وأفسد أخلاقها وأوهن قوتها ، فتألف المداهنة والنفاق ، وتذل نفوسها لأولى السيطرة ، وتمنع ثروتها من الظهور خوف المصادرة ، فتبور عندها التجارة والصناعة ، وتقف حركة الأعمال وناهيك بها من آفات تنخر جسم العمران وتهدم من التمدين شوامخ البنيان ، وقد كاد الظلم على ذلك الوجه يتأصل لقدمه فى الأمة ، حتى قال ابن خلدون عن مداهنة الحكام فى عصره إنها لازم من لوازم الأمن على الأنفس والأموال لا حرج فيها على المداهنين ، وما أقبحها من حال آلت بالأمة الإسلامية إلى هذا المآل .

ثالثاً ـ تبادل المسئولية [١] بين طبقات العمال وتعيين اختصاص كل فرد منهم بوظيفة خاصة لا يتعداها ، وقد وضع لها الأئمة والعلماء كتباً خاصة كالأحكام السلطانية ، وآداب القضاة والمفتين وأشباهها ، إلا أنها لشوبها بآفة الخلاف وخلوها من تعيين العقوبات التى تقع على المخالفين تعييناً باتاً صريحاً كادت تكون بحكم المعدوم ، وإن وجد شيء منها فليس وراءه من قوة التنفيذ ما يقف بكل عامل عند حده وعلة ذلك عدم تحديد المسئولية فى تلك الكتب ، وارتباط العمال بها ارتباطاً يشبه السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تكون السيطرة عامة من الكبير إلى الصغير ومن هذا على الأدنى ، وأنى

(١) المراد بالمسئولية هنا على اصطلاح كتاب العصر التبعة .

يتيسر ورود هـــذه المسئولية لو فرض بيانها فى كتب الفروع ما دام لا رأى للأمة فى التشريع ، ولا لأولياء الأمر ارتباط بقانون بل هم قادة الأمة الذين ترك المسلمون اعتمادهم عليهم وركنوا بكل شؤونهم إليهم . فما راق لديهم من أقوال الفقهاء عملوا به وما لم يرقهم نبذوه ، وعاملوا الأمة معاملة السائمة كما تشاء الأهواء ، وكم جرت هذه الفوضى بنظام القضاء من البلاء على الناس، وصبت عليهم من المصائب ما لا يتحمله الجماد ، وليس العهد بها فى المملكة العثمانية ببعيد . فإنا إن لم ندرك شيئاً منها فقد أدرك آباؤنا وأخبرونا بمبلغ ما وصل إليه لذلك العهد ، انحلال نظام الاختصاص وفقد المسئولية ، حتى كان ليأمر بحبس المدين (مأمور الطابو (١))قبل وضع القانون المعمول به لرجاء من الدائن ، ومثل هذا وأشد فى بعض الممالك الإسلامية ، كمملكة مراكش التى يموت بسجنها السجين دون أن يعلم بسبب سجنه أو موته السجان أو يأخذ خبره أحد من الحكام إلا من أمر بحبسه لمال يريد ابتزازه منه أو لمجرد التشفى والانتقام ، وهذا من التناهى فى الظلم الناشىء عن تشويش نظام القضاء والعياذ بالله .

وتالله إن الإسلام ليبرأ إلى الله من التصاق أمثال هذه المخازى بالمسلمين وهو إنما شرع الاجتهاد فى المسائل التى لا يكون بإزائها نص صريح ، درءاً لأمثال هذه المفاسد وتلافياً لكل ماعساه يحدث للأمة من الأقضية التى لم تحدث

---

(١) هذه وظيفة قديمة فى الدولة وهى خاصة بكتابة صكوك الفراغ والانتقال فى الأراضى الاميرية عملا بقانون الأراضى الذى وضعه السلطان سليمان وقسم به أراضى المملكة إلى قسمين خراجية وعشورية وجعل حق التوريث فى الأراضى الخراجية عائداً لنصوص القانون وحق بيعها للحكومة وقد توسعت الدولة فيه بعد ذلك حتى جعلت كل الأراضى والمسقفات داخلة تحت معاملات قانون الطابو حتى عدمت حرية التملك والتمليك فى المملكة العثمانية وأصبحت الأعيان جميعها ملكا للدولة كما هى مالكة للرقاب أيضا وهو شأن غريب من الحكومات المطلقة كما سترى تفصيله بعد .

فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ، لهذا لما كان يعرض على أبى بكر أو من بعده من الخلفاء الراشدين قضية من هذا القبيل يحكمون فيها برأيهم ، ورأى المسلمين بعد تتبع الكتاب والسنة كما رأيت ، وهكذا أئمة المذاهب إنما ألجأهم إلى الاجتهاد فى مسائل الفروع والتوسع فى وضع الأحكام توسع الأمة بالفتح وتبسطها فى مناحى الحضارة ، وتوفر أسباب التعامل وتنوع طرق التحيل بين الناس .

ولا جرم أن سنة الترقى والتدريج تقضى بتوفر تلك الأسباب ، وتعدد تلك الطرق ، ومن المصلحة الصالحة أن يدور الاجتهاد مع هذه السنة تلافياً لكل مايحدث للناس من الأقضية ، وتقييداً للحكام بالقانون ولو استمر ذلك إلى الآن لما طرأ على المسلمين ما طرأ من التقهقر الناشىء عن التضييق فى نظام القضاء ، ولبلغت قوانينهم الشرعية إلى هذا العهد مبلغاً من الترقى يدرأ عنهم كل آفات الظلم التى نخرت عظامهم ، وزعزعت أركان مجتمعهم ، ولكن ما الحيلة وقد حتم الفقهاء منذ أجيال طويلة بسد باب الاجتهاد لا لعلة سوى أن هذا القول وافق هوى من نفوس الأمراء الذين تعاكس قاعدة الاجتهاد مقاصدهم . فأعانوا الفقهاء على قولهم ، ودعموا بالقوة والجبروت دعواهم ، إذ الاجتهاد مبنى على المصلحة ، والمصلحة كانت تقضى بسد كل ثلمة يتسرب منها جور الرؤساء إلى الأمة ، وفى هذا غل لأيديهم عن الاستبداد ، وصد لأهوائهم عن التصرف بنفوس العباد ، وهكذا انطوى الثوب على غرة ، ومضى الأمر لهذا العهد على وجهه ، حتى بلغت بنا الحال الآن إلى العمل بالقوانين الوضعية التى تتمتع الأمم بها بالسعادة الدنيوية ، وأمامنا الشرع رحب الجناب وسيع الباب يصدنا عنه الفقهاء ويقتلنا دونه الرؤساء ، فاللهم ارزقنا من فضلك فرجاً ، واجعل لنا من هذا الضيق مخرجا ، إنك مجيب الدعاء .

ربما يتبادر إلى الذهن أنا نريد بهذه المقدمة فتح باب الاجتهاد لأهل الرأى ، يلجه منهم من شاء فى أى وقت شاء ، ليتلافوا حاجة القضاء فى كل عصر ، ويطلقوا عنان النظر والبحث فى هذا الأمر ، ومعاذ الله أن يخطر لنا مثل هذا فى بال ومن قبله جاء الأمة مصاب الاختلاف ، وتشوش نظام القضاء فأصبحت الأحكام عرضة لآفات الخلاف ، وإنما الذى نراه حاسماً للعلة وافياً بالحاجة واقياً من التمادى فى فوضى التفريع ، هو الاستنان بسنة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى الاجتهاد بالمسائل التى لا يكون بإزائها نص صريح فى الكتاب أو السنة ، ذلك بأن لا يتحكم فيها رأى فرد واحد ربما يخالفه فيه الآخر ، وهكذا إلى ما شاء الله فتحكم الأمة الواحدة بعدد غير متناه من القوانين ، كما هو شأن المسلمين بمخرجهم ومرجعهم الآن بل يكون الأمر فى ذلك شورى بين طائفة من العلماء المتضلعين فى علوم الشريعة ، الواقفين على حالة الأمة والعصر ينتدبهم عند الحاجة ولى الأمر فى كل قوم من المسلمين (كما كان أبو بكر ينتدب لمعونته بالرأى أهل العلم من المسلمين) ليجتهدوا فى وضع الأحكام بإزاء الحوادث التى تحدث للأمة[1] وتوافق حالة العصر وتفى بحاجة الترقى والاجتماع ، وإذ كان اجتهاد الصحابة كما علمناه هو عند الحاجة وتعذر وجود النص ، كذلك ينبغى لأولئك العلماء أن يكون اجتهادهم قاصراً على ما تمس إليه حاجة الدولة والأمة من الأحكام التى تقتضيها سياسة الشعور ، بلزوم العدل وتدرأ بها مفسدة تعطيل الأحكام ، أو الحكم بالهوى فيما لا يكون بإزائه نص صريح فى المسائل التى تعرض للحكام .

ومن ثم يتكون من أحكام الشريعة قانون شامل لأحكام العقوبة والحقوق ليس فيه شىء من مثارات الخلاف يتناول منه الأحكام سائر الناس

---

(١) يؤثر عن عمر بن عبد العزيز أنه قال يحدث للناس من الأقضية بقدر ما يحدثون لهم من الفجور وبهذه القاعدة عمل المالكية فى التفريع .

ويقصر عليه العمل فى الدولة على نحو ما صنعته الدولة العثمانية فى ترتيب مجلة الأحكام الشرعية ، التى أغنت الأمة عن تكبد عناء الاستفتاء ودرأت عنهم كثيراً من أذى التلاعب بالنصوص .

هذا ما نراه حاسما لداء الفوضى القانونية عند المسلمين قريباً من الصواب وسنة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين، وبعد ففوق كل ذى علم عليم والله ولى الإرشاد وإليه يرجع الأمر .

أولياته

منها أنه أول ما سمى خليفة وأول من ولى خلافة وأبوه حى ، وأول من فرض له رعيته العطاء ، وأول من أسلم ، وقد تقدم الكلام على إسلامه وأول من جمع القرآن ، وأول من وضع بيت المال .

— ١ —

كتبه وخطبه

كتبه :

(كتاب عهده للأمراء فى حروب الردة) بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سره وجهره ، وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان ، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم ، حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم ، لا ينظرهم ولا يرد

المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله . فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ، ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل الله من أحد شيئا مما أعطى إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه ، ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران . ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس ، فإنه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ، ويعلم ماهم لئلا يكونوا عيونا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اه .

كتابه إلى المرتدين وسيره إليهم قبل مسير الأمراء لحربهم :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى من بلغه كتابي هذا ، من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه ، سلام على من اتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى ، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله وأومن بما جاء به (أما بعد) فإن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده بشيراً ونذيراً ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، يهدى الله للحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعا أو كرها ، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه . وكان الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك

الخلد أفائن مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لاشريك له فإن الله بالمرصاد ، حى قيوم لايموت ولاتأخذه سنة ولانوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه بحزبه . وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وماجاء به نبيكم ، وأن تهتدوا بهديه وأن تعتصموا بدين الله عز وجل فإنه من لم يهد الله ضل ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم ينصره مخذول . فمن هداه الله كان مهدياً ، ومن أضله كان ضالا (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقر به . ولم يقبل له فى الآخرة صرف ولاعدل ، وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام . وعمل به اغتراراً بالله عز وجل . وجهالة لأمره . وإجابة للشيطان ، وقال جل ثناؤه (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقال جل ذكره (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وإنى قد أنفذت لكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله ، حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه . ومن أبى أن يقاتله على ذلك ولايبقى على أحد منهم قدر عليه . وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ويسبى النساء والذرارى ، ولايقبل من أحد إلا الإسلام [١] فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى

---

(١) كل هذا مبالغة لأهل الردة بالإرهاب فقط

فى كل مجمع لكم ، والداعية الأذان فإن أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا فاسألوهم بما هم عليه ، فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغى لهم اهـ .

كتاب عهده لعمر :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر ، إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت . ولكل امرىء ما اكتسب ، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .

كتابه إلى عمرو بن العاص :

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) إنى كنت قد رددتك إلى العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة وسماه لك أخرى ، مبعثك إلى عمان إنجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت أباعبدالله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك .

كتابه إلى خالد :

وكتب إلى خالد بن الوليد منصرفه من الحج يعاتبه ويأمره بقصد الشام :

(أما بعد) سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا فأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنئك أباسليمان النية والحظوة ، فأتمم

يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله عز وجل له المن وهو ولى الجزاء .

كتابه إلى عبيدة فى شأن الداربين :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبى بكر الصديق إلى أبى عبيدة بن الجراح سلام عليك فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فامنع من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من الفساد فى قرى الداريين ، وإن كانوا أهلها قد جلوا عنها وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها ، وإذا رجع إليها أهلها فهى لهم وأحق بهم والسلام عليك .

كلام على الخطابة عند العرب فى الجاهلية والإسلام :

مجمل تاريخ الخطابة عند العرب أنها قديمة مع الشعر وكان لهم بها تبريز . وفيها ولع ، ولها فى تاريخهم عظيم الأثر ، وطويل الخبر ونحن نجتزىء من ذلك بذكر مايهم إيراده ويناسب ذكره توطئة لما سيرد معنا من ذكر خطب أبى بكر وغيره من فصحاء الإسلام فنقول :

كانت العادة عند العرب فى الخطابة أن يكون الخطيب واقفاً على قدميه ، مشرفاً على الناس ، لهذا كان إذا خطب خطيبهم فى العراء علا نشزاً من الأرض وإن لم يجد خطب على الراحلة ، وفى غير العراء يقف على المنبر ، وكان لا بد للخطيب من أن يأخذ بيده العصا أو المخصرة أو القوس ، وتارة يخطب وفى يده القناة ، وللعرب فى هذا أشعار كثيرة ، فمنها قول معن بن أوس المزنى فى العصا .

فلا تعطى العصا الخطباء يوماً ... وقد تكفى المقادة والمقالا

ومنها قول لبيد بن ربيعة فى القسى :

ما إن أهاب إذا السرادق عمه ... قرع القسىّ وأرعش الرعديد

وقال جرير بن الخطفى فى حملهم القناة

من للقناة إذا ماعى قائلها ، وللأعنة ياعمرو بن عمار

ولما جاء الإسلام أقر كثيراً من هذه العوائد ، وإلى استعمال المسلمين المخصرة والعصا يشير بقوله كثير من شعراء الإسلام .

إذا قرعوا المنابر ثم خطوا ، بأطراف المخاصر كالغضاب

وربما كان هذا سبب حمل خطباء المنابر السيف الخشبي إلى الآن، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب واقفاً على منبر (١) .

وكذلك كان بعده الخلفاء الراشدون يخطبون وهم وقوف إلا فى خطبة النكاح فإنهم كانوا يخطبون وهم جلوس ، لهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يتصعدنى كلام كما يتصعدنى خطبة النكاح ،وذلك لأنه كان يخطبها جالساً وكان للخطابة عند العرب من المكانة السامية ما كان للشعر يفاخرون بها فى مشاهدهم ، ويتخير لها الخطباء من اللفظ أحسن ماعندهم ، إلا أنها كانت لا تخلو من السذاجة تبعاً لحالة القوم الاجتماعية ، ومعيشتهم الفطرية . ولما جاء الإسلام ببيانه ، وضرب بينهم بجرانه ، تفتقت القرائح واتسع مجال الفكر وبعدت مرامى العقول ، فارتقى فن الخطابة على عهد الصحابة والتابعين ارتقاء يدل على ما كمن وراء تلك السذاجة من الاستعداد الباهر ، الذى كان أشبه بكمون النار فى الزناد أظهرها الاحتكاك وطير شررها القدح .

والفضل فى ارتقاء فن الخطابة فى عهد الصحابة والتابعين إنما هو عائد للكتاب المبين ، وذلك من وجوه (منها) أن القرآن وإن كان نزل بلغة القوم

---

(١) عند الإمام أحمد وغيره من حديث سعد بن عائذ وسعد القرظ مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن رسول الله كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس ، وإذا خطب خطب على عصا .

التى بها يتخاطبون . وبفصاحتها يتفاخرون ، إلا أن أساليبه العالية التى أعجزت فصحاءهم ، وأخذت بمجامع قلوبهم ، أكسبتهم ملكة من البلاغة فى تخير الأساليب السامية غير ملكاتهم ، وأطلقت ألسنتهم من عقال الحوشية والتقعر الذى كان ديدن كثير من خطبائهم وفصحائهم .

حتى إنهم لكانوا يعيبون الخطيب المصقع إذا لم يكن فى كلامه شىء من آى القرآن ، فقد روى الجاحظ عن الهيثم بن عدى عن عمران بن حطان أنه قال : خطبت عند زياد أو قال ابن زياد فأعجب بها زياد وشهدها عمى وأبى ثم إنى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم ، هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن .

وروى الجاحظ عن الهيثم أيضاً أنهم (يعنى العرب) كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع آى من آى القرآن ، فإنه مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع .

(ومنها) أن الإسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من جفاء طباعهم أدخل من الرقة على عواطفهم مارق به كلامهم ، وكثر المعانى المؤثرة فى النفوس اختيارهم فى خطبهم ومخاطباتهم .

(ومنها) أن ماجاء فى القرآن من الترغيب والترهيب على الأسلوب البالغ حد الإعجاز فى التأثير على الضمائر والأخذ بشكائم النفوس ، أعانهم على التفنن فى أساليب الوعظ الخطابى عند حلول الأزمات ، أو الحاجة إلى تأليف قلوب الجماعات ، حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ، مالا يدفع بالبيض المرهفات ، ويملك من قلوب الرجال مالا تملكه البدر والأموال ، كما صنع أبو بكر فى خطبته يوم السقيفة التى امتلك بها قلوب المهاجرين والأنصار ، وصرف عن الأمة تلك الأمور

الكبار ، وكما صنع الحجاج فى أول خطبة له فى أهل العراق يوم إذ فلبوا للدولة المروانية ظهر المجن ، وسطرت على جباههم آيات الاستكبار والفتن، فإنهم ماطرق مسامعهم داعى الأمير إلى المسجد حتى أخذوا يفدون إليه أفواجاً ويلتقطون من أرضه الحصى يريدون رجمه بها وهو على المنبر استصغاراً لشأنه واحتقاراً لمولاه ولم يلبثوا أن طرقت أسماعهم زواجره ، واخترقت جدار قلوبهم صوادع كلمه ، حتى تناثرت من أيديهم الحصى ، وخشعت منهم النفوس ، وطأطأت الرقاب ، رهبة منه وإجلالا له ، كما سيمر عليك فى هذا الكتاب إن شاء الله .

(ومنها) أن الإسلام بما مهد لهم من سبل الفتح ومخالطة الأمم ، وبما منحهم من سعة السلطان والسيادة على الشعوب ، وفر لهم الأسباب الداعية إلى التوسع فى الخطابة ، بما تتطلبه حاجة التوسع فى الملك وتقتضيه عوائد الأمم المحكومة وأخلاقها .

هكذا كان شأن الخطابة فى صدر الإسلام ، ومبلغ تبرز القوم فيها وتسلطهم على النفوس الجافية بقوة سلطانها ، وقوى برهانها ، ولكن واأسفاه فقد بدأ يعروها الوهن ويحتفها الفساد من أواسط الدولة المروانية حيث كان استحكم الفساد باللغة العربية ، ودب فى نفوس الخلفاء داء العظمة والكبرياء ، فأقلوا من الظهور لعامة الأمة ، ويرفعوا بزعمهم عن الوقوف موقف المخاطب للناس ، لاسيما وقد كان الخلفاء فى صدر الإسلام يخطبون الناس عند طروء كل حادث جلل بلا تقييد بوقت ، ولا تكلف لقول ، فكانوا يجمعون المسلمين إلى المسجد تارة لإعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ، ووقتاً لتحذيرهم ، وآخر لوعظهم وتذكيرهم ، وأنى لمن اتخذوها بعد كسروية أن يقفوا للناس هذا الموقف ، وهم يرون أن الرأى سلطان لا يتعداهم ، وأن الناس بالنسبة إليهم همل لا ينبغى لعصا القوة والجبروت أن تتخطاهم .

ما أعظم مكانة الخطيب فى النفوس ، وأنفذ كلامه فى القلوب ، وأشده إثارة للعواطف ، إذا كان ذلك الخطيب أمير القوم الذى تتجه نحوه أنظارهم وتحدق به أبصارهم ، وتلتف حوله قلوبهم ، وتترامى إليه آمالهم ، يستلينهم بالقول إذا قسوا ، ويستخضعهم به إذا عصوا ، يمتلك نفوسهم بالرغبة تارة ، وبالرهبة أخرى ، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال فيدكوها بين يديه ، ويلين لهم بالقول ، فإذا استوهبهم الأموال والأرواح وهبوها له .

تالله إنها لمكانة سامية انحط عنها الأمراء على غير علم ، وسلطان نافذ القوة فى الأرواح لايدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية فى الأجسام ، وأنى يضارع الروح الجسم ، ولقد كان أول وهن دخل على سلطان الخطابة فى الإسلام فى عهد الوليد بن عبد الملك ، حيث بدأ بأن يخطب على المنبر جالساً ، وقد كان الخلفاء قبله يخطبون وهم وقوف ، ومن ثم دب دبيب الاستهانة بهذا الموقف العظيم شأنه ، الجليل شرفه ، حتى مجه الخلفاء والأمراء ، وانحط عنه القادة إما عجزاً عن الوفاء بحقه ، وإما استهانة به وترفعاً زعموا عنه ، وكان آخر الخطباء المجيدين من خلفاء المسلمين الخليفة المأمون العباسى رضى الله عنه ، وإنما انحلت عرى الخطابة بعد لما انحلت عرى الإمامة ، وأخذ الخلفاء يستنيبون بالصلاة بالناس كما استنابوا غيرهم بكل وظائف الإمامة ، فأصبحت الخطب تتلى على المنابر فى أيام الجمع ،لا لما وجدت له بالذات بل لأنها أصبحت من قبل الرسوم التى ينبغى أداؤها على أى حال كان ، حتى كان من ذلك أن تنوسى مع الزمان القصد الذى سنت من أجله الخطابة فى الإسلام ، فانقلب نفعها ضرراً وخيرها شراً ، بمن انتهت إليهم هذه الوظيفة السامية من جهلاء المسلمين ، الذين أصبحوا واحزناه ينفثون من أعلى المنابر سموم الجهل والأذى فى العقول ، بعد إذ كانت تشرق منه

شموس الحكمة فتنبعث أشعتها فى الأقطار ، وتمزق عن البصائر حجب الجهالة ، وغشاء الضلالة ، فكم فرج ذلك الموقف من الكروب ، وكم أزال من الخطوب ، وكم فرق ما اجتمع على الضلال ، وجمع ماتفرق من القلوب ، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم يفيضونها على الناس فيضاً ، ورأسهم بما تحملته من العقول أشبه بأوعية البخار ، ترسل قوته على الناس من أنابيب الأفواه إرسالا ، فتحركهم حركة من دبت فيه الحياة ، وامتلأ بروح النشاط . ولكن كان ذلك وأنى لنا أن يكون . والحديث شجون ، وقد اختص بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون .

خطبه :

كان أبو بكر رضى الله عنه فصيح اللسان قوى الحجة إذا خطب ، كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه ، وروى عن الزبير بن بكار أنه قال ، سمعت بعض أهل العلم يقول ؛ أفصح خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب .

وها نحن ننقل إليك فى هذا الكتاب ماوقفنا عليه من خطب أبى بكر رضى الله عنه .

١ — لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واختبط الناس فأصبحوا بين مصدق ومكذب ، جاء أبو بكر من السنح ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم بكلام سبق ذكره ، ثم خرج وخطب الناس فقال :

أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ، فى كلام طويل

ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه ، وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ، يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم فعاجلوه بالذى تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم .

٢ — (خطب يوم السقيفة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً . وأكثر الناس ولادة فى العرب وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفيء ، وأنصارنا على العدو ، وآويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

٣ — (وخطب يوم السقيفة أيضاً فقال) نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً من بيت الله ، وأمس الناس رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن هذا الأمر وإن تطاولت له الخزرج ، لم تقصر عنه الأوس ، وإن تطاولت له الأوس لم تقصر عنه الخزرج وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسى ، وجراح لا تداوى ، فإن نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي الأسد يمضغه المهاجرى ويجرحه الأنصارى اه .

ولقد أثرت هذه الخطبة فى الأنصار تأثيراً بالغاً ، إذ تنبه لها الأوس فخافوا أن يصير الأمر دونهم إلى الخزرج وتنبه الخزرج فخافوا أن يصير

الأمر إلى الأوس ، فتركوا جميعاً الأمر لقريش فانطفأت بهذا جذوة الفتنة وأمن الناس شر الخلاف .

٤ — وخطب بعد أن ولى الخلافة وهى غير خطبته التى أوردناها عند ذكر بيعته ولعل هذه الخطبة التى خطبها بعد البيعة العامة ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

(أما بعد) فإنى قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن ، وعلمنا فعلمنا ، فاعلموا أيها الناس أن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق ، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإذا أحسنت فأعينونى وإن أنا زغت فقومونى ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

كلام على الحكومة فى الإسلام :

أورد السيوطى فى تاريخه هذه الخطبة وروى فى ختامها عن مالك رضى الله عنه أنه قال (لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط) .

ومن تدبر قول الإمام مالك وأمعن النظر فيما جاء بتلك الخطبة ، علم أن الخلافة صارت ملكا عضوضاً وسلطة قاهرة ، لم يتأت للمسلمين أن يقوموا زيغ أوليائها منذ عهد بعيد ، وأن تلك الحكومة الإسلامية الأولى التى تمتع بها المسلمون زمناً ليس بكثير ، وعين أبو بكر حد السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الأنيقة حكومة ديمقراطية قل أن يجد طلاب الحرية والعدل فى كل عصر أحسن لسياسة الأمم منها ، وإنما تمتع بها المسلمون ذلك الزمن القليل مذ كانوا يشعرون شعوراً واحداً بحاجة الحياة الاجتماعية ، ويعلمون أن السعاد والشقاء منوطان بالاعتماد على النفس والعمل بسنة التعاون لا بمن يتولى أمرهم ، ويعطى مقاليد الرئاسة عليهم ، وهو واحد منهم يشعر كشعورهم ،

ويعمل للمصلحة العامة عملهم ، فإذا أحسن أعانوه ، وإذا زاغ قوموه ولكن لما فقد منهم ذلك الشعور واستحال إلى الاعتقاد بالعجز عن القيام بشؤون الحياة الاجتماعية إلا إذا تركوا مقاليد الأمور إلى رئيس تتجه آمالهم إليه، ويعولون فى أسباب السعادة عليه فيفنى وجودهم فى وجوده ، وتضمحل إرادتهم فى إرادته ، فلا يكون إلا ما يشاء لا ما يشاءون ، ولا يعمل ، إلا ما يريد لا ما يريدون واستحالت حكومتهم من الديمقراطية إلى المطلقة ، وأصبحت الخلافة ملكا عضوضاً ، وسلطة جائرة نزعت منازع الجبروت ، واستأثرت بالمصالح واجتثت أصول الشورى ، ومن ثم تشوش نظام الدولة الإسلامية ، وانحطت مدارك الأمة عن مقام العرفان بواجب الراعى والرعية ، فسلبت منهم نعمة التمتع بالعدل ، كما حرمت حكوماتها نعمة الراحة والانتظام .

وما زال يتفاقم هذا الداء حتى ألف المسلمون حكم الاستبداد ، ورضوا بالجور والعبودية بديلا عن العدل والحرية ، وباتوا أضعف الأمم إحساساً بآلام الظلم ، وأبعد الشعوب عن التطلع إلى الحرية ، ولم يساووا بالشعور بأذى الحكم المطلق ، والحاجة إلى الحكم المعتدل أقل الشعوب عدداً من الغربيين وأضعفهم قوة ، فضلا عن بقية الأمم العظيمة الأوربية ، وأوضح شاهد على هذا أن المسلمين ما زالوا إلى هذا العهد محكومين بأنواع الظلم والاستبداد فى كل بقعة من بقع الأرض ، وليس لهم حكومة تضارع أدنى حكومة من حكومات المغرب فى الرقى وحسن النظام ، ومع هذا فليس فيهم ولا شعب واحد يحس بهذا المرض الذى برح وجرح فينهض لتلافى الأمر وينظر فى سوء المنقلب أو يخطر له محاولة الخلاص من هذه الحال فى بال .

ولقد أصبح كل فلاسفة العالم فى حيرة من هذا التدنى البالغ منتهى درجات الرضا بالشقاء ، ، والصبر على البلاء ، وبات بعض المتنبهين من رجال الإسلام فى حيرة من تعليل الأسباب الداعية لجمود هذه الأمة ويأس من سلامة مستقبل المسلمين ، وأما فلاسفة أوربا فإنهم ألصقوا أسباب التدنى

فى الأمة الإسلامية بالدين بدعوى أن المسلمين والغربيين من طينة واحدة، لا فرق بين الفريقين فى الخلق والتركيب يدعو إلى مثل هذا التفاوت الكبير فى الشعور، وهو قول فى الحقيقة خال من التحقيق، بعيد عن الصحة، إذ الأسباب الداعية لتدنى المسلمين واختلال نظام دولهم كثيرة، وهى غير الدين الذى يبرأ إلى الله من جمود المسلمين، وأهم تلك الأسباب استحالة حب الاستقلال إلى الاعتقاد بالعجز والاعتماد فى سائر شؤونهم على أولياء الأمر كما قدمنا، والدين يبغض إليهم العجز وينهاهم عن الرضا بالذل.

أفرط بعض الخلفاء بحب الأثرة وفرط المسلمون معهم بحرية الهيمنة عليهم والمشاركة لهم والإشراف على أعمالهم، كما كان الأمر على عهد الخلفاء الراشدين فكان من ذلك الإفراط وهذا التفريط أن فسد كثير من شؤون المسلمين الدنيوية، وانحلت عرى حكومتهم الديموقراطية، فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم، وشقى الظالم والمظلوم، وكان الضرر بالخلفاء أعظم، والندامة بهم ألزم، إذ ساءت سياستهم للملك وانصرفت هممهم إلى السفاسف فتوثب أمراء الأطراف على ملكهم، وتشاطروا سلطانهم فلم يدعوا لهم من الإمامة إلا الرسم، ولا من السلطان إلا الاسم، فظلموا من حيث ظلموا، وأخذوا من حيث أخذوا وهم لا يشعرون، ولو علموا أن سنة الخلفاء الراشدين أبقى على ملكهم وأعز لسلطانهم لما حادوا عنها قيد شبر، ولما خالفوها أبد الدهر، وهل كانت غزوات التتار وهجمات أهل الصليب إلا نتيجة الوهن الذى دخل على الخلافة، وأصاب مجموع الأمة، وسببه ذلك الإفراط والتفريط.

أى وهن لعمرو أبيك أشد على الأمة وأظهر فى جانب الخلافة من أن تصير كل قرية كبيرة من قرى الممالك الإسلامية كتكريت فى الجزيرة، وسيجر فى الشام مثلا عاصمة لملك من ملوك الطوائف ينفرد بسلطانه، ويحكم بشهواته،

وينابذ جاره فى الملك ويقاتل أخاه فى الدين ، والإمام فى عاصمة الإسلام كبغداد ومصر مغلوب على أمره ، محصور السلطة فى قصره .

إن بقاء المسلمين إلى الآن يتمتعون بشيء من الاستقلال بعد تلك الحال التى كابدوا فيها فوضى الملك والسياسة وجيوش الصليب والتتار عدة أجيال ، لمعجزة من معجزات الدهر ، التى تحير الألباب وتدعو ملوك المسلمين إلى النظر والاعتبار وقياس الماضى على الحال فإن مدنية المسلمين التى كانت فى تلك العصور أرقى من مدنية سواهم وقتهم على تفرق كلمتهم ووهن عصبيتهم من الانحلال وحفظت سيادتهم من الزوال ، فإن انعكست هذه القاعدة الآن وأصبح التمدين الغربى على ما نرى باسطاً رواق القوة على ما عداه ، راقياً فوق كل تمدين سبقه ، فماذا يكون الحكم .

إنه حكم يستدر عبرات العيون ، ويثير كوامن الشجون ، ويطلق ألسنة أهل الحق الذين لم يخمد أنفاسهم خلق الرياء ، ولم تعم أبصارهم عن حالة المسلمين أو تحجب عن بصائرهم سنن الكون ، فتنادى على ملأ السامعين إن تبعة هذا المصير عائدة على أولياء أمر المسلمين ، الذين لم تنفذ فى جدار قلوبهم صوادع الجبال على الجبال ، أو أذن الاستقلال الأمة والملك بالزوال ، ولكل أمة رقدة ولقد طالت رقدة المسلمين ، ولكل نبأ مستقر ولتعلمن نبأه بعد حين .

٥ — (وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أما بعد فإنى وليت هذا الأمر وأنا له كاره ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه . ألا وإنكم إن كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه به ، ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحدكم ، فراعونى فإذا رأيتمونى استقمت فاتبعونى وإذا رأيتمونى زغت فقومونى ، واعلموا أن لى شيطانا يعترينى ، فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى لا أؤثر فى أعشاركم وأبشاركم اهـ .

تالله لو كان لبشر أن يعصم بعد الرسل لقلنا ذلك أبو بكر ، وحق لمن أنزل نفسه تلك المنزلة من التواضع ، وأدبها بذلك الأدب ، وأخذ عليها سبيل الترفع على المسلمين بمنصب الخلافة والأثرة دونهم بالرأى ، أن يرفعه الله إلى ذلك المقام الجليل الذى ألف فيه على حبه قلوب المسلمين ، وجعل أيامه كلها خيراً وبركة على الموحدين ، فرضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين .

٦ — ولما أشار عليه الصحابة بعدم قتال أهل الردة وأن لا طاقة له بالعرب ، خطب فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، أيها الناس إن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، أيها الناس لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده حتى أبلغ من نفسى عذراً ، وأقتل مقتلا ، والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله خير معين .

٧ — جاء مال من البحرين ساوى فى قسمته بين الناس فغضب الأنصار ، فخطب فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

يامعشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم فى ظلالنا ، وشاطرناكم فى أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، لقلتم ، وإن لكم من الفضل مالا يحصيه العد ، وإن طال به الأمد فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى .

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا فى الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الذى يلقون منا لملت
هم أسكنونا فى ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأظلت

٨ — خطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسئلة ، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) ثم اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم ، وعوضكم بالقليل الفانى ، الكثير الباقى ، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة[1] فإنه خلقكم لعبادته ، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه ، فإذا استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله[2] فسابقوا فى مهل بأعمالكم ، قبل أن تنقضى آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم ، فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم ، فالوحا الوحا ثم النجاء النجاء فإن وراءكم طالباً حثيثاً أمره سريعاً سيره .

٩ — ومن خطبه الغراء فى الوعظ والتذكير قوله .

الحمد لله رب العالمين أحمده وأستعينه ، ونسأله الكرامة فيما بعد الموت فإنه قد دنا أجلى وأجلكم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد ضل ضلالا مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله ،

---

(١) وفى رواية الحاكم والبيهقى هكذا (وهذا كتاب الله فيكم لا يطفأ نوره ولا تنقضى عجائبه فاستضيئوا بنوره وانتصحوا كتابه واستضيئوا منه ليوم الظلمة) الخ .

(٢) وفى رواية الحاكم أيضاً (إلا بإذن الله) .

الذى شرع لكم وهداكم به ، فإن جوامع هدى الإسلام بعد كلمة الإخلاص السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم ، فإنه من يطع الله وأولى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد أفلح وأدى الذى عليه من الحق ، وإياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من اتباع الهوى والطمع والغضب ، وإياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب ثم إلى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم حى وغداً ميت ، فاعملوا يوماً بيوم ، وساعة بساعة وتوقوا دعاء المظلوم ، وعدوا أنفسكم فى الموتى ، واصبروا فإن العمل كله بالصبر ، واحذروا والحذر ينفع ، واعملوا والعمل يقبل واحذروا ما حذركم الله من عذابه ، وسارعوا فيما وعدكم الله من رحمته ، وافهموا وتفهموا واتقوا وتوقوا فإن الله قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم . وما نجى به من نجى قبلكم ، قد بين لكم فى كتابه حلاله وحرامه وما يحب من الأعمال وما يكره ، فإنى لا آلوكم ونفسى والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله ، واعلموا أنكم ما أخلصتم لله من أعمالكم فربكم أطعتم وحظكم حفظتم واغتبطتم وما تطوعتم به لدينكم فاجعلوه نوافل بين أيديكم تستوفوا لسلفكم وتعطوا جرايتكم حين فقركم وحاجتكم إليها . ثم تفكروا عباد الله فى إخوانكم وصحابتكم الذين مضوا ، وقد وردوا على ما قدموا فأقاموا عليه وحلوا فى الشقاء والسعادة فيما بعد الموت . إن الله ليس له شريك ، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره ، فإنه لاخير فى خير بعده النار ، ولاشر فى شر بعده الجنة أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وصلوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

١٠ — وخطب أيضاً فقال الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه وأستهدى الله بالهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى ، من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، إلى الناس كافة رحمة لهم وحجة عليهم ، والناس حينئذ على شر حال فى ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة ودعوتهم فرية فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، فأطيعوا الله ورسوله فإنه قال عز وجل (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) أما بعد أيها الناس إنى أوصيكم بتقوى الله العظيم فى كل أمر ، وعلى كل حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير ، من يكذب يفجر ومن يفجر يهلك ، وإياكم والفخر . وما فخر من خلق من التراب وإلى التراب يعود ، وهو اليوم حي وغداً ميت ، فاعملوا وعدوا أنفسكم فى الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله وقدموا لأنفسكم خيراً ، فإنه قال عز وجل (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بما مضى قبلكم ، واعلموا أنه لابد من لقاء ربكم ، والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها إلا ما غفر الله إنه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ، اللهم صل على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك ، وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به ، واحشرنا فى زمرته ، وأوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك اهـ .

١١ — وخطب مرة فقال بعد أن (حمد الله وأثنى عليه) إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك، فرفع الناس رءوسهم فقال:

مالكم أيها الناس إنكم لطعانون عجلون، إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما بيده، ورغبه فيما بيد غيره، وانتقصه شطر أجله، وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل، ويسخط على الكثير، ويسأم الرخاء وتنقطع عنده لذة البقاء، لا يستعمل العبرة ولا يسكن إلى الثقة فهو كالدرهم القسي والسراب الخادع، جذل الظاهر حزين الباطن، فإذا وجبت نفسه ونضب عمره وضحى ظله حاسبه الله فاشتد حسابه أقل عفوه (١) ألا وإن الفقراء هم المرحومون ألا إن من آمن بالله حكم بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة، وسترون بعدى ملكاً عضوضاً وملكاً عنوداً، وأمة شحاحاً ودماً مباحاً، فإن كان للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة يعفو لها الأثر ويموت لها الخبر، فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر، أي بلاد خرشنة (٢) إن الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها.

١٢ — وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها وخطأ (٢) ظفرتم به، أو ضرائب أديتموها، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتكم، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا

---

(١) كذا في العقد الفريد وفي البيان والتبيين وجاء في النثر المختار نقلا عن زهر الآداب (وأقل الأنصار عنه عقوبة).

(٢) وفي العقد خرسة وفي البيان والتبيين خرشة.

فيمن كان لهم ذكر القتال والغلبة فى مواطن الحرب ، قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميا قد تركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها ، قد بعدوا ونسى ذكرهم وصاروا كلاشىء ، ألا إن الله قد ألقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلقاً بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا وإن اغتررنا كنا مثلهم ، أين الوضاء الحسنة وجوههم ، المعجبون بشبابهم صاروا تراباً وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم ، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ، قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً . أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ، قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ما قدموا ، فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ، ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته ، واتباع أمره واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة اه .

رضى الله عن أبى بكر كأنه يريد بهذه الخطبة التى تذكر بالملوك الماضين أن يعظ نفسه ، ويستزيد من الورع والتقوى ، هذا على ما عرف به من التقى والعدل ، وما اشتهر عنه من الحرص على مصالح المسلمين ، والتبريز فى إقامة حدود الشرع على كل أمراء المؤمنين ، فما أجدر من عبدوا الشهوات وتناهوا فى حب الذات ، من أولياء أمر الأمة الإسلامية بعد بمثل هذه العظة ، وما أخلقهم بالاعتبار بذكر الماضين ، وتأديب نفوسهم بأدب الخلفاء الراشدين ، وتالله لو فعلوا لجعلوا سلطانهم فوق كل سلطان ولسودوا هذه الأمة لهذا العهد على كل الأمم ، ولم يجعلوها عرضة للبوار ، وغرضاً ترمى إليه بسهام الأذى الأغيار ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

١٣ — وخطب عندما انتدب الناس إلى غزو الشام فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ، عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد ، لما ينبغى للمسلم أن يحب أن يخص به . هى التجارة التى دل الله عليها ، ونجى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة اه .

وله كلام عظيم الأهمية كان خاطب به أبا عبيدة بن الجراح لكى يقوله لعلىّ بن أبى طالب حين توقف عن بيعته ، نرجىء إيراده إلى سيرة على رضى الله عنه ، لما ترتب عليه من كثرة الأخذ والرد بين على وأبى بكر وعمر بشأن الخلافة يومئذ .

— ١١ —

مرض أبى بكر وعهده بالخلافة ووفاته

مرضه :

روى فى سبب مرض أبى بكر رضى الله عنه ، أنه اغتسل فى يوم بارد فحم ، وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال (كان سبب موت أبى بكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمداً ، فما زال جسمه يجرى (أى ينقص) حتى مات .

روى أن عائشة قعدت عند رأسه يوماً وهو فى مرضه ، فقالت شعراً :

وكل ذى إبل يوماً موردها   وكل ذى سلب لا بد مسلوب

وفى رواية الطبرى :

وكل ذى إبل موروث   وكل ذى سلب مسلوب
وكل ذى غيبة يؤوب   وغائب الموت لا يؤوب

فهمهما أبو بكر ، فقال ليس كذلك يا ابنتاه ، ولكنه كما قال الله (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) وأنشدت مرة فوق رأسه أيضاً :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ، ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما ثقل على أبي بكر المرض دخلت عليه عائشة فقالت :

يا أبت اعهد إلى حامتك ، وأنفذ رأيك فى سامتك [1] وانقل من دار جهازك إلى دار مقامك إنك محصور متصل بقلبي لوعتك ، وأرى تخاذل أطرافك وامتقاع لونك ، وإلى الله تعزيتى عنك ، ولديه ثواب حزنى عليك ، أرقأ فلا أرقأ وابل فلا أبق [2] ، فرفع رأسه إليها وقال :

هذا يوم يجلى لى عن غطائى ، وأعاين جزائى إلى آخر ماقال ، وقد سبق لنا إيراده فيما مر من الكتاب .

استخلاف عمر ووصيته له :

اشتد على أبي بكر المرض فلم يشغله عن أمر المسلمين ، ولم يثن همته عن النظر فى مصلحة الأمة ، وخشى إن هو مات ولم يعهد لأحد بالخلافة أن تكون فتنة تضرب لها الدهماء ، وتعظم اللأواء ، وفى القوم نفر ينتهى إليهم شرف السيادة فى الجاهلية والإسلام ، وهم فى الفضل والتقدم سواء ، ولكن لكل منهم مكانة فى القلوب غير مكانة من عداه ، وعصبية تريده على الأمر وإن هو أباه ، فإن ترك منصب الخلافة شاغراً وجعله شورى بين القوم ، خيف من تفرق الرأى ، وتعذر تأليف القلوب على واحد من أولئك النفر ، إذ الشورى فى الأمور وإن كان يراد بها تخصيص الآراء لاختيار الأصلح منها والأصوب

(١) وفى العقد اعهد الى خاصتك وأنفذ رأيك فى عامتك .

(٢) وفى نسخة أرقو فلا أرقى وأشكو فلا أشكى .

فيها إلا أن صاحب الرأى مجتهد قد يخطىء وقد يصيب، وفى الصحابة كما قلنا نفر هم فى الفضل والشرف والأهلية كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، ولكل واحد منهم عصبية وحزب يريدونه على الخلافة، اجتهاداً منهم بوجود الكفاية فيه كما هى فى سواه .

إذن فالاختلاف متوقع حتما بين المسلمين ، فيما لو ترك أبو بكر منصب الخلافة شاغراً والمعذرة قائمة للصحابة فى هذا الاختلاف ، ما دام فيهم عدة من ذوى الكفاءة ، وأخصهم أهل بيعة الرضوان من السابقين ، كما أنها قائمة لأبى بكر أيضاً فى عدم تركه الأمر شورى والحال ما ذكر درءا لخطر ذلك الخلاف المتوقع من بين قوم هو أبصر بهم وأدرى بأخلاقهم وإنما نظر أبو بكر فيمن يختاره لذلك المنصب الرفيع شأنه لحرج موقفه ، فرأى أنه يحتاج إلى رجل فيه شدة من غير عنف، ولين من غير ضعف، وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، إلا أن الأول كان ربما يريد الأمر فيرى فى طريقه عقبة فيدور إليه ،والثانى يرى الاستقامة فلا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه ، فهو بهذا إلى الشدة أميل منه إلى اللين ، لهذا لما استشار أبو بكر الصحابة فيمن يستخلفه أشاروا عليه بعمر .

لما عزم أبو بكر أن يعهد بالأمر ونظر فيمن يعهد إليه ، فوقع اختياره على عمر ، جعل يستشير كل من دخل عليه من الصحابة فى عمر ، فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرنى عن عمر بن الخطاب فقال ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى ، فقال أبو بكر وإن فقال عبد الرحمن هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة ، قال أبو بكر ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه ، ثم دعا عثمان فقال أخبرنى عن عمر ، فقال أنت أخبرنا به ، فقال على ذلك يا أبا عبدالله أخبرنى

عن عمر ، فقال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن حضير ، فقال أسيد اللهم أعلمه الخير بعدك ، يرضى للرضا ويسخط للسخط الذى يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه ، واستشار غير هؤلاء سعيد بن زيد ، وجماعة من المهاجرين والأنصار ، فكلهم قال خيراً .

ودخل عليه بعض الصحابة فقال قائل منهم (١) ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد نرى غلظته ، فقال أبو بكر بالله تخوفنى ! أقول اللهم إنى استخلفت عليهم خير أهلك ، أبلغ عنى ما قلت من ورائك .

ثم دعا عثمان فقال اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر ابن أبى قحافة إلى الخ كتاب العهد وقد سبق إيراده فى فصل كتب أبى بكر ، ثم أمر بالكتاب فختمه ، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً ، فبايع الناس ورضوا به ، ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فأوصاه ما أوصاه .

ومما يؤثر عن أبى بكر هذه الوصية الغراء التى أوصى بها عمر رضى الله عنهما .

وصيته لعمر :

إنى مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة ، باتباعهم الحق فى الدنيا ، وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته

(١) روى الطبرى أن الذى قال ذلك هو طلحة بن عبيد الله .

عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً ، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت لأرجو ألا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى بيده إلى التهلكة ، فإذا حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وأن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله اه .

لما خرج عمر من عند أبى بكر رفع يديه وقال :

اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرنى من أمرك ما حضر فاخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، أصلح اللهم ولاتهم ، واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته .

وفى كلامه هذا ما يؤيد قولنا السابق ، أن أبا بكر إنما اختار للخلافة بعده عمر رضى الله عنهما ، ولم يتركها شورى خوفا من الفتنة ، وثقة بكفاءته وسداً لذرائع النزاع من جهة ، ومن جهة ثانية علما منه بمكانة عمر من السياسة ، وأنه لا يحيد بالأمة عن سبيل الخشونة فى العيش ، والقناعة بالكفاف ، ولا يترك لها عنان الخوض فى غمرات النعيم الرومى والترف الفارسى ، فتفسد أخلاقها وتسترخى قواها ، وتفتر عن بث الدعوة همتها ، ومع أنه اختار لها خير كفء بشهادة كبار الصحابة كما رأيت ، فقد تفرس فى بعض

المهاجرين عدم الرضا كما ترى مما يأتى ، ولا يحمل ذلك منهم إلا على الخوف من شدة عمر عليهم والله أعلم .

روى أن عبد الرحمن بن عوف دخل على أبى بكر بعد ذلك فوجده مهتما (١) فقال أصبحت بحمد الله بارئاً ياخليفة رسول الله . فقال :

أما إنى على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يامعشر المهاجرين أشد على من وجعى ، إنى وليت أموركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم من ذلك أنفه يريد أن يكون له الأمر من دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ، ونضائد الديباج وتألمون الاضطجاع على شوك السعدان ، والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا ، ألا وإنكم ضال بالناس غداً فتصدوهم عن الطريق يميناً وشمالا ، ياهادى الطريق إنما هو الفجر أو البجر (٢) .

قال فقلت خفض عليك يرحمك الله ، فإن هذا يهيضك على مابك ، إنما الناس فى أمرك بين رجلين ، إما رجل رأى مارأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو يشير عليك برأيه ، وصاحبك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا الخير ، ولم تزل صالحاً مصلحاً مع أنك لاتأسى على شىء من الدنيا .

وفاته :

لما ثقل على أبى بكر المرض أوصى عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأشار إلى ثوبيه فقال اغسلوهما وكفنونى فيهما فإن

---

(١) وفى رواية فوجده مفيقاً

(٢) وفى نسخة البحر .

الحى أحوج إلى الجديد من الميت ، وأوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس ويعينها ابنه عبد الرحمن ، وكتب وصيته بخمس ماله وقال : آخذ من مالى ما أخذ الله من فيء المسلمين : وروى الطبرى أن أبا بكر لما حضرته الوفاة : قال انظروا كم أنفقت منذ وليت من بيت المال فاقضوه عنى : فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم فى ولايته ، وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال أى يوم هذا : قالوا يوم الاثنين . قال فإن مت من ليلتى فلا تنظروا بى الغد ، فإن أحب الأيام والليالى إلى أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتوفى أبو بكر من ليلته تلك وهى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وغسلته امرأته أسماء كما أوصى ، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر ، وكبر أربعاً ودفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه أن أبا بكر صلى عليه ليلا ودفن ليلا [١] وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام ، وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله) .

خطبة على فى تأبين أبى بكر :

أجمع الرواة أن أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ، ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء على بن أبى طالب رضى الله عنه باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب ، وهو يقول .

---

(١) هكذا كان دفن أبى بكر فليت شعرى متى ابتدع المسلمون فى الجنائز ما ابتدعوه من الاحتفال الذى يشبه احتفال قدماء المصريين بموتاهم وجنائزهم كما يرى ذلك مرسوماً الى الآن على آثارهم، اللهم إن مايفعله المسلمون الآن فى مصر وبعض الممالك الإسلامية بالاحتفال بجنائز موتاهم بقية من بقايا الوثنية الأولى لايرضاها شرعك ولم يسبق الى مثلها أحد من أصحاب نبيك .

رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلا وهدياً وصمتاً ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً ، صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسماك الله فى كتابه صديقاً ، فقال (والذى جاء بالصدق وصدق به) يريد محمداً ويريدك ، كنت والله للإسلام حصناً ، وللكافرين ناكباً ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً فى بدنك قوياً فى دينك ، متواضعاً فى نفسك عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض كبيراً عند المؤمنين ، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوى ، والقوى عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى وتأخذه للضعيف ، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك .

خطبة ابنته عائشة فى تأبينه :

نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك .

ودخل عليه عمر فقال :

ياخليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك تعباً ، ووليتهم نصباً ، فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك .

— ١٢ —

ولده وعماله وقضاته وكتابه

ولده :

قال ابن قتيبة أولاد أبى بكر عبد الله وأسماء أمهما قتيلة من بنى عامر ابن لؤى ، وعبد الرحمن وعائشة أمهما أم رومان بنت الحرث بن الحويرث من بنى فراس بن غنم بن كنانة ، ومحمد أمه أسماء بنت عميس ، وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة من الأنصار (فأما عبد الله بن أبى بكر) فإنه شهد يوم الطائف مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وبقى إلى خلافة أبيه وهلك فى خلافته ، وترك سبعة دنانير فاستكثرها أبو بكر . وولد لعبد الله إسماعيل فهلك ولا عقب له ، (وأما أسماء) فهى ذات النطاقين [1] وتزوجها الزبير بمكة فولدت له عدة فطلقها ، فكانت مع ابنها عبد الله حتى قتل بمكة ، وبقيت مائة سنة حتى عميت وماتت (وأما عائشة) فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم ، وبقيت إلى خلافة معاوية ، وتوفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ، ودفنت بالبقيع

وقد كانت رضى الله عنها على جانب عظيم من الذكاء وفصاحة اللسان ، وقد رأيت من كلامها فيما مر مايدل على قوة عارضتها وفصاحة لسانها ،

---

(١) إن أسماء هذه رضى الله عنها هى أشجع نساء الإسلام وأثبتهن جأشاً وأعظمهن تربية للولد على الشهامة وعزة النفس كما سيمر عليك فى سيرة الحجاج .

ولها خطب كثيرة فى أعلى مكان من البلاغة ،وقد أوردنا منها فيما مر مادعت إليه المناسبة ، وفضلا عن هذا فقد كان يتلقى عنها الحديث ويؤخذ عنها العلم فرحمها الله ورضى عنها .

(وأما عبد الرحمن) فشهد يوم بدر مع المشركين ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، ومات فجأة سنه ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة ،فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه ، وكان شهد الجمل معها ويكنى أبا عبد الله ولد له محمد وعبد الله وحفصة ، وروى المسعودى أن لعبد الرحمن عقباً كثيراً بدوا وحضرا كانوا بين الحجاز والعراق بالموضع المعروف بالضفيسان .

(وأما محمد بن أبى بكر) فكان يكنى أبا القاسم ، وكان من نساك قريش ، وولاه على بن أبى طالب رضى الله عنه مصر فقاتله صاحب معاوية هناك وظفر به فقتله ، وولد له القاسم لأم ولد وكان فقيهاً فاضلا .

(وأما أم كلثوم بنت أبى بكر) فتزوجها طلحة بن عبيد الله ، فولدت زكريا وعائشة ، ثم قتل عنها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى .

عماله وقضاته وكتابه :

ولما ولى أبو بكر: قال أبو عبيدة أنا أكفيك بيت المال ، وقال له عمر أنا أكفيك القضاء ، وكان يكتب له على بن أبى طالب وزيد بن ثابت وعثمان ابن عفان ، وإن غابوا فكان يكتب له من حضر .

وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد ومات فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر وقيل مات بعده ، وكان على الطائف عثمان بن العاص وعلى صنعاء المهاجر بن أبى أمية ، وعلى حضرموت زياد بن لبيد الأنصارى ، وعلى خولان يعلى بن منية : وهى أمه واسم أبيه أمية وعلى زبيد ورمع أبى موسى،

وعلى الجند معاذ بن جبل ، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمى . وبعث جرير ابن عبد الله إلى نجران . وعبد الله بن ثور إلى جرش وعياض بن غنم . إلى دومة الجندل. وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو ابن العاص وخالد بن الوليد ، وكل رجل منهم أمير على جيشه ، وقيل كانت الإمارة العامة لخالد ، وخالد كان من أشهر مشاهير رجال الحرب فى عصره ، لهذا اخترنا أن نورد سيرته إن شاء الله عقب سيرة أبي بكر لأنه من رجاله . وكان على العراق المثنى بن حارثة الشيبانى ، استخلفه فيها خالد لما قصد الشام بأمر أبي بكر رضى الله عنهم أجمعين .

— ١٣ —

صفة أبي بكر

روى ابن قتيبة عن عائشة أنها وصفت أبا بكر فقالت . كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين ، أجنأ لا يستمسك إزاره ، يسترخى عن حقويه ، معروق الوجه غائر العينين ، ناتىء الجبهة عارى الأشجع ، كان يصبغ بالحناء والكتم .

هذا ما أحببنا إيراده من سيرة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، وقد بذلنا فيما أوردناه من أخباره جهد المستطاع فى التحقيق والتنقير ، وجمع شتيت الأخبار المتفرقة ، وضم الأشباه والنظائر منها بعضها إلى بعض تسهيلا على المطالعين وتقريباً على المتناولين ، إلا أنا أغفلنا من سيرته أبوابا لم نر حاجة لإيرادها فى هذا الكتاب، لتكفل كتب السنة بها وتفرقها فيها، ولأنها ليست من خصائص التاريخ، بل هى من خصائص كتب الشريعة كالأحاديث والآثار المروية عنه ، والأحكام الصادرة منه، والأحاديث الواردة بفضله، ونحو ذلك مما هو مبسوط فى كتب السنة وارد فى الصحاح ، وقد بقى علينا

فصل واحد نبسط فيه الحالة الاجتماعية على عهد أبى بكر ، وبعد ذلك نأتى على سيرة خالد بن الوليد إن شاء الله .

الحالة الاجتماعية على عهده :

جاء الإسلام قاضيا بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الأفكار وتوحيد اللغة وتوحيد المقاصد ، فى عصر غلبت فيه نزغات الأهواء البشرية على النفوس ، ونزع الأمم كافة منازع الوثنية فشوه مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب ، وأوغل كافرهم فى مناحى الخيال نخلق من ضعيف التسور أشكالا من العبادة تختلف باختلاف المنازع والأقطار ، فتشكلت بأشكالها الأخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة فى الاجتماع والسياسة والدين ، فأصبح أهل الكتاب اليهود منهم ، وبين قرائين وسامريين وربانيين وغيرهم ، والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين ومالا يعد من الفرق ، وغير أهل الكتاب من الأمم الأخرى بين صابئة ومجوس وزرادشت وبراهمة وما لا يعد من الفرق أيضاً . فكان الانقسام والتجزؤ فى الاجتماع والسياسة تبعاً للنحل قائماً مع الأهواء ، فباتت الدول المجاورة للعربية وهى فارس والروم (وما أدراك ما فارس والروم أعرق الأمم فى المدنية وأقصاها غاية فى التاريخ وأرهبها قوة فى الأرض وأمدها ظلا عليها) أشبه بشجرة تأصلت جذورها فى الأرض وتسامقت فروعها فى الفضاء ، فجاءتها ريح عاصفة تعتمت أصلها وتلاعبت بأغصانها فقصفتها قصفاً ، وعصفت فيها عصفاً ، فزوت أفنانها ، وتفرقت مع الريح أغصانها ، فكانت دولة الروم غرضاً ترمى إليه الأهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والأقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والأرمن واليونان والرومانيين والصقالبة وغيرهم .

ودولة الفرس كذلك تفككت أعضاؤها وتجزأت وحدتها ، فاستبد عمالها بالأطراف وتنازعوا سلطان الأكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا بالحكم وظلموا الرعية [1] ، ومن ثم انحلت من تلك الأمم عرى وحدتها وتفرقت أهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها ، فانزوت شموس مدنيتها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التى انتهت إلى دولتى الفرس والروم ، وتعود حالة البشر إلى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الأنبياء هداة الأمم ، من فوضى الاجتماع وتفرق الأهواء وانحطاط المدارك والعقول ، ويأبى الله إلا أن يتم كلمته فى خلقه ويجعل الإنسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته ، لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وهادياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين ، لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين .

فامتثل محمد صلى الله عليه وسلم أمر ربه ودعا الناس إلى دينه ، دعاهم إلى توحيد الله فلا يشركون به شيئاً ، وإلى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون شيعاً ينابذ بعضها بعضاً . وإلى توحيد الأفكار فلا يجادلون فى الحق ، وإلى توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون .

دعا أولا أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس ، بما كتب إلى ملوكهم الذين إليهم ينتهى أمر الأمم وبهم تقوم الدعوة . حتى قامت لله على الناس الحجة ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين . وأجاب دعوة نبيه من أجاب ، وأقبل عليها من أقبل ، وكان جلهم من العرب الذين لم يلبثوا أن تلقوا هذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الأمم إليهم ، لما أصبحوا عليه من الإخاء بعد التنافر ، والاجتماع بعد التفرق ،

---

(١) لهذه الأسباب تولى ملك فارس قبيل الفتح الإسلامى نحو ستة ملوك فى بضع سنين وكلهم قتلوا بيد الأمراء والرعية قتلا (راجع تاريخ الكامل) .

والتوحيد بعد الشرك والتنبيه بعد الغفلة والإيمان بعد الكفر ، والتحابب بعد التناكر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويجاهدون فى الله وينصرون دينه ويقيمون حدوده ، ويواسون الفقير ويؤدون الحق ،ويرغبون بالقناعة بالكفاف عما بأيدى الناس ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

على هذا الأساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية ، وبتلك الأخلاق وصف الله أتباع النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابه العزيز ، فقال تعالى فيه (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا) وقال تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تمثل حالة المسلمين يومئذ تمثيلا ، وتدل على مبلغ تأثير الإسلام فى نفوس تلك الأمة البدوية ، التى أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل إلى نور العلم والاجتماع .

تلك الحالة الاجتماعية التى كانت فى عهد الرسالة كانت كذلك فى عهد أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، وقد نهض أبو بكر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بإتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً بسطناه فيما تقدم من سيرته ، فرمى بالجيوش الإسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد إذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة عن القوة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فخالط المسلمون تلك الأمم البالغة منتهى درجات الرفاء والتنعم ، المنغمسة فى حمأ الشهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ، ومع هذا فلم يؤثر ذلك فى أخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف إلى تنكب المحجة التى تركهم عليها نبيهم ، لاسيما وأن القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه ، وأبو بكر من ورائهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه ، وكان جل همه منصرفاً إلى إقامة شعائر الدين والتأدب بآداب النبى صلى الله عليه وسلم ، خصوصاً فى

خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف ، هذا مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى أحل الطيبات للمؤمنين ، وإنما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بآداب النبوة وآدابها كى لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد فى الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الإخلاد إلى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية ، وأنى يشغلهم شىء عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور .

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الأخلاق وتآلف القلوب ونصرة العدل والحق ، ومواساة الضعيف والقيام بواجب الإخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم فيه أمة حديثة عهد فى الدين من قبل ، ولن يتأتى لأمة سواهم من بعد .

* * *

روى الغزالى فى الإحياء ، أن تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم أن كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقاً لقوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

وبلغت بهم معرفة الحقوق والوقوف عند الحدود ألا يتخاصم منهم اثنان أمام القضاء فى حق صدراً من خلافة أبى بكر ، فقد روى أن عمر بن الخطاب لما استقضاه أبو بكر رضى الله عنهما بقى سنة لا يحضر عنده خصمان فى دعوى ولا يتخاصم لديه اثنان فى حق .

ولما كان أبو بكر رضى الله عنه خير قدوة للمسلمين وقد كان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفر دخله من أملاكه فقد اقتدى به المسلمون وتخوشنوا فى مآكلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التنعم بدخلهم ، فقد قال المسعودى فى تاريخه إنه لما قدم على أبى بكر زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن ، وعليهم الحلل وبرد الوشى المثقل بالذهب والتيجان والحبرة ، وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك

وماهو عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا مذهبه ونزعوا ماكان عليهم ، وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ماكان معه من عشيرته وعليه التاج وماوصفنا من البرود والحلى ، ولما شاهد من أبى بكر ماوصفنا ألقى ماكان عليه وتزيا بزيه ، حتى إنه رؤى يوماً فى سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والأنصار. قال ، فأردتم أن أكون ملكا جباراً فى الإسلام لا والله لاتكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد ، قال المسعودى وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر .

ولاجرم إن قدوة الأمم رؤساؤها وقادتها إلى الخير والشر ملوكها ، ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكى بشقاء الحياة إلا بملوكهم ، كما لم يرنا تسود قوم وتمتعهم بسعادة الحياة إلا إذا استقام ملوكهم .

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وقد بسطناها إليك على وجه الإجمال لتتذكر وتعتبر ، وتتق الله فى نفسك وتزدجر. والله ولى الصالحين .

* * *

وهذا آخر كلام على خلافة أبى بكر رضى الله عنه وأرضاه ، ووفق ولاة أمورنا للنظر فيما كان عليه الخلفاء من قبل ، والله يعصمنا وإياهم من الجهل .

خالد بن الوليد

— ١ —

حاله فى الجاهلية

نسبه وأصله :

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان ، وقيل أبو الوليد القرشى المخزومى ، أمه لبابة الصغرى وقيل الكبرى والأول أصح وهى بنت الحارث بن حزن الهلالية ، وهى أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، أخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب ، وهو ابن خالة أولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة .

شرفه فى قومه ومكانته عندهم :

تقدم معنا فى صدر الكتاب أن خالد بن الوليد ممن انتهى إليهم الشرف فى الجاهلية من قريش وأنه كان على الأعنة والقبة ، وأبنا ثمة المراد من القبة والأعنة ، فلا حاجة للإعادة هنا لهذا ، كان فى وقائع بدر وأحد والخندق على خيل المشركين ، ولم يشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم إلا ما بعد الفتح من الوقائع ، وقد كان خالد فى قومه موصوفا بالشجاعة محببا فيهم مقدما عندهم بالحروب ، موفقاً للنصر عارفا بأصول الحرب حائزاً على صفات الجندية التى يلازمها فى الغالب خشونة الطبع وعنفوان الشجاعة والأخذ بالشدة والتسرع إلى المعاقبة ، لهذا لما بدر منه بعد إسلامه ما بدر من التسرع فى حادث مالك بن نويرة قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه إن سيف خالد

فيه رهق ، وألح على أبى بكر بعزله عن قيادة الجند خوف استرساله فى الشدة على المحاربين ، والإسلام يأبى الشدة ويأمر بالأناة والحلم وعدم الإمعان فى إيذاء المقاتلين ، ومع هذا فإن الإسلام غير كثيراً من طباع خالد وألان من شدته فلم تبدر منه فى حروب فارس والروم أدنى بادرة تؤخذ عليه .

— ٢ —

إسلامه وصحبته

إسلامه :

اختلف فى وقت إسلام خالد ، فقال بعضهم إنه أسلم ، سنة ثمان للهجرة. وقال بعضهم سنة خمس وقال بعضهم سنة سبع وهو الأصح ، فقد كان إسلامه بعد الحديبية وكانت عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست ، وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبى طلحة العبدرى فى صفر ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه : رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

صحبته :

لما أسلم خالد أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيش من المسلمين أميره زيد بن حارثة إلى مشارف الشام من أرض البلقاء لغزو الروم ، وكانت لهم هناك وقعة مؤتة العظيمة التى استشهد فيها زيد ، ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبى طالب فاستشهد أيضاً ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً ، ثم اتفق المسلمون على دفع الراية إلى خالد بن الوليد فأخذها وقاتل بها قتالا شديداً ، حتى اندق يومئذ فى يده سبعة أسياف ، ثم ما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ، ثم عاد بجيش المسلمين .

وفى هذه الغزوة سماه رسول الله عليه وسلم ، سيفاً من سيوف الله ، وذلك أنه أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن قتل من الأمراء ، فصعد يومئذ المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد وفتح الله عليه ، ومن ثم سمى خالد سيف الله .

وكان خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعنة الخيل فيكون فى مقدمتها فى محاربة العرب ، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة وأمره يومئذ أن يدخل من أسفل مكة من الليط ومعه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب ، وهو أول يوم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خالد بن الوليد .

وكان عكرمه بن أبى جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا ومعهم الأحابش وبنو بكر وبنو الحرث بن عبدمناة فلقيهم خالد فقاتلهم فهزمهم بعد أن قتل منهم ثلاثة عشر رجلا .

ولما فتحت مكة وأذل الله قريشاً لرسوله وقد كانوا أشد العرب عداوة له وإيذاء لأصحابه ووقوفاً دون دعوته ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو من حول مكة من العرب إلى الإسلام ، وكان فيمن بعث خالد بن الوليد بعثه إلى بنى جذيمة داعياً لامقاتلا فذهب فقاتلهم وقتل منهم ، فلما انتهى الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال (اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد) ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والأموال ، ثم جاء خالد إلى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر وقال ، إن عبد الله بن حذافة السهمى أمرنى بذلك عن رسول الله .

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى العزى ببطن نخلة ، وكان بيتاً

عظيما لمضر تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها . وكان سدنتها بنو شيبان من حلفاء بني هاشم فهدمها خالد وقال .

يا عز كفرانك لا سبحانك　　　إني رأيت الله قد أهانك

وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في بني سليم فجرح خالد ، فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفث في جرحه فبرىء ، وأرسله أيضاً إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأسره وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية ورده إلى بلده ، وأرسله أيضاً سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بن مذحج بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أجابوا يقيم فيهم ويعلمهم شرائع الإسلام ، وإن أبوا يقاتلهم، فخرج خالد حتى قدم عليهم وبعث الركبان يضربون في كل وجه ، ويدعون الناس إلى الإسلام ، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه ، وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ستأتى صورته ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستدعيه ومن يريد الوفود معه من القوم ، فأقبل وأقبل معه الوفد وفيهم قيس بن الحصين بن قنان ذى الغصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وغيرهم .

ولم يزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافح أعداء الإسلام ، ويحرص على رضاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له بعد من جميل الأثر في قتال أهل الردة وفتوح البلدان العظيمة ، ما رأيت في سيرة أبي بكر ونتلوه عليك الآن ملخصاً من تاريخ حروبه في الإسلام .

— ٣ —

حروب خالد وفتوحاته فى عهد أبى بكر

حروبه فى الردة :

حربه مع طليحة :

تقدم معنا فى سيرة أبى بكر رضى الله عنه أنه عقد لخالد وأمره بطليحة ابن خويلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح ، وكان أبو بكر بعث عدى ابن حاتم[١] الطائى قبل خالد إلى طىء ، وأتبعه خالداً وأمره أن يبدأ بطيء ومنهم يسير إلى طليحة ببزاخة ويثلث بالبطاح حيث يقيم مالك ابن نويرة بقومه وألا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يستأذنه .

سبق عدى خالداً إلى قومه ودعاهم فأجابوه وقالوا له استقبل جيش خالد وأخره عنا نستخرج من عند طليحة منا لئلا نقتلهم ، فاستقبل عدى خالداً وأخبره بالخبر فتأخر خالد ، وأرسلت طىء إلى إخوانهم عند طليحة فلحقوا بهم ، ولما عزم خالد على قصد جديلة [٢] استمهله عدى عنهم أيضاً ولحق بهم يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه ، فعاد إلى خالد بإسلامهم ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم ، كل هذا بهمة ذلك الشهم الكبير عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه ، حتى قيل يومئذ عنه إنه خير مولود فى أرض طىء وأعظمه بركة عليهم .

---

(١) هو عدى بن حاتم الجواد وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فألقى له وسادة وأجلسه عليها وجلس هو على الأرض فأسلم وسر بإكرام رسول الله له سروراً عظيما وكان له فى أيام الردة أحسن الأثر رضى الله تعالى عنه .

(٢) جديلة بطن من طىء .

ولما عزم خالد بن الوليد على قصد طليحة أرسل عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم الأنصارى طليعة فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً ، وأقبل خالد بالجيش فرأى عكاشة وثابتاً قتيلين ، فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو طيء فقالت له طيء نحن نكفيك قيساً فإن بنى أسد حلفاؤنا ، فقال قاتلوا أى الطائفتين شئتم ، فقال عدى بن حاتم لو نزل هذا على الذين هم أسرتى الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه ، والله لا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم ، فقال خالد إن جهاد الفريقين جهاد لا تخالف رأى أصحابك وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، وقد أصاب خالد بهذا الرأى ورضى به عدى ثم سار جيش المسلمين على تعبئة إلى بزاخة حيث التقى بطليحة ومن معه ونشب القتال بين الفريقين ، وكان مع طليحة عيينة بن حصن فى سبعمائة من بنى فزازة فقاتلوه قتالا شديداً ، حتى إذا اشتدت عليهم وطأة الحرب وزعزعتهم صدمات المسلمين كر عيينة على طليحة وسأل هل أوحى إليه بشيء؟ قال لا فتركه وذهب وقاتل ثم عاد فقال له لا أبا لك فقد جاءك جبريل ؟ قال لا فقال عيينة حتى متى قد والله بلغ منا ثم رجع فقاتل ثم كر على طليحة فقال هل جاءك جبريل ؟ قال نعم قال فماذا قال لك قال قال لى إن لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه انصرفوا يا بنى فزارة فإنه كذاب فانصرفوا وانهزم الناس . وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، وقال يا معشر فزارة من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل ثم انهزم ولحق بالشام ونزل على كلب ، فلما بلغه أن أسداً وغطفان قد أسلموا أسلم وبقى فى كلب حتى توفى أبو بكر رضى الله عنه ، واستخلف عمر فأتى إليه وبايعه ، ثم حضر بعد ذلك فتوح نهاوند وكان من الشجعان المشهورين، وأبلى فى حروب فارس بلاء حسناً وفيها استشهد .

هكذا انقضى أمر طليحة كما انقضى أمر غيره من المتنبئين الكذابين ، وهيهات للباطل أن يقوم فى جانب الحق وللكذب أن يغلب على الصدق « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

لما انهزم جند طليحة اجتمع الفل من غطفان وسليم وهوازن وغيرهم على امرأة اسمها أم زمل من بنى فزارة ، فأمرتهم بقتال المسلمين فلما بلغ خالداً الخبر سار إليها بجيشه وقاتلها ومن اجتمع معها قتالا شديداً فقتلت وتفرق جمعها .

حادثة مالك بن نويرة :

ثم قصد خالد مالك بن نويرة وكان كما تقدم معنا فى سيرة أبى بكر رضى الله عنه متحيراً يقدم للردة قدماً ويؤخر أخرى ، وكان رؤساء تميم كلهم قدموا بالصدقات على أبى بكر كالزبرقان وصفوان بن صفوان ووكيع ابن مالك وغيرهم ، إلا مالك بن نويرة بقى متردداً ، حتى إذا بلغه مجىء خالد ندم على مافعل وفرق قومه فى البطاح ونهاهم عن الاجتماع وقال لهم يابنى يربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا فلم نفلح ، وقد نظرت فيه فرأيت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة قوم قد صنع لهم فتفرقوا وأدخلوا فى هذا الأمر .

ولما أراد خالد قصد البطاح تخلفت عنه الأنصار وقالوا قد عهد إلينا الخليفة إن نحن فرغنا من بزاخة أن نقيم حتى يأتينا أمره ، فقال خالد قد عهد إلى أن أمضى وأنا الأمير ولو لم يأت إلى كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع أن نرى أفضل مايحضرنا ثم نعمل ، فأنا قاصد إلى مالك ومن معى ولست أكرههم .

ولقد صدق خالد فيما قال لولم يكن فى تعجيله بأمر مالك مالا تحمدعقباه

لهذا امتنع الأنصار عن المسير معه ثم لما سار ندموا وقالوا إن أصاب القوم خيراً حرمتموه وإن أصيبوا ليجتنبنكم الناس فلحقوه ، ولما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وكان قد أوصاهم أبو بكر (أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلا فإن أذن القوم فكفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن الزكاة فإن أقروا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم) .

لما بث خالد السرايا جاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم ، وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد أنهم أذنوا ، فلما اختلفوا أمر بهم خالد فحبسوا فى ليلة باردة ، فأمر خالد منادياً فنادى دافئوا أسراكم وهى فى لغة كنانة القتل ، فظن القوم أنه أراد القتل ولم يرد إلا الدفء فقتلوهم فقتل ضرار بن الأزور مالكا وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم ، فقال إذا أراد الله أمراً أصابه وتزوج خالد أم تميم امرأة مالك .

ولما انتهى الخبر إلى أبى بكر وعمر رغب عمر إلى أبى بكر أن يستدعى خالداً ويقتص منه . وكان عمر رضى الله عنه شديداً يحب تعجيل العقوبة وأبو بكر يحب الأناة وعدم التعجيل فى العقوبة ، ولما ألح عمر على أبى بكر بشأن خالد قال ياعمر تأول خالد فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته أسهماً ، فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وأسمعه كلاماً أليماً فلم يكلمه ، ودخل على أبى بكر وأخبره بجلية الخبر واعتذر إليه فقبل عذره ، وودى مالكا من بيت مال المسلمين .

ولا يخفى أن قتل مالك بن نويرة إذا صح أن سببه سوء فهم كما تقدم ، فخالد غير مسئول عن دمه ، هذا إذا صح أنه أظهر الإسلام حين رأى جيش

المسلمين ، إلا أن تردده فى الأمر من بدء الردة يدل على أن الرجل لم يخلص للإسلام ، وإلا لكان تابع بقية سادات تميم بإرسال الصدقة إلى أبى بكر ولم يبطىء إلى حين وصول جند المسلمين إليه، وهذا أعظم عذر يمكن أن يعتذر به عن خالد بن الوليد رضى الله عنه فيما لو كان قتل مالك مقصوداً أو معجلا به من قبل خالد بن الوليد ، ولولا ذلك لكان قتله لمالك ثلمة فى تاريخه لا يسدها إلا جهاده العظيم فى فتوح العراق والشام .

حربه مع مسيلمة :

تقدم الكلام عما أصاب عكرمة بن أبى جهل فى تعجيله بحرب مسيلمة قبل أن يصل إليه شرحبيل بن حسنة ، ولما انتهى الخبر بذلك إلى أبى بكر كتب لشرحبيل بالتربص ، وأتبعه خالد بن الوليد بعد مجيئه إلى المدينة واعتذاره عن قتل مالك بن نويرة واوعب معه المهاجرين والأنصار فتقدمهم إلى البطاح ، ولما تكاملت عدتهم سار بهم إلى قصد مسيلمة فبادر شرحبيل خالداً بقتال مسيلمة فنكب ، فلامه خالد على تعجيله، ولما بلغ مسيلمة دنو خالد عسكر بعقرباء بأربعين ألف مقاتل ، وقيل بستين ألفاً وخرج مجاعة بن مرارة فى سرية يطلب ثأراً لهم فى بنى عامر ، فأخذه المسلمون وأصحابه فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه فى بنى حنيفة .

ثم إن مسيلمة ترك الأموال وراء ظهره وتقدم لقتال المسلمين ، وقام ابنه شرحبيل يحرض بنى حنيفة على القتال وينفض يديه من نبوة أبيه قائلا لهم ، يا بنى حنيفة اليوم يوم الغيرة قاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم، فنشبت الحرب ودارت بينهم وبين المسلمين رحى الطعن والضرب ، واشتد القتال ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط ، حتى نزعوا إلى الهزيمة وانكشفوا عن فسطاط خالد ثم تداعوا واقتحم أهل النجدة منهم كزيد بن الخطاب وثابت بن قيس

وغيرهما صفوف العدو ، وحمل خالد بالناس حتى ردوا الأعداء إلى أبعد مما كانوا ، واشتد القتال وتذامرت بنو حنيفة وتراموا على الموت وقاتلوا قتالا شديداً ، والمسلمون صامدون حتى قتل من أولى البصائر منهم ناس منهم زيد بن الخطاب القرشي وأبو حذيفة وسالم مولاه وأضرابهم .

لما رأى خالد ما الناس فيه خشى من أن ينهزم أخلاط العرب فتختل صفوف المسلمين، ويساق معهم أهل النجدة من الأنصار والمهاجرين ، فنادى فى الناس أن امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ولنعلم من أين نؤتى . فامتازوا ولما امتازوا قال بعضهم لبعض اليوم يستحى من الفرار وحينئذ ظهر أن القتل فى المهاجرين والأنصار وأهل القرى أكثر من البوادى ، وعلم خالد أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة فطلبه للبراز فبرز إليه فعرض عليه أشياء فبينما هو يتظاهر بمشاورة شيطانه ركبه خالد فانهزم أمامه فصاح خالد بالناس فركبوا القوم فانهزموا وقالوا لمسيلمة أين ما كنت تعدنا فقال قاتلوا عن أحسابكم ونادى مناديهم يا بنى حنيفة الحديقة الحديقة فدخلوها وأغلقوا عليهم بابها .

فجاء أحد أبطال المسلمين الأنجاد وهو البراء بن مالك وقال ، يا معشر المسلمين ألقونى عليهم فى الحديقة ، فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتحمها عليهم وقاتل على الباب حتى فتحه فدخلوها عليهم واقتتلوا أشد قتال ولم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك فى قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ورجل من الأنصار ولما علم بقتله بنو حنيفة ولوا الأدبار فأخذهم السيف من كل جانب .

كان مجاعة بن مرارة أسيرا مع خالد كما قدمنا ، فقال لخالد بعد انكسار بنى حنيفة هلم إلى الصلح على ما ورائى فصالحه على كل شيء دون النفوس فانطلق ليشاور القوم فلم يجد فى الحصون الا النساء والصبيان ومشيخة فانية وبعض رجال ضعاف ، فألبسهم الحديد وأمرهم أن يشرفوا من الحصون ، ثم

عاد إلى خالد وقال له قد أبوا أن يجيزوا ماصنعت . وكان قصده بهذا إيهام خالد لأجل أن يأخذ الأمان للرجال ويصالح خالداً على السبى ، وقد نجح بهذه الخدمة إذ رأى المسلمون أن يعودوا على ظفر بعد أن نهكهم طول اللقاء ، فصالحه خالد على الفضة والذهب وربع السبى وقيل نصفه وانتهى الأمر .

وقد ظهر من المسلمين فى هذه الحرب من الثبات والنجدة والصبر على المكروه ما لم يظهر من جيش قط ، واستحر القتل فى المهاجرين والأنصار يومئذ ، وقتل من القراء جمع وهذا ما دعا أبا بكر وعمر للمبادرة إلى جمع القرآن ، كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب .

ومن مكائد خالد وحسن بصيرته فى هذه الحرب أمره للمسلمين بأن يمتاز الأحياء والقبائل بعضهم عن بعض ، لما اشتدت عليهم وطأة الحرب ، ليظهر أهل البلاء منهم ويستحى الناس من الفرار فيقاتلوا حتى الموت ، وقد فعلوا وشتتوا شمل ذلك الجيش العظيم بقوة اليقين ، وحسن تدبير خالد ابن الوليد فرضى الله عنه وعنهم أجمعين ،

— ٤ —

فتحه العراق وحروبه

فى المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة بعد فراغ خالد من اليمامة ، أمره أبو بكر بالتوجه إلى العراق وقد تقدم معنا ذكر مسير خالد وفتوحه فى العراق فى سيرة أبى بكر ، ونحن ذاكرون هنا طرفا من أهم أخباره فى حرب أهل العراق مما يذكر بالتفصيل من قبل فنقول .

وقعة الحفير :

أول وقائع خالد بن الوليد فى العراق وقعة الحفير قرب خليج البصرة، وكان اسم صاحبها هرمز فبرز إلى خالد بجيشه مقترنين بالسلاسل كى لا يفروا

فطلبه خالد للبراز فبرز إليه ولم يتجاولا إلا قليلا حتى احتضنه خالد فحمل عليه أصحابه فما شغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو بالمسلمين فأزاحوا الفرس وركبهم المسلمون فهزموهم ، وأخذ خالد سلب هرمز وكان على رأسه قلنسوة الإمارة أو الشرف وكان قد تم شرفه ، ومن عادة الفرس إذا تم شرف الإنسان أن تكون قلنسوته بمائة ألف .

كلمة على الألقاب والرتب :

هكذا قال المؤرخون بشأن هذه القلنسوة ،والظاهر أن القلنسوة كانت عند الفرس من شعار الشرف يعلو ثمنها وينخفض بنسبة شرف صاحبها فى الدولة وهى من قبيل الرتب والألقاب التى أحدثت بعد فى دول الإسلام ، وأول من أحدثها العباسيون أخذاً عن الأعاجم ، وذلك كالمنصور والمهدى مثلا فى ألقاب الخلفاء ونظام الملك فى الوزراء ، وشرف الدولة وعز الدولة فى الأمراء وما لا يحصى من الألقاب والنعوت التى وصلت فى القرون الوسطى الهجرية قرون الجهل والعتو والجبروت قرون الضعف والانحلال ، إلى درجة تشمئز منها النفس ويأباها عقل الحكيم ، ومن أراد أن يرى شيئاً منها فليراجع تواريخ ملوك الطوائف من الدولة التركية والأيوبية والچركسية خصوصاً فى المنشورات التى كانت تصدر إليهم من ديوان الخلافة ، ليرى كيف كانت ترص الألقاب والنعوت لأمراء وملوك ما أجدرهم بقول الشاعر الأندلسى الحكيم .

ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

ولا جرم أن توفر تلك الألقاب والنعوت فى الدول من نتائج التطلع إلى المجد الباطل والإعراض عن المجد الحقيق والشرف الذاتى ، ومنشأ هذا أمران (فقد التربية وانحلال الدول) .

أما فقد التربية فلأنه يضعف قوة الإرادة ويذهب بآثار العلم ويقضى

على حب الفضيلة ، فيميل بالناس إلى الخمول، ويتنكب بهم طرق الفضائل ، فيصابون بفتور الهمم وانحلال العزائم فيقعد بهم ذلك عن تناول الشرف الذاتى من طرق الجد والعمل ، ويدعوهم إلى طلب المجد الباطل من طرق الرياء والمداهنة والتحيل والكسل ، وغير ذلك من الأمور التى تدل على فقد الشمم وموت العواطف وانحطاط ملكات العمل والعلم ، وقصاراها ضعف الأمم وتدرجها فى مدارج التدنى والانحطاط حتى آخر درجة من الهبوط إلى هوة الدمار والفناء ، حيث يبدأ غيرها بالصعود ممن كان ينازعها البقاء، وهكذا كان الشأن مع الفرس والعرب لما نازعهم هؤلاء البقاء وغلبوهم عليه مع حداثة ظهورهم فى الدولة والملك (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

وأما انحلال الدول فلأنه يحل عرى الألفة وتتناكر به القلوب وينفض الناس من حول الأمير ، لضعف أمره فيهم أو تعسفه بالحكم عليهم ، فيحتال لاجتذاب قلوب أفرادهم ، ويتألفهم تارة بالرشا وتارة بمنح الألقاب وضخامة التشريف بشارات الدولة ، فتفسد بذلك أخلاقهم وتغتر بمظاهر الفخفخة الكاذبة نفوسهم ، فيتطلعون إلى رتب الدولة وألقاب التشريف الباطلة . وهكذا كان الشأن لما انحل أمر الخلافة العباسية فى بغداد والفاطمية فى مصر ، وابتدع الخلفاء من ألقاب التشريف الكثيرة ما يتألفون به قلوب الناس ويجتذبون إليهم أفئدة الأمراء المتوثبين على الملك الغالبين على أمر الخلافة ، ولكن لم يغن ذلك عن سقوط خلافتهم وانحلال دولتهم (وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ومن هذا تعلم مقدار الفساد الذى دخل على الدول الإسلامية من طريق التقليد للأعاجم ، فى أمور كثيرة أفسدت أخلاق الأمة وأدخلت الوهن على أصول التربية الإسلامية التى تأسست عليها دولة الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم من الأمويين، وأخصها ترفع تلك الدول عن السفاسف وتطلع الناس

فى عهدها إلى أعلى مراقى المجد التى لا يبلغها إلا ذوو الشمم والجد الآخذون بنواصى الحكمة السالكون مسالك الرجولية المعرضون عن الاغترار بزخارف المجد الباطل ، حتى لقد كان الخلفاء لا يخاطبون بغير أمرة المؤمنين ولا يخاطبون أمراءهم وولاتهم بالكنى والألقاب ، بل هم كانوا لا يعرفون لها اسما ولا يقيمون لها رسما ، وقد اقتدى بهم فى هذا العصر أعظم الدول جداً وقوة وغنى وثروة وهى جمهورية أمريكا الشمالية ، التى حرم فى دولتها إيجاد الشارات والرتب وأعرضت عن أمثال تلك الألقاب الكاذبة والسفاسف المضرة بالأخلاق والتربية ، فنشط سكان تلك المملكة العظيمة إلى السعى وراء المجد الحقيقى المتأتى عن العمل والعلم ، حتى بلغوا مكانا من المجد والقوة تحسدهم عليه كل دول الأرض ، ولله فى خلقه شؤون ، وللسعادة والشقاء سبيلان يسلك الأول منهم العاقلون والثانى الجاهلون .

وقعة الثنى وما بعدها

لما اجتمع خالد بهرمز فى الحفير أرسل الثانى كتاباً إلى كسرى يستمده فأمده بجيش عظيم بقيادة قائد اسمه قارن ، فلما انتهى الجيش إلى المذار لقى المنهزمين من جيش هرمز فاجتمعوا ورجعوا إلى الثنى وهو النهر ، وسار إليه خالد وقاتلهم فهزمهم وقتل وسبى ، وكان فى السبي يومئذ أبو الحسن البصرى الشهير ، وكان نصرانيا ، وأمر خالد على الجند سعيد بن النعمان وعلى الحرز سويد بن مقرن وأمره بنزول الحفير ، وأقام يتجسس أخبار العدو فعلم أن كسرى أزدشير بعث إليه بجيش بقيادة الأندرز عزجله من العرب الضاحية والدهاقين ، فسار إليهم خالد ووضع لهم كمينا فالتقوا عند الولجة ، ولم تلبث أن نشبت بينهم الحرب حتى خرج الكمين على العدو وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، فقتل منهم من قتل وانهزم من انهزم ، ومات قائدهم الأندرز عز عطشاً فى الفلاة .

أصيب فى هذه الواقعة كثير من نصارى بكر بن وائل ، فاستنفروا إخوانهم واستمدوا أزدشير فأمدهم بهمن جازويه وكان بقشيناثاً وأمره بالقدوم على نصارى العرب بالليس ، فقدم أمامه قائداً اسمه باجان وأمره بالتوقف ليذهب ويشاور أزدشير فيما يفعل فوجده مريضاً فتربص عنده .

وأما باجان فاجتمع عليه نصارى عجل وتيم اللات وضبيعة وجابر بن بجير وعرب الضاحية فسار إليهم خالد ، وكانوا على طعامهم فعاجلهم عنه فقاموا للحرب فهزمهم شر هزيمة وأكثر فيهم القتل والأسر .

ثم بعد هذه الوقعة قصد خالد الحيرة وحمل الأثقال بالنهر ، ولما بلغها صالحه أهلها بعد مناوشات خفيفة ، وقد تقدم من خبرها فى سيرة أبى بكر ما فيه الكفاية ، وكان فتح الحيرة فى شهر ربيع الأول من سنة إثنتى عشرة ، وكتب لهم خالد كتابا بذلك .

وما انتهى خالد من أمر الحيرة أتته الدهاقين من النواحى فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمز جرد على ألفى ألف وقيل ألف ألف سوى ما كان لآل كسرى ، وبعث خالد عماله ومسالحه وبث عيونه وأرصاده وأرسل السرايا فمخروا دجلة إلى أرض فارس ، وأرسل خالد كتبه إلى ملك فارس ومرازبتها يدعوهم إلى الإسلام ، وفى غضون ذلك هلك كسرى وعاد أمر الفرس إلى الاضطراب ، يولون ملكا ويعزلون آخر ، شأن الأمم إذا انحلت رابطتها والدول ، إذا انتكث فتلها وأذن الله بانصرام أجلها .

وبينما الفرس فى شاغل الاضطراب أخذ خالد يتمم فتح العراق فسار إلى الأنبار وكان بها شيرزاد فخرج لقتاله فلم يفلح وطلب المصالحة فصولح وخرج إلى بهمن جازويه ناجياً بنفسه ثم صالح خالد من حول الأنبار واستخلف عليها الزبرقان بن بدر ، وسار إلى عين التمر فاستقبله عاملها للفرس مهران بن بهرام جوبين بجند عظيم من العجم ، وعقة بن أبى عقة بجمع كثيف

من العرب من النمر وتغلب وإياد ، فتقدم العرب لمصادمة خالد فهجم خالد ذلك البطل الصنديد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه كما يحتضن الباشق العصفور ، وأخذه أسيراً ، فانهزم العرب بدون قتال وتبعهم بالهزيمة مهران بجنود الفرس وتحصن من فى الحصن ، أما خالد فنازلهم وافتتحه وسبى من فيه ، فكان من جملة السبى سيرين بن محمد بن سيرين ونصير أبو موسى بن نصير فاتح الأندلس بعد ، وروى بعضهم أن نصيراً عربى من أراشة من بلى سبى فى أيام أبى بكر فأعتقه بعض بنى أمية ، فصار إلى الشام وولد له موسى بقرية هناك تسمى كفر مرى .

ومنها سار خالد إلى دومة الجندل حيث كان يقيم على حصارها عياض ابن غنم الذى أمره أبو بكر أن يأتى العراق من أعلاه ، وخالد من أسفله ، فخرج الجودى صاحب دومة الجندل إلى خالد بطائفة من قومه وأرسل إلى قتال عياض طائفة أخرى ، فدحر الطائفتان فى آن واحد وأخذ المسلمون الحصن ومن فيه .

ثم كانت بعد ذلك وقعة الحصيد والخنافس ومضيح البرشاء والثنى والزميل وكانت آخر وقائعه بالفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة ، فاجتمعت عليه هناك جنود الروم والعرب وفارس وقاتلوه فقاتلهم ومزق جموعهم ، ثم أمر بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة ، وسار هو إلى مكة ، فحج وعاد ولحق بساقة الجيش قبل وصوله إلى الحيرة على ماروا المؤرخون .

كانت هذه الحرب آخر حروب خالد التى أصلى الفرس والعرب فى العراق نارها ، وقضى على ملك الفرس إذ مهد السبيل إلى تدويخ فارس وإزالة دولة الأكاسرة ، وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وأرقاها مكاناً إلا أنها بلغت من الكبر عتياً ، ومن فشل السياسة مكاناً قصياً ، فجاءها جند الإسلام بادى الشباب ناعم الإهاب فأسس ملكه الجديد فى تخوم بلادها لينساح فى

أحشائها ، وينشر دعوة الإسلام فى أرجائها ، ويقضى قضاءه على الوثنية وأهلها والشرك وبنيه فتتوحد كلمة الأمم فى السياسة واللغة والدين وينصر الله حزبه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

قد كانت حروب العراق أيام خالد أشد ما لقى المسلمون من حرب الفرس ، لاجتماع قبائل العرب فى العراق وجند فارس على حرب المسلمين ، حتى لقد كان أهل العراق أيام علىّ إذا بلغهم عن معاوية شىء يقولون نحن أصحاب ذات السلاسل ، ويسمون ما بينها وبين الفراض ولا يذكرون ما بعد الفراض احتقاراً للذى كان بعدها .

أمراء خالد وقواده :

ممن كان له البلاء الحسن فى فتوح العراق مع خالد بن الوليد من أمراء الجند الذين كان يبعث معهم بالسرايا يدعون إلى الإسلام أو الجزية ، ويقاتلون من امتنع عن قبول إحدى الخصلتين ، المثنى بن حارثة الشيبانى ، وبشير بن سعد الأنصارى ، وحنظلة بن الربيع التميمى المعروف بحنظلة الكاتب ، والنسير بن دسيم بن ثور ، وجرير بن عبد الله البجلى ، وضرار بن الأزور ، وضرار ابن الخطاب والقعقاع بن عمرو ، وعتيبة بن النهاس ، وغيرهم ، من أهل النجدة والبأس ، والأربعة الأخيرون كانوا من أمراء الثغور .

جغرافية العراق :

قالوا سمى العراق عراقاً تشبيهاً له بعراق القربة ، وهو الخرز الذى من أسفلها ، وهو على ضفتى دجلة ويحد العراق شمالا الجزيرة وكردستان ، وشرقا بلاد العجم ، وجنوباً خليج العجم المسمى (أيضاً بحر فارس) والبادية ، ويفصل العراق عن الجزيرة بخط مفروض من فلوجة على الفرات بقرب الأنبار إلى بغداد ، ومن ثم على شرقى دجلة إلى مصب نهر الزاب الأصغر فيها ، ويفصل

بينه وبين بلاد فارس سلسلة جبال خوزستان الممدة جنوباً من جبال كردستان .

وكان العراق من قديم الزمان من مواطن العرب من بكر ، بل كل الجزء الواقع بين دجلة والفرات ، وهو العراق والجزيرة كان قبل الإسلام من مواطن العرب من ربيعة وبكر وبطونها ، وكانت للعرب دولة فى العراق وهى دولة المناذرة تدفع الإتاوة إلى الفرس ، كما كان لهم دولة فى الشام وهى الدولة الغسانية تدفع الإتاوة إلى الروم ، فلما جاء الإسلام قضى على دولة المناذرة وغسان ، كما قضى على دولتى الروم والفرس .

سفره إلى الشام وحروبه فيها :

تقدم معنا فى سيرة أبى بكر رضى الله عنه أن جنود المسلمين فى الشام اجتمعوا فى اليرموك ، وأخذوا يطاولون العدو ويطاولهم ، وكتبوا إلى أبى بكر يستمدونه ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يسير بنصف الناس إلى الشام ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيبانى ، فصدع خالد بالأمر وسار فى ربيع الأول ويقال فى ربيع الآخر سنة ١٣ ، وكان مسيره من الحيرة على قول بعضهم ، وبعضهم قال إنه سار من عين التمر ، ولما سار استخلف على العراق المثنى بن حارثة الشيبانى وقال له (ارجع رحمك الله إلى سلطانك غير مقصر ولا وان) .

وقد كان المثنى استأذن أبا بكر بحرب من حوله من الفرس كما قدمنا ، فأذن له وولاه جند العراق ، ثم أرسل خالداً إلى العراق وأمر المثنى بالسمع والطاعة له ، ولما سار خالد إلى الشام عادت إمارة الجند إلى المثنى ، وكان خير كفء لها بعد خالد بن الوليد .

سار خالد بمن معه من جند الإسلام وكانوا ستة آلاف على رواية بعضهم

وتسعة على رواية البعض الآخر ، وقال بعضهم إن أبا بكر أمره أن يأخذ معه أهل النجدة فسار بخمسمائة ، ولعل الرواية الأولى أصح ، وأغار فى طريقه على جمع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر ، ومن ثم أخذ بجيشه طريق المفازة مع خطر المسير فيها لفقد الماء منها ، وقال له الدليل واسمه رافع بن عميرة الطائى ، إنك لن تطيق قطع المفازة بالخيل والأثقال ، فقال لا بد لى من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم ، واحتاط لقطع المفازة ، بأن أمر صاحب كل جماعة ممن معه بأخذ الماء للشبعة لخمس ، وأن يعطش من الإبل الشرف ما يكتفى به ثم يسقوها عللا بعد نهل ، والعلل الشربة الثانية والنهل الأولى ، ثم يصروا آذان الإبل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ، ثم ركبوا من قراقر فلما ساروا يوماً وليلة شقوا لعدة من الخيل بطون عشرة من الإبل ، فمزجوا ما فى كروشها بما كان من الألبان وسقوا الخيل ، ففعلوا ذلك أربعة أيام ، وفى اليوم الخامس انتهوا إلى سوى ، فأغار خالد على جمع من بهراء ثم أتى أرك ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه ، ثم أتى القريتين[١] فقاتل أهلها فظفر بهم ، ثم فعل مثل ذلك بحوارين .

وروى الطبرى أنه سار منها إلى قصم وقاتل بنى مشجعة ، ثم سار إلى ثنية العقاب[٢] قرب دمشق ناشراً رايته ، وهى راية سوداء وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبها سميت الثنية ، ثم سار فأتى مرج راهط[٣] فأغار

---

(١) تدمر قد أصبحت الآن بعد مجدها القديم قرية يحيط بها جماعة العرب الرحل ولكن لم يزل هيكلها المشهور قائماً ينطق بما بلغته من العظمة فى قديم الزمان وبينها وبين دمشق الشام سبعة مراحل ويليها القريتين وهى على مرحلتين منها ، وقال ياقوت لأنها هى حوارين التى مر عليها خالد وفيه نظر .

(٢) قال ياقوت وهى ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص اه . ولعلها التى تسمى الآن الثنايا .

(٣) هو المرج الواقع شرقى دمشق مما يلى الغوطة .

على غسان يوم فصحهم وأرسل بسر بن أبي أرطاة وحبيب بن مسلمة الفهري من قريش فأغارا على قرى الغوطة ، ثم سار خالد ونزل بالجابية وقيل بالباب الشرقي من دمشق ، فأخرج لهم بطريقها نزلا وخدمة ، وقال احفظ لي هذا العهد فوعده بذلك وكتب له به كتابا .

ثم سار خالد من دمشق إلى بصرى (من عمل حوران وهي الآن مركز حكومة قضاء)[١] فقيل إنه وجد عليها أبا عبيدة بن الجراح ، وقيل وجد يزيد بن أبي سفيان فافتتحها ، وبعث بأخماسها إلى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر ، وقد اختلف المؤرخون في هل كان المسلمون في اليرموك (شمالي جبل عجلون) أم في أجنادين من عمل فلسطين ، فقال أبو جعفر الطبري إن وقعة أجنادين كانت بعد اليرموك .

وأورد البلاذري في فتوح البلدان خبر أجنادين قبل اليرموك ، وقال إن وقعة أجنادين كانت في جمادى الأولى أو جمادى الآخرة سنة ١٣ ، وإن وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ ، مع أن أكبر المؤرخين ومنهم ابن الأثير قالوا إن وقعة اليرموك كانت في سنة ١٣ ، وقد تقدم معنا تعليل ذلك الاختلاف في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فلا حاجة للإعادة ، وإنما نذكر هنا ما اعتمده معظم المؤرخين من أن واقعة اليرموك كانت قبل أجنادين ، وفيها التقى خالد ابن الوليد بالمسلمين .

قال بعض المؤرخين ، إن خالداً لما كتب إليه أبو بكر بقصد الشام أمره على جميع الجند ، وقال بعضهم بل أمره على جنده فقط ، والظاهر أن

---

(١) القضاء في عرف الحكومة العثمانية هو مادون اللواء أو المتصرفية التي تجمع لرئاستها بضعة أقضية والمتصرفية ما دون الولاية التي تجمع إلى رئاستها بضع متصرفيات أو ألوية .

الرواية الثانية أصح ، لما ذكره ابن الأثير والطبرى من أن خالداً لما انتهى إلى المسلمين فى اليرموك ، وجد الأمراء متساندين كل أمير على جنده فرغب إليهم أن يؤمروه عليهم جميعاً فأمروه وإليك البيان .

لما اجتمع المسلمون فى اليرموك كان عددهم سبعة وعشرين ألفاً فيهم ألف صحابى ، وكان الروم فى مائة ألف ، وفى رواية أنهم كانوا فى مائتى ألف مقاتل ، وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير على جنده لا يجمعهم أمير ، ولا يخفى ما فى هذا من الوهن واختلاف الرأى وتجزؤ القوة بتجزؤ الإمارة وتعددها ، ولما جاء خالد بن الوليد وحضر المعارك مع المسلمين رأى أن القتال على هذا الوجه غير مجد نفعاً مع كثرة العدو عديداً وعدة ، وأن لا بد فى نيل الظفر من حزم الرأى واجتماع الكلمة ، وكان الروم يوماً قد تهيئوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال ، وذلك لليلتين بقيتا من جمادى الأولى وقيل فى جمادى الآخرة ، فأراد المسلمون الخروج إليهم متساندين ، فقام فيهم خالد فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه رأى من واليكم ومحبته : قالوا هات فما الرأى ؟

فأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة ، وأن يؤمروه عليهم فى ذلك اليوم فأمروه وهم يظنون أنها كخرجاتهم وأن الأمر يطول .

من هذه الرواية نعلم أن خالداً لم يكن أميراً عاماً على الجيش ، وإنما كان

أميراً على جنده فقط ، ولو كان أميراً عاماً لما ترك الروم يطاولون فى القتال بل لدبّر الأمر لدحرهم منذ وصوله إلى اليرموك .

لمـا تسلم خالد زمام القيادة العامة أخذ فى تعبية الجيش تعبية لم تعب العرب مثلها قبل ذلك ، فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، والميسرة كذلك وعليها القعقاع بن عمرو ويزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان ، وجعل على الطلائع قباث بن أشيم ، ولما تم له ترتيب الجيش على ذلك النمط خرج للعدو بأربعين كردوسا ، وأمر عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال ، وأظهر الروم من البسالة وقوة الجأش والصبر على الحرب ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم ، وقاتل خالد بن الوليد وشجعان المسلمين قتالا عظيما أمام فسطاس خالد حتى دحروا الروم فتضعضعوا ، ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، فانهزم فرسان الروم فأفرج لهم المسلمون ، وأما الرجالة فالذى نجا والذى قتل قتل ، وتم النصر للمسلمين بعد أن أصيب منهم عدد غير قليل من سادات قريش وأقيال الصحابة ، كما أصيب بمثل هذا أشراف الروم الذين فضلوا الموت دفاعا عن الحوزة على الفرار فقتلوا جميعا .

ولو أنصف الروم أنفسهم والمسلمين لقبلوا إحدى الخصلتين (الإسلام أو الجزية) وكفوا جنودهم عناء الحرب مع قوم قد مهد الله لهم سبيل النصر على الأمم ، بما يحملون من معجزات القرآن وآيات البيان المؤذنة بهدم أركان الظلم ومحو آثار السيطرة الجائرة ، التى امتد يومئذ على الناس رواقها وأخذت من الأمم الخاضعة لسلطان الفرس والروم بخناقها ، ولكن أنى ينصف قادة الشعوب وزعماء السيطرة إذا أحسوا بيد تمس جانب كبريائهم ، وتقلل من غلوائهم ، وتعين حدود سيطرتهم ، وتأخذ عن الاسترسال فى

الشهوات بأعنتهم ، وما قتل الأمم ، وساق النفوس إلى مصارع الهلكة ، وزعزع دعائم العمران فى كل زمان ، إلا هذه الفئة الجائرة التى انتحلت لأنفسها حق السيادة المطلقة على الأشخاص والنفوس وأذاقت الإنسان أنواع الشقاء والبؤس .

عزله عن الإمارة :

بينما كان المسلمون فى ذلك اليوم المشهود ، أى يوم اليرموك فى أشد حالات الحرب واشتداد الطعن والضرب ، جاء البريد من المدينة ينعى وفاة أبى بكر ويخبر باستخلاف عمر بن الخطاب ، ومعه أمر بعزل خالد بن الوليد وتوسيد إمارة الجيش العامة إلى أبى عبيدة بن الجراح ، فكتم ذلك أبو عبيدة ريثما تم النصر للمسلمين ، هذا على رواية بعض المؤرخين ، وعلى رواية بعضهم أن البريد جاءهم وهم على حصار دمشق ، ومن جعل واقعة أجنادين قبل اليرموك روى مجىء البريد وهم فى أجنادين ، والصحيح أن عزل خالد وتأمير أبى عبيدة إنما جاءهم وهم على دمشق ، كما يظهر ذلك من كتاب عمر بن الخطاب لأبى عبيدة كما ستراه مبسوطا فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وروى الطبرى أن أبا عبيدة كتم عن خالد خبر عزله ريثما فتح دمشق وكتب لأهلها عهداً فأمضاه له ، وعلى أى حال كان فإن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه حضر بعد إمارته هذه معظم فتوح الشام متطوعا ؛ وقال بعضهم إنه حضر بعض فتوح أرمينيا أيضا ، وكان المسلمون يستمدون رأيه فى الحروب ويقدمونه على أمرائهم ساعة الحاجة ، وكان أبو عبيدة يوليه الجيوش للفتح ، ولما فتح فى إمارة أبى عبيدة قنّسرين التابعة لولاية حلب ، وانتهى الخبر بذلك إلى عمر ، قال (أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى) .

وأما سبب عزله فأمران ، الأمر الأول ما كان فى نفس عمر بن الخطاب عليه منذ قتل مالك بن نويرة ، والأمر الثانى وهو الأهم إقبال جند المسلمين على خالد بن الوليد وحبهم له واستماتتهم بين يديه فى كل مشاهده فى العراق والشام ، وذلك ليمن نقيبته فى الحروب ، وشجاعته التى أرهبت القلوب ، وقد علم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذلك فخالج فؤاده شىء منه ، وخشى من إقبال الناس عليه ، لا سيما وأن فى نفس خالد من جهته ما فى نفسه ، من جهة خالد منذ قرعه ذلك التقريع الشديد عقب حادث مالك بن نويرة ، لهذا بادر عمر رضى الله عنه إلى عزله قبل أن يصل خبر توليه منصب الخلافة إلى المسلمين وخالد أمير على جيش عظيم منهم ، وهذا الذى خالج نفسه عمر بن الخطاب رضى الله عنه من جهة خالد بن الوليد لم يكتمه عنه بل أظهره إليه ، فقد روى أنه استدعاه بعد عزله إلى المدينة ، فعاتبه خالد فقال له عمر (ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس) وهذا صريح فى أن عمر رضى الله عنه خشى من أن تحدث خالداً نفسه بشىء ، فيشق عصا المسلمين وهو نظر سديد ومرمى بعيد من عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، إلا أن خالد بن الوليد وغيره من سادات قريش وأمراء المسلمين كانوا فى زمن أبى بكر وزمن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أبعد الناس عن الفتنة وألزمهم للطاعة ، لقرب العهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حزم هذين الخليفتين فى السياسة ورهبتهما التى حلت فى القلوب ، وعدا هذا فإن خالد ابن الوليد لما مات أبو بكر زال من نفسه ما كان يجده على عمر ، فقد روى الطبرى أن خالداً لما بلغه موت أبى بكر قال (الحمد لله الذى قضى على أبى بكر الموت وكان أحبّ إلىَّ من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلى من أبى بكر ، ثم ألزمنى حبه) والظاهر أن ما خالج فؤاد خالد من حب عمر لما ولى الخلافة علمه فيما بعد عمر بن الخطاب ، لهذا لما عزله وقال له ما عزلتك لريبة فيك ، كتب بذلك إلى الأمصار دفعاً للتهمة عنه .

وهي أحسن شهادة تحفظ كرامة خالد بن الوليد ، وتقدر قدر خدمته للإسلام والمسلمين ، وهو والله أجدر برفع الذكر وتشريف القدر ، فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين .

وروى الطبري أن عمر بن الخطاب لما عزل خالداً صادره على نصف ماله ، وذلك شأنه مع أكثر العمال كما سترى في سيرته ، لأنه كان يرى أن ما يجمعونه من المال إنما هو حق المسلمين ، فينبغي أن يؤخذ منهم ويرد لبيت مال المسلمين .

— ٦ —

حزم خالد وتوفيقه في الحرب

قلّ أن يوجد قائد في العالم يوفق إلى النصر في كل وقائعه كما وفق خالد ابن الوليد رضي الله عنه ، فإن التاريخ لم ينبئنا عن انخذاله ولا في وقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو في العراق والشام ، وهذا إنما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب ، فقد كان دائم اليقظة مراقباً لحركات العدو يترقب الفرص ويسدد سهم الفكر إلى الغرض البعيد ، فلا يخطىء مرماه ، وقد رأيت كيف فلّ جموع الروم في اليرموك ، وكشف عن المسلمين سحب الضيق والحيرة مذ سلموا قيادهم إليه ، وجعلوا اعتمادهم في تدبير الحرب عليه ، مع أن فيهم من الصيد الصناديد وأهل البصيرة ، والرأي ، يومئذ نفر أولو شهرة في الحرب في الجاهلية والإسلام ، كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن سفيان وأضرابهم من كماة الإسلام وقادة الجيوش العظام .

وروى الطبري أن خالداً لما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق ترك الأعداء ليلة مواقفهم على الأسوار ، لوليمة أعدها لهم البطريق ، فلم يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا خالد بن الوليد فإنه كان لا ينام ولا ينيم ، ولما وقف

على جلية الأمر تقدم بنفسه مع نفر من ثقات أصحابه واقتحموا الباب ففتحه لهم وكان النصر .

ومن هذا التيقظ تعلم سر توفيقه فى الحروب وانتصاره على الأعداء ونفاذ الرهبة من سطوته فى القلوب ، وحق والله لقائد مثله أن يخلد ذكره على صفحات الزمان ويشاد له من جميل الأثر أعظم بنيان .

— ٧ —

كتبه

١ — كتب إلى ملوك الفرس بعد تدويخ ملكهم فى العراق ، يدعوهم إلى الإسلام كتاباً هذه صورته .

(أما بعد) فالحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم نفعل ذلك كان شراً لكم ، فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ونجيزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة اهـ .

٢ — كتب إلى المرازبة والقواد كتاباً هذه صورته :

(أما بعد) فالحمد لله الذى فض حدتكم ، وفرّق كلمتكم ، وكسر شوكتكم ، فاسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا فىّ الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر اهـ .

٣ — ولما كان مع أبى عبيدة على حصار دمشق كان الأسقف الذى أقام له النزل يوم مروره على دمشق فى أثناء ذهابه لمعونة المسلمين فى اليرموك ربما وقف على السور فدعى له خالداً فإذا أتى سلم عليه وحادثه ، فقال له ذات يوم يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ولى عليك عِدَةٌ فصالحنى عن هذه المدينة فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق ، إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية اﻫ .

هذا ما رواه البلاذرى بشأن هذا الكتاب ، وهو يؤيد أنه كان يومئذ أميراً على جنده ، وأن خبر عزله إنما أتاهم وهم على دمشق ، وإنما كتمه عنه أبو عبيدة بن الجراح ريثما تم الفتح ، وقد روى بعض المؤرخين أن أباعبيدة أجاز كتاب خالد هذا بعد أن فتحت دمشق وأخبر خالد بالعزل .

٤ — وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى بنى الحارث ابن كعب .

(بسم الله الرحمن الرحيم) لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلاّ هو (أما بعد) يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمتُ عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركباناً يا بنى الحارث أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلىّ رسول الله ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

٥ — وكتب فى صلح الحيرة كتاباً هذه صورته .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً

ابنى عدىّ ، وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرىّ بن أكال[١] نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها[٢] وعلى المنعة فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة ، وكتب فى شهر ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة وشهد فلان وفلان.

٦ — وكتب إلى دهاقين السواد كتاباً هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاد بن بهيش وصلوبا بن نسطونا ، إنّ لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط على ألفى ألف تقبل فى كل سنة ، ثم كل ذى يد سوى ما على بانقيا وباروسما (وفى رواية بسما) وإنكم قد أرضيتمونى والمسلمين ، وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقباذ الأسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموال ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم ، شهد فلان وفلان وكتب سنة اثنتى عشرة فى صفر اهـ .

[٣] كلمة على الذمة أو أصل الامتيازات :

اعلم أن هذه الكتب وكل ما أعطى من الصحابة من كتب العهد لأهل

---

(١) وفى رواية جبرى .

(٢) وفى رواية وسائحاً تاركا للدنيا .

(٣) نريد بهذه الامتيازات ما يسمونه امتيازات الكنائس أو امتيازات المسيحيين الخاضعين للحكومة الإسلامية (وهى الذمة) لا امتيازات الأجانب ، فإن هذه تسمى (عهداً) وأهلها يعبر عنهم بالمعاهدين وهذه أيضا قد استفحل مع الزمان أمرها واستشرى شرها سيما فى المملكة العثمانية التى عاث فيها الأجنبى بتلك الامتيازات وتوسعت الدول المعاهدة بها حتى جعلتها حقا ثابتا لها قبل الدول العلية ، بعد أن كانت منحاً وعهوداً حبية ، وسيأتى الكلام عليها فى هذا الكتاب إن شاء الله .

الذمة سواء ، كانوا فى العراق أو فى الشام أو غيرها ، كانت أصولا ثابتة فى معاملة أهل الذمة والعهد من الرعية غير المسلمين ، وعهوداً مكينة فى جباية الخراج استمر العمل بها مدة الخلفاء من بنى أمية وصدراً من خلافة بنى العباس ، حيث صار الناس غير الناس واختلط السكان واتسعت أصول الجباية باتساع العمران فى الخلافة العباسية ، وعلى تلك الكتب بنى الفقهاء كثيراً من القواعد فى معاملة أهل الذمة ، وعلة ذلك كله الحديث الشريف الذى مر معنا ذكره فى هذا الكتاب وقد جاء فيه (إن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم) بمعنى أن كل ما أعطاه أحدهم من عهد لاسبيل لنقضه ، بل يؤكده الآخر ، وهذه قاعدة من أسمى القواعد التى جاء بها الإسلام لحماية الأمم التى تخضع لسيادة المسلمين من أذى أرباب السيطرة ، ومنعهم من كل من يريدهم بسوء ، ماداموا فى عهد المسلمين وذمتهم ، لايمالئون عليهم عدواً ولايخونون لهم جواراً ، ويعطونهم مافرضوه على أنفسهم ، ورضوا به من الجزية أو أى نوع تراضوا عليه من المال فى نظير هذه الحماية ، وهو تناه فى العدل فى حكم الأمم المغلوبة لم يسمع بمثله فى تاريخ الدول الفاتحة ، لا فى ذلك الزمن وماقبله ولا الآن ، بل جرت سنة كثير من الدول الفاتحة وأخصها الدول المتمدينة الغربية فى هذا العصر ، أن تحكم الأمم المغلوبة لها الخاضعة لسلطانها بغير ماتحكم به فى بلادها وأبناء جنسها وملتها ، وتعاملهم معاملة الرفيع للوضيع ، والغالب القاهر المغلوب الضعيف ، لاأن تشترط على نفسها حمايتهم وتكتب لهم العهود والمواثيق .

ولقد كان المسلمون يومئذ فى إبان عزهم وجدة دولتهم وبسطة جاههم وقوتهم ، ولم يعملوا بتلك القاعدة لوهن فى نفوسهم أو هيبة من عدوهم ، بل عملا بشرعهم واتباعا لأمر نبيهم ، وأى عصر من عصور الفتح كان أنفذ هيبة وأبسط قوة وأعظم سلطانا وأكثر فتحاً من عصر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، ومع هذا فقد كانت كل البلاد التى خضعت

لسلطان المسلمين بالرضا والاختيار يومئذ ، يأخذ أهلها من قواد الجيوش العهود التى تتكفل بحماية نفوسهم وأملاكهم وأعراضهم وحرية دينهم ، ولا يستطيع أحد من القواد أو العمال أن ينقض عهداً من تلك العهود ، إلا إن خان أصحابه المسلمين .

روى البلاذرى فى تاريخه فتوح البلدان أن عمير بن سعد (الأنصارى أحد كبار الفاتحين) قدم على عمر بن الخطاب وقال له ، إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس ، وإن أهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا ولهم علينا عهد ، واستشارة فى أمرهم ، فقال عمر ، فإذا قدمت نخيرهم أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شىء شيئين ، فإذا رضوا بذلك فأعطهم إياه وأجلهم واخربها فإن أبوا فانبذ إليهم وأجلهم سنة ثم اخربها .

فانظر كيف أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أبى أن ينقض عهد هؤلاء القوم الذى أعطاهم ، مع أنهم نقضوا عهدهم ، وخانوا دولة المسلمين الحاكمة عليهم ، وقد كان فى وسع هذا الخليفة العظيم أن يبدد نظامهم ، ويريهم جزاء عملهم ، بإجلائهم عن بلدهم سواء كان معهم منه عهد أو لم يكن، لأنهم خانوا المسلمين والخائن لا عهد له ، ومع هذا فقد أبى عدله ودينه أن يجليهم عن بلدهم إلا بعد تعويض مايفقدونه من المال والمتاع ضعفين .

ومازال الخلفاء فى كل عصر قائمين بالوفاء بعهود أهل الذمة فيما يتعلق بنوع الجزية ومقدارها ، كما جاء فى كتب العهود التى بأيديهم من الصحابة ، حتى تغير السكان ودان معظمهم بالإسلام ، وتنوسيت تلك الكتب وفقدت، وأما مايتعلق بحماية أهل الذمة حيث كانوا وحماية أموالهم وأملاكهم وحرية معتقدهم ، فهذه لما كانت لا تفتقر إلى المحافظة على أمثال تلك الكتب إذ هى قاعدة أساسية فى الإسلام ، فقد استمر العمل بها إلى الآن ، إلا ما كان أيام

ملوك الطوائف ربما أصاب أهل الذمة من جورهم ما أصاب أهل الإسلام ، ولما آلت الدولة إلى آل عثمان توسع بعضهم بتلك المنح الإسلامية ، وأخصهم المرحوم السلطان محمد الفاتح . بما أعطاه لبطريرك القسطنطينية من المنح التى تشبه ترتيب حكومة مسيحية داخل الحكومة الإسلامية ، ولا يحمل ذلك منه على غير التلطف والمجاملة وحسن الصنيع ، ولكن عمله ذلك أشبه بحلقة صارت بعد ذلك سلسلة كثيرة الحلقات ، إذ جعلت الدول الأوربية من ذلك الحين تستزيد لمسيحى الشرق من أمثال تلك المنح ، حتى توسع الدول بعد باسمها فسموها امتيازات ، وما زالت تتشعب هذه الامتيازات وتعظم حتى تناولت الذمى والمعاهد ، وحتى زال من نفوس الحائزين لها اعتبار كونها منحاً نالوها من دول الإسلام عملا بالشرع الإسلامى ، لا تمييزاً لأهل الذمة عن المسلمين ، ولا رهبة من دولة من الدول ، وكان من ذلك أن وقع الجفاء بين المسلمين وبين الطوائف المسيحية المحكومة بالدولة العثمانية ، وزالت من النفوس الثقة المتبادلة بين الفريقين من قديم الزمان ، بسبب تحرش الدول الأوربية بالدولة العثمانية ، بحجة المحافظة على حقوق المسيحيين التى تكفل بالمحافظة عليها الشرع الإسلامى نفسه وجعل لغير المسلم من الحقوق مثل ما للمسلم ، فما أخلق تلك الدول المتمدينة أن تعطى للمحكومين منها من المسلمين ولو جزءاً مما يعطى الإسلام للمحكومين من دولة من المسيحيين ، ثم تطالب بعد ذلك الدول الإسلامية بحقوق رعاياها المسيحيين ، وهيهات هيهات أن تغلب الفضيلة على الشهوات ، ويبلغ العدل عند الدول الأوربية مبلغه فى الإسلام .

وفاته وولده

اختار خالد بن الوليد بعد أن أتم فتوحه فى العراق والشام أن يسكن الشام فاتخذ مقراً له حمص ، وفيها توفى سنة إحدى وعشرين فى خلافة عمر ،

وقال بعضهم إنه توفى فى المدينة وليس يثبت ، ومدفنه لم يزل معروفاً يزار إلى الآن فى حمص ، وهو ضمن مسجد واقع خارج السور إلى الجهة الشمالية من حمص ، وقد اتصل به العمران وصار حوله لهذا العهد حىّ يسمى (حى سيدى خالد) كما يسمى المسجد أيضاً مسجد سيدى خالد ، وقد زرته مرة فوجدت عليه من المهابة والوقار ما يأخذ بمجامع القلوب التى يعرف أصحابها أقدار الرجال ، ويتأثرون بذكرى عصر أولئك الأبطال .

* * *

لما حضرت خالداً الوفاة قال « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وها أنا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله وأنا متترّس بها » .

فالله ما أعظم هذه النفس التى استهانت فى سبيل المجد بالحياة ، حتى ما تطيق الموت على فراش السكون ، وتأنف أن تذوق فى غير مواقف الحرب كأس المنون ، ولا جرم أن جسما ليس فيه موضع شبر إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف لجسم فيه نفس عالية تحار فى مرادها الأجسام ، وتتمنى لقاء الموت فيحجم عنها فى ساحات الصدام ، وهذا هو السر فى أن حياة الأبطال العظام عزيزة طويلة ، وحياة الأنذال الجبناء ذليلة قصيرة [١] .

وأوصى خالد قبل وفاته إلى عمر وحبس فرسه وسلاحه فى سبيل الله ، ولما مات اجتمع نساء بنى المغيرة يبكين عليه ، فلما بلغ ذلك عمر قال (ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة)

---

(١) نريد بهذه الحياة حياة الذكر .

وقيل إنه لم يبق امرأة من بنى المغيرة إلا جزت لمتها ، وحلقت رأسها حزناً على ذلك البطل العظيم ، الذى يحق أن تبكيه الرجال والنساء ويذكره المسلمون بأشرف أعماله صباح مساء .

ولده :

روى ابن قتيبة أنه كان لخالد ولد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلا فبادوا ، وقال فى أسد الغابة أخرج الثلاثة عن الزبير بن بكار أن ولد خالد بن الوليد انقرضوا فلم يبق منهم أحد ، وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة .

ويوجد لهذا العهد قبيلة رحالة فى جهات حمص تسمى بنى خالد ، ادعى بعض مشائخها أنها تنتسب إلى خالد بن الوليد لأغراض لا محل لذكرها هنا ، وهى دعوى كاذبة ليس عليها دليل ، إذ ولد خالد انقرضوا جميعهم فى الصدر الأول كما علمت والله أعلم .

الجزء الثاني



— ١ —

حاله فى الجاهلية

نسبه وأسرته :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبدالله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب القرشى العدوى أبو حفص ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وقيل حنتمة بنت هشام بن المغيرة ، فعلى هـذا تـكون أخت أبى جهل ، وعلى الأول تـكون بنت عمه ، لأن هاشماً وهشاماً ابنى المغيرة أخوان ، وهشام والد أبى جهل وأخيه الحارث ، وأما هاشم فإنه والد حنتمة وعم أبى جهل ، والحارث هكذا صححه فى أسد الغابة .

شرفه وصناعته :

سبق لنا فى صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر الرهط من قريش الذى انتهى إليهم الشرف فى الجاهلية ، ومنهم عمر بن الخطاب وكانت تنتهى إليه السفارة ، كما سبق لنا ذكر حرف الصحابة الذين سترد سيرتهم فى هـذا الكتاب ، ومنهم عمـر بن الخطاب فإنه كان تاجراً ، وما زالت هذه صناعته فى الجاهلية والإسلام حتى ولى الخلافة ، فحينئذ تركها عنها بمصالح المسلمين ، كما سيمر عليك مفصلا إن شاء الله .

مكانته عند قومه وسيرته فيهم

مكانة عمر عند قومه تعلم مما سيأتى فى ذكر إسلامه وحسبه ، من ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أن يعز الإسلام بعمر ، فاستجيب دعاؤه ، وقد كان فى قومه مشهوراً بالشدة ، عزيز الجانب ، مع أنه لم يكن ذا مال وغنى ، بل كان قليـــل المـال ، يتاجر بماله أحياناً إلى الشام ، فقد روى الحافظ بن عساكر فى تاريخه أن عمـر قدم الشام غير مرة فى الجاهلية وأسر فى أحدها ، وأخرج عن زيد بن أسلم عن أسلم عن أبيه فى حديث طويل ، أن عمر أسره فى الجاهلية بطريق من دمشق ، واستعمله فى بعض عمـله ، فتغفله وقتله وخرج هارباً من دمشق .

وكان فى حال صغره قبل أن يتجر برعى غنم أبيـه ، فقد روى ابن عساكر عن يحيى بن حاطب عن أبيه قال ، كنت مع عمـر بن الخطاب بضفيان (اسم مكان) فقال : كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً ، فكنت أرعى أحياناً وأحتطب أحياناً ، فأصبحت أضرب الناس ليس فوقى أحد إلا رب العالمين . ثم قال :

لا شيء مما ترى إلا بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم فى جاهليته ، وسترى كيف كان حاله فى الإسلام ، وإلى أية درجة بلغ به علو الهمة ومضاء العـزيمة والرأى والإخلاص فى خدمة الرسول الأكرم ، ودين الله القويم .

— ٢ —

إسلامه وصحبته

إسلامه :

كان المسلمون قبيل إسلام عمر بن الخطاب ، يجتمعون فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم المخزومى ، فى أصل الصفا مستخفين لقلتهم وشدة قريش عليهم ، ولم يكونوا كما يزعم بعض المتخرصين من فقراء الناس وأداني قريش ، بل كان فى ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش وأغنيائهم ، وذوى الشرف فيهم ، ومنهم أبو بكر الصديق ، وطلحة بن عبيدالله ، وعثمان بن عفان المشهورون بالغنى والثروة ، وسعيد ابن زيد ، وحمزة بن عبد المطلب ، وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافهم ، إلا أن معظمهم هاجروا إلى الحبشة لاضطهاد قريش لهم ، وكانوا لقلتهم فى حاجة إلى الاستكثار من ذوى العصبية أو الجرأة والإقدام من رجالات قريش ، ليستطيعوا إعلان دينهم ، والذب عن نبيهم ، وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر ابن الخطاب وأبو جهل ، وكان النبى صلى عليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين بإسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام) يعنى أبا جهل .

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين إليه ، وهو عمر بن الخطاب ، فأسلم فى ذى الحجة لمضى ست سنين من البعثة ، وبعد إسلام تسعة وثلاثين رجلا ، وثلاث وعشرين امرأة ، وقيل بعد أربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة ، وكان له من العمر ست وعشرون سنة .

وأما سبب إسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة، ومنها ما أخرجه الحافظ عز الدين الجزرى فى أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم أنه قال : قال لنا عمر بن الخطاب أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامى قلنا نعم . قال كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا يوماً فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة ، فى بعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش ، فقال أين تذهب يابن الخطاب ، أنت تزعم أنك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك . قال قلت وما ذاك ، قال أختك قد صبأت ، قال فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوّة فيكونان معه ، ويصيبان من طعامه ، وقد كان ضم إلى زوج أختى رجلين ، قال فجئت حتى قرعت الباب ، فقيل من هذا ، قلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرءون القرآن فى صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم ، قال فقامت المرأة ففتحت لى ، فقلت يا عدوّة نفسها قد بلغنى أنك صبوت ، قال فأرفع شيئاً فى يدى فأضربها به قال فسال الدم، فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل ، فقد أسلمت ، قال فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير ، فنظرت فإذا بكتاب فى ناحية البيت ، فقلت ما هذا الكتاب أعطينيه ، فقالت لا أعطيك لست من أهله ، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر ، وهذا لا يمسه إلا المطهرون ، قال فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى ، قال ثم رجعت إلىّ نفسى فإذا فيها (سبّحَ لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) ، قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عزّ وجلّ ذعرت ، ثم ترجع إلىّ نفسى حتى بلغت

(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت إلى قوله (إن كنتم مؤمنين) ، قال فقلت أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه منى ، وحمدوا الله عز وجل ثم قالوا يابن الخطاب أبشر ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال لهم (اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمرو بن هشام ، وإما عمر بن الخطاب) وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر، قال فلما عرفوا منى الصدق ، وقلت لهم أخبرونى بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هو فى بيت فى أسفل الصفا وصفوه ، قال فخرجت حتى قرعت الباب ، قيل من هذا ، قلت ابن الخطاب . قال : وقد عرفوا شدتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعلموا بإسلامى . قال : فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب . قال فقال رسول اللهصلى اللهعليه وسلم افتحوا له ، فإنه إن يرد الله به خيراً يهده ، قال ففتحوا لى ، وأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أرسلوه فأرسلونى فجلست بين يديه ، فأخذ بمجمع قميصى فجذبنى إليه ، ثم قال أسلم يابن الخطاب ، اللهم اهده قال قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة ، قال وقد كان استخفى [1] قال ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلا أسلم يضرب إلا رأيته [2] قال فلما رأيت ذلك قلت لا أحب إلا أن يصيبنى ما يصيب المسلمين ، قال فذهبت إلى خالى (يعنى أبا جهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم ، فقرعت الباب عليه فقال من هذا ؟ فقلت ابن الخطاب ، قال فخرج إلى فقلت له أشعرت

---

(١) هكذا ولعلها وقد كانوا مستخفين .

(٢) وفى رواية فلم أشأ أن أرى رجلا يضرب ويضرب إلا رأيته ولا يصيبنى من ذلك شىء .

إنى قد صبوت ؟ قال فعلت ؟ قلت نعم ، قال لا تفعل ، فقلت بلى قد فعلت ، قال لا تفعل فأجاف الباب دونى وتركنى ، قال : فلما رأيت ذلك انصرفت ، فقال لى رجل تحب أن يعلم إسلامك ؟ قال قلت نعم : قال ، فإذا جلس الناس فى الحجر واجتمعوا ، أتيت رجلا لم يكن يكتم السر ، فأصغ إليه وقل له فيما بينك وبينه إنى قد صبوت ، فإنه سوف يظهر عليه ويصيح ويعلنه : قال : فاجتمع الناس فى الحجر ، فجئت الرجل فدنوت منه ، فأصغيت إليه فيما بينى وبينه ، فقلت أعلمت أنى قد صبوت : فقال ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ ، قال : فما زال الناس يضربوننى وأضربهم فقال خالى ما هذا : قال فقام على الحجر فأشار بكمه فقال : ألا إنى قد أجرت ابن أختى ، فانكشف الناس عنى وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يضرب إلا رأيته (١) وأنا لا أضرب ، قال : فقلت ماهذا بشىء حتى يصيبنى مثل مايصيب المسلمين . قال : فأمهلت حتى إذا جلس الناس فى الحجر ، وصلت إلى خالى فقلت اسمع فقال ما أسمع : قال : قلت جوارك عليك رد فقال : لاتفعل يا ابن أختى . قال : قلت بل هو ذاك . فقال : ما شئت . قال : فما زلت أضرب وأضرب ، حتى أعز الله الإسلام اهـ ،

وروى أن عمر لما أسلم ، قال : يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قليل وقد رأيت ما لقينا ، فقال له عمر والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفين من المسلمين حمزة فى أحدهما ، وعمر فى الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش إلى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ، ومن يومئذ سماه

---

(١) يريد إلا رأيته يضرب فحذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع والمعنى أن الناس لم يوافقوا رغبته فهو يحتج هو إلى الضرب بنفسه .

رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لأنه أظهر الإسلام ، وفرق بين الحق والباطل .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله (يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) .

وأنت ترى من هذا مكانة عمر فى قومه ، وسمو منزلته فى قبيله ، وما كان لإسلامه من دخول الوهن على نفوسهم ، إذ أقروا بظهور المسلمين عليهم ورجحان كفة المؤمنين على كفتهم ، وحسبك دليلا على هذا شهادة القرآن كما رأيت . ويؤيدها شاهد العيان أيضاً ، فإن المسلمين بعد ذلك كانوا يعبدون الله مستخفين أعلنوا بعد إسلام عمر دينهم وأخذوا يبثون بين الناس دعوتهم ، لا يبالون بما قام فى نفوس قريش من الحقد عليهم ، وتعمد ايصال الضرر والأذى إليهم ، فقد روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال (كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً (وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر ، قاتلهم حتى تركونا فصلينا) أخرجه فى أسد الغابة ، وأخرج البخارى عن ابن مسعود أيضاً قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر) .

ولا جرم أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الرجل الفذ الجليل ، الذى قوى الله به الأسلام فى منبته ، وأعزه فى هجرته ، ومهد سبيل النشر لدعوته والفتح لأهله ، فكان رضى الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين ، والمثل المضروب فى التقوى والعدل والشهامة ونصرة الدين وتأييد الحق والشدة على الأعداء ، وإقامة الميزان بالقسط وتعميم دعوة الإخاء والحرية بين الأمم ، فإسلامه كان من المنن العظيمة التى من الله بها على المسلمين وأيد بها جانب الدين :

صحبته :

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته ، وبذل فى نصرته مهجته ، وما زال منذ أسلم يناضل عن المسلمين ، وينافح عن سيد المرسلين ، ويظهر من الشدة على أعدائه والمظاهر لأوليائه ما أزعج قريشاً عن أذى النبى صلى الله عليه وسلم ، وخفف وطأة تعسفهم على اتباعه ، واضطهادهم للمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة ، حتى إذا أذن الله للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهجرة أخذوا يهاجرون مستخفين إلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فإنه لشجاعته وقهره لقريش ، وشدة بأسه عليهم هاجر على ملأ قريش . فقد أخرج الحافظ عز الدين الجوزى والحافظ بن عساكر عن علىّ رضى الله عنه : قال : ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفيا ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهما ، واختصر عنزته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أتى المقام فصلى متمكناً ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، وقال لهم شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، وييتم ولده ، ويرمل زوجته ، فيلقنى وراء هذا الوادى : قال على فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين ، علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه .

وأخرجا عن البراء بن عازب : قال : أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار ، ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الأعمى أخو بنى فهر ، ثم قدم علينا عمر بن الخطاب فى عشرين راكبا ، فقلنا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال هو على أثرى ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه .

وما زال عمر فى هجرته كما كان فى مكة شديداً على المخالفين ، قوّاماً على الحق منافحاً عن رسول الله ، مراقبا لأعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم

إليه مبغضاً لمن أبغضه ، لا يفتأ يراقب حركات المنافقين ، ويستطلع ضمائر الوافدين ، حتى إذا تفرس فى أحدهم سوء نية لازمه فى دخوله وخروجه ، وألزمه حد الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والإحجام عنه والخنوع بين يديه . روى أن عمير بن وهب الجمحى عاهد صفوان بن أمية القرشى بعد وقعة بدر على أن يأتى المدينة ، ويقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدمها واستأذن على رسول الله ، فخرج إليه عمر بن الخطاب وتفرّس فيه الشر ، فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الخبيث ، فلما رآه رسول الله ، قال لعمر اتركه يا عمر ، ثم سأله عما جاء به ، فقال جئت لهذا الأسير (يعنى أباه وهباً لأنه كان أسيراً عند المسلمين ، أسروه فى وقعة بدر) : قال : اصدقنى : قال . ما جئت إلا لذلك : قال : بل قعدت أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا فدهش عمير ، وأسلم لساعته.

وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قريش سهيل ابن عمرو فأسره فى وقعة بدر مالك بن الدخشم الأنصارى ، فلما أتى به رسول الله قام إليه عمر وقال ، دعنى أنزع ثنيته يا رسول الله ، فلا يقوم عليك خطيبا أبدا : فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه يا عمر ، فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه (١) .

ورأى مرة يهودياً ممسكا برسول الله يطالبه بدين له ، فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودى : وقال : دعنى أقتله يا رسول الله : فقال : دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالا .

---

(١) تحقق مقام سهيل هذا الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الردة وذلك أن قريشاً لما وصلهم نعى رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه فقال يأهل مكة لاتكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله ليتمن هذا الأمر كما ذكر رسول الله إلى آخر ما قال مما هو مسطور فى التواريخ فامتنع أهل مكة عن الردة .

وله من هذا القبيل أخبار كثيرة أيام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تدل على عظيم محبته له ، وإخلاصه فى الذب عنه ، والشدة على من ناوأه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه فى بعض الأمور ، فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً ، لصدق لهجتهما وعظيم إخلاصهما ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام فى عمر (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذى عن ابن عمر ، وفى رواية أبى داود عن أبى ذر : قال (إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) ، وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون (ملهمون) فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر (متفق عليه كما فى المشكاة) لهذا كان رضى الله عنه يرى الرأى فينزل به القرآن ، حتى بلغت موافقاته عشرين ونيفاً ، ومنها آية تحريم الخمر ، فإنه لما قال (اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ، ومنها آية الحجاب ، فإنه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم أن يحتجبن ، فقالت له زينب: وإنك علينا يابن الخطاب، والوحي ينزل فى بيوتنا : فأنزل الله تعالى (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان فى الدخول ، وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال : اللهم حرّم الدخول : فنزلت آية الاستئذان .

إلى هذا المقام وصل عمر رضى الله عنه فى صدق اللهجة ، وقول الحق وجميل الصحبة ، وحسبه فضيلة فى نفسه وفضلا على المسلمين فى صحبته كونه كان سبباً فى تحريم الخمر الذى هو آفة الإنسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية ، والأمراض العقلية والجسمانية فى كل زمان ومكان .

هكذا كان عمر رضى الله عنه نافعاً فى صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص عليه ، والحب له والمدافعة عنه ، وشهد معه من المشاهد

بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها ، وكان ممن ثبت مع رسول الله فى أحد .

أخرج فى أسد الغابة عن الزهرى وعاصم بن عمر قال : لما أراد أبو سفيان الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ، ثم نادى بأعلى صوته إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر اعل هبل (أى أظهر دينك) : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : قم فأجبه : فقال الله أعلى وأجل لاسواه ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار : فلما أجاب عمر أباسفيان ، قال أبو سفيان ، هلم إلىّ يا عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائته فانظر ما يقول : فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك بالله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال : لا وإنه يسمع كلامك الآن ، فقال أبو سفيان أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر (لقول بن قمئة لهم قد قتلت محمداً) .

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر غازياً إلى ذات السلاسل فى جيش أميره عمرو بن العاص وأرسله فى جيش أميره أسامة بن زيد مولى رسول الله وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر أسامة بالجيش بعد وفاته وبقى عمر بالمدينة استبقاه أبو بكر كما رأيت فى سيرته وبالجملة فإن عمر رضى الله عنه خدم الإسلام فى صحبته كما خدمه فى خلافته ، وكان مخلصاً فى إيمانه ، مخلصا لنبيه عظيم الحب له ، حتى بلغ من حبه له أنه لما مات صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته ، أو أصابه من شدة الحزن دهشة وذهول ، حتى قام فقال . من قال إن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفى هذا ، وليبعثه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم ، والقصة مشهورة أوردنا المهم منها فى سيرة أبى بكر رضى الله عنه فكأن عمر ألهم هذا القول حتى أرهب المنافقين فأذهلهم من الكلام ، ريثما جاء أبو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه .

— ٣ —

خــلافته

تقدم معنا فى الجزء الأول أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب قبل وفاته ، فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة يوم وفاة أبى بكر ، ولما تلى كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ، ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والأنصار، مع أنه كان توقف بعضهم عن بيعة أبى بكر حالة كونها شورى بين المسلمين كما رأيت فى الجزء الأول ، وإنما رضى المسلمون بعهد أبى بكر لعمر بن الخطاب ، وإن خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لأمرين :

(الأمر الأول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطلعين إليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الأهلية وتتجاذبها العصبية، وقيام العذر لأبى بكر فى عدم تركها شورى لهذا السبب الذى استشعر به قبل وفاته ، وقد بسطنا الكلام على هذا فى باب خلافته فلا حاجة للمزيد .

(والأمر الثانى) تفرس المسلمين فى عمر الكفاءة على القيام بهذا الأمر واقتداره على سد ذرائع الفتنة ، كما تفرس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق له منهم قبل عهده إليه بالخلافة وقد صدقت فى عمر رضى الله عنه فراستهم وتحقق بكفاءته رجاؤهم . فجاءت خلافته رحمة على الأمة كما مر فى حديث ابن مسعود .

أخرج الحافظ بن عساكر عن أبى عبيدة قال : قال عبد الله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة . الملك حين تفرس فى يوسف والقوم فيه زاهدون. والمرأة التى تفرست فى موسى فقال (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) وأبو بكر حين تفرس فى عمر فاستخلفه .

نعم قد استاء بعضهم من استخلاف أبى بكر لعمر إلا أن استياءهم لم يكن لفقد الكفاءة ممن أسندت إليه الخلافة وإنما كان لصرفها عنهم أو خوفاً من شدة عمر عليهم ، كما بسطنا هذا فى سيرة أبى بكر ، ومع هذا فإن أبا بكر رضى الله عنه لم يقض إلا بعد أن جعل الساخط راضياً ، فقد أخرج الإمام أبو الفرج بن الجوزى فى السيرة العمرية وابن عساكر فى تاريخه عن عاصم قال : جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله إلى المنبر ، فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فإنها غرارة ، وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى ، وإن هذا الأمر الذى هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه أشدكم فى حال الشدة وأسلسكم فى حال اللين ، وأعلمكم برأى ذوى الرأى ، لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحيى من التعلم ، يتحير عند البديهة ، قوى على الأمور لا يجوز لشىء منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده [١] من الحذر والطاعة (وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل [٢] الساخط إمارته الراضى بها على الدخول معهم توصلا .

ومن هذا يعلم أن أبا بكر إنما اختار للخلافة عمر رضى الله تعالى عنهما علماً بحقيقته وسداً لذرائع الفتنة ، وطلباً لخير المسلمين ومصلحتهم لا محاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزرى فى أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفى أنه دخل على على بن أبى طالب فى خلافته فقال يا أمير المؤمنين إنى مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذى هما أهل له من الإسلام فقام (أى على)

---

(١) بفتح العين الذخيرة المعدودة لوقت الحاجة .

(٢) هكذا فى السيرة العمرية وفى تاريخ ابن عساكر وجعل الخ ولم يذكرا متعلق (لتوصلا)

فخطب الناس خطبة طويلة ، مما جاء فيها عن أبي بكر واستخلافه لعمر ، قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى أن عمر أقوى عليها ولو كانت محاباة لآثر بها ولده) إلى آخر كلامه ، وربما جاء معنا في مكان آخر .

وهذا الذي تحقق عند المسلمين من حسن نية أبي بكر وكفاءة عمر ، دعاهم إلى الرضا ببيعته ، والاتفاق على قبول خلافته ، وإن خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين ، وقد قام رضي الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً ، لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم ، وساسة الحكومات ، بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الإسلامية أن كانا مثلا لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الأمراء .

أخرج في أسد الغابة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال « إن الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة ، فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما إتعاباً شديداً ، فذكرهما حزن للأمة وطعن على الأئمة » .

ولقد صدق رضي الله تعالى عنه فيما قال ، فإنه لم يخرج قوماً من المسلمين على الأمراء بعد ذينك الخليفتين إلا مطالبين بمثل عدلها محاجين بسيرتهما ، حتى فريق الخوارج الذين يذهبون إلى عدم الحاجة إلى الإمام ، كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الإمامين الأولين ، وأول ما خرجوا كان خروجهم على علي رضي الله تعالى عنه . هذا على مكانته من الدين وتقواه وعدله . حتى إن الخوارج لم يستطيعوا أن يأخذوا عليه في سيرته إلا مسألة التحكيم التي لم تنبعث في الحقيقة إلا عنهم .

وحسب عمر رضي الله تعالى عنه من خلافته أن يكون مثلا في العدل

وحجة على الخلفاء والولاة من بعده ، بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً أن كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين ، أجمعوا على أنه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل فى الإسلام ، ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذى يفتخر به تاريخ الإسلام ، لشيدوا باسمه الآثار العظيمة فى كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حى فى التاريخ . وبعد فإن أحط البشر عقولا وأضعفهم بصيرة فريق الغلاة من الشيعة ، الذين يطعنون فى ذلك الرجل العظيم الذى أصبح فى حسن السيرة مثلا فى العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين ، فأى عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى أن يكون فيمن ينتسب للإسلام جماعة يقدمون بمثل عمر ابن الخطاب على تفرده بالشهرة ، وجلالة قدره ، وجلائل أعماله وآثاره ، وسيفه بالإيمان ، وخدمته للإسلام فى صحبته وخلافته ، حتى كان غرة جبين التاريخ الإسلامى وذكرى الفخر الغابر الخالدة ، مع أن الإسلام يبرأ إلى الله من أمثال تلك الفرق التى أسس نحلتها ابن سبأ اليهودى وأضرابه من أعداء الإسلام ، ومريدى الشر بالمسلمين ، ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة إلى الإسلام ، وهو يبرأ إلى الله من نحلهم الفاسدة التى لا يقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين ، ولا حكمة ، وإنما هو التقليد الأعمى ، والجهل يفعلان فى العقول والأوهام ما لا تفعله السموم فى الأجسام .

— ٤ —

أول أعماله فى الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضى الله عنه يوم استخلف أن صعد المنبر فخطب الناس فقال : إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده

حيث يقود ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق .

وأول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور : انتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب الفرس : وعزل خالد بن الوليد ، وتوسيد الإمارة العامة في الشام إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح وبعث يعلي بن أمية لإجلاء أهل نجران : فأما خبر أبي عبيد فسيأتي معنا في باب الكلام على فتوحات عمر رضي الله عنه وأما خبر خالد بن الوليد فقد مر معنا ذكره في سيرته ، وربما نعود إلى شيء منه عند الكلام على فتوح الشام . وأما خبر نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من فائدة تاريخية فيها موعظة وذكرى لقوم يعقلون .

إجلاء أهل نجران :

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة إلى الإسلام وأن لا إكراه فيها ، وإن أساسها التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ، ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم وأن يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه ، وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه وألا يفتن عن دينه ولا يؤخذ منه من الجزاء إلا ما رضيه في عهده ، وأن تكون له الذمة والعهد أنى حل وحيثما وجد من ممالك الإسلام ، ما دام وافياً بعهده مؤدياً لجزيته ، لا يخون المسلمين ولا يمالىء عليهم عدوهم وأحسن شاهد على هذا نسوقه إليك في هذا الفصل ، خبر أهل نجران اليمن وكانوا من الكتابيين لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم منهم ما لم يخونوا أو يغدروا وتحرير الخبر عنهم أنه كان وفد وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الأسلام فأبوا وسألوه الصلح وأن يقبل معهم الجزاء فصالحهم على شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين . وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده وألا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ،

ولا يحشروا ولا يعشروا وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه . ولا يغير حق من حقوقهم . ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله أبداً حتى يأتى أمر الله ما نصحوا وأصلحوا واشترط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به . ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه أقرهم على مالهم، وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه كان يتخوفهم ويود إجلاءهم لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقين فى جزيرة العرب دينان » . ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بن الخطاب بإجلائهم ، لنقضهم العهد بأصابتهم الربا .

فانظر كيف أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى ألا يجتمع فى جزيرة العرب دينان ، لأن العرب أمة حديثة عهد بالإسلام وقد عانى صلى الله عليه وسلم ما عانى فى جمع كلمتها وتوحيد وجهتها، فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يدينون بغير دينها ، فيفتنون من جاورهم عن الإسلام على حداثة عهدهم فيه ، وعدم تمكنهم بعد من أصوله الصحيحة .

هذا من وجه ومن وجه آخر ، فإن النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ، ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل اليمن الذين ينضب التعامل بالربا معين ثروتهم ، ويؤذن بفقرهم ، على غير شعور منهم ، لا سيما وأن الشريعة الإسلامية قد حرمته تحريماً باتاً ، ولا يؤمن من أن النجرانيين باستمرارهم على تعاطى الربا يحملون بعض من جاوهم من المسلمين على ارتكاب الإثم بالتعامل معهم بالربا .

مع هذه الأسباب التى تلجىء إلى إكراه النجرانيين على الإسلام فإن

النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك . لأن شريعته لم تأذن بإكراه أهل الكتاب على الإسلام ، لهذا تركهم على دينهم بعد أن دعاهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن فأبوا ، وأعطاهم كتاب العهد المذكور ، إلا أنه اشترط عليهم فيه ألا يخونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ، ولما استخلف أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول ، مع أنه كان يرى فى وجودهم فى جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يسعه فى أمرهم إلا ماوسع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا علم أنهم خانوا العهد ، وتعاملوا بالربا ، أمر فى حال مرضه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بإجلائهم عن جزيرة العرب ، دون أن يفتنوا فى دينهم .

ولما استخلف عمر رضى الله عنه كان أول بعث بعثه بعث أبى عبيد إلى العراق كما قدمنا ، وبعث يعلى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران ، وأن يعاملهم بالرأفة ، ويشترى أموالهم ويخيرهم عن أرضهم فى أى أرض شاءوا من بلاد الإسلام ، (لا أن يعاملهم معاملة القوى الغالب للضعيف المغلوب ، كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الإسلام وبعده حتى الآن فى معاملة الأمم التى تخالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها) .

أخرج الطبرى عن سالم فى حديث مر معنا ما هو بمعناه ، قال فيه عن عمر أنه أوصى يعلى بن أمية بأهل نجران فقال :

ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلهم من أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم وأمسح أرض كل من تجلى منهم ، ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله ألا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف .

وكتب لهم كتاباً هذه صورته كما أوردها البلاذرى فى فتوح البلدان .

« أما بعد فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض وما اعتملوا من شىء فهو لهم مكان أرضهم باليمن » .

على هذا الوجه أجلى عمر (رضى الله عنه) النجرانيين النصارى منهم واليهود ، فتفرقوا فنزل بعضهم الشام ، وبعضهم النجرانية ، بناحية الكوفة وبهم سميت .

ولم تقف العناية بهم فى إجلائهم والمحافظة على ما بيدهم من العهد وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد ، بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق ، ولم يرفعوا لأحد منهم مظلمة إلا أنصفهم ، ورفع أذى عماله عنهم ، وشملهم بالعدل وحاطهم بالعناية .

من ذلك أنهم شكوا مرة إلى عثمان رضى الله عنه لما استخلف ضيق أرضهم ، ومزاحمة الدهاقين لهم ، وطلبوا إليهم تخفيف جزيتهم ، فكتب إلى الوليد بن عتبة بن أبى معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه فيه بهم ، ويأمره أن يضع عنهم مائتى حلة من جزيتهم لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم وستأتى صورة الكتاب فى خلافة عثمان رضى الله عنه .

وروى البلاذرى عن الكلبى ، أنه لما ولى معاوية أو يزيد بن معاوية ، شكوا إليه تفرقهم ، وموت من مات منهم ، وإسلام من أسلم منهم ، وأحضروه كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل ، وقالوا إنما ازددنا نقصاناً وضعفاً فوضع عنهم مائتى حلة تتمة أربعمائة حلة ، فلما ولى الحجاج العراق وخرج ابن الأشعث عليه اتهمهم والدهاقين بموالاته ، فرد جزيتهم إلى ما كانت عليه فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا إليه ظلم الحجاج ونقصهم ، فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم فألزمهم مائتى حلة جزية عن رءوسهم فقط ، فلما ولى يوسف بن عمر العراق فى خلافة الوليد بن يزيد الأموى ردهم إلى ما كانوا عليه عصبية للحجاج ، فلما انقضت دولة الأمويين واستخلف

أبو العباس السفاح رفعوا إليه أمرهم ، وما كان من عمر بن عبدالعزيز ويوسف ابن عمر ، فردهم إلى مائتى حلة ، ولما استخلف هرون الرشيد شكوا إليه تعنت العمال إياهم ، فأمر فكتب لهم كتاب بالمائتى حلة ، وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من معاملة العمال ، وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة كى لا يتعنتهم أحد من العمال .

هـــذا مارواه المؤرخون فى شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن جزيرة العرب ، وقد رأيت مما مر مبلغ عناية عمر بهم لما لم ير بدأ من إجلائهم للأسباب التى مر ذكرها ، وقد كان من السهل إكراههم على الإسلام ودخولهم فيه ، كما دخل أولئك الملايين من مشركى العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً ، وإنما هو الشرع الإسلامى منع من إكراه غير مشركى العرب على الإسلام ، كما منع من نقض العهد وخفر الذمة إلا بسبب مشروع ، لهذا لما خان النجرانيون عهدهم بتعاملهم بالربا ، وقد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يتعاملوا به فى الجزيرة ، ساغ لأمير المؤمنين إجلاؤهم إلى غيرها بعد أن عوضهم عن المال والعقار بمثله ، وما زال الخلفاء بعده مبالغة بالرفق بأهل الكتاب وقياماً بواجب السيادة العادلة ، ووفاء بعهد الله والرسول يعاملون النجرانيين بأحسن ماتعامل به عامة الرعية من المسلمين ، ويدفعون عنهم أذى الظلم والإجحاف كما رأيت .

حكم الإسلام فى المسيحيين وحكم الأوربيين فى المسلمين :

ينتج معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور :

الأمر الأول : عدم إكراه النجرانيين على الإسلام مع تعين الخطر من وجودهم فى جزيرة العرب لحداثة عهد أهلها بالإسلام ، ذلك لأن عدم الإكراه

من أصول الشريعة الإسلامية ، والجهاد الذى يعظم أمره أعداء المسلمين إنما شرع لحماية الدعوة ، لا للإكراه إلا جهاد مشركى العرب يومئذ ، فقد شرع لإرغامهم على الإسلام لأسباب حكيمة لاتخفى على بصير ، أهمها تطهير نفوس تلك الأمة العظيمة من شرور الوثنية ، واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التى كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب من آسيا وأفريقيا وأوربا . بل هى نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك ، فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والإشراف على تلك الممالك أيضاً ، وقد كان ذلك كما هو معلوم .

الأمر الثانى : عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود وتأكيدهم لعهد النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وقلتهم وقوة الخلافة الإسلامية وسلطتها ، وإن ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة ، بل عن محض تمسك بالعهد ، وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الإسلام من كل ملة ودين .

الأمر الثالث : حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على قاعدة حماية الذمى فى نفسه وماله ، بتعويضه النجرانيين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ، وما لهم لما قضت الضرورة بإجلائهم عن أرضهم إلى غيرها من بلاد المسلمين ، وقد رأيت ماذكرناه استطراداً فى سيرة أبى بكر عن عمر رضى الله عنهما ، وما فعله من هذا القبيل مع أهل عربسوس من ثغور الروم ، وكيف أنه لما أمر بإجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ، ونكثهم عهد الأمانة والصدق ، أمر بأن يعوضوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين ، ومازال الخلفاء فى أيام الفتوح العظيمة وما بعدها ، يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للأقوام المغلوبين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم ، سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم ، ولم يؤثر عن أحد منهم أنه طرد قوماً من أرضهم ، أو انتزعها منهم

بغير حق ولا عوض ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الأفراد من جور بعض العمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة ، فحادوا عن طريق الشرع ، فإنه قد يصيب أفراد المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم ، وليس فى هذا مايقدح بأصول الحكم الإسلامى الذى يأبى الظلم ويدعو إلى الرأفة والعدل .

هذا شأن الإسلام فى المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة ، وقد رأيت مما تقدم أنه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التى ينتحلها الغالبون فى كل عصر إلا ماتدعو إليه الضرورة القصوى وتستلزمه سلامة الملك والدين ، لاماتدعو إليه شهوات الملك ورغبات الأمة الغالبة ، وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم ، وأن لأهل الذمة لهم مالهم وعليهم ماعليهم ، فبالغوا فى الرأفة بأهل جوارهم والداخلين فى ذمتهم من أرباب الملل الأخرى ، فتركوا لهم حرية التملك والدين ، ولم ينازعوهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار ، بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة ، وعضوا من أعضاء مجتمعهم ، لاغنى عن مشاركته فى العمل . ومشاطرته أسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية ، يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الأمويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى ترتيب دواوين الخراج ، وترجمة علوم اليونان ، وتقريب النابغين منهم فى علوم الهندسة والطب إليهم واعتمادهم فى شفاء عللهم عليهم ، بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لأهل الكتاب عضواً من جسم هيئتهم الاجتماعية ، لايجوز فصله فى حال من الأحوال ؛ إن جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ووقع فى أثرهم من وقع من المسلمين والنصارى ، ثم خضد المسلمون شوكة التتار فى الشام ، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية رأس العلماء فى عصره أمير التتار قطلوشاه بإطلاق الأسرى ، فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له بأهل

الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة فأطلقهم له [1] .

وكيف لا يقوم علماء المسلمين وخلفاؤهم بحماية أهل ذمتهم ، وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم أمته خيراً ، وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وكما سترى بعد ، ونحن ننقل إليك هنا على سبيل الاستطراد ماجاء فى كتاب كتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص عامله على مصر وهو قوله :

« واعلم ياعمرو أن الله يراك ويرى عملك ، فإنه قال تبارك وتعالى فى كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد أن يقتدى به وأن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، وأوصى بالقبط ، فقال « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » احذر ياعمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصما ، فإنه من خاصمه خصمه. والله ياعمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة ، وآنست من نفسى ضعفاً وانتشرت رعيتى ورق عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط . والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه يوم القيامة »

---

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة فى نسخة خطية من الرسالة القبرصية التى قدمها شيخ الإسلام ابن تيمية لسرجوان ملك قبرص لافتكاك أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة إلى الفاضل الشيخ على أفندى يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيرة فطبعها على نفقته ، ومن الأسف أن يغفل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التى هى مرمى غرض التاريخ الصحيح ، ولو عنوا بنقل كل الحوادث الاجتماعية التى لها علاقة بأصول المدنية الإسلامية وعصورها لنفعوا الإسلام والمسلمين .

تأمل قول هذا الخليفة العظيم الذى يوصى به عامله بأهل الكتاب ، ترى الرهبة من الله بادية على كلامه . وعلائم الخشوع والحنان المنبعثة عن وجدانه الطاهر مرتسمة فى تضاعيف كتابه ، حتى كأنما هو واقف بين يدى الله يسأل عن حقوق خلقه ؛ ويحاسب عن عمله فى رعيته . إن فى هذا لآيات من العدل ، وغايات فى إنصاف الرعية غير المسلمة ، لايدرك شأوها الولاة والسلاطين فى كل أمة من أمم الأرض الآن .

وأعظم من هذا وأجل أن آخر وصايا عمر التى أوصى بها عند وفاته كانت بالمهاجرين والأنصار وأهل الذمة ، إذ كتب لمن يخلفه كتاباً قال فيه : وأوصيه بأهل ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يوفى بعهدهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم الخ ماجاء فى الكتاب كما ستراه فى محله إن شاء الله .

هذا شأن الحكم الإسلامى فى أهل الذمة ، ومبلغ عناية الخلفاء بالخاضعين لسلطانهم من غير المسلمين ، أوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية ، مع أنه يكاد يدرك ببداهة الحس ، لأن اليهود والنصارى فى الممالك الإسلامية مازالوا يتمتعون بكل مايتمتع به المسلمون من الحقوق مــــدى ثلاثة عشر قرناً ، فلم تنزع منهم أرض ، ولم يطردوا ويشردوا عن أوطانهم ، ولم يفتنوا عن دينهم ، ولو أصيبوا بما يصاب به المسلمون فى ممالك النصرانية لما بقى منهم فى هذه القرون الطويلة باقية ، مع أن الأسبانيول مالبثوا أن دوخوا بلاد الأندلس واكتسحوا ذلك الملك الإسلامى العريض حتى فتنوا المسلمين عن دينهم ، وطردوهم عن ملكهم ، واغتصبوا تراثهم وسفكوا دماءهم وشردوهم عن بلاد الأندلس تشريداً ، ماأبقى لهم فى بضع سنين باقية ومحا كل ماتركوه من آثار العلم والمدنية فى تلك البلاد التى كانت جنة الأرض فى عصرهم .

وإذا انتحل للأسبانيول عذر البربرية والتوحش وأنهم إنما كانوا يومئذ فى عصور الجهالة الأوربية ، فهل يقال إنهم كانوا أحط فى الأخلاق والمدنية من تلك الأمة البدوية ، التى نشأت فى جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك الدماء وعبادة الأوثان ، ثم لما اندفعت للفتح وأتيحت لها قوة الغلب على الأمم وأخصها أهل الكتاب كانت سياستها فى الملك ورأفتها بالمغلوبين مارأيت فيما تقدم .

نقول ولا نكران للحق أن الأسبانيول لم يكونوا فى تلك الدرجة من الهمجية بل كانوا وكل الأمم الأوربية فى دور تمدين جديد نبتت أصوله بين العرب يومئذ وأظلت فروعه ممالك المغرب وإنما هم حملة علوم الدين وتعصبهم الدنىء هو الذى جعل هذا البون البعيد بين الفريقين وباين فى السياسة بين الفاتحين ، وأين من يوصى الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغلب كجزء لاينفصل عن مجتمع المسلمين ، له ما لهم من رعاية وعليه ما عليهم من حق ، كما فى وصايا الخلفاء التى رأيت ممن يصور للأمم المسيحية المسلمين فى صورة وحش ضار يتحفز للوثوب على الشعوب ، وهؤلاء هم قادة المسيحيين وحملة الدين المسيحى ، ومنهم مثيرو نار الحروب الصليبية من القسس ومدبر ومكائد جمعية التفتيش الدينى (الأنكيزسيون) فى أسبانيا ، بل ومنهم كان فى هذا العصر عصر المدنية والنور المستر غلادستون وزير انكلترا الشهير بحملاته الخطابية على الإسلام والمسلمين .

أليس بعجيب أن يقرر الإسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين لسلطانه ، ويحتم على أهله حماية اليهود والنصارى فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ونحلهم ويعاهدهم على هذه الحماية خلفاء المسلمين ، كلما جاء خليفة يؤكد عهد السابق مدى هذه القرون الطويلة ، ولا يوجد إلى هذا العهد من قادة الأمم

النصرانية ، وحملة الإنجيل فى الممالك الغربية من يمزق غشاء التعصب الصفيق وينصف المسلمين فى دينهم ويعاملهم ولو بحسنة من حسناتهم ، اللهم إن هذا لمنتهى الضعف فى الوجدان والتجرد عن العدل والتقمص فى لباس الأوهام ، وإلى الله نبرأ عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا وأنى بلغ انحطاطنا والتاريخ شاهد عدل .

رب معترض يقول إنا بالغنا فى تعنت الأمم المسيحية والتبرؤ من وصمة التعصب الذميم الذى نرمى به الدول الغربية ، مع أن المسلمين بشر كأولئك الناس لاتتنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ، ولم يخل تاريخ حكومتهم من إعنات رعيتها من غير المسلمين وإن دينهم يأمرهم بمحاسنة أهل جوارهم من الكتابيين فنجيب عن ذلك ، نعم إن المسلمين ليسوا بملائكة معصومين هبطت عليهم السكينة من السماء ، إلا أن دينهم الذى أمر بالعدل بين الرعية والوفاء بعهود أهل الذمة وجاء للتأليف بين القلوب ونهى عن ظلم أهل الكتاب والتعدى على حقوق الجوار ، هذب نفوسهم واجتث أصول التعصب الأعمى من أفئدتهم فكانوا أحسن الأمم معاشرة مع مجاوريهم من الكتابيين ، فأطلقوا لهم حرية الدين وإقامة الشعائر والعادات وأمنوهم على المال والأرض وحرية المتاجرة وشاركوهم فى الأعمال ، وحسبك من ذلك أن الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أى داخلين فى ذمة المسلمين وعهدهم لايضارون فى عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد إذا نسوا ويستلينهم إذا قسوا ، وإنما تناسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تناسوا كثيراً من شعائر دينهم وتسامحوا بأصول شرعهم ، إذا نفخ فى المسلمين شىء من روح التعصب على المسيحيين وجفوا إخوانهم فى الوطنية وإن لم يكونوا إخوانهم فى الدين فإنما كان نافخ هذه الروح ومضرم نار الفرقة والجفاء بين الفريقين حروب الصليب التى أسعر لهيبها فى المشرق خطباء

الدين والسياسة فى الممالك المسيحية ، وماتلا ذلك من تحول قوة الغلب فى العصور المتأخرة إلى الدول الأوربية وإيغالها بسبب ذلك فى التحكم الجائر على دول الإسلام والتداخل بشؤون المسيحيين فى المشرق تداخلا ممزوجاً بالأغراض السياسية ، مبنياً على القسوة والجبروت فى مناوأة دول الإسلام مع ما يضاف إلى هذا من دس الدسائس للتغرير بالمسيحيين فى مناوأتهم لمجاوريهم المسلمين والخروج على الحكومة الإسلامية بدعوى التظلم من جور الحكام الظالمين ، حتى أصبحت المملكة العثمانية منذ قرن تقريباً كميدان حرب تباع فيه أرواح المسلمين والمسيحيين بلا جريرة ولا إثم إلا الجهل الذى يزج بهم فى غمار الفتن خدمة لمصلحة الدول الأوربية على غير علم بمن يخدمون ، ومن ثم كان المسئول عن بث روح الجفاء والتعصب فى نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملة كتابها لا المسلمون أنفسهم .

أجل وقد وجد فى بعض العصور الإسلامية ناس من علماء الدين الإسلامى متعصبون تناسوا وصايا نبيهم وخلفائه الراشدين بأهل الذمة ، لكنهم أفراد من أهل العلم الناقص لا يبنى على عملهم حكم ، وإنما تطرق إليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل سامحهم الله وهداهم ، ومع هذا فلن يبلغوا مبلغ علماء الدين المسيحى من التعصب ضد الإسلام والمسلمين ، كما أنه وجد حكام تعسفوا فى الحكم وآذوا أهل الكتاب فسلبوهم كثيراً من مزايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين ، لكن أولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت على مدارك العدل مداركهم فكان المسلم والذمى فى جورهم سواء ، ولقى ويلقى المسلمون منهم من البلاء أكثر مما يلقى المسيحيون ؛ على أن الدول الأوربية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ، ولم تنفث فيهم سم التنافر والجفاء لوجدوا لأنفسهم سبيلا للراحة ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء .

ومع هذا فإن جور بعض الحكام لا يعتبر أساساً فى نوع الحكم والحكم فى معاملة الذمى فى الإسلام هو ما رأيت مما مر فى هذا الفصل ، من عناية الخلفاء بالكتابيين ووصاياهم بأهل الذمة والعهد ، وإذا قابلنا بين هذا الحكم وبين الحكم فى معاملة المسلم عند الدول المتمدنية المسيحية فى هذا العصر لرأينا الفرق واضحاً والتباين بينهما فاضحاً ، إذ أن الإسلام لم يأت بقانونين متباينين لحكم الأمم الغالبة والمغلوبة ، وإنما أتى بقانون واحد الناس كلهم فى شرعه سواء ، وأما قوة الغلب التى أتيحت فى العصور المتأخرة للدول المسيحية ، فقد نزعت من قلوب زعمائها كل حنان ورحمة فى معاملة المسلمين معاملة القوى القاهر للضعيف المغلوب ، حتى بلغ بتلك الدول أن جعلن وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية تدير شؤون رعيتها فيها على أساس العسف والاستبداد ، وإن كانت تدار شؤون أمتها الغالبة على أساس الدستور والعدل وحسبك من هذا أن دولة فرانسا التى توسعت فى هذا العصر بدعوى الإنسانية والعلم والحرية أصبحت أشد الدول المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين ، ونزع الفرنساويون فى الجزائر منازع القوة والجبروت فانتزعوا من المسلمين أراضيهم وأملاكهم وأوقافهم ، وحجروا على حرية التعليم عندهم واستبدوا فى أموالهم وأرواحهم ، حتى بات الجزائرى فى حالة من الضنك والفقر والجهالة ينفطر لها القلب ، وحتى كانت الدولة الفرنساوية أبغض الدول إلى المسلمين فى هذا العصر ، ويتلوها فى المرتبة هولاندا فى معاملتها القاسية لمسلمى الجاوى ، ويتلوهما النمسا فى معاملتها لمسلمى البوسنه والهرسك ، ويتلو هذه الروسية وحكومات البلقان ، وهكذا كل دولة أوربية لها نصيب من ظلم المسلمين وتعنتهم ، ومع أن دولة انكلترا هى أخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين وأسدهن سياسة فى المستعمرات وأطلقهن لحرية التعلم والتملك والمتاجرة والدين فى مستعمراتها الشرقية ، سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية ، إلا أنا نرى بين الحكومة

الانكليزية فى حكمها فى البلاد الشرقية وبين الأمة الإنكليزية فى معاملتها الشرقيين بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً إذ بينا نرى أساس الحكم الإنكليزى فى الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنياً على ما تقدم من حسن السياسة نرى من وجه آخر أفراد الأمة الإنكليزية يمتهنون الشرقى امتهاناً لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره عن بشر، ويغالون فى حب الذات إلى حد يكاد يبغض للمسلمين وغيرهم من المحكومين لتلك الأمة ذلك الحكم الإنكليزى مهما بلغ من العدل ومن أغرب ما رأينا فى الجرائد من هذا القبيل أن أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح فى أفريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول فى فندق من فنادق تلك المدينة لأنها كلها تضيف الإنكليز ، ولا سبيل لشرقى مهما كان مقامه أن يدخل مكاناً فيه رجل إنكليزى بل الإنكليز هناك يأبون أن يروا معهم حيثما كانوا رجلا من الشرقيين ورأينا من أمثال هذه الحادثة فى الجرائد مما يدل على التناهى فى الجبروت والإغراء فى حب الذات [1] .

فأين ما تعامل به المسلمون الدول الأربية فى هذا العصر الذى دالت به

---

(١) بعد كتابة هذا الفصل أطلعنا فى العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادرة يوم الأحد غرة ذى القعدة (١٣١٩) على رسالة من دربان نتال فى أفريقا الجنوبية يقول المراسل فيها ما نصه . أرسلت لكم نسخة من جريدة (مكرى) المطبوعة فى نتال فى (بورتليزبيت) وهى أن المؤذن بينا كان واقفاً على رأس منارة عالية يؤذن فلم يشعر إلا وطلق نارى أصابه من يد أحد المتمدينين الإنكليز لأنه أزعجه بصوته فسقط المؤذن على أم رأسه أجزاء متفرقة قضت نحبها فى هويها (كذا) وقد قبض على الجانى وهيهات أن يلقى عقاب الموت لأنه لم يعهد أن إنكليزياً يقتل فى وطنى بهذه الديار ولا فى الشرق كله، ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لإمام هذا الجامع يأبى القلم أن يسود بذكرها صفحات هذا الكتاب .

لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين فى إبان مجدها وأيام فتوحها رعيتها من المسيحيين ، وأين ماعامل به عمر بن الخطاب ومن بعده من الخلفاء أهل الكتاب من النجرانيين مما تعامل به دولة فرانسا مسلمى الجزائر الذين لم يبق لهم أرض ولا مال ، ونزع ذلك منهم الفرنساويون بلا عوض ولا حق ولا عدل .

لا جرم أن الحق والعدل والإنصاف يقضى على حملة الدين المسيحى الذين كانوا يصورون المسلمين فى صورة وحش ضار أن يصوروا التمدين الأوربى وأهله فى أقبح صور الحيوانية ، وأخس لباس التوحش والهمجية بعدما بسطناه من المقابلة بين حكم الإسلام فى المسيحيين وحكم التمدن فى المسلمين ، ومن العار على هذه المدنية أن تصل إلى أرقى درجات الزهو بالمظاهر والصور وهى تنحط إلى دركات التسفل فى الأخلاق والتنائى عن الرحمة والبعد عن فضيلة النفس ، فتنقض بأهلها على المسلمين انقضاض الجوارح على فريستها الضعيفة ، ولا ذنب لأولئك المسلمين إلا كونهم كانوا أمة عزيزة الجانب قوية السلطان ، فأتاح الله لهم وسائل الغلبة على الأمم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الأرض ، حكموا أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الإخاء والمساواة . وأحيوا تمدين الرومان واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم ، حتى إذا دالت بحكم تنازع البقاء دولتهم ، وانطفأ مصباح مدنيتهم ، واختل نظام ملكهم ، بتغلب شهوات أمرائهم وجهل قادتهم أصبحوا فى نظر الدول الأوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون الرأفة ولا يجازون بغير الظلم والاستعباد ، إن هذا لشىء عجاب .

يقول الأوربيون إن المسلمين أمة نفخ فيهم روح التعصب والجفاء والبغض لمن لا يدين بدينهم من الناس ، وهو قول مبنى على الاستقراء

الناقص عند الباحثين ، وعلى الغرض أو التعصب الذميم عند السياسيين ، وعامة القائلين بهذا القول، وإنما تسلط هذا الوهم على عامة الأوربيين لما كان يكتبه عن الإسلام رؤساء الدين المسيحى فى أوروبا فى القرون المتوسطة من الأضاليل التى كانوا يريدون بها إيقاف تيار الإسلام ، ومن ثم أصبح الأوربيون حتى هذا العهد كأنما هم فى عالم والإسلام فى عالم آخر . لم يتحققوا من أمره وأمر أتباعه شيئاً فى الدين والأخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية أو التعصب لأدركوا خطأهم ببداهة الحس ، إذ أن قوماً مضى عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم باسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الأرض يقطنه ملايين من المسيحيين ، يتمتعون إلى الآن بسائر مايتمتع به الوطنى فى وطنه لقوم تشهد لهم بداهة التاريخ بأنهم ألزم الأقوام لأدب الجوار ، وأبعدهم عن تحكم الغلب ، وجبروت السيادة الذى يظهر من كل فاتح عظيم .

آن للأوربيين أن يمزقوا عن بصائرهم حجب الغرض والوهم ، ويعلموا أن الإسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوار ، ومحاسنة من أحسن إليهم ، وألا يخاشنوا إلا من خاشنهم وأراد امتهانهم ، وأن المسلمين بما فطروا عليه من كرم الأخلاق وجميل المعاشرة أعظم الناس اعترافاً بالجميل ، ورضاً بالقضاء وميلا للفضيلة ، وقد قضى جهل أمرائهم بتقلص ظل سلطانهم السياسى عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دولة المشرق للغربيين ، فإذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة ، وعاملوهم معاملة النظير . امتلكوا قلوبهم واستأنسوا نافرهم واستفادوا من إخلاصهم ، كما تستفيد الآن دولة انجلترا من إخـــلاص المسلمين الذين تحت حكمها لإطلاقها لهم حرية الفكر والدين ، ونشرها بينهم أنوار المعارف والعلم وإلا فمن الظلم الفاضح والعار المشين على الدول المتمدينة المسيحية ،

أن تعامل محكوميها من المسلمين بعكس ما تعامل به الدول الإسلامية حتى هذا اليوم رعاياها المسيحيين من منحهم حرية التمتع بسائر ما يتمتع به رعاياها المسلمون ، من الحقوق لا سيما في المملكة العثمانية ومن العبث أن تخط الدول الأوربية لنفسها خطة العسف وجب الأثرة والجور في حكمها في المشرق ، وترجو مع هذا تمكن سلطانها في هذا الجزء العظيم من الأرض ، وفيه أكثر من خمسمائة مليون من المسلمين كانت لهم السيادة عليه والسلطان العظيم فيه ، ومن الحكمة وحسن السياسة أن يعوضوا عن هذا السلطان بجميل المعاملة وحقوق الوطنية ، والقرار ، ولو كانوا أمة صغيرة أو شعباً حقيراً لا يؤبه له كهنود أمريكا مثلا ، لساغ للدول الأوربية أن تعاملهم بما شاءت من ضروب القسوة والإذلال حسبما يوحيه إليها شرع التمدين الحديث ، وأما أمة كالمسلمين شأنها ما ذكرنا فمن المحال أن ترضى لنفسها الإذلال وإن طال عليها المطال ، والله ولي الرشد وهو الموفق بين القلوب .

— ٥ —

فتوح الشام

علمنا مما مر في الجزء الأول كيف أن الجيوش الإسلامية فلت جموع الروم على اليرموك ، وذكرنا ثمة ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب الوقائع التي كانت قبل ذلك إلى فتح دمشق ، وفي الحقيقة إن تلاحق الوقائع التي حدثت بالشام من أوائل السنة الثالثة عشرة إلى أوائل السنة الرابعة عشرة أوجد اضطراباً في الروايات في ترتيب تلك الوقائع ، واختلافاً بين الرواة في تعيين الزمن لا في أصل الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من رواة تاريخ الفتح الإسلامي كسيف بن عمر الأسدي وابن إسحاق والواقدي ،

ومن تلاهم من مدونى التاريخ كابن جرير الطبرى والدينورى وابن واضح وغيرهم من المتقدمين ، وقد استقصى ابن جرير فى تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها ، وترك الحكم فيها للناقد شأن كل المؤرخين فى الإسلام : ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون بعد فى سرد الوقائع المختلفة فى تعيين زمنها ، إذ ليس سرد الروايات من الأهمية فى شىء ما دام من الثابت حصول الوقائع ، وما أظن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً إلا عن حصول عدة من الوقائع فى آن واحد أوردها الرواة متفرقة من طرق شتى ، فاختلط أمرها على المؤرخين وبعض الرواة أو أن تلاحق بعض الوقائع ببعض أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل،والعبرة فى كلا الحالين فى تحقيق الخبر لا فى تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير .

فتح دمشق وانحياز هرقل إلى حمص

لما انتصر المسلمون فى وقعة اليرموك كان هرقل فى أورشليم وقد جاءها لأجل الاحتفال بعيد تخليص الصليب المقدس الذى استرده من دولة الفرس قبل ذلك ، ولم يكن هو ورجال دولته بموقنين بأن قوة المسلمين تبلغ من كيدهم ما لم تبلغه جيوش دولة الفرس العظيمة ، حتى جاءه خبر انتصار المسلمين فى اليرموك فنخب قلبه وأسقط فى يده فنظر فرأى أن مقامه فى أورشليم (القدس) خطر عليه ، ولا سيما لذا انساح المسلمون فى أحشاء البلاد ، فأسرع بالرحيل إلى شمال سورية ولحق بمدينة حمص ليجعلها مقراً لأعماله الحربية ، ومن ثم أخذ يبث المقاتلة ويذكى العيون ويسرح القواد إلى مواقف الحرب وسلم أخاه تذارق (لعله تيودور) القيادة العامة وتربص هو فى حمص، وقد أخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه وأنه لو حضرها لكان ذلك أدعى لتشجيع جنوده وأرجى للنصر ، على أن هرقل كان ملكا حازماً ليس بالجاهل ولا الجبان ، يدلك علي هذا ظفره

قبل حربه مع العرب بالفرس (١) لهذا فلا بد لتخلف هرقل عن جيشه في

(١) كان الفرس غزوا بلاد الروم ودوخوا ممالك الدولة البيزنطية حتى وصلوا الى القسطنطينية وذلك حوالى سنة (٦١٤ م) فأشهر هرقل عليهم الحرب ثانية سنة (٦٢١م) أى بعد الهجرة بسنة ، واسترد هذه البلاد ، والقصة مشهورة جاءت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿ ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ﴾ وعنى بأدنى الأرض أذرعات وهى أدنى أرض الروم الى العرب وكانت الروم قد هزمت بها فى بعض وقائعها ، وكان سبب نزول الآيات أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفـــرس أولا بالروم ، لأن الروم أهل كتاب وفرح مشركو العرب لأن المجوس أميون مثلهم فلما نزلت هذه الآية راهن أبو بكر الصديق أبى بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع سنين مصداقاً لما نزل به القرآن والرهن مائة بعير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً) فظفرت الروم وغلبه أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبى صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانت سنة ست للهجرة ، واذ كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١ م) أو التى بعدها أى قبل الهجرة بسنة واحدة ، وكان الروم غلبوا مرة فى هذه السنة فتكون استمرت هذه الحرب نحو سبع سنين ، وانتهت بظفر الروم مصداقاً لما نزل به القرآن الكريم فى قوله تعالى (فى بضع سنين) والبضع ما بين الأربعة الى التسعة ، وقد جاء فى تواريخ الغربيين ما يؤيد ذلك ، وحاصل ما ذكره عن هذا الحادث ادورد جبون الانكليزى فى (تاريخ الامبراطورية الشرقية) أن كسرى أبرويز ملك الفرس غزا بجيوشه مملكة الرومان الشرقية « البزانطية » فى سنة « ٦١٤ م » لأسباب لا محل لذكرها هنا فدوخ سورية ومصر وآسيا الصغرى ، حتى وصل الى حدود القسطنطينية ، ولما رأى الإمبراطور هراكليوس « هرقل » ذلك الخطر المحدق بعاصمته خشى لمن هو حارب الفرس قربها أن تسقط فى أيديهم ، فجهز أسطولا عظيما شحنه بالمقاتلة والمؤن وخرج به فى سنة « ٦٢٢ م » من القسطنطينية حتى بلغ هلسبونت « جناق قلعه » ومن ثم مخر الأسطول فى عباب البحر الأبيض حتى انتهى الى الإسكندرون بعد معاناة نصب شديد فى البحر ، وهناك رأى هرقل فى جون الاسكندرون مرسى أميناً لسفنه لا يصل اليه كيد البحر ولا كيد العدو ، فأمر بأن ترسو فيه السفن وأنزل الجنود الى حدود سورية وكيليكيا « ادنه » ورتب معسكره قرب أسس فى السهل الذى انتصر فيه الإسكندر المقدونى على ملك الفرس «وهو سهل الإسكندرون»، وأخذ يدرب جنوده على فنون الحرب ويهيئهم للطعن والضرب ، ولما علم بذلك الفرس انكفأوا لقتاله من داخل البلاد فانتصر عليهم بحسن تدبيره الحربى ، ومزق جموعهم كل ممزق ثم جهز عليهم حملة ثانية ، وما زال بهم حتى أجلاهم عن مملكته ولما كانت سنة ٦٢٨ م » استقر الصلح بين الفريقين وكان ولى ملك فارس كسرى ازدشير بعد أن قتل أباه أبرويز فصالح هرقل على أن تعاد تخوم المملكتين الى أصلها اه . وجاء فى تاريخ الكامل لابن الأثير ما يطابق معنى ما ذكره جبون وفيه زيادة تفصيل .

حرب المسلمين من عذر اضطره لهذا التخلف ، ولعله لما رأى منهم شدة البأس والدربة على الحرب وحسن السياسة فى البلاد التى افتتحوها وشعر بميل السوريين إليهم وتأففهم من جور الحكام الروميين خامر نفسه شىء من اليأس من إمكان دفع المسلمين عن البلاد ، ولا سيما أن الحرس الرومانى فى البلاد السورية لم يكن فى عدد كاف لحماية البلاد وإنما كان حملتها من العرب المتنصرة ، ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً من السريان والعرب واليهود والروم ، وإذا صح هذا الظن فلا يؤاخذ هرقل على انحيازه إلى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيطة لنفسه وتمسكا بأسباب النجاة إذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكفئوا على شمال البلاد .

لم يكن المسلمون يومئذ على ما عهد فيهم من البداوة جاهلين بأحوال البلاد غير خبيرين بقوة أهلها وطرقها ومسالكها ، بل كانوا على بصيرة من أمرهم ووقوف على مبلغ قوة عدوهم بمن كان فيهم من سادات قريش الذين اختبروا حالة البلاد فى الجاهلية باختلافهم إليها للمتاجرة ، لهذا أعدوا لهذه الحرب عدتها من التدرب والأناة وحسن البصيرة فى ترتيب الجيوش وقيادتها ، يضاف إلى هذا ما يصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة العربية وكمال الإيمان وعدم الرهبة من الموت فى سبيل نصرة الإسلام وتعميم دعوة القرآن . لهذا فلا يتوهمن متوهم من بداوة أولئك الفاتحين الشجعان أن خروجهم مع الروم أو الفرس كانت همجية فى غير نظام ولا ترتيب بل إنهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب ، يعلم هذا من دقق النظر فى كيفية هروبهم مع الروم فى الشام وكيفية قيادتهم للجيوش وتبصرهم فى تدويخ البلاد كما سيأتى بيانه فى غضون الكلام على فتح دمشق وغيرها ، وسنفرد له فصلا خاصاً نفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل إن شاء الله تعالى ، وها نحن ذاكرون هنا كيفية مسير المسلمين إلى دمشق بعد اليرموك نقلا عما

ذكره الطبرى من رواية سيف ، وذلك ببعض تصرف واختصار قال .

لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الواقوصة وفرغ من المقاسم والأنفال وبعث بالأخماس وسرحت الوفود ، استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبى الحميرى كى لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على مواده[1] ، وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصُّفَّر وهو يريد اتباع الفالة ولا يدرى يجتمعون أو يفترقون ،فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص ، فهو لا يدرى أبدمشق يبدأ أو بفحل من بلاد الأردن ، فكتب فى ذلك إلى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر ، فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ، فإنه ضم خالداً إلى أبى عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها .

ولما انتهى كتاب أبى عبيدة إلى عمر بالذى ينبغى أن يبدأ به كتب إليه أما بعد فابدءوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم ، وأهل فلسطين وأهل حمص ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ،وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأخلها بالأردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس ، حتى يخرجوا من إمارته .

فسرّح أبو عبيدة عشرة قواد أبا الأعور السلمى وعبد عمرو بن يزيد ابن عامر الجرشى ، وعامر بن حثمة ، وعمرو بن كليب من يحصب ، وعمارة ابن الصعق بن كعب ، وصيفى بن علبة بن شامل ، وعمرو بن الحبيب بن

(١) أى كى لا تقطع عليه خط المواصلة على الإصلاح المعروف الآن فى فن الحرب .

عمرو ، ولبدة (أو وليدة) عامر بن خثعمة ، وبشر بن عصمة ، وعمارة ابن مُخَشٍ (أومخشى) قائدالناس ، ومع كل رجل خمسة قواد ، وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لايجدوا من يحتمل ذلك منهم ، فساروا من الصفر حتى نزلوا قريباً من فحل ، فلما رأت الروم أن الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فاردغت الأرض ثم وحلت ، واغتم المسلمون من ذلك وحبس من فيها عن المسلمين ، وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق .

وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءاً . وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين ، والأمير يومئذ يزيد بن أبي سفيان[1] ، فقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة ، وعلى الخليل عياض ابن غنم ، وعلى الرجال شرحبيل بن حسنة فقدموا على دمشق ، وعلى الروم نسطاس ابن نسطوس (وفى رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها . فكان أبو عبيدة على ناحية ، وعمرو على ناحية ، وخالد على ناحية ويزيد على ناحية ، وهرقل (هراكليوس) يومئذ بحمص ، فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحف والترامى والمجانيق ، والروم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ، وذو الكلاع بينهم وبين حمص يمنع عنهم المدد ، وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق ، فأشبحتها الخيول التى مع ذى الكلاع وشغلتها عن نصرة الدمشقيين ، فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لاتصل إليهم فشلوا ووهنوا ، وقد كانوا يظنون أنها كالغارات قبل ذلك إذا هجم البرد قفل المسلمون فسقط النجم والقوم مقيمون ، فعند ذلك انقطع رجاؤهم ، وندموا على دخول دمشق ، وفى غضون ذلك ولد للبطريق الذى على أهل دمشق مولود ، فأعد للقوم وليمة فأكلوا وشربوا

---

(١) يعنى أنه أمير على حرب دمشق .

وغفلوا عن مواقفهم ، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين ، إلا ما كان من خالد فإنه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء ، عيونه ذاكية، وهو معني بما يليه قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم، وأوهاقاً، فلما أمسى من ذلك اليوم نهدوا من معه من جنده الذين قدم بهم عليهم ، وتقدمهم هو والقعقاع ابن عمرو ومذعور بن عدى وأمثاله من أصحابه ، وقالو إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا للباب ، فلما انتهى إلى الباب الذى يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التى قطعوا بها الخندق، فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور وأثبتا الأوهاق بالشرف ، فتسلق خالد وأصحابه ، وكان المكان الذى اقتحموا منه إحصن مكان يحيط بدمشق ، وأشده مدخلا ولما استووا على السور حذر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم ، وخلف من يحمى ذلك المكان لمن يرتقى ، وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور ، فنهد(١) المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها ، وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين ، وثار أهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم ، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل ، حتى ما بقى مما يلى باب خالد مقاتل إلا أنيم ، ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذى أراد عنوة اجتمع من أفلت إلى أهل الأبواب التى تلى غيره، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا وجاءوا الآن يبذلون لهم الصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب ، وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب ، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى خالد والقواد فى وسطها ، هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا ،

---

(١) فى القاموس نهد الرجل نهض ولعدوه صمد لهم .

فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً ، وكان صلح دمشق على المقاسمة الدينار والعقار ودينار عن كل رأس ، فاقتسموا الأسلاب فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد ، وجرى على الديار ومن بقى فى الصلح جريب حنطة من كل جريب أرض . ووقف ما كان للملوك ، ومن صوب معهم فيئاً(١)، وقسموا لذى الكلاع ومن معه ، ولأبى الأعور ومن معه ، ولبشير ومن معه (وهم القواد الذين أرسلهم أبو عبيدة ليحولوا بين دمشق والأمداد) وبعثوا بالبشارة إلى عمر ، وقدم على أبى عبيدة كتاب عمر أن اصرف جند العراق إلى العراق ، فسرحهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عتبة ومعه القعقاع بن عمرو .

وذكر البلاذرىّ فى سبب فتح دمشق غير ما تقدم من رواية الطبرى، وقال إن فتحها كان بممالأة الأسقف الذى كان أعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها فى أول مجيئه الشام ، وذلك بأن أرسل إليه الأسقف بعض أصحابه ، وأعلمه بأن القوم فى عيد لهم وأن الباب الشرقى ردم وليس عليه أحد من الحرس ، (وقد مرت حكاية هذا الأسقف وصورة الكتاب فى سيرة خالد بن الوليد) وأن خالداً لما دخل المدينة كان أبو عبيدة دخلها من باب آخر عنوة ، فالتقيا فى دخولها بالمقسلاط وهو موضع النحاسين بدمشق وهو البريص الذى ذكره حسان بن ثابت فى شعره حين يقول :

يسقون مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهم بَرَدَى يصفِّق بالرحيق السلسل

---

(١) الفىء هو ما نيل من المحارب بعد وضع الحرب أوزارها وصيرورة داره دار إسلام وهو الجزية وعشر التجارة وما يصالح عليه من المال، وحكمه أن يكون لسائر المسلمين فيه نصيب، وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلا فى كتابنا (تنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية والإسلام) وبينا ثمة أن ما ترمى إليه مقاصد الاشتراكيين فى هذا العصر سبقهم إليه الإسلام، لكن على وجه معقول لا يصادم أحكام العقل والحس .

ولا يخفى ما فى هذه الرواية من الوهن لأن الصحيح الثابت فى الأخبار أن أبا عبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً .

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على أن الذى تولى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد بن الوليد ، وأمضاه له أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب عمر ، بعزله عن إمارته ، وممن ذكر هذا الطبرى فى روايته عن ابن إسحق والبلاذرى فى تاريخه فتوح البلدان ، وفى هذا ما يدل على أن خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل إنما أتى وهم على دمشق أو مرج الصفر ، وكتمه عنه أبو عبيدة ريثما تم الفتح ، وفى حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم فى الصفر فى انتظار كتاب عمر بالذى ينبغى أن يبدءوا به ما يستنتج منه ترجيح ورود الكتاب بعزل خالد وهم على الصفر ، والله أعلم .

وأما صلح أهل دمشق فقد كان كما فى رواية الطبرى على دينار على كل رأس ، وجريب من الحنطة على كل جريب من الأرض ، وعلى المقاسمة على العقار والدينار على أن هناك ما يوهن رواية من روى أمر المقاسمة ، فقد جاء فى كتاب كتبه عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح ما نصه (وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهى للمسلمين، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهذا يدل على أن المسلمين اختلفوا فى هل يشاطرون الدمشقيين على نصف ما وجدوه عندهم من الدينار والدرهم ، فكتب أبو عبيدة يستشيره فى الأمر، فأمره بأخذ خمس الفضة والذهب فقط ، وسيرد معنا هذا الكتاب بجملته فى باب كتبه إن شاء الله .

وقال البلاذرى فى فتوح البلدان ما نصه « زعم الهيثم بن عدى أن أهل دمشق صولحوا على إنصاف منازلهم وكنائسهم » وقال محمد بن سعد قال

أبو عبدالله الواقدى قرأت كتاب خالدبن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس ، وقد روى ذلك ولا أدرى من أين جاء به من رواه ، ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون : انتهى ما نقله البلاذرى من قول الواقدى ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذى أعطاه لأهل دمشق وفيه الأمان على كنائسهم ودورهم لا يسكن منها شىء ، وقد مرت صورة الكتاب فى سيرة خالد على أنه سواء صحت هذه الرواية أو الرواية الأولى ، فإن المسلمين أجروا نصف كنيسة ماريوحنا مجرى الصلح ، والنصف الآخر مجرى السيف ، وهو النصف الشرقى الذى يلى الباب الذى دخل منه خالد ابن الوليد وجعلوه مسجداً لهم ، وما زال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك ، فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعا لم يزل يعرف لهذا العهد بجامع بنى أمية ، وسيأتى الكلام عليه فى سيرة الوليد إن شاء الله .

وأما باقى كنائس دمشق فالمعروف أنه كان منها بيدهم بعهد من المسلمين إلى خلافة عمر بن عبد العزيز خمس عشرة كنيسة ، وروى البلاذرى أن بعضهم أقطع كنيسة منها لبنى نصر ، فردها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى النصارى ، هذا وأما الجزية فإنها كانت فى بادىء الأمر ديناراً على كل رأس كما علمت مما تقدم ، ثم عدلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجعلها على ثلاث طبقات على الغنى بنسبة غناه ، والمتوسط بنسبة توسطه ، والفقير بنسبة فقره .

إلى هنا انتهى ما أحببنا إيراده من الخبر عن فتح دمشق التى كانت أم المدن السورية ، ومهد الصناعة الشرقية ، وزهرة البلاد ، وازدادت بعد الفتح الإسلامى ، لا سيما فى عهد الأمويين مجداً على مجدها ، وعمرانا على عمرانها وأما ولايتها بعد الفتح فقد صارت إلى يزيد بن أبى سفيان ، ثم إلى أخيه

معاوية ، ثم قدر لها أن تكون بعد ذلك عاصمة ذلك الملك الإسلامى العظيم الممتد من حدود الهند فى الشرق ، إلى شطوط الإطلانتيك فى الغرب ، على عهد الأمويين لا عاصمة سورية وحدها ، وسيأتى الكلام على هذا فى محله إن شاء الله .

وقد اختلف المؤرخون فى الزمن الذى افتتحت به دمشق ، فروى بعضهم أنها فتحت فى أواخر سنة ١٣ للهجرة ، وبعضهم قال فى أوائل المحرم افتتاح سنة ١٤ ، وبعضهم قال إنها فتحت فى رجب من هذه السنة ولعله الأصح .

بطلان خبر :

سألنى بعضهم عن حكاية رآها فى تاريخ إنكليزى ، وهى أن خالد بن الوليد لما افتتح دمشق صالح أهلها على أن من يريد منهم الجلاء يمهل بعد سفره ثلاثة أيام إذا مضت وأدركه المسلمون فدمه مهدور ، وأن أهل دمشق جلوا وتبعهم المسلمون بعد ثلاثة أيام فقتلوهم ، ولا يخفى ما فى هذه الحكاية من العار على المسلمين يومئذ فيما لو صح عنهم مثل هذا الخبر أنهم كانوا أوفى الأمم الفاتحة بالعهد وأبعدهم عن مثل هذا الظلم الذى يأباه دينهم وتتنزه عنه شيمهم العربية ، وأخلاقهم الفطرية ، فبحثت عن هذا الخبر فيما دونه رواة الأخبار من المتقدمين كالطبرى والبلاذرى وابن واضح المعروف باليعقوبى ، وفى تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الأثير الذى هو أوثق التواريخ، فلم أجد لهذا الخبر من أثر ، وإنما رأيته فى بعض تواريخ معاصرينا من المسيحيين ، كتاريخ سورية لجرجى افندى ينى وتاريخ الوافى لأمين افندى شميل ، وكلا التاريخين وإن كان مؤلفاهما عربيين إلا أن عبارتهما تدل على أن ما فى التاريخين مترجم عن لغة أعجمية لم تذق طعم العربية البتة ، وأن المؤرخين كانا أبعد الناس عن تحقيق أمثال تلك الحوادث من كتب

التاريخ العربية الوثيقة التى لم تغادر كبيرة ولاصغيرة إلا أتت على ذكرها تفصيلا فى البعض وإجمالا فى البعض الآخر ولم تغفل حادثة من أدنى حوادث الفتح ، فكيف تغفل مثل هذه الحادثة، ولعل بعض مؤرخى الأوربيين الولعين بالبحث عن مساوى المسلمين وستر محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازى والقصاصين ، كفتوح الشام وأمثاله من الكتب التى هى أبعد عن الثقة وأقرب للخلط والخبط منها إلى التاريخ ، أو عن كتب مؤرخى الروم وهى لا تخلو عن لغو القول والمبالغة فى ذم الفاتح بالطبع .

على أنه مما يوهن أساس هذه الفرية ويدل على بطلان هذا الخبر ماقاله بعض مؤرخيهم من أن المسلمين أدركوا أولئك الناس وراء اللاذقية وفتكوا بهم بعد انقضاء الأجل (وكان بزعمهم ثلاثة أيام) ، ومن البديهى أن البلاد يومئذ كانت كلها دار حرب . وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها مرابطة فى البلاد واقفة على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق وحوران ، والناس واقفون لهم على قدم الأهبة فى كل مكان لما يتوقعونه من انكفائهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق ، فكيف يتيسر لسرية منهم أن تقتحم البلاد إلى ماوراء اللاذقية ، وهذا حال أهلها من اليقظة والاستعداد ، وما الحامل لجند المسلمين على تتبع أثر قوم لهم عليهم عهد وميثاق ، فإذا قيل الطمع فيقال إن أمامهم البلاد لم تزل فسيحة الأرجاء ، كثيرة الغنائم والخيرات ، وليس فيهم من يشك بمصير البلاد وأهلها وكنوزها إليهم فى أقرب آن ، وإن قيل غير ذلك من نحو التعصب أو الظلم أو غيره ، فيقال إن التاريخ يبرىء تلك العصابة المؤمنة بكتاب الله . الآمر بالعدل الناهى عن الظلم عن أمثال تلك المساوىء الشائنة ، وقد مر معنا فى هذا التاريخ مايدل على ترفع أولئك القوم الفاتحين عن الخسائس ، التى قضى عليها نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم ، وعدا هذا كله فإن الفاتحين مهما بلغ بهم فساد

الأخلاق والظلم فالسياسة تقضى عليهم بالمجاملة والرفق مع القوم المغلوبين ، ريثما يتم لهم الفتح ، والعرب يومئذ قد كان فيهم من القواد المحنكين مثل أبي عبيدة وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان ، فكيف يمكنون جندهم من إتيان مثل ذلك المنكر والبلاد على وشك الفتح ، وينبغى للمسلمين أن يتألفوا قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المعاشرة ، مع أن العرب لم يكونوا فى جاهليتهم مع شهرتهم بسفك الدماء ومثابرتهم على الغزو يعرضون للنساء والأطفال بالقتل ، فكيف بهم فى الإسلام وقد حرم عليهم سفك الدماء ظلماً أن يعرضوا لأولئك المساكين بالقتل ، وربما كان معظمهم من النساء والأطفال ، إن هذا لمما تأباه نفوسهم العربية وتمنعهم منه المروءة والدين ، إذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه ، وإذا ورد فى كتب مؤرخى الروم فمصدره الغرض ، وإذا ورد فى كتب القصاصين فمصدره الجهل ، ولا يشك فى هذا عاقل البتة .

هل كانت دمشق قاعدة للغسانيين :

سبق لنا فى التمهيد الذى قدمناه فى الجزء الأول عند الكلام على فتوح الشام أن قلنا على سبيل الاستنتاج إن معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح فى أيدى العرب وأنه كانت عليهم حماية البلاد وإليهم ينتهى نفوذ الكلمة والسلطان إلى أن قلنا (والظاهر أن دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل أنها كانت تحت الحرث الغسانى أحد ملوك بنى غسان على عهد الفتح الإسلامى فهى إذن عاصمة ذلك الملك العظيم الممتد منها إلى الشمال والشرق حتى البادية ، ومن الجنوب والجنوب الغربى حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولا بالعرب)

وقد التمسنا فى ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم أن يتكرموا علينا ببيان مواضع الخطأ فيما ننقله أو نرتئيه فى كل جزء لنبادر إلى إصلاحه فى الجزء

الذى يليه ، فكان ممن أجاب ملتمسنا الفاضل المدقق جورجى افندى زيدان فى مجلته (الهلال) الغراء فأخذ علينا ذلك القول بعبارة تدل على كمال أدب وفضل ، وتنبىء عن سعة فى الاطلاع ، وميل عرفناه به للتحقيق ، ومؤدى انتقاده على بهذا الصدد أن العرب لم يكونوا يومئذ إلا فى البادية وحوران ، وأن دمشق لم تكن تحت بنى غسان ، بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاة من قبل القياصرة ، وأن حاضرة بنى غسان كانت بصرى فى حوران ، وأنه لم يقرأ أن أحداً من ملوك غسان أقام فى دمشق أو تولى حكومتها ، إلا إذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا إلا آلة بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة ، وليسوا فى المكانة التى وصفناهم بها ثمة : ونحن مع شكرنا لإحلال صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد ، وإقرارنا بالعجز عن بلوغ شأو المحققين فى التاريخ نجيبه بما يلى .

بنينا ذلك الاستنتاج ثمة على مارواه الطبرى من أن خالد بن الوليد لما جاء من العراق لنجدة المسلمين بالشام ، فتح كل ما مر عليه فى البلاد فى مروره على القلمون الأسفل وكان آخر فتحه مما يلى دمشق (قصم) ، وقاتل فيها بنى مشجعة ثم انحدر إلى المرج من ثنية العقاب ، فقاتل فيه بنى غسان ، والذى أوهمنا أن الطريق الذى مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية إلى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب جعل الطبرى آخر الفتح مما يلى دمشق ، وقبل وصوله إلى ثنية العقاب (قصم) وأنه قاتل فيها بنى مشجعة من قضاعة ، على أننا بعد أن كتبنا ذلك الفصل راجعنا ما كتبه ياقوت فى معجمه عن (قصم) فإذا هو يقول إنها موضع بالبادية قرب الشام فذيلنا ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه ، إذا صح قول ياقوت تفادياً من ارتكاب الخطأ فى وضع الظن موضع اليقين كما رأيت فى الجزء الماضى ،

إلا أن هذا إذا نفى قولنا أن القلمون الأسفل كان مأهولا بالعرب ، لا ينفى قولنا أن مايليه شرقا إلى شطوط الفرات كان من أماكن العرب ، بدليل أن ذلك القسم لم يزل من منازل العرب الرحل إلى الآن ، والبلاد التى فيه كضمير والقريتين وتدمر والسخنة كل سكانها من العرب ، بل وهناك بعض القرائن التاريخية التى تدل على أن ذلك القسم الذى كان مملكة مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوماً بالعرب ، ومن تلك القرائن انفراد مدينة تدمر فى طرف البرية فى وسط منازل العرب .

ومنها أن أحد أشراف هذه المدينة المسمى أوديناثوس الذى قاوم وهاجم سابور ملك الفرس وأفتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة التى كان أخذها من الرومان ثم أسس لنفسه ملكا وبسط سلطته على الجزيرة وسورية فى أواسط القرن الثالث قبل المسيح . قد اختلف المؤرخون فى أصله هل هو عربى أم سريانى ، فإذا رجحنا كونه عربياً بقرينة موضع وطنه الجغرافى وهو تدمر ثبت معنا أن هذه المدينة وما حولها من البلاد كانت عربية ، ولم تزل كذلك .

وكذلك لا ينفى قولنا أن القسم الواقع شرقى دمشق وهو مرج راهط كان مأهولا ببنى غسان ، لأن النص صريح على أن خالداً واقعهم فيه يوم عيدهم ، وكذلك لا ينفى قولنا أن القسم الذى يلى دمشق من جهة الجنوب إلى حوران حتى العقبة والحجاز كان مأهولا بالعرب ، فإنه معلوم بالبداهة ، وكان أشهر مدنه بصرى واشمسكين ، واطلعنا فى تاريخ الطبرى وفى فتوح البلدان على نص يفيد أن شمالى سورية أيضاً كانت بعض مدنه مأهولة بالعرب ، فقد جاء فيهما أن أبا عبيدة لما افتتح قنسرين صالحه أهل حاضر قنسرين ، وكانوا من تنوخ ومصروا هذا الحاضر لما تنخوا ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام على نصرانيته بنو سليح من قضاعة ، ثم أسلموا فى خلافة المهدى

العباسى، وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنسرين كان من مدن العرب ، ولا يبعد أيضاً أن يكون العرب هم الذين مصروا غزة فى الجنوب الغربى من سورية ، فسميت غزة هاشم نسبة إلى هاشم الثريد كما يقولون .

وحق لقوم يشغلون بالسكنى قسما عظيما من سورية ، ويتوطنون فى أحشاء البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية ، أن يكون لهم من النفوذ والسلطان فى البلاد أكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التى كانت تقطن هذه الولاية العظيمة كالسريان والأرمن والروم واليهود وبقية الأخلاط الذين هم ليسوا إلا من الجالية ، حاشا العرب والسريان والبلاد وإن كانت يومئذ تابعة لدولة الروم إلا أنه لا يعقل أن يكون الجنس الرومانى أكثر الأجناس القاطنين فى سورية ولا أقواها أيضاً وإن كانت بيده حكومة البلاد .

إذا تقرر هذا فلا بدع أن يكون على الملوك من بنى غسان حراسة البلاد ، وأن يكون لهم فيها نفوذ أمر وسلطان لا سيما وأنهم رجال حرب كما أنهم أهل ثروة وغنى لأن البلاد التى هم فيها كحوران والكرك ومعان وتدمر كلها بلاد زرع وضرع وهى من أخصب البلاد السورية ، ولم تزل كذلك إلى هذا العهد وإذا أضفنا إلى هذا وهن السلطة الرومانية يومئذ ، وضعف سلطانها فى البلاد لا نكون مبالغين فيما قلنا عن استغلاظ شأن العرب فى سورية ، وإن ذلك من قبيل الاستنتاج .

وأما قولنا إن دمشق كانت قبيل الفتح الإسلامى تحت الحارس (١) الغسانى ، فأنا وإن لم نقف فى شأنه على نص صريح سوى قول للدكتور

---

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قيصر على ملوك الروم وكسرى على ملوك الفرس وملك غسان الذى كان على عهد الفتح هو جبلة بن الأيهم .

فانديك سيأتى بيانه ، إلا أن هناك من الأخبار التاريخية ما يستنتج منه أن عاصمة بنى غسان قبيل الفتح كانت دمشق الشام ومن تلك الأخبار ما ذكره الطبرى فى تاريخه عن مجىء خالد بن الوليد من العراق إلى الشام حيث قال ما نصه .

ثم نزل (يعنى خالداً) الكثب حتى صار إلى دمشق ثم مرج راهط فلق عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم (يريد به جبلة) الخ الخبر .

وجاء فى السير أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل شجاع بن وهب بكتاب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، يدعوه إلى الإسلام فأتاه وهو بغوطة دمشق يهيىء النزل لقيصر وقد كان قاصداً إيلياء ، فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب الذى معه وغضب وقال من ينتزع منى ملكى الخ .

ولما وفد حسان بن ثابت الأنصارى قبل إسلامه على آل جفنة وهم ملوك غسان امتدحهم بأبيات قال فيها .

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق فى الزمان الأول

ومنها :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبرا بن مارية المعم المخول
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

والبريص الذى جاء فى الأبيات هو قصر لآل جفنة على نهر بردى الذى هو نهر دمشق ، وجلق من أسماء دمشق وقد تقدم معنا فى خبر فتح دمشق ماقاله البلاذرى فى تاريخه ، من أن خالداً وأبا عبيدة التقيا فى دخولهما إلى دمشق بالمقسلاط وأنه هو البريص .

ولا يخفى على الناقد أن التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه الروايات ، يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بأنهم كانوا قبيل الفتح أصحاب

السيادة على دمشق ، والذى يترجح عندنا أن الفرس لما دوخوا الولايات الرومانية سنة (٦١٤ م) أقروا ملوك غسان على ما كان لهم ، وأقاموهم ملوكا على الشام ، ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه فى حرب الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق لحين الفتح الإسلامى ، بل هناك دليل آخر على أن سلطة بنى غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق ، وربما شملت سورية كلها ، فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الأيهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان ابتنى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه ، وهى جبلة ، فإذا كان ملوك جفنة من بنى غسان قبيل الفتح إنما كانوا أمراء على عرب البادية وحوران ، وآلة بيدى قيصر الروم يصد بهم غارات عرب العراق (كما قال صديقنا جورجى أفندى زيدان) ، فما علاقة جبلة بسواحل الشام ، وما الداعى له لتمصير الأمصار فى أرض ليس له ولا لقومه سلطة فيها ولا سلطان .

لاجرم أن سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام ، وكانت عاصمة ملوكهم دمشق . ولولا ذلك لما تسنى لجبلة أن يبتنى تلك المدينة ويسميها باسمه ، ويؤيد ذلك ماقاله الدكتور فانديك فى المرآة الوضية عند كلامه على دمشق وهو بنصه .

وكانت (يعنى دمشق) قبل الإسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيتين الثانى والثالث من الأبيات التى سبق إيرادها .

وليت شعرى لماذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبل الفتح الإسلامى ، وهو يعلم أنهم أبناء بجدتها والسابقون إلى حومتها . وأنهم تسلطوا على هذه البلاد مراراً قبل الميلاد وبعده ، كما ذكر ذلك صديقنا

مجلته نقلا عن يوسيفوس المؤرخ القديم ، ولا مراء فى أن الحارث أحد ملوك العرب على عهد طيباريوس قيصر المتوفى سنة ٣٧ للميلاد استولى على دمشق بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت الحارث ، ومما يؤيد سلطة الحارث على دمشق يومئذ قول بولس فى رسالته الثانية إلى الكورنثيين وهو بنصه .

(وفى دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين ، يريد أن يمسكنى) وقد سبق أن قلنا إن اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام ، وعدا هذا فإنا إذا رجحنا قول القائلين بأن أصل أوديناثوس التدمرى الذى سبق ذكره عربى لا سريانى (والجنسان من أصل واحد) ، فلا يستبعد أن يكون للعرب من السلطة فى الشام قبيل الفتح الإسلامى ما كان لهم على عهد طيباريوس قيصر وعلى عهد أوديناثوس الذى تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة زنوبيا الشهيرة إلى مصر ، وأزعجت سطوتها ملوك ذلك العصر .

هذا ما انتهى إليه علمنا فى تحقيق هل كانت دمشق عربية أم لا ، هذا على غموض تاريخ هذه الأمة العربية وما دام العلماء مجدين فى البحث عن آثار الأمم القديمة فستكشف الأيام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد قريب من تاريخ عرب اليمن (حمير) ، مما يدل على بلوغ هذه الأمة منتهى درجات المدنية فى العصور الغابرة والله أعلم .

وقعة فحل :

رأى المسلمون بعد فتح دمشق أن يناجزوا هرقل ، إلا أنهم خافوا ممن وراءهم من جيوش الروم فى بيسان ، وكانوا ثمانين ألفاً على قول بعض الرواة كما ذكر ذلك الطبرى ، فاختاروا مناجزة هؤلاء أولا فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبى سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان

وعلى الناس شرحبيل بن حسنة ، إذ كانت إليه ولاية الحرب فى الأردن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه ، وعلى الخيل ضرار بن الأزور ، وعلى الرجل عياضا ولما انتهوا إلى أبى الأعور (وقد كان بين الأردن وبين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق) قدموه إلى طبرية لحاصرها ، وهم نزلوا بفحل . وكان الروم بثقوا المياه بينهم وبين فحل منعاً المسلمين عن الوصول إليهم ، فكان عملهم هذا وبالا عليهم لأنهم أصبحوا بعد خروجهم للحرب كالمحصورين ، وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك ، إذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التى تلى جند المسلمين ، فأصبحوا بين خطرين ، حتى إذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فأخذتهم سيوف المسلمين وهذا يدل على ضعف معارف قوادهم يومئذ بفنون الحرب وتمكن الهلع والاضطراب من نفوسهم تمكناً أضاع منهم الحيلة وأفقدهم حسن التدبير .

لما رأى المسلمون تلك المياه والوحل نزلوا بفحل ولم يسعهم التقدم إلى حيث يقيم العدو ببيسان ، فكتبوا إلى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم فى رغد من ريف الأردن والروم فى ضنك ، وقد ظنوا فى المسلمين الغفلة عنهم فخرجوا عليهم بقيادة قائد اسمه سقلار أو صقلار ، ورجوا أن يأخذوهم على غرة والمسلمون حذرون ، وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبية واستعداد للحرب ، فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد قتال كان ليلتهم ويومهم إلى الليل فأظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى ، وقد أصيب قائدهم سقلار والذى يليه (أى القائد الثانى) واسمه نسطوس وركبوهم ، فلم يعرف الروم مأخذهم فانتهوا فى الهزيمة إلى الوحل ، فأدركتهم أوائل خيل المسلمين فأخذوهم وما يمنعون يد لامس .

كان المسلمون يسمون هذه الوقعة ذات الرداغ لما لاقوا فيها من الوحل الذى كانوا له كارهين ، فكان عوناً لهم على العدو ، ولما انتهت الحرب بفحل انصرف أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد إلى حمص ، ومضى بذى الكلاع الحميرى الذى كان مرابطا بين جنود المسلمين وحمص ليمنع المدد عن العدو .

أوهن المسلمون بفحل قوى العدو ، وأوقعوا الرعب فى قلوب الروم ، فتأهب كل أمير لقصد الجهة التى ولى حربها ، فسار أبو عبيدة إلى حمص ، وسار شرحبيل إلى بيسان وطبرية ، وتجهز يزيد بن أبى سفيان للخروج إلى سواحل الشام .

بيسان وطبرية :

سار شرحبيل إلى بيسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو ، وكلهم من أمجاد قريش وساداتها ، فلما بلغ أهل بيسان ما أصاب جند الروم بفحل تحصنوا من المسلمين بكل مكان ، فحصرهم المسلمون أياماً ، ثم خرج بعضهم لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقى على صلح دمشق ، وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أبا الأعور على أن يبلغهم شرحبيل ففعل ، فصالحوا شرحبيل على صلح دمشق أيضاً ، ونزل القواد بجندهم فى مدائن الأرض وقراها وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة .

مرج الروم :

لما علم هرقل بما أصاب جنده فى دمشق والأردن ، وبلغه مسير أبى عبيدة إلى حمص ، رأى أن يرسل جيشاً إلى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين ، وإما ليغنم فرصة تفرق الجيوش الإسلامية عن دمشق فتستردها جنوده من يزيد بن أبى سفيان ، فأرسل ذلك الجيش بقيادة توذر (لعله

تيودور) فنزلا بالجيش فى مرج الروم غربى دمشق ، وبلغ ذلك أبا عبيدة فجاء ونزل بأزاء شنس وخالد بأزاء توذر . فنازلهم لما نزلوا شنس وسار توذر يطلب دمشق ، فسار خالد وراءه فى جريدة وبلغ يزيد بن أبى سفيان إقبال توذر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وقتل خالد توذراً وقال :

نحن قتلنا توذراً وشوزرا وقبله ماقد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس ، فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم ما أصاب توذر ، وقتل أبو عبيدة شنس وانهزم فلهم إلى حمص وتبعهم بعض المسلمين . فلما انتهى الخبر إلى هرقل أمر عامل حمص بالمسير إليها وسارهو إلى الرها (اورفا) وفى رواية إلى إنطاكية ، وقال للعامل بلغنى أن طعامهم (يعنى المسلمين) لحوم الإبل وشرابهم ألبانها ، وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم إلا فى كل يوم بارد فإنه لا يبقى إلى الصيف منهم أحد .

وإذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فإنه من الغرابة بمكان ، لأن رجلا مثله عجم عود القوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم منذ سنتين ، لكبير عليه أن يعلق آماله على مجرى الطبيعة ، ويفوه بمثل هذا الهزء من القول إلا إذا أراد به تخفيف الهلع عن قلوب الجنود المدافعة ، وتهوين الخطب على قواده ، ريثما يتم عليهم أمر القضاء الذى علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية ، وإنما يدافع ذلك القضاء بآخر ماعنده من وسائل القوة والتحريض ، كى لاتهن نفوس الجنود ولا يستولى اليأس على ضمائر الشعب .

ذكر بعلبك وحمص وسواحل دمشق :

علمنا مما سبق أن يزيد بن أبى سفيان كان يتجهز بعد فتح دمشق للمسير

إلى سواحل دمشق ، وأن أبا عبيدة قصد حمص ، ولما جاء توذر إلى مرج الروم تربص يزيد وعاد إليه أبو عبيدة ، ولما انتهى أمر توذر لما انتهى إليه قصد يزيد سواحل دمشق ، وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية ابن أبي سفيان ، فابتدأ بصيدا ففتحها ، ثم فتح عرقة وجبيل وبيروت ، وجلا كثيراً من أهلها عن رغبوا الجلاء ، وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه ، ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان ، فقصدهم معاوية ففتها ورمها وشحنها بالمقاتلة ، وأقطعهم القطائع وإنما تجرأ الروم على غزو السواحل ، لأن المسلمين لم يكن لهم يومئذ أسطول يمنع غارة الروم على السواحل ، إذ لم يكن من رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه .

وأما أبو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق بعلبك ، وقدم إليها السمط ابن الأسود الكندى ، وقدم خالداً إلى البقاع ، فافتتح خالد بلاد البقاع ، ونزل أهل بعلبك إلى أبي عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً ستأتى صورته ، ثم توجه إلى حمص فمن قائل إنه وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ، ومن قائل إنه قاتلهم قتالا شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم فى كل يوم بارد ، ولقى المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار ، وكان بعض مشايخهم دعاهم إلى مصالحة المسلمين فأبوا ، ولما اشتد عليهم الأمر طلبوا من أبي عبيدة الصلح فصالحهم على صلح دمشق ، وأنزلها السمط ابن الأسود الكندى فى بنى معاوية ، والأشعث بن ميناس فى السكون والمقداد بن بلى وأنزلها غيرهم .

وفى فتوح البلدان أن السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين ، وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة .

أما أبو عبيدة فقد بعث بالأخماس وخبر الفتح إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، مع عبدالله بن مسعود ، فكتب إليه عمر : أن أقم فى مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام ، فإنى غير تارك البعث إليك بمن يكانفك إن شاء الله .

تحقيق خبر أجنادين واليرموك واختلاف المؤرخين فيها :

اختلف المؤرخون فى وقعة أجنادين واليرموك ، فمن قائل إن الأولى كانت قبل فتح دمشق، والثانية بعد فتح حمص ، ومن قائل بالعكس ، ولقد يحار المؤرخ الناقد فى التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الزمن الذى وقعتا فيه ، ويكاد يشتبه عليه أمرهما ، فيتخيل له أن الواقعتين واحدة . أو أن الواقعتين كانتا فى اليرموك ، واحدة ، فى خلافة أبى بكر والأخرى فى خلافة عمر رضى الله عنهما ، وذلك لما فيهما من التشابه فى الأسباب والحوادث ، وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب فى خبر الواقعتين قاصر على كتبنا ، وأن الغربيين ربما لم يقعوا فى هذا الاضطراب ، لما عساهم نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخى الروم الذين كتبوها عن مشاهدة ، لا من طريق الرواية ، فإذ بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه بهذا الصدد المؤرخ الإنكليزى ادوردجبون [١] فى (تاريخ السلطنة الرومانية) والمؤرخ الفرنساوى نويل ديفرجى فى كتابه بلاد العرب [٢] فلم أعثر على مايشفى الغليل ويزيح ستار اللبس ، فإن الأول جعل وقعة أجنادين سنة (٦٣٣م) الموافقة سنة (١٢ هـ) أى قبل فتح دمشق ، مع أن الأدلة التاريخية تؤيد حصول وقعة اليرموك قبل دمشق لا أجنادين ، وأما الثانى فقد قال إن مارآه

(١) Gibbon's Roman Empire,

(٢) Arabie Par M. Noel. Desvergers

فى تاريخ أبى الفداء فى شأن اليرموك يعلوه اللبس والإشكال، وأن هذا يوجب الارتياب فى كلام الشرقيين أكثر من الارتياب فى كلام الغربيين ، إلى أن قال وهذا المذهب من كلامهم يدعو إلى الظن أنه حدثت واقعتان فى هذا المحل (أى فى اليرموك) الأولى قبل فتح دمشق ، والثانية بعد الاستيلاء على حمص .

ولقد نكاد نجاريه فى هذا الظن وأن هناك التباساً فى هذا الاسم ، وأن الاسمين ربما يطلقان على مكان واحد ، لو لم نر أن ياقوتا فرق فى معجمه بين المكانين ، فقال إن اليرموك واد فى طرف الغور يصب فى الأردن ، وأن أجنادين موضع بالشام من نواحى فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين ، كما أن الطبرى أيضاً قال عن أجنادين إنه بلد من أرض فلسطين ، من عمل بيت جبرين .

وبما أن حصول الواقعتين الواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها أمر محقق عند المؤرخين لا خلاف فيه ، وإن اختلفوا فى تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الأولى بمكان الثانية ، وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذى نريد الوصول إليه الآن هو تحقيق أيهما كانت قبل فتح دمشق ، وأيهما كانت بعدها فالذى اعتمده البلاذرى فى فتوح البلدان أن أجنادين هى الأولى ، واليرموك هى الثانية ، وجاراه على هذا الرأى ابن واضح الكاتب العباسى الشهير باليعقوبى فى تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبى (١) . وجعل اليرموك بعد حمص ، وأما الطبرى فإنه أورد خبر اليرموك كما أوردناه فى الجزء الأول ، أى قبل دمشق وأورد خبر أجنادين مرة قبل فتح دمشق ، ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن إسحق على عادته فى نقل الروايات على اختلافها ، وترك الحكم فيها للمطالع

---

(١) هذا التاريخ جزءان طبعا فى ليدن ويوجد منه نسخة فى دار الكتب .

وتكاد هذه الرواية تكون أقرب للحق لو لم يتوهم الرواة أن أجنادين الأولى هى التى اجتمع عليها الأمراء ، ووافاهم إليها خالد بن الوليد ، وهذه هى التواريخ التى بين أيدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الأخبار بالرواية ، وأما المتأخرون فإذ كان اعتمادهم فى سرد الوقائع على ما دونه أولئك ، اضطربوا أيضاً فى تعيين زمان الواقعتين ومكانهما ، وليس منهم إلا من أورد الخبر على علاته دون تمحيص ولا تحقيق ، وبما أن بعضهم قال إن أبا عبيدة رجع من حمص إلى اليرموك بزعم أنها بعد فتح حمص ، مع أن المرجح أن اليرموك هى الواقعة التى حضرها خالد بن الوليد لما جاء لنجدة المسلمين فى سنة ١٣ وفتح حمص كان فى سنة (١٤) أو التى بعدها ، فقد حملنى ذلك على اعتقاد خطئهم فى تأخير تاريخ وقعة اليرموك ، مع الظن باحتمال وصول أبى عبيدة إلى حمص ، قبل مجىء خالد من العراق ، فبسطت فى الجزء الأول هذا الاحتمال خطأ ، إذ الحقيقة التى ظهرت لى فى هذا بعد التدقيق فى التاريخ أن رجوع أبى عبيدة من حمص إنما كان بعد فتحها ، ويومئذ اجتمع على الأمراء فى أجنادين ، واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك ، وإنما تضارب الروايات فى هذه الوقائع يدعو إلى غموض الحقيقة ، وتشويش الذهن ، والذى صح عندى من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها ، أن هناك ثلاث وقائع متشابهات ، اضطرب فى ترتيبها المؤرخون ، لتشابه البواعث والاسم ، وهى أجنادين الأولى وحدثت فى أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة ١٣ واليرموك وكانت فى جمادى سنة ١٣ وأجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) أو (١٥) .

وقد ساق ابن جرير الطبرى فى تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث ، إلا أنه أورد خبر اليرموك وأجنادين الأولى من عدة روايات ، كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم فى تحقيق هل كانت اليرموك قبل أجنادين

أو بالعكس ، أو كانتا وقعة واحدة،ويؤخذ من مجمل هذه الروايات حصول وقعة فى أجنادين لم يحضرها خالد بن الوليد . وإنما هى إما أن تكون لخالد ابن سعيد لما بعثه أبو بكر لأطراف الشام ، ووواقع هناك الروم وعليهم باهان على راوية مؤرخى العرب ، ووردان على رواية أدورد جبون الإنكليزى ، وإما أن تكون مع الأمراء فى أول دخولهم الشام ، لما بعثهم أبو بكر فى إثر خالد بن سعيد ، ثم لما واقعوا باهان وأوقعوا به تفرقوا فى أنحاء الشام،فسرب لهم هرقل الجنود فعادوا إلى اليرموك واستنجدوا أبا بكر فأنجدهم بخالد ابن الوليد ، فوافاهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم فى اليرموك وسار الأمراء إلى دمشق ففتحوها ثم فحل فكان الفتح ، ثم سار أبو عبيدة إلى حمص وفتحها ، أرسل هرقل جنوداً جديدة إلى سورية اجتمعت فى فلسطين ، فعاد أبو عبيدة والأمراء إلى حيث يخيم جند الروم فى أجنادين فكانت وقعة أجنادين الثانية ، والظاهر أن بعض المؤرخين ومنهم البلاذرى واليعقوبى ظنوا أن وقعة أجنادين واحدة .فاعتبروا الأولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك ، مع أن المرجح أن اليرموك هو المكان الذى اجتمع عليه الأمراء ووافاهم فيه خالد بن الوليد من العراق ، بدليل ماقاله ياقوت فى معجم البلدان وهو بنصه .

اليرموك واد بناحية الشام فى طرف الغور ، يصب فى نهر الأردن ثم يمضى إلى البحيرة المنتنة ، كانت به حرب بين المسلمين والروم فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين : وساق مجمل الخبر كما ذكرناه فى الجزء الأول ثم قال : وقال القعقاع ابن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق إلى الشام فى أبيات .

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع   لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به   سوى نفر نجتدهم بالبواتر

وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة   فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت   بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

والشاهد من كلام ياقوت هو هذه الأبيات ، التى تدل دلالة صريحة على أن خالداً لما جاء إلى الشام واقع غسان ، ثم فتح بصرى وانتهى إلى جيوش المسلمين وهم فى اليرموك .

وأما أجنادين الأولى فإن الذى يرجح أنها كانت فى أواخر سنه ١٢ ، أو أوائل سنة (١٣) ، هو ما رواه بعض المؤرخين من أن أبا بكر بشر بانتصار المسلمين على الروم فى أجنادين وهو بآخر رمق ، مع أن انتصار المسلمين فى اليرموك كان فى جمادى الثانية بعد وفاة أبى بكر ، وإنما جاء المسلمين وفاته وهم على اليرموك .

فهذا ما وصل إليه الفكر وانتهى إليه البحث فى تحقيق وقعة اليرموك وأجنادين ، التى قبلها ، وأما أجنادين الثانية وهى التى كانت عقب فتح حمص واضطر أبو عبيدة أن يرحل من أجلها عن حمص ، وحذا حذوه باقى الأمراء لمصادمة الجيوش العظيمة التى أرسلها إليهم هرقل ، واجتمعت فى فلسطين ثم فى أجنادين، فقد ذكر خبرها الطبرى سنة (١٥) كما ذكره البلاذرى واليعقوبى ، إلا أن هذين زعما أنها وقعة اليرموك .

على أن القرائن التى تحف بهذه الوقعة التى حدثت سنة ١٥ ، تؤيد أنها كانت فى أجنادين ، وذلك أن أجنادين من عمل فلسطين ، واليرموك من عمل الأردن ، وعمالة الأردن كانت سقطت يومئذ فى أيدى الجيوش الإسلامية وهم فيها مرابطون ، وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط ، وبسقوطها يسقط بيت المقدس ، ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم الأسباب ، وقضى على سلطان دولتهم فى سورية بالانقلاب ، لهذا فلا يعقل أن هرقل يسرب جيوشه إلى الأردن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو

ابن العاص الذى كان يقصدها من الأردن ، ومعاوية بن أبى سفيان الذى عزم أن يأتيها من سواحل دمشق بل المعقول أن هرقل لما جلا عن حمص وأقام فى أنطاكية أو الرها ، ووصلته الأخبار بتغلب المسلمين على جيوشه فى كل مكان، ورأى أن أبا عبيدة قد بلغ حمص من جهة الشمال ، وقطع طريق المواصلة والإمداد ما بينه وبين الجنود الرومية من جهة البر أرسل جيوشاً عظيمة من جهة البحر ، لتكون مدداً لأهل قيسارية وغزة وإيلياء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود أرسلت من يافا ، وعسكرت بأجنادين لقربها منها إذ المسافة لاتزيد عن ثلاث ساعات بين رافا والرملة وأجنادين من عملها ، كما قال ياقوت ، وإليك ما رواه الطبرى وغيره فى شأن قيسارية وغزة وأجنادين .

فلسطين وأجنادين :

لما انصرف أبو عبيدة من فحل إلى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على بيسان وافتتحها ، وصالحهم أهل الأردن ، قصد عمرو فلسطين وكتب إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه بتفرقهم ، فكتب إلى يزيد بن أبى سفيان بأن يدفىء ظهورهم بالرجال ، وأن يسرح معاوية إلى قيسارية [1] وكتب إلى عمرو بصدم الأرطبون وكان فى أجنادين ، وإلى علقمة بن مجزز بصدم الفيقار وكان فى غزة ، وكان مما كتبه إلى معاوية (أما بعد إنى قد وليتك قيسارية ، فسر إليها واستنصر الله عليهم . وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، الله ربنا ، وثقتنا ، ورجاؤنا ، ومولانا ، نعم المولى ونعم النصير) .

فسار كل أمير لما أمر به ، وسار معاوية إلى قيسارية ، وكان فيها من

---

(١) هذا الاسم معرب قيصرته وهما ثنتان ، واحدة تسمى قيصرية فلسطين ، وهى خراب الآن ، وخربت على عهد الصليبيين ، والأخرى قيصرية فيلبس ، وهى بانياس على ما قاله فانديك

المقاتلة مائة الف أو يزيدون على ما يؤخذ من كلام الطبرى ، فافتتحها وكتب إلى عمر بالفتح وبعث بالخبر مع رجلين من بنى الضبيب ، ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن علقمة الفراسى ، وزهير بن الحلاب الخثعمى ، وأمرهما أن يتبعاهما ويسبقاهما ، فلحقاهما، فطوياهما وهما نائمان ، وابن علقمة يتمثل :

أرَّقَ عينى أخو جذام كيف أنام وهما أمامى
إذ يرحلان والهجير طامى أحرام خثعم وأخو حرام

وأما علقمة بن مُجزِّز فحصر القيقار بغزة ، وجعل يراسله فلم يشفه مما يريد أحد ، فأتاه كأنه رسول علقمة ، فأمر القيقار رجلا أن يقعد له بالطريق فإذا مر قتله ، ففطن علقمة فقال ، إن معى نفرا شركائى فى الرأى فأنطلق فآتيك بهم فبعث القيقار إلى ذلك الرجل لا تعرض له ، فخرج من عنده ولم يعد ، وفعل كما فعل عمرو بن العاص بالأرطبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل .

وأما بريد معاوية الذى أرسله إلى المدينة ، فوصل إلى عمر رضى الله عنه فجمع الناس ليلا ، وقال : لتحمدوا الله على فتح قيسارية ، وأباتهم على الفرح

وأما عمرو بن العاص فقد سار بجيشه نحو الأرطبون ، وكان من كبار القواد ودهاتهم ، وهو يعادل عند الروم بالدهاء عمرو بن العاص عند العرب ، فتقدم نحوه عمرو وهو مخيم بأجنادين بجند كثيف ، وعلى مقدمة عمر وشرحبيل . وعلى مجنبتيه عبد الله بن عمرو وجنادة بن تميم المالكى مالك ابن كنانة ،وقد كان الأرطبون وضع بالرملة جنداً عظيما ، وبإيلياء جنداً عظيما فكتب عمرو إلى أمير المؤمنين بالخبر فقال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عم تنفرج : وكان عمر رضى الله عنه ، من لدن توجه أمراء الشام ، يمد كل أمير جند ويرميه بالإمداد ، حتى إذا أتاه

كتاب عمرو بتفريق الروم ، كتب إلى يزيد بن أبى سفيان بأن يبعث معاوية فى خيله إلى قيسارية ، وكتب إلى معاوية كتاباً بأمرته على قتال أهل قيسارية، وقد مر ذكره، وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسى ، ومسروق بن فلان العكى على قتال أهل إيلياء ، وبعث أبا أيوب المالكى إلى الرملة وعليها التذارق ، ولما تتابعت الأمداد على عمرو بعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق ، وبعث عمارة بن أمية الضمرى مدداً لأبى أيوب ، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ، ولا تشفيه الرسل ، فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه مايريد ، وسمع كلامه وتأمل حصونه ، حتى عرف ماأراد فحدثت أرطبون نفسه بأنه عمرو بن العاص ، فوضع له فى الطريق من يقتله وفطن له عمرو ، فاحتال للتخلص منه بمثل الحيلة التى احتال بها علقمة على الفيقار ، ونجا عمرو وعلم الأرطبون بحيلته فقال : خدعنى الرجل هذا أدهى الخلق : وبلغت عمر بن الخطاب فقال : غلبه عمرو لله عمرو .

لما عرف عمرو مآخذ الأرطبون ، ووقف بنفسه من حالة الروم على مايريد أن يقف عليه ، زحف عليهم بجنده واقتتلوا قتالا شديداً كقتال اليرموك ، فانهزم أرطبون فى الناس ، وأوى إلى إيلياء ، ولما وصلها أفرج له المسلمون الذين على حصارها فدخلها ، ثم أزالهم إلى أجنادين .

فهذه وقعة أجنادين التى اضطرب فيها المؤرخون وجعلها بعضهم على اليرموك سنة (١٥) ، مع أن اليرموك كانت سنة (١٣) ، كما تقدم الدليل على ذلك فى أبيات القعقاع بن عمرو ، التى يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين ، وهم على اليرموك ، على أن وقعة أجنادين هذه لم يذكر الطبرى فى سياقها اسم أبى عبيدة وخالد ، وأنهما حضرا بعسكرهما من حمص ، إلا أنه لما ساق خبر فتح بيت المقدس بعد أجنادين ذكر فى

جملة رواياته عن فتح بيت المقدس أن الذى كان على حصارها هو أبو عبيدة فإذا أضيفت هذه الرواية إلى ماذكره البلاذرى فى فتوح البلدان واليعقوبى فى تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من حمص لإنجاد بقية الأمراء فى اليرموك سنة (١٥) ، مع ماعلمناه مما سبق أن وقعة اليرموك كانت سنة (١٣) لاسنة (١٥) وأن المؤرخين ربما وهموا لتشابه الوقائع وقرب المكانين أحدهما من الآخر ، بأن وقعة أجنادين كانت على اليرموك صح أن أبا عبيدة وخالداً حضرا وقعة أجنادين هذه ، هذا إذا لم يكن هناك وقعة ثانية فى اليرموك ، كما كانت وقعتان فى أجنادين إلا أن القول بحدوث وقعتين فى اليرموك لم يقم عليه دليل واضح فى التاريخ ، وأما القول برحيل أبى عبيدة بجيشه عن حمص سنة (١٥) ، أى بعد فتحها وشخوصه إلى جنوب الشام لإمداد المسلمين ، فقد اتفق عليه البلاذرى واليعقوبى ومما ذكره اليعقوبى بهذا الصدد قوله عن أبى عبيدة بعد أن فتح حمص .

ثم أتاه خبر ماجمع طاغية الروم من الجموع فى جميع البلدان ، وبعثه إليهم من لاقبل لهم به، فرجع إلى دمشق وكتب إلى عمر بن الخطاب . وكتب إليهم عمر أنه قد كره رجوعهم من أرض حمص إلى دمشق : وجمع أبو عبيدة المسلمين وعسكر فى اليرموك إلى أن قال ، وكانت وقعة جليلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة ، وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) وأوفد أبو عبيدة إلى عمر وفداً فيهم حذيفة بن اليمان ، وقد كان عمر أرق عدة ليال ، واشتد تطلعه إلى الخبر ، فلما ورد عليه الخبر خر لله ساجداً وقال : الحمد لله الذى فتح على أبى عبيدة ، فوالله لو لم يفتح لقال قائل خالد ابن الوليد اهـ .

وأما مانقله البلاذرى فقد تقدم ذكره فى الجزء الأول ، ومؤداه أن المسلمين لما بلغهم إقبال الجنود الكثيرة لوقعة اليرموك ، ردوا ماكانوا

أخذوه من أهل حمص ، وقالوا لهم قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فأقسم النصارى واليهود ، أنهم لايدعون عامل هرقل يدخل إلى المدينة ، وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المؤرخون بشأن اليرموك وأجنادين ، بسطناه هنا مع مافى كثرة هذه الأقوال من التشويش والاختلاف ، ليكون القارىء على بينة من الحقيقة والله بها عليم

فتح بيت المقدس :

لما انتهى عمرو من أجنادين ترك أهل إيلياء (بيت المقدس) محصورين وأخذ يتمم فتح مدن فلسطين وقراها ، ففتح غزة ولد ونابلس وبيت جبرين ومرج عيون ويافا ، وقيل إن يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة حبية ويطلب إليه تسليم المدينة ، والأرطبون يمتنع عليه ، وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه : إنك لست بصاحب فتح إيلياء بل صاحبه عمر : فكتب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده ويقول : إنى أعالج حرباً كئوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً ادُّخرت لك فرأيك : ولما انتهى الكتاب إلى عمر نادى فى الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية (١) .

وفى رواية للطبرى أن أبا عبيدة هو الذى كان على حصار إيلياء ، وأن سبب قدوم عمر إلى الشام أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبى عبيدة أن

---

(١) قال ياقوت : الجابية من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق قرب مرج الصفر فى شمالى حوران ويقال لها جابية الجولان أيضاً .. قال الجواس بن القعطل :

أعبد المليك ماشكرت بلادنا ... فكل فى رخاء الأمن ماأنت آكل
بجابية الجولان لولا ابن بحدل ... هلكت ولم ينطق لقومك قائل

يصالحهم على صلح مدن الشام ، وأن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك ، فسار عن المدينة وكتب للأمراء أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم وأن يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية ، فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول وعليهم الديباج والحرير فكبر ذلك على الخليفة العظيم الذى ولع بالتقشف وازدرى بنعيم الحياة الفانية ، أن يرى آثار التنعم بادية على قواده على قرب عهدهم بالخوشنة وتخلقهم بخلق العفة والجد والقناعة ، فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما لُفتم عن رأيكم إياى تستقبلون بهذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ما ندت بكم البطنة ، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم : فقالوا يا أمير المؤمنين إنها يلامعة [1] وأن علينا السلاح : قال : فنعم إذن : وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل بأجنادين ، فبينما عمر معسكراً بالجابية فزع الناس إلى السلاح فقال ما شأنكم ؟ فقالوا ألا ترى الخيل والسيوف . فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف ، فقال عمر هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم فأمنوهم وأذاهم أهل إيلياء .

كان أهل إيلياء فى ضنك عظيم وحصار شديد ، وقد أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام ، أنهم مأخوذون لامحالة وأن دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت ، وخافوا إذا سلموا المدينة للمسلمين ألا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى ، لكثرة ما لاقى المسلمون منهم من العناء وما بذلوا فى حربهم من الدماء ، ولما تحقق عندهم من أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين ، لأنه محل الإسراء ومقر الأنبياء ، والظاهر أنهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينتزعها منهم المسلمون ، وقبلتهم المقدسة أن يحرمهم منها الفاتحون

(١) قال فى القاموس اليلامعة ما لمع السلاح كالبيضة

مع أن المسلمين كانوا أحرص الناس على الوفاء بالعهود وألزمهم لشرعة الإنصاف مع المغلوبين ، وكانوا إذا صالحوا قوماً على شيء وكتبوا لهم بذلك عهداً صار ذلك العهد سنة لمن بعدهم فى معاملة أولئك المعاهدين لا يحيد عنها أحد من المسلمين ، وإنما هو الروع أخذ بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للأمان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فطلبوا من الأمراء حضوره بنفسه، ولما بلغهم وصول أمير المؤمنين إلى الجابية أوفدوا إليه ذلك الوفد ، فتلقاهم المسلمون براية الأمان فأخبروا أمير المؤمنين أنهم نواب فى الصلح عن أهل إيلياء ، وإن أمراء الجند الرومى وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها ، فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة وكتب لهم بذلك كتباً ، وكتب لأهل إيلياء خاصة كتاباً سترد صورته فى هذا الكتاب ، ثم جعل على ذينك القسمين أميرين فجعل علقمة بن حكيم على الرملة وأحوازها وأنزله الرملة ، وجعل علقمة ابن مجزز على إيلياء وأحوازها وأنزله إيلياء ، ونزل كل واحد منهما فى عمله فى الجنود التى معه ، وضم عمرو بن العاص وشرحبيل إليه بالجابية ، فلما انتهيا إلى الجابية وافقا عمر رضى الله عنه راكباً ، فقبلا ركبته وضم هو كل واحد منهما محتضنهما .

وكان فتح إيلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ، ولما أتم عمر عهد الصلح أراد المسير إلى بيت المقدس ، فأتى له ببرذون فركبه ، فلما سار جعل يتخلج (١) به فنزل عنه وضرب وجهه ، وقال : لا علم الله من علمك هذا من الخيلاء ، ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده ، ثم دعا بفرسه فركبه ، ثم سار حتى انتهى إلى المسجد الأقصى ليلاً ، فدخله فصلى فيه ، ولم يلبث أن طلع الفجر ، فأمر المؤذن بالإقامة فتقدم فصلى بالناس ، ثم انصرف ودعا بكعب الأحبار (وكان لما دخل

(١) يضطرب ويتمايل .

المسجد قال : ارقبوا لى كعباً) فلما أتى به قال له : أين ترى أن نجعل المصلى : فقال : إلى الصخرة فقال : ضاهيت والله اليهودية يا كعب وقد رأيتك وخلعك نعليك : فقال . أحببت أن أباشره بقدمى : فقال : قد رأيتك ، بل نجعل قبلته صدره ، كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها ، اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة ، فجعل قبلته صدره ، ثم قام إلى كناسة (١) قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس فى زمان بنى إسرائيل وقال : يأيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا فى أصلها وحثا فى فرج من فروج قبائه ، وسمع التكبير من خلفه وكان يكره سوء الرعة (٢) فى كل شىء ، فقال : ما هذا ، فقالوا كبر كعب وكبر الناس بتكبيره ، فقال على به ، فأتى به فسأله عن سبب تكبيره ، فقال يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت نبى منذ خمسمائة سنة ، وسرد له خبراً طويلا من الإسرائيليات لا محل لذكرها هنا .

ولا جرم أن يظهر كعب الأحبار سروره ، ويكبر لمصير بيت المقدس إلى المسلمين وهو إسرائيلى الأصل ، يعلم سوء ما لاقى بنو إسرائيل من الرومان ، وما كانوا يلاقونه من النصارى ؛ من الاضطهاد والتعصب الذى منعهم من حرية التوجه إلى قبلتهم ، والتمتع بأول معبد لهم ، كما يعلم جميل معاملة المسلمين لأهل الكتاب . وإطلاقهم لهم حرية التعبد والسكنى والاعتمال حيثما كانوا ، وأنى أقاموا ولهذا السبب كان اليهود فى سورية يتمنون إدالة دولة الروم ويحرضون عليهم المسلمين ؛ ومن ذلك ما رواه الطبرى أن عمر

---

(١) الكناسة الزبالة ويراد ببيت المقدس الهيكل الذى بنى على الصخرة . وقد كان الروم من زمان بنى إسرائيل هدموه وألقوا عليه الزبالة نكاية باليهود ، فبنى عمر فوقه مسجداً ثم وسع بعد .

(٢) جثا أى جلس على ركبتيه وحثا من حثا التراب يحثوه ويحثيه ومعناه أن عمر حثا التراب فى ذيل ثوبه ، والرعة الكسر كما فى القاموس الهدى وحسن الهيئة أو سوء ها وهو ضد ، والتحرج أى التنطع ولعله هو الأقرب للمراد من قوله يكره سوء الرعة .

ابن الخطاب لما نزل الجابية قبيل فتح إيليا جاءه يهودى من يهود دمشق وقال له : ياأمير المؤمنين لاترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيليا ، ومازال ملازماً له حتى تم الفتح ، وشهد عقد الصلح .

لا وثنية فى الإسلام :

رأيت ماقاله عمر (رضى الله عنه) لكعب الأحبار ، وهو قول لانحب أن يفوتنا البحث فيه ، لهذا رأينا أن نفرد له هذا الفصل فنقول .

أولع الإنسان بالإفراط كما أولع بالتفريط فى كل شؤونه الروحية والجسمانية ، ولو أنصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليبلغ مقام الملائكة فى أعلى عليين ، أو يهبط بها إلى مقر الشرور فى أسفل سافلين ، لكانت السعادة الدائمة به ألزم ، وطريق النعيم الحيوى لديه أوسع ، ولما احتاج إلى كثير من هذه القوانين وقوامها ، وزعماء السيطرة وجنودهم ، والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها ، بل لكان اكتفى بدين واحد قويم ، وشرع إلهى مستقيم ، ولم يشوه وجه الشرائع ، ولم يدع لتعدد الأديان ، وإرسال الرسل فى آن وآن .

أجل أولع الإنسان بالشطط حتى فى العقائد ، فبينا يكون هذا فى طرف التفريط ، مارقا من كل دين منكراً لكل نحلة ، هائماً فى المادة التى يتناولها حسه وينكر مافوقها عقله ، يكون الآخر مسلما لعقيدته بما لايبعد طبعه عن طبيعته ، طالباً بخياله مايظن له قدرة فوق قدرته ، وسلطة أعلى من سلطته ، وأول مايلاقيه فى طلبه يعلق بقلبه ، ويظنه منتجع عقله والغاية التى يطلبها فى سيره فتولع به نفسه ، ويقوى فيه أمله ، ويختص به عمله ، فيغلو فى عبادته غلو المادى فى مادته ، حتى يساويه من طرف الإفراط بالتوجه تارة للأقمار ، وأخرى للأشجار ، وآونة للأحجار ، ووقتاً للأرواح ، وآخر للأشباح إلى

غير ذلك مما هو داخل فى المادة ، قريب من متناول الحس ، فكأن العقل الإنسانى فى حال الإيمان والكفر أسير المادة ، لايفلت من شرك الحس ، ولا يذعن إلى مافوق المادة ، ويصعد إلى أفق الكمال إلا هنيهة ، ريثما يتلقى برهان ربه بواسطة الأنبياء ، ويطمئن إلى التسليم بقوة آلهية ، تفوق قوى المادة وتعلو عن العقل وتتحكم على الكائنات تحكم الصانع المختار ، ثم لايلبث أن ينحط عن هذه المرتبة فيعود إلى تحيزته الأولى ، للهبوط إلى هوة النقص والتوجه إلى مظاهر المادة ولو تدريجاً ، حتى يلتصق بالحضيض ويعود إلى الشرك وهو يظنه الإيمان ، ويخاله منتهى العبادة ومامن دين إلا أصيب أهله بهذا المصاب وأشركوا مع الله الأرواح تارة وأخرى الأنصاب ، توسلا إليه على زعمهم بالحس وارتياحا إلى ماتحت النظر والعقل ، والله سبحانه وتعالى فوق مايتصورون ، ليس من المادة ولا المادة منه ، بل هى مخلوقة له مفتقرة إليه ، وليس بينه وبين خلقه سبب منها يتوصل به إليه ، بل هو كما قال فى كتابه الكريم (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) الآية .

ومن الثابت أن العرب كانوا على دين إبراهيم الذى هو كباقى الأديان الإلهية ، دين التوحيد بالله والإيمان بأنه تعالى خالق الكون ومافيه ، وإنكار مادون ذلك من الاعتقاد بشىء من المادة ، ومن التمسك فى العمل بأهداب الشرك ، ولكن لم يلبثوا أن تدرجوا فى مدارج المادة ، وهبطوا إلى حضيض الشرك ، وتدرجوا من الاعتقاد بالأرواح إلى الاعتقاد بالأشخاص ، ثم إلى الاعتقاد بالأنصاب والأحجار ، وغير ذلك ، مما هو داخل فى المادة ، واقع تحت الحس ، وهم مع ذلك كانوا يزعمون أنهم مؤمنون لامشركون ، وأنهم بعبادة المادة يعبدون الله ويتقربون بها إليه كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهذا من الإغراق فى الجهل ،

والانحطاط فى العقيدة ، والإفساد لأصل التوحيد ، ولم يكن هذا الإفساد قاصراً على العرب فقط ، بل عم سائر أرباب الأديان مما لامحل لبسطه الآن .

إذا تمهد هذا علمنا أن الإسلام بما جاء به من آيات التوحيد الخالص من كل شائبة من شوائب الشرك ، إنما جاء لاستئصال شأفة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من أرباب الأديان ، بمحو شائبة الاعتقاد بأى أثر من آثار المادة ، وصرف النفوس عن التوجه إلى تلك الآثار بالحس ، لتتوجه إلى واجب الوجود بالضمائر ، والاكتفاء باستحضار هيبة جلاله فى القلب ، وتمكين الاعتقاد بأن الأثر الواقع تحت الحس إنما يقوم قوامه بالمؤثر المستحضر فى الضمير الخارج عن الحس ، إذ بغير هذا لايقوم للتوحيد أثر متين فى النفس ، ينجى من مزلة القدم إلى الوثنية المفضية إلى الشرك المؤدى إلى الجحود وإنما الإنسان مادة ، وهذه أعراض منها تنمو وتعظم فى النفس ، مادامت النفس مستشعرة بشىء من وجوب التعظيم لغير الله تعالى ، والتوجه لأى أثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين .

هذا هو التوحيد الذى جاء به الإسلام ، ودعا إليه النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما اضطربت العقول وساءت الأوهام لتفاوت الأفهام ، وتباين مراتب المسلمين فى العلم بحقيقة الدين ، والإحاطة بأسراره ، والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرسالة وإليك الدليل .

أخرج الإمام أبو الفرج ابن الجوزى فى السيرة العمرية عن المغرور بن سويد قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب فى حجة حجها ، قال فقرأ بنا فى الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) « لئيلاف قريش » فلما انصرف رأى الناس مسجداً فبادروه فقال : ماهذا : قالوا هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم ، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً . من عرضت له فيه صلاة فليصل ، ومن لم تعرض له صلاة فليمض .

فلو كان أولئك المصلون يومئذ فى مرتبة عمر فى العلم ، واستشعروا من إقبالهم على ذلك المسجد للصلاة فيه تعظيما له ، كما استشعر به عمر رضى الله عنه وعنهم أجمعين لما بادروا للصلاة فيه إلا إذا عرضت لهم صلاة،ولا جرم إن أعظم الناس فهما للإسلام ، وعلما بغوامض الدين ووقوفا على مقاصد النبوة المحمدية ، وما كانت تدعو إليه من التوحيد البحت الخالى عن كل شائبة من الشوائب التى مر ذكرها ، هم أهل السابقة المهاجرين الأولين ، الذين تلقوا الدين أنجما كان ينزل بها الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من لدن البعثة ولازموا الرسول ملازمة الظل فاكتنهوا سر شريعته ، وأدركوا مرامى غرضه ، وقلدوه فى أعماله وأقواله ، وانتهجوا منهجه ، واهتدوا بسيرته ، فتفوقوا على غيرهم فى العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد ، ومن هؤلاء من هم فى المرتبة الأولى فى فهم مقاصد الإسلام،ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ومن تتبع سيرته وأنعم النظر فى أقواله وأفعاله وانطباقها على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم ، علم ماهو التوحيد الذى أرشد إليه الإسلام ، وعرفه أولئك الصحابة الكرام ، فأرادوا أن يمحوا به كل أثر من آثار الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب ، وحسب العاقل دليلا على هذا قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لكعب الأحبار لما أشار عليه بجعل المصلى إلى الصخرة . لقد ضاهيت اليهود يا كعب إلى قوله اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة ولكننا أمرنا بالكعبة : وقد مر الخبر فى الفصل السابق نقلا عن الطبرى ، ولأجله عقدنا هذا الفصل ، ليكون به عبرة وذكرى لقوم يعقلون .

* * *

تقدم معنا كيف تدرج العرب إلى الوثنية حتى أنسوا بلمس الأحجار ، وعكفوا على عبادة الأصنام، وأن أصول التوحيد عند أرباب الأديان كلها

أفسدت تدريجا ، كما حصل فى دين العرب وإنما كان مبدأ هذا التدريج الاستسلام للشعور ، بوجوب تعظيم مظهر من مظاهر المادة يظن أن له صلة بما فوق المادة كالمعابد مثلا ثم يأخذ هذا الشعور ينمو ، ويتعدى المظهر الأول إلى غيره ، ويتدرج فى أطوار التعبد له، حتى تنقلب صورة التوحيد المرتسمة على صفحات الضمائر ، إلى صورة من صور المادة متجسمة للحس ، ويسجل الإيمان بإله واحد فوق المادة ، إلى آلهة شتى كلها من المادة أولها صلة بها ، وهذا هو الشرك التام الجلى ومبدؤه ذلك الشرك الخفى ، ولم تكن دعوة الإسلام قاصرة على استئصال الوثنية فقط ، بل كان من مقاصدها الأولى والغايات التى ترمى إليها ، من أولاها بالاهتمام ، وأجدرها بالعناية ، تطهير النفوس من كل أثر من آثار ذلك الشعور الفاسد ، ولو أشبه بدقته دقة الجرثومة الحية التى لا ترى إلا بالنظارة المكبرة ، إلا أنها إذا وجدت منبتاً صالحا لها تولد عنها ما لا يحصى من الجراثيم فى بضع ثوان فمن قال بخلاف ذلك أو ظن أن الإسلام يتسامح فى تلك الجزئيات ، أو يبيح تعظيم أى مظهر من مظاهر المادة تعظيما دينيا ، أخطأ ونسب العبث إلى دين الله لهذا ولما أشرب قلب عمر (رضى الله عنه) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الأحبار حتى فى خلعه نعليه عند دخوله المسجد الأقصى ، وآخذه على عمله ذلك كما آخذه على رأيه فى جعل المصلى إلى الصخور كما رأيت ، وسترى من أخباره بهذا الصدد إن شاء الله .

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ، ومن أمعن النظر فى قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى إحدى خطبه التى مر إيرادها فى هذا الكتاب ، وهو (إن الله لا شريك له ، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ، ولا يصرف عنه سوءا إلا بطاعته واتباع أمره) يعلم كيف كان أولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيد ، ويقتلعون من أعماق نفوسهم أصول الشرك ، ورحم الله امرءاً حاسب نفسه ، وعرف دينه وتأدب بأدب النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ونبذ بدع النفوس وأهواءها ، وتنكب مواضع

الزلل ، ومواقع الخطل ، وسوء الفهم والله ولى الرحمة ، وهو القاهر فوق عباده .

فتح حماه واللاذقية وقنسرين

قيل إن هذه البلاد وما يليها شمالا إلى أنطاكية ، فتحها أبو عبيدة قبل مسيره من حمص إلى أيلياء أى سنة (١٥) ، وقيل إنه فتحها بعد عوده من إيلياء سنة (١٦) وعندى أن هذا ، هو الأصح .

سار أبو عبيدة إلى معرة حمص ، فصالحه أهلها على صلح حمص ، سار إلى حماة فصالحه أهلها أيضاً ، وبعث خالد بن الوليد إلى قنسرين وسار هو إلى اللاذقية ، وقيل بل سار إليها عبادة بن الصامت،فامتنع عليه أهلها أياماً ، فاحتال على فتحها بأن أمر الجند أن يحفروا أسرابا فى الأرض ، كل سرب يستر الرجل وفرسه ، فاجتهد المسلمون حتى حفروها ، ثم إنهم أظهروا القفول إلى حمص فلما جنّ عليهم الليل عادوا إلى معسكرهم وحفائرهم ، وأهل اللاذقية غارون يرون أنهم قد انصرفوا عنهم ، فلما أصبحوا فتحوا بابهم وخرجوا وأخرجوا سرجهم ، فلم يرعهم إلا تصبيح المسلمين إياهم ودخولهم فى باب المدينة عنوة ، فهرب قوم من نصارى اللاذقية ، ثم إنهم طلبوا الأمان على أن يتراجعوا إلى أرضهم ، فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا، وتركت لهم كنيستهم ، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة ثم وسع بعد .

ثم أخذ عبادة يتمم فتح عمالة اللاذقية بأمر أبى عبيدة ، ففتح جبلة وانطرسوس وبانياس والمرقب وغيرها ، وكل هذه البلاد لم تزل معروفة إلى الآن بهذا الاسم وكان فتحها سنة (١٥ ﻫ) أو سنة (١٦) .

وأما خالد بن الوليد فإنه لما وصل إلى حاضر قنسرين زحف إليه القائد ميناس بجيش الروم ، فاقتتلوا قتالا عظيما وقتل ميناس ،

فأما الروم فماتوا على دمه ، وأما أهل الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزلوه وهم فى خيم الشعر ، ثم ابتنوا المنازل فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الجاف ، فتركهم خالد فأسلموا بعد ذلك بيسير ، وقيل أسلموا فى خلافة المهدى العباسى ، ولما فرغ من حاضر قنسرين سار إلى حاضر حلب[1] فتحصن أهلها منه فقال : إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا، فنظروا فى أمرهم وما لقى أهل حمص فصالحوه على صلح حمص ، فأبى إلا خراب القلعة فأخربها .

ولعمرى إن قوماً بلغ اعتقادهم بالنصر إلى هذا الحد لقوم لا تعصم منهم العواصم ولا الحصون ، ولا تثبت أمامهم الجيوش وإنما حملهم على هذا الاعتقاد يقينهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر ، إذا نصروا الحق وتمسكوا بعرى الإيمان فكانوا يداً على من ناوأهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الأخيار ، الذين جمعتهم كلمة الإسلام على الأخوة التى لا تنفصم عروتها ، والطريق التى لا يضل سالكها إلا إذ انحرف عنها وزاغ عن صراطها .

مسير هرقل إلى القسطنطينية :

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد إنطاكية ، ثم ارتحل على قول بعضهم إلى الرها (أورفا) فى الجزيرة ليجمع منها جيشا يمد به أهل حمص قبل سقوطها فى يد المسلمين ، وكان المسلمون كما قدمنا فى غير هذا المحل يقظين لا تخفى عليهم من أمر الروم خافية ، ولما استشعروا بمقاصد هرقل

---

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل إن هذه المدينة أخربها الملك باسيليوس ثم تجددت على يد الأمراء من بنى بسيس التنوخية ثم أخربها عن آخرها تاج الدولة ، وأما حاضر قنسرين فقرية قريبة منها .

أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك من قبل قرقيسيا ، وعبد الله بن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين ، وطووا بلاد الجزيرة وخلفوا وراءهم عقبة لئلا يؤتوا من خلفهم .

وكذلك أدرب من قنسرين مما يلي الشام خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم بجيش من المسلمين ، وعندئذ رحل هرقل إلى القسطنطينية وعاد القواد إلى أماكنهم دون حرب ، ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما فعله خالد قال : أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني : (١) وقد كان عزله كما مر في سيرته ، وعزل المثنى بن حارثة الشيباني وقال : إني لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما .

وأما هرقل فإنه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن ههنا خير منا معك ، وتفرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا إلى مدينتهم التي كان أول من دخلها منهم ، وأنبح كلابها وأنفر دجاجها زياد ابن حنظلة وهو صحابي ، وكان مع عمرو بن مالك مسانده .

وكان إدراب المسلمين إلى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦ .

ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسيراً في أيدي المسلمين فأفلت ، فقال له : أخبرني عن هؤلاء القوم ، فقال له أحدثك كأنك تنظر إليهم ، فرسان بالنهار ، ورهبان بالليل . ما يأكلون بذمتهم (٢) إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام : يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه . فقال هرقل : لئن صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين .

هذه الصفات السامية التي قل أن تجتمع في فاتح من الفاتحين ، هي التي

---

(١) وفي رواية أن عمر قال هذا القول لما فتح خالد قنسرين ، وقد ذكرناه في سيرة خالد .

(٢) يعني من أهل البلاد التي دخل أهلها في ذمتهم .

مهدت لأولئك الأبطال تدويخ الممالك الشاسعة وقلب كيان الدول لأعدادهم القليل ، وحدتهم الضعيفة بإزاء عدة الروم والفرس ، وعديدهم وضخامة ملكهم ، ومناعة حوزتهم ، ولهذا استشعر هرقل بضعف بنيانه وتقلص ظل سلطانه فيئس من عود ملكه فى الشام وما يليها إليه ، فوقف لما باء عنها بالخسران وعاد بالخذلان وقال مودعاً لتلك البلاد الزاهرة والملك العريض .

عليك السلام يا سورية ، سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبداً إلا خائفاً ، حتى يولد الولد المشئوم ويا ليته لا يولد ، ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم ، وفى رواية أنه قال :

لقد كنت سلمت عليك تسليم المسافر ، فأما اليوم فعليك السلام ياسورية تسليم المفارق ، ولا يعود إليك رومى أبداً إلا خائفاً ، حتى يولد الولد المشئوم وليته لم يولد .

فتح حلب وأنطاكية وغيرهما :

بعد أن تم لأبى عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها سار إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهرى فوجد أهلها متحصنين فنازلهم ، فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم ، والحصن الذى بها ، فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد ، وكان الذى صالحهم عليه عياض ، ولما انتهى إليهم أبو عبيدة أنفذ صلحه . وقيل إن أبا عبيدة لم يجد أحداً من المقاتلة بحلب ، وإن أهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من أنطاكية ، ولما تم لهم الصلح عادوا إلى مدينتهم ، وبينما أبو عبيدة فى حلب أتاه الخبر بعصيان أهل قنسرين ، فوجه إليهم السمط بن الأسود الكندى ، فأخضعهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها وسار إلى أنطاكية ، وكتب إلى عمر بذلك فبعث إليه كتاباً يلومه فيه فرجع وفتحها .

ثم قصد أبو عبيدة حاضر حلب ، وكان كحاضر قنسرين ، يجمع أصنافا من العرب ، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ، ثم إنهم أسلموا بعد ذلك ، وحاولوا بعد وفاة الرشيد العباسى الاستيلاء على حلب ، فاستنجد أهل حلب من حولهم من العرب ، ولم يستطيعوا استنجاد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الأمين فيها . فأنجدهم العباس بن زفر الهلالى ونازل أهل الحاضر فرحلوا عنه إلى قنسرين ، ثم غدروا بأهل قنسرين فجلوهم هؤلاء عن بلدهم ، ومن ثم تفرقوا فى البلاد ، فقوم نزلوا تكريت ، وقوم أرمينيا وغيرها .

ثم قصد أبو عبيدة إنطاكية وكانت ذات خطر وشهرة ، وقد التجأ إليها كثير من فالة قنسرين وغيرها من البلاد ، وتحصنوا فيها ، وبعثوا بجيش منهم إلى مهروبة على فرسخين من إنطاكية لصد المسلمين ، فلقى أبو عبيدة هذا الجيش ففضه وألجأهم إلى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها فصالحوه على الجزية والجلاء ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حال منهم ديناراً وجريب حنطة ، وسار عنهم فنقضوا ، فوجه إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهرى ففتحها على الصلح الأول . ومن يرى أن فتح إنطاكية كان قبل إيلياء يقول إنها نقضت بعد رجوع أبى عبيدة إلى فلسطين، فوجه إليها من إيلياء عمرو بن العاص ففتحها ، وممن قال هذا البلاذرى فى فتوح البلدان وما خاله صواباً .

وكانت إنطاكية بسبب موقعها الجغرافى ، وحصانتها وتفوقها على مدن سورية ، عظيمة الذكر والأمر عند عمر وعثمان رضى الله عنهما ، ولما فتحت كتب عمر إلى أبى عبيدة أن يرتب فيها جيشاً من المسلمين ، من أهل الحسبة والرأى يرابط فيها وألا يحبس عن ذلك الجيش العطاء ، وهكذا فعل بعده عثمان رضى الله عنه ، فقد أمر معاوية وكان يومئذ والى الشام أن يلزمها قوماً من المسلمين ، وأن يقطعهم القطائع ففعل .

وبلغ أبا عبيدة بعد فراغه من أمر أنطاكية أن جمعاً من الروم بين معرة مصرين وحلب ، فسار إليهم وقاتلهم وفرق جمعهم ، ثم فرق خيوله فى أنحاء البلاد ففتحت بوقا وسرمين وتيزين وجميع أرض قنسرين ، ثم سار أبو عبيدة إلى حلب وقد نقض أهلها فنازلهم وأخضعهم ، ثم سار أبو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً وفتح تل عزاز ومنبج وسير عياضاً وحبيباً فى جيشين من المسلمين ، فأتما فتح سورية إلى حدود الفرات شرقاً وآسيا الصغرى شمالا وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا ، وضم إليه جنداً من المسلمين ، وبعث جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسى إلى أطراف آسيا الصغرى ، فلقى جمعاً للروم معهم عرب من تنوخ وغسان يريدون اللحاق بهرقل ، فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الأشتر النخعى مدداً من قبل أبى عبيدة ، وعادوا جميعاً سالمين غانمين ، وسير جيشاً آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها وأخربها ، وعاد ، والظاهر أن الذى دعاه إلى إخرابها عدم وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات أهل الجزيرة والروم ، وإلا فربما يكون أخرب حصنها فقط ، لئلا يعتصم به أهلها بعد ، وينتقضوا على المسلمين .

محاولة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين :

هكذا انقضى أمر الروم فى البلاد السورية ، وتم للمسلمين فتحها بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ، ولاقى جند المسلمين فى غضونها من العناء ، وبذلوا من الدماء ماجعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً ، ومقامها فى نظرهم عالياً ، وكان لرجالات قريش وأشرافها فى حرب الشام خاصة من الأثر العظيم والبلاء الجسيم مالم يكن لقوم غيرهم فى الفتوحات الأخرى ، وقتل منهم فى وقائع الشام عدد كبير لاسيما فى وقعة اليرموك ، وكان ممن قتل منهم عكرمة بن أبى جهل وابنه عمرو وخالد بن سعيد وهشام بن العاصى وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها ،

وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال أيضاً ، فقد روى الطبرى أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية بنت أبى سفيان (القرشية) فى جولة . وقال البلاذرى . وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالا شديداً ، وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان تقول: عضدوا الغلفان بسيوفكم :

وبالجملة فقد لاقى المسلمون فى فتح الشام أهوالا شداداً ، وصادموا عدواً استمات فى الدفاع عن حوزته ، والذب عن سلطانه ، إذ لم يكن هرقل وجنوده بأقل ثباتاً وإقداما وجرأة من العرب ، يدلك على هذا ماظهر من الروم فى الوقائع الأولى التى حدثت فى اليرموك ودمشق وفحل وأجنادين وغيرها ، وعدا هذا فإنه لما استقرت قدم المسلمين بالشام ، وتمكن سلطانهم منها فى الشرق والغرب ، وسار أبو عبيدة عن إنطاكية بعد أن استخلف عليها وعلى قنسرين وحلب وغيرها من استخلف من القواد ، لم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على البلاد السورية فى سنة (١٧ هـ) بتحريض أهل الجزيرة له ، ووعدهم له بالمظاهرة والنصرة ، فلم يفجأ المسلمين إلا وهرقل قادم بجند كثيف إلى حمص من طريق البحر ، واستمد أهل الجزيرة وكاتب أهل حمص بالخروج على المسلمين فأبوا عليه وأرسلوا إليه ، إنا قد عاهدنا المسلمين ، فنخاف ألا ننصر ، وكان أبو عبيدة فى حمص فاستمد خالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم أهل قنسرين بعده إلى هرقل ، وحاصر هـــذا أبو عبيدة فى حمص ، فاستشار أبو عبيدة القواد فأشار عليه خالد بالمناجزة ، وأشار غيره بالكتابة إلى عمر ، ومطاوله هرقل ريثما يأتى منه الجواب فعمل برأيهم ، وكتب إلى أمير المؤمنين يستمده ، وجاءت لهرقل الجيوش والأمداد ، وكان أمداد الجزيرة وحده ثلاثين ألفاً على مارواه الطبرى ، وبلغ الروم من المسلمين كل

مبلغ ، ووصل الكتاب إلى عمر فكتب إلى سعد بن أبى وقاص فى العراق إن أبا عبيدة قد أحيط به ولزم حصنه ، فبث المسلمين بالجزيرة وأشغلهم بالمسلمين عن أهل حمص ، وكان عمر أعد فى كل مصر قدراً من الخيل وكان فى الكوفة أربعة آلاف فرس ، فلما وصل كتاب عمر إلى سعد بعث بالجند مع القعقاع بن عمرو ، وعبد الله بن عتبان ، وسهيل بن عدى ، وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد إلى العراق بعد فتح الشام لأنه من جند العراق ، وأشار عليهم بأمر عمر بن الخطاب أن يسلك كل أمير طريقاً إلى الجزيرة ، فيقصد واحد قرقيسياء ، والآخر الرقة ، والثالث نصيبين ، والرابع حران والرها ، واهتم لهذا الأمر عمر بن الخطاب فخرج من المدينة مدداً لأبى عبيدة حتى نزل الجابية ، وكان القعقاع تعجل بأربعة آلاف فارس إلى حمص ، ولما بلغ الروم ذلك انفضوا إلى مدائنهم ، وبادروا المسلمين إليها ، فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فمنعوهم عن أمداد هرقل ، فدب الفشل فى جنوده ، وراسل طائفة من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم أو الهزيمة ، وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعلو همته لا يحب الغلبة إلا بفل صفوف الأعداء ومناجزتهم فى الهيجاء ، فأرسل إلى تنوخ ، والله لولا أنى فى سلطان غيرى ما باليت أأقللتم أم أكثرتم ، أو أقمتم أو ذهبتم ، فإن كنتم صادقين فانفشوا[1] كما انفش أهل الجزيرة فوعدوه بالهزيمة إذا خرج إليهم المسلمون وقال المسلمون لأبى عبيدة قد تفرق أهل الجزيرة وندم أهل قنسرين وواعدوا من أنفسهم وهم العرب فاخرج بنا ، هذا وخالد بن الوليد ساكت فقال له أبو عبيدة مالك لا تتكلم ، فقال : قد عرفت الذى كان من رأيى فلم تسمع من كلامى : قال : فتكلم فإنى أسمع منك وأطيعك : قال : فاخرج بالمسلمين فإن الله تعالى قد نقص من عدتهم (يعنى الروم) وبالعدد يقاتلون وإنما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تحفلك كثرتهم .

---

(١) يقال انفش الرجل أى فتر وكسل .

روى الطبرى بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا ، فجمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال .

أيها الناس ، إن هذا يوم له ما بعده ، أما من حى منكم فإنه يصفو له ملكه وقراره ، وأما من مات منكم فإنها الشهادة ، فأحسنوا بالله الظن ، ولا يكرهن إليكم الموت أمر قد اقترفه أحدكم دون الشرك ، توبوا إلى الله وتعرضوا للشهادة ، فإنى أشهد وليس أوان الكذب ، أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة .

وكأنما كان فى الناس عقل[1] تنشطت ، فخرج بهم وخالد على الميمنة ، وعباس على الميسرة وأبو عبيدة فى القلب ، وعلى باب المدينة معاذ بن جبل ، ونشب القتال فإنهم لكذلك إذ قدم القعقاع متعجلا فى مائة ، وانهزم أهل قنسرين بالروم ، فركبهم المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنوده بالخيبة وظهر من يقظة المسلمين واستعدادهم، واهتمام أمير المؤمنين بهم فى هذه الحادثة ما رأيت مما لا يظن بقوم مثلهم حديثى عهد بالبداوة . ولما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة وخطبهم ، وقال لا تنكلوا[2] ولا تزهدوا فى الدرجات ، فلو علمت أنه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث .

وتوافى إليه آخر أهل الكوفة فى ثالث يوم من يوم الواقعة ، فكتب المسلمون إلى عمر وهو بالجابية بالفتح وبقدوم أهل الكوفة بعد ثلاثة ، وطلبوا منه الحكم فى ذلك ، فكتب إليهم أن أشركوهم وقال : جزى الله أهل الكوفة خيراً ، يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار .

* * *

---

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير

(٢) قال فى القاموس نكل نكص وجبن .

ما كل حديث تحدث به العامة وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس:

كل مسلم أكتنه كنه الدين الإسلامي ووقف على حكمه وأسراره ، يرى من آياته العظمى فى الترغيب والترهيب ، ما لو أحسن استعماله ووضع فى موضعه لكفى لإزعاج النفوس الشريرة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها ، وأمعنت فيها ولجعل النفوس البارة نوراً على نور ، وألبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلى ، وقد جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثاً للنفوس على العمل الصالح ، رجاء الثواب الأخروى الذى أعده الله لعباده الصالحين ، لا ليكون وسيلة لاستدراج النفوس فى مدارج الاستباحة ، طمعا فى عفو الله ، لهذا جاء بإزاء الترغيب بالترهيب لترتسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب ، فيكون لها منها داع إلى الخير يذكرها بالثواب ، ويمكن منها الرغبة فيه لا إلى حد الطمع والغرور ، ثم الاستدراج فى الشرور وزاجر عن الشر يذكرها بالعقاب ويمكن منها الرهبة منه ، لا إلى حد الانقطاع إلى تقويم أود النفس ، وتعطيل وظائف الحياة ولا إلى حد اليأس والقنوط ، ثم الاسترسال فى الشهوات واقتراف المنكرات على ذلك الأساس بنى الترغيب والترهيب فى الإسلام ، وكل ما جاء منه فى الحديث النبوى فالمراد منه عين ما أراده القرآن ، ولكن ما الحيلة وقد أولع كثير من علماء المسلمين بالإفراط فى الوعظ ترغيباً وترهيباً ، وحملوا عامة الناس على طريقتهم فى فهم الدين ، فأكثروا من حمل الحديث وروايته دون التفهم له ، والعلم بمقاصده ووضع كل شيء منه فى محله ، والتفريق بين صحيحه وموضوعه ، حتى أغروا العامة بعقيدة الإباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة ، كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والأيام وفضائل التلاوات ، وجلها إن لم نقل كلها من الموضوع الذى تستدرج به العامة للاستباحة لاعتقادهم بأن من صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ، ومن تنفل بيوم كذا محيت سيئاته إلى كذا ، ولقد بلغ ببعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد النبوية من

الفضائل ، مالم يجعلوه للقرآن فقالوا إن البيت الفلانى منها لشفاء الأسقام ، والآخر لمحو الذنوب والآثام ، والثالث للنجاة من ظلم الحكام ، فليت شعرى إذا اعتقد العامى أن تلاوة بيت من قصيد يكفى لمحو كل مايقترفه فى يومه من الآثام ، فإلى أية درجة ينتهى فساد أخلاقه وشرور نفسه ، وماذا ينفعه القرآن بأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، وحكمه وأحكامه .

اللهم إن هذا لغاية الاستهانة بالدين ، والجهل بمقاصد الإسلام ، ومنشؤه اضطراب الأفهام ، وتلبس الحقائق بالأوهام ، منذ أخذ الوضاعون بالكذب على رسول الله ﷺ ، وأدخلوا فى الدين ما ليس منه ، يضاف إليه الإكثار من حمل الحديث على غير تفقه فيه ، ووضع له فى مواضعه التى أرادها الشارع وقصدها الإسلام ، ولو تتبع العلماء سيرة الصحابة الكرام سيما خاصتهم الذين لازموا النبى عليه الصلاة والسلام ، وفهموا هذا الدين حق الفهم ، لرأوا كيف أنهم كانوا يقلون من رواية الحديث إلا للخاصة ، أو ما تعلق منه بالأحكام حتى بلغ بعمر رضى الله عنه أن كان ينهى عن رواية الحديث ، ويقول عليكم بالقرآن كما سترى بعد ، وما ذلك إلا خوف الكذب على رسول الله ﷺ ، إذا كثرت الرواية والنقل ، وخوف افتتان العامة بما ليس لهم به علم ، وبما لم يتفقهوا فيه من الحديث .

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة ، وعلى جانب من التفقه فى الدين والورع والتقوى ، دعا النبى صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الأمه ، وقد سمع من رسول الله ﷺ ، حديثاً ربما لم يسمعه منه أحد من الصحابة وأسمعه بعض الخاصة ، فرأى هذا الأمين أن يطوى هذا الحديث بين الجوانح ، ويضن به على العامة ، كما ضن به عليهم رسول الله ﷺ ، لأن عقول العامة يلابسها الاغترار ، ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات ،

فيهم بالوعيد أولى ، وبإلزامهم ظواهر الشرع أحرى ، ولكن لما ألجأته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين فى حمص ، ورأى منهم فتوراً عن ، الحرب لا لوهن فى نفوسهم ، أو جبن أصابهم ، كلا وإنما هو لرهبة الخالق التى تمكنت من أفئدتهم وقلوبهم ، وأخافتهم من الموت لا لذاته بل لما بعده ، قام فخطب فيهم وتلا عليهم الحديث وهو (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) استحثاثاً لهممهم ، وتخفيفاً لروعهم مما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه ، عن ذنوب اقترفوها مما دون الشرك إذا تابوا وأنابوا .

قال لهم هذا وهو يظن أن هذا الحديث لا يتعدى أسماعهم ، لاعتقاده أنهم إذا خرجوا لمكافحة الروم لا يبقى منهم أحد يحدث به أو يلابس نفسه أثر منه ، لكثرة من كان على حصارهم من جند الروم ، ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن العدو ندم على أن حدثهم بذلك الحديث ، وخشى من أن يعلق فى نفوسهم شىء منه ، مع أنه علقه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال .

لا تتكلوا ولا تزهدوا فى الدرجات ، فلو علمت أنه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث .

وتالله إن قوما بلغ بهم الإيمان الصادق واليقين الثابت ، ذلك المقام ، مقام الرهبة من الله ، ومن الوقوف بين يدى قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين ، وأخلص فى اليقين ، من خاصتنا ومع هذا فقد ندم أبو عبيدة على أن حدثهم بذلك الحديث ، فليت شعرى كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط فى المحدثين وحملة علوم الدين ، ألا يشترط الوقوف على مقاصد الإسلام ، والتفقه فى الحديث والعلم بحالة المخاطبين ، واجتناب الغلو معهم

فى الترغيب والترهيب ومراعاة ما يلابس عقولهم من القوة والضعف ، وأنى يتيسر هذا وقد نتج عن كثرة الرواية ، وحمل الحديث بلا تفقه فيه زيغ العقول عن مقاصد الشرع ، واجتراء الكذابين على وضع الحديث ، وشحن الكتب الإسلامية بما لا يرضاه الله والرسول ، وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولهذا نهى فى عصره الذى هو خير العصور عن الإكثار من رواية الحديث فما بالك بما يلى عصره من العصور .

ذكر الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسى فى كتابه جامع بيان العلم ، وفضله فى باب ذكر من ذم الإكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه ما نصه .

عن ابن وهب قال سمعت سفيان بن عيينة يحدث عن بيان عن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر إلى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم : قالوا نعم ، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشيت معنا : فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جودوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم : فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب اه .

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل ما نصه : قول عمر إنما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن نخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه ، إذ هو الأصل لكل علم ، هذا معنى قول أبى عبيد فى ذلك : ثم قال بعد ذلك أيضاً : إن نهيه عن الإكثار وأمره بالإقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

إنما كان خوف الكذب على رسول الله ﷺ ، وخوفاً أن يكونوا مع الإكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه ، لأن ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط ، الذى لا يؤمن مع الإكثار ، فلهذا أمرهم عمر من الإقلال من الرواية اهـ .

القواد الذين حضروا فتوح الشام :

ممن كان له البلاء الحسن من القواد فى فتوح الشام غير القائد العام الذى كان خالد بن الوليد ، وبعده أبو عبيدة بن الجراح ، خالد بن سعيد ، وعمرو ابن العاص ، ويزيد بن أبى سفيان ، وأخوه معاوية ، وحبيب بن مسلمة الفهرى ، وعياض بن غنم الفهرى ، وشرحبيل بن حسنة ، وكل هؤلاء من قريش إلا الأخير فإنه حليف بنى زهرة من قريش ، وأما غير هؤلاء ممن ليسوا من قريش فهم ذو الكلاع الحميرى ، والقعقاع بن عمرو [1]، والسمط ابن الأسود الكندى وعلقمة بن مجزز ، وعلقمة بن حكيم الفراسى ، وعبادة ابن الصامت ، ومالك بن الأشتر النخعى ، ومسروق بن فلان العكى ، وأبو أيوب المالكى وغيرهم .

هكذا تم فتح هذا القطر السورى ، لأولئك القواد البواسل ، وقد رأيت من حسن ترتيبهم للجيوش ، وإلمامهم بطرق البلاد ، وتفننهم بأساليب الحرب ، وقهرهم للعدو ، مايدل على علو كعبهم فى فن الحرب ،وخبرتهم بالبلاد حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للأمراء فى كيف يسيرون وأى المسالك يسلكون ، وأى البلاد يقصدون ، كأنما كان ينظر إلى هذا القطر على خارطة مصورة بين يديه ، والعلة فى هذا أن القطر السورى بسبب

---

(١) القعقاع وعياض هما من جند العراق لا الشام، ووفدا مع خالد بن الوليد أيام مجيئه من العراق وعاد القعقاع بعد فتح دمشق ، وعياض بعد فتح أنطاكية وقيل قبلها إلى العراق .

اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان كجزء طبيعى منها ، عرف العرب طرقه وبلاده وأحواله كافة ، كما عرفوا نفس الجزيرة ، يضاف إليه أن قسما عظيما منه كان ماهولا بالعرب من مضر ، وكانت صلة الاختلاط والمتاجرة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد إلى أجيال متطاولة قبل المسيح ، وكانت قوافل قريش قبل الإسلام تتردد إلى سورية أكثر من غيرها ، لهذا كان كثير من الصحابة، ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها ذوى علاقة تجارية بسكانها .

خلاصة جغرافية ونظرة اجتماعية :

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سورية أن نأتى على خلاصة جغرافية للبلاد السورية ، نضمنها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديماً وحديثاً ، مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه وجبايته ، كل ذلك على وجه الإجمال الذى يسعه المقام ، إذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة . . فنقول :

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (كيليكا) من آسيا الصغرى ، وشرقا الفرات والبادية ، وجنوباً جزء من بلاد العرب ، ويقال له تيه بنى إسرائيل ، وغرباً بحر الروم أى البحر المتوسط ، وقد قام فى هذا القطر حكومات كثيرة تعددت تعددت بتعدد الأقوام القاطنين فيه كالفينيقيين (١) والحثيين والأموريين

---

(١) الفينيقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية ، وكانت عاصمتهم القديمة صيدا ثم ابتنوا صورا حوالى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بعد خراب صيدا ، وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار ، فاستعمروا معظم جزائر البحر الأبيض وذهبوا إلى سواحل أفريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة قرطاجنة الشهيرة التى يقال إنها كانت قرب تونس ، وقطعوا مضيق جبل طارق إلى المحيط ، وبالجملة فقد كانوا أعظم دول البحار فى عهدهم ، ويشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا لهذا العهد .

والكنعانيين وغيرهم، من الشعوب ، ثم رحل إليه بنو إسرائيل من مصر ، وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منه ، وغزاه كثير من الدول القديمة ، كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس والرومانيين وعرب الإسلام ، ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومانيين ودولة الإسلام : فقد كان ابتداء دولة الرومان من سنة ٦٥ ق . م إلى سنة (٦٣٣ م) ، حيث ابتدأ الفتح الإسلامي في البلاد السورية ، وكانت نهايته (٦٣٨ م) أو (١٧ هـ) وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وقد كان على عهد الرومانيين مقسوما إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، وهو فلسطين وتوابعها ، وأنطاكية وتوابعها ، وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والقسم الجنوبي يسمى فلسطين . فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ، ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم الشام ، وقسمه عمر (رضي الله عنه) إلى أربعة أقسام ، القسم الأول الثغور ، وسماها هارون الرشيد العواصم ، وهي حمص وقنسرين وحلب وأنطاكية وحاضرة هذا القسم حمص ، والقسم الثاني دمشق، والقسم الثالث الأردن وحاضرته مدينة الأردن (طبرية) ، والقسم الرابع فلسطين وهذا قسمه إلى قسمين قسم حاضرته الرملة ، وقسم حاضرته إيلياء (القدس) وكل قسم من هذه الأقسام يسمى جنداً ، وتحت كل قسم أقسام تدعى كوراً ، وسيأتي الكلام على هذا بالتفصيل في غير هذا المحل إن شاء الله .

وقد توفرت في هذا القطر أسباب المكاسب الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة ، لخصب أراضيه وموقعه الجغرافي ونشاط أهله للعمل ، إلا أن هذه الأسباب كانت تعلو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة في هذا القطر ، ومن المقرر أن عمران الممالك تابع لترقي الدول ، وقد كانت دولة الرومان الشرقية على عهد الفتح الإسلامي دولة لحقها الهرم والعجز ، وعفت من ممالكها آثار التمدين الروماني العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الديني ، والاختلاف المذهبي الذي أودى بحياتهم السياسية ، وفرق جامعتهم

الملية ، ولما تولى الإمبراطورية هرقل سنة (٦١٠ م) كان أمر المجادلات الدينية فى أشده ، فخاض الإمبراطور نفسه فى غماره ، واشتغل بالأمور الدينية ، تاركا أمور الدولة السياسية لوزرائه وأرباب دولته ، ومن ثم ظهر الوهن فى الدولة فى أتم مظاهره ، فغزتها دولة الفرس واكتسحت جزءاً من ممالكها عظيما ، وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر ، وكاد الإمبراطور هرقل يزايل بكرسيه الإمبراطورى القسطنطينية ، ويتخذ قرطاجنة عاصمة له ، لو لم يمنعه عن هذا العزم بطريرك القسطنطينية ، حتى نهض مرة ثانية بجنان ثابت لمحاربة الفرس واسترد منهم ماانتزعوه من ممالكه ، كما تقدمت الإشارة إليه فيما مر من هذا الكتاب .

ولا ريب فى أن ما أصاب هذه المملكة من التقهقر يومئذ كان لسورية منه حظ عظيم ، ونكبت كما نكب ذلك الملك العريض بسوء السياسة والضعف والانقسام ، لاسيما وأنها كانت حديثة عهد بمعاهد الفرس ، التى لم يكن مضى عليها لحين الفتح إلا بضع عشرة سنة : إذن فهذه البلاد لم تكن لما دوخها المسلمون راقية مراقى العمران ، ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان ، إلا أن استعدادها الطبيعى لقبول العمران ، وما فيها من بقايا المدنية الغابرة ، تكفل برقى أهلها فى مراقى السعادة ، مذ بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان .

نعم نحن ليس لدينا نص تاريخى واضح على مبلغ ماوصلت إليه هذه البلاد من الرقى ، على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين فى صدر الإسلام ، لما أن أخبار تلك العصور انتهت إلينا بالرواية ، ولم يكن تدوين التاريخ الإسلامى معنياً به فى ذلك العصر ، إلا أن هناك من الأدلة والأسباب ما يحملنا على الظن بل اليقين ، بأن البلاد السورية صارت يومئذ إلى أبعد غاية من غايات الترقى ، فى أصول المكاسب الثلاثة ، الصناعة والتجارة والزراعة .

من المعلوم بالبداهة أن العدل أساس العمران ، ومتى تنظمت أصول الجباية ، ورفع عن الرعية العسف ، وخفت المظالم ، وأطلق للأهلين عنان الحرية ، توفرت لهم أسباب الراحة ، ونشطوا من عقال الخمول ، فهبوا للأخذ بأسباب المكاسب ، وتبسطوا فى مناحى العمران ، وقد رأيت فيما مضى من أخبار الفتح كيف أن سكان البلاد كانوا يصالحون على مقدار معين من الجزية والخراج ، لم يتجاوز حد العدل والاستطاعة ، وروعيت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الأهلين ، وأن هذا القدر المعين فى عصر الفتح استمر على ماهو عليه مدة الخلفاء الراشدين والأمويين وصدراً من خلافة العباسيين ، وأن سببه محافظة الخلفاء على العهود التى بأيدى السكان ، ويضاف إليه تجنب تلك الدول لأسباب السرف لقرب عهدها بالبداوة ، وجدتها فى تأسيس الملك ، وعدم حاجاتها لهذا السبب إلى التعسف فى الجباية ، والإكثار من المظالم ، وقد كانت جباية الأقسام السورية الأربعة فى عهد الأمويين على ترقى العمران فى البلاد هى ما يأتى نقلا عن فتوح البلدان :

دينار	
١٨٠٠٠٠	الأردن
٣٥٠٠٠٠	فلسطين
٤٠٠٠٠٠	دمشق
٨٠٠٠٠٠	العواصم (وهى حمص وقنسرين وحلب وأنطاكية وتوابعها)
١٧٣٠٠٠٠	الجمع

وهذا المبلغ ليس بشيء بالنسبة لعمران البلاد يومئذ ، وربما بلغت جباية البلاد فى عصور تقهقرها أكثر من ذلك ، وجبايتها على تدنيها فى العمران ، وفقد الصناعة منها ، وضعف التجارة والزراعة فيها ، أكثر من جبايتها فى صدر الإسلام كما سترى .

وهذا دليل على تناهى الخلفاء يومئذ بالعدل ، وعدم عسفهم فى الرعية ، يضاف إليه أيضاً جلوس الخلفاء بأنفسهم للمظالم إلى عهد عمر بن عبد العزيز ، وإنصافهم للرعية ، وقيامهم على وسائل العمران ، وتمصير الأمصار وتأسيس الملاجىء ، كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بأبناء السبيل والمنقطعين ، وترتيبها فى الطرق من الحجاز إلى الشام ، ومنها إلى العراق ، وتأسيس معاوية لمدينة طرابلس الشام ، وتمصير سليمان بن عبد الملك لمدينة الرملة ، وتشييد الوليد بن عبد الملك الملاجىء للزمنى والمجذمين ، وأمره ببناء الفنادق للمسافرين ، فيما بين الأقطار المتباعدة ، كما صنع عمر بن الخطاب ، وعنايته أى الوليد بإصلاح الطرق المسهلة لنقل التجارة ، وإطلاق الخلفاء لحرية المعتقد بين الطوائف الوطنية من اليهود والنصارى ، وعدم انحياز أحدهم لفريق منهم دون آخر ، كما كان ينحاز ملوك الروم ، ويثيرون بين الرعية ثائرة التباغض والشحناء ، كل هذا وغيره من أسباب الراحة والأمن ، ودواعى الترقى والعمران ، يدلنا على رقى البلاد على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين أيضاً ، وتمتع أهلها بسعادة الراحة والعمران ، التى لم يتمتع بها هذا القطر فى عهد غير دولة المسلمين ، إلا قليلا على عهد الفينيقيين أيام مجدهم ، والرومانيين أيام تمدينهم .

ولما انقسمت دول الإسلام على بعضها ، وتداول هذا القطر السورى عدة من الدول كالفاطميين والأتراك والأكراد والجراكسة ، أخذ بالانحطاط تبعاً لانحطاط الدول الحاكمة ، وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره من الأقطار الإسلامية ، إذ هاجمته فى أواخر القرن الخامس من الهجرة جيوش الصليب ، واستعرت فى أرجائه نيران تلك الحروب المشئومة مدة جيلين كاملين ، الله أعلم بما أصاب فى غضونها هذا القطر من الخراب والتدمير ، ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها فى نصف القرن السابع للهجرة ، وتخريبهم

للمدن والأمصار وفعلهم فى البلاد وأهلها الأفعال الكبار ، وتلا ذلك هجوم تيمورلنك عليها فى أواخر القرن الثامن ، بعد اكتساحه لما فى طريقه من ممالك الإسلام ، وفعل فى سورية الأفاعيل ، وأجلى عن دمشق خاصة العلم والصناعة ، واستصحبهم معه فى عودته إلى سمرقند .

على أن موقع هذه البلاد الجغرافى ، وطبيعة أرضها المشهورة بالخصب ، وأهلها المعروفين بالجلد ، حفظ لها ذماء الحياة ، وأعان أهلها على تحمل المصائب ، فلم تنحط إلى الدرجة التى تفقد معها أصول المكاسب ، بل استمرت حلب ودمشق إلى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع العجم والهند ، وتعود بالبضائع الشامية بل والبضائع الغربية أيضا إذ كان هذا الطريق قبل فتح ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق .

وكذلك الصنائع فإنها بقيت حية نامية حتى فى العصور المتأخرة على عهد ملوك الطوائف ، يدلنا على هذا ما بقى منها وما لم يبق أيضا لوجود أثره الذى ينبىء عنه ، فأما الباقى منها إلى الآن فصناعة الأقمشة الحريرية والقطنية، كأقمشة اللبس المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو العزلية والألاجا والحامدية وغيرها ، وكأقمشة الزينة كالستاير والمتكئات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن المختصة بالزينة وأخصها الأطلس المعروف قديما بالدامسقوو ، إلى غير ذلك من أنواع الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والأحزمة ، كل هذا باق إلى الآن وهو فى أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومتانة النسيج وبهاء الألوان وتناسب النقش ، وقد اختصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من البلدان السورية كحلب وحماة وحمص ودمشق وطرابلس والذوق (من لبنان) وغيرها .

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصدف المعروفة (بالمفصص) وهى من الصناعة الخاصة بدمشق ، وقد ترقت الآن فتعدت الصدف إلى النقش بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لا يظنها الناظر إليها إلا منقوشة بالدهان، لتماسك الأجزاء الصغيرة والتحامها التحاماً لا يظهر منه أن النقوش إنما هى أجزاء صغيرة ملتصقة فى الخشب إلا بعد إمعان النظر فيها والتدقيق فى نقوشها .

وصناعة الصابون ومعاملها لم تزل تشتغل إلى الآن فى حلب ودمشق ونابلس وغيرها .

وصناعة النشا وفى دمشق معامل كثيرة لها تسمى القاعات ، لم تزل لهذا العهد تصنع كميات عظيمة من النشا إلا أنه قل تصديره إلى الخارج بسبب مزاحمة النشا الإفرنجى له فى البلاد التى كان يصدر إليها كمصر وغيرها .

وصناعة الدباغة وهى موجودة فى معظم المدن السورية ، إلا أنها ساذجة لم تترق ، إلا فى مدينة زحلة التابعة لجبل لبنان ، فإنها تحسنت الآن وكادت تضاهى الجلود التى تصنع فى زحلة الجلود التى تصنع فى معامل أوروبا .

وصناعة البناء والحفر فى الأحجار ، ونقشها نقوشاً ناتئة أو مجوفة ، وهى صناعة قديمة فى البلاد تمتد إلى زمن الفينيقيين ، كما يستدل على ذلك بالآثار الحجرية الباقية إلى الآن ، والظاهر أنها كانت تختلف باختلاف حال الدول ، وحبها للبذخ وميلها للعمران ، فالبناء فى عصر الفينيقيين ومن تلاهم من الدول فى سورية كان ظاهر الفخامة ، عظيم الضخامة ، متقن النقش والترتيب ، كهيكل بعلبك الذى بلغ الغاية فى إتقان البناء والتصوير الناتىء على الحجر الصلد ، ومثله هيكل تدمر أيضاً ، على أننا لم نر أثراً يشبههما لأواخر الدولة الرومانية ، ولما جاء الإسلام وتبسط الأمويون فى العمران وابتنى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ، ظهر ثانية فن إتقان

البناء وكان أجمل رواء منه فى عصر الرومانيين ، من حيث النقش الدقيق على الأحجار المعروف لهذا العهد بالحفر والتنزيل ، وأما فى القرون الوسطى الهجرية فقد انحطت هذه الصناعة انحطاطاً قليلا بدليل ما نشاهده منها فى بعض المساجد التى بنيت على عهد الملوك الجراكسة وغيرهم ، كجامع الملك الظاهر بدمشق ، ثم نهضت فى القرون المتأخرة ، وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيما حتى هذا العهد ، وقد بنى فى العام الماضى محراب للجامع الأموى كله من القطع الرخام الملونة الصغيرة ، فكانت على تناسب أوضاعها ، وإتقان صنعها ، وترتيب أشكالها معجزة من معجزات الصناعة ، ومثله المنبر الذى أقيم فى جانبه وعلى نمطه أيضاً .

وصناعة الزجاج وهى اليوم متدنية جداً ، لا تتعدى صنع القوارير الساذجة ، ومعاملها موجودة فى دمشق وغيرها .

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنب ، وهى مترقية عظيمة الخطر ، وتوجد مصانعها بكثرة فى دمشق ، وتصنع مع الندرة فى بيروت وحماة .

وصناعة النحاس ونقشه نقوشا ناتئة ومحفورة . وكانت فقدت منذ خمسين سنة ، ثم عادت بسبب كثرة رغبات الأوربيين بالآنية النحاسية التى من هذا النوع .

وصناعة الصاغة ، وهى الآن مترقية فى معظم المدن السورية .

وصناعة أدوات الخيل ، وهى مترقية ، وقد تناولت كثيراً من الصناعات ، كصناعة الهميانات والصناديق الجلد وغيرها ، فهذه الصنائع فى سورية ويوجد غيرها أيضاً مما لا أهمية لذكره ، وأما الصنائع التى اندثرت وإنما تدل عليها آثارها ، فهى صناعة القيشانى وكانت خاصة بدمشق ، والموجود منها لهذا العهد فى بعض المنازل والحمامات والجوامع يدل على ترقى هذه الصناعة فى العصور المتأخرة ترقيا عظيما ،

خصوصاً فى القرن التاسع والعاشر إلى الثانى عشر وفى جامع الشيخ محيي الدين العربى ، فى الصالحية ، الذى ابتناه السلطان سليم العثمانى فى أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية فى الإتقان ودقة الصنع ، وبهاء اللون ، وتناسق النقوش ، وكذلك الموجود فى جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ ﻫ) والموجود فى جامع السنانية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠ ﻫ) وقد دثرت هذه الصناعة فى القرن الماضى ، لانحصارها فى عائلة واحدة ضن آخر فرد منها بتعليم هذه الصناعة لسواه ، ومات فماتت معه والخبر عن هذا متواتر مستفيض إلى اليوم عند الدمشقيين ، والظاهر أن أصل هذه الصناعة فارسية بدليل نسبتها إلى قيشان المحرفة عن قاشان بلد فى فارس .

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً فى أعلى طبقة من الدقة ، وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية فى القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية ، وإنما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشانو) من التل المعروف بتل الباب الشرقى خارج دمشق ، لما اشترى من الحكومة هذا التل وأزاحه من بضع عشرة سنة ، فوجدناها تشابه ما اكتشفته جمعية البعثة الأثرية الفرنساوية فى مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة فى عهد الفاطميين والچراكسة[1] وقد شاهدت بعض هذه القطع المصرية عند صديق لى ألمانى ، وعليها اسم العامل بالعربية ، إلا أنى لم أعثر فى القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل .

---

(١) راجع مذكرات البعثة الأثرية الفرنساوية المطبوعة باللغة الفرنساوية فى عدة مجلدات .

صناعة الفسيفاء وهى قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب ، تنقش بها الجدران . بأن ترصف على طبقة من الجبس على أشكال شتى جميلة الصنع والترتيب تمثل الأنهار والأشجار والأبنية الجميلة ، وهى من أنفس الصنائع التى وجدت بدمشق ، وهى من مخترعات الروم ، بدليل أن الوليد بن عبد الملك لما ابتنى الجامع الأموى بدمشق استجلبها من القسطنطينية ، ورصف جدرانه كلها بالفسيفاء على أشكال شتى ، تمثل الجامع والأشجار والأزهار ، ولكثرة ما طرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانه الفسيفاء إلا قليلا منها فى الحائط المقابل للمنبر فى الحرم الداخلى ، والحائط الغربى والشمالى فى الحرم الخارجى ، فأما ما كان منها على الحائط الداخلى فقد تناثر بعضه فى حريق قد حدث ، وأما ما كان منها فى الحرم الخارجى فقد أدركته فى طفولتى ، وقد تشعثت القناطر الحاملة للجدار ، ولما أريد ترميمها اقتلع ما عليها من الفسيسفاء إما عمداً عن جهل بقيمته الأثرية ، وإما اضطراراً ، فكان يجمعه الأولاد وخدمة الجامع يومئذ ويبيعونه للسياح . والظاهر أن صناعة الفسيسفاء استمرت فى الشام إلى ما بعد القرن السابع ، بدليل ما يشاهد منها فى جدران بعض جوامع حلب ، وجامع الملك الظاهر بيبرس بدمشق ، إلا أن القطع غير متماسكة فى التركيب ، ولا منتظمة فى الرصف وليس لها من بهاء الصنع ودقة التناسب فى النقش ، ما كان لمثلها فى الجامع الأموى ، وهو يدل على انحطاط صناعة النقش بالفسيسفاء يومئذ انحطاط انتهى إلى تركها بتاتاً .

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها ويضرب المثل بلين متونها ومضائها ، وقد دثرت منذ أجلى تيمورلنك صناعها معه إلى سمرقند ، على أنه لم تزل إلى عهد قريب صناعة الأسلحة والسيوف موجوده بدمشق وغيرها من مدن سورية إلا أنها منحطة عن مرتبتها الأولى .

وصناعة الأثواب البيض المعروفة (بالخام الصالحانى) وكانت خاصة بدمشق ، وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار منذ كثر توارد البضائع الإفرنجية التى من نوعها إلى سورية ، وكان شيخ فى صالحية دمشق ومن أرباب هذه الصناعة طاعن فى السن قد بلغ من الكبر عتيا ، يقول إن الصالحية كانت منازلها كلها أشبه بمعمل واحد يحوك أهله تلك الأثواب البيض من القطن المغزول بالشام وإن أهل الصالحية جميعهم كانوا فى تنعم وغنى زائد من ثمرات هذه الصناعة ، فأصبحوا بعد ذلك فى ضنك وعسر لفقدها منهم أو لعدم الحاجة إليها .

وقال ذلك الشيخ إنه أدرك أسواق دمشق ، وكل سوق منها لأرباب صناعة مخصوصة كسوق الشماعين واللبادين والغلايينية (١) والخراطين ، وسوق السلاح والعلبية وسوق المراياتية والقباربن ، وغير ذلك من الأسواق التى لم يبق لصنائع أهلها إلا رسم دارس ، وعهد طامس اللهم إلا العلبية والخراطين فقد بقيت منهم بقية إلى الآن لعدم استغناء البلاد عن صناعتهم لهذا اليوم .

ومن الصنائع النفيسة التى فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعروف عند الدمشقيين (بالعجمى) ، وهو بأن ينقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالجبس الناتئ على أشكال بديعة ، ويذهب بعضها وبعضها يلون بألوان غير زاهية ، وهى من أدق الصنائع النفيسة وأجملها ، وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لامعاً ذا بهاء ورونق مهما تطاولت عليه السنون ، ويوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة فى منازل دمشق ، ومنها ماهو موجود فى منزل أحمد باشا العظم الذى يقصده السياح للفرجة ، وفى منزل عبد الله باشا ومنزل المرادى ، ومنها

(١) صناع الغلايين التى يستعمل بها التبغ .

مامضى على بنائه لهذا اليوم أكثر من مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذى فيه زاهياً جميلا كأنما صنع بالأمس . والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثارها التى لم يمض عليها إلى اليوم أكثر من ستين سنة ، وإنما أهملت فى السنين المتأخرة ، لكثرة ما تحتاج إليه من النفقات التى لا يتحملها الآن أهل الترف والبذخ للفقر الذى ألم بالبلاد منذ انحطت فيها أسباب المكاسب ، وقد تقدم القائمون ببناء الجامع الأموى لهذا العهد بعد الحريق الذى طرق عليه إلى بعض الدهانين الطاعنين فى السن الذين يعلمون شيئاً من هذه الصناعة بدهن السقفين اللذين يليان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان ، فأتقنوا صنعه إلا أنهم أدخلوا فيه بعض الألوان الزاهية ، تخالف أصل الصنعة إلا أنه جاء جميلا وافياً بالغرض لاعيب فيه .

هذا ما أردنا بسطه عن حالة سورية الصناعية والاجتماعية ، وبقى لنا كلام عن حالتها لهذا العهد من حيث الترقى أو الانحطاط سواء كان فى العلوم والمعارف أو فى الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الأشياء ومراتب أهل مدنها منها ، وعدد نفوسها والسكك الحديدية التى أنشأتها الشركات الأجنبية فيها ، إلى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم فى هذه البلاد ، وبما أنها تابعة فى هذا كله إلى المملكة العثمانية ، فقد أرجأنا الكلام على ذلك إلى الأجزاء التالية التى نخصصها لرجال الدولة العثمانية ، ونتكلم فيها عن هذه الدولة التى نضرع إلى الله تعالى أن يؤيدها بروح القوة والعلم ، ويصونها عن الزوال بأن يرشد رجالها إلى طرق الخير ، وينزع من نفوسهم حب الشهوات ، ويزرع فيها حب الملة والوطن ، لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط إلى دركات الضعف والاضمحلال ، التى أشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولى على نفوس العقلاء من أفرادها الذين بقى فيهم دماء من الحياة ، وأثر من الشعور ، فباتوا يتقلبون

على مضاجع الآلام ، وتساورهم الهموم الجسام ، ولاسبيل لهم إلى إصلاح الحال ، وتدارك خطر المآل ، لأنهم إذا نصحوا رموا بالخيانة ، وإذا صدقوا خرجوا فى عرف الجهلاء من عهد الأمانة وهى حالة ياربباه تؤذن بتسفل الأخلاق ، وضعف العقول وموت الوجدان ، فأنقذنا اللهم بفضلك منها ، وأرشدنا للتبرؤ من عارها الذى جعلنا عبرة فى الآخرين ، وألعوبة فى أيدى الغربيين ، إنك مجيب الدعاء .

— ٦ —

فتح العراق وفارس

انتداب أبى عبيد ووقعة الجسر وغيرها :

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر رضى الله عنه فى خلافته ، هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس ، فأما الخبر عن الأمرين الأولين فقد بسطناه فيما سبق ، وأما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثنى بن حارثة الشيبانى الذى خلف خالد بن الوليد على حرب العراق ، وفد على أبى بكر فى حال مرضه ليفاوضه فى شأن الهجوم على بلاد فارس ، ماداموا مختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهريراز الذى أدى موته إلى تملك سابور ثم قتله وقيام آزرميدخت ثم بوران ، إلا أن أبا بكر رضى الله عنه لم يسعه إجابة طلب المثنى لمرضه ، فأوصى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثنى بن حارثة لحرب الفرس ، فقام عمر فى صبيحة اليوم الذى دفن فى ليلته أبو بكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحد لأن وجه فارس كان أكره الوجوه إلى المسلمين ، وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم ، فلما كان اليوم الرابع عاد فانتدب الناس وتكلم المثنى بن حارثة فقال يهون على المسلمين خطب الفرس .

يأيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شق السواد (يعنى الشق الغربى الذى هو العراق العربى) وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها اهـ

وقام عمر رضى الله عنه فى الناس فقال :

إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة[1] ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال سبحانه (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون . اهـ

فكان أول منتدب أبو عبيدة بن مسعود الثقفى وثنى سعد بن عبيد وسليط ابن قيس ، فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر أمّر عليهم رجلا من المهاجرين والأنصار فأبى ، وقال إن من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء أولى بالرياسة ثم أمر أبا عبيدة على الجيش وقال : اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف[2] ، ولم يمنعنى أن أؤمر سليطا إلا سرعته إلى الحرب ، وفى التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمرته ، ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث.

خرج أبو عبيده فى آخر جمادى الأولى أو أوائل جمادى الثانية سنة (١٣ هـ) ، ومعه سعد بن عبيد ، وسليط بن قيس أخو بنى عدى ابن النجار ، والمثنى بن حارثة الشيبانى ، فتقدمهم المثنى إلى الحيرة ، وكان

---

(١) النجعة طلب الكلأ (أى المرعى) فى موضعه كما فى القاموس .

(٢) يعنى الرجل المتأنى الذى يعرف ساحة العمل فيعمل وساعة الكف فيكف

استقر أمر فارس لبوران فاستدعت رستم من خراسان وتوجته وجعلت إليه حماية البلاد وسلمته قيادة الجند ، فكتب رستم إلى دهاقين السواد أن يثوروا ودس فى كل رستاق رجلا ليثور بأهله ، وبعث جنداً لمصادمة المثنى ، وبلغ المثنى ذلك فضم إليه مسالحه واجتمع إليه المسلمون فسار بهم إلى خفان ونزلها حتى قدم أبو عبيد ، وكان أول من سار من الدقاهين جابان فى فرات بادقلى فسار إليه أبو عبيد فالتقوا بالنمارق وتقاتلوا فهزم أهل فارس .

موعظة :

لما انهزم الفرس أسر جابان ، أسره مطر بن فضة التيمى فخدعه جابان بأن وعده بشىء يعطيه له فأمنه وخلى عنه ، فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه الملك وأشاروا عليه بقتله ، فقال : إنى أخاف الله أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون فى التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم ، فقالوا له إنه الملك ، وإنه هو الذى حاربنا ، قال وإن كان لا أغدر فتركه .

انظر رحمك الله إلى هذا الأمير العظيم النفس الصادق الإيمان ، الذى ملك ناصية عدوه الذى غدر بالمسلمين وأثار عليهم ثائرة البلاد ، وقابلهم بنكران الجميل وخرق العهد فأبى أن يقتله لعهد سبق له من فرد من أفراد المسلمين ، الذين بلغ بهم التناصر والتواد يومئذ أن أميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما التزم به حقيرهم ، فأين تلك النفوس البارة والإخاء المتوثق والوجدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين ، من فساد الأخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الأخوة ، حتى باتوا إلباً على بعضهم وحرباً على أنفسهم يتمزقهم الأعداء ويتغلب عليهم الفاتحون ، وأمراؤهم فى تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أذى بعض ، ويتمنى أحدهم زوال ملك أخيه انفراداً باسم الرياسة ، وطاعة لهوى النفس الشريرة ، وما يتمنون فى الحقيقة إلا زوال ملك الإسلام وما يطيعون إلا شيطان الخذلان.

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف ، وصوح نبت الإسلام وتناكرت النفوس ، وتقطعت أسباب الإخاء وانحطت أخلاق الأمراء ، وتفشى الجهل فى قصور العظماء ، وتنوسيت أصول الدين وغلبت الشهوات وتغلب علينا الأمم ، وحسبنا من جزائك العادل مالقيناه من جور أمرائنا وتحكم أعدائنا ، فاهدنا من الحق والعلم صراطاً نخلص به إلى طاعتك فيما أمرت ، فنوثق عرى الإخاء وننبذ من كانوا سبب التقاطع والشحناء ونجدد عهد التآلف ونتمسك بأسباب التناصر والتكاتف إنك مجيب الدعاء .

عود إلى خبر أبى عبيد :

انهزمت جنود جابان من النمارق ولحقت بكسكر حيث يخيم قائد اسمه نرسى من الأسرة الكسروية ، فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى نزل بكسكر ، وكان أهل كسكر وما حولها من البلاد ينتظرون مجىء الجالينوس مدداً لهم من قبل رستم ، فعاجلهم أبو عبيد والتقوا بمكان يدعى السقاطية فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسى وغلب على عسكره وأرضه ، وأقام أبو عبيد وسرح القواد لاستخضاع من حوله من أهل السواد ، فجاء فروخ وفرونداذ المثنى بن حارثة وطلبا منه الجزاء والذمة عن باروسما ونهر جوبر فأبلغهما أبا عبيد فصالحاه على شىء معلوم .

موعظة أخرى :

لما تم الصلح بين أبى عبيد وبين فروخ وفروانداذ جاءآه بآنية فيها أنواع أطعمة فارس من الألوان والأخبصة وغيرها ، فقالوا هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك : قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله : قالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون : فقال أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لايسع الجند فردوه ، وخرج حتى نزل باروسما فأتاه الاندرزغر بمثل ماجاء به فروخ

وفرونداذ : فقال لهم ، أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم : قالوا لا : فرده وقال لاحاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ، لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مما يأكل أوساطهم .

هكذا كان الأمراء وقادة المسلمين يفعلون ، وبمثل هذه الأخلاق يمتازون ، وبحسب المساواة مع عامة الناس فى السراء والضراء يوصفون ، وبمثل هذه الخصال الجميلة يسودون ، لا بالاستئثار بفيء المسلمين ، ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ، ولا باستلاب مال البلاد التى أحرزها المجاهدون بسيوفهم ، وأسالوا على جوانبها دماءهم .

وهذا المبدأ الذى تأسس عليه الاجتماع الإسلامى منذ نبت الإسلام فى أرض العرب هو مبدأ الاشتراك المعقول ، الذى يخبط للوصول إليه زعماء المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوهم فيه غلو الجاهل بخوافيه ، إذ فاتهم أن البداوة وسذاجة الفطرة أصل فى قبول الخير والشر ، وأن الإنسان إذا أفسدت الحضارة نحيزته ، وأخذ حب البذخ بمجامع قلبه ، استحال تقويم أود نفسه وإرجاعه عن غلوائه والإقلال من أثرته وكبريائه والأخذ على أيدى قادته وزعمائه ، مالم يكن هؤلاء هم المربون لشعوبهم القائمون على تقويم أخلاق من دونهم ، لهذا كان زعماء الأمة وخلفاؤها فى صدر الإسلام قدوتها الصالحة فى تربية تلك النفوس الساذجة ، على مبدأ حب العدل والمساواة ومشاطرة الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الأثرة بالغنى والجاه والفخفخة الباطلة كما رأيت فى قصة أبى عبيد (رضى الله عنه) وبلغ بعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بغضه بداء حب الأثرة وكرهه لاكتناز البعض للمال دون البعض الآخر ، أن كان يحصى مال عماله قبل أن يسند إليهم الإمارة لكى يناقشهم الحساب بعد ذلك عما

يزيد عن مقتناهم من المال قبل الإمارة ويصادرهم عليه، ثم يرده على المسلمين ، وبلغ على بن أبى طالب رضى الله عنه فى خلافته أن عاملا من عماله أسرف فى جمع المال ومال إلى التنعم وحاد عن سبيل القصد ، فكتب إليه كتاباً طويلا مما جاء فيه قوله

أيها المعدود كان عندنا من ذوى الألباب ، كيف تسيغ شرابا وطعاماً وأنت تعلم أنك تأكل وتشرب حراماً ، وتبتاع الإماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين ، والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد . فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم فإنك إن لم تفعل ثم أمكننى الله منك لأعذرن إلى الله فيك ، ولأضربنك بسيفى الذى ماضربت به أحداً إلا دخل النار الخ .

فأين هذا الخليفة فى مشربه القويم ومذهبه المستقيم فى تأديب العمال بأدب نفسه ، وحملهم على طريق القصد وعدم السرف فى أموال العباد ممن يربى عماله على العكس من ذلك، ويطلق يدهم فى أموال الناس ، بل ويحكمهم فى رقاب الرعية . ويدنى فاجرهم منه ، ويقصى عفيفهم عنه ، وكيف يقوم للقائلين بهذا المذهب الآن قائمة بين أقوام أمات شعورهم الاستغراق بالترف وقتلهم الخنوع للشهوات . إن هذا لا يتيسر الآن إلا إذا صبغ أديم الأرض بنجيع الإنسان وتبدل الأشرار بالأخيار وذلك أمر بعيد .

عود إلى خبر أبى عبيد :

رحل أبو عبيد من السقاطية وقدم المثنى فى تعبيته حتى قدم الحيرة ، وكان الجالينوس رجع إلى رستم ومن أفلت من جنوده واستحثه على مقابلة المسلمين فوجه بهمن جاذويه ورد الجالينوس معه فأقبل بهمن جاذويه ومعه

راية كسرى (درفش كابيان) وكانت من جلود النمر [١] وأقبل أبو عبيد حتى نزل بالمروحة على ضفة النهر المقابلة للضفة التى فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف ، فبعث إليه بهمن جاذويه إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم ؛ فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من أشدهم إلحاحاً عليه بعدم العبور سليط بن قيس فأبى قبول إشارتهم وترك الرأى ، وقال لايكونوا أجرأ على الموت منا ، وعبر ومعه المسلمون وكان الفرس فى عدة لم ير مثلها المسلمون

وهذا وإن يكن إقدام من أبى عبيد رضى الله عنه وشمم وشجاعة لايصدران عن غيره إلا أنه خطأ وقع فيه لأمر يريده الله ، وكانت عاقبة هذا الخطأ أن قتل أبو عبيد إذ هجم على فيل من الأفيال وضربه نخبطه الفيل وكانت أسرعت السيوف فى أهل فارس وأشرفوا على الهزيمة ، فلما خبط أبو عبيد وقام عليه الفيل جال المسلمون جولة ثم انهزموا وركبهم الفرس ، فبادر رجل من ثقيف إلى الجسر فقطعه قصد إرجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس إليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات ، ولما رأى المثنى بن حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادر هو ونفر من الشجعان فحمى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ، ثم عبروا فى آثارهم ، فأقاموا بالمروحة والمثنى جريح ، وهرب الناس على وجوههم وقتل سليط بن قيس الذى نصح أباعبيد على عدم العبور ، وبقى المثنى فى جمع قليل ، ولما انتهى الخبر

(١) لهذه الراية قصة عجيبة جاءت فى أخبار الفرس وملخصها أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته فى الظلم إلى حد لايطاق ، فقام من رعيته يوما رجل حداد خامل بين قومه عظيم فى نفسه فخرج من حانوته ورفع على عصا طويلة الجلد الذى يربطه الحداد عادة فى وسطه ونادى فى الناس من لايطيق الظلم فليتبعنى فاتبعه عامة الناس فقتلوا ذلك الملك ورجال دولته وأسس ذلك الحداد الدولة الكسروية فاتخذوا ملوكها راية الحداد شعاراً لهم ثم جعلوها من جلود النمر وسموها درفش كابيان وكانوا لايخرجونها إلا حين الحاجة القصوى

إلى عمر بن الخطاب اشتد عليه الأمر وبلغه أن بعض الفارين آوى إلى المدينة فخطب فقال : عباد الله اللهم إن كل مسلم فى حل منى أنا فئة كل مسلم ، يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ، ولم يستقل لكنا له فئة .

وإذ كان المسلمون يعلمون أن الفار من القتال آثم لقوله تعالى فى الكتاب الكريم (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجزع المهاجرون والأنصار جزعا شديدا ، ولما رأى عمر رضى الله عنه جزعهم قال : لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم إنما انحزتم إلىّ ، وبلغ الجزع بمعاذ القارىء أحد بنى النجار أن كان إذا قرأ هذه الآية بكى فيقول له عمر: لا تبك يامعاذ أنا فئتك وإنما انحزت إلىّ: وذلك تخفيفاً لروعه ودفعاً لجزعه ، فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أخوفها من الله وأشدها تمسكا بالكتاب وأجزعها من الوقوع فى الخطأ ، ورضى عن عمر بن الخطاب ما أرحم قلبه وأعظم على المسلمين حنانه .

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور إلى الضفة الثانية ومطاردة المسلمين ، ولكن من عناية الله بالمثنى ومن بقى معه من الجند القليل جاء الفرس ما شغلهم عن العبور ، إذ وصلهم الخبر أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم وانقسموا قسمين قسم معه وقسم مع الفيرزان ، فتمكن المثنى من جمع القبائل التى حوله وأمده عمر رضى الله عنه بجرير بن عبد الله البجلى وقد كان قومه أوزاعا متفرقين فى قبائل العرب فجمعهم له عمر ، وأمره عليهم وبعث عصمة بن عبد الله من بنى عبد بن الحارث الضبى فيمن تبعه من بنى ضبة ، وكتب إلى أهل الردة فلم يوافه منهم أحد إلا رمى به المثنى وكان ممن قدم على عمر رضى الله عنه بنو كنانة وطلبوا أن يوجهوا إلى الشام ، فقال لهم

ذلك أمر قد كفيتموه عليكم بالعراق واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش ، لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس ، فقام غالب بن فلان الليثي وعرفجة البارقي وقال كل واحد منهما لقومه ، يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما يرى وامضوا له . فأجابوا إلى ذلك فدعا لهم عمر بخير وأمر على بني كنانة غالب بن عبد الله وعلى الأزد عرفجة بن هرثمة وسرحهم فخرج هذا في قومه ، وهذا في قومه حتى قدما على المثنى .

وقدم على عمر (رضي الله عنه) هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع إليه من الرباب فوجهه ، وقدم عليه المثنى الجشمي جشم سعد فأمره على بني سعد وسرحه ، وجاء إليه ربعي في أناس من بني حنظلة فأمره عليهم ، وخرجوا حتى قدم بهم على المثنى بن حارثة فرأس بعده ابنه شبث بن ربعي ، وقدم على عمر غير هؤلاء من زعماء العرب فوجههم إلى المثنى .

وكان الفرس لما أحسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثنى بن حارثة ، جمعوا كلمتهم وجاء الفيرزان ورستم إلى بوران وأخبراها أنهما اتفقا على أن يرسلا إلى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واستأذناها بذلك ، ثم بعثا مهران بجنده حتى نزل من دون الفرات والمثنى وجنده في محل يدعى البويب على شاطىء الفرات الآخر ، وكانت الجنود إليه متواصلة وجاءه أنس بن هلال النمري ممداً في أناس من نصارى النمر ، وقدم عبد الله ابن كليب التغلبي المعروف بمردي الغمد في أناس من نصارى تغلب ، فلما رأوا نزول العرب بالعجم قالوا نقاتل مع قومنا وانضموا إلى جند المسلمين ، ولله ما تفعل الجامعة القومية في النفوس .

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران إلى المثنى إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم ، فقال المسلمون اعبروا إلينا فعبروا إليهم ، وجاءوهم

من قبل نهر بنى سليم فى صفوف ثلاثة ولهم ضوضاء وزجل ، فقال المثنى للمسلمين إن الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ، ثم تقدم إليهم المثنى وعلى مجنبتيه بشير وبسر بن أبى رهم ، وعلى مجردته المعنى وعلى الرجل مسعود ابن حارثة ، وعلى الطلائع النسير وعلى الرده مذعور وكان على مجنبتى مهران الآزاد به مرزبان الحيرة ومردان شاه ، ثم خرج المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويحضضهم[1] ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم تحضيضاً لهم ، ولكلهم يقول إنى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم، واللهمايسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك ، وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا عملا لا سيما وأنه كان على شرفه وعلو منزلته شجاعاً ميمون النقيبة ، فكان المسلمون يحبونه ويعجبون بقيادته كما يعجبون بقيادة خالد بن الوليد .

ثم إن المثنى كبر وكبر المسلمون وكانواعدهم بالهجوم عند رابع تكبيرة، فعاجلهم الفرس من الأولى وخالطوهم والتحم القتال ، وجعل المثنى كلما رأى خللا فى صف من صفوفه يرسل لأهل الصف رجلا يقول إن الأمير يقرؤكم السلام ويقول ، لا تفضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويعتدلون ، ولما طال القتال واشتد حمل المثنى وحمل معه أنس بن هلال ومردى الفهر، وقصد المثنى مهران فأزاله حتى دخل فى ميمنته واضطربت صفوف الأعاجم ، ولقى غلام نصرانى من تغلب مهران فقتله ثم استوى على فرسه وتضعضع الفرس فانهزموا ، وبادرهم المثنى إلى الجسر فمنع مرورهم منه فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تأخذهم من كل جانب ، وكان ذلك بحسن قيادة ذلك البطل الجليل المثنى بن حارثة الذى أظهر من البراعة

(١) حضضهم كحضهم أى حثهم وأحماهم عليه كما فى القاموس .

والشجاعة فى هذه الوقعة ما يخلد له طيب الذكر ، إلا أنه أظهر يومئذ ندمه على أخذه بالجسر وقال : لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فإنى غير عائد (يعنى إلى مثل هذا الخطأ) فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس ، فإنها كانت منى زلة لا ينبغى إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع ، هذا من حسن بصيرته وسديد رأيه وإنابته للحق رضى الله عنه .

ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا جرحوا فى هذه الوقعة ناس ، منهم خالد بن هلال ومسعود بن حارثة أخو المثنى فصلى عليهم المثنى وقال ، والله إنه ليهون على وجدى (أى أسفه وحزنه) أن شهدوا البويب ، أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وإن كان فى الشهادة كفارة لتجوز الذنوب .

وكان أشد الناس بلاء فى هذه الحرب من شهدوا وقعة الجسر مع أبى عبيد ، لاستحيائهم من الفرار فى تلك الوقعة ، ولما انهزم الفرس فى البويب انتدب المثنى جرير بن عبد الله البجلى لعبور الفرات وتتبع الفارين فانتدب معه من شهدوا وقعة الجسر وغنموا غنائم كثيرة وعادوا .

شجاعة النساء المسلمات :

ذكر ابن جرير الطبرى أن المثنى وعصمة وجريراً أصابوا فى أيام البويب غنما ودقيقاً وبقراً ، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة ، وقد خلفوهن بالقوادس وإلى عيالات أهل الأيام قبلهم وهم بالحيرة ، وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح ابن بقيلة ، فلما رفعوا (أى ظهروا) للنسوة فرأين الخيل تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد فقال عمرو ابتهاجا بهن : هكذا ينبغى

لنساء هذا الجيش : وبشروهن بالفتح ، وكان على الخيل التى أتتهم بالنزل (الضيافة) النسير فأقام فى خيله حامية لهم .

ولا جرم فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهم وإمكان دفعهن العدو المفاجىء لما تركوهن فى الفلاة بلا حامية وتقدموا هم لحرب الفرس ، وقد رأيت كيف كان النساء المسلمات فى اليرموك يقاتلن مع الرجال ، وكذلك قاتلن فى القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب ويضمدن جراحهن ويمرضهن ذكر الطبرى فى معرض كلامه على فتح ميسان ، أن المغيرة سار إلى أهل ميسان وخلف الأثقال ، فلقى العدو دون دجلة فقالت أردة بنت الحارث بن كادة (طبيب العرب المشهور) لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم (أى عوناً لهم) ، فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمورهن رايات وخرجن يردن المسلمين فانتهين إليهم والمشركون يقاتلونهم ، فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا أن مدداً أتى المسلمين فانهزموا واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة ، وهذا العمل من النساء المسلمات لعمرى غاية فى الجراءة ونهاية فى الإقدام ، وحق لمثلهن أن يدخلن فى مصاف الرجال ويأتين بأعظم الأعمال ، وقد أطنب ادورد جبون فى تاريخ الإمبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التى أظهرنها على حصار دمشق ، ومما قاله عنهن : إن هؤلاء النساء اللاتى تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمى بالنبل ، هن اللاتى إذا وقعت إحداهن فى الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أى إنسان يريدها بسوء .

ولقد صدق فيما قال ، وإلا فما كان رجالهن أن يدعوهن يخالطن الرجال فى معامع الحرب والقتال ، ومن البديهى أن الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات عن مخالطة الرجال فى الحل والترحال ، ولكن كان لهن من الأخلاق الفطرية والعفة الإسلامية ما يغنيهن عن مثل الحجاب الثقيل الذى ابتدعه

سكان المدن الإسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف ، وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة ، فإذا كان لنسائنا من العفة وسلامة الأخلاق وطهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء فى صدر الإسلام ساغ للقائلين بتخفيف الحجاب أن يطلبوا إبراز المرأة من وراء الجدر بحلى العفة والكمال ويعطوها حقوق الرجال ، وإلا فالكلام عبث لا يجدى ، والموقف حرج ينبغى للخروج منه أناة وبصيرة ، والله أعلم بمصير الأمور .

عود إلى خبر المثنى

لما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت جنود الفرس وعاد جرير بن عبدالله البجلى من غزاته فرق المثنى جنوده فى السواد ، وأخذ يستخضع البلاد التى عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ، ظفر بها المسلمون بما شاءوا من متاع ومال ، وبلغت غاراتهم شرقا إلى قرب مدائن فارس وشمالا إلى الجزيرة ، فأوقعوا الرعب فى قلوب الأعداء ، فقام الفرس لذلك وقعدوا .

كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح

ليس أضر على الأمم وأشد خطراً على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة ، وميل الزعماء إلى الاستئثار بمصالح الملك إذا ضعف جانب المالك وتشعث بناء الدولة ، وقل ما انتهت الدول فى أواخر عهدها إلى هذا الحال ، من تفرق الرأى وتغلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الأفراد إلا انتهى ذلك بزوال ملكها وتقلص ظل سلطانها ، وقد كانت دولة الفرس أصيبت فى أواخر عهدها بهذا الداء العضال والمرض القتال ، ولعله بدأ بها على عهد كسرى ابرويز فى أواسط الجيل السادس بعد المسيح ، فقد ذكر

المؤرخون أن كسرى هذا عسف الناس وشره إلى أموال الرعية واستعمل رجالا على استخلاص بواقى الخراج ، فعسف الرعية وظلمهم فنفرت قلوبهم منه وتحولت أنظارهم عنه ، وكان قد بلغ به الأمر أن أقصى أولاده إلى بابل ومنعهم من التصرف ، فاغتنم عظماء المملكة ضعف سطوة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه ، فأحضروا من بابل ولده شيرويه وأرغموا والده على التنازل إليه عن الملك ، ثم أرغموا ابنه على قتله فقتله ، ولما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء سلطنته وأحس بضعف نفسه ، أصابه وسواس أفضى إلى أن أمر بقتل إخوته وكانوا سبعة عشر أخا ذوى مشورة وعلم وأدب ، وأنبه أختاه بوران وازرميدخت على فعلته فندم وأصابه حزن وغم فمات دون السنة من ملكه ، فملك الفرس عليهم ابنه ازدشير ، وكان صغير السن فتكفل به أحد المتطلعين إلى الرياسة من أرباب الدولة واسمه بهادر جسنس فحسده قائد جنود الثغور وامتعض من عدم استشارته فى تولية أزدشير ، فاتخذ ذلك ذريعة إلى التعنت وبسط يد القوة وطمع فى الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الأكاسرة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وقتل أزدشير ، فتولى الملك بعده شهريراز وهو من غير بيت الملك ولم يمكث فى الملك إلا أربعين يوما وقتله أشياع أزدشير فملكت بعده بوران ثم ملك بعدها رجل اسمه خشنشبنده فأنكر الجند سيرته فقتلوه ، ثم ملكت ازرميدخت وخطبها والى خراسان فاحتالت عليه حتى قتلته ، فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده إلى المدائن فتمكن من أزرميدخت وسمل عينيها ثم قتلها ، وأقام مقامها بوران فوقع الخلف بينه وبين الفيرزان أحد عظماء الدولة وتنازعا السلطة وتفشت الفوضى فى الملك وظهر الخلل والضعف على الدولة ، ولما انتزع المسلمون منها العراق ودحر المثنى جيوش الفرس وتحفز جند الإسلام للوثوب على عرش الأكاسرة ، دب فى عامة الشعب الفارسى دبيب الشعور بحرج الموقف الذى وقفت فيه دولته ، وأحسوا بالخطر الذى جره

عليهم أمراؤهم وقادتهم فهبوا من سباتهم العميق، فأقبل رجالهم وذوو الرأى منهم إلى الفيرزان ورستم وقالوا لهما : لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس ، وأطمعتما فيهم عدوهم وأنه لم يبلغ من خطركما أن يقركما فارس على هذا الرأى وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن (يعنون البلاد التى احتلها المسلمون) والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ، ووالله ما جر علينا هذا الوهن غيركم يا معاشر الرؤساء ، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ، ولولا أن فى قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم .

لما سمع رستم والفيرزان ما سمعا من القوم تنبها من غفلتهما وخشيا هلاكهما ، فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه كلمة الناس ، فوجدوا يزدجرد بن شهريار فى اصطخر وقد كانت أمه غيبته هناك وهو طفل إشفاقاً عليه من القتل ، فجاءوا به وملكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، إلا أنه كان ضعيف الرأى والقلب ، ومع هذا فقد أطاعه الناس ونبذ الرؤساء شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة ، فالتفوا حوله وأطاعوه وتباروا فى معونته ، فرتبوا المسالح والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين .

استمداد المثنى ومسير سعد بن أبى وقاص الى العراق :

لما بلغ المثنى بن حارثة اجتماع الفرس على يزدجرد وتجهيزهم لحرب المسلمين ، كتب إلى عمر رضى الله عنه وبينما هو بانتظار الجواب كفر أهل السواد بالعهد ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس ، فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذى قار حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه :(أما بعد فاخرجوا من بين ظهرى الأعاجم وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على

حدود أرضكم وأرضهم ، ولا تدعوا فى ربيعة أحداً ولا مضر ولا خلفائهم أحداً من أهل النجدات . ولا فارساً إلا أجلبتموه فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه . احملوا العرب على الجد إذا جـــد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم) .

فلما وصل الكتاب اهتم المثنى بأمر عمر ، وأحسن الرأى الحربى والتدبير ، فنزل بذى قار وفرق الجند على خط واحد من الجل وشراف إلى غضى[1] حيال البصرى ، فكانوا فى أمواه العراق من أولها إلى آخرها مسالح[2] بعضهم ينظار إلى بعض ، ويغيث بعضهم بعضاً أى جعلهم أشبه بحصن واحد ممتد من حيال البصرة إلى شراف والجل ، أى من أول العراق إلى آخره وهو ترتيب بلغ الغاية من بعد النظر فى فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم خطوط الدفاع ، وأعاد الفرس كذلك مسالحهم وشحنوا بالجنود ثغورهم وباتوا خائفين هائبين ، والمسلمون متحمسون وهم كالأسد ينازع فريسته .

أما عمر بن الخطاب فإنه كتب إلى عماله على العرب والكور يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس ، فمضت الرسل بالكتب ووافاه القبائل إلى المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق ، انضموا إلى المثنى وخرج عمر أول المحرم سنة (١٤) فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى صراراً والناس لا يعلمون بشىء مما يريد ، وكانوا إذ أرادوا أن يسئلوه شيئاً رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف ، فإذا لم يقدر هذان على

---

(١) فى معجم البلدان جل الوضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى زبالة بينه وبين القرعاء ستة عشر ميلا وهو بينها وبين الرومانيين وشراف بين واقصة وقرعاء على ثمانية أميال من الأحساء وغضى تصغير الغضا الماء بن ربيعة وقيل جبال البصرة .

(٢) جماعة المسلحين وفى اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية أو خطوط الدفاع .

علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس فسأله عثمان عما يريد وعن عزمه فنادى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس ، فقال العامة سر وسر بنا معك،فقال استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلا أن يجيء رأى هو أمثل من ذلك ، ثم بعث إلى أهل الرأى فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب ، فقال احضرونى الرأى فإنى سائر فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلا من الصحابة ويقيم ويمده بالجنود ، فإن كان الذي يشتهى من الفتح فهو الذى يريد ويريدون ، وإلا أعاد رجلا آخر ، وندب جنداً آخر حتى يجيء نصر الله .

الحكم النيابى فى الإسلام :

علم عمر (رضى الله عنه) أن مكافحة الفرس بات أمراً حتمياً لا بد عنه ، وأن القوة والرأى مناط الظفر بدولة هى أعظم دول الأرض رهبة لذلك العهد ، فإذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت أعلام الإسلام على صروح الممالك ، وإلا كان الخطر على المسلمين عظيما والأمر جللا بعد إذ هيجوا أمر فارس والروم وأحفظوا الدولتين القيصرية والكسروية ، لهذا رأى من السداد ألا يفوته رأى عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب ، فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لأنهم بأميرهم أرغب ولخليفتهم أطوع ، واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه فى المدينة لأنهم بقيمة حياته أعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص : وكان تخلف عن الجمع على وطلحة رضى الله عنهما ، لأن الأول استخلفه عمر على المدينة ، والثانى كان على مقدمة الجيش ، فرأى ألا تفوتهما الشورى فاستدعاهما وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً ولهم مستشيراً فقال :

أما بعد إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم بينهم وبين ذوى الرأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر . ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الأمر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . (يأيها الناس إنى إنما كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت) ويعنى بمن خلف علياً وطلحة ، لأنهما لم يحضرا الرأى الأول كما ذكرنا .

لعمرك أى ملك فى العالم يبعثه الوجدان الطاهر أن يضع نفسه عن رضا واختيار فى موضع فرد من عامة رعيته ، ويقول كما قال عمر للمسلمين (من قام بهذا الأمر فإنه تبع لذوى الرأى منهم) فجعل نفسه تبعاً لذوى الرأى، وجعل المسلمين تبعاً لهم فيما يرتأون تمحيصاً للحق والرأى ، وهذا هو الحكم النيابى الذى تقوم به سعادة الأمم ويرتفع شأن الدول ، ولم يتوصل إليه قوم إلا بعد جهد وجهاد مع قادتهم المستبدين وأمرائهم القاهرين ، وقد وضع أساسه الإسلام وبدأ به أبو بكر وعمر رضى به وإخلاصاً لله وإرشاداً للمسلمين لما ينفعهم فى أمر دنياهم إلا أن هذا الحكم لم يدم لأن العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان الخلفاء وإخلاصهم، وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه يترقى بطبعه بترقى الأمة ، وعلى مقتضى حاجة الزمان ، لهذا لم يستمر إلا باستمرار دولة الخلفاء الراشدين ، مع أن حالة القوم البدوية وميلهم الفطرى للحرية يقتضيان استمرار الحكم النيابى فى الدول العربية ، وإنما أرغم القوم على مخالفة الفطرة البدوية مذ قامت دولة بنى مروان فى وسط الممالك الأعجمية ، وخالط خلفاؤها الأعاجم من

الفرس والروم ، ورأوا مبلغ تبسط يد الحكومة السالفة فى الرعية وسلطانها القاهر الذى هو فوق سلطان الوجدان والحاكم على الحرية والعدل لا المحكوم منهما والنفس تتلون أحياناً بألوان البيئة وتتبدل أخلاقها بتبدل المنشأ والمكان فراق أولئك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغلبوا على أمرهم بحكم الوسط فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس إلى التبسط فى السيادة ، حتى بلغ بعبد الملك بن مروان أن خطب يوما خطبة أشار فيها إلى أن من راجعه فى أمره فقد تعرض للقتل ، مع أن عصر بنى مروان هو العصر الذى كان يرجى به استثمار البذور الديموقراطية التى بذرها الخلفاء الراشدون لاستغلاظ شأن الإسلام يومئذ . وتفرغ الناس إلى النظر فى الشؤون الإدارية بعد انهماكهم فى الشئون الحربية واشتغالهم بالفتح ، وما نخال الباعث للأمة العربية على الانغلاب لشهوات الملوك من بنى مروان إلا ذلك المزيج الذى تألف منه جسم المجتمع الإسلامى يومئذ ، وأخصهم الموالى من النبط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (الحمراء) ويتوقع منهم كثيراً من الشر ، وفى الحقيقة فقد غلبت يومئذ الأمة العربية على أمرها بتفرق عصبيتها ، وتشتت قبائلها فى فارس والروم والشام ومصر وأفريقيا والأندلس ، فلم يغنهم ذلك الفتح عن استبداد خلفائهم الذين خلا لهم الجو وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل أن يتعاهدوا ذلك النبات الطيب لإنمائه فى عصر الحضارة الإسلامية واجتناء ثمراته الشهيه ، فيبسطوا يد القوة ، وتبسطوا فى الاستبداد ، ولو علموا أن الحكومة النيابية شرط فى بقاء الدول وسياج للملك يقيه وثبات الدول الناشئة لما نزعوا منازع الجبروت وهدموا ركن الشورى ، إذ مطمح نظر الشعوب ومناط سعادة الناس الحرية والعدل ، ومتى كان هذان أساس الحكم فى دولة من الدول ، فقد تحصل الناس على منتهى ما يرجون من بقاء هذه الدولة سائدة عليهم حاكمة فيهم ،

وليس لهم من وراء ذلك غرض إلا الذود عنها ، والذب عن حوزتها ، ذوداً عن حوضهم وذباً عن راحة مجتمعهم .

لو استمر بنو مروان سائرين على نهج الخلفاء الراشدين الواضح فى حكم الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والأفكار ، إذن والله لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً فى دولتهم ، وهل يلجىء الناس إلى التوثب على الملوك والخروج على الدول والرغبة عنها إلى غيرها إلا فساد الحكم وإفساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر .

لعمرك لو أحسن بنو مروان السياسة والتمسوا وسائل سلامة الدولة لجعلوا لأخلافهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التى وضعها لهم الخلفاء الراشدون حكومة ثابتة الدعائم منتظمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها بقوانين خاصة ترسخ عليها دعامتها وتقوم بها أصولها ، والطريق إلى هذا كان سهلا عليهم لو التمسوا إليه الحيلة باستقصاء أخبار مجاوريهم من الروم الذين قامت لأسلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية ، كانت آثارها وأخبارها معروفة لذلك الجيل من الروم ، محفوظة فى مؤلفات القوم والذى أتاح لهم وللخلفاء الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الأصول الإدارية وغيرها عن الروم والفرس كوضع عمر رضى الله عنه للتاريخ ووضعه للدواوين على أصول الفرس والروم ، واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبد الملك للنقود وغير ذلك من الأمور التى لم يكن لها أثر عند العرب) كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول التجارب التى عاناها غيرهم من الأمم التى سبقتهم فى الحضارة ، لو أخلصوا النية ونظروا إلى المستقبل بنظر الحكمة والروية ولو فعلوا لوضعوا لدول الإسلام أساساً ثابتاً فى نوع الحكم لا يتأتى لأية دولة إسلامية بعد جيلهم ذلك أن تضع مثله البتة لأسباب عديدة أهمها : إلصاق الفقهاء بعد كل شىء بالدين وحظرهم على الأمة العمل

بأى أمر نافع إلا ما سبق للصحابة والتابعين ، وكان عندهم كالتنزيل لا يحيد عنه أحد من المسلمين ، ولو نخر عظامهم فساد الحكم المطلق وأكل لحمهم الظلم وذهب بسلطانهم التباعد عن الانتفاع بأصول الترقى عند الأمم الأخرى ، كما انتفع الأوربيون من المسلمين فى كثير من أصول مدنيتهم السالفة أيام الحروب الصليبية وقبلها ، وهذا بحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود إليه فى محل آخر إن شاء الله .

عود الى خبر الشورى :

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعلى بما أشار عامة الناس ونهاه العباس وعبدالرحمن بن عوف عن هذا الرأى ، وقال له الثانى أقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد ، فإنه إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك وإنك إن تقتل أو تهزم فى أنف الأمر خشيت ألا يكبر المسلمون وألا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً .

ونعم هذا الرأى والإخلاص من عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه إذ أن المسلمين يومئذ كانوا أحوج إلى حياة عمر والإسلام لم يمتد ويتأصل فى الجزيرة والفتنة لم تركد ، فلو أصيب عمر بشىء لصدق ما قاله عبد الرحمن ابن عوف لأن هيبة عمر وعزيمته وأناة أبى بكر قبله ورويته مهدت لمن جاء بعدهما السبيل ، ومكنت للإسلام والمسلمين السلطان فى الأرض .

بينا المسلمون فى المشورة وافى عمر كتاب سعد بن أبى وقاص ، وكان عامله على صدقات هوازن بمن انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس ، وهم ألف فارس ، فقال بعض المسلمين لعمر (رضى الله عنه) قد وجدته : قال فمن : قال الأسد عاديا : قال من هو : قالوا سعد : فانتهى إلى قولهم فأرسل إليه فقدم عليه فأمره على حرب العراق وانتدب معه الناس فكان أهل اليمن

ينزعون إلى الشام، وكانت مضر تنزع إلى العراق فقال عمر (أى لأهل اليمن) أرحامكم أرسخ من أرحامنا ما بال مضر لاتذكر أسلافها من أهل الشام .

وصية عمر لسعد :

لما أمر عمر سعداً رضى الله عنهما أوصاه فقال :

ياسعد سعد بنى وهيب ، لايغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لايمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر ، هذه عظتى إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين .

ثم لما أراد أن يسرحه دعاه فقال :

إنى قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه لايخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم أن لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع فى أمرين فى طاعته واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاء . منها السر . ومنها العلانية . فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه فى الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس ، فلا تزهد فى التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حببه وإذا أبغض عبداً بغضه . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك .

مسير سعد :

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم ، وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر ، منهم حميضة ابن النعمان البارقى ، وشداد بن ضمعج الحضرمى ، وعمرو بن معدى كرب على مذحج ، ويزيد بن الحارث الصدائى ، وبشر بن عبد الله الهلالى ، وشرحبيل ابن السمط الكندى ، وأضرابهم من صناديد العرب وقادتها .

وشيعهم عمر رضى الله عنه إلى الأعوص ، وهناك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة واللين ، وأن ينهوا شؤونهم إليه ولا يؤخروا شيئاً من الشكوى عنه ، وستأتى الخطبة فى باب خطبه إن شاء الله .

سار سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل زرود من أرض العرب مما يلى العراق ، وأمده عمر بأربعة آلاف مقاتل ، ووافاه الأشعث بن قيس فى ألف وسبعمائة ، فكان عدد جيشه الذى شهد القادسية نحو ثلاثين ألفاً بمن انضم إليه من جند العراق الذين كانوا مع المثنى ، ولما رحل سعد عن زرود كتب إليه عمر : أن ابعث إلى فرج[1] الهند رجلا ترضاه يكون بحياله ويكون ردءاً لك من شىء أتاك من تلك التخوم : فبعث المغيرة بن شعبة فى خمسمائة ، فكان بحيال الأبلة من أرض العرب ، ونزل على جرير وهو مرابط هنالك يومئذ . ولما بلغ سعد شراف نزل وكتب بمنزله إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : إذ جاءك كتابى هذا فعشر الناس وعرف عليهم[2] وأمر على أجنادهم وعبهم ، ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم

---

(١) هو الثغر وموضع المخافة والأبلة هى التى كانت ثغر العراق يومئذ لقربها من مصب الفرات فى خليج فارس .

(٢) قال فى القاموس العريف رئيس القوم أو النقيب وهو دون الرئيس .

القادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة فى خيله واكتب إلىّ بالذى يستقر عليه أمرهم .

فبعث سعد إلى رؤساء القبائل فأتوه فقدّر الناس وعباهم تعبية تشبه بسائر ترتيبها تعبية الجيوش فى هذا العصر ، وسنأتى على تفصيل الخبر عن هذا فى غير هذا المحل إن شاء الله ، ورضى الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب وأشده احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً فى أمور الفتح ، فإنه ما كان يأمر أميراً بحركة ما لم يأخذ لها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوة العدو ومبلغ كفاءة القواد والجنود .

ولما أعد سعد لكل شيء عدته وفرغ من تعبية جيشه ، كتب بذلك إلى عمر وجاءه فى غضون ذلك المعنى بن حارثة أخو المثنى وزوجته خصفه التيمية بوفاة المثنى ووصيته لسعد ، ومؤداها أن لا يقاتل سعد عدوه من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وملؤهم فى عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلى أرض العرب ، ولما انتهى إلى سعد رأى المثنى ووصيته ترحم عليه وأمر أخاه المعنى على عمله ، وأوصى بأهل بيته وخطب امرأته وتزوجها .

وكانت وفاة المثنى على أثر انتقاض جراحة كانت أصابته فى وقعة الجسر الماضية ، واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية ، وقد كان رضى الله عنه على جانب من الشجاعة والإقدام والنظر البعيد فى شؤون الحرب لا يدانيه فيه إلا خالد بن الوليد ، وكان منذ وفوده على أبى بكر فى أول خلافته يهون عليه أمر الفرس حتى ولاه قتالهم ، ثم ولى خالداً فقاتل تحت رايته ، ثم لما سافر خالد إلى الشام وبقى المثنى أميراً على ما فتحه وخالد من أرض العراق دفعه الإقدام على أن يتوسع فى الفتح ويرمى بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويدوخ ذلك الملك العريض ، فوفد على أبى بكر فى حال مرضه فلم يسعه إجابة

سؤله وأوصى به عمر وأشار عليه بأن يرسل معه الجنود إلى فتح بلاد فارس فبعث معه أبا عبيد فكان منه ما كان من الانفراد بالرأى والوقوع فى التهلكه ، ومازال المثنى بعده يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من أهل العراق ويسعى بتثبيت دعائم الإسلام ثمة ، حتى وافاه سعد فوافته منيته قبل أن يراه ويتحقق أمله فى تدويخ بلاد الفرس ، فخسر المسلمون بوفاته شهماً مقداماً وقائداً عظيما بلغ من إخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب أن أوصى سعداً قبل وفاته بوصية وافقت رأى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فجاء كتابه إلى سعد يوصيه به بمثل وصية المثنى .

وأما نسبه فهو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل الربعى الشيبانى وكانت منازل قومه فى العراق ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه فرضى الله عنه وأرضاه .

انتظر سعد جواب كتابه الذى بعث به إلى عمر فجاءه الجواب يوصيه فيه بألا يقاتل الفرس إلا فى أطراف بلاد العراق مما يلى البادية ، وأن يلاقيهم فى القادسية ويوصى جمعه بالأمانة والصبر والثبات وأن يتيقظ لخديعة الفرس ومكرهم ، وسيأتى صورة الكتاب فى كتبه إن شاء الله .

فارتحل سعد بالناس حتى نزل بعذيب الهجانات فوفاه كتاب عمر رضى الله عنه ، يوصيه به ويسأله عن جغرافية البلاد وعمن يلى أمر الفرس فى ميادين القتال ، وعن مبلغ قوة العدو وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ، ذلك لكى يكون على بصيرة فيما يأمره به من الشؤون الحربية فى تلك الأصقاع النائية عنه ، ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ، ثم كتاب رابع يوصيه فيه بالوفاء بالعهد والذمة وبأن يفى بأمان من يؤمن من الأعاجم ولو بالإشارة

إذا لم يفهمها وظنها أماناً ، وستأتى هذه الكتب فى بابها إلا هذا الكتاب فإنا رأينا أن نأتى به هنا لضرورة لإيراده وهو بنصه (عن تاريخ الطبرى) .

إنى قد ألقى فى روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم ، فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه [١] بإشارة أوبلسان كان لايدرى الأعجمى ما كلمه به وكان عندهم أماناً ، فأجروا ذلك له مجرى الأمان وإياكم والضحك . والوفاء الوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر هلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم ، واعلموا أنى أحذركم أن تكونوا (أى بعدم الوفاء) شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم ا هـ .

كلمة فى التاريخ الإسلامى ورأفة عمر بالمحاربين :

هذا الكتاب يدلنا على أمرين : الأمر الأول أن الرأفة فى الحروب ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الجديدة فى هذا العصر وحدها ، بل هى من خصائص الدين الإسلامى أيضاً ، وقد سبق بها العرب على بداوتهم سبقاً بعيداً لا يشق غبارهم فيه بقية الأمم ، وحسبك من ذلك أن من شرط الاستئمان فى الحروب القانونية عند الأمم المتمدينة لهذا العهد إلقاء السلاح ورفع الراية البيضاء ، وكان شرطه عند المسلمين أهون من ذلك ، وهو أن مجرد الإشارة ولو نشأت عن هزل أو سوء تفاهم كانت تحتم على المسلم إجراءها مجرى الأمان .

---

(١) قال فى القاموس لاعبه أى لعب معه والقرف بالتحريك من المقارفة والقراف للمخالطة .

والأمر الثانى أن ما يتخرص به بعض المؤرخين من الغربيين وما يذكرونه من المثالب الشائنة عن الفتح الإسلامى منشؤه إما الغيظ والضغينة وإما سوء الفهم المتأتى عن تشويش التاريخ الإسلامى ، وإلقاء المؤرخين من المسلمين الكلام على عواهنه وخلطهم غثه بسمينه ، بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون الحربية والسياسية يومئذ ، وتفريق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار إلا لمن يدقق النظر ويستقصى حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير ، وماذلك إلا لتجنب مؤرخى الإسلام لفلسفة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتافه من الحوادث وتوسعهم فى أخبار الحروب الإسلامية دون الذرائع العلمية التى ترقت بها الأمة فى الشؤون الاجتماعية والعمرانية والسياسية ، حتى إن المدنية الإسلامية التى طبقت شهرتها الآفاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء آثارها وآثار أهلها إلى الآن أشبه فى الغموض بمدنية الأمم البائدة التى ينقب الباحثون فى تاريخها عن دفائنها الأرضية وآثارها العافية ليقفوا على تاريخها الغابر ، بل بلغ بغموض تاريخنا وإغماض طرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ أن أحدنا لو أراد أن يعلم كيف كانت حالة قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لايجد إلى ذلك سبيلا ، هذا فيما قرب عنده من العصور ، فما بالك بالقديم ، وإلا فأين هو لعمرو أبيك التاريخ الذى يفصل لنا أخبار السلف التى تتعلق بمدنيتهم الغابرة وأصول معيشتهم وصنائعهم وعوائدهم وأزيائهم وأصول حكومتهم المتعلقة بالإدارة والقضاء والسياسة والجندية وأصول التعليم والمدارس والمصانع وغير ذلك مما يتعلق بترقى هذه الأمة وحالتها الاجتماعية التى أدهشت أهل المغرب أيام الحروب الصليبية فرأوا عندها من النظام السائد والتبسط فى العمران والقيام على شؤون الإدارة والحرب مالم يخطر لهم على بال .

اللهم إنا لا نرى فى التواريخ الإسلامية خبراً من هذا القبيل إلا بطريق

العرض مستوراً فى ثنايا الأخبار ، وربما ألم بعض المؤرخين بشىء من ذلك كالخطيب فى تاريخ بغداد والمسعودى فى تاريخه الكبير ، إلا أننا لسوء الحظ لم نر من هذه التواريخ إلا شذرات منقولة فى تضاعيف الكتب والأصل مفقود العين ، إلا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة فى بعض المكاتب لا تشفى الغليل .

فإذا كان هذا شأن التاريخ الإسلامى فى عصور الترقى والحضارة ، وذلك شأن المؤرخين فى إغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم فى سرد أخبار الحروب ، فلا جرم أن يظن الجاهل والعدو أن الأمة الإسلامية إنما وجدت لإزعاج العالم بالحرب والقتال ، وأن تتشوش الحقائق المندمجة فى أخبار الفتح فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامهما فى عصر الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى يشهد ذلك القليل الذى وصلنا من أخبار سياسته أنه وضع للحرب والسياسة أصولا بلغت الغاية من الرأفة والعدل ، لو استقصيت ودونت فى كتاب على حدة وعمل بها الخلفاء والسلاطين فى كل عصر وأضافوا إليها ما تمس إليه الحاجة التابعة لترقى الدول والزمان ، لما وجد الأعداء سبيلا للقدح فى الفتح الإسلامى ، وكذلك لو عنى المؤرخون أيضاً بذكر وتدوين الوسائط المدنية فى عصور الترقى الإسلامية . لكانت لهذا العهد منوالا تنسج عليه الأمة أو منبهاً يحرك فيها باعث الجد لاسترجاع ما فات والتوثق من حفظ استقلالها وصون حياتها مما هو آت .

خبر القادسية وغيرها :

لما انتهى سعد إلى عذيب الهجانات قدم أمامه زهرة بن الحوية إلى

القادسية (١) ، وجاء على أثره بعد أن ترك خيلا وجنداً تحوط الحريم فلم يجد فى القادسية جنداً من الفرس ، فأخذ يبث السرايا للغارة والإرهاب ووقف مكانه موقف المدافع تبعاً لإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبعث عيونه إلى الحيرة وغيرها ليأتوا له بالخبر ، فعادوا فأخبروه أن كسرى قد ولى رستم بن الفرخزاد الأرمنى حربه وأمره بالعسكرة فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر .

أما بعد لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالا من أهل النظر والرأى والجلد يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً (٢) ، عليهم واكتب إلى فى كل يوم .

وأما رستم فإنه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة ألف مقاتل أو يزيدون كما فى رواية البعض ، وتقدم سعد إلى نفر من قادة المسلمين ذوى منظر وآراء وعليهم مهابة ، فبعثهم إلى يزدجرد يدعونه إلى الإسلام أو الجزية وهم النعمان بن مقرن ، وبسر بن أبى رهم ، وحملة بن جوية الكنانى ، وحنظلة بن الربيع التميمى وفرات بن حيان العجلى وعدى ابن سهيل ، والمغيرة بن زرارة بن النباش وعطارد بن حاجب ، والأشعث ابن قيس والحارث بن حسان ، وعاصم بن عمرو ، وعمرو بن معدى كرب والمغيرة بن شعبة ، والمعنى بن حارثة ، فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن دعاة ابزدجرد فطووا رستم حتى انتهوا إلى باب يزدجرد فحبسوا ريثما جمع

(١) القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق ، لهذا اختارها الخليفه عمر لمقام جيش سعد لقربها من البادية وعدم إقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهقر أمامهم جيش المسلمين .

(٢) قال فى القاموس الفلج الظفر والنصر .

يزدجرد وجوه دولته واستشارهم فيما يجيبهم به ، فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فأدخلوا عليه وجرى بينه وبينهم كلام طويل ، سيرد معنا فى سيرة سعد ابن أبى وقاص. ولما لم يجب يزدجرد طلب المسلمين أرسل سعد المغيرة بن شعبة إلى رستم وكان رجلا داهية ذا بصيرة ورأى ، إلا أنه أبى أن يجيب إلى الإسلام أو الجزية تبعاً لرأى قومه ومشورتهم ، فأعلن الحرب على المسلمين وكانت بينه وبين المسلمين إلى أن قتل حروب شديدة انتهت بفل جموع الفرس فى القادسية وتقدم جيش المسلمين إلى عاصمة الأكاسرة ، كما سنرى تفصيل الخبر فى سيرة سعد بن أبى وقاص إن شاء الله وكان مقام المسلمين فى القادسية منذ وصلوا إلى أن ظفروا شهرين .

لما فرغ سعد من حرب القادسية أقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب إلى عمر فيما يفعل ، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن فسار إلى المدائن لأيام بقين من شوال سنة (١٥) وقيل (١٦) والتقى بجيش للفرس فى مكان يدعى برس فهزمه ، فانضم إلى فالة القادسية فى بابل فأرسل إليهم زهرة ابن الحوية فقاتلهم وهزمهم ، ثم سار سعد إلى المدائن وهى بهرسير (١) ودخلها بعد حصار شهرين ، وهرب منها كسرى إلى حلوان فغنم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس فى المدائن مالا يعد ، ثم دعا سعد الدهاقين إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة فلم يبق غربى دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا آمن واغتبط بملك الإسلام ، ثم بعد أن ملك المسلمون إيوان كسرى جعلوه مسجداً وإن سعدا ليصلى فيه بالناس والتماثيل من الجص قائمة فيه ، ثم أرسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص إلى حلوان وماسبذان فافتتحهما ، وفر كسرى من حلوان إلى

---

(١) المدائن هى عاصمة الأكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربى من بغداد وتسمى قديماً طيسيفون ويسميها الإفرنج اكطزيفون .

الراى وقيل إلى أصفهان وكان ذلك سنة (١٩) وأقام سعد فى المدائن سنة (١٧) وفتحت جيوشه فى غضونها تكريت والموصل ، ثم تحول إلى الكوفة بعد أن اختطها بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما سيأتى ذكره فى محله إن شاء الله .

مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج

كيف يكون الاستعمار :

إن من الأصول السديدة فى الفتح والاستعمار أن يؤسس على مبدأ حفظ الثروة المحلية لأهلها ، لتكون هذه الثروة مادة ينتفع منها الفاتح وأصلا تنمو بنمائه ثروة الدولة وتدوم بدوامه مادة العمران ، وكلما تبسط أهل المملكة فى العمران وجد المستعمر من وسائل الكسب عندهم ما لم يجده فيما لو نضب معين ثروتهم وانكمشت عن العمل أيديهم ، وقل أن تراعى الدولة الفاتحة هذا الأصل السديد والمرمى البعيد فى الممالك المفتتحة ، بل معظم الفاتحين إلى هذا العهد يعتبرون البلاد التى أخذت عنوة ملكا حلالا لهم يجوز انتزاع الثروة من أهلها بطريق الإكراه التدريجية ليستأثر بها أهل ملتهم ويستغنى منها وطنهم على زعمهم ، ولم نعهد فى هذا العصر دولة من الدول المتمدينة الأوربية تراعى حفظ الأصل فى الثروة لأهله فى المستعمرات الإفريقية والأسيوية إلا دولة انكلترا ، فربما كانت أحسن الدول قياماً على ذلك الأصل فى مستعمراتها الكثيرة الشاسعة ، وأخفهن وطأة على الرعية ، مع أن دعوى التمدين العريضة تستدعى الرأفة والعناية بسكان المستعمرات من سائر الدول الأوربية ، وتستلزم مراعاة الأصول الاقتصادية فى حكم البلاد المفتتحة كما هى مرعية فى الممالك الأوربية ، وهيهات هيهات فإن غلبة الشهوات تمحو عن لوح الذاكرة كل علم نقشته عليه أقلام العلماء فى ديار المدنية ، وليت جهلة

الكتاب من الإفرنج الذين يرمون الفتح الإسلامى وأهله بوصمة التخريب والتدمير ويسمونهم بسمات البداوة يبحثون فى التاريخ الإسلامى عن أصول الاستعمار والفتح عند العرب ، ويتعلمون منهم ما يفيدون به دولهم المتمدينة فى وضع أساس العدالة وحفظ أصول الثروة لأهلها فى الممالك المفتتحة .

إن مبدأ الفتح الإسلامى الذى يسم جهلة الإفرنج أهله بالبداوة والتخريب ، إنما كان فى عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثانى للمسلمين الذى قهرت جيوشه دولتى الفرس والروم ، ورفعت أعلام دولته على أخصب ممالك الأرض لعهده ، فكان من جميل سياسته فى هذه الممالك وعظيم عدله فى الرعية أن حفظ على الأهلين مادة ثروتهم وكف يد المسلمين عن انتزاع أرضهم ، وراعى فى ترتيب الجزية والخراج ثروات الأفراد وخصب الأرض وجدبها ونوع النبات والشجر المستنبت فيها ، وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعتملون فى أرضهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع أرضهم منهم ، ومن ذلك ما رواه فى آثار الأول وترتيب الدول عن عبد الله ابن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد يتقدمون إلى الرعية بأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون .

وعن شريك بن عبد الرحمن أن شريك بن أبى سمى العطيفى أتى إلى عمرو ابن العاص فقال إنكم لا تعطونا ما يحسبنا (يكفينا) أفتأذن لى بالزرع ، فقال له عمرو ما أقدر على ذلك . فزرع شريك من غير إذن عمرو فلما بلغ ذلك عمراً كتب إلى عمر بن الخطاب يخبره أن شريك بن سمى العطيفى زرع بأرض مصر ، فكتب إليه عمر بن الخطاب أن ابعث إلى به فلما انتهى كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أقرأه شريكا : فقال شريك لعمرو قتلتنى ياعمرو ، فقال له

عمرو أنا قتلتك ، أنت صنعت هذا بنفسك ، فقال له إذا كان هذا من رأيك فأذن لى بالخروج من غير كتاب ، وذلك عهد الله أن أجعل يدى فى يده (يعنى أنه لا يهرب) فأذن له بالوقوف ، فلما وقف على عمر قال : تؤمنى يا أمير المؤمنين : قال ومن أى الأجناد أنت : قال من جند مصر : قال فلعلك شريك بن سمى : قال نعم يا أمير المؤمنين قال : لأجعلنك نكالا لمن خلفك : قال أو تقبل منى ماقبل الله من العباد : قال أو تفعل : قال نعم : فكتب إلى عمرو أن شريكا جاءنى تائباً فقبلت منه .

وأخرج فى فتوح البلدان عن إبراهيم التيمى قال لما افتتح عمر السواد (يعنى سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فإنا فتحناه عنوة بسيوفنا ، فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ، وأخاف إن قسمته أن تتفاسدوا بينكم فى المياه : قال : فأقر أهل السواد فى أرضهم وضرب على رءوسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق (الخراج) ولم يقسم بينهم .

وأخرج عن يزيد بن حبيب : قال : كتب عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبى وقاص حين فتح السواد (أما بعد) فقد بلغنى كتابك ، تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى فانظر ما أجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس ، واترك الأرض والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء ، وفى كتاب الخراج لأبى يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع إليه .

وبلغ من حرص عمر رضى الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ أرضهم لهم ، أن أحد بنى الحارث بن كلدة طلب من عمر أرضاً يفتلى[1]

---

(١) فى القاموس فلا الصبى والمهر فلواً وفلاء عزله عن الرضاع أو فطمه كأفلاه وافتلاه

فيها خيله ، فكتب إلى أبي موسى الأشعرى إن أبا عبدالله سألني أرضاً على شاطىء دجلة يفتلي فيها خيله فإن كانت فى غير أرض الجزية ولا يجزأ إليها ماء الجزية فأعطه إياها ، وقيل بل كتب بذلك إلى المغيرة بن شعبة فى ولايته كتاباً غير هذا وهو بمعناه كما تراه فى محله إن شاء الله وهذا وايم الله من الإغراق فى العـــدل ، وحقه أن يكون شرعة حق يسلكها دول الاستعمار مع المسلمين وهيهات هيهات : وأما كيفية ترتيب عمر للجزية والخراج فى العراق فهو أنه لما زال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الإسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب ، رأى ورأيه العدل أن ينظم شؤونه الإدارية ويرتب فيه الوضائع على نحو ترتيب كسرى أنو شروان ، إلا أنه خوفاً من إجحاف العراقيين أو تظلمهم رأى أن تمسح أرض السواد وتفرز أجزاء بنسبة الخصب ومايحمله كل جزء من الشجر ، وأن يحصى السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الأفراد من الغنى والفقر ، فبعث عثمان بن حنيف الأنصارى إلى العراق العربى وحذيفة بن اليمان إلى العراق العجمى فمسحا الأرض ووضعا عليها الخراج بنسبة حالها ومذدرعها فجعلا على جريب[1] النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين ، وكتبا بذلك إلى عمر فأجازه ، وفى رواية لأبى يوسف أنه جعل على جريب النخل ثمانية دراهم .

وأخرج أبو يوسف والبلاذرى عن الشعبي أن عثمان بن حنيف لما مسح السواد وجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب (أى ستة وثلاثين مليونا)

---

(١) فى القاموس الجريب اسم لمكيال وللمزرعة وأما مساحته فقد ذكر الطبرى فى تاريخه أن المسلمين لما غنموا بساط كسرى وجدوه ستين ذراعاً طولا وستين عرضاً قال وهو مقدار جريب فعلى هذا تكون مساحته ٣٦٠٠ ذراع مربع .

وفى رواية أنه استثنى النخيل وفى رواية أن عمر ألغى النخل فى ولاية المغيرة ابن شعبة على العراق والظاهر أنه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته وإصداره إلى البلاد لأنه مادة التجارة فى العراق .

وبلغ خراج العراق فى ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أى مائة مليون درهم) وذلك عدا الصوافى التى اصطفاها عمر لبيت المال وكانت لآل كسرى أو لمن هرب وترك أرضه ، وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أى سبعة ملايين) وأقطعت هذه الصوافى بعد ذلك للصحابة .

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخص ، فجعلها على ثلاث مراتب ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنى عشر ، وذلك بنسبة حال الأفراد فإذا اعتبرنا فى هذا العدد متوسط الجزية الذى هو أربعة وعشرون درهما فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر مليونا ومائتى ألف درهم إذا أضيفت إلى مبلغ الخراج بما فيه خراج الصوافى فيكون مجموع الجباية فى العراق على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مائة وعشرين مليون درهم ومائتى ألف درهم[1] كانت تنفق فى أعطيات الجند وأرزاق المسلمين ما عدا الخمس ، فإنه يرسل إلى المدينة وينفق مايلزم من الجباية لإصلاح الجسور وحفر الأنهر ، ومن الأنهر التى احتفرها عمر فى العراق النهر المعروف بنهر معقل قرب البصرة ، ونهر سعد بن عمرو بن حرام قرب الأنبار وغيرهما .

وأخرج الإمام أبوالفرج بن الجوزى فى مناقب عمر عن عمر بن ميمون

---

(١) ورأيت فى مناقب عمر للإمام أبى الفرج بن الجوزى أن جباية العراق العربى المعروف بالسواد والعراق العجمى المعروف ببلاد الجبل بلغت مائة وعشرين مليونا (واق) قال والواق درهم ودانقان ونصف ، هذا ماقاله ابن الجوزى وأما الدانق فقد كان كل درهم أربعة دوانق وهو الدرهم البغلى ، وأما الدرهم الطبرى فقد كان ثمانية دوانق وقيل بالعكس

قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بالمدينة وقف على حذيفة ابن اليمان وعثمان بن حنيف ، فقال كيف فعلتما (يعنى بالعراق) أتخاف أن تكونا حملتما الأرض مالا تطيق : قالا لا ، فقال عمر لئن سلمنى الله لأدعن أرامل أهل العراق لايحتجن إلى أحد بعدى أبداً فما أتت عليه الأربعة إلا أصيب ، وروى أبو يوسف فى الخراج أن عمر كان يجبي الخراج ثم يخرج كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله إنه من طيب مافيه ظلم مسلم ولا معاهد ، وهل بعد هذا العدل عدل يؤثر عن الملوك والخلفاء ، ويذكر عن الدول لا والله . هكذا كان مايسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب ، إذ تأسس على قاعدة حفظ الثروة المحلية لأهلها لتكون مادة ينتفع منها الفاتح وأصلا تنمو بنمائه ثروة الدولة ، وإنما أخذ عمر هـــذه القاعدة من القرآن الكريم الذى هو أول كتاب إلهى قرر هذه القاعدة ، وذلك أن عمر لما ألح عليه بعضهم بقسمة الأرضين فى العراق والشام أبي إلا إبقاءها بيد أهلها وانتفاع المسلمين بخراجها فقط ، وقال كيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض قد حيزت وقسمت ماهذا برأى . وجمع الناس للشورى واحتج على من رأى قسمة الأرضين بالكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطاً فى كتاب الخراج لأبى يوسف ، وقال إنى قد وجدت حجة الله تعالى فى كتابه وتلا الآيات التى نصت على الفيء وقسمته وعلى مستحقيه من المسلمين وهى (ما أفاء الله على رســـوله) إلى أن قال بعد ذكر ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمجاهدين والأنصار (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) وقال لهم عمر رضى الله عنه هذه الآية عامة لمن جاء بعدهم (أى بعد من ذكروا فى الآيات) فقد صار هذه الفيء بينهم جميعاً فكيف نقسمه لهؤلاء (يعنى الفاتحين) وندع من تخلف

من بعدهم بغير قسم فأجمع على تركه وجمع خراجه ووافقه على ذلك المخالفون وتم الأمر أن تبقى الأرضين بيد أهلها لتكون مادة يستمد منها أهلها والفاتحون مادة الحياة ، وهذا هو قانون الاستعمار العادل وأساسه المتين .

لما تمهد أمر العراق لعمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث عتبة ابن غزوان والياً على البصرة ، وولى سعد بن أبي وقاص الصلاة وإمارة الحرب العامة على كل ما غلب عليه من البلاد . وجعل مقره الكوفة ، ولما عزله ولى عمر بن ياسر ثم المغيرة بن شعبة ثم أبا موسى الأشعرى ثم عمر بن سراقة وغيرهم ، وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ماسقت دجلة وسويدا أخاه على ماسقى الفرات ، ثم ولى عملهما حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما ، اللذان مسحا العراق كما تقدم ،

عود إلى خبر الفتح

غزوة فارس من البحرين :

كان العلاء بن الحضرمى ، أحد أبطال حروب الردة عاملا لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب مما يلى خليج فارس ، وكان يبارى سعد ابن أبي وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفضل فى أيام حروبه فى الردة ، فلما ظفر سعد بالفرس ودوخ عاصمة ملكهم واستعلى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء ، رأى العلاء أن يبارى سعداً ويؤثر أثراً فى الأعاجم ونعمت المباراة والمنافسة فى الفتح والجهاد لو لم تكن بدون إذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى كان لا يأذن بخوض جيوشه فى البحار تربصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب ، وأما العلاء فقد تسرع وندب الناس لمهاجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه فجهز جيشاً

عدته ١٢ الف مقاتل ، فيهم من الرؤساء الجارود بن المعلى والسوار بن همام وعلى الجميع خليد بن المنذر بن ساوى فحملهم فى البحر إلى فارس فخرجوا إلى اصطخر وعليها المرابطة وعليهم قائد اسمه الهربذ ، فما عتم أن قابلهم الفرس حتى حالوا بينهم وبين سفنهم ، واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالا شديدا وشجعهم خليد بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقتل الجارود وسوار فاستمات ابناهما عبد الله بن السوار والمنذر بن الجارود فقاتلا حتى قتلا وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول :

يالَ تميم أجمعوا النزول　　　وكاد جيش عمر يزولُ
وكلكم يعلم ما أقولُ

فنزلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مقتلة عظيمة ، ثم خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا إلى الرجوع سبيلا وأخذ الفرس عليهم الطرق فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا ودافعوا العدو مدافعة الأبطال الصناديد .

وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسيير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته مايصير إليه من الهلاك فى تلك البلاد النائية فاشتد غضبه على العلاء وكتب إليه بعزله وأمره بأثقل الأشياء عليه ، وذلك أن ينضم بمن معه إلى سعد ابن أبى وقاص ويكون تحت إمارته ، وكتب إلى عتبة بن غزوان والى البصرة بالخبر وأمره أن يندب الناس إلى نصرتهم قبل أن يجتاحهم الفرس ، فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فانتدب عاصم بن عمر وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن والأحنف بن قيس وأمثالهم من قادة العرب وفرسانهم ، فخرجوا فى اثنى عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل كى لايفنيها الركوب وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم أحد بنى مالك وساحل (أى مشى على الساحل)

أبو سبرة والمسالح فى الأهواز وهم رده له حتى التقى بخليد بحيث عسكر وأخذت عليه الطرق وحصر هو وجنوده الليوث البواسل ، فاستصرخ أهل اصطخر أهل فارس على المسلمين فأقبلوا عليهم من كل فج ، فالتقوا هم وأبو سبرة وتوافت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنوهم ، فلم يتمكن الفرس من حصرهم أو قطع المادة عنهم وقاتلهم المسلمون وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وعادوا بذلك الجيش المحصور ببركة رأى عمر وأخذ الحيطة اللازمة لسلامة جيش يريد التوغل فى بلاد العدو ، وكان لأهل البصرة فضل عظيم بإنقاذ جيش العلاء والظفر بالفرس .

ولما رجع الجيش إلى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فأذن له ، فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه أن يرجعن إلى عمله فانصرف على غير رضاه فمات فى بطن نخلة فدفن ، وبلغ عمر وفاته فأثنى عليه بفضله وولى مكانه أبا سبرة بن رهم بقية السنة ، ثم استعمل المغيرة بن شعبة فى السنة الثانية فاستمر فيها إلى أن جرى بينه وبين أبى بكرة ماجرى ، مما سيأتى فى محله إن شاء الله فعزله عمر واستعمل مكانه أبا موسى الأشعرى .

خبر الهرمزان

وفتح الأهواز وتستر والسوس وغيرها

كان الهرمزان أحد البيوتات السبعة فى أهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس وانهزم بهزيمتهم فجاء إلى الأهواز[1] وتولى أمرها وأخذ يغير على

---

(١) الأهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فاس ونحن نلخص هنا ما ذكره فى شأنها ياقوت فى معجمه وهو :

الأهواز جمع هوز وفى قول جمع خوز فهى على القول الأول محرفة عن حوز والحوز مصدر حاز الرجل الشىء يحوزه حوزاً إذا حصله وملكه والحوز فى الأرضين أن يتخذها رجل ويعين حدودها فيستحقها فلا يكون لأحد فيها حق فذلك الحوز . =

أهل ميسان فقلق منه عامل البصرة عتبة بن غزوان فاستمد سعداً فأمده بنعيم ابن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان ودستميسان ووجه عتبة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وكانا من المهاجرين فنزلا على حدود أرض ميسان ، وهناك قوم من العرب يقال لهم بنو العم بن مالك فاتفقوا معهم على المعاضدة ، وأن يثوروا بالهرمزان ، وكان من زعمائهم غالب الوائلي وكليب بن وائل ونعيم ، وبلغ ذلك الهرمزان فسقط فى يده فانهزم ، فتبعه المسلمون وقتلوا من قومه ماشاءوا حتى انتهى الهرمزان إلى جسر سوق الأهواز فعبره وأقام بها ونزل المسلمون بحياله . فلما رأى مالا طاقة له به طلب الصلح فكتبوا إلى عتبة بن غزوان بذلك فأجاب عتبة إلى الصلح على الأهواز كلها ماخلا نهر تيرى ومناذر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنه لا يرد عليهم وجعل سلمى بن القين على مناذر مسلحة وأمرها إلى غالب وحرملة على نهر تيرى وأمرها إلى كليب فكانا على مسالح البصرة وكتب عتبة بذلك إلى عمر أوفد إليه وفداً منهم سلمى وحرملة وكانا من الصحابة وغالبا وكليبا وأوفد معهم بعض وجوه أهل البصرة وفيهم الأحنف ابن قيس فأمرهم عمر أن يرفعوا حوائجهم فكلهم قال : أما العامة فأنت صاحبها ولم يبق إلا خواص أنفسنا ، فطلبوا لأنفسهم إلا الأحنف بن قيس فإنه تكلم فأغرب وأعرب عن حاجات البصريين فأجابه عمر إليها وقال : هذا الغلام سيد أهل البصرة : ثم كتب إلى عتبة بن غزوان فيه بأن يسمع منه ويشرب برأيه . وقيل بل احتبسه عنده فى المدينة وسيأتى الكلام على هذا فى سيرة الأحنف إن شاء الله .

= وعلى القول الثانى الأخواز مواضع فى خوزستان — وموقع الأهواز بين البصرة وفارس، وكورها أى أقسامها سوق الأهواز ورامهرمز وأيذج وعسكر مكرم وتستر وجنديسابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر وكان خراجها ثلاثين الف الف (٣٠ مليون) درهم وكانت الفرس تقسط عليها خمسين ألف ألف وعاصمة هذا القسم هرمزدارسابور أو سوق الأهواز .

ثم إن عمر رد سلمى وحرملة وغالباً وكليباً إلى مناذر ونهر تيرى فكانوا عدة فيه لكون إن كان .

ثم وقع بين الهرمزان وبين غالب وكليب اختلاف فى حدود الأرضين فحضر ذلك سلمى وحرملة لينظر فيما بينهم فوجدا غالباً وكليباً محقين والهرمزان مبطلا فحالا بينه وبينهما فكفر الهرمزان أيضاً ومنع ما قبله واستعان بالأكراد فكثف جنده فكتب الأمراء إلى عتبة بذلك فكتب عتبة إلى إلى عمر رضى الله عنه فأمدهم عمر بحرقوص بن زهير السعدى وكانت له صحبة وأمره على القتال وعلى ماغلب عليه من البلاد فجاء فقاتل الهرمزان فهزمه ففر إلى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الأهواز وأقام بها واتسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تستر ووضع الجزية وكتب بالفتح إلى عمر ثم بعث جزء بن معاوية فى أثر الهرمزان بأمر عمر فانتهى إلى قرية الشغر وأعجزه بها الهرمزان فمال جزء إلى دورق (وهى مدينة سرق) وفيها قوم لا يطيقون منعها فأخذها جزء صافية وكتب إلى عمر بذلك وإلى عتبة وإنه دعا من هرب إلى الجزاء والمنعة فأجابوه فكتب عمر إليه وإلى حرقوص ابن معاوية بن زهير بلزوم ما غلبا عليه وبالمقام حتى يأتيهما أمره وذكر الطبرى فى غضون هذا الخبر أن جزء بن معاوية استأذن عمر رضى الله عنه فى عمران البلاد فأذن له فشق الأنهار وعمر الموات ، وهكذا كان دأب هؤلاء الفاتحين الذين يرميهم الأعداء بالهمجية والتدمير والتخريب فإنهم ماوطئوا أرضاً إلا عمروها وأنصفوا أهلها فى الحكم والمعاشرة والجوار .

وأما الهرمزان فأقام فى رامهرمز وطلب الصلح فصولح على مالم يغلب عليه المسلمون من أرضه فأقام الهرمزان على صلحه يجبى إلى الأمراء ويمنعونه وإن غار عليه أكراد فارس منعوه وكان ذلك فى سنة (١٧) وقيل فى سنة (١٦) ثم كفر

(أى جحد) مرة أخرى وذلك أن كسرى يزدجرد حرضه على العصيان وحرض أهل الأهواز عامة ، فانتهى ذلك إلى الأمراء ، فكتبوا إلى عمر رضى الله عنه وإلى المسلمين بالبصرة فكتب عمر إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثا كثيفا مع النعمان بن مقرن وعجل وابعث سويد بن مقرن فى نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له : وكتب بمثل ذلك إلى أبى موسى الأشعرى وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره أن يسرح إلى الأهواز جنداً كثيفاً وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ، ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وأشباههم وأن تكون إمارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة إلى أبى سبرة بن أبى رهم فخرج النعمان فى أهل الكوفة فأخذ وسط السواد حتى قطع دجلة بحيال ميسان ثم أخذ البر إلى الأهواز وانتهى إلى نهر تيرى فجازها ثم جازسوق الأهواز وخلف حرقوصا وسلمى وحرملة أمراء الأهواز ثم سار إلى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ورجا أن يقتطعه وقد طمع الهرمزان فى نصر أهل فارس وقد أقبلوا نحوه ونزلت أوائل أمدادهم بتستر فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالا شديداً انتهى بانتصار المسلمين وانهزام الهرمزان إلى تستر ثم توافى الأمراء واجتمعوا على تستر وكتب أبو سبرة يستمد أمير المؤمنين فأمدهم بأبى موسى والظاهر أن جنود الفرس التى كانت جاءت مدداً للهرمزان كانت كثيرة العدد ، لهذا حاصروهم أشهراً وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز فى غضون مدة الحصار وقتل مثل ذلك مجزاة بن ثور ومثله كعب بن سور وقتل مثل ذلك كثير من أبطال البصرة والكوفة ، وعند نهاية الحصار جاء رجل إلى النعمان فاستأمنه على أن يدله على مدخل للمدينة ، فندب النعمان نفراً من الشجعان فدخلوا معه المدينة وأناموا من على الباب وفتحوه ودخلها الجنود ، فلما شعر بذلك الهرمزان فر إلى القلعة واعتصم بها ثم طلب الأمان على أن ينزل منها على حكم أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف ، وقتل ليلتئذ جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزاة بن ثور قتلهما الهرمزان بنفسه .

وخرج أبو سبرة فى أثر الفل إلى السوس وأحاط بها بجنده وكتب بذلك إلى عمر فكتب عمر برد أبى موسى إلى البصرة وأن يسير زربن عبد الله بن كليب إلى جندى سابور وأمر على جند البصرة المقترب الأسود ابن ربيعة أحد بنى ربيعة بن مالك .

ثم إن أبا سبرة أوفد إلى المدينة وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا إلى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً فى ميمنة المسجد متوسداً برنسه فجلسوا دونه وليس فى المسجد غيره : فقال الهرمزان أين عمر: فقالوا : هوذا : فقال أين حرسه وحجابه : قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال فينبغى أن يكون نبياً : فقالوا بل يعمل عمل الأنبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر إلى الهرمزان فقال الهرمزان: قالوا نعم : فتأمله وتأمل ما عليه وقال : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشياعه يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة ، ثم قال هيه ياهرمزان رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله : فقال يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية كأن الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا : فقال عمر إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا .

هذا هو القول الحق الذى لامراء فيه، إذ ما محق الأمم وذهب باستقلال الشعوب إلا التفرق ، وما مهد للمسلمين سبيل النصر على الدول إلا اجتماع

تلك القبائل المتفرقة على كلمة الإسلام وتمسكهم بعرى الأخوة والوئام ، هذا على إغراقهم فى البداوة و بعدهم عن أسباب الحضارة وجدتهم فى سياسة الملك وبالله لو استمرت عرى اجتماعهم متوثقة وأمور دولتهم متنسقة إلى عهد الحضارة الإسلامية التى استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا فى مناحى العمران لما تطرق إليهم الوهن ولما فترت منهم الهمم ، ولكن سلط عليهم أمراؤهم ففرقوا كلمتهم وأفسدوا عليهم أمرهم فتباغضوا تباغض الأعداء ، وتناسوا يارباه روابط الإخاء التى ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ، ففتحت لهم ممالك الأرض أقصاها وأدناها ، وبعد فإن المسلمين لم يكونوا فى عصر أحوج إلى الوئام وأفقر للالتئام منهم فى هذا العصر الذى ملأ فراغ الوجود عبراً يهز أعصاب الأموات وتثير فى النفوس الخامدة بواعث الشعور بما هو آت ، ومع هذا فلا يزال أولياء أمورهم فى تخاذل وتباغض لا يودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظهم العبر يفرقون بين الأخ وأخيه والوطن وبنيه تزاحماً على اسم الرياسة وتواطؤاً مع الزمان على هذه الأمة الإسلامية التى تمزقها الأعداء والفاتحون وزاحمها على أرضها الغربيون وطاردها فى حماها المتغلبون وهى مستغرقة فى بحران الغفلة مستسلمة لأحكام القضاء استسلام الجبان للعدو القاهر ، لا تلتمس لها مخرجا من هذا الضيق ، ولا تفتأ تعبد رؤساءها الذين قذفوا بها إلى هذا المكان السحيق، وقالوا بعداً للقوم الجاهلين.

ثم إن عمر رضى الله عنه قال للهرمزان ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة فقال أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك ، قال لا تخف ذلك فاستسقى الهرمزان ماء فأتى له به فى قدح غليظ ، فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا ، فأتى به فى إناء يرضاه فأظهر الجزع وقال إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه : فأكفاه

فقال عمر : أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش : فقال لا حاجة لى فى الماء إنما أردت أن أستأمن به فقال له عمر : إنى قاتلك : قال : قد آمنتنى : فقال كذبت فقال أنس صدق ياأمير المؤمنين قد آمنته : قال ويحك ياأنس أنا أو من قاتل مجزأة والبراء والله لتأتينى بمخرج أو لأعاقبنك : قال: قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى وقلت لا بأس عليك حتى تشربه :وقال له من حضر مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتنى والله ولا أنخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وفرض له على ألفين وأنزله المدينة . وربما كان بعض الوفد هو الذى علمه هذه الحيلة شفقة عليه من القتل وإلا فانخاله يعلم من أخلاق العرب الوفاء إلى هذا الحد والله أعلم .

خشى عمر رضى الله عنه أن يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة مرار مع كونه عاهدهم ودخل فى ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لأهل ذمتهم فى فارس والعراق ، فاستدعى الوفد الذى وفد عليه مع الهرمزان وسألهم عن ذلك وقال لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى : فقالوا لا مانعلم إلا وفاء وحسن ملكة :قال فكيف هذا وماسبب غدر أهل فارس: فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون إلا ما كان من الأحنف ابن قيس فقال : يا أمير المؤمنين أنا أخبرك إنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على مافى أيدينا وإن ملك فارس حى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شىء إلا بانبعاثهم وإن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزامته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جاشا : فقال عمر صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه ونظر فى حوائجهم وسرحهم : وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل

نهاوند فتحرك فى نفسه أن يأذن بالانسياح بعد أن كان متوقفاً فيه لقلة جيوش المسلمين بالنسبة لأهل فارس وعظيم قوتهم وضخامة سلطانهم .

قدمنا أن أبا سبرة ذهب فى أثر المنهزمين من جنود الهرمزان إلى السوس وحاصرها فسلمت له ، وقيل بل كان على حصارها أبو موسى الأشعرى ، وكان يزدجرد بعث أحد قواده واسمه سياه فى ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلا من أشراف فارس وعظمائهم إلى السوس وأمره أن ينتخب من كل بلدة مر بها من أحب ، فمضى سياه إلى السوس وقد سلمت ودخلت فى حوزة المسلمين ، فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتستر وقد عظم عنده أمر المسلمين وعلم بفراسته أنهم ظافرون بالدولة الفارسية لامحالة، فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم : قد علمتم أنا كنا نتحدث أن هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم فى إيوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدون خيولهم بشجرها، وقد غلبوا على مارأيتم وليس يلقون جنداً إلا فلوه ولاينزلون بحصن إلا فتحوه فانظروا لأنفسكم .

قالوا رأينا رأيك . قال فليكفنى كل رجل منكم حشمه والمنقطعين إليه فإنى أرى أن ندخل فى دينهم . وإنما أمرهم بأن يكفوه الجند تلافياً للمعساه يحدث منهم فيما لو أسلم أشرافهم فلبى الرؤساء أمره ثم وجهوا أحدهم واسمه شيرويه إلى أبى موسى فى عشرة من الأساورة فقدم عليه وقال له : إنا قد رغبنا فى دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه وننزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا بأشراف العطاء[1] ويعقد لنا الأمير الذى هو فوقك

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ولعله بأشرف العطاء أى أعلاه أو بالأشراف من أهل العطاء والعطاء هو فى عرفنا الآن المرتب أو الماهية ، وسيأتى الكلام عليه فى هذا الكتاب .

بذلك : فقال أبو موسى بل لكم مالنا وعليكم ماعلينا : قالوا لا نرضى : فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه أن أعطهم ماسألوه ورأى منهم مرة تقصيراً فى الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا إليه بقلة العطاء فكتب بذلك إلى عمر رضى الله عنه فكتب إليه أن ألحقهم على قدر البلاء فى أفضل العطاء وأكثر شىء أخذه العرب ، ففرض لمائة منهم فى الفين ولستة منهم فى ألفين وخمسمائة ، فقال الشاعر :

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم وكان بما يأتى من الأمر أبصرا
فسن لهم ألفين فرضاً وقد رأى ثلاث مئين فرض عك وحميرا

وفى هذه الأبيات استحسان لما صنعه عمر رضى الله عنه بإلحاق القوم بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتى من قبلهم ، ولا جرم أن الانتفاع بناس كهؤلاء لايفوت ذلك الخليفة العظيم الذى أدهش بحسن سياسته يومئذ ملوك الفرس والروم فرضى الله عنه وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء .

خبر جندى سابور

وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين

روى الطبرى أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج فى جنده حتى نزل على جندى سابور وزر بن عبدالله بن كليب محاصرهم فأقاموا عليها ينادونهم ويراوحونهم القتال فلم يفجأهم يوماً إلا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبث أهلها فخار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم أن مالكم : قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا : فقال المسلمون مافعلنا : فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا : فسأل المسلمون فيما بينهم فإذا عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها هو الذى

كتب لهم : فقالوا إنما هو عبد : فقالوا إنا لا نعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل فإن شئتم فاغدروا : فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم .

إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا مادمتم فى شك أجيزوهم وفوا لهم : فوفوا لهم وانصرفوا عنهم .

ولو لم يعلم هذا العبد من أخلاق أولئك الفاتحين السامية أنهم يجيزون أمانه وأن أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لما رمى لقومه بالأمان واستنزلهم من المعاقل ولو أنصف جهلة المتعصبين من المؤرخين وتتبعوا أخبار هذا الفتح وبحثوا عن سيرة أولئك الفاتحين وأخلاقهم البارة بالإنسانية لكفوا أنفسهم مؤونة التهجم على ثلب المسلمين ووصفهم بالهمجية والتخريب فى أيام فتوحهم العظيمة ، ولكن ما الحيلة وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

الانسياح فى بلاد فارس :

أشرنا فيما تقدم إلى ما رآه الأحنف بن قيس من لزوم انسياح[1] الجيوش الإسلامية فى بلاد فارس تخلصاً من عصبية الملك واستخضاعاً للفرس وقد انتهى عمر رضى الله عنه إلى رأى الأحنف وعرف فضله وصدقه فأعد لذلك العدة وقسم الجيوش وأمر الأمراء من أهل الكوفة والبصرة فأمر أبا موسى الأشعرى أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمة البصرة أى آخرها فيكون هنالك حتى يبعث إليه وبعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدى حليف بنى عبد الأشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان إلى الأحنف ابن قيس : ولواء ازدشير خره وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمى : ولواء

(١) الانسياح هو الذهاب فى الأرض

اصطخر إلى عثمان بن العاص الثقفى ، ولواء فساودار بجرد إلى سارية بن زنيم الكنانى ، ولواء كرمان مع سهيل بن عدى ، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمر ، ولواء مكران إلى الحكم عمير التغلبى ، فخرجوا فى سنة (١٧ ﻫ) فعسكروا ليسيروا إلى هذه الكور فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨) وأمدهم عمر رضى الله عنه بجماعة من جند الكوفة : فأمد سهيل ابن عدى بعبد الله بن عبد الله بن عتبان : وأمد الأحنف بعلقمة بن النضر وبعبد الله بن أبي عقيل وبربعى بن عامر وبابن أم غزال ، وأمد عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الأشجعى : وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق المازنى.

سارت هذه الجيوش كل جيش فى وجهته وافتتحت فى غضون خمس سنين أعنى إلى نهاية خلافة عمر رضى الله عنه القسم الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية أذربيجان شمالا وبجستان من ولاية أفغانستان ومكران من ولاية بلوخستان أي السند شرقاً وبحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً ، وكانت أعظم وقائع المسلمين فى فارس بعد انسياح الجيش وقعة نهاوند وأحسن الفتح فتح خراسان : فأما فتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان فى خلافة عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان رضى الله عنهما لهذا نرجىء الكلام عليه إلى سيرة الأحنف بن قيس ، وأما فتح نهاوند فنذكر طرفاً من خبره هنا لأهميته ولكثرة ماعاناه المسلمون فى هذا الفتح من المشاق وما لاقوه من شدة العدو وعدته فنقول نقلا عما رواه الطبرى فى تاريخه .

خبر نهاوند

كان الذى هيج أمر نهاوند كسرى يزدجرد فإنه جمع إليه عظماء الفرس وخوفهم من اجتماع الجيوش الإسلامية على فارس وأنذرهم بذهاب الملك

إذا لم ينهضوا نهضة رجل واحد لصد المسلمين ، فأجمعوا رأيهم على إعداد الجيوش فى نهاوند وكتبوا إلى البلاد فحشروا الجنود الفارسية إلى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠,٠٠٠ مقاتل ، فلما انتهى الخبر إلى موبذان حلوان كتب بذلك إلى سعد بن أبى وقاص وكتب هذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجمع عمر الصحابة واستشارهم فى الأمر فنهم من أشار عليه بالنهوض بنفسه إلى فارس ومنهم من أشار عليه بالمقام وبتسريح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك ، وممن رأى أن يذهب إلى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفان رضى الله عنه فإنه قام فقال[1] بعد أن تشهد .

أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين البصرة والكوفة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فإنك إذا سرت بمن معك وعندك ، قل فى نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعز عزاً وأكثر يا أمير المؤمنين إنك لا تستبقى من نفسك بعد العرب باقية[2] ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام فاشهد برأيك وأعوانك ولا تغب عنه : ثم جلس فعاد عمر فقال .

---

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين إذا اجتمعوا عند الخليفة للشورى يقوم أحدهم عند إبداء الرأى خطيباً ويشير بما يراه ويشبهه فى هذا العصر حال مجالس الشورى عند الأمم الأوربية ولكن شتان بين أهل شورى يفضى بهم البحث لاختلافهم فى المنازع والغايات الى المجادلة ثم المنازعة والمقارعة ثم الضرب والملاكمة ، وبين أهل شورى وجهتهم واحدة وأخلاقهم رزينة ونياتهم سليمة فلا يسفه أحدهم رأى الآخر ولا يتطاول فى الكلام على سواه بل يبدى رأيه مع الأدب والرزانة فإن قبل كان بها وإلا فلغيره أن يقول ما يشاء

(٢) يريد لاتبالى بنفسك إذا أصيب العرب بشىء وفى قوله هذا ومن بقية الخطبة دليل على ما أعده الفرس من القوة والعدة لمكافحة المسلمين يومئذ مما استكبر أمره الصحابة ورأوا لزوم إعداد القوة المماثلة لقوة الفرس الحاسمة لخطر هجومهم على المسلمين

إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام فتكلموا : فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال :

أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم[1] . وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم . وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ماتدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات . أقرر هؤلاء فى أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم فى حرمهم وذراريهم ولتقم فرقة فى أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم على نفسك ، وأما ماذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره . وأما ماذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، ولكنا كنا نقاتل بالنصر .

فقال عمر : أجل والله لئن شخصت من البلد لتنتقضن على الأرض من أطرافها وأكنافها ولئن نظرت إلى الأعاجم لايفارقن العرصة وليمدنهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب ، فأشيروا على برجل أوله ذلك الثغر غداً واجعلوه عراقياً ، قالوا أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة وأنت أعلم بأهل العراق : فقال أما والله لأولين أمرهم رجلا ليكونن لأول الأسنة إذا لقيها غداً : فقيل من يا أمير المؤمنين : فقال النعمان بن مقرن المزنى فقالوا هو لها :

---

(١) جمع الذرية وهو ولد الرجل والنساء الواحد والجميع ومراده أن الروم يسيرون إلى الشام حيث لايبقى إلا النساء والأطفال فيكتسحون البلاد ويسبون الذرية .

وكان النعمان (١) يومئذ بالمدينة ، وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين أمده بهم عمر لما افتتح رامهرمز ، وقيل بل كان على خراج كسكر وكان كتب إلى عمر يستعفيه من إمارة الخراج ويطلب منه إلحاقه بجيش من جيوش المسلمين ، وذلك لأن إمارة الحرب كانت أحب إلى أقيال الصحابة من إمارة الخراج ، لاعتبارهم الثانية من دواعى الراحة والرفاهية اللتين لم تألفهما نفوسهم العالية لميلها إلى اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحروب والقتال . وإليك كتاب النعمان إلى أمير المؤمنين ، ومنه نرى بماذا شبه نعيم كسكر وكيف كان يأنف ذلك النعيم ، أما بعد إن مثلى ومثل كسكر كمثل رجل شاب إلى جنبه مومسة تلون له وتعطره فأنشدك الله لما عزلتنى عن كسكر وبعثتنى إلى جيش من جيوش المسلمين فكتب إليه عمر أن ائت الناس بنهاوند فإنى قد وليتك حربهم ، فسر من وجهك ذلك حتى تأتى ماه ، فإنى قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمع لك جنودك فسر إلى الفيرزان ومن تجمع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتب إلى الكوفة بشخوص الجيش إلى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقى بالنعمان فتكون لمارة الجيش وكتب إلى سلمى بن القين وحرملة ابن مريطة وغيرهم من الأمراء الذين كانوا بالعراق العجمى وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند ، فتقدم بعضهم إلى تخوم أصبهان وبعضهم إلى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند أمداد فارس ، ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر إن معك حد العرب ورجالهم فى الجاهلية فأدخلهم دون من

---

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان ويتصل نسبه بأد بن طابخة المزنى نسبة الى مزينة من ولد عثمان بن عمرو قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أربعمائة من مزينة . وقيل مهاجر ومعه سبعة إخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة وحضر حرب القادسية وغيرها من حروب الفرس واستشهد بنهاوند .

هو دونهم فى العلم بالحرب واستعن بهم واشرب برأيهم وسل طليحة وعمراً وعمراً ولا تولهم شيئاً .

ويعنى بالعمرين عمرو بن معدى كرب الزبيدى وعمرو بن أبى سلمى العنزى ، وهما وطليحة بن خويلد الأسدى من زعماء العرب فى حروب الردة، لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأميرهم ، لأنه رضى الله عنه كان لا يرى تأمير أحد من زعماء الردة ، وإن أذن لأهل الردة بالجهاد واستنفرهم للفتح ، وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وإنما ساغ لعمر رضى الله عنه أن يأذن لهم بحضور الفتوح للحاجة إليهم فى إبان الفتح ولحصول الاطمئنان من جهتهم سيما بعد تبسط المسلمين فى البلاد وحصول العرب على ذلك الملك العريض بفضل الإسلام .

تقدم النعمان وتقدم أمامه عمرو بن أبى سلمى وطليحة الأسدى لاستكشاف حال العدو ، فخاف عمرو ، التوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه ، وكان بطلا شجاعا حتى بلغ نهاوند ، وعاد فأخبر النعمان بأن ليس بينه وبين نهاوند شىء يخشاه ، فتقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائد اسمه الفيرزان وآخر اسمه بهمن جاذويه ، ووافى النعمان إمداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة ، وكذلك وافى أهل نهاوند كل من غاب عن القادسية والأيام قبلها من أهل الثغور ، ونزلوا ونزل النعمان ، ولما أريد بناء فسطاط للنعمان بادر أشراف أهل الكوفة فبنوا له فسطاطا (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حذيفة بن اليمان وعقبة بن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وابن الهوبر وربعى بن عامر وعامر بن مطر ، وجرير بن عبد الله الحميرى ، والأقرع بن عبد الله الحميرى وجرير بن عبد الله البجلى ، والأشعث بن قيس الكندى ، وسعيد بن قيس الهمدانى ووائل بن حجر ، فلم ير بناء فسطاط بالعراق كهؤلاء وفى هذا

دليل على حسن الرابطة التى جعلها الإسلام بين أشراف العرب .

وأنشب النعمان القتال فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم فى ذلك سجال وفى يوم الجمعة لجأ الفرس إلى خنادقهم وحصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ماشاء الله والأعاجم لايخرجون إلا إذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الأمر فجمع النعمان أهل الرأى والنجدة للشورى فاجتمعوا ، وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأى طليحة الأسدى أن يبعث النعمان خيلا تفاجىء الأعداء فى خنادقهم وتخالطهم ثم تخرج بهم وتستطرد لهم حتى يقاربوا الجيش فيبادرهم القتال ويقطع عليهم خط الرجوع ، فانتهى النعمان إلى رأى طليحة فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة ففعل وأنشب القتال مع العجم فلما خرجوا نكص ومازال يتأخر ناكصاً شبه المنهزم حتى اقترب بهم من جيش المسلمين وكان النعمان على تعبية فأخذ يمر على الصفوف ويحرض المسلمين على القتال وكلهم سامعون مطيعون ، ثم حمل النعمان وحمل الناس وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديداً ، وكانت وقعة لم يسمع بمثلها قط ، وسال الدم فى أرض المعركة فزلق به الناس والدواب وأصيب فرسان من فرسان المسلمين فى الزلق وزلق فرس النعمان فى الدماء فصرعه وتناول الراية نعيم بن مقرن ثم دفعها إلى حذيفة وجاء المغيرة بن شعبة وقال اكتموا مصاب أميركم لئلا يهن الناس واقتتلوا إلى الليل وتمت الهزيمة على الفرس ، فانكفأوا فى الخنادق فقتلوا ولم يفلت منهم إلا الشريد ونجا الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدامه فأدركه عند ثنية همذان فتوقل الجبل فتوقل القعقاع فى أثره وأخذه ، ولما بلغ الفل همذان جاءت خيل المسلمين فى آثارهم فنزلوا عليها ، فخرج إليهم خسرو شنوم فاستأمنهم وضمن لهم همذان ، ودستبى وألا يؤتى المسلمون من قبلهم فأجابوهم إلى ذلك وآمنوهم فأقبل كل من كان هرب واطمأن الناس .

وقتل فى وقعة نهاوند ناس من المسلمين ويقال إن ممن قتل يومئذ طليحة الأسدى وعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة الفرس واحتووا مافيها وماحولها وجمعوا الأسلاب إلى صاحب الأقباض[1] وهو السائب بن الأقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط أن يعطوه الأمان على نفسه وعلى من شاء فأعطاه حذيفة ذلك ، فأخرج له تلك الذخيرة فى سفطين[2] وهى جوهر ثمين كان أعده لنوائب الزمان فأجمع رأى المسلمين على رفعه إلى عمر وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل ألفين ، ورفع ما بقى من الأخماس إلى السائب بن الأقرع فقبض السائب الأخماس فخرج بها إلى عمر مع ذخيرة كسرى ، وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طريف بن سهم أخو بنى ربيعة وكان عمر متململا ينتظر أخبار نهاوند فلما جاءه الرسول وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان بكى حتى اخضلت لحيته ، وترحم على النعمان وكان رضى الله عنه رقيق القلب محباً للمسلمين ، حريصاً على حياة القواد يحزن حزناً شديداً إذا أصيب أحد منهم .

ثم وصل السائب بالأخماس، فوضعت فى المسجد وأمر عمر نفراً من أصحابه منهم عبدالرحمن بن عوف بالمبيت فيه ، ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين وأخبره خبرهما ، وأن الناس رضوا بأن يكونا له فقال له عمر : ياملیكة والله مادروا هذا ولا أنت معهم فالنجاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتى حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه : فأقبل راجعاً حتى انتهى إلى حذيفة فأقامهما فباعهما فأصاب أربعة آلاف ألف (أربعة ملايين) .

---

(١) أمين المال والغنائم

(٢) قال فى القاموس السفط محركة كالجوالق أو القفة اهـ قوله الجوالق معربة عن جوال التركية وهو مايسميه الشاميون الآن العدل أو السكيس ومايسميه المصريون الزكيبة

هذه هى العفة التى قل أن تكون فى بشر فضلا عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم ، ولقد صدق والله من قال للهرمزان أن عمر ليس بنبى ، ولكنه يعمل أعمال الأنبياء ، وحقاً إن هذه الأخلاق أخلاق الأنبياء الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها وإلا فأى حرج على عمر رضى الله عنه لو قبل هدية خصه بها المسلمون ورضى الجيش كله برفعها إليه وإن كانت من فيئهم ومما غنموه بسيوفهم لو لم يكن متخلقاً بأخلاق النبوة المحمدية مخلصاً لله فى السر والعلانية ليس له رغبة فى غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وعناهم وراحتهم ، فرضى الله عن نفسه الطاهرة ما أشرفها وأسماها ، ومن للأمة بعمر ثان يرد أخراها إلى أولاها ويبذل نفسه فى سبيل سعادتها .

ثم لما جىء بسبى نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال : أكل عمر كبدى : وكان نهاوندياً فأسرته الروم أيام حربهم مع الفرس وأسره المسلمون بعد فنسب إلى حيث سبى .

ولما تم فتح نهاوند جاء أهل الماهين ماه بهرذان وماه دينار وطلبوا من حذيفة الأمان على أن يؤدوا الجزية ، فكتب لأهل كل ماه عهداً هذه صورته (عن الطبرى) .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة[1] ما أدوا الجزية فى كل سنة إلى من وليهم

---

(١) قد مر معنا لفظ المنعة فى عهود أهل الذمة عدة مرار فى هذا الكتاب ، ولم نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محركة هى الحماية والامتناع بالعشيرة وكان المسلمون يشترطون على أنفسهم لذوى الذمة أى أنه يصير كواحد منهم يمنعونه من كل غاصب ومحارب ومن كل من أراده بسوء ، ولهذا السبب لم يكلف أهل الذمة بالدخول مع المسلمين فى محاربة أعداء وطنهم =

من المسلمين على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته. وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقَرَوْا (أضافوا) جنود المسلمين من مر بهم فآوى إليهم يوماً وليلة ونصحوا . فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة . شهد القعقاع ابن عمرو ونعيم بن مقرن وكتب فى المحرم سنة ١٩ .

ومما يستنبط من هذا الكتاب أن العرب لما أمعنوا فى بلاد فارس وكثرت مخالطتهم للفرس والروم أخذوا بأصول الحضارة وتمكنوا من سياسة الملك وعرفوا لوازم العمران ، فجعلوا إصلاح الطرق التى هى عون الأمم التجارية والحربية إجبارياً على أهل البلاد كما رأيت فى هذا الكتاب ، وكما جاء فى كتاب عياض بن غنم لأهل الرها من الجزيرة ، وكان فتحها فى سنة ١٨ فى السنة التى فتحت بها نهاوند والماه وربما كانوا رأوا الطرق فى التشعث والخراب تابعة لسائر العمران فى مملكتى الفرس والروم يومئذ لما كانتا عليه من التناهى فى الظلم وإغفال شؤون العمران فاشترطوا على أهل البلاد إصلاحها وإنما قلنا إنهم شعروا بهذه الحاجة لما أمعنوا فى البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الأمم لأنا لم نر فى كتب العهد السابقة على ذلك التاريخ شرطاً كهذا الشرط وهو وجوب إصلاح الطرق ، وهذا يخبرنا عن بدء انتظام الشؤون العمرانية فى الدولة العربية ، لاسيما إذا أضفنا إليه انصراف همة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه منذ السنة السادسة عشرة للهجرة إلى تمصير الأمصار فى العراق ، وشق الأنهر ، وإصلاح الجسور ، كما رأيت وسترى فى هذا الكتاب .

وكان الذى عقد صلح الماه مع المسلمين أحد أبناء البيوتات من آل

= دفاعا عن الحوزة لتحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الفتح ، وهذه هى العلة فى أن الدول الإسلامية لاتعمم أحكام الجندية ، ولا تأخذ من أهل الذمة عسكراً لحراسة البلاد أو للحرب مع أعدائها من أى جنس كانوا ، وهى نعمة لايزال يقدرها قدرها كثير من عقلاء المسيحيين فى المشرق ،ويتمنون لصلاح حال الحكومات الإسلامية لتدوم عليهم بدوامها سلطة الإسلام.

قارن ، واسمه دينار وبه سمى الماه الواحد ماه دينار ، وكان سبب صلحه أن أحد أبطال المسلمين وهو سماك بن عبيد العبسى أسره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم من عليه بالإطلاق ، فعرف له هذا الجميل وطلب منه أن يقدمه إلى الأمير ليصالحه على بلده فقدمه إلى حذيفة فكتب له حذيفة ذلك الكتاب وجعله على عمله ، فوفى للمسلمين بالعهد وأحسن الجوار ، وكان يختلف إلى الكوفة كلما كان عمله تابعاً لعامل الكوفة فاختبر أخلاق المسلمين أيام الفتح وعرف أحوالهم ووقف على سيرتهم ، ولما كان من أهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العمال ومنابذة الخلفاء قدم عليهم دينار فى خلافة معاوية فقام بالناس فى الكوفة فقال .

يا معشر أهل الكوفة أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع بخل وخب (أى خداع) وغدر وضيق (الشك والتردد) . ولم يكن فيكم واحدة منهن . فرمقتكم فإذا ذلك فى مولديكم فعلمت من أين أتيتم فإذا الخب من قبل النبط ، والبخل من قبل فارس ، والغدر من قبل خراسان ، والضيق من قبل الأهواز .

وإنما أحببت إيراد هذه الحكاية هنا لمالها من العلاقة بما قام فى فكرى منذ ولعت بالتاريخ من جهة تغير أخلاق أهل العراق من العرب دون أهل الشام فى أيام الخلفاء على ومعاوية رضى الله عنهما ومن بعدهما وسأبسط الكلام على هذا فى محله إن شاء الله .

وإلى هنا نقف بالقلم عن التبسط فى تاريخ فتح بلاد العجم اكتفاء بما أجملناه من خبر انسياح الجنود الإسلامية فى تلك البلاد والأطراف التى بلغوها فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وإنما توسعنا فى بعض الأخبار دون البعض الآخر التماساً لبعض الشوارد التاريخية التى لها مناسبة بما علقناه

وسنعلقه عليها من الشروح والاستنباطات التاريخية ، الدينية والاجتماعية ، ولو أوردنا كل أخبار الفتح وعلقنا عليها الشروح وتتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة أكثر من مجلدين فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفى هذا من المشقة مار بما يبطىء بنا كثيراً فى إبراز هذا التاريخ على أن الفائدة التى قصدناها حاصلة إن شاء الله ، وفى القليل أحياناً مايغنى عن الكثير ، وفيما يأتى من هذا الجزء غنية عما تركناه ، والله ولى التوفيق .

— ٦ —

فتح الجزيرة

الجزيرة هى الجزء الشمالى من الأراضى الواقعة بين الفرات ودجلة ، وأما الجزء الجنوبى فإنه العراق ، وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر ، وكان رحيل العرب إلى هذه البلاد من أزمان متطاولة قيل إنها تمتد إلى ما بعد سيل العرم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الأرض وقاعدة الجزيرة هى الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت فى سنة (١٦ هـ) على يدى عبد الله بن المعتم وربعىّ بن الأفكل وكان بعثهما سعد بن أبى وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يدى عياض ابن غنم[١] لما فتح الجزيرة بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ وتحرير الخبر أنا ذكرنا فى فتوح

---

(١) قد مر معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير فى هذا الكتاب لهذا رأينا هنا بمناسبة فتحه للجزيرة أن نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير بن أبى شداد ابن ربيعة هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشى أبو سعد وقيل أبو سعيد وأبو عبيدة بن الجراح ابن عمه وقد قاتل معه بالشام ومع خالد بالعراق كما رأيت فى هذا الكتاب ، وصار إليه فتح الجزيرة وولاية أبى عبيدة بالشام وتوفى سنة عشرين ، وكان صالحاً فاضلا شجاعاً سمحاً يسمونه لكرمه زاد الركب لأنه كان يطعم الناس زاده ، فإذا نفد نحر لهم جمله وكان إسلامه قبل الحديبية ، رضى الله عنه وأرضاه .

الشام كيف أن هرقل ملك الروم هاجم المسلمين فى حمص بعد استقرارهم فى بلادالشام ، وأن عمر كتب إلى سعد بن أبى وقاص بأن يمد أبا عبيدة فى حمص بالقعقاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن إمداد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم ، فسار القعقاع حتى أدرك أبا عبيدة فى حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا وحاصر عياض بعض مدن الجزيرة ثم لما بلغه شخوص عمر رضى الله عنه للجابية شخص السلام عليه هو وخالد وأبو عبيدة ومعظم الأمراء فطلب أبو عبيدة من عمر رضى الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل وأبقاه عنده ، ولما مات أبو عبيدة فى طاعون عمواس سنة(١٨)استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته عمل أبى عبيدة وهو حمص وقنسرين وأضاف إليه الجزيرة وأمره بالمسير إلى فتحها فسار ومعه من القواد ميسرة ابن مسروق العبسى وسعيد بن عامر بن حذيم الجمحى وصفوان بن المعطل السلمى ويقال وخالد بن الوليد ، والأصح أن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبى عبيدة .

وقد تضاربت الروايات فى زمن مسير عياض إلى فتح الجزيرة وفى هل سار من قبل سعد وهو فى العراق أم من قبل أبى عبيدة والصحيح الذى يستنتج من مجموع تلك الروايات هو ماذكرناه .

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ، ومنه ما كان بعد قتال قليل وأهم البلاد التى فتحت هى الرقة والرها (أورفا) ونصيبين وحران وسميساط وسنجار وقرقسيا (وكان فتح هذه على يدى حبيب بن مسلمة الفهرى) وسروج وجسر منبج والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام غرباً وأرمينيا وكردستان شرقاً ، ثم دخل الدرب[1] فبلغ بدليس (بتليس الآن)

(١) قال فى القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الأكبر وكل مدخل إلى الروم اهـ . وهو المقصود بقولهم أدرب أى دخل الدرب .

من كردستان وجازها إلى خلاط وانتهى إلى العين الحامضة ثم عاد فضمن صاحب بدليس خراج خلاط ، ثم عاد إلى الرقة وانصرف منها إلى حمص ومات سنة ٢٠هـ فولى عمر مكانه سعيد بن عامر بن حذيم ، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات ، فولى عمر عمير بن سعد بن شهيد الأنصارى أحد الأوس وقيل هو عمير بن سعد بن عبيد ، وقتل أبوه سعد يوم القادسية .

ففتح عمير عين الوردة ويقال لها رأس العين وهى مجتمع العيون التى يجرى منها نهر الخابور ويصب فى الفرات ثم سلك الخابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الأول ، ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ الناوسة وآلوسة ، وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الأنصارى وقد بعثه أمير الكوفة ليغزو مافوق الأنبار ، فلما اجتمع عمير وسعد صالح عمير أهل هيت وانصرف إلى الرقة .

وكان عياض بن غنم رضى الله عنه أعطى كتباً فى الصلح لأهل الجزيرة وقد تقدم معنا فى أواخر باب فتح بلاد العجم بمناسبة الكلام على العمران فى عصر عمر أن من تلك الكتب ما اشترط فيه على أهل الذمة إصلاح الطرق والجسور ، وهانحن ننقل هنا كتاباً منها كتبه لأهل الرها وهو بنصه عن فتوح البلدان .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا كتاب من عياض بن غنم لأسقف الرها ، إنكم إن فتحتم لى باب المدينة على أن تؤدوا إلىّ عن كل رجل ديناراً ومدى قمح فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين شهد الله وكفى بالله شهيدا .

* * *

— ٧ —

فتح مصر وبرقه

كان عمرو بن العاص شديد التطلع إلى مصر راغباً فى فتحها ، لأنه جاءها مرة فى الجاهلية ورأى من ثروة أهلها وسهولة أمرها ما أطمعه فى فتحها ، فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية فى سنة (١٨) واختلى به وفاتحه بما فى نفسه وهون عليه أمر مصر ورغب إليه أن يوايه فتحها فتردد عمر رضى الله عنه فى الأمر لأن جيوشه متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم ، فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من علك وقال له سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتيك كتابى إن شـــاء الله تعالى . فإن أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره .

فسار عمرو بن العاص ووافاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه حتى دخل أرض مصر ، وسيأتى الكلام على هذا فى سيرة عمرو ، ثم تقدم عمرو حتى بلغ الفرماء فقاتله بها الروم نحواً من شهر فهزمهم ، وتقدم إلى القواصر ولا يدافع إلا دفاعاً خفيفاً ثم إلى بلبيس ثم أتى أم دنين ثم مصر وأبطأ عليه الفتح فاستمد عمر فأمده بأربعة آلاف ثم استمده مرة أخرى فأمده بأربعة آلاف آخرين وكتب إليه إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف . الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود . وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد . واعلم أن معك اثنى عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة .

كان القبط فى مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين ، فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شيء معلوم ، وبعد أن تم الصلح شخص عمرو بجنده إلى الإسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح إلى عمر واستقرت قدمه فى البلاد فأخذ فى تنظيم شؤونها وترتيب خراجها وتقرير أسباب الراحة والأمان بين أهلها ، ومازال والياً عليها حتى عزله عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد رأينا أن نرجىء تفصيل الكلام على فتح مصر وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص إلى سيرته التى نوفيها حقها من من البيان إن شاء الله .

لما استتب لعمرو الأمر بمصر سار إلى برقة وتسمى قديماً أنطابلس وهى واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازى ، فصالحه أهلها على الجزية وسار الى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

أما بعد — إنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين أفريقيا [1] تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل . فنهاه عمر فولى على برقة عقبة بن نافع الفهرى وعاد وربما ذكرنا ذلك فى سيرته ببيان أطول إن شاء الله .

انتهى ما أردنا إيراده من أخبار الفتح فى خلافة عمر رضى الله عنه .

---

(١) يريد بأفريقيا تونس وهكذا كان يسميها الرومان ثم سماها العرب بهذا الاسم أيضاً والظاهر ، أن الجغرافيين سموا القارة كلها بهذا الاسم بعد من قبيل تسمية الكلي باسم الجزء .

— ٨ —

تبعية الجيوش وبراعة القواد

وديوان الجيش

وعدنا فيما سبق أن نفرد فصلا خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبية الجيوش على عهد عمر بن الخطاب وبراعة قواده وتفننهم في أساليب الحرب ، ووفاء بالوعد أفردنا هذا الفصل لهذه الغاية ولبيان أصول التجند وديوان الجيش على عهده فنقول .

اعلم أن العرب أمة حربية قل أن يماثلها فى ذلك العصر شعب من الشعوب فى الشجاعة والإقدام . والتعود على أساليب القتال ، لدأب أفرادها منذ نعومة الأظفار على الفروسية وتعلم فنون الحرب وائتلافهم للقتال وحبهم للغارة التى تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية ، إلا أنه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أى آلات الحرب ، فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس قبائل متفرقة الأهواء والمنازع يقاتل بعضها بعضاً ويثب بعضها على بعض ، ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح إلا الرمح والسيف والدرع والسهم ، ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم فى الحضارة وعراقتهم فى الملك من عصور التبابعة ، ولذلك كان الفرس فى واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها ، ولما جاء الإسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها إلى رايته فلم يلبثوا أن دبت فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة إلى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد ، وكان من ذلك أن خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لما دفعهم أبو بكر وعمر إلى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا فى قتال جنود

الدولتين من التفنن فى أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم من هذا الكتاب مما جعل النصر حليفهم والقوة رائدهم فى كل مكان .

فمن ذلك أنهم كانوا لا يقتحمون جنداً ولا يمعنون فى داخل البلاد مالم يجعلوا وراءهم ردءاً أى مدداً يحمى ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدو من أن يقطع على موادهم كما رأيت ذلك فى وقعة اليرموك حيث كان ردؤهم يزيد بن أبى سفيان ، وعند مسير الجيش إلى اصطخر لإنقاذ العلاء حيث قامت المسالح من البصرة إلى الأهواز يمد بعضها بعضاً ويواصل بالمدد ذلك الجيش كى لا يقطع عليه الفرس طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء .

ومنها أنهم كانوا لا يحاصرون مدينة مالم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو ، كما رأيت فى فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين فحل ودمشق ، وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حمص ودمشق ، وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالد ويزيد بن أبى سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها إلى فحل .

ومنها أنهم كانوا يبدءون العدو بالقتال فى أطراف بلاده التى تلى البادية حتى إذا أصابهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم كما رأيت ذلك فى عملهم باليرموك والقادسية ، وكانوا يجتهدون أن يجعلوا هذه الوقائع الأولى كبيرة عظمية لتكون مقدمة للنصر وباعثاً على توهين شوكة العدو وإلقاء الرعب فى قلوب جيوشه ، لهذا كانت وقعة القادسية واليرموك من أهم مادون فى تاريخ الحروب الإسلامية وكل ما كان بعدهما من النصر إنما تأتى عن كسر حدة الجيوش الرومية والفارسية وخضد شوكتهم وإضعاف قوتهم فى هاتين الواقعتين .

ومنها براعتهم فى إقامة خطوط الدفاع على طول البلاد إذا أراد مهاجمتها العدو ، كما صنع المثنى بن حارثة الشيبانى فى العراق حيث رتب المسالح من أوله إلى آخره بحيث ينظر بعضها إلى بعض ويمد بعضها بعضاً ، ومنها ترقب الفرص واغتنامها كما صنع خالد فى فتح دمشق واستعمال التأنى والحيلة فى الحرب توصلا للفتح ، صنع ذلك عمرو بن العاص بدخوله بنفسه على جيش الأرطبون بحجة أنه رسول من قبل المسلمين ليقف من حال جيشه على ما لم يقف عليه بواسطة الرسل ، وكما صنع عبادة بن الصامت فى فتح اللاذقية بإظهاره القفول عنها وحفره الأسراب لاختفاء جنده فيها .

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو وسكناته والاستعداد لصد غاراته كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ، ووقف المسلمون على خبره قبل أن يبدأ بشيء من ذلك ، فأطبقت عليه الجنود من جهتين ، من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ، ومن جهة العراق بقيادة من ذكر فى محله من القواد حتى أوقفوه عن حركته ولم يمكنوه من المهاجمة ولا الوصول إلى الجزيرة .

ومنها توهينهم قوة العدو باشتغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضاً عند الحاجة ، كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فأسرعت القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصرة هرقل ريثما تمت هزيمته وغلب عليه جيش أبى عبيدة بن الجراح .

ومنها براعتهم فى سرعة اجتماع جيوشهم بعضها إلى بعض عند وجود الخطر الكبير ومظنة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم إذا كانت متفرقة كما كان ذلك فى اجتماع الأمراء على اليرموك بعد أن تفرقوا فى أنحاء البلاد وإنما تيسر لهم هذا الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكن العدو من قطع طرق

المواصلات بين تلك الجيوش وبين الرده الذى هو جيش يزيد بن أبى سفيان، هذا وأشباهه من مكائد الحرب التى مر ذكرها فى غضون أخبار الفتح كلها تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم فى أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لاسيما الخليفة عمر بن الخطاب الذى كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره إلى القواد فى الأعمال الحربية وكيفة الهجوم والدفاع على وجه يدل على أنه من أعاظم قواد الجيوش فى العالم هذا فضلا عما كان يوصى بها القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين، وعدم التسلط بالإيذاء عليهم ، وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين، وعدم إلقائهم فى المهالك ، والتريث فى الحرب والتبصر فى أمور القتال ، إلى غير ذلك مما مر بيانه فى هذا الكتاب ولا حاجة لإعادته هنا .

وأما تعبيه العرب للجيوش فى إبان الفتح الذى مر ذكره فى هذا الكتاب فقد بلغ الغاية فى الترتيب وحسن النظام والانتظام ، ونحن نذكر لك هنا مالم يسبق منا ذكره فى هذا الكتاب من تعبيتهم للجيوش فى وقائعهم الشهيرة وهى وقعه اليرموك ووقعة القادسية ومنها تظهر لك مرتبتهم فى فنون الحرب ومكانهم من البصيرة فى تعبية الجيوش التى تشبهها من كل الوجوه تعبيه الجيوش فى هذا العصر كالطلائع والجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والرده (المدد) والرجل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الإسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو ، فصاروا فى الإسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» وكان الأمراء والقواد يتفاوتون فى المراتب فمنهم الأمير العام (المشير الآن) ويليه خليفة (الفريق الآن) ويليهما أمراء التعبية كأمير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الألوية الآن) ويليهم خلفاؤهم (العميد الآن) ويليهم أمراء الكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء وأمراء الأعشار

(الجاويش) والنقباء ولعلهم رؤساء المائة ، وفضلا عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد الذى يرتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش والقاضى وأمير الأقباض أى الذين ينتهى إليه حفظ الغنائم وقسمة الفيء والترجمان والكاتب والأطباء لمداواة الجرحى ، كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلى من ذكر تعبية الجيوش فى اليرموك والقادسية .

روى الطبرى فى تاريخه أن خالد بن الوليد عبى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبية لم تعب العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسر كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومذعور بن عدى على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشى وحبيب بن مسلمة القرشى وسهيل بن عمرو القرشى وعكرمة بن أبى جهل القرشى فى عدة مثلهم من قريش ، وأما من كان من غير قريش ، فمنهم ذو الكلاع الحميرى والسمط ابن الأسود الكندى وضرار بن الأزور الأسدى وجارية بن عبدالله الأشجعى وأضرابهم من صناديد العرب الذين نضرب صفحاً عن ذكر أسمائهم حباً بالاختصار ، وكان القاضى أبو الدرداء والقاص[1] أبو سفيان بن حرب ، وكان على الطلائع قباث بن أشيم الكنانى ، وكان على الأقباض عبد الله ابن مسعود ، وكان القارىء المقداد بن عمرو وكان من السنة أن تقرأ سورة الأنفال عند القتال ، وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال .

هكذا كانت تعبية الجيش على اليرموك، وأما على القادسية فربما كانت

---

(١) فى القاموس القاص من يأتى بالقصة ولعله هنا الذى يحمل أوامر الأمير إلى الصفوف ويأتيه بأخبارهم .

أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً ، فقد ذكر الطبرى أن سعد بن أبى وقاص قدر الناس وعباهم بشراف كما أمره عمر رضى الله عنه فأمر أمراء الأجناد وعرف العرفاء على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أزمان النبى صلى الله عليه وسلم : قال الطبرى وكذلك كانت إلى أن فرض العطاء ، وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالا من الناس ولهم وسائل فى الإسلام وولى الحرب رجالا : فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فلم يفصل (أى من شراف) إلا بتعبية فأما أمراء التعبية فاستعمل زهرة بن عبد الله بن قتادة ابن الحوية من ملوك هجر ، فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى إلى العذيب : واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتم : واستعمل على الميسرة شرحبيل بن السمط الكندى وكان غلاما شابا وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له (مرخبره فى ذلك فى سيرة أبى بكر) وجعل خليفته خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عامر التميمى ثم العمرى على الساقة وسواد بن مالك التميمى على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلى على المجردة وعلى الرجل جمال بن مالك الأسدى وعلى الركبان عبد الله بن ذى السهمين الخثعمى فكان أمراء التعبية يلون الأمير (أى بعده فى المرتبة) والدى يلون أمراء التعبية أمراء الأعشار والذين يلون أمراء الأعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رءوس القبائل : قال الطبرى وبعث عمر الأطبة[1] وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ذا النور وجعل إليه الأقباض وقسمة الفىء وجعل داعيتهم[2] ورائدهم سلمان الفارسى والترجمان هلال الهجرى والكاتب زياد بن أبى سفيان .

---

(١) جمع طبيب وهو جمع قلة، وذلك لأن الأطباء يومئذ قليلون ، فكان يرسل مع الجيش ولو عدداً قليلا لمداواة جرحى الحرب (٢) داعيتهم أى الذى يدعو إلى دينهم ويبلغ العدو مطالبهم ورائدهم الذى يرتاد لهم مواضع النزول .

وأنت ترى من هذا أن تعبية الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت وافية بالغرض من كل الوجوه ، وما نخال أن تعبية جيوش الدول المتمدينة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تعبية جيوش المسلمين ، وإنما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قدمنا ومع ذلك فإن العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ماعندها من أدوات الحرب وعدتها كالأوهاق[1] والمجانيق والسلالم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا إلى استعمالها في حروبهم معهم كما رأيت ذلك في الكلام على حصار دمشق ، وبالطبع كما أنهم استعملوا أمثال هذه الآلات فقد استعملوا أيضا أنواع السلاح الجيد الذى كانوا يغنمونه من هذه الجيوش ، ومن ثم تكافأ المسلمون بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وإنما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ، ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التى فاقت حد الوصف ، وألقت الرعب يومئذ فى قلوب الأمم كما رأيت ذلك فى أخبار الفتح يضاف إليه علم أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ويقظته وسهره الدائم على أمور المسلمين ، وتعزيزه جانب الملك بسد الثغور وإعداد المرابطة وإقامة المسالح فى الأطراف التى يأتى من قبلها الخطر وأمره للعمال بإدرار أرزاق الجند ومواصلته بالأخبار وشحن الأماكن المخوفة بالجنود وإقامة الحراس على المناظير التى توقد فيها النيران لتخبر عن الجهة التى يقبل منها العدو ، وبالجملة صرفه العناية فى كل مايعود بالقوة والعز على المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك فى هذا الكتاب ، ويضاف إليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم فى أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الأخروى الذى كان يحبب إليهم الموت فى ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الأعداء ، وصبرهم على المكاره وتحملهم لشظف العيش ورضاهم بالكفاف من القوت واستخفافهم

---

(١) الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان كما فى القاموس .

بجنود الأعداء قلوا أو كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذى وعدهم الله به إذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس .

كل هذه من الأسباب التى رجحت جانب المسلمين على جانب الأعداء ومهدت طرق الغلبة لجيوش العرب والذى وفر هذه الأسباب إنما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم على كلمة الإسلام بعد التخاذل والانقسام كما عرفت ذلك بما قاله عمر للهرمزان وهو : إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ، وحسبك فى مهاجمة الأمة العربية لدولتى الفرس والروم وإقدامهم على التغلغل فى أحشاء المملكتين القديمتين فى آن واحد ومهابتهم التى خامرت النفوس دليلا يؤيد قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشاهداً يشهد بفضل الإسلام الذى جمع على كلمته تلك القبائل المتفرقة التى ما كانت لتحلم بالسيادة على الشعوب لولا ذلك الاجتماع ، هذا وأما أصول التجنيد فى عهد عمر رضى الله عنه وأعطيات الجند وديوان الجيش فالكلام عليه طويل وإنما نجتزىء عنه بما يأتى .

الجهاد فرض على المسلمين يحتم عليهم حماية الدعوة والذب عن حوزة الإسلام ، إلا أنه من فروض الكفاية التى إذا قام بها البعض سقط عن الكل وعلى هذه القاعدة بنى التجنيد فى الإسلام ، فكان أبو بكر وعمر يستنفران الناس للجهاد فمن أجاب كان جندياً له حظ فى الفىء والغنائم ، واستمر ذلك فى ولده إلى ما شاء الله ولا يؤخذ من هذا أن الجندية على هذا الوجه اختيارية بل هى باعتبار كونها فرضاً إجبارية ، وللخليفة إذا تخلف المسلمون عن هذا الفرض إجبارهم عليه عند الحاجة وكان أبو بكر رضى الله عنه يسوى بين الناس فى قسمة الفىء ، ويضرب فى المغانم للفارس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم ولا يفضل الخيل بعضها على بعض وبقى الحال على ذلك صدراً من خلافة عمر رضى الله عنه أى إلى سنة ١٥

حيث دون عمر الدواوين وفرض العطاء كما سترى فى باب آثاره فى الخلافة ، ولم يسو فى قسمة الفىء بين الجند بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة ، فقد روى ابن جرير الطبرى أن عمر لما فرض العطاء فرض لأهل بدر خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف فى ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبى بكر ومن ولى الأيام قبل القادسية (أى الحروب التى كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشأم ألفين ألفين وفرض لأهل البلاء (أى الذين عرف بلاؤهم فى الحرب) البارع منهم ألفين وخمسمائة وفرض لمن بعد اليرموك والقادسية ألفاً ألفاً ، وكانت هذه الطبقات هى الأصل فى ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم بأهل طبقة من تلك الطبقات يسمون الروادف ، والرديف لغة التبع ، وقد فرض لهؤلاء الروادف على درجاتهم للمثنى منهم خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثليث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوى كل طبقة فى العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم ، وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين ، وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل للنساء الجند من الخمسمائة إلى المائتين وجعل للصبيان مائة ، وعلى هذا الترتيب ضبطت أعطيات الجند فى ديوان الجيش ، وكان من أراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر رضى الله عنه للديوان يقيد فى ديوانه على هذا الترتيب ، ثم كان على عهد عثمان رضى الله عنه ومن بعده يزاد وينقص العطاء على مقتضى الظروف والأحوال كما سترى بعد . وأما المغانم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجازه .

ويظهر مما تقدم أن عمر رضى الله عنه كان يسوى بين الجنود الأعاجم من الفرس والروم الذين تأخر إسلامهم وبين الحرب كل منهم فى طبقته باعتبار السابقة أيضاً ، بل ربما ميز بعضهم أحياناً فى العطاء تأليفاً لقلوبهم

كما صنع ذلك مع سياه الفارسى وقومه لما أسلم وأسلموا معه كما رأيت ذلك فى خبر فتح تستر والسوس .

وكانت أصول إعطاء العطاء لأهله على مافى رواية ابن جرير الطبرى هكذا يدفع العطاء إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات والرايات على أيادى[1] العرب فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء فيدفعونه إلى أهله فى دورهم . ولنا كلام آخر على تدوين الديوان والفىء وحكمه سيأتى فى باب آثاره فى الخلافة إن شاء الله .

— ٩ —

علائق عمر مع الملوك

كانت علائق عمر قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت ، وتوفى رضى الله عنه وجيوشه تطارد يزدجرد فى بلاده وتدوخ ملكه ، وأما علائقه مع ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أتم عمر رضى الله عنه فتح الشام والجزيرة وجرت بينه وبين ملك الروم المكاتبات الودادية ، وذكر مؤرخو العرب أن هذه المكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا هل كانت مع هرقل الأول الذى انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثانى المعروف بهرقل قسطنطين لأن هرقل الأول توفى سنة (٦٤١ م) الموافقة سنة (٢١ هـ) وتولى الملك ابنه المذكور فى هذه السنة أى قبل وفاة عمر (رضى الله عنه) بسنتين وسواء كان حصل التواد والمكاتبة مع هرقل الأول أو الثانى فقد بلغ من توثق عرى العلائق الحبية يومئذ بين الفريقين أن كان تتردد بينهما الرسل بالمكاتبة ، وأن أم كلثوم بنت

---

(١) كذا فى الأصل .

على بن أبى طالب رضى الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت مرة مع رسول جاء المدينة من قبل ملك الروم هدية من ألطاف المدينة إلى إمبراطورة الروم امرأة هرقل ، وأرسلت لها هذه فى نظيرها عقداً نفيساً من الجواهر فأخذه منها عمر ورده إلى بيت المال . هذا على ما فى رواية نقلها فى كنز العمال، وأما الطبرى فذكر أن أم كلثوم أرسلت تلك الهدية مع بريد عمر ، ونص رواية الطبرى بتصرف واختصار .

قالوا وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله ، فكتب إليه أحب للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك الحكمة كلها واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلها ... إلى أن قال بعد أن أورد مكاتبات أخرى جرت بينهما . وبعثت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب ، وبنت نبيهم وكاتبتها وكافتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقداً فاخراً فلما انتهى به البريد إلى عمر أمره بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال إنه لا خير فى أمره أبرم من غير شورى ثم أخبرهم الخبر وسألهم عن أمر العقد فكلهم أشار بدفعه لأم كلثوم . فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم فأمر برده إلى بيت المال ورد على أم كلثوم منه بقدر نفقتها .

وقد ذكر الطبرى هذه الرواية فى أخبار سنة (٢٨) فى غضون الكلام على غزو المسلمين فى البحر وأن عمر ترك غزو البحر فترك ملك الروم غزوه وكاتبه وسالمه وهو دليل على رهبة ذلك الخليفة العظيم التى دبت فى قلوب الملوك فرأى هرقل أن مسالمته خير من مناوأته ففعل وكان من الغانمين .

* * *

— ١٠ —

أهم الأحداث فى عصره

أهم الأحداث فى خلافة عمر رضى الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة فأما طاعون عمواس فاختلف فى سنة حدوثه هل كانت سنة ١٧ أو سنة ١٨ وروى الطبرى أنه ظهر فى العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكا ذريعاً ، ومات به فى الشام عدة من أعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان ولما اشتدت على الناس وطأته خطب الناس عمرو بن العاص فقال : أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه فى الجبال ، ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا فى الجبال ورفعه الله عنهم .

وروى الطبرى عن ابن عباس أن عمر خرج فى تلك السنة غازياً وخرج معه المهاجرون والأنصار فلما بلغ سرغ ، وافاه أمراء الأجناد فى الشام وأخبروه خبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم فى الرجوع فمنهم من أشار عليه به ، ومنهم من أشار عليه بالقدوم ، وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله : قال نعم فراراً من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط وادياً له عدوتان (ضفتان) إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله : ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالأمس فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر فقال عندى من هذا علم : فقال عمر فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك :

قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلاتقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه) فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم[١].

ولما زال الطاعون وبلغ عمر ما أصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضيع المواريث قدم الشام ونزل الجابية وقسم المواريث وسد الثغور واستعمل بدل من ماتوا من العمال كما سترى ذلك فى الباب التالى وكانت هذه المرة هى المرة الرابعة التى قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك .

واعلم أن طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم أكثر من عشرين ألفاً وهو عدد يوازى نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم ، وفى الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذى أصاب جيش المسلمين فى سورية يومئذ وهاجموا البـــلاد لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ، ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقعده عن مهاجمة المسلمين خصوصاً إذا كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحى القلوب إلى سلطانهم العادل وسيرتهم الطيبة الحسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر لهرقل مهاجمة البلاد لا سيما إذا أضفنا إلى هذا ملل القوم من الحرب وإخلادهم إلى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم فى كل مكان ودب الرعب من سطوتهم فى قلب كل إنسان .

وأما عام الرمادة فسمى بذلك لريح كانت تسفى تراباً كالرماد وأصاب الناس بالحجاز مجاعة شديدة ، وكان قحط عظيم أهلك الضرع والزرع وعانى عمر رضى الله عنه بسبب ذلك النصب ، وآلى ألا يأكل سمناً ولا عسلا

---

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر الى الحجاز حجة على مشروعية الحجر الصحى المعروف بالكورنتينا .

حتى يحيى الناس ويكون وإياهم سواء بالخصب والجدب وجعل يأكل الزيت حتى قرقر بطنه فقدمت السوق يوماً عكة سمن ووطب[1] من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين درهما ، ثم أتى عمر فقال يا أمير المؤمنين ، قد أبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهما ، فقال عمر ، تصدق بهما فإنى أكره أن آكل إسرافاً ، وقال كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يصبنى ما أصابهم ، وكتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم فبعث عمرو بن العاص الطعام إلى المدينة وبعث أمير الشام بأربعمائة راحلة عليها الطعام ، وقالوا إنه أبو عبيدة بن الجراح وهو خطأ لأن عام الرمادة كان بعد طاعون عمواس الذى توفى به أبو عبيدة بن الجراح ويدلك على هذا إرسال عمرو بن العاص من مصر ، وإنما كان فتح مصر بعد الطاعون إذ كان عمرو بن العاص عام الطاعون بالشام ، ولما قدم عمر بن الخطاب لقسمة المواريث استأذنه بقصد مصر وأذن له وسار ، وكان ذلك سنة ١٧ أو سنة ١٨ والذى دعا عمرو بن العاص لاحتفار الترعة الموصلة بين النيل وبحر القلزم إنما هو عام الرمادة ، وقال بعضهم ومنهم ابن الأثير إن عمراً أصلح بحر القلزم وأرسل فيه الطعام وهو غير مفهوم وإنما أرسل الطعام فى البر ثم استأذن عمر بحفر الترعة ووصل بين النيل وبحر القلزم احتياطاً من مثل ذلك الحادث وتقريباً للمسافة بين المدينة وبين مصر ، وسنستقصى الخبر عن ذلك فى سيرة عمرو بن العاص إن شاء الله تعالى .

ولما اشتد الضيق على المسلمين استسقى عمر بالناس ودعا ودعا معه العباس رضى الله عنهما ، ففرج الله على الناس وأرسل عليهم من سماء رحمته السحاب الثقال ، فسقت الأرض وأنعشت النفوس وانفرجت الأزمة ، ولحديث الاستسقاء كلام طويل بين العلماء لا نحب الخوض فيه ، فليرجع إليه من شاء فى كتب المحدثين .

---

(١) العكة القربة الصغيرة والوطب سقاء اللبن أى وعاؤه .

— ١١ —

آثاره فى الخلافة

كتابة التاريخ الهجرى

لم يكن للعرب قبل الإسلام تاريخ يؤرخون به إلا الحوادث الشهيرة عندهم فإنها كانت بمثابة التاريخ . فكانوا يقولون حدث ذلك فى عام الفيل مثلا وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جرا ، واستمر ذلك فى الإسلام إلى مضى سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أى إلى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد إذ انتشر الإسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشئون والأعمال فى الحكومة الإسلامية ، فجمع الصحابة الكرام واستشارهم فى ذلك وسألهم من أى يوم نكتب التاريخ فأشار عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة التى هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ففعل .

تدوين الدواوين وفرض العطاء :

من البديهى أن حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان ، وقد كانت دولة الإسلام فى خلافة أبى بكر وصدر من خلافة عمر فى مبادىء الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ، ولم يكن لها من الدخل والخرج إلا الصدقة التى كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء[1] وأما الغنائم والفىء فكانت

---

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم الفىء فى الإسلام ووجوه صرفه التى أبانها الكتاب الكريم وزيادة فى الفائدة نشرح لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التى قررها للصدقة الإسلام ، ومنها تعلم أن الأمة الإسلامية إنما سعدت واعتزت وقويت فى صدر الإسلام بالعمل بهذا وأشباهه من قواعد الإسلام التى ترمى كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين :=

قليلة لم تحوج أخماسها التى يبعث بها للمدينة إلى صرف العناية فى ترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم ، وإنما كانت العناية منصرفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ، ولما توسع المسلمون فى الفتح وانتشروا فى الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت فى مناحى العمران وأخذ يزداد الفىء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ولا قبل لهم بإحصاء مستحقيها وتوزيع الأعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل إلا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها فى قيود خاصة ، دعا عمر رضى الله عنه الصحابة واستشارهم فى كيفية تدوين الديوان . فقال على بن أبى طالب تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً ، وقال عثمان : أرى مالا كثيراً يسع الناس ، وإن

= الصدقة تؤخذ على السائمة من غنم وإبل وبقر بنسبة معلومة فى كتب الشريعة لا محل لبسطها هنا ، وهى ليست كالفىء من حق سائر المسلمين بل هى والعشور التى تؤخذ من المسلمين لمن سمى الله عز وجل فى كتابه الكريم بقوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) قال أبو يوسف أما المؤلفة قلوبهم فقد ذهبوا ، وأما العاملون عليها (يعنى ولاة الصدقة) يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين سهم وللغارمين وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفى أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفى الرقاب سهم فى الرجل يكون له الرجل المملوك أو أب مملوك أو أخ أو أخت أو أم أو ابنة أو زوجة أو جدة أو عم أو عمة أو خال أو خالة وما أشبه هؤلاء فيعان فى شراء هذا ويعان منه المكاتبون وسهم فى إصلاح طرق المسلمين ، فى كلام طويل يرجع إليه من شاء فى كتاب الخراج وإنما نقول هنا إن الأمة الإسلامية لو عملت بالكتاب الكريم ، ولم يحد أولياء أمورها عن هذا النهج القويم لما عرف فرد من أفرادها شقاء الحياة التى تعانيها الطبقة النازلة الآن ، وأى شريعة فى العالم تقضى على الأمة بوفاء دين العاجزين عن وفاء ديونهم من أفرادها وإعالة فقرائها ومواساتهم بقسم من مالها وأى شريعة فى العالم تأخذ من الأغنياء قسما من مالهم لتشترى به الأرقاء وتجعلهم أحراراً سعداء ، اللهم ليس غير هذه الشريعة شريعة تجعل الناس فى سعادة الحياة كلهم سواء وتريد المسلمين على التكافل والتضافر والإخاء ، ولكن أضاعها أهلها فخسروا وكانوا من النادمين فإنا لله وإنا إليه راجعون .

لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر (ينبسط أو يلتبس) : فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام ، فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جنداً(١) فدون ديواناً وجند جنداً ، فأخذ بقوله ، فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا ، والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما فى القاموس ، وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها ، ثم على المكان الذى يكون فيه الديوان فسموه ديواناً .

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية ، وديوان العراق بالفارسية ، واستمر كذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان فى الشام والحجاج ابن يوسف عامله على العراق فنقل عبد الملك فى الشام الديوان إلى العربية ونقله الحجاج فى العراق إلى العربية وسببه كما نقل ذلك فى فتوح البلدان أن عبد الملك بن مروان بلغه عن أحد كتاب الروم أمر ساءه فأمر سليمان ابن سعد بنقل الديوان إلى العربية فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله ، وأتى به عبد الملك ابن مروان فدعا بسرجون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كئيباً ، فلقيه قوم من كتاب الروم ، فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله منكم .

وكذلك فعل الحجاج فى العراق ، والذى نقله له إلى العربية هو صالح ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم ، وكان يكتب بين يدى زادان فروخ الفارسى

---

(١) قال فى القاموس الجند بالضم العسكر والأعوان والمدينة وصنف من الخلق على حدة اهـ . والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها جند يقبضون أرزاقهم به جنداً فيقولون جند قنسرين وجند الأردن وغيرها وهى من ترتيب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كما سترى .

كاتب الحجاج ، ولما قصد نقل الديوان إلى العربية بذل له مردان شاه بن زادان مائة ألف درهم ، على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله ، والقصة طويلة ستَرِد فى سيرة الحجاج إن شاء الله .

وأنت تعلم أن قوام الدولة هو المال وروحها التى تختلج فى جسمها فتدير حركته هو الديوان ، ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ فى الدرجة التى تؤهلهم لإدارة شؤون الديوان على أصول الدول المترقية فى الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل إلى الأعاجم من الفـــرس والروم ورضوا بكتابة الديوان بلغة الكتاب الغريبة عن لغتهم مع مافى هذا من الغبن الظاهر وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتّاب ، وإنما دعاهم إلى تسليم الدواوين إلى الأعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دواتى الفرس والروم ضرورة التوسع فى الفتح والترقى فى مراقى الحضارة والخروج عن حالة البداوة إلى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية فى وسائل العمران ، إذ لم يروا لهم مندوحة عن هذا الأمر كما لم يروا مانعاً فى الدين يمنعهم من مباراة الأمم فى أصول الحضارة والمدنية وأخذ العلم النافع ولو عن مشركى الفرس . ومن البلاء أن ألصق بعض الفقهاء بعد كل شىء من أمورنا الدنيوية بالدين وحرموا على الأمة العمل بأى شىء نافع مادام لم يصبغ بصبغة إسلامية ولو تمحلا : ولو كان الدين يضيق على هذه الأمة إلى الحد الذى توهمه أولئك الفقهاء لما قلد عمر رضى الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة الدولة فى عصره ، من وضع التاريخ والديوان وترتيب الجيوش وإعداد العدة الحربية ونحو ذلك . وإذا قيل إن عمر رضى الله عنه مجتهد له أن يفعل بما يرى فيه المصلحة وعلى الأمة أن تعمل ، فكيف ساغ لمثل الحجاج بن يوسف أن يبدل أمراً اجتهد به الخلفاء الراشدون وأقروه فأصبح شرعاً لا ينبغى لأحد سواهم التصرف فيه والعدول عنه .

اللهم إن طبيعة الاجتماع تقضى بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل ما يصلح للترقى فى مراقى الكمال ، وشأن الأمم هذا شأن الأفراد فى إحراز العلم بالمسابقة والاكتساب ، ومعاذ الله أن يرضى الإسلام بالحرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب ، وإنما توهم بعضهم أن من لوازم الدين صبغ كل شىء بصبغة الدين جعلنا نتحكم بعقولنا القاصرة فى الدين ونعتقد أن الأخذ بأى سبب نافع من أسباب المدنية التى نتوصل بها إلى مسابقة الأمم والغلبة على الدول زيغ عن صراط الدين ، حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرم الأمر الذى يدعونا الدين إليه ويحثنا عليه ، وأقرب شاهد من هذا القبيل نتلوه عليك هذا الشاهد الملخص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثمانى رحمه الله ، تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة فى أوائل الجيل الماضى ، وقد اضطرب أمر الدولة وأشرفت على السقوط فى هوة الدمار ، لتغلغل الفساد فى جسم الفرق اليكجرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية ، وانحطاط نظامها فى جانب نظام الجند الأوربى الذى ظهر يومئذ بمظهر جديد مبنى على الأصول العلمية والاختبارات الفنية ، فخشى السلطان إن هو لم يأخذ بأصول الجندية الجديدة ولم يبار بترتيب الجيوش المنظمة جيرانه من الدول الأوربية أن تكتسح هذه الدول مملكته العظيمة إذ ظهرت له بوادر الخطر يومئذ باحتلال نابليون لمصر ، وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ، ونزوع أهالى المورة للثورة ، فعزم عزماً أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية ، وقبول الإصلاحات الأوربية فى البحرية والعسكرية وإلغاء الجندية الينيچرية ، ورأى أن تعريض حياته الشخصية للخطر مع جنود الينيچرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الأوروبية ومصير الدولة العثمانية للزوال ، وهو شمم وعلو نفس ، وأقدام قل أن صدر مثله عن أحد من الملوك إلا فيما ندر ، إذ معظمهم يجعلون حياة الدولة والملك فداء على حياتهم الشخصية ولا جرم

فإن لكثير من أفراد هذه الأسرة العثمانية كثيراً من الأيادى البيضاء على الأمة وكل امرىء يذكر بفعله ، وأجهل المؤرخين من يغمط فضل الرجال لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدام وأراد إبراز هذا العمل من القوة إلى الفعل ، كان أول المقاومين له علماء الدين ، وفى مقدمتهم عطاء الله افندى شيخ الإسلام فى عصره فحرضوا عليه العامة وأثاروا عليه الضغائن بحجة أنه يريد التشبه بالأفرنج وما زالوا يكافحونه مع الينيچرية ويكافحهم حتى تغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه ، وجرت بعد ذلك أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذى يليه السلطان محمود كان قصاراها إهراق سيول من الدماء أنفذ بعدها السلطان محمود رحمه الله بما مضى عزيمته إرادته فى الإصلاح وقضى على نظام الينيچرية وأهلها شر قضاء وتالله لو لم يفعل ذلك لما بقى لدولة آل عثمان باقية إلى الآن ، إذ هى الآن على ضخامة قوتها وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول فى فنون الحرب قد غلبت على أمرها وانتزعت الدول الأوربية كثيراً من ممالكها الأوربية والإفريقية، فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام، لاجرم أنها كانت ذهبت لاقدر الله مع الذاهبين ، وأصبحت مثلا فى الغابرين ، ولو سئل ساعتئذ عطاء الله افندى هل بهذا يأمر الدين ويريد تلاشى المسلمين ، لأجابك بالبراءة إلى الله من ذنبه ، واستغفر إلى ربه .

على أن الدول العثمانية حرسها الله قد قدت هذه القيود الثقال ، وقبلت من الإصلاح فى أمورها السياسية وأمور الأمة المعاشية ما جعلها تدخل فى مصاف الدول الأوربية ، وإن كانت الأمة العثمانية لم تزل فى دور الانحطاط وأما غيرها من الدول الإسلامية كدولة مراكش مثلا فإنها لم تزل إلى الآن على ما كانت عليه منذ مئات السنين ، فليس لديها نظام للجندية ولا للإرادة

ولا للقضاء وليس عندها مدارس تعلم الناشئين الفنون الحديثة والأصول الحربية وتكسب الأمة ملكات العلم بحاجات العصر ، وترشد الدولة إلى أسباب المنعة والقوة ، والمانع من هذا كله هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد هلاك الأمة والمانع من ترقى المسلمين ، ولو كشفت الأمة المراكشية عن بصائرها حجاب الغفلة ، وقامت دولتها بواجب الخدمة الصحيحة فنبذت عنها أوهام الواهمين وتخرصات الجاهلين فأخذت بحظ من أصول المدنية النافعة لكانت أحسن دول الإسلام حالا وأعظمهن قوة لخلو بلادها من أهل الملل من غير المسلمين الذين تجعلهم الدول الأوربية فى الممالك الأخرى ذريعة لمد يدها للشؤون الداخلية والتعرض بالأذى للدول الإسلامية وتالله إن أمة يبلغ عددها الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد لو رزقها الله سائساً عظيم النفس عالى الهمة محباً للإصلاح يرتب شؤون دولته على نمط جديد ويصرف همته فى إعزاز شأن الملك لكانت أمة عزيزة الجانب منيعة الجناب ، ولكان لها جيش منظم يزيد عدده عن النصف مليون ، يحمى ذمارها ويرد الغارة عن ديارها ولكن أين من يسمع ويعقل ، ومن ينصف ويعمل .

هذا وأما فرض العطاء فإن عمر أمر بأن يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبى صلى الله عليه سلم ، ومن يليه من ذوى القربى ، ثم بأهل السابقة والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التى اختارها لهم عمر ، ثم بالفقراء والمساكين والنساء والأطفال كما هو مبين فى مظانه من كتب الأحاديث والتاريخ ، وقد أشرنا إليه فى باب ديوان الجيش ، وقال قائل لعمر يومئذ يا أمير المؤمنين لو تركت فى بيوت الأموال عُدّة لكون إن كان : فقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها ، وهى فتنة لمن بعدى ، بل أعد لهم ما أمرنا الله ورسوله . طاعة لله ورسوله فهما عدتنا

التى بها أفضينا إلى ما ترون فإذا كان المال ثمن دين أحدكم هلكتم :

على أن العطاء على ذلك الوجه لم يستمر إلا مدة الخلفاء الراشدين ، ثم لما تغير حال الدول وانتشر الإسلام وكثر المسلمون خص الخلفاء العطاء من غير الخمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها لا على نسبة الفىء كله ، أى خصصوا لهذا قدراً مخصوصاً من الفىء يختلف باختلاف الدول ، واستأثروا بالباقى وبالخمس لإنفاقه فى وجوه المصالح العامة ، لأن العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار أنه فىء أخذوه بسيوفهم إذ كانوا كلهم جنوداً محاربين فاتحين ، ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضاً واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد الأموال وادخارها فى بيت المال لإنفاقها على المصالح الأخرى التى تقوم بها الدول وتقتضيها أبهة الملك ، هذا بقطع النظر عما خصص منها للإنفاق على ترف الدولة وشهوات الملك لأن هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفةٍ وشرهٍ وإمساك وبذل .

وأما الكلام على الفىء الذى هو أصل العطاء وعلى حكمه وحكم الخمس وما هو وحكم الجزاء أو الجزية المستثناة من الخمس إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فمبسوط فى كتب الفقه وكتب التفسير المطولة فليرجع إليه من أحب .

وإنما زيادة فى الفائدة نقول هنا إن الفىء هو كل ما صالح عليه العدو بعد وضع الحرب أوزارها ، وحكمه أن يرفع منه الخمس إلى الإمام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن ، والباقى يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين فى الثغور والقائمين على حراسة الدولة إلا الجزية فإنها مستثناة من حكم الخمس ، أى لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد .

واعلم أن الإسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفيء أى وجوه الصرف والإنفاق من أموال بيت المال ووضع مايعرف الآن (بالبودجه) ومعناها تقرير وجوه النفقات السنوية للحكومة . فقد روى الطبرى فى تاريخه عن ابن عباس قال : لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا فأحضرونى علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأى عمر وعلى على أن يأخذوا من قبل القرآن فقالوا (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) يعنى من الخمس (فلله وللرسول) من الله الأمر وعلى الرسول القسم (ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية ثم فسروا ذلك بالآية التى تليها (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية فأخذوا الأربعة الأخماس على ما قسم عليه الخمس فيمن بدىء به وثنى وثلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً : بقوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه) فقسم الأخماس على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعلىّ وعمل به المسلمون بعد .

هذا ما ذكره الطبرى وإنما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء الراشدين وأما من يليهم إلى أواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل إليه الإمكان ، ثم لما توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء فى مناحى الحضارة ، أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت ، هذا مما تقدم ، وربما بدأ هذا التغيير فى عهد ولاية معاوية على الشام كما سترى فى قصته مع أبى ذر فيما يلى من هذا الكتاب .

ترتيب العمال وتقسيم الولايات

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة فى الشام ، وكانت الأمراء من علمنا مما تقدم فى محله ، فجعل إمارة ما يفتح من الشام إلى أبى عبيدة

وجعل إمارة الحرب فى كل جهة لأمير مخصوص ، فجعل إمارة الحرب فى دمشق ليزيد بن أبى سفيان وإمارة الأردن لشرحبيل بن حسنة وإمارة فلسطين لعمرو بن العاص وقد مر تفصيل ذلك وبيانه، إلا أن الإمارة العامة كانت لأبى عبيدة ، فالمخابرة والصلح وكل ما يتعلق بأمور الحرب السياسية كان منوطاً به ، ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمين أبقى أباعبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف إليه جندقنسرين ، ثم أضيف إلى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولى جند قنسرين بعد وفاة أبى عبيدة ثم ، جعل دمشق جنداً ، وعليها يزيد بن أبى سفيان ، ثم معاوية بعده ، ثم جعل الأردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه إلى قسمين أحدهما حاضرته إيلياء والآخر حاضرته الرملة ، وقد مر الكلام على ذلك فلا حاجة للتفصيل والمراد من الجند هو أنهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند يقبضون أرزاقهم منها جنداً فبدلا من أن يقولوا ولاية قنسرية مثلا يقولون جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة جمعها كور ، وروى الطبرى فى أخبار سنة (١٧ هـ) أن عمر لما جاء الشام فى هذه السنة رتب الشواتى والصوائف (أى الجنود التى تغزو فى الصيف والجنود التى تغزو فى الشتاء) وسد فروج الشام ومصالحها (١) وأخذ يدور بها واستعمل عبد الله ابن قيس على السواحل من كل كورة . أى على السواحل جميعها ، سواء كانت تابعة لكورة دمشق أو غيرها .

وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبى سفيان وعلى الأردن معاوية (بعد شرحبيل)

---

(١) تقدم معنى المسالح والفروج فى خبر فتوح سعد بن أبى وقاص .

وعلى فلسطين علقمة بن مُجَزِّز وعلى الأهراء[1] عمرو بن عبسة ، وجعل على كل عمل عاملا فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذى رتبه عمر رضى الله عنه إلى عهد العباسيين .

وذكر فى فتوح البلدان أن معاوية كتب إلى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل ، فكتب إليه فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامه الحرس على مناظرها[2] واتخاذ المواقيد لها .

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس ، فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عتبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الأشعرى ، وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبى وقاص ثم عمار بن ياسر ثم غيره وغيره ، وكانت عمالة عامل هذا القسم أى قسم الكوفة كما فى رواية ابن جرير الطبرى تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وما سبذان وقرقيسياء إلى البصرة ، ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس الغربية وكانت تقسم إلى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة ، وكانت مسالحها وثغورها مما يلى الجزيرة وأرمينيا الموصل وقرقيسياء وثغورها فيما يلى فارس تابعة لتقدم الجيوش فى الفتح وتجاوزها حدود البلاد الإسلامية بالطبع .

---

(١) المخازن التى تخزن فيها الحبوب وغيرها من أموال الفىء .

(٢) المناظر وتسمى لهذا العهد المناظير هى قباب مبنية على رءوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر ، بحيث يتقارب بعضها من بعض ، ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عندما يرون إقبال العدو من جهتهم ، فيوقد حراس المنظار الذى يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر إلى المدينة أو الثغر أو المسلحة فى زمن قليل ، فيسرعون لإمداد الجهة التى أقبل منها العدو ولم تزل آثارها قائمة إلى الآن فى كثير من أنحاء سورية ، وقد شاهدت المناظر القائمة على الجبال بين دمشق وحماة إلى ما فوق ومعظم الموجود من بقاياها إلى الآن هو من آثار الدول التركمانية والكردية والجراكسة التى شيدوها فى أيام الحروب الصليبية وعنوا بها اعتناء عظيما جداً .

وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاض يقضى بين الناس كما رأيت في باب تعبية الجيش وغيره ويتبعه أمير يسمى عامل الأقباض يحصى الغنائم فإذا فتحت البلاد وتقررت الجباية كان عامل الخراج وكان عامل الأقباض فى حرب فارس السائب بن الأقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرن ثم غيره وغيره ، وقد مر بيان ذلك فى غضون أخبار الفتح فلا حاجة للمزيد .

وأنت ترى أن ذلك الترتيب هو غاية فى إصابة الغرض وبعد النظر فى تنظيم شئون الدولة بالنسبة لذلك العصر ؛ وربما نحا عمر رضى الله عنه فى بعضه نحو فارس والروم ولعله بدىء ساذجاً ثم ترقى بترقى المسلمين وتقدمهم فى الفتح فى خلافة عمر رضى الله عنه بحيث تم هذا الترتيب فى سنة (١٧) كما رأيت .

ضرب النقود :

كانت العرب قبل الإسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمر ذلك إلى أن جاء الإسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدراهم البلغية وهى دراهم فارس وكان وزن هذا الدرهم زنة مثقال من الذهب ، فلما كانت سنة (١٨هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله ، وجعلها فى أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقريزى فى النقود الإسلامية ، إلا أن عمر رضى الله عنه لم يضرب الدينار وإنما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان . وأما نسبة الدرهم إلى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك فى سيرة عبد الملك بن مروان إن شاء الله : وأما نسبة الدرهم والدينار إلى نقود هذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شىء بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولا إلى الوقوف على نسبة حقيقية لأجور

العمال بالدرهم فى صدر الإسلام ليقاس عليها مثلها فى هذا العصر وتعلم القيمة الاعتبارية يومئذ للدرهم وتقاس على مثلها فى هذا العصر وكل ماقيل من هذا القبيل إذا لم يُبن على ذلك التقدير الصحيح فحدس وتخمين ليس من الحقيقة على شىء ، لأن الدرهم من الفضة دنىء القيمة الآن إذ ربما ساوى كل أربعين درهماً باعتبار الوزن ديناراً والدينار يتراوح ثمنه بين ١٢ فرنكا و١٦ فرنكا ، وهذه القيمة ربما كانت فى بعض بلاد أوروبا لهذا العهد قيمة أجرة عاملين أو ثلاثة وفى بعض بلاد المشرق قيمة أجرة أربعة عمال إلى الثمانية من ذوى المهن لا ما يسمونه العمل البسيط .

فالدرهم والدينار لايصح أن يكون قيمتهما الاعتبارية فى صدر الإسلام كقيمتهما الآن ، بل أغلى وربما كان الدينار أجرة عشرين عاملا أو أكثر والفرق بينهما لا يعلم إلا من تحقيق عمل العامل فى ذلك الوقت ، وعسانا نتوفق إلى الوقوف على حقيقة ثابتة من هذا القبيل ، فنبسطها عند الكلام على النقود الإسلامية فى خلافة عبد الملك بن مروان إن شاء الله .

وضع البريد :

البريد اسم للمسافة التى بين كل محطة وأخرى من محطات البريد ، وهى أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا ، ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به فأطلقوه على أضبار (أكياس) البريد وأصله ، على ما يقال من وضع الفرس ، والذى رتبه دارا ملك الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم ، وربما نأتى على شىء من تفصيل خبره فى غير هذا المحل .

ثم استعمل فى الإسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد ، وهو منفصل عن سلطة الولاة مكلف خلا أعمال البريد بنقل أخبار الولاة والبلاد لدار الخلافة ، وأن يكتب المهم من هذه الأخبار للخليفة ليكون على علم

بأحوال الرعية والولاة ، وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الأخبار وسنستقصى الكلام على هذا عند وصولنا إلى الكلام على دولة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس إن شاء الله.

وروى المؤرخون أن أول من وضع البريد فى الإسلام هو معاوية بن أبى سفيان ، ولعله هو أول من رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات ، وإلا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل معاوية ، إذ قد جاء ذكره كثيراً فى سيرته ، ومنه ما مر فى فصل علائقه مع الملوك عند ما قال عن الرسول الذى أتى بالعقد هدية من إمبراطورة الروم إنه بريد المسلمين ، وفى مناقب عمر للإمام ابن الجوزى أن عمر لما أبعد نصر بن حجاج عن المدينة إلى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع إلى المدينة ، وكتب عمر إلى عامله بالبصرة كتابا فمكث الرسول عنده أياما ثم نادى مناديه، ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب ، فكتب نصر بن حجاج كتابا ودسه فى الكتب إلى أمير المؤمنين .

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أن أول واضع للبريد فى الإسلام هو عمر بن الخطاب إلا أنه ربما لم يكن على الوجه الذى كان بعد ، ولم يبلغ من الإتقان مبلغه فى عصر الأمويين والعباسيين وإنما هو بدىء ساذجا ثم ترقى بترقى الزمان ،

تمصير البصرة والكوفة :

مصرت البصرة سنة (١٥ هـ) عن يد عتبة بن غزوان بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان فى مكانها محل يسمى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمنع العرب من العبث ومصرت الكوفة سنة (١٧ هـ) عن يد سعد بن أبى وقاص ، وكان البناء أولا بالقصب فدب الحريق فى الكوفة والبصرة

فأرسل سعد إلى عمر نفراً يستأذنونه فى البنيان باللبن (الطوب) فقال افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان وكتب إلى أهل البصرة بمثل ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعا وطول أربعين ذراعا والأزقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع فى الوسط بحيث تتفرع الشوارع ، وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه إلا أنه لما ازدحمت الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه إلا أنه لما ازدحمت السكان فى المدينتين أخلوا بذلك الأصل ولم يراعوا حالة التنظيم ، فتقدموا فى البناء فى الشوارع والساحات حتى ازدحمت المنازل وضاقت الشوارع واختلت أصول التنظيم التى وضعها لهم عمر رضى الله عنه ولما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لأصول التأنق فى البنيان لقرب عهدهم بالبداوة وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا بهذا الصدد فى مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام فليرجع إليه من شاء .

التوسعة فى المسجدين :

فى سنة (١٧هـ) حج عمر رضى الله عنه فبنى المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على قوم أبوا أن يبيعوا دورهم ، ووضع أثمان دورهم فى بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التى على الطريق بين مكة والمدينة ، فى أن يبنوا منازل فى هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء ، وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه .

جملة مآثر :

ومن مآثره أن أقام دور الضيافات وأدر عليها الأرزاق : عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج

إليه يعين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق مايصلح من ينقطع به ، وفى بعض الروايات أنه فعل مثل ذلك أيضاً بالطريق بين الشام والحجاز (ومنها) أنه مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين ففرض لهم شيئاً من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التى وصلت بين النيل وبين البحر الأحمر فى عام الرمادة ، واستمرت كذلك إلى عهد الفاطميين ثم ردمت كما سترى تفصيل الخبر عنها فى سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ماتقدم ذكره من حفر الترع وإقامة الجسور فى العراق العربى والعراق العجمى (ومنها) ماتقدم ذكره أيضاً من وضع الديوان وإقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر المجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلا فى سيرة سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه ، وغير ذلك من الآثار الجليلة التى تمكن من إيجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الإسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء ، وربما نأتى على إجمال آخر من آثاره عند ذكر أوائله فى غير هذا الباب إن شاء الله .

— ١٢ —

أخلاقه ومناقبه

سياسته وعدله :

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان ، يعلمه من وقف على تاريخ هذه الأمة ، ولما جاء الإسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبى عليه الصلاة والسلام ، ووقوفهم على حقائق الدين ، وإشراب قلوبهم حب الإيمان ، والفريق الآخر الذين لم يتمكن من قلوبهم الإسلام

لقرب عهدهم منه بقى فى نفوسهم شىء من آثار الجاهلية لاينتزعه إلا تمادى الزمان ، لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضى الله عنه إلا أن يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق كما رأيت ذلك فى سيرته وأخباره معهم أيام الردة ، ولما استخلف عمر رضى الله عنه وجد أن لامناص له من أن يحذو فى معاملتهم بالشدة عند الحاجة حذو أبى بكر ، خوف النزوع إلى الثورة والخروج عن حدود الإسلام وقيود الأخوة والرجوع إلى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة ، وقد كان رضى الله عنه شديداً بطبعه فساس أولئك الأقوام بمزيد الشدة والإرهاب ، لما كان يتوقعه من حصول الفتن والدسائس ، ولو لم يقابل شدته إغراقه فى العدل وكرمه فى بذل المال وحكمته فى وضع الثواب فى محله والعقاب فى محله لما استقام له أمر الخلافة ، كما أنه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ، ولخيف من حصول فتن كبرى تنكمش لها أعصاب الإسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضى الله عنه ، إلا أنه لم يتأت عن تلك الفتن من الضرر مايوازى الضرر الذى كان يتأتى عنها فيما لو حصل ذلك فى أوائل خلافة عمر رضى الله عنه وإنما خف ضرر تلك الفتن بعد لأن الإسلام كان قد ملأ أكناف الأرض ، والعرب كلهم تفرقوا فى أنحاء البلاد واشتغلوا بأمور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك العريض الذى استحال أن تدك أساسه عواصف الفتن فى خلافة عثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم وإنما كان الفضل فى هذا لعمر بن الخطاب الذى أخذ على الأمة سبيل النزوع إلى الجاهلية الأولى ودفعها فى غمار الفتح وشغلها بمحاربة الأمم عن محاربة نفسها ، ورباها على الخضوع لأولى الأمر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجر على الحرية ولا تمييز بين الطبقات ، وهذا منتهى ماتوصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول ، وحسب عمر أنه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لاتخفى عليه خافية من أمور الرعية ، ولا يفوته

ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه ، حتى قيل إن علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لأنه جعل عليهم عيوناً حيثما كانوا ينقلون إليه أخبارهم فى معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البرد صباح مساء [١] ويا ويح العامل الذى تبدر منه بادرة أذى لأحد من الرعية أو يهفو هفوة فى شأن من الشؤون فإنه لايلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأنيب من حيث لايشعر ، فلهذا ملأت رهبته القلوب وخافه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية .

أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عمر بن مرة قال : لقى رجل من قريش عمر ، فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال . أفى ذلك ظلم . قال لا . قال فزادنى الله فى صدوركم مهابة . وأخرج عن عبد الله بن جبير أنه سمع عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يحدث قال . مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

---

(١) هكذا حال الدول عندما تبدأ فى سلم الصعود ومتى انقلبت إلى الهبوط انقلبت عندها هذه القاعدة رأساً على عقب بجعل الأمراء العيون على الرعية لاعلى العمال ليكونوا عوناً للولاة على الرعية كما هى الحال فى ممالك الاسلام . حيث لا يستطيع أحد أن يشكو ظلم العمال وسوء الأحوال حتى أوغل الولاة فى الظلم وساموا الناس سوء العذاب وخربوا العمران وانتشر أمر الدول الاسلامية فى الشرق والغرب واختل الملك وقوى عليها العدو ويا ويح من تبدو منه بادرة شكوى من هذا الخطب ، فإنه للحال يزج به فى ظلمات السجون أو ينفى من الأرض ، وهذا ماجعل الأوربية لهذا العهد تتسلط على الممالك الاسلامية وترمى المسلمين بوصمة العجز عن إدارة شئون الحكومات ، وتلصق بهم عار الانحطاط إلى دركات الضعة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم ولو تخطفهم الأمم ، وأصبحوا يساقون بعصا الاستعباد كاليهود ، ولقد شافهنى مرة أحد علماء الألمان بكلام من هذا القبيل علمت منه مرتبتنا فى نظر العالم المتمدن بين الأمم ، وكنت والله أعلم لا أعلم أننا انتهينا فى نظرهم إلى هذا الحد فإنا لله وإنه إليه راجعون .

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله مانستطيع أن نديم إليه أبصارنا : قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر : فقال أو قد قالوا ذلك فو الله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله في ذلك . وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً (خوفاً) منهم مني : وأخرج ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر . فأين المخرج وقام يبكي يجر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك . والظاهر أن عمر رضي الله عنه إنما استعمل مع العرب هذه الشدة لعلمه بأخلاقهم الجافية وأنهم إن تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الإدلال والتعجرف المعروف فيهم يدلك على هذا مارواه الحافظ بن عساكر عن الأصمعي قال . كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر بن الخطاب في أن يلين لهم فإنه قد أخافهم حتى أخاف الأبكار في خدورهن . فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر إليه فقال . ياعبد الرحمن ، إني لاأجد لهم إلا ذلك ، والله لو أنهم يعلمون مالهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لأخذوا ثوبي من عاتقي ، والذي زاد عمر هيبة في النفوس أنه كان لايراعي في الحق كبيراً ولا يمالىء شريفاً ولا أميراً إلا فيما تقضي به الضرورة السياسية ، وهذا فيما لايمس به حق من حقوق الرعية ، ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الأيهم ملك غسان ، فإنه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب ، وبينما هو يطوف يوماً وطىء على إزاره أعرابي من بني فزارة فضربه على وجهه ، فشكاه الأعرابي إلى أمير المؤمنين ، فاستدعى عمر جبلة وقال له إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته ، فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرقون بين الملك والسوقة ، قال لا قد جمع بينكما الإسلام . فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ،ولحق بالإمبراطور هرقل بالقسطنطينية ،

فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع ، وهذه مرتبة من إنصاف الرعية وإقادتهم حتى من الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ومن بدائع أخباره فى إنصاف أفراد الرعية من الولاة مانقله فى حسن المحاضرة عن أنس ، قال أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب ، فقال ياأمير المؤمنين عائذ بك من الظلم . قال عذت معاذاً . قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول . أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم . فقال عمر أين المصرى خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصرى ضعه على صلعة عمرو . قال ياأمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو . مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، قال ياأمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى (يعنى) المصرى .

هذا منتهى الإنصاف للرعية والعدل بين طبقات الأمة ، وبمثله علم الناس أن لا كبير فوق الحق ولا أمير إلا دون الشريعة حتى نفسه رضى الله عنه ، فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه أمام الحق والعدل إلا كواحد من الناس ، فقد جاء فى كنز العمال عن الشعبى قال كان بين عمر وبين أبى ابن كعب خصومة ، فقال عمر اجعل بينى وبينك رجلا . فجعلا زيد بن ثابت ، فأتياه فقال عمر أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه ، فقال ههنا ياأمير المؤمنين . فقال له عمر هذا أول جور جرت فى حكمك ولكن أجلس مع خصمى ، فجلس بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر ، فقال زيد لأبى اعف لأمير المؤمنين من اليمين ، وما كنت لأسألها لأحد غيره ، فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله

ابن عكيم قال قال عمر بن الخطاب . إنه لاحلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه ، ومن يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأتيه العافية ، ومن ينصف الناس من نفسه يعطى الظفر فى أمره والذل فى الطاعة أقرب إلى البر من التعزز بالمعصية . وخلا هذا فقد كان رضى الله عنه حريصا على ألا يشكى منه ويرشد إلى كل مافيه راحة الناس وسلامة الأمة وتنكب طرق الخطأ أو الجور ، حتى بلغ الأمر أن كان كلما اجتمع إليه ناس من الأمصار أو جماعة من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع طلع ضمائرهم من جهة سياسته فى الرعية ولا يأبى قبول النصيحة (ومن) ذلك ماجاء فى كنز العمال عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرون والأنصار . أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ما كنتم فاعلين فسكتوا ، فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح (وهو السهم المعوج قبل أن يراش وينصل) فقال عمر . أنتم إذن أنتم إذن (استحسانا لقولهم) . وفى المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخى قال قال عمر رضى الله عنه وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل منى عيباً إلا عابه ، فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين ، تديل بين البردين وتجمع بين الأدميين ولا يسع ذاك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقى الله . وقوله بديل بين بردين أى يلبس قميصاً ويخليه ويلبس غيره . (وذكر) بعض المؤرخين أنه خطب يوماً فقال . أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه . فقام رجل فقال . والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر . الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

إلا أننى لم أقف على سند لهذه الخطبة وهى إن صحت فربما تكون من قبيل الخبر الأول لاخطبة ، وأنت ترى من هذه الأخبار إلى أية درجة بلغت

حرية الضمائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ ومنها تعلم أنهم إنما سادوا بقول الحق وتعشق الحرية واستقلال الضمائر لا بالذل والخنوع والتقيد بقيود العبودية التي ما تقيد بها قوم إلا ضربتهم بالهلاك وسودت عليهم الأمم كما سودت الغربيين الآن على مائتي مليون من المسلمين اتخذوا رؤساؤهم أولياء من دون الله فقذفوا بهم إلى هوة الدمار، وأقفروا من آثار ملكهم العظيم الديار .

وفي كنز العمال عن سلمة بن شهاب العبدي قال قال عمر بن الخطاب أيتها الرعية إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير ، وأنه ليس شيء أحب إلى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم إمام ورفقه ، وليس شيء أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه .

(ومن سياسته) في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة في الأعمال وأن لهم ما تكنه السرائر ، ماجاء في كنز العمال أيضاً من حديث عتبة بن مسعود قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً آمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته ، ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة ، وإنما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيهاً لهم إلى أنه مراقب لأعمالهم .

ومع أنه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة في الأعمال فإنه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد في الأمور ويرشدهم إلى الجمع بين العزيمة والنية سوقاً لهم إلى الاستقامة في العمل والحزم في الرأي فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه عن عمر بن مجاشع قال : قال عمر

ابن الخطاب القوة فى العمل ، أن لا تؤخر عمل اليوم لغد . والأمانة أن لا تخالف سريرة علانية ، واتقوا الله عز وجل ، فإنما التقوى بالتوقى ومن يتق الله يقه .

وهكذا رضى الله عنه كان فى رعيته كالوالد الرءوف يواليهم بالنصائح ويرشدهم إلى طريق الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتآلف والاجتماع وينهاهم عن التحزب والتفرق وخصوصاً قريشا فإنه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة لأنهم قدوة الناس وأئمة العرب .

أخرج الطبرى عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش بلغنى أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس ، وايم الله إن هذا لسريع فى دينكم سريع فى شرفكم سريع فى ذات بينكم ، ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول هذا رأى فلان ، قد قسموا الإسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم فى الناس اللهم ملونى ومللتهم وأحسست من نفسى وأحسوا منى ولا أدرى بأينا يكون الكون وقد أعلم أن لهم قبيلا منهم فاقبضنى إليك .

ومن جميل سياسته أنه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله أن يكونوا مثله ، لهذا عزل خالد بن الوليد من الإمارة وجعل بدله أبا عبيدة ابن الجراح ، وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والأناة كأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم إلا بعض القواد فربما كانوا على شيء من الشدة وذلك يكون فى مثلهم بالطبع ومع شدته رضى الله عنه فقد كان يوصى عماله بالرفق والعدل والأناة وعدم الإيغال فى العقوبة وبلغ به كرهه للإيغال فى العقوبة أن أرسل مرة إلى أبى موسى الأشعرى وقد اشتد فى العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب إذا عاد إلى مثلها .

جاء فى كنز العمال عن ابن عمر قال : كنت مع عمر فى حج (أو عمرة) فإذا نحن براكب : قال عمر أرى هذا يطلبنا : فجاء الرجل فبكى : قال ماشأنك إن كنت غارماً أعناك وإن كنت خائفاً أمناك إلاّ أن تكون قتلت نفساً فتقتل بها وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم : قال إنى شربت الخمر وأنا أحد بنى تيم وإن أبا موسى جلدنى وحلقنى وسود وجهى وطاف بى الناس وقال لا تجالسوه ولا تؤاكلوه فحدثت نفسى بإحدى ثلاث . إما أن أتخذ سيفاً فأضرب به أبا موسى . وإما أن آتيك فتحولنى إلى الشام فإنهم لا يعرفوننى : وإما أن ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب : فبكى عمر . قال ما يسرنى أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا ، وإنى كنت لأشرب الناس لها فى الجاهلية ، وإنها ليست كالزنى . وكتب إلى أبى موسى ما صورته .

سلام عليك أما بعد فإن فلان ابن فلان التيمى أخبرنى بكذا بكذا وايم الله إن عدت لأسوّدن وجهك ، ولأطوفنّ بك فى الناس ، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول فعد . فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه فإن تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر (أى أركبه) وأعطاه مائتى درهم .

ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا فى عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ، ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم أن كان إذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شىء عنهم يستدعى ذوى أمانة من المسلمين الذين أقاموا فى بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصى سيرة العمال ، ومن ذلك ما رواه الطبرى فى تاريخه أن عمر رضى الله عنه كتب إلى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوى الرأى والبصيرة ، فأرسل إليه وفداً فيهم الأحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فأجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الأحنف ، وكان يثق بصدقه ثم صرفهم .

ومن أجمل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء فى كنز العمال أن عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ، ثم ضيعناك فى كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

ومن حسن سياسته تقدمه إلى قواده بأن لا يمسكوا الجند فى الغزو أكثر من أربعة أشهر ، وسببه أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه ... وأرقنى أن لا خليل ألاعبهُ

فلولا حذار الله لا شىء مثله ... لزُحزح من هذا السرير جوانبهُ

فكتب عمر إلى عماله أن لا يغيب أحد بالغزو أكثر من أربعة أشهر : ونعم الرأى .

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألا يجلدنّ أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان أن يلحق بالكفار .

ومن سياسته أنه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من أن يدنسه بالولاية ، فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال : قال أبى بن كعب لعمر بن الخطاب مالك لا تستعملنى : قال أكره أن تدنس دينك .

ومنهم من لا يستعمله خشية أن يحمله على رقاب الناس أو خشية أن تحدثه نفسه بالإمارة إذا بعد عن مراقبته .

وهؤلاء هم بنو هاشم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع إلى الإمارة ،

ففي مروج الذهب للمسعودى عن عبدالله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال يا بن عباس إن عامل حمص هلك ، وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم وفى نفسى منك شىء لم أره منك وأعيانى ذلك فما رأيك فى العمل ، قال لن أعمل حتى تخبرنى بالذى فى نفسك . قال وما تريد إلى ذلك . قال أريده فإن كان شىء أخافه على نفسى خشيت منه عليها الذى خشيت وإن كنت بريئاً من مثله علمت أنى لست من أهله فقبلت عملك هنالك . فإنى قلما رأيت أو ظننت شيئاً إلا عاينته : فقال يابن عباس إنى خشيت أن يأتى علىّ الذى هو آت وأنت فى عملك فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركـكم : قال (أى ابن عباس) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك : قال (أى عمر) والله ما أدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب فقد فرعت لك فما رأيك ؟ قال : (أى ابن عباس) أرانى لا أعمل لك : قال ولم : قلت إن عملت لك وفى نفسك ما فيها لم أبرح قذى فى عينك قال : فأشر علىّ ؟ قلت إنى أرى أن تستعمل صحيحاً منك صحيحاً لك .

ومن سياسته تقدمه إلى العمال بأن لا يأذنوا لأحد من جنود المسلمين أن يزرع أو يزارع فى البلاد المفتتحة وأن لا يقطعوا أرضاً لأحد منهم البتة ، وذلك لأمور الأمر الأول كى لايزاحم المسلمون أهل الذمة والعهد فى أراضيهم ويضيقوا عليهم فى معيشتهم ، والأمر الثانى كى لا يألف الجند الاعتمال فى الأرض فى إبان الفتح فتميل نفوسهم إلى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطراح لأمة القتال واعتزال الحرب والإخلاد إلى الراحة والترف ، والأمر الثالث كى تبقى الأرض فى يد أهلها مادة تستمد منها الدولة ما يقوم بشؤونها العسكرية والإدارية ، ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتعدم مادة القوة عن الدولة الإسلامية فيما بعد ، ولا تجد من المال ما يكفى

لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد ، وقد مر الشاهد على سياسته هذه فى غير محل من هذا الكتاب ، ومنه ما كتبه إلى عمال العراق وعمرو بن العاص فى مصر كما رأيت ذلك فى فصل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره فى سياسته طويلة نكتفى منها بما تقدم دلالة على الباقى .

نظرة فى بعض الأخبار المتعلقة بأهل الذمة :

قد رأيت فى هذا الباب وفى باب إجلاء عمر لأهل نجران وسترى فى باب أخباره وأقواله كيف كانت سياسة عمر مع أهل الذمة وكيف كان شديد الحرص على راحتهم حاثاً للعمال على إنصافهم وعدم إيذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هذه معهم ، وقد أورد بعض أرباب السير ونقلة الحديث خبرين عن عمر يتعلقان بأهل الذمة ، أحدهما أمره لعامله فى العراق بختم رقاب أهل الذمة من الفرس بالرصاص ، والثانى تقدمه إلى العمال أن لا يحدث النصارى فى أمصار المسلمين (أى التى مصرها المسلمون خاصة كالبصرة والكوفة) بيعة ، ولا يرفعوا صليباً ، على أن هذين الخبرين وما شابههما قد وهن روايتها أهل الحديث وحفاظه ، وقالوا إنها موضوعة وقد أورد الإمام الشوكانى فى نيل الأوطار الحديث الثانى عن البيهقى وعن الحافظ الحرانى باختلاف بينهما باللفظ ، وقال عن الأول فى إسناده ضعف وعن الثانى فى إسناده حنش وهو ضعيف . ويريد بحنش أحد المطعون بهم فى رواية الحديث .

فلا ندرى ما هو الباعث لفريق الوضاعين على وضع أمثال هذه الأحاديث أهو الجهل بمقاصد الإسلام الذى جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين الشعوب (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أم ذلك شىء دس فى

الأخبار وتناقله الرواة مع الغفلة عن مقاصد الشرع .

ليس بعجيب على الكذابين أو المنافقين أو الجاهلين أن يدسوا ما شاءوا في الأخبار ، إنما العجيب أن ينقلها بعض المؤرخين والعلماء الأعلام على علاتها كما نقل ابن الجوزى وهو إمام معروف الخبر الثانى فى مناقب عمر دون التنبيه على ضعفه ، وإنما جرّ بلاء التشيع ونفث روح التفرق وأنسى المسلمين أصول التآلف والتحابب حتى بين أنفسهم انتشار أمثال هذه الأحاديث والأخبار فى كتب الخاصة مع علمهم بأن منها ضعيف السند وإنما دعاهم إلى نقلها توهم أنها قربى يتقرب بها إلى الدين أو يتعصب بها له ، مع أن التعصب للدين هو التمسك به والذود عن حوضه وإعزاز جانبه وجانب أهله بإرشادهم إلى أن السيادة على الأمم إنما هى بمسابقتهم فى مضمار الحياة الاجتماعية لا بإيذاء الغير فى دينه وحريته ، والله تعالى يقول (لكم دينكم ولى دين) ولو أراد الإسلام إيذاء الذمىّ فى حريته الدينية والشخصية لأمر بإكراه أهل الكتاب على الإسلام كما أمر بإكراه مشركى العرب . ومن ثم فلو فرض ورود أمثال تلك الأخبار سواء عن عمر رضى الله عنه أو عن غيره فلا ينبغى لها أن تحمل على ما يناقض أصول الدين بل تحمل على الضرورة السياسية التى ربما تدعو إليها سياسة الفتح ، كما يدل عليه تخصيص أمر عمر لو صح الخبر عنه بمصر مخصوص إذ لا بد لكل فاتح من إظهار الشدة فى بادىء الأمر بما يشبه ما يسمونه الآن الإدارة العرفية أو العسكرية ريثما تثبت قدمه فى البلاد وتسكن إلى حكمه نفوس المغلوبين ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فربما كان لجدة العرب فى الدين وعدم تمكن عامتهم منه لقرب عهدهم به دخل فى مثل تلك السياسة التى يراد بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من أن يتطرق إليها أهل جوارهم من الكتابيين بشىء من الإفساد لقرب عهدهم بالوثنية وإغراقهم فى الجهل ، كما كان لهذه السياسة دخل فى إجلاء أهل نجران ، ومن هذا القبيل الخبر الذى نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم عمر إلى عماله بعدم

إحداث النصارى بيعاً فى الأمصار التى مصرها المسلمون، هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت ، وعلى هذا القصد ينبغى أن يحمل كل ما جاء من الأحاديث والأخبار التى من هذا القبيل لا على قصد إيجاد النفرة بين المسلمين وأهل الكتاب ، لا سيما والمحذور الذى كان يدور فى خلد الصحابة ويخشاه النبى صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال بزوال أسبابه ولا يحمل هذه الأخبار على غير هذا المحمل الذى بسطناه إلا جاهل بمقاصد الإسلام غير عالم بأن الدين الذى يأمر أهله بمعاشرة أهل الذمة بالمعروف ، ومعاملتهم بالإنصاف وعدم إيذائهم فى حال من الأحوال لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، لا يناقض نفسه ويأتى بما يخالف عدله ، ولكن العقلاء الذين يضعون الأمور موضع النقد والمحاكمة قليل وآفة العلم الفهم بما يوافق الهوى لا الحق والسلام .

أخباره مع عماله ووصاياه لهم :

كان رضى الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم ، وبلغ به ذلك أن أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم ، وجعل أحد الصحابة وهو من أهل التقى والصدق واسمه محمد بن مسلمة قاصاً أى محققاً لأخبارهم ومقتصاً لآثارهم ، فإذا شكا أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل محمداً المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا فى السر كى لا يؤخذ العامل بوشاية واش أو سعاية مفتر ، فيذهب ويجمع إليه الناس فى المسجد ، وربما طاف عليهم فى أحيائهم يسألهم عن عملهم بسيرة الأمير وبأسباب الشكوى منه ، ومن ذلك ماذكره الطبرى فى تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش إلى نهاوند فى أخبار سنة (٢١) قال ونزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم إلى نهاوند ولم يشغلهم مادهم المسلمين من ذلك ، وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدى فى نفر فقال

عمر إن الدليل على ماعندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد وايم الله لايمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا (يعنى الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للأعاجم والأعاجم فى الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذى يقتص آثار من شكى زمان عمر[1] ، فقدم محمد على سعد ليطوّف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند ، فطوف به على مساجد أهل الكوفة لايتعرض للمسئلة عنه فى السر وليست المسئلة فى السر من شأنهم إذ ذاك . وكان لايقف على مسجد فيسئلهم عن سعد إلا قالوا لانعلم إلا خيراً ولا نشتهى به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه : إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً إلى أن قال الطبرى وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسعهم إثباتها فردهم عمر وخشى إذا أبقى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقره .

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مراقبا لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لايتعجل فى أمرهم إذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته ، فإن ثبت عليه شىء مما يدعيه الشاكى عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله ، ربما نأتى على شىء منها فى سيرة أشهر المشهورين من رجاله إن شاء الله تعالى

وكان رضى الله عنه لايحب أن يفرق بين عماله فى المعاملة لا بين الحر

---

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد .

والعبد ولا بين القوى والضعيف ، أخرج ابن جرير الطبرى عن الأسود بن يزيد قال كان الوفد إذا قدموا على عمر رضى الله عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً ، فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم ، فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم ، فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه فإن قالوا لا عزله .

وكان رضى الله عنه لا يغفل عن أن يرسل الأوامر إلى عماله تباعاً فى أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا أو يغدروا ، ومن ذلك أنه لما وفد عليه الأحنف بن قيس وسأله عن حالة الذمة فى ولاية البصرة وصرفه كما تقدم الخبر عن ذلك فى الفصل السابق كتب معه كتاباً إلى عتبة ابن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبرى)

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى ، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم ، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

وبلغه مرة أن حرقوصاً عامله على الأهواز نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه ، والجبل كؤود يشق على من رامه فكتب إليه ماصورته نقلا عن تاريخ الطبرى فى حوادث سنة (١٧) :

(أما بعد) بلغنى أنك نزلت منزلا كئوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد ، وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصفُ لك الدنيا ، ولا تدركنَّك فترة ولا عجلة فتكدرَ دنياك وتذهب آخرتك

هذه لعمرى الرأفة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة الناس ، فاللهم إن خليفة لا يغفل حتى عن أمثال هذه الجزئيات لخليفة لا يخلفه الزمان ولا يوهن له سلطان ولا يمحى ذكره عن صفحات الجنان فرضى الله عنه وأرضاه

ومن وصاياه للعمال ما أخرجه الطبرى عن أبى عمران الجونى قال كتب عمر إلى أبى موسى : إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجه ، فأكرم مَن قِبَلك مِن وجوه الناس ، وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف فى الحكم وفى القسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألفوه ويرفعوا إليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كى يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا فى الحكم ، وذلك فى القسم ، ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لا يصلون إليه

وأخرج عن أبى فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال : يأيها الناس إنى والله ما أرسل عمالا إليكم ليضربوا أبشاركم ولا يأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفى رواية ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىّ فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه [1] فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت لئن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه : قال إى والذى نفس عمر بيده إذاً لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

---

(١) يعنى يمكن خصمه من الاقتصاص منه أو يقتص له منه

وعن أبى رواحة قال كتب عمر بن الخطاب إلى العمال : اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار .

وروى الطبرى أن عمر كان يقول فى عماله : اللهم إنى لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى ، ومع كل هذا التشديد على العمال فإنه رضى الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من أن يجار عليهم بأمر لا يصله خبره ، لهذا عزم قبيل قتله أن يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضى حاجاتهم : فقد أخرج الطبرى عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولا ، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلىّ وأما هم فلا يصلون إلى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول هذا ، ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة فى المسلمين ، ولا يدانيه ملك من ملوك الأرض أجمعين .

هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه إلى أخبار العمال مع تحريه فى انتخابهم أهل الأمانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية ، حتى كان أكثر عماله ناهجين فى العدل منهجه ، سالكين فى الزهد والورع والعفة طريقه ، فمن عماله سلمان الفارسى وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم ، فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف ، ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبى وقاص يا أبا عبد الله أذكرك الله عند همك إذا هممت ، وعند لسانك إذا حكمت ، وعند يدك إذا قسمت ، فجعل سلطان يبكى فقال يا أبا عبد الله ما يبكيك : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون ، وأرى هذه الأساودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولى فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا دواة وركوة ومطهرة .

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى فعذل على ذلك ، وقيل له إنك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك : فقال ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله ، فقال عمر : اللهم لا تقل فراستى فيهم ، ماذا تشكون منه : قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله يوم فى الشهر لا يخرج إلينا . فقال عمر علىَّ به فلما جمع بينه وبينهم فقال ما تنقمون منه : قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار : فقال ماتقول يا سعيد : فقال يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلى خادم فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ وأخرج إليهم، قال وماذا تنقمون منه . قالوا لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا إنى جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم . قال وماذا تنقمون منه : قالوا له يوم فى الشهر لا يخرج إلينا . قال نعم ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى . فقال عمر الحمد لله الذى لم يقل فراستى فيكم يأهل حمص فاستوصوا بواليكم خيراً . ثم إن عمر بعث إليه بألف دينار وقال استعن بها. فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك ، فقال لها ألا ندفعها إلى من يأتينا وأحوج ما كنا إليه قالت بلى ، فصرها صرارا ثم دفعها إلى من يثق به وقال انطلق بهذه إلى فلان وبهذه إلى يتيم بنى فلان ومسكين آل فلان ، حتى بقى منها شىء يسير فدفعه إلى امرأته وقال أنفقى هذه ثم عاد إلى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشترى

لنا منه خادماً فقال سيأتيك أحوج ما تكونين إليه .

هكذا كان معظم عمال عمر رضى الله عنه ، فكيف لا يكون عصره أسعد العصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ، ولا جرم فالخليفة الصالح لا يختار من العمال إلا الصلحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلكون طرائق سلوكهم ، فإن كان الملوك ظالمين ظلم العمال وإن كانوا عادلين عدلوا .

وكان رضى الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ فى حب ظهورهم للناس ، فإن بلغه أن عاملا احتجب عن الرعية نكل به أشد تنكيل ، فقد روى الطبرى أن سعد بن أبى وقاص لما بنى دار الإمارة فى الكوفة وكانت الأسواق قريبة منه وغوغاؤهم تمنع سعداً الحديث ادعى الناس عليه مالم يقل ، وقالوا قال سعد سكّن عنى التصويت وبلغ عمر ذلك ، وأن الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مسلمة فسرحه إلى الكوفة ، وقال اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك ، فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به إلى القصر فأحرق الباب ، وأتى سعد فأخبر الخبر . فقال: هذا رسول أرسل لهذا الشأن ، وبعث لينظر من هو فلما عرفه أرسل إليه رسولا بأن ادخل ، فأبى فخرج إليه فأراده على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر إلى سعد وفيه .

بلغنى أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ولكنه الخبال انزل منه منزلا مما يلى بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس عن دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت .

فحلف له سعد ما قال الذى قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى إذا دنا من المدينة فنى زاده فتبلّغ بلحاء الشجر ، فقدم على عمر فسأله فأخبره الخبر

كله فقال له هلا قبلت من سعد : فقال لو أردت ذلك كتبت لى به أو أذنت لى فيه : فقال عمر إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عملَ بالحزم أو قال به ولم ينكل .

وأخبره محمد بيمين سعد وقوله فصدق سعداً وقال : هو أصدق ممن روى عليه وأبلغنى .

جاء فى كنز العمال عن عاصم بن أبى النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم أن لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقيّاً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس . إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة . ثم يشيعهم فإذا أراد أن يرجع قال : إنى لم أسلطكم على دماء المسلمين ، ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم [1] ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولكنى بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقسموا فيهم فيئهم ، وتحكموا بينهم بالعدل ، فإن أشكل عليكم شيء فارفعوه إلىّ : ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها [2] فتفتنوها ، ولا تعتلوا عليها فتحرموها جوّدوا القرآن : (وفى رواية) وأقلوا من الرواية .

وكان إذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله فى الحال ، فنى المناقب لأبى الفرج بن الجوزى عن ابن سعد قال . كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم

فى أبيات يقول فى ختامها :

لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

---

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم .

(٢) قال ق القاموس جمره تجميرا جمعه والقوم على الأمر تجمعوا الى أن قال والجيش حبسهم فى أرض العدو ولعله هو المراد .

فلما بلغ عمر قوله قال . نعم والله إنه ليسوءنى من لقيه فليخبره أنى قد عزلته ، فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيئاً مما قلت ولكن كنت امرءاً شاعراً وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لى على عمل ما بقيت ، وفى رواية عن عثمان الحزامى عن أبيه قال لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب إلى النعمان ابن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير» أما بعد فقد بلغنى قولك :

لعلّ أمـــير المؤمنين يسوءه   تنادمنا بالجوسق المتهـــدم

وايم الله ليسوءنى وعزله .

ومن عجيب سياسته مع العمال أنه كان يحصى أموالهم قبل العمل ، وما زاد بعده يصادرهم على كله أو بعضه ومن هذا ما رواه الطبرى أن عمر استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانة ، فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معى وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه فصيره فى بيت المال .

وروى أن خالداً لما أدرب هو وعياض إلى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الأشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب إلى أبى عبيدة أن يحصى مال خالد ويصادره على النصف ، فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر . وكان خالد بن الوليد أميراً على قنسرين من قبل أبى عبيدة لا من قبل عمر ، ففى رواية أخرى للطبرى أن عمر كان لا يخفى عليه شىء فى عمله ، فكتب إليه من العراق بخروج من خرج من الشام وبجائزة من أجيز ، فدعا البريد وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته

وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها (يعنى من المغنم) فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال واضمم إليك عمله . فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله) صلى الله عليه وسلم إليه فقال إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته ، وقال ما تقول أمن مالك أم من إصابة قال لا بل من مالى فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ، ثم قال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له ، وكأن عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذى كان فكتب إلى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبى عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر عمر من قبل ، فقال أبو عبيدة إنى والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً وقد علمت أن ذلك يروعك . ثم إن خالداً رجع إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك إلى المسلمين وبالله إنك فى أمرى غير مجمل[١] ياعمر ، فقال عمر من أين هذا الثرى . قال من الأنفال والسهمان مازاد على الستين ألفاً فلك فقوم عمر عروضه[٢] فخرجت إليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال ، ثم قال يا خالد والله إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء . ثم إن عمر كتب إلى الأمصار إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض[٣] فتنة.

---

(١) مجمل من أجمل فى الطلب اتأد واعتدل ولم يفرط .

(٢) متاعه .

(٣) بطريق .

ويقال إنه عوضه عما أخذه منه وكتب إلى الناس . وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبى وقاص على ماله وشاطر أبا هريرة ، ولما أبى أن يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضاً ورد أموالهم لبيت المال . وهذا أمر لا يعجب من صدوره عن عمر رضى الله عنه على شهرته بالعدل لأنه لابد أن يكون له فى هذا رأى سديد ومرمى بعيد ، ولعل الحامل له على ذلك هو لأنه كان يرى أن هذا المال حق المسلمين فينبغى له أن يكون لعامة المسلمين حتى لا يتكاثر به الأغنياء ويتعالوا به على الفقراء ، ويدلنا على هذا ماروا. ابن جرير الطبرى فى تاريخه عن السائب بن يزيد قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذى لاإله إلا هو (قالها ثلاثاً) مامن أحد إلا له فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه (كفايته) فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن أبى وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين .

ولا يخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة فى هذا العصر فى أوروبا أن من الأعراض التى ترمى إليها جعل الأموال حقاً يشترك فيه الناس من كل الطبقات ، والإسلام قد قرر قاعدة الاشتراك إلا أن بين مذهب الاشتراكيين ومذهب المسلمين فرقاً فى أن المسلمين يعتبرون فى هذا الحق فى ثمرة رأس المال وهى الفضول ، وإن الاشتراكيين يعتبرونه فى رأس المال نفسه وهو خطأ أداهم إليه الإفراط والغلو .

وبالله لو علم أولئك الناس أن الإسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تصادم نواميس الاجتماع وأن أهله باتوا لا يعرفون شيئاً من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التي تضمن سعادتهم الاجتماعية وحياتهم الملية لأخذتهم الحيرة من هذا الأمر ، وربما نبه قادتهم وزعماءهم إلى قبول الإسلام وجعله أساساً للسعادة التي ينشدونها للأنام واكتفوا في بث دعوتهم مؤنة المقاومة التي يلاقونها من أهل الجدل والخصام .

كلمة في الحرية والطاعة

أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية

أخذت على نفسي أن لا أغفل في هذا الكتاب خبراً يمر على القارىء من الأخبار التاريخية المهمة ما لم أردفه ببيان مفيد لا سيما فيما يرجع للأخلاق ويمثل صورة الفضائل والرذائل ويفرق بين السعادة والشقاء ، ومما ينبغي أن لا يفوتنا النظر فيه حادث خالد بن الوليد الذي هو أهم حادث في تاريخ الحرية العربية في الإسلام ، وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والعدل في صورة من الكمال تتزلزل لها أقدام الظلم ، وتخشع أمامها قوى الكون البشرى الهابطة من أعلى عليين والصاعدة من أسفل سافلين ، ألا وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون

الحرية فضيلة معناها تخلص الإنسان من الأسر وتملصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الإنسانية التي سوغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون ، بحيث يكون الإنسان مالكا لإرادته لا بهيمة تتحرك بإرادة سواه مالكا لثمرة عمله لا حق لآخر بحرمانه منها ، مالكا لأمنه لا سلطان لآخر في سلبه منه ، ومتى فقد الشخص واحدة من هذه

الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب ليأكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسعى ليموت هو ويحيا من عداه .

ربما يتوهم أن الحرية بهذا المعنى هى الانطلاق عن كل قيد مادام ليس لإرادة النفس على مايعلم من حالها من قيد ، وليس الأمر كذلك إذ كما أن التفريط بالحرية طرف للرذيلة كذلك الإفراط فيها أيضاً وفى كلا الطرفين رجوع للبهيمية وفقد لفضيلة الحرية ، وإنما هناك وسط ترجع إليه وقيد تتقيد به بل قيدان وهما القيد النفسى والقيد الخارجى ، فأما القيد النفسى فهو إما الزاجر الدينى وإما الفضيلة الذاتية ، والقيد الخارجى هو الوازع وليس فى كلا القيدين معنى للعبودية أو منع للحرية ، وإنما هو إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذى يلحق الإنسان بالبهائم ، فى مطاوعة الإرادة للزاجر النفسى مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الإنسانية ، وفى مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون

الإنسان ميال بطبعه للسعادة إذا أرشد إليها وحث عليها ، والشرائع إنما هى شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الاجتماعية ، فالوازع الذى يزع الناس بالشريعة لايحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الإرادة بل يماشى الإرادة ويساعد النفوس على نيل السعادة ، لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لايأباها العقل ولا يهضم بها حق من حقوق الحرية مادامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذى هو اصل فى السعادة لاطاعة الوازع نفسه من حيث كونه آمراً بهواه وشهواته لامأموراً من القانون ومهيمناً عليه .

إذا تقرر هذا فاعلم أن الأمة العربية كانت فى جاهليتها على جانب من الإغراق فى الحرية يكاد يكون إفراطاً فيها كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ هذه الأمة ، لأن حب الحرية خلق تأصل فى نفوسها منذ نشأت فى فضاء

البوادى المتسع مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الإفراط نشأ ما يسمونه العصبية ، ذلك لأنهم كانوا أشتاتاً فى التجزؤ إلى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة الجنس ، وليس ثمة وازع يضمهم إلى كلمة واحدة ، فكانوا يفزعون عند الحاجة إلى العصبية بأن تتحد العشيرة الواحدة ضد الأخرى دفاعاً عن الحوزة وصداً لغارة أو جلبا لمغنم ومع ما فى هذا الأمر من ضعف النظام الاجتماعى وفقد الرابطة القانونية فإنهم كانوا به ولعين وعليه حريصين ، لأنه نتيجة مغالاتهم فى الحرية وحبهم للانطلاق عن كل قيد . ولما جاء الإسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شتيتهم إلى رايته كان من مبادئه الأولى فى النصح والإرشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم لأصول الطاعة وأمرهم بالخضوع إلى الوازع ليكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ، ومن ذلك قوله تعالى فى الكتاب الكريم « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وإنما أرادهم على الطاعة لأولى الأمر لأنها طاعة للشرع الذى فيه سعادتهم بردهم فى الحرية إلى حد الوسط بلا شطط عليهم فى التقييد ولا إرسال لهم منه ، ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما يزعهم به من الشرع العادل يدلك على هذا قول أول خليفة فى الإسلام وهو أبو بكر رضى الله عنه فى إحدى خطبه التى مر ذكرها فى الجزء الأول « أطيعونى ما أطعت الله (فى تنفيذ أوامره) فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » وقول الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف وإحضارى النصيحة وأعينونى على أنفسكم بالطاعة ، وقوله إنه لم يبلغ حق ذى حق « يعنى نفسه » أن يطاع فى معصية الله ، وكثير من أمثال هذا الكلام مما مر فى باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب ، وإذ كانت البداوة أصلا فى سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم أن هناك نظاماً يضم أشتات الأفكار إلى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يغنى عن العصبية مع استبقاء ما ألفوه من الأصول الديمقراطية فى حالتهم الاجتماعية

لم تأنف نفوسهم السامية من مثل تلك الطاعة وخضعوا لحكم الإسلام واجتمعوا على الرضا بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم أن دولة المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحياتها بالشريعة لا بالسيف وبعبارة أوضح إنها كانت دولة قانونية تستند إلى الشرع الإلهى لتقوم، لا دولة عسكرية تستند إلى القوة الجبرية لتسقط وتنحل، وشتان بين دولة تستند إلى القانون الذى هو سيف لا يفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التى لا تلبث أن تنى أو تنحل، وتهوى بالدولة إلى حضيض الأضمحلال وتعاجلها بالانحلال .

لما علمت الأمة العربية يومئذ أن الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم، وأن ليس فيها سلب لإرادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وأن ليس للوازع فوق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمر يراد به الاشتطاط عليهم والاستئثار بالأمر دونهم راضت لأولياء الأمر نفوسهم العاتية ولانت أخلاقهم الجافية فألفوا طاعتهم فى الحق ومعاونتهم على المعروف وإليك الدليل .

خالد بن الوليد من سادات قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفى مرتبته فى الشرف الذى انتهى إلى الرهط من قريش فوصله فى الإسلام كما رأيت فى صدر الجزء الأول من هذا الكتاب وخلا هذا فإنه كان محبوباً من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه إذا أمر أطاعوا وإذا أشار قبلوا جاءه أمر أمير المؤمنين بالشخوص إلى حيث يقيم أبو عبيدة فامتثل، وسئل فتردد وهابه أبو عبيدة وهو ابن عمه وأميره أن يأمر فيه بأمر الخليفة فقام إليه مولى (عبد) من موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزع عمامته عن رأسه وعقله بها وسأله ما سأله حتى أجاب فأعاد قلنسوته إلى رأسه وعممه بيده وقال نسمع ونطيع

لولا تنا (يعنى عمر) و نفخم موالينا[1] » يعنى خالداً ، هذا كله على ملأ الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذى أسكت مثل هذا الأمير الجليل فى مثل هذا الموقف ، فلم ينتصر لنفسه ولم ينصره أحد من المسلمين ، هذا على ما عرف به من علو النفس وإباء الضيم .

أسكته أمران : الأول : علمه أن لايطاوع بسكوته وخضوعه هوى أمير المؤمنين ، بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه ، والأمر الثانى : علمه بأنه فيما صنع غير مسلوب الإرادة بقوة عمر رضى الله عنه ولا مغلوب له على أمره ، بل هو حر فى أن يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ما صنع وينتصف لنفسه منه إذا اشتط عليه أو جار ، وقد كان ذلك كما رأيت وأنصفه عمر رضى الله عنه . ولولا أن يعلم خالد أن له سلطاناً فى نفسه يناقش به عمر وإرادة لايغلبه عليها إلا الحق لاستحال على عمر أن يعامل مثله بتلك الشدة لما يعرفه فى القوم من حب الحرية واستقلال الإرادة وعزة النفوس ، وحسبك دليلا على هذا أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لم يسعه بعد أن عامل خالداً بتلك المعاملة إلا أن يعتذر عما صنع للناس ويجهر بالسبب على ملأ المسلمين دفعاً لشبه الضمائر ، وإعلاناً لسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك أنه قام يوماً فخطب فيهم خطبة فى شأن العطاء : رواها ابن الجوزى فى المناقب قال فى آخرها :

وإنى أعتذر إليكم من خالد بن الوليد فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وأمرت أبا عبيدة بن الجراح .

---

(١) المولى : يطلق على السيد وعلى العبد .

فقام أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (ابن عم خالد) فقال والله ما اعتذرت ياعمر، ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغمدت سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضعت أمراً نصه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقطعت رحماً وحسدت ابن العم.

فقال عمر رضى الله عنه إنك قريب القرابة حديث السن مغضب فى ابن عمك، ثم نزل ولم يزد على أن رد عليه رداً جميلا.

وهذا نهاية ما يقال فى إطلاق الحرية للرعية يناقشون بها عن أنفسهم ويكفون الأيدى عن حقوقهم، ومع وصول العرب إلى هذا الحد من الجرأة فى الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب، فإنهم كانوا أطوع له من بنانه، لعلمهم بأنهم إنما يطيعون بطاعته الله والرسول فى الشرع الذى كان عمر منفذاً له مهيمناً عليه، ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية لكان خالد أول من لجأ إلى القوة وضرب بجيوشه وجه الدولة وناصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة. ومعاذ الله أن يحدث خالد نفسه بشىء من ذلك ما دام لا أمر يومئذ للقوة، وإنما كان الآمر الناهى عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة ولا الرئاسة، ولقد بلغ فريق من المسلمين فى دولة الخلفاء الراشدين وغلوهم فى الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من فرق الخوارج، أن قالوا لعلى رضى الله عنه قولهم المشهور «لا حكم إلا لله» وتغالوا فى هذا القول حتى أنكروا لزوم الخلافة وسفكوا دماء آلاف من الناس فى سبيل معتقدهم الشاذ حتى أفضى الأمر إلى فنائهم كما سترى بعد.

إذا تمهد هذا علمنا أن حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة لا القوة، وكانت حكومة دستورية لا عسكرية، وأن الحرية لازم من لوازم الطاعة وسبب متين يتوصل به إلى السعادة وشد عرى الصلة والاتفاق بين

الحاكم والمحكوم ، لهذا كانت دولة الخلفاء الراشدين من أعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل ، وبلغ المسلمون على عهدها مبلغاً من القوة والغنى وقهر الأمم وفل جيوش الدول ما عهد مثله فى تاريخ دولة قبلهم ولا بعدهم قط ، ومذ اختلط العرب بالأعاجم وابذعروا فى أطراف البلاد وتفرقوا على قلتهم فى الممالك وضعفت عصبيتهم عن مقاومة أعداء الحرية من المتوثبين على الخلافة والدخلاء فى دولتهم من الأمم الأخرى الذين ألفوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد وانحطت دول الإسلام عن مقامها وأخذت بالتقهقر فى سيرها وانقطعت صلة الاتفاق بينها وبين رعيتها فأصبحت ورعيتها على طرفى نقيض تريدهم على الخضوع لهوى الأمراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون ، وهذا خطب عظيم إذا طال أمره والعياذ بالله فى أمة دمرها تدميراً ، إذ لا يزال يضرب الأمراء عقلاءها بجهلائها وفضلاءها بسفهائها حتى يفنى الفريقان كما فنيت أمة الرومان واليونان وعرب المسلمين ، هذا إذا أبقى الاستبداد لأفراد الأمة أفئدة تهوى إلى الحرية ونفوساً تطلب النزوع إلى الحياة الطيبة والرقىّ إلى مرتبة الإنسانية ، وأما إذا بلغ الاستبداد من عامة الأمة مبلغه فأصابها الفالج العام الذى يصيب الأمم فى أواخر عهدها فيذهب بقواها ويميت أعضاءها عن الحركة وعقولها عن الإدراك فدمارها يكون بيد غيرها لا بيدها والمآل إلى هذا أشنع والموت بيد المتغلبين أفظع ، وحسبك دليلا على هذا ما يقاسيه المسلمون من ضروب القهر والشقاء من بعض الدول الأوربية التى آل إليها لذلك السبب ملك المسلمين وتسلطت على أقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها فإذا ذكروا يذكرون لما خنعوا لهذا الاستعباد ولكانوا أنداد الأمم الأوربية فى مضمار المنافسة الحيوية ولكن يا لحرقة الفؤاد قومنا فى واد والغربيون فى واد .

حض الناس على الكسب :

الإنسان مدنى بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض إنما هو ثمرة العمل ، فكل يعمل للآخر ليبادله العوض ، ورب صنعة يتعاون عليها جمع من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع منها ، فإذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية وأصلها الكسب ، وليس فى الوجود شرع ينهى عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ، ولو مع الرفق فى الطلب ، والإسلام من الشرائع التى حتمت السعى للرزق وأمرت بالكسب،إلا أنه أمر بالرفق فى الطلب والتوكل على الله مع السعى ليكون الرجاء بالكسب أقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع ، والعزيمة على السعى أمضى ، وإذ كان عمر رضى الله عنه أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشى أن يلابس نفوس العامة شىء من ظواهر الآيات التى أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على محمل الزهد وترك السعى جعل دأبه حض الناس على السعى وحثهم على العمل والكسب، ومن ذلك ما جاء فى كنز العمال عن معاوية بن قرة قال : لقى عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون : فقال كذبتم ما أنتم متوكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى الأرض وتوكل على الله ، وفى المناقب لأبى الفرج بن الجوزى عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى على ومعى وزيمة[1] لى فقال ما هذا معك فقلت رزيمة لى أقوم فى هذا السوق فأشترى وأبيع ، فقال يا معشر قريش لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فإنها ثلث الإمارة .

وفيه عن حواب التيمى قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يامعشر

(١) تصغير رزمة وهى الكارة من الثياب .

القراء ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالا على المسلمين .

وفيه عن الحسن قال : قال عمر رضى الله عنه من تجر فى شىء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئاً فليتحول إلى غيره .

وفيه عن الأكيدر العارض قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنة .

وفى كنز العمال عن عمر قال : لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس .

وفى المناقب عن بكر بن عبد الله قال : قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس .

وفيه عن ذكوان قال : قال عمر إذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما سميناً فإن أخطأه خيره لم يخطه سوقه .

وفيه عن محمد بن عاصم قال : بلغنى أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى فتى فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فإن قيل لا سقط من عينه .

وفى العقد : قال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض ، وتلا قول الله جل وعلا (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

وفيه : قال عمر بن الخطاب يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس .

وفيه قال : عمر بن الخطاب حسب الرجل ماله وكرمه دينه ومروءته خلقه .

نهيه عن التنطع وتحذيره من الابتداع :

الإسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال فى كل الأعمال حتى العبادة ، وينهى عن التنطع الناشئ عن التوسع والابتداع ، ولم يكن العرب على صلابتهم فى الدين يعرفون هذا التنطع الذى ابتدعه الأعاجم بعد لعدم توسعهم فى التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع .

لهذا لما انتشر الإسلام فى أنحاء الأرض وعم سائر الشعوب فى دولة الخلفاء الأمويين والعباسيين ، وأكثر الأعاجم من الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد بما ليس من الدين كان يعيبهم العرب على ذلك ويهزءون بهم ويتباعدون عن بدعهم ، فقد ذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد عن الأصمعى قال : قدم أبو مهدية الأعرابى من البادية فقال له رجل يا أبا مهدية أتتوضئون بالبادية ، قال والله يا بن أخى لقد كنا نتوضأ فتكفينا التوضئة الواحدة ثلاثة أيام والأربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهى الموالى من الأعاجم) فجعلت تليق استاها بالماء كما تلاق الدواة .

وإنما أراد بقوله فتكفينا التوضئة الواحدة الخ الإغراق بالتهكم على تنطع الأعاجم لا أنهم (أى العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله أن يكون فى هذه المرتبة من التهاون بالفرائض ، وهم أبناء أولئك الذين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن ،

ومن هذا تعلم أن التنطع أمر لا يريده الدين وإنما كان منشؤه الابتداع والتوسع ، ومن هذا القبيل توسعهم فى حديث السواك وهو (لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك) ومع أن الحديث يتضمن الندب والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولا وأبوابا مخصوصة فى فوائده واستعماله وحمله إلى آخر ماقالوه فى شأنه مما لم يكن منشؤه إلا التنطع حتى فيما ليس من الدين .

كان من الصحابة نفر ولعوا بالعبادة وانقطعوا إلى التهجد لكن بما لا يخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام ، فخشى عمر أن يسرى إلى العامة حب الانقطاع إلى العبادة والتنطع فى الدين فينشأ عن ذلك تعطيل لوظائف الاجتماع الدنيوية وتوسع فى التأويل وتجرؤ على الابتداع فجعل ينهى الناس عن التنطع ويحذرهم من الابتداع ، ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزى عن محمد بن عبد الله القرشى عن أبيه قال : نظر عمر إلى شاب قد نكس رأسه فقال له ياهذا ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما فى قلبه فإنما أظهر للناس نفاقاً على نفاق .

وأخرج عن أبى عمرو الشيبانى قال : خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضربه بمخفقته وجعل يقول كل يادهر كل يادهر .

وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : كنت جالساً عند عمر رضى الله عنه إذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال : هل تعجل أهل الشام الإفطار . قال نعم . قال لن يزالوا بخير ما فعلوا ذلك ولم ينتظروا النجوم انتظار أهل العراق .

وعن محمد بن سيرين أن عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له أبو مريم يا أمير المؤمنين أتقرأ القرآن وأنت غير طاهر : فقال له مسلمة (هكذا) أمرك بهذا .

وأما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الإمام أبو الفرج أيضاً عن عابس بن ربيعة قال : رأيت عمر نظر إلى الحجر فقال : أما والله لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله .

وعن عبد الله بن سرجيس قال : كان الأصلع (يعنى عمر) إذا استلم الحجر قال : إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

وعن نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت : وهذا الأثر يوافق ماقدمناه فى فصل (لا وثنية فى الإسلام) .

وليت عمر يأتى فى هذا العصر بدرته وسيفه وينظر إلى مصير صار إليه المسلمون من تقديس الأحجار والأشجار وإذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعندنا الآن عدد لا يحصى من الأشجار كالجميز فى مصر والميس والزيتون فى الشام وهى من التى كانت تعتبر مقدسة عند الوثنيين القدماء فقدس عوام المسلمين بعضها بحجة أن هذه دفن تحتها فلان الصالح ، وتلك لمسها فلان الشيخ ، إلى غير ذلك من الأعذار التى ينتحلونها بعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التى وضع الله فيها مثل أبى بكر وعمر فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجل فقال : ياأمير المؤمنين إنا لما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب : قال أمن كتاب الله : قال لا فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) إلى قوله تعالى : « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » : ثم قال إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب مافيهما من العلم .

أدبه وتأديبه

أدبه مع رسول الله :

تقدم معنا فى باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه له وقيامه دائماً بين يديه يغنى عن الإسهاب فى هذا الباب ، وحسبه أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تفانيه فى حبه تفانياً أذهله عن حقيقة موته فقال فى ذلك اليوم (من قال إن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفى هذا) والقصة طويلة مر معنا فى هذا الكتاب ملخصها .

أدبه مع نفسه

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول وبينى وبينه جدار : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك الله .

وقال السيوطى قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال ياليتنى كنت هذه التبنة ، يا ليتنى لم أك شيئاً ، ليت أمى لم تلدنى . وعن سفيان بن عيينة قال : قال عمر بن الخطاب أحب الناس إلى من رفع إلى عيوبى . وأخرج الطبرى عن سلمان أن عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر : ولشد ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التى يأباها الإسلام ، وتنهى عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام .

تأديبه لنفسه

كان عمر رضى الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسىء

بالدرة التى قيل فيها « لدرة عمر أهيب من سيوفكم » ، ومع هذا فقد كان سريع الإنابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده .

أخرج الحافظ عز الدين الجزرى فى أسد الغابة عن أبى غنية يحى بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التيمى قال : قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل ، فقال يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعدنى على فلان فإنه قد ظلمنى ، فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه : فقال : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى إذا شغل فى أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدنى أعدنى : قال فانصرف الرجل وهو يتذمر قال « أى عمر » على الرجل « أى ردوه على » فألقى إليه المخفقة ، وقال امتثل « أى اقتص بمثل الضربة » فقال لا والله ، ولكن أدعها لله ولك : قال ليس هكذا إما أن تدعها لله إرادة ما عنده أو تدعها لى فأعلم ذلك : قال أدعها لله : قال « أى الأحنف » فانصرف ثم جاء يمشى حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال : « يخاطب نفسه » يا بن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غدا إذا أتيته : قال فجعل يعاتب نفسه فى ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض .

وأخرج ابن جرير فى تاريخه عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقط أمط عن الطريق فلما كان فى العام المقبل لقينى فقال . ياسلمة تريد الحج ، فقلت نعم فأخذ بيدى فانطلق بى إلى منزله فأعطانى ستمائة درهم ، وقال استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالمخفقة التى خفقتك ، قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال : وأنا ما نسيتها ؛

هذه هي الفضيلة وذاك هو الوجدان الحساس الذى جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه ، وإنما قصد تنبيهه إلى كشف الأذى عن طريق الناس ، والله أعلم بما عانى من القلق ريثما آن أوان الحج ووجد سبيلا لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه ، مع أنه خليفة المسلمين الذى أنيط به العقاب فعاقب بمعروف ولم يتجاوز فى مس طرف الثوب بدرته حد التنبيه إلى إماطة الضرر عن الطريق ، فأين هذا الإنصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين بسطوا يد القوة بعد على الناس وتحكموا فيهم تحكم المالك فى العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه ينفع ولا فضيلة تمنع ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

تأديبه المسلمين

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبه بآداب النبوة ، أن كان إذا أراد تنبيههم إلى أمر نافع وصرفهم عن أمر ضار يتقدم إلى أهله بذلك التنبيه ليكون قدوة الناس وأسوة المسلمين فى التأديب ، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير فى تاريخه عن سالم وابن عساكر فى تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، واقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة لمكانه منى .

وروى عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبس ثياباً حساناً فضربه عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت أن أصغرها إليه .

ومن أخباره فى التأديب التى تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة

عقوبته لغلاظ القلوب ماجاء فى كنز العمال عن أبى عثمان النهدى قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلا من بنى أسد على عمل لجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله ، فقال الأسدى : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ماقبلت ولداً قط : قال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة هات عهدنا لاتعمل لى عملا أبداً : فرد عهده .

جوزى هذا العامل بالعزل والإبعاد بتاتاً عن العمل « التوظف » لكلمة قالها لعمر رضى الله عنه أحس منها عمر بغلظة فؤاده فخشى إن هو عهد إليه بالعمل أن يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله : فهل كان للأمراء والسلاطين من بعده بصر يبصرون به أو سمع يسمعون به ، فيعلموا أن عمر ابن الخطاب الذى أرهب أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم الصابئة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء ، إنما ساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رءوفاً كرأفة الوالد بالبنين ، وعليهم عطوفاً ، كعطف المرضع على الطفل .

أجل كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيبون الذين ساسوا وعمروا ، وجاء غيرهم فخربوا ودمروا فكانوا صواعق من العذاب انقضت على المسلمين فقضت على ماشيده غيرهم بالدمار وشوّشت نظام الملك وقتلت العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتها رشدها وأفسدت أخلاقها ، وذهبت بعلومها وطأمنت من أشرافها وأفقدتها عزها وشممها فأذلتها ذلا هانحن أولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث نظلم ونهان من كل إنسان وليس فينا روح تدب ، ولا نائم يهب ، بل كلنا أموات يحسبنا العالم المتمدين من الرفات قلوبنا متفرقة وأهواؤنا شتى ونفوسنا خامدة إلا عن السفاسف وخطانا قاصرة إلا عن أماكن الفساد وشأننا كله شأن من رضى بالذل وانغمس فى الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء ، قلت :

ومن ينم عن شؤون كلها خطر فليس يخطىء من ينعيه للناس

ومن تأديبه لأشراف قريش وقهره لنفوسهم مع ماعرفوا به من الكبرياء والسيادة مارواه ابن الجوزى عن الحسن قال حضر باب عمر رضى الله عنه سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس ، وصهيب وبلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدراً فخرج إذن عمر فأذن لهم (أى للموالى) وترك أولئك ، فقال أبو سفيان لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لايلتفت إلينا : فقال سهيل ابن عمرو وكان رجلا عاقلا أيها القوم إنى والله أرى الذى فى وجوهكم إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم إذا دعوا على أنفسكم يوم القيامة وتركتم : وكان هذا شأنه رضى الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر إسلامهم إلى مابعد الفتح ، أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى حاطب عن أبيه قال قدمنا مكة فأقبل أهل مكة يسعون ، يا أمير المؤمنين أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا ، فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة ، ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذى جعل عمر يأمر أباسفيان ببطن مكة فيطيعه ، ومن علم ماهى سلطة أبى سفيان بمكة ، وكيف كان تحكم قريش فى رقاب الناس علم فضل الإسلام فى تأسيسه قاعدة المساواة وعدله بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالأنساب ، ومن أخباره فى التأديب مانقله فى العقد الفريد أن عمر رضى الله عنه قال لرجل من سيد قومك : قال أنا : قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله .

أدبه مع الصالحين وتواضعه لهم :

إذا أردت أن تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم

لا بالكبرياء وسودهم على الأمم لا بالغطرسة والتجبر ، وحببهم إلى الناس لا بالخيلاء فاسمع ما أخرجه الطبرى فى تاريخه عن الحسن قال : قال عمر إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز الناس فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة للناس .

هذا الخليفة العظيم الذى دوخ ملك فارس والروم وأرهبت سطوته الأمم ، وامتد ظل سلطانه إلى حدود الهند شرقاً وأفريقيا الشمالية غرباً ، ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم ، لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه ، إن هذا لهو العدل الذى ليس فوقه عدل ولا جرم ، فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الأذهان خبره ، حتى عده المؤرخون من أعظم رجال الإسلام وحتى إننا لنفتخر به على ملوك الأرض فرضى الله عنه وأرضاه .

ومن تواضعه ما أخرجه الطبرى عن ابن أبى سليمان عن أبيه : قال قدمت المدينة فدخلت داراً من دورها فإذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عليه إزار قطرى يدهن إبل الصدقة بالقطران .

وأخرج عن زهير بن سالم أن كعب الأحبار قال : نزلت على رجل يقال له مالك وكان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف الدخول على أمير المؤمنين : فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس .

وفى المناقب عن الحسن رضى الله عنه قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فى شىء . فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لأمير المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقلها لى نعم ما قال لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها .

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط ، بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب انتصاح الإمام منهم ورضاه بنصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير أن عمر رضى الله عنه كان أيام القادسية شديد التطلع إلى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الأخبار ويتنسمها ثم يرجع إلى أهله ، فلما لقيه البشير سأله من أين ، فأخبره ، فقال يا عبد الله حدثنى ، قال هزم الله العدوّ : وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه ، حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين ، فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخى .

وذكروا أن عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره وخلع نعليه فأمسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة رضى الله عنه قد صنعت صنيعاً عظيما عند أهل الأرض (يعنى أهل الشام) ، فصك عمر فى صدره وقال أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله

وروى الطبرى أن عمر لما قدم الشام فى أيام الطاعون اتخذ أيلة طريقاً حتى إذا دنا منها تنحى عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال ، ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل الناس قالوا أين أمير المؤمنين : قال أمامكم يعنى نفسه وذهبوا هم إلى إمامهم فجازوه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها وقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها فرجعوا إليه (وذلك لأنه لما قال لهم إمامكم ، وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا أنه يشير إلى أن الأمير غيره وقد تقدمه إلى الأمام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان رضى الله عنه قال كنت رديفاً لعثمان

ابن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم ، فإذا رجل عليه إزار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الإبل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا ، قال فانتهينا إليه فإذا هو عمر ابن الخطاب : فقال هذا والله القوى الأمين .

وفى كنز العمال عن الفضل بن عميرة أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق قدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر وهو محتجز (١) بعباءة يهنا (٢) بعيراً من إبل الصدقة ، فقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين ، فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا : فقال عمر : يا بن فلانة وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا ، إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة فى المداراة .

تالله إن هذا الخلق يعلو بصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين ، ومن يعد نفسه عبداً للرعية إذا ملكها وخادماً لها إذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع فى جزئيات أمورها وكليات سياستها لجدير به أن يقال هذا ملك كريم لا ملك عظيم ، وحقيق بمثله الافتخار وعليه البكاء وإلى مثله الحنين ، ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحيما بالمستضعفين قوياً على الحق كريماً على الناس ، باراً بالرعية يتعب لتستريح ، ويسهر لتنام ، ويجوع لتشبع ، ويفتقر لتستغنى فنسأل الله له الرحمة والرضوان ، كما نسأله لأنفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور ، إنه مجيب السؤال .

---

(١) ملتف . (٢) ينحى .

اهتمامه بأمور الرعية (وعسسه بالليل) :

كان عمر رضى الله عنه من حرصه على راحة الرعية ، يتفقدهم بنفسه ويهتم بشئونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته ، وبلغ ذلك به أن كان لا ينام عنهم بالليل كما كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار ، فليله ونهاره فى خدمة الرعية سواء إذ كان أكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم شأن الأمراء الذين يعرفون أنهم بما فوض إليهم من أمر الهيمنة على القانون خدام للرعية مسئولون عن راحة الأمة وسعادتها لا أن الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم .

روى الطبرى فى تاريخه عن أبى بكر بن عبدالله المُزَنِىّ : قال جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ، ثم قالت له لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسى فلم يدخل حتى جلست ، ثم قالت ادخل فدخل ثم قال هل من شىء فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلى : فقال له تجوز أيها الرجل فسلم عبدالرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال : ما جاء بك فى هذه الساعة يا أمير المؤمنين : قال رفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة فانطلق فلنحرسهم : فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الأرض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر ألم أنه عن المصابيح بعد النوم : فانطلقا فإذا هم قوم على شراب لهم : فقال انطلق فقد عرفته فلما أصبح أرسل إليه فقال يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب : قال وما علمك يا أمير المؤمنين : قال شىء شهدته : قال أو لم ينهك الله عن التجسس : قال فتجاوز عنه .

قال بكر بن عبد الله وإنما نهى عمر عن المصابيح لأن الفأرة تأخذ القتيلة فترمى بها فى سقف البيت فيحترق وكان إذ ذاك سقف البيت من الجريد .

وأخرج عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب

إلى حرة حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرّث (تتقد) فقال : يا أسلم إنى أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال : عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول يا أصحاب النار ، قالت وعليك السلام : قال أأدنو قالت أدن بخير أو دع . فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون : قالت الجوع ، قال وأى شيء فى هذه القدر :قالت ما أسكتهم به حتى يناموا : الله بيننا وبين عمر :قال أى رحمك الله ما يدرى عمر بكم : قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا : فأقبل على (أى على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلا فيه كبة شحم، فقال احمله علىّ فقلت أنا أحمله عنك قال احمله علىّ مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك أقول أنا أحمله عنك ، فقال فى آخر ذلك أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أمّ لك ، فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها ، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذرى علىّ ، وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى نضج وأدم القدر ثم أنزلها ، وقال ابغنى شيئاً : فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين : فيقول قولى خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله ، ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع : فجعلت أقول إن لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمنى ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال . يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم .

وفى مناقب عمر للإمام أبى الفرج بن الجوزى عن أنس بن مالك قال :

بينا عمر يعس المدينة إذ مر برحبة من رحابها فإذا هو ببيت من شعر لم يكن بالأمس فدنا منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلا قاعداً فدنا منه فسلم عليه، ثم قال من الرجل : فقال رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله : فقال ماهذا الصوت الذى أسمعه فى البيت ، قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال علىّ ذاك ماهو ، قال امرأة تمخص قال هل عندها أحد : قال لا قال (أى أنس) فانطلق حتى أتى منزله ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما هل لك فى أجر ساقه الله إليك : قالت وما هو : قال امرأة عربية تمخض ليس عندها أحد : قالت نعم إن شئت : قال فخذى معك مايصلح المرأة لولادتها ، من الخرق والدهن وجيئينى ببرمة وشحم وحبوب: قالت فجاءت به فقال لها انطلقى وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت ، فقال لها ادخلى إلى المرأة وجاء حتى قعد إلى الرجل ، فقال له أوقد لى ناراً ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها ، وولدت المرأة فقالت امرأته : يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام : فلما سمع (أى الرجل) يا أمير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحى عنه ، فقال له مكانك كما أنت فحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال (أى لأم كلثوم) أشبعيها ففعلت ، ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب ، فقام عمر رضى الله عنه فأخذها ، فوضعها بين يدى الرجل فقال كل ويحك فإنك قد سهرت من الليل ففعل ، ثم قال (أى عمر) لامرأته اخرجى ، وقال للرجل إذا كان غد فأتنا نأمر لك بما يصلحك، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه .

لله أىّ نفس طاهرة بارة هذه النفس ، وأى حنان خالص من شوائب التصنع هذا الحنان ، وأى خليفة عظيم بعد عمر يحمل نفسه مثل هذا العناء ، ويضع نفسه فى هذه المرتبة من التواضع والرحمة ، ويأخذ نفسه بهذا الأدب والاهتمام بأفراد الرعية ، وهو يحتاج إلى التجرد عن شهوات الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء ، إلى منزلة التساوى بأفراد

الرعية ، وهيهات هيهات فإن الجبروت ملكة فى نفوس الملوك لا يمحوها إلا الرغبة فى الله ، كرغبة عمر أو الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الإفرنجة من رعيتهم لهذا العهد .

ورعه وزهده :

تقدم معنا فى سيرة أبى بكر رضى الله عنه أن طريقة الصحابة فى الزهد هى العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف ، وأن ليس منهم إلا من كان له سبيل للارتزاق وعمل اليد سواء كان فى التجارة والصناعة ، وقد كان عمر كما فى رواية النخعى تاجراً ، وإنما هو كأبى بكر رضى الله عنهما ترك التجارة لما ولى أمر المسلمين واقتنع من بيت المال بالكفاف ، وقال أصحاب السير إن عمر رضى الله عنه لما كتب نفسه فى العطاء أقام نفسه مقام الأجير وأخرج ابن جرير الطبرى فى تاريخه وابن الجوزى فى المناقب عن نافع عن ابن عمر قال : جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق فقال إنى كنت امرأ تاجراً وقد شغلتمونى بأمركم هذا ، فماذا ترون أنه يحل لى من هذا المال فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت : فقال يا على ماتقول : قال ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره : فقال القول ما قال على بن أبى طالب .

وأخرجا عن أسلم قال : قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ما يحل لك من هذا المال : فقال ما أصلحنى وأصلح عيالى بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده .

وروى الطبرى أن هذا العطاء الذى رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وتشاوروا فى زيادة يزيدونها لعمر فى رزقه من بيت المال

فهابوا مقابلته بذلك فأتوا ببنته حفصة وأمروها أن تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له أسماءهم ، فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب فى وجهه وقال لها من هؤلاء : قالت لاسبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسوأتُ وجوههم ، أنت بينى وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع ، قال فأى الطعام ناله عندك أرفع : قالت خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهى حارة أسفل عكة[1] فجعلناها هشة[2] دسمة فأكل منها وتطعم استطابة لها : قال فأى مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ[3] قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه فى الصيف فنجعله تحتنا فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه ، قال ياحفصة فأبلغيهم عنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية وإنى قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية[4] وإنما مثلى ومثل صاحبى كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول وقد تزود زاداً فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ، ثم اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وكان معهما وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما .

هكذا كان شأن عمر رضى الله عنه فى العفة والقناعة والرضا ، بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العرى ، وروى فى المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة ، وفى المناقب أيضاً عن أبى عثمان النهدى قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه إزار فيه اثنتا

---

(١) قربة السمن الصغيرة .

(٢) طرية .

(٣) ألين .

(٤) قال فى القاموس تبلغ بكذا اكتفى به والترجية والرجاء بمعنى واحد وهو ضد اليأس .

عشرة رقعة إحداهن بأدم (جلد) أحمر : وفيها عن قتادة أن عمر بن الخطاب أبطأ على الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر إليهم فى احتباسه وقال إنما حبسنى غسل ثوبى هذا ، ولم يكن لى ثوب غيره .

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال ، قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر يا أمير المؤمنين لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك هذا ، وأكلت طعاماً هو ألين وأطيب من طعامك ، فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير ، فقال إنى سأخاصمك إلى نفسك ، أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش ، فمازال يذكرها حتى أبكاها .

ومن هذا وغيره من أخبار عمر الكثيرة فى الزهد نعلم أنه رضى الله عنه إنما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبأبى بكر الصديق ، ولم يكن يرضى لعامة المسلمين بمثل هذا الزهد والتقشف وإنما هو كان يحملهم على الطريق الوسطى كى لا ينغمسوا فى النعيم ويسترسلوا فى الشهوات فتفسد أخلاقهم وتفتر هممهم ولا ينقطعوا عن العمل ويعرضوا بتاتا عن نعيم الحياة فتجمد ملكاتهم وتتعطل أمور معاشهم ومن يرى كتابه الذى كتبه إلى أبى عبيدة بن الجراح (وستأتى صورته فى باب كتبه) يلومه فيه على شدته فى منع المسلمين عن التنعم يتضح له مذهبه فى حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد ، وإنما هو كان يشدد على العمال فقط فى النهى عن التنعم ويحملهم على طريقته فى الزهد كى لا يتبسطوا فى نعيم الحضارة ويتوسعوا فى أسباب الرفاهة فيحملهم ذلك على السرف الذى يحتاج إلى كثرة المال ، وربما حملت أحدهم حاجة السرف إلى تناول المال من غير طرقه المشروعة فتتأذى بهم الرعية ويضطرب به نظام العدل الذى لم يكن شىء فى الدنيا أحب إليه منه .

كلمة فى بيت المال :

علمت مما مر فى الفصل السابق أن عمر رضى الله عنه إنما سلك فى زهده وتعففه طريق النبوة ، ولم يأخذ من بيت المـال إلا مقدار الحاجة للمعيشة الساذجة التى تليق بزهده ، كما أن المسلمين إنما راعوا فى فرضهم العطاء له حالة معيشته ولما اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة فى عطائه ليعادل نفقته، فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً ، وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الأمير من بيت المـال ما فيه الكفاية له فى معيشته بنسبة حاله فيما لو ترقت أصول معيشته إذ ليس فى طاقة كل خليفة أن يسلك مسلك عمر وأبى بكر فى التقشف والزهد ويتأدب مثلهما بآداب النبوة ، وليس ذلك بواجب على كل خليفة ، بل الواجب هو القصد فى المعيشة والإمساك عن البذل إلى حد السرف والتعفف عن فضول أموال الأمة ووضعها فى مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضى الله عنه فإنه لمـا لم يستطع المسير على قدم من سبقه جاز له أن يتوسع فى المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير سرف ولا تقتير .

وقد رأيت أن الصحابة رضوان الله عليهم لمـا تشاوروا فى أمر الزيادة فى عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنمـا راعوا حاجته الضرورية التى كانت تناسب معيشته وتقضى بتلك الزيادة ، ولم يراعوا نفس المنصب أو يريدوا التوسعة عليه بفضول الأموال كما أنه هو لم يرض بتلك الزياة خشية أن يكون فيها شىء من السرف فى الأموال ، وحبذا لو نظر الخلفاء بعد هذا النظر وراعوا فى بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة ، فإن فيها كل الحكمة ، وليست فى ذاتها بمانعة لهم من تناول مقدار الحاجة مهما بلغ ، وإنما هى تمنع من تناول الفضول والتوسع فى البذل والسرف فى المعيشة إلى حد الاستئثار بأموال بيت المال وتبديدها فى سبيل الشهوات

ووضعها فى غير مواضعها المشروعة التى بها قوام الأمة كلها لا الخليفة وحده ، ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة فى دول الإسلام مبلغاً يدهش عقول الباحثين ، وما نظن إلا أن أكثر البلاء الذى حل بهذه الأمة والضعف الذى انتابها فى العصور القديمة والحديثة ناشىء عن إسراف أمرائها وسلاطينها وتبديدهم للأموال فى طرق الشهوات ، وليست هذه الآفة خاصة بدول الإسلام وإنما هى عامة فى كل دول الأرض ، وإنما هى تتفاوت بتفاوت الأمم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتتباين بتباين صفة الحكومة فى كل قوم .

وأشقى الأمم من هذا القبيل الأمم التى لا حد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية لسلطانهم توصف ، وإنما هم أرباب اليد المطلقة فى أموال الرعية يأخذون منها ما شاءوا ويمنعون من شاءوا وينفقون الأموال فيما شاءوا ليس عليهم من الأمة رقيب عتيد ، ولا من الوجدان زاجر عنيد ، وقلما منيت مملكة بهذا النوع من الحكم وبهذا البلاء من التسلط إلا فنى زادها وساء معادها ، والشاهد على هذا من دول الإسلام سيأتى فى هذا الكتاب ، وأما من دول أوربا فيكفى فيه أن يقال إن الأمبراطور شارلكان الذى قام فى أوروبا فى أوائل القرن السادس عشر بعد المسيح وملك معظم الديار الأوربية وتسلط على سائر الشعوب والدول لما لم يكن لسلطته حد فى بيوت الأموال جعل ينفق منها فى سبيل سيادته على الملوك فى عصره ما لا يدخل تحت حساب حتى إذا أحس بالعجز عن سياسة ذلك الملك العريض لفقر بيوت أمواله وإنهاك قوى رعيته انزوى فى دير من الأديرة ، ولم يلبث أن مات فيه وانكشف بموته عن سماء الممالك الأوربية ظل الأسبانيول واندك أساس ما ابتناه شارلكان لنفسه من الملك الكبير حتى كأنه ما كان لهذا لما تنبهت الشعوب الأوربية من سنة الغفلة ووضعوا حداً لسلطة الرؤساء والأمبراطرة أخذوا على أيديهم فيما أخذوا التسلط على بيوت الأموال وفرضوا لكل منهم

كفايته منها بنسبة حاله فى المعيشة وحال بلاده من الثروة ، كما كان ذلك على عهد الخلفاء فى صدر الإسلام ، فكان من ذلك أن عم اليسر خزائن الدول الأوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية واعتزت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة ، فبسطت جناح السلطان على معظم ممالك الأرض ، وهذا شأن الحياة فى الأمم إذا دب دبيبها فى جسمها ونبهت دورة الدم فى عروقها والعكس بالعكس .

ومن عجيب الأمور أن يد الحاكم متى أطلقت فى بيت المال يتفشى الخلل فى سائر فروع الحكومة تفشياً وبيلا ، بحيث لو أراد الحاكم نفسه أن يتلافى ذلك الخلل لتعذر عليه ذلك بأى سبب من الأسباب ، ولو مهما كان قادراً ومملكته غنية ، وأقــــرب شاهد نذكره للشرق هنا ماكان فى عهد إسماعيل « باشا » الخديوى الأسبق فى مصر من الخلل العظيم فى سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه على أموال الحكومة وسرفه فيها وتبديده لها فى الوجوه التى لاتستلزمها حياة الأمة ولا الملك حتى كان من ذلك أن بات العامل فى الحكومة والجندى فى الشكنة لايتناولان مرتبهما إلا كل بضعة شهور مرة ، مع غنى البلاد وثروتها ومع ماحملها من الديون التى تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنيهات) .

ولما أحس بالخطر الذى أشرفت عليه البلاد والضيق الذى استحوذ على مالية الحكومة وهب لتلافى ذلك الخطر وأخذ فى تنظيم شؤون البلاد تعذر عليه ذلك مع طول باعه فى السياسة وحنكته فى الأمور ووجود رجال يساعدونه على ذلك القصد ، ثم فشل فشله المعروف فى التاريخ ، وانتهى الأمر بعزله عن إمارة مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون فى مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ، ولما ولى الإمارة ابنه توفيق « باشا » وأقبل منها على أمر جلل لا يقوم به إلا العفيف الحازم الرأى وأراد أن ينقذ البلاد

من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام ، فأول ما بدأ به أن كف يده عن بيوت الأموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة ما يتناوله وأبناء عشيرته من الأمراء من مال الحكومة ، وكان ذلك بإشارة بعض مندوبى الدول صاحبات الشأن فى المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم أو يأبى قبول إشارتهم ، ومن ثم ظهرت فى الحكومة وعلائم الإصلاح وبدت فى الحال ثمرة تنظيم الشؤون المالية ، حتى حدث ما حدث فى مصر من أسباب الثورة العرابية واحتلال الدولة الإنكليزية فى البلاد ، ثم مضى الأمر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية فى نمو وجباية البلاد فى ازدياد حتى بلغت إلى هذا العهد عشرة ملايين ونصفاً ونيفاً من الجنيهات ، وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاماً يحسدها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم ، وكل ذلك نتيجة كف يد الحاكم عن بيوت الأموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء إلى ماشاء .

هذا وأما واضع بيت المال فى الإسلام فإنه أبو بكر رضى الله عنه كما مر فى سيرته وإنما كان ساذجا تحشر إليه الأموال من الفيء والصدقة ، ثم توزع فى أماكنها المشروعة وعلى الوجوه التى أمر بها الله فى الكتاب الكريم الذى وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) ، وقد مر ذكر ذلك ، إلا أنه لم يكن ثمة ضابط ولا قيد فى ديوان وقد رأيت فيما مضى من سيرة عمر رضى الله عنه كيف نهض لوضع الديوان لما كثر الفيء والخراج وازدادت الجباية ضبطاً لأمور بيت المال وتقييداً للنفقات وإنما كان ديوان بيت المال هو الدفتر الذى يضبط فيه الحساب ثم مازال يترقى الحال حتى تفرع عن بيت المال عدة ادواوين على عهد الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس كان ادهم ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الإقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول إن شاء الله ، وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال ، وقد توسع الأئمة

والفقهاء بعد فى وضع الضوابط والقوانين التى تتعلق ببيت المال ، وكلها كانت استنباطا من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لأبى يوسف وما يشبهه من الكتب الواردة فى مؤلفات الفقه الإسلامى ، إلا أن أمر بيوت الأموال تقلب بعد ذلك بتقلب الدول الإسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طوق الفقهاء واستأثر بها الأمراء قلباً وإبدالاً ومحواً وإثباتاً على مقتضى الظروف والأحوال إلى الآن .

حسبة :

أصل الحسبة هى مشارفة السوق والنظر فى موازينه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى فيه من المأكول والمصنوع وغيره ، ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الأزقة وبالجملة ، هى كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها فى الإسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من وضعها على مايظهر هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد جاء فى كنز العمال فى حديث أخرجه ابن سعد عن الزهرى أن عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق ، وقال العلماء هذا أصل ولاية الحسبة .

ومن ثم ترقت الحسبة فى الإسلام ترقياً عجيباً حتى كانت من أهم الشؤون التى عنى بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء بتوسع الحاجة فى وظيفة والى الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر بمعروف ونهى عن منكر ، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أجاز التوسع فى ولاية الحسبة حتى فى إقامة الصلوات الخمس فى مواقيتها ، وتعاهد الأئمة والمؤذنين وإلزامهم بأداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته فى جواز التوسع بهذه الوظيفة ما قاله عن الولايات فى كتاب الحسبة فى الإسلام المطبوع حديثاً فى مصر ونصه .

عموم الولايات وخصوصاً وما يستفيده المتولى بالولاية يتلق من الألفاظ والأحوال والعرف ، وليس لذلك حد فى الشرع فقد يدخل فى ولاية القضاء فى بعض الأمكنة والأزمنة ما يدخل فى ولاية الحرب فى مكان وزمان آخر وبالعكس ، وكذلك الحسبة وولاية المال اه .

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لها حتى إننا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الزجاج ومزيجاً آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف أو ماهو بمعناه ، ومثلها للأوزان الخفيفة وكلها كانت تصدر من والى الحسبة أو المحتسب على تعبير المتأخرين لأجل أن يضبط بها الناس عيار الدراهم والدنانير والأوزان على مايظن منعاً للتلاعب والغش ، إلا أننا لم نقف على التاريخ الذى ألغى فيه اسم المحتسب ، ولعله منذ أنشئت المجالس البلدية فى المملكة العثمانية وسنتكلم عليها فى مكان آخر بأوسع من هذا إن شاء الله .

أما حسبة عمر رضى الله عنه فقد قدمنا أنه استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشارف السوق ويراقب المكاييل والموازين ويأمر بإماطة الأذى عن الطريق .

أخرج الإمام ابن الجوزى عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب جمالا ويقول حملت جملك مالا يطيق .

وفى كنز العمال عن يزيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث فى السوق فكسره .

وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلى قال : رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ويقول لاتقطعوا علينا سابلتنا .

وفيه عن على أنه كان يأمر بالمثاعب[1] والكنف تقطع عن طـــريق المسلمين .

وفيه عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب مر بحاطب بسوق المصلى وبين يديه غرارتان فيهما زبيب ، فسأله عن سعرها فسعر مدين بكل درهم فقال له عمر : حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك فإما أن ترفع فى السعر ، وإما أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت ، فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً فى داره فقال إن الذى قلت ليس بعزمة ولا قضاء ، وإنما هو شىء أردت به الخير لأهل البيت فحيث شئت فبع وكيف شئت فبع (أخرجه الشافعى فى السنن .) .
وله أخبار غير هذه فى الحسبة وقد اكتفينا عنها بما تقدم دلالة على الباقى .

قضاؤه :

كتبنا فى سيرة أبى بكر فصلا عن القضاء فى الإسلام وكيف كان يقضى أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فلا نرى حاجة للمزيد هنا إلا بعض أخبار عمر فى القضاء فإنا نأتى بها إتماماً للفائدة .

كان عمر رضى الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غيره لما هو معروف من أن القضاء فى الإسلام وظيفة من وظائف الإمام يجوز له أن يتولاها بنفسه وأن ينيب بها عند الحاجة غيره ، وكان تحريه للعدالة فى انتخاب القضاة كتحريه فى انتخاب الولاة لا يراعى فى كليهما إلا الأهلية والاستعداد والتقوى والعدل ، ويعلم إن إثم الظالم إذا ظلم على موليه فقد أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عبد الملك بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة لا يستعمله إلا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين .

---

(١) مسايل الماء كما فى النهاية .

وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال . من استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله .

وكما كان يتحرى فى انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهله .

أخرج ابن الجوزى عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب أنه قال لرجل قاض من أنت قال قاضى دمشق : قال كيف تقضى ، قال أقضى بكتاب الله ، قال : فإذا جاءك ما ليس فى كتاب الله قال أقضى بسنة رسول الله . قال : فإذا جاءك ما ليس فى سنة رسول الله قال : أجتهد رأيى وأوامر (أى أشاور) جلسائى . قال أحسنت . وقال فإذا جلست فقل اللهم إنى أسألك أن أفتى بعلم وأن أقضى بحكم ، وأسألك العدل فى الغضب والرضا قال فسار الرجل ما شاء الله أن يسير ثم رجع إلى عمر : فقال ما رجوعك : قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب فقال مع أيهما كنت : قال مع القمر . قال يقول الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا تلى لى عملا .

وإنما عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله ، وهكذا كان شأنه مع عماله رضى الله عنه .

وكان لا يحب تعجيل الفصل فى الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى آثار الضغائن من النفوس ، فقد جاء فى كنز العمال عنه رضى الله عنه أنه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا ، فإن فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس . وأما كلامه فى القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من الكتابين التاليين .

كتابه فى القضاء إلى شريح القاضى :

أما بعد إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال

فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به . فإن جاءك ماليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت . أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تأخر فتأخر ولا أرى التأخير إلا خيراً لك اهـ (من كنز العمال) .

كتابه فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك [١] فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس [٢] بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك [٣] ولا يخاف ضعيف من جورك ، والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالا أو أحل حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم عند ما يتلجلج [٤] فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه (أى وقتاً محدوداً) فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر . المسلمون عدول

---

(١) رفع لك الأمر وجىء به إليك .
(٢) أعدل وساو .
(٣) الحيف الجور والظلم كما فى القاموس .
(٤) التلجلج التردد فى الكلام كما فى القاموس .

بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً(١) فى ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات ، ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر ، فإنه من يخلص بها نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله مابينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام (من البيان والتبيين) .

وهذا الكتاب على إيجازه هو الذى تدور عليه أحكام القضاء إلى هذا العهد .

وأما أقضيته فكثيرة لايسعها هذا الكتاب ، فليرجع إليها من أحب فى كتب الحديث ، وقد خالف فى بعض أحكامه ماقضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة ، فلم يؤاخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة ، وقد أحلت فى ظروف مخصوصة ، ومنها حكمه بوقوع الطلاق الثلاث إذا صدر عن شخص مرة واحدة ، مع أن السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة إذا أحس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث ، وغير ذلك من الأحكام النافعة التى أخذ بها بعد كثير من أئمه المسلمين اقتداء بحسن رأيه ، وجميل قصده ، فليرجع إليها فى مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء .

فراسته وذكاؤه

كان رضى الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ماتكنه النفوس ، وقد ساعده تفرسه فى الناس

---

(١) هو المتهم بسبب قرابته أو ولائه.

على وضع الشدة فى مواضعها واللين فى مواضعه حتى أخذ بنواصى الناس واستكانت له رغبة ورهبة ، وكان أشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناهاً لكنه ضمائرهم ، ليحسن إلى محسنهم ويأخذ على يدى مسيئهم ، لهذا دبت فى قلوبهم هيبته وفعلت فى نفوسهم فراسته .

لما جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من تجمع لهم من جيوش الردة فى خلافة أبى بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً ، وأقبل عمر للتسليم على عمرو فمر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم على وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد ، فلما دنا عمر منهم سكتوا : فقال فيم أنتم فلم يجيبوه فاستطلع طلع بواطنهم وأدرك بفراسته ماهو دائر بينهم من الكلام فقال لهم : إنكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب : قالوا صدقت : قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب أخوف منى من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب فى آثاركم فاتقوا الله فيهم ومضى .

ولا يخفى ما فى هذا الكلام من المغامز خلا مافيه من الاستخفاف بقوة العرب ، وإنما أدرك ماخامر نفوسهم من أخبار الردة فأراد أن يستفز منهم صدق العزيمة لمضافرة أبى بكر ومكاتفته على استخضاع العرب ، ويبين لهم أنهم قدوة العرب وأئمة الناس فحيثما اتجهوا اتجه معهم الناس طوعاً أو كرهاً وهذا هو الحق الذى تشهد له الحوادث العظمى التى حدثت بعد خلافة أبى بكر وعمر ، وسيق بها العرب إلى ماسيقوا إليه ودخلوا مع قريش إلى حيث دخلوا كما هو معروف فى التاريخ ، وسنشير إليه فى محله إن شاء الله .

وحسب عمر من سعة المدارك وبعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبى بكر ومبادرته إلى ذلك قبل إخوانه من المهاجرين مع تحققه أن أمر البيعة منوط

بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من أهل الحل والعقد ، لهذا اعتدها بعد ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرها ، كما سترى فى إحدى خطبه التى تجىء فى باب الخطب وإنما عجل ببيعة أبى بكر لما كان يتفرسه فى وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الأنصار ، ويا ويح الأمة لو حدث من الخلاف بين المهاجرين فى ذلك العهد ما حدث فى خلافة عثمان وما بعده إذ كان الإسلام غضاً طرياً والناس لوفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى اضطراب ، والعرب على قدم القيام على المسلمين ، وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضى الله عنه بمبايعته لأبى بكر لعلمه أنه أقدم المهاجرين إسلاماً وأكبرهم سناً وأضعفهم عصبية ، فإذا تعجل بمبايعته قطع آمال المتطلعين إلى الخلافة من أولى العصبيات الكبيرة فكانوا بأجمعهم عصبية لأبى بكر يذودون عن حوضه ويفون بحق طاعته ، لاسيما وأن ليس لأحد منهم غاية بعد تقرير أمر الخلافة إلا نصرة الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته ، وإنما هم تزاحموا على الخلافة بعدُ لاعتزاز كل فرد منهم بعصبيته أو سابقته فى الإسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بإمرة المؤمنين لأنهم كما قدمنا فى غير هذا المحل كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، أى كلهم أهل للخلافة وجدير بخدمة ذلك المنصب فقيام عمر ببيعة أبى بكر قطع جهيزة قول كل خطيب ، وجعلهم كلهم راضين بها لعلمهم بسابقته وفضله وعزيمته ولاطمئنان ضمير كل فرد من المتطلعين إليها بصرفها عن الآخر وهذا الذى دعا لارتياحهم جميعاً لخلافة أبى بكر ، وإنما كان القائم بها العارف بلزومها عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين .

ومن عجيب فراسته التى كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه

فى العقد قال : قال أبو بكر بن أبى شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفىء على التأويل ، فلما صار الأمر إلى على أستعمله على البصرة فاستحل الفىء على تأويل قول الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى) واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل .

هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضى الله عنه خصوصاً فى بنى هاشم ، وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة وإثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذى كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به ، على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملا كى لا يحدثوا أنفسهم بشىء من الإمارة لأنها غير النبوة ، ومن ذلك ما ذكره فى العقد أن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (يا عم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها) .

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع إلى الإمارة لا يستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاهر بظنه هذا فيهم ، وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مراراً ، ومنه ما تقدم ذكره فى باب سياسته إذ قال له : يا بن عباس إنى خشيت أن يأتى علىّ الذى هو آت ، وأنت فى عملك فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم .

ولقد تحققت فراسته فى بنى هاشم بعد إذ قضوا عصوراً طويلة فى مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول ، أضخمها العباسية فى بغداد ، والفاطمية فى أفريقيا ، وأهرقوا سيولا من دماء أشياعهم وأشياع

غيرهم فى سبيل نيل هذه البغية . وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش فى أمور الدول الإسلامية والاضطراب فى المسلمين ما الله به عليم ، على أنهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صرف أسلافهم عن الإمارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شىء من ذلك ، بل لكانوا إذا استمر فى نفوسهم شىء من التطلع إلى الخلافة سلكوا إليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الأنظار إليهم ساعية بنفسها لإسناد منصب الخلافة لأهل الجدارة منهم ، وحسبهم موعظة وذكرى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته فى الإسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلى بعده) لم يتوفق لجمع كلمة الأمة على الرضا ، بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وإنما هو لما وقر فى نفوس الأمة يومئذ من أن الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفكون عن الإدلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ فى إبان نشأة الإسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والإخاء التى حشرهم إليها الإسلام بقوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وبقول النبى صلى الله عليه وسلم (لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) فتوهم أن أن يسلبهم بنو هاشم شيئاً من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير ميالين لاستخلاف أحد منهم يدلك على صدق هذا القول ما ذكره فى العقد عن عبد الله بن عباس قال : ماشيت عمر بن الخطاب يوما فقال لى يا بن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة : قلت لا أدرى : قال لكننى أدرى أنكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا إن فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً وإن أفضل النصيبين بأيديكم بل ما إخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت على رغم أنف قريش (يريد الخلافة) .

نبذ من فنون أقواله وأخباره :

من أخباره فى الشفقة ورقة القلب ما أخرجه فى المناقب عن الأحنف ابن قيس قال وفدنا على عمر رضى الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم : فقلت فى مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول : ألا اتقيتم الله فى ركابكم هذه أما علمتم أن لها عليكم حقاً ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض : فقلنا يا أمير المؤمنين لانا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين بما يسره .

عن نافع قال دخل شاب قوى المسجد وفى يده مشاقص[1] وهو يقول من يعيننى فى سبيل الله ، فدعا به عمر فأتى به فقال من يستأجر منى هذا يعمل فى أرضه فقال رجل من الأنصار : أنا يا أمير المؤمنين : قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا وكذا قال خذه فانطلق به : فعمل فى أرض الرجل أشهراً ثم قال عمر للرجل : ما فعل أجيرنا : قال صالح يا أمير المؤمنين . قال ائتنى به وبما اجتمع له من الأجر : فجاء به وبصرة من دراهم : فقال (عمر للرجل) خذ هذه فإن شئت فالآن اغز وإن شئت فاجلس .

وشفقته على هذا الرجل هى من جهة أنه رآه قوياً وأهلا للعمل فأعطاه لمن يستأجره كى لا يكون عالة على الناس .

ومن جميل أخباره فى تأديب الناس على ستر العورات وكتمان ما يمس بشرف الصيانة ما جاء فى المناقب عن الشعبى قال أتى عمر بن الخطاب رجل فقال إن ابنة لى كنت وأدتها[2] فى الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت

---

(١) قال فى القاموس المشقص كمنبر نصل عريض أو سهم فيه ذلك ، والنصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

(٢) الوأد هو دفن البنات وهن أحياء ، وكانت عادة الوأد عند العرب فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أبطلها .

فأدركت معنا الإسلام فأسلمت ، ثم أصابها حد من حدود الله فأخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت ، ثم أقبلت بعد توبة حسنة ، وهى تخطب إلى قوم أفأخبرهم بالذى كان : فقال عمر رضى الله عنه أتعمد إلى ماستره الله فتبديه ، والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار انكحها نكاح العفيفة المسلمة .

ومن أخباره فى رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه فى المناقب عن الليث عن عبدالله بن صالح قال أتى عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلا ملقى على وجهه فى الطريق ، فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل فشق ذلك على عمر ، وقال اللهم أظفرنى بقاتله حتى إذا كان رأس الحول أو قريبا من ذلك وجد صبى مولود ملقى موضع القتيل ، فأتى به عمر فقال ظفرت بدم القتيل إن شاء الله فدفع الصبى إلى امرأة وقال لها قومى بشأنه وخذى منا نفقته وانظرى من يأخذه منك ، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلمينى بمكانها ، فلما شب الصبى جاءت جارية فقالت للمرأة إن سيدتى بعثتنى إليك تبعثى الصبى لتراه وترده إليك . قالت نعم اذهبى به إليها وأنا معك فذهبت بالصبى والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته إليها ، فإذا هى بنت شيخ من الأنصار من أصحاب رسول الله فأخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل إلى منزلها فوجد أباها متكئاً على باب داره : فقال يا أبا فلان مافعلت ابنتك فلانة : قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هى من أعرف الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها .

فقال عمر قد أحببت أن أدخل إليها فأزيدها رغبة فى الخير وأحثها على

ذلك ، فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى أرجع إليك . فاستأذن لعمر فلما دخل عمر أمر كل من كان عندها فخرج عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معهما أحد ، فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني ، وكان عمر لا يكذب : فقالت على رسلك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن : إن عجوزاً كانت تدخل عليّ فاتخذتها أماً ، وكانت تقوم أمرى بما تقوم به الوالدة ، وكنت لها بمنزلة البنت فأمضيت بذلك حيناً ، ثم إنها قالت لى يا بنية إنه قد عرض لى سفر ولى بنت أتخوف عليها منه أن تضيع وقد أحببت أن أضمها إليك حتى أرجع من سفرى . فعمدت إلى ابن لها شاب أمرد فهيأته كهيئة الجارية وأتتنى به لا أشك أنه جارية فكان يرى منى ما ترى الجارية من الجارية ، حتى اغتفلنى يوماً وأنا نائمة فما شعرت حتى علانى وخالطنى فمددت يدى إلى شفرة كانت إلى جنبى فقتلته ثم أمرت به فألقى حيث رأيت ، فاشتملت منه على هذا الصبي ، فلما وضعته ألقيته فى موضع أبيه فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك : فقال عمر صدقت بارك الله فيك ، ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج ، وقال لأبيها بارك الله فى ابنتك فنعم الابنة ابنتك وقد وعظتها وأمرتها ، فقال الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك .

فنون شتى من أخباره :

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك ، أعطانا فأغنانا وأخشانا فأتقانا .

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى أنه ضربه وتعدى عليه : فقال اللهم إنى لا أحل لهم أعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلمه أميره فلا أمير عليه دونى ثم أقاده منه (أى أخذ له القود)

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن ينخدع .

فى كنز العمال عن طاوس أن عمر قال أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما على قالوا نعم : قال لا حتى أنظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا .

وفيه عن عمر قال : الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رفع الامام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه أنه قال لا ينبغى أن يلى هذا الأمر إلا رجل فيه أربع خلال ، اللين فى غير ضعف ، والشدة فى غير عنف ، والإمساك فى غير بخل والسماحة فى سرف . فإن سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث .

وما أظن أن خليفة اتصف بهذه الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضى الله عنه .

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه أنه كان مع عمر بن الخطاب فى سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع فى جبل فعدل إليه فلما دنا منه صاح ياراعى الغنم فأجابه الراعى : فقال له إنى مررت بمكان هو أخصب من مكانك فإن كل راع مسئول عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الإمام مالك وابن سعد) .

وتالله إن هذا الاهتمام بشئون الناس حتى فى إرشاد الرعاة إلى أماكن الخصب لجدير بأن يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين ، وهيهات هيهات فإن الشهوات غلابة ومحبة الذات خلابة ، وليست كل النفوس خيرة كنفس عمر .

وفيه عن سعيد بن المسيب، أن عمر بن الخطاب قال فى ولايته من ولى هذا الأمر بعدى فليعلم أن سير يده عنه البعيد والقريب وايم الله ما كنت إلا أقاتل الناس عن نفسى قتالا .

وأخرج ابن الجوزى فى المناقب عن يحى بن جعدة قال : قال عمر لولا أنى أسير فى سبيل الله ، أو أضع جبينى لله فى التراب أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر ، لأحببت أن أكون قد لحقت بالله .

وفيه عن ابن سعد قال : قال عمر والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم : فقال قائل يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً ، قال ماهو : قال الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا فى حق ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا فسكت عمر .

وفيه عن الزهرى قال كان جلساء عمر أهل القرآن كهولا كانوا أوشباناً وفيه عن الأوزاعى قال : بلغنى أن عمر رضى الله عنه سمع صوت بكاء فى بيت ومعه غيره فمال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال اضرب فإنها نائحة لاحرمة لها إنها لا تبكى لشجوكم إنما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم إنها تؤذى أمواتكم فى قبورهم وأحياءكم فى دورهم . إنها تنهى عن الصبر الذى أمر الله به وتأمر بالجزع الذى نهى الله عنه .

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال : ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبى فيجىء به ويقول ادع لى فإنك لم تذنب بعد : وفيه عن محمد قال : كان عمر يشاور حتى المرأة .

وفيه عن أبى أمامة بن سهل قال : كتب عمر إلى أبى عبيدة رضى الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمى .

ولا يخفى أنه أراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر ، وإنما كان تعلم الرمى من أهم لوازم الجند بالنسبة لذلك العصر .

وأما فى هذا العصر فلوازم الحرب كثيرة ، ومنها تعلم فنون الكيمياء لأجل عمل المواد الالتهابية التى يحتاج إليها المحارب ، وتعلم الهندسة والميكانيات أى علم صناعة الآلات لأجل عمل المدافع والبنادق والقلاع

والمتاريس ونحوها من لوازم القوة والدفاع ، وفن الجغرافية لأجل معرفة أطوال البلاد وعروضها وسهولها ونجودها وطرقها وجبالها وأخلاق أهلها وقوتهم وثروتهم وغير ذلك مما يعين على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها . وإعلان الحرب على أهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها ، وإعلان الحرب على أهلها .

وأخرج الطبرى عن زيد بن أسلم قال قال عمر كنا نعد المقرض بخيلا وإنما هى المواساة .

ومن مأثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار فى يده ، أشقى الولاة من شقيت به رعيته ، أعقل الناس أعذرهم للناس ، ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع ، لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا ، مر ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ، قلما أدبر شىء فأقبل ، أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى ، من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الألباب) .

ودخل عدى بن حاتم على عمر فسلم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين أنا عدى بن حاتم فقال: ما أعرفنى بك ، آمنت إذ كفروا ، ووفيت إذ غدروا وعرفت إذ أنكروا ، وأقبلت إذ أدبروا (عنه أيضا) .

ومن جميل قوله إياكم والمعاذير فإن كثيراً منها كذب ، وقوله تعلموا المهنة فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلى مهنته (المناقب) .

عن قبيصة بن جابر قال : قال لى عمر بن الخطاب إنك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر ، وإنه يكون فى الرجل عشرة أخلاق تسعة أخلاق حسنة وخلق سىء فيغلب الخلق السىء التسعة الأخلاق الحسنة ، فاتق عثرات الأشياء :

وفى المناقب عن عبيد بن أم كلاب أنه سمع عمر يقول لايعجبنكم من الرجل طنطنته[1] ، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل .

وفيه عن إسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة فى ترك خلطاء السوء ، وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال : حسب المرء دينه وأصله عقله ومروءته خلقه .

ومن قوله فى بيان فضيلة الكسب ماذكره فى المناقب عن عطاء قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأن أموت بين شعبتى رحل (هو قتب الجمل) أسعى فى الأرض أبتغى من فضل الله كفاف وجهى أحب إلى من أن أموت غازيا .

كلمة إجمالية فى أخلاقه :

هذا ما أحببنا إيراده من مناقب عمر رضى الله عنه وأخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة والكمال ، وعلم من أعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدى بسيرتهم أرباب الهمم ، فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قل أن تجتمع فى عدد عديد من الرجال ، وقد اجتمعت فى عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لايظهر عليها شىء

(١) صوت صلاته فى الليل .

من التصنع أو التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الأمر كما أعجز كثيراً غيرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتتبع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها ، ومن أحسن وصف موجز وصف به عمر ماروى أن معاوية بن أبى سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لى عمر بن الخطاب فقال :

كان عالما برعيته ، وعادلا فى قضيته ، عاريا من الكبر ، قبولا للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحريا للصواب ، رفيقا بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للغريب :

وكان من أخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأنى فى الأمور والاستشارة فى جليلها وحقيرها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل فى أمر من الأمور ، بل كل تلك الأعمال التى عملها فى خلافته وذلك الفتح العظيم الذى كان على عهده توفق إليه توفيقا صاحبه من أول عهده بالخلافة إلى حين وفاته ، وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد فى الأمر وتمحيص الأشياء شأن كل رجل عظيم يريد مايقول ، وينال مايريد ، ولو بحثنا فى تاريخ الأمم القديمة والحديثة لوجدنا لكل أمة رجلا أو رجالا من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلى ذكرهم ، ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه تلك الخصال السامية والأخلاق الحميدة التى اجتمعت فى عمر بن الخطاب. إذن فإذا افتخرت كل أمة برجالها فنحن لا نبالغ إذا فاخرنا بهذا الرجل العظيم كل الأمم ، وإذا كان هناك مبالغة فى القول أو غلو فى الوصف ووقف غيرنا من سير رجال الأمم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل ، وأنا أضع له خدى التراب اعترافا بالحق وإقراراً بفضل ذوى الفضل من رجال العالم .

نعم إن مشهورى الرجال رجالا أسسوا ملكا عريضا أوسع من ملك عمر ، وافتتحوا من الممالك ما لم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق

ما نال ، ولكن هل منهم من كان كعمر جباراً غير ظالم ، كريما غير مسرف ، عادلا لا عن ضعف ، شجاعا غير متهور ، قنوعا غير شره زاهدا بغير تصنع ، حليما من غير جبن تقيا غير متنطع ، كلا ما نظن أن أوصافا كهذه تجمع فى رجل واحد غيره قط لاسيما إذا نشأ فى بيئة كبيئته وبين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف والتاريخ حكم عدل ، وما بسطناه من سيرته فى هذا الكتاب خير شاهد أمين وإنا والله لنتمنى لكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشئوا فى مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب الزمان وغذتهم لبان السياسة بعضا من أخلاق عمر ، يحملون بها الأمة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد ويتنكبون بها طرق المهالك التى ساقتها إليها أيدى الظلم والاستبداد والجهل بأصول سياسة الرعية ، ولله فى خلقه شؤون .

أولياته :

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر فى الخلافة وفى تلك الآثار ما هو من أولياته ونحن ننقل هنا بوجه الإجمال أوليات عمر كما ذكرها السيوطى فى تاريخه فهو أول من كتب التاريخ من الهجرة ، وأول من اتخذ بيت المال ، وأول من سن قيام شهر رمضان ، وأول من عس بالليل ، وأول من عاقب على الهجاء ، وأول من ضرب فى الخمر ثمانين ، وأول من حرم المتعة ، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد وأول من جمع الناس فى صلاة الجنائز ، وأول من فتح الفتوح ومسح السواد ، وأول من حمل الطعام من مصر فى بحر أيلة (البحر الأحمر) إلى المدينة ، وأول من احتبس صدقة[1] فى الإسلام ، وأول من أعال الفرائض[2] وأول من أخذ زكاة الخيل . وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله لعلى) وأول من قال أيدك الله (وقال له أيضا) وأول من اتخذ الدرة ، وأول من استقضى القضاة فى الأمصار ، وأول من مصر الأمصار ، وأول من سمى أمير المؤمنين ، وكان يكتب أولا من خليفة أبى بكر

(١) أى وقف وقفاً .
(٢) أعال من العول المعروف فى الفرائض وهى أن تزيد الفريضه فى الحساب فتعدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض .

أو من خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرة إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله فبعث إليه لبيد بن ربيعة وعدى ابن حاتم فقدما المدينة ، ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقال عمرو أنتما والله أصبتما اسمه فدخل عليه عمرو فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال ما بدالك فى هذا الاسم، لتخرجن مما قلت فأخبره ، وقال أنت الأمير ونحن المؤمنون فجرى الكتاب بذلك من يومئذ .

وهو أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع ، وأول من وسع المسجد النبوى وفرشه بالحصباء .

هذا ما نقله السيوطى من أوليات عمر عن النووى والعسكرى وابن سعد ونزيد عليه أنه أول من ضرب النقود فى الإسلام ، وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل ، وأول من أقام والياً للحسبة ، وأول من شق الترع وأقام الجسور ، وأول من وضع المرابطة من الجند فى الثغور وسمى الأجناد ، وأول من أمر بالعناية بالمناظير ، وأول من عين شخصاً مخصوصاً لاقتصاص أخبار العمال وتحقيق الشكايات التى تصل إلى الخليفة من عماله وهو محمد بن مسلمة ، وربما كان له أوليات أخرى غير هذه ، وقد تقدم الكلام على كل هذا مفصلا فيما مر من هذا الكتاب .

كتبه

الى أبى عبيدة حين ولى الخلافة يوليه على جند الشام :

أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه ، الذى هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم

منزلا قبل أن تستريده[1] لهم وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة ، وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك فأغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب فى تاريخ الطبرى) ورأينا صورة غيرها فى حقائق الأخبار وهى بنصها .

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح : سلام عليك فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحى فإن الله لا يستحى من الحق ، وإنى أوصيك بتقوى الله العظيم الذى لا يفنى ويفنى سواه الذى استخرجك من الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين إلى الهلاك رجاء غنيمة ، ولا تبعث سرية إلى جمع كثير ولا تقل إنى أرجو لكم النصر ، وإياكم والتغرير وإلقاء المسلمين إلى الهلكة ، وأغمض عن الدنيا عينك واله عنها قلبك ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم واختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة بيت كالحمام ، وقد تقدم إليه سلفك فتنتظر سيراً أو سفراً طويلا من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فأحرم الناس الخارج إلى غيرها ، واتق الله فى سرك ونجواك وتفكر فى زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت ، وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهى للمسلمين ، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسلام اه

وكتب إلى أبى عبيدة يلومه على تركه حصار حلب :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة عامر بن

(١) تختبره .

الجراح ، سلام عليك فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد فقد ورد كتابك علىّ مع رسلك فسرنى ماسمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحى التى قربت من إنطاكية فهذا بئس الرأى ، أتترك رجلا ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه ، وتسمع أهل النواحى والبلاد بأنك ما قدرت عليه . فما هذا رأى فيضعف رأيك ، ويعلو ذكره بما صنع ، ويطمع من لم يطمع فترجع إليك الجيوش وتكاتب ملوكها ، فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، فبث الخيل فى السهل والسعة ، واكنفها فى المضايق والجبال ، ومن المعدات إلى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ، ومن سالمك فسالمه ، والله خليفتى عليك وعلى جميع المسلمين ، وقد أنفذت إليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب فى الجهاد فى سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً إن شاء الله تعالى اه .

كتب أبو عبيدة كتابا إلى عمر يخبره فيه بأنه لا يريد الإقامة بانطاكية لطيب هوائها وخوف افلاد الجيوش إلى الراحة فأجابه بما نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأشكره ملياً (كثيراً) على ما وهب من النصر للمسلمين ، وجعل العاقبة للمتقين ، ولم يزل معيناً لطيفاً ، وأما قولك إنك لم تقم بإنطاكية لطيب هوائها ، فالله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى فى كتابه العزيز (يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم) ، وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم ، وتدعهم يرغدون [1] فى مطعمهم

(١) يتوسعون ويتنعمون .

ويريحون الأبدان النصبة فى قتال من كفر بالله، وأما قولك إنك تنظر أمرى الذى آمرك به أن تدخل الدروب خلف العدو ، فأنت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار ، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صواباً فابعث إليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم، وإن طلبوا منك الصلح فصالحهم، وأما قولك إن العرب أبصرت نساء الروم فأرادوا التزويج ، فمن أراد ذلك فدعه إن لم يكن له فى الحجاز أهل ، ومن أراد أن يشترى الإماء فدعه ذلك أصون لفروجهم ، والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين، ورحمة الله وبركاته .

(نقله والذى قبله فى حقائق الأخبار عن منشآت السلاطين لفريدون بك)

وكتب إليه كتابا فقرأه على الناس بالجابية ونصه :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ، سلام عليك أما بعد فإنه لم يقم أمر الله فى الناس إلا حصيف العقدة (١) بعيد الغرة (٢) لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق فى الحق على جرته(٣) ولا يخاف فى الله لومة لائم (كنز العمال) .

وكتب الى ابنه ينصحه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد : فإن من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده، ومن قرضه جزاه، فاجعل التقوى عماد قلبك

---

(١) قوله حصيف العقدة أى محكمها، والعقدة بالضم الولاية على البلد أو هى من عقد الحبل ربطه وهى كناية عن إحكام الأمر بالمعنى الثانى وإحكام الولاية بالمعنى الأول .

(٢) الغرة هى الغفلة (٣) قال فى لسان العرب لا يصلح هذا الأمر إلا لمن لا يحنق على جرته أى لا يحقد على رعيته ، وفلان لا يحنق على جرته أى لا يكتم سراً .

وجلاء بصرك فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا جديد لمن لا خلق له (العقد الفريد) .

وكتب الى أبي موسى الأشعري يوصيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فإن للناس نفرة عند سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة فأقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجل وأخف الفساق واجعلهم يداً يداً ، ورجلا رجلا ، وإذا كانت بين القبائل نائرة [1] وتداعوا بآل فلان فإنما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وتكون دعواهم إلى الله وإلى الإمام ، وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعو بآل ضبة ، وإني والله ما أعلم أن ضبة ساق الله بها خيرا قط ، ولا منع بها من سوء قط فإذا جاءك كتابي هذا فانهكهم عقوبة حتى يفرقوا [٢] إن لم يفقهوا ، وألصق بغيلان ابن خرشة من بينهم ، وعد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم ، وافتح بابك وباشر أمرهم بنفسك ، فإنما أنت امرؤ منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا ، وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصيب فلم يكن لها همة إلا السمن ، وإنما حتفها فى السمن واعلم أن للعامل مردا إلى الله فإذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الأفكار) .

---

(١) قوله نائرة أى عداوة ، وقوله يفيئوا أى يرجعوا .

(٢) وقوله حتى يفرقوا أى يخافوا ويفزعوا ، ولذا كانت بتشديد الراء فمعناها يتفرقوا .

وكتب الى معاوية وقيل الى أبى عبيدة

(بسم الله الرحمن الرحيم) . أما بعد : فإنى لم آلك فى كتابى إليك ونفسى خيراً ، إياك والاحتجاب وأذن للضعيف ، وأدنه حتى تبسط لسانه ، وتجرئ قلبه ، وتعهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه وضاق إذنه ترك حقه وضعف قلبه ، وإنما ترك حقه من حبسه ، واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء ، وإذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والأيمان القاطعة فامض الحكم (مفتاح الأفكار) .

كتابه لأهل ايلياء « القدس »

(بسم الله الرحمن الرحيم) : هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت(١) ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان(٢) ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية ، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبرى) .

---

(١) وفى رواية : واللصوص ، وهو الظاهر .   (٢) هكذا فى الأصل .

كتابه الى أهل لد

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص من حيزها ولا مللها ولا من صلبهم ولا من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل مدائن الشام ، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره (عن الطبرى) .

كتب الى سعد فى اليوم الذى يرتحل فيه من شراف

أما بعد ، فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوارس ، وشرق بالناس وغرب بهم (عن الطبرى)

وكتب إليه أيضا جوابا عن كتابه

أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ، ومن غفل فليحدثهما(١) والصبر الصبر ، فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول لاحول ولاقوة إلا بالله . واكتب إلى أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ، فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتابة به إليك قلة علمى بما هجمتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ولا تدل بشىء ، واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ، ويستبدل بكم غيركم .

---

(١) هكذا فى الأصل ، والإحداث : الإبداء فليحرر .

وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس مانصه

أما بعد ، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكل على الله ، واستعن به على أمرك كله ، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير ، وعدتهم فاضلة ، وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع ، وإن كان سهلا كؤوده لبحوره وفيوضه ودآدئه(١) إلا أن توافقوا غيضاً من فيض ، وإذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدءوهم الشر والضرب ، وإياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة ، أمرهم غير أمركم ، إلا أن تجادوهم ، وإذا انتهيت إلى القادسية والقادسية فى باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل ، وهو منزل رغيب خصيب رحيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ، ثم الزم مكانك فلا تبرحه ، فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم ، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدبرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبرى) :

---

(١) كؤوده أى صعبه ، وفيوضه : أى مياهه الفائضة والدآدا جمع دأداء ، وهو الفضاء الواسع ، وتوافقوا أى تلاقوا : غيضاً من فيض أى قليلا من كثير : النقب الطريق يكون فى الجبل والثقب وجمعها أنقاب ، ولعل مراده بالأنقاب هنا أنقاب القناطر التى على الأنهار ، والحجر والمدر كناية عن البادية والعمران أو المدن والفضاء لأن المدر هى المدن والحجر هى نقا الرمل ، وقوله أنغضتهم أى حركتهم .

وكتب الى سعد

قد جاءني كتابك وفهمته ، فأقم مكانك حتى ينغض الله عدوك ، واعلم أن لها ما بعدها ، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن ، فإنه خرابها إن شاء الله (الطبرى) .

وكتب اليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ينصحانه

(بسم الله الرحمن الرحيم) : من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب : سلام عليك ، فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . (أما بعد) فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها ، يجلس بين يديك الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ، ولكل حصة من العدل ، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك . وإنا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه ، وتجب(١) له القلوب ، وتنقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته ، والخلق داخرون(٢) له يرجون رحمته ويخافون عقابه ، وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة ، وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام .

فكتب اليهما

(بسم الله الرحمن الرحيم) : من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل : سلام عليكما ، فإني أحمد إليكما الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فقد جاءني كتابكما تزعمان أنه بلغكما أني وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يدى الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ،

---

(١) تخاف . (٢) أى أذلاء صاغرون .

وكتبتما أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله ، كتبتما تحذرانى ما حذرت به الأمم قبلنا ، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار ، ثم توفى كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب ، كتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة يرجع فى آخر زمانها أن يكون لإخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستم بذاك ، وليس هذا ذلك الزمان ، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة ، فتكون رغبة بعض الناس إلى بعض لإصلاح دينهم ورهبة بعض الناس إصلاح دنياهم ، وكتبتما تعوذانى بالله أن أنزل كتابكما منى سوى المنزل الذى نزل فى قلوبكما ، وإنما كتبتما نصيحة لى ، وقد صدقتما فتعهدانى منكما بكتاب فلا غنى بى عنكما والسلام عليكما (مفتاح الأفكار) .

وله كتب غير هذه تقدم إيرادها فى غضون أخباره ، وكتب أخرى كتبها إلى عمرو بن العاص وهو فى مصر ، رأينا من تمام الفائدة أن نرجىء ذكرها إلى سيرة عمرو بن العاص ، لأن إيرادها فى سيرته أنسب لاشتمالها على تبادل المكاتبة بين الاثنين فى شؤون خاصة سترى فى محلها إن شاء الله .

وجوب التناصح فى الإسلام

رأنت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملا بأمر كتابهم وهدى نبيهم ، ولا يمتنعون عن أداء النصيحة للإمام لكونه إماماً له عليهم السلطان ، بل يرون أن النصيحة به أحرى وله أولى ، وأن له عليهم حق الطاعة ، كما لهم عليه حق النصيحة والإرشاد إلى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الأود ويصلح العمل ، شأن الأمم التى تعاون رؤساءها على البر ، وتعتمد فى رفع شأنها على قوة التكافل فى الحق والتعاون على شؤون الملك ، وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام

على حسن المناصحة ، ألا يغفلوا ساعة عن نصيحة الإمام وهو من هو :
فذ الأمة الإسلامية وفخر الإسلام والمثل المضروب فى التقوى والعدل عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه وعنهم أجمعين ، وقد بلغ بهم الإغراق فى حرية
الضمائر وعدم الإمساك عن الحق أن قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم
لما سأله عما إذا ترخص بأمر من أمور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم
القدح) أى تقويم السهم المعوج ، كما رأيت ذلك فيما بسطناه فى باب سياسته
فما ازداد ذلك الخليفة العظيم إلا سروراً بقول ذلك المسلم ، واستبشاراً فى
أن المسلمين قائمون على شؤونهم ، رجال فى أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم
متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم ، وكان ذلك دأبه مع الناس فى استطلاع
طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ، ويسترشد إلى عيوبه بجميل
نصحهم وصادق قولهم ، ولم يكن يخطر له على بال أو يمر له فى خيال أن
استرشاده بآراء ذوى الرأى والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه
حطة فى شأنه أو مس لسلطانه ، لهذا كتب لأبى عبيدة ومعاذ لما نصحاه فى
آخر كتابه (قد صدقتما فتعهدانى منكما بكتاب فلا غنى بى عنكما) وقد رأيت
فيما مر زجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله ياعمر ، وقوله للمعترض
دعه فلاخير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها ، إذا تقرر هذا
علمنا أن التناصح بين المسلمين واجب لايستثنى منه أمير ولا صغير ، بل
الأمير أولى بأن ينصح ويستنصح بسبب ما أوسد إليه من أمور الملك التى
ليس من طوق الآحاد القيام بها ، إلا إذا سلكوا سبيل الأثرة أو أطاعوا
هوى النفوس فكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والتطوح بمصالح
الملك والدولة فى مهاوى الهوى أحب إليهم من الانتصاح بنصيحة الأعوان
والأخذ على شكائم النفوس الأمارة بالسوء ، التى يقودها الهوى إلى تصور
أن الإمارة مرتبة لاينبغى لها أن تكون إلا فى مصاف الملائكة المقربين
أو الأنبياء المعصومين ، وحبذا لو تحقق هذا التصور لإنسان من أولئك

الأمراء ، إذن والله لحكموا الناس بحكم الأنبياء ، وهو هو التناصح الذى يهربون منه التعاون الذى يترفعون عنه ، وحسب هذا الترفع آفة أنه أودى بدولة بنى مروان فى إبان شبابها كما أودى بكثير من أضرابها .

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة القومية فى كل قبيل وعصر ، بل هى مدرسة الأمة التى يتربى فيها الأخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الأعراق وتنبت روح الألفة والتعاون ، وليس لمدرسة مثلها أثر فى الأخلاق ومؤثر فى نفوس الأمة قط ، إذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر ، وتسرى روحها بين كل الطبقات مختارة بلا إكراه ، فيربى الكبير الصغير ويرشد المهتدى الضال ، وينصح الصغير الأمير ، وكلهم يتبادل العوض مع الآخر بما ينفعه فى أخلاقه ويقوم أوده فينتفع الكل بالكل ، وتعم السعادة والرخاء سائر الناس .

أجل هذه هى المدرسة التى ربت مثل معاذ وأبى عبيدة وعمر وأضرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم ، فسادوا بالمناصحة والإخلاص على كل الأمم وأدهشت سيرتهم عقول الشعوب ، وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة ونالهم من السعادة والعز والمجد فوق مارأيت فى هذا الكتاب .

وهى هى المدرسة التى علمت الشعوب الأوربية حرية الضمائر والأفكار ، ورفعتهم من حضيض الجهالة ، وسلكت بهم سبيل المجد وسودتهم لهذا العهد على الأمم ، فملكوا ثلاثة أرباع المعمور ، وقضوا على استقلال الدول الشرقية ، فمحوا بعضه محواً ، وجعلوا بعضه صورة فى الخيال قد باتت على وشك الزوال ، كما زالت دول الهند العظيمة وإفريقيا الكبيرة والجاوى والقريم وبخارى وسمرقند ومالا يعد من الشعوب والدول الإسلامية .

ليس بعجيب أن يصير المسلمون فى أسر الدول المتغلبة ، ويتقلص ظل

بجدهم عن الأرض بعد إذكان شأنهم فى المناصحة والقيام على الحق ما ذكر ، ثم بلغ ترك المناصحة وانحطاط النفوس والأخلاق بفريق كبير منهم أن صاروا يعدون الناصح بالمعروف خارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه ، والدين يقول (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) والنبى صلى الله عليه وسلم يقول (من لم يحمد عدلا ولا يذم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة)(١) .

ومن البديهى أن مدح العدل وذم الجور إنما يكون بأن يقول المسلم للعادل المحسن عدلت وأحسنت ، وللجائر على نفسه أو على غيره جرت وأسأت ، فاستقم كما أمرت ، وهو من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى وردت آياته الباهرة فى الكتاب الكريم .

ومن الإغراق فى الجهالة والتناهى فى الانحطاط أن يرى المسلمون بلادهم تتخرب واستقلالهم ينتزع وملكهم يزول ودولتهم تدول ، والأوربيون قد غلبوهم على أمرهم وزاحموهم فى ملكهم وتحكموا فيهم وفى دولهم وسبقوهم فى العلم والمعارف والاختراع وأجلبوا عليهم بالخيل والرجل وسدوا دونهم منافذ الصناعة والتجارة ، وإذا دعاهم ناصح من إخوانهم غيور من بنى دينهم إلى النظر فى أسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهقرهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الأسباب وحكمهم فى التفريق بين خطئها والصواب أعرضوا عنه إعراض المريض عن الماء الزلال ، بل ربما رماه بعضهم بأنواع الزور وتقرب بماله وأهله ودمه إلى ولاة الأمور رجاء نيل الحظوة عندهم والتزلف إليهم واكتساب رضاهم ، وإن أغضب الله والمروءة والوجدان ، وخرج عن الإنسانية والدين إذ لا وازع من النفس ينهاه ولا فضيلة تلوى عنان شهوته عن ظلم أخيه ، والشواهد على هذا كثيرة فى الأشخاص والأعمال

---

(١) أخرج هذا الحديث فى أسد الغابة فى ترجمة المغيرة بن نوفل .

سنأتى على بيانها فى محالها إن شاء الله لتكون عبرة يتعظ بها الآتى والحاضر وصورة فى التاريخ ترهب قلوب الأشرار وتزعج عن مواطىء الرذيلة أقدام الفجار .

— ١٣ —

خطبـــه

أوردنا عند ذكر استخلافه أول خطبة خطبها ، ورأينا فى رواية أخرى رواها ابن الجوزى فى المناقب عن جامع بن شداد عن أبيه ورواها غيره من المحدثين من طرق أخرى أن أول خطبة خطبها عمر رضى الله عنه أن صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال .

(اللهم إنى شديد فلينى ، وإنى ضعيف فقونى ، وإنى بخيل فسخنى) وقد رأينا هذه الخطبة فى العقد الفريد بعبارة أطول إلا أنها لا تخرج عن هذا المعنى .

وفى تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولى عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال .

أيها الناس إنى قد علمت أنكم كنتم تؤنسون منى شدة وغلظة ، وذلك أنى كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه (شرطيه) ، وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رءوفا رحيما ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول إلا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فأكف عنه ، وإلا أقدمت على الناس لمكان أمره فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد ، ثم قمت ذلك المقام مع أبى بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان

من قد علمتم فى رغبه ولينه ، فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس ، أخلط شدتى بلينه إلا أن يتقدم إلى فأ كف وإلا أقدمت ، فلم أزل حتى توفاه الله فكان عنى راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد . ثم صار أمركم اليوم إلى وأنا أعلم أنه يقول قائل كان يشتد علينا والأمر إلى غيره فكيف به لما صار الأمر إليه ، فاعلموا أنكم لاتسألون عنى أحداً قد عرفتمونى وخبرتمونى وقد عرفت بحمد الله من محمد نبيكم صلى الله عليه وسلم ماقدعرفت، وما أصبحت نادماً على شىء كنت أحب أن أسأله إلاوقد سألته، واعلموا أن شدتى التى كنتم ترونها ازدادت أضعافاً عن الأول على الظالم والمتعدى ، والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم ، وإنى بعد شدتى تلك واضع خدى إلى الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف ، إن كان بينى وبين من هو منكم شىء من أحكامكم أن أمشى معه إلى من أحبه منكم فينظر فيما بينى وبينه :فاتقوا الله عباد الله وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم(١) .

وفى تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال : لما ولى عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال .

ما كان الله ليرانى أن أرى نفسى أهلا لمجلس أبى بكر فنزل مرقاة فحمدالله وأثنى عليه ثم قال : اقرءوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وترتبوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لاتخفى منكم خافية . إنه لم يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله(٢)

---

(١) تصرفت تصرفاً طفيفاً ببعض الألفاظ الواردة بهذه الخطبة لأن الناسخ الذى نسخ لى سيرة عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يتمكن من ضبط الألفاظ المشوشة والمتشابهة لسقامة خط التاريخ .

(٢) يعنى بذى الحق نفسه وهو الحق الذى يعين به حد السلطة العليا بما لايتعدى ماأمر الله من العدل إلى ما تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل قول أبى بكر رضى الله

ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم إن استغنيت عففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

وفى الخراج لأبى يوسف خطبة بهذا المعنى إلا أنها أطول وأجمع رواها عن طلحة بن معدان قال :

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس لم يبلغ ذو حق فى حقه أن يطاع فى معصية الله ، وإنى لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ويعطى فى الحق ويمنع من الباطل ، وإنما أنا وما لكم كولى اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها : لكم على ألا أجبى شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ولكم على إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه : ولكم على ألا أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم : ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم (أحبسكم) فى ثغوركم ، وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الأمم يعمل فيه أقوام للآخرة ، يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ، ألا من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر : يأيها الناس إن الله عظم حقه فوق حق خلقه ، فقال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى

عنه فى إحدى خطبه أطيعونى ما أطعت الله فيكم . فرضى الله عن تلك النفوس السامية ما كان أعرفها للحق والعدل، وألزمها لشرعة الإنصاف مع الرعية .

يهتدى بكم ، فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فإذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فإن ذلك أبلغ فى جهاد عدوكم ، أيها الناس إنى أشهدكم على أمراء الأمصار إنى لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس فى دينهم ويقسموا عليهم فيئهم ويحكموا بينهم فإن أشكل عليهم شىء رفعوه إلى اه .

هذه الخطبة من أجمع خطبه ، لأنها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد وظيفته وتبين مقاصده وتنبىء عن إخلاصه فى خدمة المسلمين ، وشدته على الظالمين ورأفته بالمظلومين إلى غير ذلك مما يدركه القارىء من معانى هذه الخطبة الغراء فرضى الله عنه .

وخطب خطبة :

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

يأيها الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعا بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ، ولكنى عمر مهماً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربى المستعان فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده (تاريخ الطبرى) .

وخطب فقال :

إن الله عز وجل قد ولانى أمركم وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، وإنى أسأل الله أن يعيننى عليه وأن يحرسنى عنده كما حرسنى عند غيره ، وأن يلهمنى العدل فى قسمكم كالذى أمر به ، ولن يغير الذى وليت من خلافتكم من خلقى شيئاً إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شىء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولى ، أعقل الحق من نفسى وأتقدم وأبين

لكم أمرى فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا فى خلق فليؤذنى (١) فإنما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله فى سركم وعلانيتكم ، وحرماتكم ، وأعراضكم وأعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة (٢) ، وأنا حبيب إلى صلاحكم عزيز على عتبكم ، وأنتم أناس عامتكم حضر فى بلاد الله وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه ، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ومطلع على ما بحضرتى بنفسى إن شاء الله لا أكله إلى أحد ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله (تاريخ الطبرى) .

وخطب أيضا

فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم، أيها الناس إن بعض الطمع فقر وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون ، وأنتم مؤجلون فى دار غرور ، كنتم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحى، فمن أسر شيئاً أخذ بسريرته ومن أعلن شيئاً أخذ بعلانيته فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر ، فإنه من أظهر لنا شيئاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق (فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أيها الناس اطيبوا مثواكم وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم، ولا تلبسوا نساءكم القباطى فإنه إن لم

---

(١) أى فليعلمنى وهى من آذنه بالأمر أى أعلمه به .

(٢) الهوادة بالفتح الصلح والاختصاص بالميل .

يشف فإنه يصف (١) أيها الناس إنى لوددت أن أنجو كفافاً لا لى ولا على وإنى لأرجو إن عمرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله وألا يبقى أحد من المسلمين وإن كان فى بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله ولا يعمل إليه نفسه ولم ينصب إليه(٢) يوما وأصلحوا اموالكم التى رزقكم الله ولقليل فى رفق خير من كثير فى عنف، والقليل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر، والشهيد من احتسب نفسه وإذا أراد أحدكم بعيراً فليعمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره (تاريخ الطبرى) .

وخطب أيضا :

فقال: إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه ، فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه عليه ولم يجعلكم لشىء غيره ، وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ (٣) عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم فى البر والبحر ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرىء خاصة إلا لو قسم ماوصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم

---

(١) القباطى أثواب مشهورة وشف رق لحكى ماتحته ويصف لعله من الوصف أو من المواصف وهو أن يصفوا الشىء بعضهم لبعض

(٢) ولا يعمل إليه نفسه أى لايجهد نفسه إليه أى يأتيه بلا طلب ، ولم ينصب أى لم يتعب

(٣) أفاض

شكرها وفدحهم (١) حقها ، إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله فأنتم مستخلفون فى الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمثال أمة مستعبدة للإسلام وأهله يجزون لكم يستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباههم (٢) ، عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته فى كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعباً فليس لهم معقل (٣) يلجئون إليه ولا مهرب يتقون به ، قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم مع رفاغة العيش (٤) واستفاضة المال ، وتتابع البعوث وسد الثغور بإذن الله مع العافية الجليلة العامة ، التى لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام والله المحمود مع الفتوح العظام فى كل بلد ، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التى لا يحصى عددها ولا يستطاع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته ، واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفى مجالسكم مثنى وفرادى ، فإن الله عز وجل قال لموسى (أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض) فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتستريحون إليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ، ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأثبته بالله

(١) أثقلهم

(٢) قوله يجزون أى يعطون الجزية ، وكدائحهم أى سعيهم أو مكاسبهم ، ورشح الجباه عرقها

(٣) حصن وملجأ

(٤) رفاغة العيش سعته وخصبه

جهالة ، ولو كان هذا الذى استشلاكم (١) به لم يكن معه حظ فى دنياكم ، غير أنه ثقة لكم فى آخرتكم التى إليها المعاد والمنقلب ، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرياء أن تشحوا على نصيبكم منه وأن تظهروه على غيره قبله ، أما إنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ، ومن شاء أن يجمع له ذلك منكم فأذكركم الله الحائل بين قلوبكم إلا ماعرفتم حق الله فعملتم له وقسرتم أنفسكم على طاعته ، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولا نتقالها ووجلا منها ومن تحويلها فإنه لاشيء أسلب للنعمة من كفرانها ، وأن الشكر أمن للغير ونماء للنعمة واستجلاب للزيادة ، هذا لله على من أمركم ونهيكم واجب (تاريخ الطبرى) .

٩ — وخطب لما شيع جيش سعد بن أبى وقاص

إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال وصرف لكم القول ليحيى به القلوب ، فإن القلوب ميتة فى صدورها حتى يحييها الله ، من علم شيئاً فلينتفع به . وإن للعدل أمارات وتباشير فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين ، وأما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر بابا ، ويسر لكل باب مفتاحا ، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق (أى عنده) وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع فى ذلك أحداً ، واكتف بما يكفيه من الكفاف فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ، إنى بينكم وبين الله وليس بينى وبينه أحد وإن الله قد ألزمنى رفع الدعاء عنه فأنهوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع (٢) (تاريخ الطبرى)

---

(١) استشلاه دعاه لينجيه من ضيق أو هلاك

(٢) فى القاموس تعتعه أى تلتله وحركه بعنف أو أكرهه فى الأمر

١٠ — وسمع مرة أن نفراً يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على أن بيعة أبي بكر تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والأنصار فأراد عمر رضى الله عنه أن يبين لهم أن بيعة أبي بكر كانت فلتة وأن أهليته واستعداده وحرج الموقف الذي وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة ، فخطب فيهم هذه الخطبة التي رواها الشيخان فقال :

قد بلغني أن فلاناً منكم يقول لو مات عمر بايعت فلاناً فلا يغترن امرؤ أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، ألا وإنها كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها ، وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر وإنه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة وتخلفت الأنصار عنا بأجمعها في سقيفة بني ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكرا لنا الذي صنع القوم ، فقالا أين تريدون يامعشر المهاجرين قلت نريد إخواننا من الأنصار فقالا عليكم أن لا تقربوهم واقضوا أمركم يامعشر المهاجرين ، فقلت والله لنأتينهم . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا هم مجتمعون وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع ، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله وقال (أما بعد) فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة[1] منكم يريدون أن تختزلونا من أصلنا وتحضنونا من الأمر ، فلما سكت أردت أن أتكلم وقد كنت زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر ، وقد كنت أداري منه بعض الجد وهو كان أحلم مني وأوقر

---

(١) الدفة الجيش يدفون نحو العدو ، والاختزال : الاقتطاع ، وتحضنونا تكفوننا

فقال أبو بكر على رسلك فكرهت أن أغضبه وكان أعلم منى ، والله ماترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قالها فى بداهته وأفضل حتى سكت فقال .

أما بعد فماذكرتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم.فأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح ، فلم أكره مماقال غيرها وكان والله أن أقدم فتضرب عنقى لا يقربنى ذلك ، من ثم أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر فقال قائل من الأنصار أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير، يامعشر قريش وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت : ابسط يدك ياأبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار،أما والله ماوجدنا فيما حضرنا أمراً هو أوفق من مبايعة أبى بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نبايعهم على مالا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد .

١١ — وخطب فقال :

أيها الناس ماالجزع مما لابد منه ، وماالقطع فيما لا يرجى وما الحيلة فيما سيزول ، وإنما الشيء من أصله وقد مضت قبلنا أصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد أصله ، إنما الناس فى هذه الدنيا أغراض تنتضل[1] المنايا فيهم وهم نصف المصائب ، مع كل جرعة شرق وفى كل أكلة غصص لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً إلا بهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم فأين المهرب مما هو كائن ، وإنما

---

(١) فى أساس البلاغة وخرجوا الى النضال وهم يتناضلون وينتضلون : ومعناه يترامون ويتبارون .

ينقلب الهارب فى قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً وأكثر جنبة الجانب ، جعلنا الله وإياكم من المتقين (مفتاح الأفكار) .

١٢ — وخطب فقال :

أيها الناس : إنه أتى علىّ حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنه إنما يريد به الله وما عنده إلا وقد خيل إلىّ أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم ، فإنا كنا نعرفكم إذ الوحى ينزل وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فقد رفع الوحى وذهب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنما نعرفكم بما أقول لكم ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيرا وأثنينا به عليه ، ومن أظهر لنا شرا ظننا به شراً وأبغضناه عليه ، اقدعوا[1] هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا (مفتاح الأفكار) .

١٣ — وخطب فقال :

إنما الدنيا أمل مخترم[2] وأجل منتقص وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ، ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرأً فكر فى أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه ، بئس الجار الغنى يأخذك بما لا يعطيك من نفسه فإن أبيت لم يعذرك ، إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة ، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الأفكار)

---

(١) قوله اقدعوا أى كفو ، وقوله نفس طلعة تكثر التطلع إلى الشىء .

(٢) مخترم أي منتقص وقوله منتقض من الانتقاض وهو التراجع والانتكاث .

١٤ — خطبته بالجابية عند أوبته من الشام إلى المدينة :

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، ألا إنى قد وليت عليكم وقضيت الذى على فى الذى ولانى الله من أمركم إن شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا مالديكم بجندنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج وبوأناكم ووسعنا عليكم مابلغ فيكم وما قاتلتم عليه من شأمكم وسمينا لكم أطماعكم وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومعاونكم ، فمن علم علم شىء ينبغى العمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله (تاريخ الطبرى)

— ١٤ —

مقتل عمر

ذكر أرباب السير والمحدثون عن مقتل عمر أن أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة شكا إليه ارتفاع الخراج الذى ضربه عليه مولاه المغيرة ، وطلب إليه تخفيفه فمن قائل إنه وعده خيراً ، وعزم أن يلقى المغيرة فى تخفيف الخراج عنه ، ومن قائل إنه سأله كم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد ، قال فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال فتوعده الغلام وانصرف ، فقال عمر توعدنى العبد .

قالوا ولما انصرف عمر إلى منزله جاءه من الغد كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين ، اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام ، قال وما يدريك قال أجده فى كتاب الله عز وجل التوراة ، قال عمر الله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ، قال اللهم لا ولكنى أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك ، قال وعمر لايحس وجعاً ولا ألماً ، فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان ، وهكذا مازال يجيئه كل يوم إلى

مساء اليوم الذى قتل فى صبيحته . وممن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب هذا ابن جرير الطبرى فى تاريخه رواه عن المسور بن مخرمة .

وروى فى أسد الغابة عن أبى رافع أن أبا لؤلؤة لما طلب إلى عمر ما طلب قال له عمر اتق الله وأحسن إلى مولاك ، ومن نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه أن يخفف عنه فغضب العبد ، وقال وسع الناس كلهم عدله غيرى فأضمر على قتله ، فاصطنع له خنجراً له رأسان وشحذه وسمه ثم أتى به الهرمزان فقال كيف ترى هذا قال إنك لاتضرب به أحداً إلا قتلته ، قال فتحين أبو لؤلؤة عمر فجاءه فى صلاة الغداة حتى قام وراء عمر ، وكان عمر إذا أقيمت الصلاة يقول أقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول ، فلما كبر وجأه (طعنه) أبو لؤلؤة فى كتفه ووجأه فى خاصرته وقيل ضربه ست ضربات فسقط عمر ، وطعن أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلا (ممن حاولوا القبض عليه) فهلك منهم سبعة .

وفى رواية أن أحد المسلمين ألقى على أبى لؤلؤة برنساً ليتمكن من القبض عليه ، فلما أحس أنه مأخوذ انتحر بخنجره : وفى رواية الطبرى وغيره أن عمر لما سقط قال أفى الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا ، قال تقدم فصل بالناس ، فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فدعا بعلىّ وعثمان والزبير وسعد وأمرهم أن يتشاوروا فى أمر الخلافة ، وقال لهم انتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أحدكم وليشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الأمر شىء ، قوموا فتشاوروا وليصل بالناس صهيب ، ثم قال لأبى طلحة الأنصارى يا أبا طلحة إن الله أعز بكم الإسلام فاختر خمسين رجلا من الأنصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم ، وقال للمقداد بن الأسود إذا وضعتمونى فى حفرتى اجمع هؤلاء الرهط وقم على رءوسهم فإن اجتمع خمسة على رأى واحد

وأبى واحد فأشدخ رأسه بالسيف ، وإن اجتمع أربعة ورضوا وأبى الاثنان فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله ابن عمر ، فإن لم يرضوا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

وفى المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال : (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) قد أنبأتك أنك شهيد ، فقلت من أين لى الشهادة وأنا فى جزيرة العرب . وفى تاريخ الطبرى إن المهاجرين والأنصار جعلوا يدخلون على عمر لما طعن فيسلمون عليه ، ويقول لهم أعن ملأ منكم كان هذا ، فيقولون معاذ الله ، ودخل فى الناس كعب فلما نظر إليه عمر أنشأ يقول :

فأوعدنى كعب ثلاثاً أعدها ولاشك أن القول ماقال لى كعب
ومابى حذار الموت إنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

وفى رواية أبى جعفر الطبرى أن عبيد الله بن عمر قتل بأبيه ابنة أبى لؤلؤة وقتل جفينة رجلا نصرانياً من أهل الحيرة أتى به سعد بن أبى وقاص ليعلم الناس الكتابة ، وقتل الهرمزان ، وإن سبب قتله للاثنين الأخيرين أن عبد الرحمن بن أبى بكر قال غداة قتل عمر ، رأيت عشية أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون فلما رأونى ثاروا ، وسقط منهم خنجر له نصابه فى وسطه وهو الخنجر الذى ضرب به عمر فقتلهم عبيد الله ، وقال والله لأقتلن رجالا ممن شرك فى دم أبى يعرض بالمهاجرين والأنصار ، فبلغ ذلك صهيباً فبعث إليه عمرو بن العاص ، فما زال به حتى أخذ منه السيف ، ثم ثاوره سعد بن أبى وقاص وأخذه وحبسه فى داره .

هذه الروايات التى جاءت فى قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومن

أمعن فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكثه عهد المسلمين قبل أسره المرة بعد المرة ، وكيف احتال للخلاص من القتل ثم إذا أضاف إلى هذا ما ذكرناه فى أخبار نهاوند من أن أبا لؤلؤة فارسى الأصل من نهاوند وقد كان أسره الروم ثم أسره منهم المسلمون ، ولما قدم سبي نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى ، وقال له أكل عمر كبدى وإن جفينة نصرانى وإن كعب الأحبار يهودى حديث عهد بالإسلام وأن مراجل الحقد على عمر وتدويخه لبلادهم وقهره لهم ولملوكهم كانت تغلى فى صدور هؤلاء الدخلاء فى الدين اتضح لديه أن قتل عمر لم يكن إلا عن مؤامرة بين أولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبد الرحمن بن أبي بكر وإن السبب الظاهر الذى اختلقه أبو لؤلؤة تحته أسباب أهم وأعظم وهى الغيظ والحقد على المسلمين ، وإن كعباً كان واقفاً على أمر هذه المؤامرة فأنذر عمر بالقتل قبل ثلاثة أيام من قتله ، وإلا فقوله لعمر إنه رأى خبر قتله فى التوراة كلام غير معقول يرفضه العقل بتاتا وليس عليه دليل ، كما أنه ليس لكعب أن يعلم الغيب وإنما علمه عند الله ، ومن المحتمل ألا يكون لكعب الأحبار يد فى هذه المؤامرة إلا أنه علمها وأراد أن يعرض بذكرها لعمر رضى الله عنه بالكناية تحذيراً له ، ولم يشأ أن يصرح له بذلك لأمر لا نعلمه ، إلا أن عمر رضى الله عنه لم يعبأ لسلامة صدره بقوله ، ولم يشدد عليه فى السؤال وربما لم يخطر له ذلك الأمر فى بال ، لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وإنصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعربيهم وعجميهم ، ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمناً غائلة الناس وغدر الغادرين وخصوصاً عمر بن الخطاب الذى يحكى أنه جاءه مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده نائماً على الأرض متوسداً الحصى فقال : لله أنت عدلت فأمنت فنمت ، ولكن قدر على المسلمين أن يغفلوا عن مضرة وجود أمثال أولئك الدخلاء فى المدينة ، فى مثل عصر عمر الذى كانت فيه جيوشه تضرب فى أنحاء

الأرض وتثل عروش الملوك وتزعزع أركان الممالك وتشـــيد بنيان الإسلام ، وهذا كله مما يحفظ قلوب الأعداء ويطوى جوانحهم على دغل ويستدعى الانتباه لمثل أبى لؤلؤة والهرمزان وجفينة وأمثالهم من الدخلاء ، ولا ينبغى أن يحسن بهم الظن إلا مع الاحتياط والتحذر ريثما يتناسون ثأرهم وتضعف فى نفوسهم أسباب الضغن ويسكنون إلى سلطان المسلمين ويألفون حكم الإسلام ويوثق بإخلاصهم فى الطاعة وأمانة الجوار ، هذا مع أن عمر رضى الله عنه كان يكره وجود الأعاجم فى المدينة فلا ندرى لهذا السبب أم لغيره ، فقد أخرج فى المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لأمراء الجيوش لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً جرت عليه المواسى ، فلما طعنه غلام المغيرة قال ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً فغلبتمونى ، فربما كان على علم وبينة مما يبطنون إلا أنه لم يظن أنهم يجرءون عليه ما دام قائماً فيهم وفى كل الرعية بالقسط ، هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلنى فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة : قال الصنع : قال نعم : قال قاتله الله لقد أمرت به معروفا فالحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام ، ولما حمل إلى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكأنه لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، وأما هو رضى الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ما هو معروف به فى حال الشدة والرخاء ، وكان أول همه النظر فى أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعده ، فرأى ورأيه الحق أن يتركها شورى بين النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، ففعل ، وبلغ به الحرص على دفع الفتنة ، وتعجيل نصب الخليفة بعده ، أن أمر المقداد بما أمر كى لا يكون بينهم فتنة وإن كانت فأن تقمع بالسيف .

وفى المناقب عن ابن عمر أن عمر دعا بطبيب ينظر فى جرحه فجاءه

بطبيب من الأنصار من بنى معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض ، فقال له الطبيب يا أمير المؤمنين اعهد : فقال عمر صدقنى أخو بنى معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك : فبكى عليه القوم حين سمعوا فقال لا تبكوا علينا من كان باكياً فليخرج ، ألم تسمعوا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء أهله عليه .

وفيه عن جعفر بن محمد : قال لما طعن عمر اجتمع إليه البدريون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس اخرج إليهم فسلهم عن ملاءمتكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى قال فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم لا والله وَلَوَدِدْنَا أنْ زاد الله فى عمرك من أعمارنا .

وفى العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب فى أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس : قال لئن لم يكن علىّ اليوم ليكونن بعداليوم ، وإن للحياة لنصيباً من القلب وإن للموت لكربة، وقد كنت أحب أن أنجى نفسى وأنجو منكم ، وما كنت من أمركم إلا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى أن يموت دونها فهو يركض بيديه ورجليه ، وأشد من الغريق الذى يرى الجنة والنار وهو مشغول ، ولقد تركت زهرتكم كما هى ما لبستها فأخلقتها ، وثمرتكم يانعة فى أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت إلا لكم وما تركت ورائى درهما ما عدا ثلاثين أو أربعين درهما ، ثم بكى وبكى الناس معه ، فقلت والله يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وهو عنك راض ، وإن المسلمين راضون عنك : قال (أى عمر) المغرور والله من غررتموه ، أما والله لو أن لى ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع .

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طعن عمر بن الخطاب قيل له يا أمير المؤمنين لو استخلفت : قال إن تركتكم فقد ترككم من هو خير

منى ، وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير منى ، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ، فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إن سالما ليحب الله حباً لو لم يخفه ماعصاه قيل له فلو أنك عهدت إلى عبد الله فإنه له أهل فى دينه وفضله وقديم إسلامه قال بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لى ولا علىّ ، ثم راحوا فقالوا يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال : قد كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أولى رجلا أمركم أرجو أن يحملكم على الحق وأشار إلى على بن أبى طالب ، ثم رأيت ألا أتحملها حياً ولا ميتاً فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم إنهم من أهل الجنة ، وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد ابن زيد ، وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلا فإذا ولوكم والياً فأحسنوا موازرته (أى معاونته) فى حديث طويل سيأتى معنا ما هو بمعناه فى قصة الشورى إن شاء الله .

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف فى منصب الخلافة الرفيع ، حتى إن عمر لم يقبل أن يتحمل مسؤليته بعد الموت كما تحملها فى الحياة ، وإنما يعرف هذه المسئولية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضى الله عنه وإخوانه من الخلفاء الراشدين .

أخرج فى أسد الغابة عن عمرو بن ميمون فى حديث طويل أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال لابنه ياعبد الله بن عمر ، انظر ماعلىّ من الدين فحسبوه ، فوجدوه ستةوثمانين ألفاً قال إن وفى له مال آل عمر فأدوه من أموالهم وإلا فسل فى بنى عدى ، فإن لم تكف أموالهم فسل فى قريش ، ولا تعدهم إلى غيرهم فأدعنى هذا المال وانطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر

السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم المؤمنين أميراً ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فسلم (أى عبد الله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكى ، فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه : فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرن به اليوم على نفسى ، فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال عمر ارفعونى ، فأسنده رجل إليه فقال مالديك قال الذى تحب قد أذنت : قال الحمد لله ما كان شىء أهم إلىّ من ذلك فإذا أنا قبضت فاحملونى ، ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين .

روى أنه لما ثقل عمر قال لابنه عبد الله ضع خدى على الأرض فوضعه على الأرض فجعل يقول ويلى وويل أمى إن لم يغفر لى ربى ، ثم مات . ولما توفى صلى عليه فى المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب ، وكان تقدم قبل ذلك علىّ وعثمان للصلاة عليه ، فقال عبد الرحمن لا إله إلا الله ما أحرصكما على الإمرة أما علمتما أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب .

قال فى أسد الغابة روى أبو بكر بن إسماعيل بن محمد بن سعد أنه قال طعن عمر يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين ، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوماً ، قال : وقال عثمان بن محمد الأخنسى هذا وهم توفى عمر لأربع ليال بقين من ذى الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة .

وتوفى عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل أقل والأول أصح الأقوال فى عمره .

وصيته لمن يخلفه :

أخرج ابن الجوزى وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر أنه قال : دفع إلىّ عمر كتاباً فقال إذا اجتمع الناس على رجل فادفع إليه هذا الكتاب واقرأه منى السلام فإذا فيه .

أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الأولين (الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، أن يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً (الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) إلى قوله تعالى : المفلحون : أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشركوا فى الأمر ، وأوصيه بذمة[1] الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم (أى يحميهم) اهـ .

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم نقية طاهرة ، بعد أن فتح الممالك ورفع منار الإسلام ، وبسط بساط العدل وبث روح الجد والنشاط فى العرب ، وأسس لهم ذلك الملك العريض وفل بهم جيوش فارس والروم ، ورباهم على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة ، كما أمر به الإسلام وقررته شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية من سائر الملل ، ودخل الأمم فى طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة لم يكونوا يعهدونه ، ولم يكن لأسلافهم أن يروه ، وبلغ به الحرص على ذلك البذار الطيب الذى بذره فى المسلمين ، أن أوصى عند آخر نسمة

(١) وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتابيون وكل من رضى بدفع الجزية للمسلمين فصار ذمة له مالهم وعليه ماعليهم .

من حياته بتلك الوصية الغراء التى تدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والأخلاق البارة التى اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين .

لما توفى عمر أكثر الشعراء من مراثيه فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجه وغيرهما .

صفته :

قال فى أسد الغابة كان عمر أعسر يسراً يعمل بكلتا يديه ، وكان أصلع طويلا قد فرع[1] الناس كأنه على دابة ، وقال الواقدى كان عمر أبيض أمهق[2] تعلوه حمرة يصفر لحيته ، وإنما تغير لونه عام الرمادة لأنه أكثر من أكل الزيت وحرم على نفسه السمن واللبن حتى يخصب الناس : وقال بعضهم إنه كان أسمر شديد السمرة ، وهو الأكثر عند أهل العلم .

—١٥—

ولده وعماله

ولده :

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم : عبد الله ، وحفصة ، وأمهما : زينب بنت مظعون : وعبيد الله (وهو الذى قتل الهرمزان وجفينة) وأمه : مليكة بنت جرول الخزاعية : وعاصم وأمه : جميلة بنت عاصم بن ثابت حمى الدبر : وفاطمة وزيد وأمهما : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب : ومجير واسمه عبد الرحمن : وأبو شحمة (وهو الذى حده أبوه فى الخمر فمات) واسمه أيضاً عبد الرحمن : وبنات أخرى .

---

(١) علاهم . (٢) الأبيض لاحمرة فيه .

وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبد الله وعبيد الله وعاصم وبجير وعقب بجير هذا بادوا ولم يبق منهم أحد .

عماله :

كان عماله على الأمصار سنة ٢٣ أى السنة التى توفى بها على مكة نافع ابن عبد الحارث الخزاعى ، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفى ، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة ، وعلى البصرة أبو موسى الأشعرى . وعلى مصر عمرو بن العاص ، وعلى دمشق معاوية بن أبى سفيان ، وعلى حمص عمير ابن سعد ، وعلى البحرين وما حولها عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وعماله فى الحرب من علمنا من القواد الذين مر ذكرهم قبل ، وكاتبه زيد بن ثابت ، وكتب له معيقيب أيضاً ، وعلى بيت ماله عبد الله بن أرقم ، وحاجبه يرفأ مولاه .

— ١٦ —

الحالة الاجتماعية على عهده

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبى بكر رضى الله عنهما إذ توطد على عهد الثانى للمسلمين الملك ، وشيدت دعائم الدولة ، وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بأمور الدولة ، والانغماس فى الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر فى التاريخ بأنها أعظم الأمم ، وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع أنها بادية الظهور وتنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث فى أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ ، حيث اندفعت هذه الأمة بقوة الجامعة الإسلامية والاتحاد القومى على أطراف الممالك المجاورة لها ، وهى فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطانها وتغلغلت بجيوشها

فى أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قادتها ورؤساءها وألجأت للانكماش إلى أطراف البلاد الشرقية ، والتخلى عن الملك أسرة الأكاسرة من ملوكها وأنقصت من الثانية أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة ومصر ظلها وهى تتقدم فى داخل بلادها وتتهدد بالهجوم عاصمة الإمبراطورية .

تأصلت فى تلك الممالك جذور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التى كان يقاتل دونها أسلافهم الرومان ، ويدافعون عنها يد الإمبراطرة والملوك وخنع الفرس للأكاسرة ، واستعبدوا لأشراف البلاد ، فألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتى فى الحياة ، فجاءهم العرب وقد امتزج فى دمائهم حب الحرية حتى ما يطيقون علو أمير المؤمنين عليهم واستئثاره بشىء من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر فنفثوا فى روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتى والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا أيديهم فى أيدى الغالبين علامة الشكر والوفاء ، وشعروا حينئذ بأنهم بشر لا ينحطون فى الحقوق العامة عن مرتبة الأمراء ، وبلغ بهم ذلك أن لما أهين رجل مصرى من ابن أمير مصر عمرو ابن العاص شخص إلى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه منه ، ولم يعد إلا بعد أن استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه إلى المدينة وأقادا ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق إيراده فى غير هذا المحل ، وما نعلم أن قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوماً مبلغها فى ذلك العصر وتمتعوا بعدل مثل ذلك العدل ، وهو حال ما أهنأه لتلك الأمم يومئذ من حال رفعهم من حضيض الذل والعبودية إلى ذرى العز والحرية وبشرهم بعصر جديد وسعادة ما عليها مزيد .

خالط العرب هذه الأمم ودال إليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا بلزوم الحياة المدنية للأمم الغالبة ، وليس لديهم من

ذلك إلا الاستعداد الفطرى لقبول الخير والشر والشرع الإلهى الذى دعاهم إلى الخروج من ظلمات البداوة ، فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم فى العادات وبدءوا يبارونهم فى مضمار الحياة ، وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم فى الأمور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ، ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ، ثم تطرقوا من ذلك إلى الأمور السياسية والإدارية فوضع الخليفة عمر رضى الله عنه التاريخ ودون الدواوين على نحو ما هو موجود فى الدولتين الرومية والفارسية ، ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الأعمال وانتقاء العمال ثم فرض الأعطيات وقرر مصرف الفىء فى غير سرف ولا تقتير ، ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا إجحاف فى حقوق الرعية ولا غبن للدولة ، فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى فى أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين ، وخطوا خطى خفيفة إلى ميدان الراحة والنعيم مع الأخذ على الشكائم والتخوشن فى المأكل والملبس والتوسط فى العيش والقصد فى الإنفاق والإمساك عن البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد ، إذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب كما رأيت فى باب سياسته مع العمال .

هذا من وجه ، ومن وجه آخر فإن عمر رضى الله عنه لم يدع للعرب بعد إذ دفع بهم فى غمار الحضارة وقذف بهم إلى ميدان الحروب وقتاً للإخلاد إلى الراحة والإيواء إلى ظل التنعم ، والسكون تحت كنف الأمصار ، بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار المغانم عن التمتع بها ، ريثما يفل من غرب الدول المجاورة ، ويأمن غائلة الأمم المغلوبة ، وكان له بهذا مآرب أخرى أيضاً ، وهى إشغال العرب فى الحرب ، وزجهم فى مضمار

الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة ، وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء إلى العصبية الداعية إلى الشقاق والفرقة ، يدلك على هذا ما كتبه لأبى موسى الأشعرى فى الكتاب عدد ٦ الذى جاء فى باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادى بالعصبية بالسيف .

استفاد العرب فى حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم للفتح وتفرقهم فى أنحاء الممالك وتعجلهم فى ذلك الظهور قبل تأصل الدين فى عامتهم ، نشأ عنه بعد تشويش فى الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتتحة مع دخول أهلها فى الإسلام ، وإنما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية منصبغة بصيغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين ، وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الأعاجم من المسلمين ، بما لا محل لتعداده وذكره فى هذا المقام ، ومنه سرعة تقهقر الأمة العربية بمقدار سرعة تقدمها فى الحضارة والمدنية إلى غير ذلك من الأمور التى ربما يمر معنا ذكرها فى هذا الكتاب ، ومع هذا فإذا نظرنا من جهة أخرى إلى سياسة عمر فى تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة فى حينها ، وذلك لأن دفعه للقوم إلى الفتح فى إبان الظهور وحين التحمس مهد لهم السبيل لقهر الأمم وتدويخ الممالك ، لا سيما ، وأنه كان من ورائهم جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الأمم ، ويغل أيديهم عن التطاول إلى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسنة الناس وحماية أهل الذمة ، حتى كان من ذلك أن ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع الأقوام وبث دعوة الإسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج لإباء لحكمهم أو تظلما من سياستهم ، مع حداثة عهدهم فى الفتح وقلة الحامية منهم بين ظهرانى الشعوب الخاضعين لسلطانهم الآمنين فى أوطانهم .

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب ، واستفتحوا أغلاق الكنوز وملكوا ما ملكوا من البلاد، ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة إلا خطى قليلة إلى الأمام ، فكانوا وسطاً فى المعيشة فى كل الأمور، ذلك لأن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقى ، ويحملهم على التوسط فى العيش، فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً ، اللهم إلا الأمراء والعمال فإنه كان يحملهم على طريقته فى التقشف وشظف العيش لحكمة ذكرناها فيما سبق من هذا الكتاب ، يدلك على هذا كتابه إلى أبى موسى الأشعرى الذى يقول له فيه : بلغنى أنه فشت لك ولأهلك هيئة فى المطعم والملبس ، وينصحه بالتزام القصد . وتأنيبه لسعد بن أبى وقاص على أن سمى داره فى البصرة قصر سعد ، وغير هذا من أخباره الكثيرة مع العمال، ومنها شرطه عليهم أن لا يأكلوا نقياً ولا يقربوا برذونا الخ ماجاء فى باب سياسته مع العمال ، وأما عامة المسلمين فكان لا يريدهم على هذا الحال ولا يمنعهم من التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات ، بل يرغب حملهم على طريق الوسط ، وحسبك دليلا على هذا كتابه إلى أبى عبيدة بن الجراح الذى يلومه فيه على رحيله من أنطاكية لطيب هوائها وتنعم المسلمين فيها .

وأما أنه كان يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقى فيدلك عليه ماروواه عامة أهل السير أن الأحنف بن قيس قد وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة بكلام دل عمر على سعة عقله ، فاحتبسه عنده حولا وأشهراً ثم سرحه ، وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه قوة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبسه عنده ، ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك ، وإنما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقى التدريجى حتى فى المدارك على أن مخالطتهم الأمم وسكنى الأمصار غير ولا شك من أخلاقهم وألان من طباعهم ، وزاد فى معارفهم

ولا يعقل أن قوما كانوا يظنون الكافور ملحاً أيام فتح المدائن تصير إليهم كنوز الأرض بعد ذلك ويسوسون الأمم إلا باستعداد عظيم فى قوى المدارك كمن فى نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الأمم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بهما أهل الأمصار فى ذلك العصر ، وفى كل عصر فهم إذن كانوا أحسن أخلاقا وأسد عملا على سذاجة فطرتهم وجدة إسلامهم ممن حاربوهم من الأمم ، وهذا شأن لا ينكر على مثل عصر عمر رضى الله عنه الذى دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول السياسة وتهذيبها على وفق ما جاء به القرآن من آيات الحث والترغيب فى أسباب الظهور على الأمم ، يدلك على هذا مارواه الطبرى فى أخبار القادسية أن رستم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ : أكل عمر كبدى أحرق الله كبده علم هؤلاء حتى علموا ؛ وفيه دليل على أن العرب لم يكونوا قبل الإسلام فى نظر الفرس شيئاً مذكوراً ، لبعدهم عن أسباب الحضارة وإغراقهم فى الجهالة ، ولما اجتمعوا على كلمة الإسلام وانكفئوا على مملكتى فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر رضى الله عنه بدولتى الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب ، وبعد نظره فى السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الأمم ، ولهذا قال رستم ماقال ولا جرم فلإخلاص الراعى لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم فى تسودهم على الأمم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس .

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حداثة عهد أهلها فى تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل فى قالب الجد والاستقامة والعزيمة ، وتظهرها لديك فى مظهر النهوض إلى ارتقاء قمم المجد التى انتهى إليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد على جيلين ، وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء سفر شاق المتلذذ بجنى

ثمرات الجد والنشاط والعمل ، وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط إلى فتور وإهمال ، وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن أن فقدنا كل حول وقوة إلا من السفاسف والأوهام ، وكل اشتغال إلا بالأباطيل وكل سعى إلا وراء الرتب والألقاب التى أضحكت علينا الأمم ، وأسرعت ببقية الأخلاق الفاضلة فينا إلى هوة العدم ، والغربيون يبعثون إلينا كل يوم بنذير من الرهبوت والقوة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الإسلامية والديار الشرقية ، ومرشد إلى كيف تكون حياة الأمم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً إلا فى تهاتر ولا يحسون منا حركة إلا إلى تدابر قد امتزج الاستعباد فى نفوسنا حتى ما نطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التدرج إلى السيادة والسعى إلى المجد وهى حالة يا الله تمزق غشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فواغوثاه وواعمراه .

* * *

عمال عمر وقواده

أبو عبيدة بن الجراح

حاله فى الجاهلية

نسبه وأصله

اسم أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة ابن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ، اشتهر بكنيته ونسبه إلى جده فيقال أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمين هذه الأمة وأحد العشرة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض .

روى ابن عساكر أن أمه أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن عامرة ابن عميرة وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وأدركت أمه الإسلام وأسلمت .

وأخرج ابن عساكر فى تاريخه عن محمد بن سعد : قال فى الطبقة الأولى من بنى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة — وهم آخر بطون قريش — أبو عبيدة بن الجراح .

سيرته فى قومه ومكانته عندهم

كان أبو عبيدة محترما فى قومه مستشاراً فيهم معروفاً بالرأى والدهاء ، وكان يقال كما روى ابن عساكر فى تاريخه « داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح » ولم نقف على زيادة تفصيل من سيرته فى الجاهلية فنحن نكتفى عن ذلك بسيرته فى الإسلام ، فإن فيها مايغنى ، وهى المطلوب فى كتابنا هذا .

إسلامه وصحبته

إسلامه

أبو عبيدة قديم الإسلام ومن السابقين الذين كشف عن بصائرهم حجاب الغفلة وانتزعوا من أعماق النفوس آثار الجهل والجاهلية ، مذ دعاهم داعي الحق إلى التوحيد ، واستبان لهم طريق الخلاص من ربقة التقليد ، فقد أخرج الحافظ بن عساكر فى تاريخه عن يزيد بن رومان قال : انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سليمة بن عبد الأسد وأبو عبيدة بن الجراح ، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا فى ساعة واحدة ، وذلك قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم ،وقبل أن يدعو فيها . وكان إسلامهم كما فى بعض الروايات بدعوة أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين .

صحبته

أسلم أبو عبيدة مخلصاً لله إسلامه فكان قوياً فى دينه صادقاً فى صحبته ، متفانياً فى حب نبيه حتى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمين هذه الأمة .

أخرج الحافظ الجزرى فى أسد الغابة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » : وهذا مقام من الثقة لا يبلغه عند الرسول صلى الله عليه وسلم إلا من عرف حقيقة دينه واستمسك بعروته وأخلص الله فى سره وعلانيته ، ولقد كان يغبطه على هذه المنزلة كثير من كبار الصحابة رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

أخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث لنا رجلا أميناً : فقال : « لأبعثن إليكم أمينا حق أمين » : فاستشرف لها الناس (أى تطلعوا) فبعث أبا عبيدة بن الجراح .

وفى رواية جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا يا رسول الله ابعث معنا أميناً حق أمين فقال رسول الله « نبعث معكما رجلا أميناً حق أمين فاستشرف لها أصحاب محمد قال « قم يا أبا عبيدة » . وإنما نال أبو عبيدة هذه الحظوة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لصدقه واتباعه أمره وعظيم حبه وطاعته له .

ومن أعظم ما يؤثر عنه من ذلك ما رواه الحافظ الجزرى فى أسد الغابة وابن عساكر فى تاريخه أن أبا عبيدة لما كان ببدر يوم الوقعة جعل أبوه (وكان مع المشركين) يتصدى له ،وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر أبوه قصده قتله أبو عبيدة ، فأنزل الله تعالى (لا تجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم وأبناءهم) الآية . هذا غاية ما يؤثر من صدق إيمان أصحاب نبى بنبيهم ، وإشراب قلوبهم بغض الشرك وتيقنهم أن الإسلام فوق العواطف وآية التوحيد تمحو عن صفحات القلوب حتى صورة الآباء إذا لم تشاكل بطهارة الإيمان الأبناء .

لا جرم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع أبا عبيدة بأمين هذه الأمة، إلا لعلمه بصدق إيمانه وكمال يقينه، لهذا روى أنه صلى الله عليه وسلم أنه طعن فى خاصرة أبى عبيدة وقال : إن ههنا خويصرة مؤمنة : رواه ابن عساكر عن جابر . وروى عن موسى بن عقبة قال : قال أبو بكر الصديق : سمعت رسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قالهن لى أحب إلى من حمر النعم : قالوا وماهن يا خليفة رسول الله قال(١) كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو عبيدة فأتبعه رسول الله صلى الله

عليه وسلم بصره ثم أقبل علينا فقال : « إن هىنا الكتفين مؤمنتين » (٢) وخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتحدث فسكتنا فظن أننا كنا فى شىء كرهنا أن يسمعه فسكت ساعة لا يتكلم ، ثم قال : « مامن أصحابى إلا وقد كنت قائلا فيه لابد إلا أباعبيدة » (٣) وقدم علينا وفد نجران فقالوا : يامحمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه : فقال «والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين » قال أبو بكر : فما تعرضت للإمارة غيرها ، فرفعت رأسى لأريه نفسى» فقال قم يا أبا عبيدة » فبعثه معهم : وشهد أبو عبيدة المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ونزع الحلقتين اللتين دخلتا فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغفر يومئذ فانتزعت ثنيتاه فحسنتافاه وصار أهتما فما رؤى قط أحسن منه هتما وبالجملة قد صحب أبو عبيدة رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم خير صحبة .

وكان كما روى المحدثون من علية أصحابه وأعاظم المقربين منه ولاقى من قريش فى صحبته ما لاقاه أهل الهجرة وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، ثم هاجر إلى المدينة ، وكان ملازما لرسول الله صلى الله عليه وسلم شديد التمسك بأوامره حريصا على رضاه فتخلق بأخلاقه ووقف على حقيقة دينه فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالإسلام والحنو على المسلمين على جانب عظيم ولو بقى حياً لولى الخلافة لما اتصف به من حسن الشيمة وكرم الأخلاق والتقوى والعدل، فقدأخرج ابن عساكر عن عمر بن الخطاب أنه قال: لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت ، فإن سئلت عنه قلت استخلفت أمين الله وأمين رسوله .

ثم كان له بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم من الأثر فى فتوح الشام ما بسطناه للقارىء فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وما سنتلوه عليه مجملا فيما يلى إن شاء الله .

حروبه وفتوحاته

بالشام

علمنا مما تقدم أن أبا بكر رضى الله عنه ولى أبا عبيدة قيادة جيش من الجيوش التى وجهها إلى الشام ، وأمره بقصد حمص وأنه ولى قيادة الجيش العامة لما استخلف عمر رضى الله عنه ، وعزل عن إمارة الجيش خالدبن الوليد ، وقد اختلف المؤرخون فى هل ولى الأمارة وهو فى اليرموك أو على دمشق ، وذكرنا رأينا فى هذا الخلاف ، فلا حاجة هنا للمزيد ، وقد فصلنا ثمة أخبار حروبه فى الشام وفتوحه فيه ، وإنما أحببنا أن نورد هنا مجمل فتوحه لعلاقة ذلك بترجمة هذا الصحابى الجليل والبطل الكبير فنقول :

أول فتح عظيم كان لأبى عبيدة فتح دمشق التى فتحها بعد حصار سبعين ليلة وكان فتحها من جانبه صلحا ومن جانب خالد بن الوليد عنوة وكان هو على دمشق يسرح الجنود وعليها الأمراء لكى يشغلوا جيوش الروم عن إمداد دمشق كما ذكر فى محله من هذا الكتاب حتى تيسر له فتحها بعد عناء شديد لقيه القواد المحاصرون معه لدمشق ، وبعد فتح دمشق واستخلف عليها أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان ، ثم سار إلى فحل من أرض الأردن وفل هناك جيوش الروم وأتى بيسان وطبرية وحاصرها فصالحا على صلح دمشق ، ثم بعد أن وجه يزيد بن أبى سفيان إلى سواحل دمشق سار إلى حمص عن طريق بعلبك ، وقدم إليها السمط بن الأسود الكندى وقدم خالداً إلى البقاع ، ونزل أهل بعلبك إلى أبى عبيدة فصالحوه وكتب لهم بذلك كتابا ، ثم ذهب إلى حمص فافتتحها أيضا ثم رجع من هناك إلى اليرموك أو أجنادين لنجدة عمرو بن العاص ، ثم سار إلى حماه فصالحه أهلها ، ثم سار

إلى حلب وقدم خالداً إلى قنسرين وعبادة بن الصامت إلى اللاذقية ، ثم ترك حصار حلب وسار إلى حاضرها فافتتحه ثم صار إلى إنطاكية وجيوشه تحاصر حلب فكتب إليه عمر بالرجوع إلى حلب وإتمام الفتح ، فعاد وفتحها ، ثم رجع إلى إنطاكية فحاصرها وفتحها صلحا ، ثم سير جيوشه تضرب فى الشمال والشرق حتى أتمت فتح سورية ، وبلغت الفرات شرقا وآسيا الصغرى شمالا ، وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا ، ورتب فيها المرابطة والجيوش ، ونظم شؤون البلاد ، وبسط على أهلها جناح الرأفة والعدل وعاملهم بما اشتهر عنه من اللين والأناة والرفق ، حتى بات سلطان المسلمين أحب إليهم من سلطان الروم ، فكانوا عونا لهم على الفتح ونصراء على العدو كما رأيت ذلك فى أخبار فتح حمص من سيرة عمر بن الخطاب ، وإنما كان هذا ببركة اختيار عمر بن الخطاب للإمارة هذا الرجل العظيم وأمثاله من الأمراء والعمال الذين كان يوليهم أمور البلاد ويوسد إليهم قيادة الجيوش ، ومن لنا بمثلهم ومثله فى هذا العصر بل وفى كل عصر .

كلمة فى العمال

اعلم أن عمران الممالك وترقى الدول يتوقف على أمرين عظيمين هما صبغة الحكومة وأمانة الرجال .

فالحكومة إذا كانت ذات صبغة دستورية أى حكومة مقيدة برأى الأمة خاضعة لسلطة الشورى سعدت بها المملكة لغلبة الأمانة فى رجالها على الخيانة والعدل على الظلم ، وإنما تغلب الأمانة الخيانة فى رجال هذه الحكومة لما هناك من الهيمنة الشرعية على الحاكم من المحكوم ، إذ الظلم كمين فى النفس ، القوة تظهره والعجز يخفيه ، وإنما يمنع النفوس أن تنزع منازع الظلم مانع القوة ، وهو هيمنة الشعب القانونية ، هذا فى الحكومات الشورية ، وأما

فى الحكومات المطلقة فمانع تلك النفوس عن الظلم أحد أمرين : إما الزاجر النفسى وهو الشعور الدينى الناشىء عن الورع والتقوى الباعثين على الخوف من بارىء النفوس ، وإما سيطرة السلطان ؛ وهذه لا تكون فى الحكومات المطلقة إلا من أمير مستبد عادل إذ المستبد الظالم شأنه مع عماله شأنهم مع الرعية ، فلا سيطرة له على العمال ولا يرجى منه الخير .

ومما لا مشاحة فيه أن الحكومة الإسلامية فى مبدأ ظهورها كانت كما رأيت فيما مرَّ من هذا الكتاب تشبه من بعض الوجوه الحكومة الشورية كما أنها لم تخل من صبغة استبدادية ، وكيف كان حالها فقد علمنا أن العمال أحوج ما يكونون إلى المراقبة ليقوم بهم عمران البلاد وتنتظم شئون المملكة ، وسواء قدرنا أن هيمنة عمر بن الخطاب الشديدة على عماله كانت مستمدة من قوة السلطة المطلقة أو من قوة السلطة القانونية أو مشتركة بينهما فقد ساعده مانع القوة أو قوة الهيمنة الشرعية ، ومانع الدين على أن ينزع من نفوس العمال آثار الظلم ويبسط بواسطتهم للرعية بساط الطمأنينة والعدل ، لتتمهل للمسلمين سبيل الفتح ويرتاح الشعوب المغلوبون لحكم الإسلام ويتفيئوا ظلال السكون ، ويتبسطوا فى مناحى العمران ، فما كان يختار للحكم والإمارة إلا أحد رجلين رجل له دين يردعه ، أو رجل عنده خوف يمنعه ، وكلا الرجلين بالإضافة إلى غرض الرعية والإمام واحد .

فمن عماله الذين كان لهم دين يردعهم أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره ، ومع ما عرف عن هذا الصحابى الجليل والعامل الأمين والقائد العظيم من الأناة والرفق ولين الجانب والورع والزهد ، فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يتساهل معه بحق من حقوق الهيمنة عليه والنظر فى سيرته ، كما لم يتساهل مع غيره أيضاً ممن هو فى طبقته فى الورع أو من دونه فيه ، وذلك قياماً على أوامر الشريعة وأداء لحق الهيمنة على تمشية قوانين الشرع على نهج السداد وحرصاً على رضا الله والرعية .

روى ابن عساكر أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبى عبيدة بأربعة آلاف درهم أو أربعمائة دينار، وقال للرسول انظر ما يصنع، فقسمها أبو عبيدة ثم أرسل بمثلها إلى معاذ فقسمها معاذ إلا شيئاً قالت له امرأته : نحتاج إليه ، فلما أخبر الرسول عمر ، قال الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا .

هكذا كان عمر يمتحن حتى أتقى عماله وأرفقهم بالرعية وآمنهم على أمور الناس وأحكام الشرع ، لهذا بلغ العدل فى عصره غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد ، وامتد سلطان المسلمين على قسم عظيم من الأرض لم يسمع لسكانه شكوى من خيانة عامل فى عمله ، وظلم فى حكمه ، بل كانت الرعية قاطبة راضية عن حكم الإسلام ، متمتعة بالراحة آخذة فى طريق الصعود إلى قمم السعادة الاجتماعية ، والحياة المدنية ، آمنة من شرور الفتن التى يضطرب لها حبل الدولة ويختل نظام الاجتماع ، ومن تصفح تاريخ الإسلام ووقف على أخبار دوله لا يرى سبباً لاختلال أمر دولة قط إلا خيانة العمال وجورهم وتساهل الملوك فى الأخذ على أيديهم ، إما بحكم الضرورة أو بحكم الضعف وسوء السياسة ، شأن كل الدول أيضاً لا دول الإسلام وحدها. وإنا لنعجب من غلو بعض المؤرخين فى ذم الحجاج بن يوسف الثقفى عامل دولة بنى مروان على العراق وإنما يحوج إلى الحجاج من هو مثل الحجاج إذ العامل الخائن إذا أفسد قلوب الرعية بجوره وقبح سيرته ، يثير فى نفوسها ثائرة البغضاء على الدولة ، ويحفظ عليها قلوب الأمة فتستعصى على الحاكم ويخرج امتلاك أزمتها عن طوق الدولة إلا باستعمال مثل الحجاج قوى الشكيمة قليل الرأفة ، هذا فى الدول المطلقة كدولة الأمويين ، وأما فى الدول المقيدة فقل أن يكون شيء من هذا وذاك، وعلى تقدير حصوله فالرأفة تقوم مقام العنف والعدل يغنى عن استعمال القوة ، والإنسان أسير الإحسان وغاية ما يرمى إليه الطمأنينة والأمان وحسبك شاهداً على هذا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموى لما نحا فى الحكم والإمارة منحى عمر بن الخطاب ، من

حيث العدل وتتبع سيرة العمال وانتقاء أخبار الناس للولايات تألف قلوب الأمة واستلس قياد الرعية بعد أن انفضوا من حول بنى مروان ، ثم لم يلبث أن عاد المروانيون بعده إلى سيرتهم الأولى حتى ضعف أمرهم وغلبوا على ملكهم ، لتفرق القلوب عنهم وانفضاض الناس من حولهم وما كان ذلك إلا من نتائج إطلاق يد العمال وإمعان هؤلاء فى الجور ، هذا بقطع النظر عن بعض الخلفاء الأمويين الذين كانوا من حسن السيرة والقيام على العدل بحيث لا يخرج عليهم خارج ، إباء لحكمهم أو تظلماً منهم ، وإنما ذكرنا بنى مروان مثالا فى الدول التى أصابها الضعف وقضى عليها سوء الإدارة وجور العمال بالانحلال ، كما أنا كتبنا هذا الفصل ليكون مقدمة لما عساه يرد معنا من أخبار الدول فى الغابر وعظة يتعظ بها الحاضر .

أخلاقه وسيرته

كان أبو عبيدة كما قدمنا من كبار الصحابة ، وممن لازم النبى صلى الله عليه وسلم وتخلق بأخلاقه ، فكان متواضعاً زاهداً تقياً عاقلا رزيناً لين الجانب مخفوض الجناح عالما بالشرع ، ذا دربة فى أمور الحرب نصوحا فى خدمة المسلمين ، وأحسن شاهد على جميل سيرته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه إنه أمين هذه الأمة ، ومثله ما رواه ابن عساكر فى تاريخه عن عمر ابن الخطاب أنه قال يوما لجلسائه : تمنوا فتمنوا : فقال عمر بن الخطاب: لكنى أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح : فقال له رجل ما ألوت (١) الإسلام : فقال ذاك الذى أردت وأخرج عن عبد الله بن عمر أنه قال : ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنها أحلاما (٢) وأثبتها جنانا (٣) إن حدثوك لم يكذبوك . وإن حدثتهم لم يكذبوك : أبو بكر الصديق، وعثمان ابن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح .

(١) أى ما نقصته حقه (٢) عقولا (٣) قلبا .

وها نحن اولاء ننقل إليك شيئاً من سيرته وأخلاقه ليكون فيها موعظة وذكرى لقوم يتفكرون ، فمنها (فى الزهد والتواضع) ما أخرجه الجزرى فى أسد الغابة وابن عساكر فى تاريخه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض فقال عمر : أين أخى ؟ قالوا من ؟ قال أبو عبيدة : قالوا يأتيك الآن : قال فجاء على ناقة مخطومة (١) بحبل فسلم عليه وسأله ، ثم قال للناس انصرفوا عنا فسار معه حتى أتى منزله ، فنزل عليه فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه فقال عمر : لو اتخذت متاعاً أو قال شيئا : قال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل .

وفى رواية رواها ابن عساكر عن ابن عمر ، أن عمر حين قدم الشام قال لأبى عبيدة اذهب بنا إلى منزلك : قال : وما تصنع عندى إلا ما تريد إلا أن تعصر عينيك علىّ : قال فدخل منزله فلم ير شيئاً . قال أين متاعك لا أرى إلا لبدا وصحفة وشنا (٢) وأنت أمير أعندك طعام : فقال أبو عبيدة إلى جونه (٣) فأخذ منه كسيرات فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة قد قلت لك إنك ستعصر عينيك على يا أمير المؤمنين يكفيك ما بلغك المقيل : قال عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .

(ومن كريم أخلاقه وجميل تواضعه) ما رواه ابن عساكر عن قتادة قال: قال أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام (يأيها الناس إنى امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى فى مسلاخه (٤) .

---

(١) قوله مخطومة الخطام زمام الناقة (٢) الشن هو القربة (٣) جونه أى سلته
(٤) أى فى جلده .

هكذا كان أمراء الأمة وأئمتها لا يرون لأنفسهم فضلا على فرد من أفراد المسلمين إلا بالتقوى ، كما علمهم نبيهم عليه الصلاة والسلام وفهموه من قواعد الإسلام ، وكانوا لا يزالون ينادون بهذا على قمم المنابر وملأ الناس ، تهذيباً لنفوس العامة وقياماً على نشر الفضيلة ، فلا يزيدهم هذا التواضع إلا شرفاً وعلواً وامتلاكاً لأفئدة الناس وأخذاً على شكائم أرباب العتو والجبروت حتى دانت لهم الأمم ، واعتلوا بدولتهم على كل الدول ، ومذ أصبح الجبروت والكبرياء من شعار الأمراء ، واستعمال القوة والعنف ديدن أولى السلطة انقلب بدولهم الحال إلى شر مآل ، مما سيأتى بيانه مجملا أو مفصلا فى هذا الكتاب إن شاء الله .

إذا كان أمير البلاد والقابض على زمام السلطة فيها ولى الولاية لا لدنيا يصيبها ، ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره ، بل لمطلق خدمة الأمة ورجاء رضى الله كأبى عبيدة بن الجراح الذى مات فى ولايته ولم يملك من حطام الدنيا إلا سيفه وترسه ، ولم يك فى بيته ما يأكل إلا كسيرات من الخبز فإلى أية درجة من السعادة يصل أهل ولايته ؟ وكيف تكون دولة هذا حال رجالها وتلك أخلاق عمالها ؟ إنها ولا مراء فى الحق دولة لو طال أمدها وامتدت حيناً من الدهر أيامها لطوقت الكرة بقوتها ، ونشرت على الأرض أعلام نصرتها ، ولم تدع ساجداً على وجه البسيط لغير خالق العباد ، وناطقاً فى أرجاء الأرض ينطق بغير الضاد ، ولكن النعم عند من لا يعرف قيمتها قليل دوامها ، والسعادة الخالصة من شوائب الزمان عزيز فى الأرض مقامها ، (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

(ومن أخلاقه فى الأدب ولين الشيمة) ما رواه ابن عساكر عن موسى ابن عقبة أن عمرو بن العاص لما كان فى غزوة ذات السلاسل فى مشارف الشام ، وخاف من جانبه الذى هو به ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يستمده ، فندب رسول الله المهاجرين والأنصار فانتدب فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب فى سراة من المهاجرين ، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وأمد بهم عمرو بن العاص فلما قدموا على عمرو قال : أنا أميركم وأنا أرسلت إلى رسول الله أستمده بكم : فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين ، فقال عمرو وإنما أنتم مدد أمددت بكم : فلما رأى ذلك أبو عبيدة وكان رجلا حسن الخلق لين الشيمة متبعاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده : قال : تعلم ياعمرو أن آخر ماعهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا وإنك إن عصيتنى لأطيعنك : فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص .

لا جرم أن أبا عبيدة مع حسن أدبه ولين شيمته كان زاهداً بالدنيا ، لا يعبأ بالرياسة لشرفها ولا يرغب فى الإمارة لذاتها ، بل لما فيها من الثواب فى خدمة الإسلام والمسلمين ، وأما عمرو بن العاص فقد كان حريصاً على الإمارة راغبا بالدنيا والآخرة ، يحب الظهور ويميل إلى إتيان الأعمال الكبار ليكون كبيراً عند الناس ، جامعاً بين الأجرين أجر الأولى ، وأجر الآخرة ، كما سترى ذلك مبسوطا فى سيرته إن شاء الله .

ومن أدبه أيضاً ما أخرجه ابن عساكر عن أبى البخترى قال : قال عمر لأبى عبيدة (أى يوم السقيفة) هلم أبايعك فإنى سمعت رسول الله يقول إنك أمين هذه الأمة : فقال أبو عبيدة كيف أصلى بين يدى رجل أمره رسول الله أن يؤمنا حين قبض : يعنى أبا بكر الصديق .

وأخرج أيضاً عن جابر قال : كنت فى الجيش الذين مع خالد بن الوليد أمد بهم أبو عبيدة بن الجراح وهو محاصر أهل دمشق : قال أبو عبيدة صل بالناس فأنت أحق أتيتنى تمدنى ، قال ما كنت لأصلى قدام رجل سمعت النبي يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح

(ومن أخباره فى الوعظ وحسن التأديب) ما رواه ابن عساكر عن أبى الحسن عمران أن أبا عبيدة بن الجراح كان يسير فى العسكر فيقول ألا رب مبيض لثيابه، مدنس لدينه، ألا رب مكرام لنفسه، وهو لها عدو مهين، ادرءوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن.

ربما تبادر إلى ذهن القارىء أن أبا عبيدة يتغالى فى الترغيب . بقوله للمسلمين فلو أن أحدكم الخ الحديث وليس الأمر كذلك إذ هو يريد بتلك السيئات سيئات الجاهلية، لأنه إنما يخاطب قوماً حديثى عهد بالإسلام فكأنما هو يريد أن يعظم لهم شأن الإسلام، وأنه يمحو ما قبله من سيئات الجاهلية إذا عمل أحدهم بما أمر به من إتيان الحسنات، وإلا فلو أراد غير ذلك لكان ترغيبه إلى هذا الحد غلواً وإغراقاً يتبرأ عن مثله أبو عبيدة على مكانته من الدين وعلمه بالشريعة وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رأيت فى فصل (لا وثنية فى الإسلام) كيف ندم أبو عبيدة على نقله حديثاً فى الترغيب: وكم أدى سوء الفهم لمثل هذه الأحاديث والأخبار إلى تشويش عظيم فى أفكار بعض الخلف حتى استدرجوا الناس بالمغالاة فى الترغيب إلى مدارج الإباحة وكل اضطراب دخل على عقائد المسلمين إنما كان منشؤه سوء الفهم .

تفهيم :

قد أغفلنا باب الكتب هنا لأنا لم نعثر لأبى عبيدة على كتب غير بعض كتب عهد لأهل الذمة قد مر مثلها فى هذا الكتاب للفاتحين، اللهم إلا كتاباً إلى عمر بن الخطاب هو ومعاذ بن جبل، وقد مرت صورته فى سيرة عمر، وكتاباً آخر أورده ابن عساكر فى حديث طويل وهو جواب كتاب أرسله إليه عمر بن الخطاب يستدعيه به للشخوص إلى المدينة لما بلغه فتك الطاعون بالمسلمين بالشام وهذا نص الكتاب :

إنى فى جند من المسلمين لن أرغب بنفسى عنهم ، وإنى قد علمت حاجة أمير المؤمنين التى عرضت لك ، وإنك تستبق من ليس بباق ، فإذا أتاك كتابى هذا فحللنى من عزمتك ، وأذن لى فى الجلوس .

وقد أورد ابن عساكر هذا الكتاب فى حديث طويل عن أبى موسى الأشعرى كان بودنا إيراده فى سيرة أبى عبيدة لما فيه من وجوب التوقى من الطاعون لو لم نر أن ابن الأثير وهّن رواية هذا الحديث بسبب يقرب من الصحة ،

(وفاته)

قلنا فى باب الأحداث على عهد عمر إن من أهمها طاعون عمواس ، وعمواس بين الرملة وبيت المقدس ، وهى على أربعة فراسخ من الرملة ، وكان ظهور الطاعون فيها سنة ١٨ للهجرة ، وانتشر فى البلاد فاجتاح السكان وكان أبو عبيدة كما فى رواية ابن عساكر فى ستة وثلاثين ألفاً من المسلمين فلم يبق منهم إلا ستة آلاف رجل ، ومات به كثير من الأعلام منهم أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان ، وقد اختلف فى مكان وفاة أبى عبيدة فمن قائل إنه فى بيسان ، ومن قائل إنه فى عمواس ومن قائل إنه فى الأردن ، ففى أسد الغابة عن عروة بن رويم أن أبا عبيدة انطلق يريد الصلاة ، ببيت المقدس فأدركه أجله بفحل فتوفى بها : وكذا فى رواية ابن عساكر عن ابن رويم وزاد عليها أنه أوصى قبل وفاته بقوله :

أقرئوا أمير المؤمنين السلام ، وأعلموه أنه لم يبق من أماناتى شىء إلا وقد قمت به وأديته إليه ، إلا ابنة خارجة نكحت فى يوم بقى من عدتها لم أكن قضيت فيها بحكومة ، وقد كان بعث إلى بمائة دينار فردوها إليه : فقالوا إن فى قومك حاجة ومسكنة فقال : ردوها إليه وادفنونى من غربى

نهر الأردن إلى الأرض المقدسة ثم قال ادفنونى حيث قضيت فإنى أتخوف أن يكون سنة (أى بعده) .

وفى رواية له أيضاً عن سعيد المقبرى قال : لما طعن أبو عبيدة بن الجراح بالأردن وبها قبره دعا من حضره من المسلمين فقال :

وصيته :

إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا وحجوا واعتمروا ، وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم ولا تلهيكم الدنيا فإن امرأ لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعى هذا الذى ترون ، الله كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون . وأكيسهم أطوعهم له وأعملهم ليوم معاده ، والسلام عليكم ورحمة الله ، يا معاذ بن جبل صل بالناس : ومات . . فقام معاذ فى الناس فقال :

خطبة معاذ

بعد وفاة أبى عبيدة

يأيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحا فإن عبداً لا يلقى الله تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له : من كان عليه دين فليقضه فإن العبد مرتهن بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجرا (مقاطعا) أخاه فليلقه فليصالحه ، ولا ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث ، والدين العظيم أنكم أيها المسلمون فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبداً أبر صدراً ، ولا أبعد من الغائلة ولا أشد حباً للعامة منه ، فترحموا عليه رحمه الله واحضروا الصلاة عليه اه

ومن تبصر فى وصية أبى عبيدة وخطبة معاذ رضى الله عنهما علم أن المسلمين إنما سادوا يومئذ على الأمم بمثل هذه المناصحة وبتلك الأخلاق البارة ولأنهم كانوا دائبين على التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، ينصح فقيرهم لغنيهم ويوصى بالحق أميرهم مأمورهم كما أمرهم الله فى كتابه العزيز ، فكانوا له سامعين وبأمره مؤتمرين وحق لقوم جعلوا دأبهم التواصى بالحق والتناصح بالمعروف ، أن يسوّدهم الله على الأمم كما سوّد أولئك القوم البررة النصحاء ، الذين خلدوا للمسلمين فخراً كاد يمحوه عن صفحات الزمان أقوام عطل من الفضيلة بعيدون عن فهم القرآن ، مستغرقون فى سبات الوساوس والأوهام ، سريعة خطاهم إلى التدلى بطيئة عن الصعود ، لا يوافق نداء المنادى منهم قلوباً واعية ، ولا آذاناً مصغية ، لهذا قد أخنى عليهم الزمان ، فهم يسبونه ظلما وينسبون تقهقرهم إليه جهلا ، وما الزمان إلا آية العبر ومستودع أسرار الأمم ، ومظهر سنن الله فى الخلق ، فهو مرشد العاقل ومردى الجاهل ، وإن فى هذا لبلاغا لقوم يعقلون .

روى ابن عساكر أن أبا عبيدة شهد بدراً وهو ابن إحدى وأربعين سنة ، ومات فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وكان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء والكتم ، وفى رواية أنه مات ولم يعقب وفى رواية أخرى أنه أعقب وانقرض عقبه ، رحمه الله ورضى عنه وجزاه وسائر الصحابة الكرام عن أمتهم خير الجزاء .

ولما حضرته الوفاة استخلف على عمله معاذ بن جبل ، فتوفى بعده فى الطاعون واستخلف قبل وفاته عمرو بن العاص ، فارتفع بالناس إلى الجبال فانكشف عنهم المرض ،

كلمة فى القبور :

لا نريد بهذا العنوان البحث عن تاريخ القبور كالنواويس والأهرام وما

شاكلها من معالم الوثنية الأولى ، وإنما نريد الوقوف بفكرة القارىء عند اختلاف المؤرخين فى مكان قبر أبى عبيدة ، كاختلافهم فى تعيين كثير من قبور جلة الصحابة الكرام الذين دوخوا هذا الملك العظيم، وتحلوا بتلك الشيم الشماء و بلغوا من الفضل والتفضل والتقوى والصلاح غاية لم يبلغها أحد من الأولين ولا الآخرين ، وقد بسط المؤرخون أخبار أولئك الرجال العظام وعنوا بتدوين آثارهم العظيمة فى فتوح الممالك والبلدان حتى لم يتركوا فى النفوس حاجة للاستزادة و نعم ما خدموا به الأمة والدين .

إن القارىء إذا وقف بفكره عند هذا الأمر وقفة المتأمل لا يلبث أن يأخذه العجب لأول وهلة من ضياع قبور أولئك الرجال العظام واختفاء أمكنتها عن نظر نقلة الأخبار ومدونى الآثار على جلالة قدر أصحابها وشهرتهم التى طبقت الآفاق وملأت النفوس إعظاماً لقدرهم، وإكباراً لجلائل أعمالهم ، وثناء عليهم ، وتكريما لذكر أسمائهم ، وشكراً لآلائهم ، واعترافا بجميلهم ، وإقراراً بفضيلة سبقهم بالإيمان ، ونشرهم دعوة القرآن .

لا جرم أن القارىء أقل ما تحدثه به النفس عند التأمل فى هذا الأمر ، أن أولئك الرجال ينبغى أن تعلم قبورهم بالتعيين ، وتشاد عليها القباب العاليات ذات الأساطين ، إذا لم يكن لشهرتهم بالصلاح والتقوى وصدق الإيمان وصحبتهم للنبى عليه الصلاة والسلام لما أتوه من كبار الأعمال التى تعجز عنها أعاظم الرجال ، فكيف غابت قبورهم عن نظر المؤرخين ودرست أجداثهم التى تضم أكابر الصحابة والتابعين ، حتى اختلف فى تعيين أمكنتها أرباب السير ، وعفا من أكثرها الأثر ، إلا ما علموه بعد بالحدس والتخمين ، وأظهروا أثره بالبناء عليه بعد ذلك الحين ، مع أن المشاهد عند المسلمين صرف العناية إلى قبور الأموات بما بلغ الغاية بالتأنق فى رفعها ، وتشييدها ورفع القباب عليها واتخاذ المساجد عندها لاسيما قبور الأمراء الظالمين الذين لم يظهر لهم أثر يشكر فى الإسلام ، والمتمشيخة والدجالين الذين كان أكثرهم

يجهل أحكام الإيمان ، ولا نسبة بينهم وبين أولئك الرجال العظام كأبى عبيدة ابن الجراح وإخوانه من كبار الصحابة الكرام الذين تلقوا الدين غضاً طرياً ، وبلغوا بالقوى والفضيلة مكاناً قصيا .

والجواب عن هذا أن الصحابة والتابعين لم يكونوا فى عصرهم بأقل تقديراً لقدر الرجال ، وتعظيما لشأن من نبغ فيهم من مشاهير الأبطال وأخيار الأمة ، لا أنهم كانوا يأنفون من تشييد قبور الأموات ، وتعظيم الرفات لتحققهم النهى الصريح عن ذلك من صاحب الشريعة الغراء الحنيفية السمحة التى جاءت لاستئصال شأفة الوثنية ، وهو آثار التعظيم للرفات ، أو العكوف على قبور الأموات ، ويرون أن خير القبور الدوارس ، وأن أشرف الذكر فى أشرف الأعمال ، لهذا اختفت عمن أتى بعد جيلهم ذلك قبور كبار الصحابة وجلة المجاهدين إلا ما ندر ثم اختلف نقلة الأخبار فى تعيين أمكنتها باختلاف الرواة ، وتضارب ظنون الناقلين ، ولو كان فى صدر الإسلام أثر لتعظيم القبور والاحتفاظ على أماكن الأموات بتشييد القباب والمساجد عليها لما كان شىء من هذا الاختلاف ، ولما غابت عنا إلى الآن قبور أولئك الصحابة الكرام كما لم تغب قبور الدجاجلة والمتمشيخين التى ابتدعها بعد العصور الأولى مبتدعة المسلمين ، وخالفوا فعل الصحابة والتابعين حتى باتت أكثر هذه القباب تمثل هياكل الأقدمين وتعيد سيرة الوثنية بأقبح أنواعها ، وأبعد منازعها عن الحق ، وأقربها من الشرك ، ولو اعتبر المسلمون بعد باختفاء قبور الصحابة الذين عنهم أخذوا هذا الدين وبهم نصر الله الإسلام لما اجترءوا على إقامة القباب على القبور وتعظيم الأموات تعظيما يأباه العقل والشرع وخالفوا فى هذا كله الصحابة والتابعين الذين أدوا إلينا أمانة نبيهم فأضعناها وأسرار شريعته فعبثنا بها : وإليك ما رواه فى شأن القبور مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ألا أبعثك

على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفا إلا سويته . وفى صحيحه أيضاً عن ثمامة بن شفى قال : كنا مع فضالة ابن عبيد بأرض الروم برودس فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوى . ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها (١) .

هكذا بلغونا الدين ، وأدوا إلينا أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم تأكيداً لعهد الأمانة بدءوا بكل ما أمرهم به الرسول بأنفسهم ، لنستن بسنتهم ونهتدى بهدى نبيهم ، ولكن قصرت عقولنا عن إدراك معنى تلك الجزئيات ، وانحطت مداركنا عن مقام العلم بحكمة التشريع الإلهى ، والأمر النبوى القاضى بعدم تشييد القبور ، اتقاء التدرج فى مدارج الوثنية ، فلم نحفل بتلك الحكمة ، وتحكمنا بعقولنا القاصرة بالشرع ، فحكمنا بجواز تشييد القبور استحباباً لمثل هذه الجزئيات حتى أصبحت كليات وخرقا فى الدين وإفساداً لعقيدة التوحيد ، إذ ما زلنا نتدرج حتى جعلنا عليها المساجد وقصدنا رفاتها بالنذور والقربات ووقعنا من ثم فيما لأجله أمرنا الشارع بطمس القبور ، وكل هذا ونحن لا نزال فى غفلة عن حكمة الشرع ، نصادم الحق ويصادمنا حتى نهلك مع الهالكين .

انتهى ما أحببنا إيراده من سيرة أبى عبيدة رضى الله عنه ، وها نحن أولاء نشرع بسيرة سعد بن أبى وقاص الذى هو من مشاهير الدولة العمرية فنقول :

---

(١) الأحاديث الواردة بالنهى عن تشييد القبور وتعظيمها ولعن من يتخذها مزاراً ويقصدها بالنذور كثيرة ، قد استقصى الكلام عليها كثير من الأئمة المصلحين ، كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما ، فليراجع فى مظانها من كتب القوم كالواسطة وإغاثة اللهفان وغيرهما .

سعد بن أبي وقاص

حاله فى الجاهلية

نسبه وأصله :

سعد بن أبي وقاص واسم أبي وقاص مالك بن وهيب ويقال أهيب (كما فى أسد الغابة) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة القرشى الزهرى يكنى أبا إسحاق وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس .

مكانته عند قومه وصناعته :

كانت صناعة سعد بن أبي وقاص كما تقدم برى النبل ، وأما مكانته عند قومه وسيرته فيهم فلم تقف على شيء منها إلا أن مكانته عند قومه تعلم بالضرورة من درجة غناه ، فإنه كان قبل الهجرة غنياً موسراً ويستدل على غناه بالحديث الآتى الذى (روى فى الصحاح والسنن) عن سعد أنه شكى فى مكة مرضاً فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد بلغ منى الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة ، أفأوصى بثلثى مالى : قال لا : قال فبالشطر قال لا : ثم قال الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبغى بها وجه الله إلا أجرت عليها » .

إسلامه وصحبته

إسلامه :

سعد بن أبي وقاص من السابقين الأولين إلى الإسلام الذين وافقت دعوة التوحيد منهم قلوباً واعية فبادروا لقبولها مبادرة الظمآن للماء ، والعليل

للدواء ، والنفس الحساسة من طبعها تتململ من الشرك ، وتتألم من عبادة الأوثان ،وإنما هى تترقب نوراً ينقشع عنه ظلام الوثنية ، ومعيناً يمزق عنها غشاء الحيرة لتبصر سبيل النجاة من متاعب الحياة الشركية،وتتوصل لاطراح الآصار الجاهلية ، وسعد رضى الله عنه لم يلبث أن طرق سمعه داعى السلامة والسلام حتى كان رابع أربعة فى الإسلام .

روى ابن عساكر فى تاريخه وابن الأثير فى أسد الغابة عن عائشة ابنة سعد قالت سمعت أبى يقول : رأيت فى المنام قبل أن أسلم بثلاث كأنى فى ظلمة لا أبصر شيئا إذ أضاء لى قمر فاتبعته فكأنى أنظر إلى من سبقنى إلى ذلك القمر فأنظر إلى زيد بن حارثة وإلى على بن أبى طالب وإلى أبى بكر وكأنى أسألهم متى انتهيتم إلى هاهنا قالوا الساعة : وبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام مستخفيا فلقيته فى شعب أجياد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمنى أحد إلا هم : وروى ابن عساكر أن سعداً أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة .

ليس العجب من مبادرة سعد إلى الإسلام بعد أن استبان له طريق الرشد فدفعه صفاء وجدانه إلى التملص من حبائل الوثنية ، وإنما العجب من هذا الدين الذى ما داخل قلباً إلا تمكن منه تمكن الروح من الجسم ، ورسخ فيه رسوخ الأطواد فاستحال أن تدكه العواصف أو تسطو عليه الأغراض ، شأنه مع المسلمين الأولين ومن بعدهم إلى هذا اليوم ، وأن ما نال الصحابة من الأذى وما عانوا من أنواع الشدائد فى سبيل تمسكهم بعروة الإسلام الوثقى ، والتفافهم على صاحب الشريعة الغراء لما تنوء به الجبال ومع هذا فلم يدفعهم عن شأنهم دافع ، ولم يمنعهم عن المضى فى سبيل الهدى والرشاد مانع ، ومن هذا القبيل ما روى عن سعد بن أبى وقاص قال : نزلت هذه الآية فىَّ (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) قال كنت رجلا براً بأمى فلما أسلمت قالت يا سعد ما هذ الدين

الذى أحدثت لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى : فقال لا تفعلى يا أمى فإنى لا أدع دينى ، قال فمكثت يوما وليلة لا تأكل فأصبحت وقد جهدت فقلت : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا لشىء ، فلما رأت ذلك أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية ، أخرجه ابن الأثير فى أسد الغابة وابن عساكر فى تاريخه عن أبى عثمان المهدى. وفى أسد الغابة عن ابن إسحاق: قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتتلوا فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه فكان أول دم أهريق فى الإسلام ، وللصحابة الأولين من مثل هذا أخبار كثيرة تدل على صبرهم على المكاره وتحملهم ضروب الإهانة من المشركين استمساكا بحبل الإسلام ، ووفاء بعهد الإيمان وإيقانا بصدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

صحبته :

كان سعد بن أبى وقاص من خيرة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة صاحب النبى صحبة مخلص فى إيمانه وجاهد بين يديه جهاداً يشهد له بعظيم حبه له وتفانيه بين يديه إذ شهد معه المشاهد كلها ، وكان معه يوم فتح مكة إحدى رايات المهاجرين الثلاث وكان ممن ثبت معه يوم أحد وقاتل دونه قتال الأبطال ، وروى عن الزهرى أنه قال : رمى سعد يوم أحد، ألف سهم ، وجمع له رسول الله يومئذ أباه وأمه إذ قال له « ارم فداك أبى وأمى، ارم أيها الغلام الحزور »[1] رواه فى أسد الغابة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(١) الغلام الحزور أى القوى

وعابه يوما بنو أسد فى الكوفة فقال راداً عليهم : إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله، والله إن كنا لنغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مالنا طعام إلا السمر وورق الحبلة ، حتى إن كان أحدنا ليضع كما تضع العنز (وفى رواية الشاة) ما بنا خلط ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى [1] على الدين لقد خسرت إذاً وضل عملى . رواه ابن عساكر وابن الأثير عن قيس بن أبى حازم ، ومن أجمل ما يؤثر عنه فى صحبته ما رواه ابن عساكر عن عبد الله بن عامر ابن ربيعة أن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ليلة فقال ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة ، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا خشخشة سلاح فقال « من هذا » فقالوا : سعد بن أبى وقاص، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جاء بك » فقال سعد وقع فى نفسى خوف على رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جاء بك » فقال سعد وقع فى نفسى خوف على رسول الله فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه فى نومه .

وهذا ما يدل على منتهى الحرص من سعد رضى الله عنه على حياة نبيه وراحته صلى الله عليه وسلم وكأنه شعر فى تلك الليلة بخطر على النبى صلى الله عليه وسلم كما شعر النبى بذلك أيضاً فبادر ليحرسه بنفسه ويقيه أذى عدوه شأن صحابته كلهم الذين كانوا يتنافسون فى خدمته ، ويحرصون على الذب عنه والذود عن حوضه وتعزيز دعوته وإعلاء كلمته جزاهم الله خير الجزاء .

وقد كان من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد أن دعا له أن يسدد رميته

---

(١) قوله السمر وورق الحبلة كلاهما شجر وقيل إن الأول هو شجر الطلح والثانى نبات يشبه اللوبياء . وقوله كما تضع الشاة أى كما ترعى يريد أنهم بلغ بهم الصبر مع رسول الله على قلة الطعام إن كانوا يرعون ذلك النبات كما ترعى الشاة : وقوله ما بنا خلط ، الخلط والخلط بسكون اللام وكسرها التملق وقوله تعزرنى من العزر وهو اللوم أو التوقيف على باب الدين وأحكامه كما فى القاموس .

ويجيب دعوته فكان مجاب الدعوة حتى لقد كان كبار الصحابة كعمر بن الخطاب وابن مسعود يتحاشون دعوته ، وقد روى المحدثون كثيراً من الأخبار فيمن أصابته دعوة سعد رضى الله عنه .

حروبه وفتوحاته :

قد كان سعد بن أبى وقاص من شجعان قريش وكماتهم ، لهذا كان لما استشار عمر فيمن يوليه حرب الفرس أن أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه : إنه الأسد عاديا : كما رأيت فى غير مسير سعد إلى العراق فانتهى عمر إلى رأيهم وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الإسلامية فى حرب الفرس وأوصاه بما أوصاه فسار بالجيوش حتى انتهى إلى شراف وهناك عشر الناس وأمر على أجنادهم وعباهم وفرق المسالح فى الأطراف وسد الفروج المخيفة ، ولما أتم لكل شىء عدته ارتحل إلى القادسية وهى المكان الذى اختاره لحرب الفرس وكان على حافة البرية مما يلى أرض العرب وقد مر تفصيل الخبر عن مسير سعد إلى القادسية فى سيرة عمر ونشير هنا إلى ما كان بعد وصوله القادسية من أخباره مع الفرس فنقول :

لما نزل سعد القادسية نفر أهل السواد (سواد العراق) إلى كسرى يزدجرد يستغيثونه وأخبروه بنزول العرب القادسية وتفرق سراياهم للغارة وطلبوا منه النجدة وقالوا إن أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا .

علم يزدجرد من وقائع العرب الأولى مع جيوشه التى دحرت فى العراق أيام خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة أن العرب بعد الإسلام ليسوا العرب قبله وأن القوم الذين كانوا على زعم الفرس من رعاة الإبل أصبحوا من رعاة الأمم وقادة الفتح فلا ينفع معهم إلا الجد ولا يقاومون إلا ببذل الجهد فى إعداد العديد والعدة فاستدعى إليه رستم وكان قائد قواد الدولة وصاحب

الرأى فيها وقال له إنى أريد أنى أوجهك فى هذا الوجه ، فأنت رجل فارس اليوم ، وقد نرى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله .

كان رستم صاحب رأى ودربة وقد وقف على حال المسلمين وأوجس منهم خيفة على دولة الفرس فرأى أن مقامه مع كسرى لتدبير أمور الحرب وتسريح الجيوش ومناظرة القواد أولى من حضوره ساحات الحرب بنفسه ضناً بها عن مواقف الخطر ، فرغب إلى يزدجرد استبقاءه فى عاصمة الدولة ليمد القواد بالرأى ، وكان مما قاله له يومئذ أن العرب لاتزال تهاب العجم مالم تضربهم بى ولعل الدولة أن تثبت بى إذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ، والرأى فى الحرب أنفع من بعض الظفر ، والأناة خير من العجلة وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا .

فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال : قد اضطرنى تضييع الرأى إلى إعظام نفسى وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بدآ لم أتكلم به فأنشدك فى نفسك وملكك دعنى أقم بعسكرى وأسرح الجالينوس فإن تكن لنا فذلك وإلا بعثنا غيره حتى إذا لم نجد بدآ صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حامون فإنى لا أزال مرجواً فى أهل فارس ما لم أهزم . فأبى إلا أن يسير فخرج حتى ضرب عسكره بساباط . وجاءت الأخبار إلى سعد بذلك، فكتب إلى عمر فكتب إليه أن يستعين بالله ولا يجزع وأن يرسل إلى يزدجرد أولا يدعوه إلى الإسلام كما مر الخبر عن هذا فى سيرة عمر رضى الله عنه . فأرسل سعد نفراً من اهل الرأى منهم النعمان بن مقرن وبسر بن أبى رهم وحملة بن حوية وحنظلة بن الربيع وفرات بن حبان وعدى بن سهيل وعطارد بن حاجب والمغيرة بن زرارة ابن النباش الأسدى والأشعث بن قيس والحرث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة دعاة . فخرجوا

من العسكر فقدموا على يزدجرد وطووا رستم واستأذنوا على يزدجرد ، فحبسوا ريثما أحضر يزدجرد وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ، واجتمع الناس ينظرون إليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط فأذن لهم وأحضر الترجمان وقال له سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوغ ببلاد ؟ أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا .

فقال النعمان بن مقرن لأصحابه إن شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا بل تكلم فقال :

إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة ، ثم أمر أن نبتدىء إلى من خالفه من العرب ، فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبتدىء بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسن وقبح القبيح كله فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة (الحرب) فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن بذلتم الجزى قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

ومن نظر فى كلام النعمان هذا نظر منصف لا يتعصب لفكر ولا دين ، يرى أن أصول الدعوة إلى الإسلام على هذا الوجه خير وسيلة لهداية الأمم بلا إجبار ولا إكراه ، إلا ما يصاحب الدعوة من القوة التى يراد بها حمايتها وإظهار شأن أهلها وقوتهم ومجدهم لمن لا يرى قوة دين وصحته من البشر إلا بقوة أهله والإنسان أكثر ما يخضع للحس دون الوجدان إلا من اطرح

رداء التقليد ، وأطلق عقله من قيود الأوهام ، فوضع كل ما يرد عليه موضع المحاكمة والنقد ، وهؤلاء عددهم قليل ، فى كل أمة وجيل .

لم يقنع يزدجرد بما سمع من كلام النعمان ، فأجابه بجواب قد يظهر فيه امتهانه للعرب وعجبه من ظهورهم بذلك المظهر العظيم ، بعد أن كانوا من أفقر الشعوب وأدناهم وأجهلهم ، فأجابه المغيرة بن زرارة بأن ما وصف به العرب من الجهل وسوء الحال هو حق ، إلا أنه قد كان ذلك قبل الإسلام، وأما بعده فالحال صار غير الحال ، ثم دعاه إلى ما دعاه إليه النعمان من قبول الإسلام ، أو يدفع الجزية عن يد وهو صاغر ، أو السيف ، فغضب يزدجرد من ذلك واستدعى بوقر من تراب ، فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، وقال ارجعوا إلى صاحبكم وأعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ، فتقدم عاصم بن عمرو وقال أنا سيد هؤلاء ، وحمل التراب على عاتقه ، وخرج إلى سعد وقال أبشر فوالله لقد أعطانا الله أقاليد ملكهم .

قال يزدجرد لرستم بعد أن فارقه الوفد ما كنت أرى أن فى العرب مثل هؤلاء ما أنتم بأحسن جوابا منهم ولقد صدقنى القوم لقد وعدوا أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه ، على أنى وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه ، فقال رستم أيها الملك إنه أعقلهم وتطير من ذلك .

والعجيب فى هذا الخبر أن يعتقد يزدجرد أن القوم وعدوا أمراً هم مدركوه ، ثم يعاملهم بمثل تلك المعاملة التى يريد بها تأكيد امتهانه لهم واحتقار أمرهم ، وهذا بلا ريب من الخرق فى الرأى والتناهى فى الكبرياء الباطلة ، وسوء التدبير مع قوم سيكونون عما قريب سادة ملكه وهو يتوقع منهم ذلك، ويحدث قومه به ، ولا جرم أن أكثر ما مهد للمسلمين يومئذ طريق

الفتح والغلبة على الأمم ، هو استصغار شأنهم من ملوك الأرض وقادة الشعوب بسبب ما كانت عليه تلك الأمة البدوية قبل الإسلام ، من الضعف وسوء الحال وتفرق الكلمة ، على أنه كان فى مظاهرهم وأخلاقهم بعد الإسلام ما يكفى لاعتبار أعدائهم بتغير أحوالهم وينذر بعلو شأنهم على من سواهم ، ولله فى هذا شأن هو بالغه .

أخذ سعد بعد ذلك فى بث السرايا للغارات على الأطراف ومناوشة مسالح الفرس ، وسار رستم من ساباط وبعث على مقدمته الجالينوس فى أربعين ألفاً ، وخرج هو فى ستين ألفا ، وجعل على ميمنته الهرمزان وعلى ميسرته مهران ، وكتب إلى أخيه البندوان فى مرمة الحصون وإعداد العدة ثم سار فنزل بكوثى وأتى له هناك برجل من المسلمين ، فقال له ما جاء بكم وماذا تطلبون ، فقال جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا ، قال رستم فإن قتلتم قبل ذلك ! قال من قتل منا دخل الجنة ومن بقى منا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين . فقال رستم قد وضعنا أذن فى أيديكم ، فقال أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك من ترى حولك فإنك لست تحاول الأنس إنما تحاول القدر ، فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فعاث جيشه فى النواحى ، وغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ، ووقعوا على النساء وشربوا الخمور ، فضج أهل برس إلى رستم فقال : يا معشر فارس ، والله لقد صدق العربى ، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا. والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حرب أحسن سيرة منكم ، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والإحسان ، فإذا تغيرتم فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم ، وما أنا بآمن من أن ينزع الله سلطانه منكم . ثم أتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه .

وأنت ترى من هذه الحكاية إلى أية درجة بلغ فساد النظام ، وفشو مرض الظلم والفوضى فى أمة الفرس يومئذ ، ولا تثريب على عرب العراق إذا أعطوا بأيديهم إلى المسلمين الذين رأوا منهم من حسن الأخلاق والمحافظة على الحقوق ، والقيام على العدل ما لم ير من فاتح قبلهم قط .

أقام رستم بالعراق دون القادسية نحو أربعة أشهر ، ولا يكون بينه وبين المسلمين حرب ، إلا بعض المناوشات التى كانت تقع بين بعض جنوده وسرايا المسلمين ، ثم عزم بعد هذه المطاولة على قصد سعد وهو بالقادسية ، فسار وقدم أمامه الجالينوس وكان يطاول المسلمين رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا ، إلا أن الملك استعجله وأنهضه . وكان عمر رضى الله عنه كتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضاً ، فأعد للمطاولة عدتها فلما وصل رستم القادسية وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ، ونزل الناس فما زالوا يلاحقون حتى أعتموا من كثرتهم ، والمسلمون ممسكون عنهم وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل سابور الأبيض .

دعوة المسلمين إلى الأخاء والمساواة وما نشأ عنها :

لما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ، ولما هاله ما رأى من جمعهم مع ما خامر فؤاده من قبل من الخوف منهم ، أرسل إلى زهرة بن الحوية وهو من سادات بنى تميم فوافقه ، فأراده على أن يصالحه ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه من غير أن يصرح له بذلك ، بل يقول له كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ، ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة : ليس أمرنا كأمر أولئك ، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه

فقال لرسوله إنى سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى ، فأنا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز ، فقال رستم : ما هو ، قال : أما عموده الذى لا يصلح إلا به ، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال : وأى شىء أيضاً ، قال وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم ، قال ما أحسن هذا ، ثم قال رستم أرأيت إن أجبت إلى هذا ومعى قومى كيف يكون أمركم أترجعون ؟ قال إى والله ، قال صدقتنى ، أما إن أهل فارس منذ ولى أزدشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة ، وكانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم ، فقال زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون بل نطيع الله فى السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا .

من تأمل فى هذه المحاورة علم أن دعوة المسلمين لما كانت مبنية على الإخاء والمساواة وإعتاق الطبقات الدنيا من رق العبودية ، لا سيما فى الأمم القديمة التى كانت دولها عريقة فى الاستبداد وأشراف مملكتها مستعبدين للشعب كان أصعب شىء على الأمراء والملوك قبول هذه الدعوة ، لما يتوقعونه بعدها من وجوب كف يد القهر والقوة للتىهم باسطوها على الناس ، لهذا كانوا يفضلون الحرب مع المسلمين على قبول دعوة الإسلام ويزجون بالعامة فى غمار الحروب ، لا دفعاً عن الدولة بل منعاً عن الخير واستئثاراً بالسلطة وتشبثاً باسم السيادة المطلقة على الشعب ، بدليل ما سمعت من هذه المحاورة وما نتلوه عليك من تتمة ما كان من الخبر عن رستم ، فإنه بعد أن سمع ما سمع من زهرة أحب أن يسمع أشراف أمته وقواده من المسلمين مثل ما سمع ، لعلهم ينزعون إلى إطلاق حرية الشعب والتسامح بحقوق الطبقة الدنيا من الناس ، ليكونوا جميعاً أخوة فى الدين سواء أمام العقل والعدل ، فدعا رجال فارس وذاكرهم

فى هذا فأنفوا وهو يتوقع منهم ذلك ، لهذا أرسل إلى سعد أن ابعث لنا رجلا نكلمه ويكلمنا ، فدعا سعد جماعة ليرسلهم إليهم فقال له ربعى بن عامر متى نأتهم جميعا يروا أنا احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل ، فأرسله وحده فسار إليهم فى أبسط زى من اللباس والعدة ، واقتحم بفرسه بساط رستم ونمارقه ، ثم دنا منه وجلس على الأرض ولم يشأ أن يجلس على البسط والنمارق ، فسئل ما جاء بكم ؟ فدعاهم إلى الدين أو الجزية أو الحرب ، وبعد كلام طويل بينه وبين رستم استمهله لينظر وقومه فى هذا الأمر فأمهله ثلاثا فقال له : وهل أنت سيد قومك ؟ قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم ، فخلا رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم كلاما أعز وأوضح من كلام هذا الرجل ؟ ترغيباً لهم فى إجابة دعوة الإسلام ، فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة ، إن العرب تستخفف باللباس وتصون الأحساب ليسوا مثلكم .

ولعل رستم استمال أمراءه بعد ذهاب ربعى بن عامر أو أراد تردد رسل المسلمين عليه رجاء اقتناع قومه منهم ، فلما كان من الغد أرسل إلى سعد ابن أبى وقاص أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم حذيفة بن محصن فأقبل فى نحو زى سابقه ووقف على رستم راكبا قال : انزل ، فأبى فقال له ماجاء بك ولماذا لم يجىء الأول ؟ قال : إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشدة والرخاء ، ثم سأله رستم عما جاء بهم ، فأجابه مثل الأول فصرفه ، ثم بعث من الغد أن ابعثوا إلينا رجلا ، فبعث المغيرة بن شعبة داهية القوم فى عصره ، فأقبل إليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة (مرمى بسهم) لا يوصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها ، فأقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريره ، فوثبوا عليه ومعكوه وأنزلوه فقال : قد كانت

تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم ، إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضا فظننت أنكم تواسون قومكم « أى تساوونهم بأنفسكم والخطاب كما لا يخفى للأمراء » كما نتواسى فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد ، وإنى لم آتكم ولكن دعوتمونى ، اليوم علمت أنكم مغلوبون وإن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

قال المغيرة ما قال على ملأ الناس بين جندى وأمير ، وهو يسمع بصوته الجهورى كل الناس ، فسرى كلامه فى الرءوس كما تسرى الشرارة الكهربائية فى الأسلاك ، وانتفض لها القوم كما ينتفض العصفور بلله القطر .

ماذا كان بعد هذه الهزة الكهربائية ، والدعوة الإسلامية ، كان أن السفلة هبوا هبوب المستيقظين من سبات عميق ، فنادوا صدق والله العربى فيما قال ، وأما الدهاقين فكأنه صب عليهم صوت من العذاب وقالوا ، والله لقد رمى (يعنون المغيرة) بكلام لاتزال عبيدنا ينزعون إليه ، قاتل الله أولينا حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة ، ولم يكن بعد هذا من الدهاقين أى أشراف البلاد وسادة الأمة الذين يعتبرون بقية الشعب الذين هم دونهم عبيداً لهم ، كما رأيت من قول أولئك الدهاقين إلا أن أصروا على الحرب ورفض ما دعاهم إليه المسلمون . فأفضى ذلك إلى زوال دولتهم وذهاب ملكهم ، وإنما حال بينهم وبين الإسلام واستبقاء ملكهم فى أيدى ملوكهم ، حب الشهوات والحرص على السيادة المطلقة التى أرادهم على تركها المسلمون وعيرهم بها المغيرة وسابقوه ، وكم أزال حب السلطة الاستبدادية من الدول ودمو من الممالك ، وليس أشأم على البصر وأشد خطراً على الدول من حكومات تأصل فى رجالها حب الاستبداد وبسط يد القهر على طبقات المحكومين ، واستفحل فيها شأن الأشراف . فكانوا أربابا والرعية مربوبين ، تساق بأيديهم إلى حيث تلاقى الحتوف وتعانى أنواع الشقاء .

تأصلت جرثومة الاستعباد ونمت ملكة الاستبداد فى نفوس أشراف الفرس وغيرهم من الأمم القديمة ، فجاء الإسلام يدعو إلى الحرية وأن البشر كلهم سواء ، أبوهم آدم والأم حواء ، وإنما أمر الشعوب فى الأمم القديمة إلى أشرافهم كما رأيت ، فهم لأمرائهم تبع ولذوى السيطرة عليهم مقلدون ، قد سدت دونهم المنافذ بسور من سطوة أولئك الجبارين ، فلن تصل إليهم دعوة الإسلام إلى المساواة فى الحقوق والإخاء فى الدين ، وعدم التفاضل إلا بالعلم ، إلا بإرهاب قادتهم، وقهر سادتهم، فهل يؤخذ على الإسلام وهذا شأنه فى إسعاد البشر أن جعل أساس الدعوة الموعظة وحياطتها القوة ، لا والله إن هذا لمنتهى الحكمة بالإضافة إلى أخلاق تلك الأمم ، وحياتهم التى هى ذل محض ولده طول الصبر على الضيم ، والرضوخ لسيطرة الأمراء الجائرة وسلطانهم القاهر ، حتى أصبح ملكة من ملكات النفوس تظهر حينا وتختفى آخر ، وإليك الدليل .

دعا المسلمون رجال الفرس إلى ما دعوهم إليه فأبوا واستكبروا ، ومنشأ الإباء كما علمت هو الحرص على السيطرة الاستبدادية ، والخوف من محو آية التفاضل ، أو النهوض بالسفلة إلى مقام الحرية الذى يلحقهم بالأشراف ، ويقضى على سيطرة هؤلاء بالضعف والزوال ، فزجوا بالعامة فى غمار الحرب وألحقوا بدولتهم الهلاك: لهذا إذا نظرنا إلى الدعوة الإسلامية يومئذ نجد أنه قد نشأ عنها أمران عظيمان ، أمر ظهر أثره فى الحال ، وأمر ظهر أثره فى الاستقبال .

فأما الأمر الذى ظهر أثره فى الحال فهو رفض زعماء الفرس ودهاقينهم للإسلام ، ورضاهم بحرب المسلمين دون قبول دينهم، خوفا من انتشار تعاليمه المؤذنة بغل أيدى الأشراف ، حتى كان من ذلك توقف انتشار الإسلام

بالدعوة إلا بعد حمايتها بالقوة فتسلط العرب على مملكة الفرس ومحوا آثار الوثنية من البلاد .

وأما الأمر الذى ظهر أثره فى الاستقبال فهو أن الرضوخ لسيطرة الأشراف لما صار ملكة فى نفوس الأعاجم كانوا لها أطوع ، وإليها أميل ، ولما بسطت عليهم دعوة العرب جناح العدل ورفعت فوق ربوعهم لواء الإسلام اغتبطوا حينا بسلطان المسلمين ثم لما امتد ملك العرب فى الشرق والغرب ، وتفرقت عصبيتهم فى أنحاء الممالك وقلت الحامية منهم بين ظهرانى الأعاجم وأفضوا إلى هؤلاء بأمور الملك ، وشاركوهم فى شئون الدولة بحكم الوحدة الإسلامية والجامعة الملية ، نزع الأعاجم إلى سيرتهم الأولى ونبض فيهم عرق القوة فتحزبوا أحزاباً تناوىء الدولة العربية ، وتحاول هدم أركان حكومتهم الديموقراطية ، واستبدالها بحكومة الأشراف الأرسطوقراطية ، ولم يروا أعون لهم على هذه البغية إلا الدعوة لآل البيت النبوى الشريف ، فبثوا منهم الدعاة فى الآفاق الإسلامية يدعون لآل البيت فى السر تارة والعلانية أخرى ، حتى تمكنوا من كبد الدولة المروانية وأوغروا عليها صدور الأمة وشوشوا على ملوكها تدبير أمور الرعية ، فكان ما كان من تتبع هؤلاء لأهل البيت بالقتل والتشريد حتى استفحل الخطب وأحفظوا عليهم قلوب المسلمين ، فتألبوا على قلب دولتهم مراراً عدة انتهت بظهور الدولة العباسية وتسليمها مقاليد الأمور لأنصارها من الأعاجم الذين لم يلبثوا إلا جيلا أو بعض جيل ، حتى توثبوا على الخلافة وتشاطر زعماؤهم ملك العباسيين العريض ، فأعادوا سيرة الأشراف الأولى لأقبح ما كانت عليه من قبل ، فى سوء الأحدوثة والإيغال فى الظلم وبسط يد القهر والاستبداد على الناس ، وسنلم بشىء من هذا البحث فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله .

وقائع القادسية :

دعا رستم قومه إلى مسالمة المسلمين بعد كلام طويل جرى بينه وبين

المغيرة فأبوا عليه ، وأراد سعد أن يباشر الحرب إنذاراً للقوم آخر مرة ، فأرسل ثلاثة من ذوى الرأى إلى رستم يدعونه وقومه إلى الإسلام ، فقالوا له إن أميرنا يدعوك إلى ما هو خير لنا ولك ، والعافية أن تقبل ما دعاك إليه ، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم ، وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عوناً لكم على أحد إن أرادكم . فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يدك ، وليس بيننا وبين أن تغبط بهذا الأمر إلا أن تدخل فيه .

هذه كانت آخر دعواهم له أن يقبل الإسلام ويحتفظ بدولته وملكه وملكه ، ويبقى فى أرضه ، ويرجعون إلى أرضهم وسلطان الفرس لهم وعليهم ، لا يضارون ولا يمس جانب سلطانهم ، ولهم مع ذلك الحماية والدفع من المسلمين ، إن هذا لغاية الإنصاف ومنتهى السعادة لقوم انغمسوا فى حمأة الوثنية ، واستنامو الزعماء الجور ، لكن رستم رفض هذه الدعوة وغمط هذه النعمة مجاراة لزعماء الأمة وقادة الجيش ودهاقين البلاد ، فرد الرسل كما جاءوا أول مرة وأنذروا المسلمين بالحرب ، وهو فى باطن الأمر لا يريدها ولم يتقدم لها إلا مكرها عليها عالما بمصير قومه بعدها ، فأمر قومه بعبور النهر بعد أن سأل سعداً : أنعبر إلينا أم نعبر إليك ، فأجابه أن اعبر ، وأرسل سعد إلى المسلمين أن يقفوا مواقفهم ويأخذوا للمصاف أهبتهم ففعلوا ، وعبر إليهم الفرس من العتيق ، وجعل رستم بينه وبين يزدجرد بريداً ينقل الخبر بالصوت أى وضع رجالا فى مواقف يقرب بعضها من بعض بحيث إذا نادى الواحد يسمعه الآخر ، فيصل الخبر إلى يزدجرذ فى أقرب وقت ،

كان بسعد يومئذ مرض عرق النساء وقروح فى أليتيه ، لا يستطيع الركوب ، فبقى على سطح القصر وهو مكب على وجهه فى صدره وسادة

يشرف على الناس والصف فى أصل حائطه ، فعابه بعض الناس بذلك وذكره فى شعره وقال :

نقاتل حتى أنزل الله نصره   وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة   ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت أبياته سعداً ، فقال اللهم إن كان هذا كاذبا وقال الذى قال رياء وسمعة فاقطع عنى لسانه ، ثم نزل إلى الناس وأراهم ما به من القروح فعذروه وعلموا حاله ، ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة ودعا بناس من ذوى الرأى والنجدة ، منهم المغيرة بن شعبة وطليحة الأسدى وعمرو ابن معد يكرب وأمثالهم ، وأمرهم بتحريض الناس إلى القتال ففعلوا ، وأمر سعد الناس بقراءة سورة الأنفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم ، وعرفوا السكينة مع قراءتها ، فلما فرغ القراء منها قال سعد : الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم فإنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، فلما كبر سعد الثالثة خرج أهل النجدات فأنشبوا القتال ودارت رحى الحرب واعتور الطعن والضرب ، وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلا فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها . وأرسل سعد إلى بنى أسد ورئيسهم طليحة أن دافعوا عن بجيلة فخرج طليحة بن خويلد فى كتائبها فباشروا الفيلة ، وقام الأشعث بن قيس فى بنى كندة فحرضهم على القتال ، فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب والجالينوس ، والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد ، واجتمعت حلبة فارس على أسد فثبتوا لهم ، وكبر سعد الرابعة وزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد ، وحملت الفيول على

الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها ، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمى أن يكفيه وقومه شر الفيلة ، فتقدم عاصم بجماعة من شجعان قومه ورماتهم فقطعوا وضن الفيلة ، فعوت وفرت رجالها ونفس عن أسد ، فردوا جنود فارس عنهم إلى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ، ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ثم رجع الفريقان ، وقد أبلى بنو أسد فى ذلك اليوم - وهو يوم أرماث - بلاء عظيما .

لما أصبح القوم فى اليوم الثانى — وهو يوم أغواث — وكل سعد — بالقتلى والجرحى من ينقلهم ، فسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم وأما القتلى فدفنوا هنالك ، وبينما هم يدفنون القتلى طلعت نواصى الخيل من الشام ومعها القعقاع بن عمرو الذى قال عنه أبو بكر : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا : وقد كان عمر كتب إلى أبى عبيدة بإرسال أهل العراق إلى العراق كما تقدم فى سيرته ، فأرسلهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ابن أخى سعد ويعرف بالمرقال ، وكان القعقاع على مقدمته فتعجل فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم أغواث ، فعهد إلى أصحابه وهم ألف أن يتقطعوا أعشاراً كل ما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة ، ولما وصل سلم على الناس وبشرهم بالمدد وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع ، ثم خرج وهو ينادى بالثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب الجسر ، وطلب البراز فبرز إليه ذو الحاجب فتجاولا ساعة ثم قتله القعقاع ، ثم خرج البندوان والفيرزان فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان أحد بنى تيم اللات ، فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البندوان ، ثم ما زال يتبارز الأقران حتى انتصف النهار ، فتزاحف الفريقان واقتتلوا حتى انتصف الليل .

ثم أصبحوا يوم عماس وهو اليوم الثالث وهم على مواقفهم ، فكان من حسن مكايد القعقاع أن بات تلك الليلة يسرب أصحابه إلى المكان الذى

فارقهم فيه ، وقال إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فإن أقبل هاشم (يعنى بقية الجيش الآتى من الشام) فذاك ، وإلا جددتم للناس رجاء وجداً وأصبحوا على مواقفهم ، فلما ذر قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبر وكبر المسلمون وتقدموا ، وتكتبت الكتائب واختلفوا الضرب والطعن ، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، فأخبر بما صنع القعقاع فعبى أصحابه سبعين سبعين ، وكان فيهم قيس بن هبيرة بن عبد يغوث المعروف بقيس بن مكشوح فانتدب مع هاشم ، حتى إذا خالط الناس كبر وكبر المسلمون ، ثم حمل على المشركين حتى خرق صفهم إلى العتيق ، وكان الفرس باتوا يعملون توابيتهم ويعدون فيلتهم ، وأقبلت الرجالة تحميها أن تقطع وضنها فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأن الخيل استأنست بالرجال المطيفين بها ، وكان يوم عماس شديدا على العرب والفرس ، وقاتل فيه القعقاع وعمرو بن معد يكرب وهاشم وقيس بن مكشوح وعاصم بن عمرو وأضرابهم من أنجاد المسلمين قتالا شديداً ، وانتدب عمرو والقعقاع للفيلة فشردوها ، وما زال القتال دائرة رحاه حتى أمسوا ، فلما أمسى الناس اشتد القتال وكانت ليلة (الهرير) وكان الفرس لا يريدون غير الزحف ، فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير إذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع وقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له إن لم إن لم يستأذنى : ثم إن سعدا واعد المسلمين ثلاث تكبيرات ليزحفوا جميعهم فلما كبر الأولى تقدمت أسد ، ولله در أسد على حسن بلائها فى هذه الحرب فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم : ثم حملت النخع ثم بجيلة ثم كندة ، ثم زحف الرؤساء ورحى الحرب تدور على القعقاع ، وتقدم حنظلة بن الربيع وأمراء الأعشار وطليحة وغالب وجمال وأهل النجدات ، ولما كبر سعد الثالثة تلاحق الناس بعضهم ببعض ، وخالطوا جنود الفرس واستقبلوا الليل استقبالا بعد ما صلوا العشاء ، وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم

إلى الصباح ، وأفرغ الله الصبر عليهم إفراغا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط . فلما كان عند الصبح انتمى الناس أى (انتسبوا) فاستدل سعد بذلك على أنهم الأعلون وأن المسلمين هم الظافرون ، وكان أول شىء سمعه نصف الليل الباقى صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول :

نحن قتلنا معشراً وزائدا أربعة وخمسة وواحدا
نحسب فوق اللبد الأساودا حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربى واحترزت عامدا

وأصبح الناس من تلك الليلة التى تسمى ليلة (الهرير) وهم حسرى لم يغمضوا أجفانهم ، فسار القعقاع فى الناس ، فقال إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء ، وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه، فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا . لا يكونن هؤلاء أجد فى أمر الله منكم ، ولا هؤلاء (يعنون الفرس) أجرأ على الموت منكم ، فحملوا فيما يليهم واقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة ، فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حيث انتهيا ، وانفرج القلب وركب عليهم النقع ، وهبت ريح عاصف ، فقلعت طيارة رستم فهوت فى العتيق ، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير وقد قام عنه رستم ، وجاء هلال بن علقمة فضرب رستم فقتله ، ونادى إلىّ إلى قتلت رستم ، فأطاف به الناس وانهزم قلب الفرس ، فقام الجالينوس على الروم ونادى الفرس إلى العبور ، وأما المقترنون بالسلاسل فتهافتوا كلهم فى العتيق ، وأخذ ضرار بن الخطاب درفش كابيان ، وهو العلم الأكبر الذى كان للفرس (مر خبره فى سيرة أبى بكر) فعوض منه ثلاثين ألفاً ونقل سعد سلب رستم لقاتله هلال .

كانت وقائع القادسية هذه من أعظم الوقائع التى دونها التاريخ ، وقتل فيها من المسلمين نحو سبعة آلاف وخمسمائة ، وأما من قتل من الفرس فعدد كبير بالغ فيه المؤرخون وانتهت هذه الوقائع بكسر شرة الفرس وفل حدهم ، وتشتت جندهم ودخول الوهن على نفوسهم ، كما كان ذلك مع الروم فى وقعة اليرموك . والغريب فى هذا أن عدة المسلمين كانت ضعيفة لا تشا كل عدة الفرس العريقين فى المدنية ، الماهرين فى الصناعات لا سيما فى الأدوات الحربية ، حتى لقد روى المؤرخون أن الفرس كانوا يشبهون سهام العرب بالمغازل ، فقد روى البلاذرى عن أبى رجاء الفارسى عن أبيه عن جده قال : حضرت وقعة القادسية فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول (دوك دوك) نعنى مغازل ، فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالت أمرنا .

وقد غنم المسلمون فى القادسية غنائم كثيرة الله أعلم بمقدارها ، ولما جمعت الأسلاب والأموال جمع شىء لم يجمع قبله مثله ، وأمر سعد القعقاع وشرحبيل بن السمط باتباع الفارين ، وخرج زهرة بن الحوية التميمى فى آثارهم فى ثلاثمائة فارس ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم ، فقتله زهرة وأخذ سلبه وأمعنوا فيمن لحقوه قتلا وأسرا ، ورؤى شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسرى من الفرس ، وهو دليل على ما أصاب القوم من الذعر والخوف وما داخلهم من الجبن بعد القادسية التى رأوا فيها من قتال المسلمين ما تشيب له الولدان ويخفق عند ذكره الجنان .

رأى سعد سلب الجالينوس فاستكثره على زهرة بن الحوية وليس له أن يستكثر عليه مثله فى مثل موقفه ذلك ، فكتب إلى عمر فى ذلك فأخذ عليه عمر استكثاره على زهرة سلب الجالينوس وكتب إليه : تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى (سبق) بمثل ما صلى به وقد بقى عليك من حربك ما بقى .

تفسد قلبه ؟ أمض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة : ونعم مافعل عمر رضى الله عنه فقد أنصف الرجل من جهة ، ونبه سعداً من جهة ثانية إلى وجوب تألف كبار الناس فى مواقف الحروب امتلاكا لقلوبهم ، وتقديراً لقدر خدمتهم .

لما رأى جنود الفرس بعد وقعة القادسية ما رأوا من ظفر المسلمين ، وهالهم أمر الإسلام استأمن قسم عظيم منهم على أن يكونوا من جند المسلمين وكان مع رستم أربعة آلاف جندى يسمون جند شهانشاه (ولعلهم من الحرس الملكى) استأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ، ويحالفوا من أحبوا ، ويفرض لهم فى العطاء ، فأعطوا الذى سألوه ، وحالفوا زهرة بن حوية السعدى التميمى ، وأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم فى ألف ألف : نقل هذه الرواية البلاذرى فى فتوح البلدان ، وهى إذا صحت تدل على جواز استخدام الذمى فى الجند الإسلامى إذا طلب ذلك ، ولا يعترض هنا أن الفرس من المجوس وهم غير أهل الذمة من الكتابيين ، فإن عمر كان يعامل المجوس معاملة أهل الذمة من حيث الجزية وغيرها ، فقد روى البلاذرى أيضا عن جعفر بن محمد عن أبيه ، قال كان للمهاجرين مجلس فى المسجد « للمشاورة » فكان عمر يجلس معهم ، ويحدثهم عما ينتهى إليه من أمر الآفاق « ليستشيرهم فى الأمور » : فقال يوماً ما أدرى كيف أصنع بالمجوس ، فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال : أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سنوا بهم (أى بالمجوس) سنة أهل الكتاب » .

ومن هذا الحديث نعلم أن المجوس فى المعاملة الشرعية كأهل الكتاب ، لهذا عاملهم عمر رضى الله عنه معاملة أهل الكتاب .

فتح المدائن

عاصمة الأكاسرة :

إن واقعة القادسية كانت كما ذكرنا مقدمة لتوهين قوة الفرس وتمهيداً للوصول إلى عاصمة الأكاسرة التى كانت أم البلاد الفارسية ، ومعقل الأسرة الكسروية ، لهذا كان ما كان من سعد فى القادسية من طول التأنى والتريث فى أمر الحرب ، وأخذ العدة ومطاولة العدو حتى أضجر رستم من طول المكث ، وجعله يهاجم جيش المسلمين مهاجمة اليائس من الظفر بعد أن رأى ما رأى من ثبات العرب ورزانتهم وحسن قيام رؤسائهم على أمور الحرب : ولما انتهى أمر القادسية إلى ما انتهى إليه أقام سعد بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل ، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً وأن يشركهم فى كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم : ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقين من شوال سنة خمس عشرة ، وقدم أمامه عبد الله بن المعتم وزهرة بن حوية وشرحبيل بن السمط ، فلقيهم فى برس جمع من الفرس فهزمهم المسلمون ففروا إلى بابل وفيها فالة القادسية ، ولما هزموا أقبل بسطام دهقان برس فصالح زهرة ، وعقد له الجسور وأخبره بمن اجتمع ببابل فأرسل زهرة إلى سعد يعرفه الخبر فقدم عليه سعد ببرس وسيره فى المقدمة ، واتبعه عبد الله وشرحبيل وهاشما المرقال ابن أخيه واتبعهم هو ببقية الجيش فنزلوا على الفيرزان ببابل فاقتتلوا فهزمهم المسلمون ، وكان فيهم عدة من القواد الكبار منهم النخيرخان والهرمزان ومهران ، فانطلق هؤلاء القواد كل إلى جهة ، فأخذها ورحل سعد وعلى مقدمته زهرة فالتقوا بجمع من الفرس فى كوثى فهزموهم ، ثم ارتحلوا إلى بهرشير وهى المدائن الغربية ،

فلما وصلها المسلمون ورأوا الإيوان قال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى . هذا ما وعد الله ورسوله : وكبر وكبر الناس معه ، فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة ، وكان نزولهم عليها فى ذى الحجة سنة خمس عشرة ، وإنما كانوا يكبرون لتحقق وعد رسول الله لهم بملك كسرى ، والذى أخذ بأفئدة العرب فاستكانوا للدعوة وأخلصوا للإسلام النية ، وتفانوا فى سبيل نشر الدين ورفع رايته على صروح الممالك إنما هو تحقق وعد النبى صلى الله عليه وسلم لهم بمصير ملك فارس والروم إليهم ، حتى إن هذا الأمر كان من أعظم البواعث على إخلاص كثير من المنافقين وحسن إسلامهم ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كانوا من أعوان الإسلام وقادة الفتح بعد : ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين .

نزل المسلمون على بهرشير وهى على شاطىء دجلة الغربى وحاصروها نحو شهرين ، وهم يرمون العدو بالمجانيق ، ويدبون إليهم بالدبابات ، ويقاتلونهم بكل عدة ونصبوا على المدينة عشرين منجنيقاً ، حتى ضيقوا على أهلها الحصار ، وباتوا فى ضنك شديد ، فأكلوا الكلاب والسنانير ، وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم ، وبالنهاية غادروا المدينة ، وقطعوا إلى المدينة الثانية فأخذها سعد وأنزل المسلمين منازلها وكان فتحها فى صفر سنة ست عشرة .

أقام سعد فى بهرشير أياماً من صفر ، وهو يفكر فى كيفية العبور إلى المدينة الثانية ، التى فيها إيوان كسرى فأتاه علج فدله على مخاضة تخاض إلى صلب الفرس ، فأبى وتردد عن ذلك لأن النهر كان كثير المد يومئذ ودجلة تقذف بالزبد ، فجاءه آخر وحرضه على العبور ، وقال إن بقيت ثلاثة أيام فإن يزدجرد يذهب بكل شىء فى المدائن ، فهيجه ذلك على العبور فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه ويخلصون إليكم إذا شاءوا فى سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه . وقد كفاكم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم . وقد رأيت من الرأى أن تجاهدوا العدو قبل أن تحصدكم الدنيا . ألا إنى قد عزمت على قطع النهر : إليهم

فقالوا جميعاً عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل : فندب الناس إلى العبور وقال : من يبدأ ويحمى لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من العبور ؟ فانتدب عاصم بن عمرو ذا البأس فى ستمائة من أهل النجدات ، فاستعمل عليهم عاصماً فقدمهم عاصم بستين فارساً على الخيل الذكور والإناث ليكون أسلس لسباحة الخيل . ثم اقتحموا دجلة فلما رآهم الفرس وما صنعوا أخرجوا للخيل التى تقدمت مثلها فاقتحموا عليهم دجلة فلقوا عاصما وقد دنا من الفراض ، فقال عاصم : الرماح الرماح اشرعوها وتوخوا العيون : فالتقوا فاطعنوا وتوخى المسلمون عيونهم ، فولوا فلحقهم المسلمون وتلاحق الستمائة بالستين غير متعبين ، ولما رأى سعد عاصماً على الفراض قد منعها . أذن للناس بالاقتحام ، وتلاحق الناس فى دجلة حتى إذا بلغوا الضفة الثانية ورأى الفرس ذلك ولوا هاربين : وكان يزدجرد قدم عياله إلى حلوان قبل ذلك ، وخلف جماعة على بيت المال من خواص أصحابه، فخرجوا بما قدروا عليه وتركوا من المتاع والآنية والألطاف شيئاً كثيراً ، مع ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم ، وذكر المؤرخون عما وجد فى بيت المال مقداراً فيه من الغلو والمبالغة ما يرفضه العقل وهو ثلاثة آلاف ألف ألف ألف وقد نقل هذا العدد ابن الأثير عن الطبرى والطبرى أعقل من أن لا يحكم العقل فى إيراد مثل هذا العدد ، وإنما هو من تحريف النساخ أو من حشو بعض أغبياء الناس إذ وجود ثلاثة آلاف ألف أى ثلاثة

ملايين بلا تكرير ثلاث مرات أمر يستبعده العقل فكيف به لو كرر، وقد رأينا كثيراً من أمثال هذه الروايات الكاذبة فى التاريخ ، وإنما يظهر كذبها بقليل من التبصر والإمعان ، ومعظمها ناشىء عن التحريف فى النقل والمسخ فى النسخ

لما دخل المسلمون المدينة لم يجدوا بها أحداً إلا حامية القصر الأبيض ، وهؤلاء استأمنوا فى الحال ودخل سعد الإيوان واتخذ فيه مصلى للمسلمين ، ولم يغير ما فيه من التمثيل وإنه ليصلى بالناس والتماثيل قائمة فيه : وقرأ سعد يوم دخوله الإيوان « كم تركوا من جنات وعيون وزروع » الآية

وجمع سعد من الغنائم ما يفوق الحصر ، ومنها ذخائر كسرى وسلاحه وناهيك بذخائر الأكاسرة . وقسم الفىء على الجند فأصاب الفارس اثنى عشر ألفاً ، وكان كلهم فارس ليس فيهم راجل وبعث بالأخماس إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده فلما رآها قال : إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة : فقال له على رضى الله عنه إنك عففت فعفت الرعية

ولاجرم فإنه مع إقبال هذه الدنيا العريضة على المسلمين يومئذ ، وامتلاء أيديهم بالغنائم وصيرورة كنوز فارس إليهم ، كانوا على جانب من عزة النفس والأمانة والتعفف قل ماصدر عن جيش من جيوش الفاتحين . وخذ لك مثلا على ذلك أن رجلا من المسلمين أقبل يومئذ بحق (علبه) إلى صاحب الأقباض فقال ومن معه : مارأينا مثل هذا مايعدله (يماثله) عندنا ولامايقاربه: فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به : فقالوا من أنت ؟ فقال والله لا أخبركم فتحمدونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه : فأتبعوه رجلا فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن عبد قيس وقال سعد : والله إن الجيش لذو أمانة ولولا ماسبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل

بدر ، لقد تتبعت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء .

وقال جابر بن عبد الله : والذى لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة . فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأماناتهم وزهدهم ، وهم طليحة ، وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن المكشوح .

إلى هذا الحد بلغت العفة والأمانة من المسلمين يومئذ ، وإنما كان الباعث لهم على ذلك أمور ، منها جدة الدين والإخلاص لله فى الجهاد ، ومنها القناعة بكل ما حصل واعتباره أنه نعمة عظمى بالنسبة لما كانوا عليه قبل الإسلام من شظف العيش ، وضنك الحياة يضاف إلى هذا سذاجتهم الفطرية ومعيشتهم البدوية ، حتى لقد روى أن بعضهم أخذوا الكافور فظنوه ملحاً وطبخوا به الطعام : وكان بعضهم يستبدل الذهب بزنته فضة ، وبالجملة فقد بلغ جيش المسلمين هذا من الأمانة والإخلاص وسلامة القلوب وصدق القول والعمل منتهى المراتب ، حتى أثنى الناس على جيش القادسية خير الثناء كما رأيت ، وقال عمر عنهم : أولئك أعيان العرب .

لما استتم لسعد فتح المدائن واستقر به المقام ، أرسل فى أثر المنهزمين زهرة بن الحوية إلى النهروان ، وأتاه أهل النواحى واستأمنوه وصالحوه على الجزية ، ولم يدخل فى صلحهم ما كان لآل كسرى إذ هذا صار فيئاً للمسلمين.

ثم سير جيشا عليه عبدالله بن المعتم إلى الجزيرة ففتح تكريت والموصل وقد تقدم الخبر عن ذلك فى سيرة عمر والخلاف بين المؤرخين فى فتح الموصل ، هل كان على يد عياض بن غنم لما أرسله عمر لفتح الجزيرة سنة ١٨ ، أم كان على يد عبد الله بن المعتم من قبل سعد بن أبى وقاص سنه ١٦ والأرجح أن فتح الموصل كان سنة ١٦ من قبل سعد بن أبى وقاص ، وفتح عامة الجزيرة كان سنة ١٨ عن يد عياض بن غنم ، لأن عياضا تولى فتح

الجزيرة بعد وفاة أبى عبيدة ، وكانت وفاة أبى عبيدة سنة ١٨ وقد مر الخبر عن ذلك فى سيرة عمر فى أخبار فتح الجزيرة فليراجع .

وسير سعد جيشا إلى حلوان بقيادة هاشم بن عتبة ، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو فكان لهم مع الفرس وقعة جلولاء الشهيرة التى تشبه وقعة القادسية ، ثم قصد القعقاع حلوان حيث يقيم كسرى، وكان كسرى قد فر منها منذ وصل المنهزمون من وقعة جلولاء ، فنزلها القعقاع فى جند من الأمناء والحمراء (أى متطوعة الأعاجم) ونازلها حتى افتتحها وبقى القعقاع فيها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة فلحقه القعقاع ، واستخلف على حلوان قباذ وكان أصله خراسانيا . ويظهر من هذا أن المسلمين لما توسعوا فى الفتح اضطروا بحكم الضرورة إلى مشاركة الأعاجم فى الأمور الحربية والإدارة ، بدليل نزول القعقاع على حلوان بجند من الأعاجم ، ثم تسليمه ولايتها إلى قباذ أيضا . على أن مشاركة الأعاجم فى أمور الفتح وتدبير شؤون البلاد يومئذ من أحسن مارمت إليه سياسة المسلمين ، لأن القوم يتأسون بمثل هذه المعاملة الجميلة فيكونون عونا للمسلمين فى تدويخ البلاد وتدبير أمور السياسة، ولعل هذه السياسة الحسنة التى كانت من عمر وقواده فى مشاركة الأعاجم ، كانت من ممهدات الفتح وأسباب سرعة انتشار الإسلام ورفع أعلامه فى أقاصى البلاد ، إذ تسامح الفاتح وملاينته لأهل البلاد وتخصيصهم بشىء من السلطة من أعظم الأسباب الممهدة سبيل الظفر للفاتحين .

أتم سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ماعهد إليه من فتح المدائن وفل جيش الفرس فى القادسية ، وهدم عرش الدولة القديمة ودوخ عاصمة ملكها العظيم ، فانحدرت من شاهق مجدها المتأثل فيما بعد إلى هاوية الخراب ، حيث قامت مقامها فى تلك الأصقاع بغداد دار الخلافة العباسية ومنبعث أشعة التمدن الإسلامى العظيم .

وإذا نظرت إلى البلاد رأيتها   تشقى كما تشقى لعلها (العباد) وتسعد

على أن ماضمته بغداد تحت جناحى الخلافة الإسلامية من الممالك الشاسعة والأمصار النائية لم تضمه المدائن فى عهد الدولة الساسانية . والفضل فى هذا لسعد وأضرابه من أقيال الصحابة السابقين ، ورجال خلافة الراشدين ، جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين .

تخطيط الكوفة وإمارته عليها

أقام سعد بالمدائن بعد الفتح فأضر بالعرب وخامها ، وكان أوفد منهم بخبر الفتح وفداً إلى عمر فرأى اصفرار وجوههم وتغير ألوانهم فسألهم عن السبب ، فأخبروه أنه وخومة البلاد ، فكتب إلى سعد أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر ، فأرسلهما سعد فخرج سلمان حتى أتى الأنبار ، فسار فى غربى الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة وسار حذيفة فى شرقى الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة (وكل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة) فأعجبتهما البقعة ، فنزلا فيها فصليا ودعوا أن تكون منزل ثبات ، ورجعا إلى سعد بالخبر فكتب سعد إلى القعقاع بن عمرو وعبد الله بن المعتم أن يستخلفا على جنديهما ويحضرا عنده فارتحل حتى نزل الكوفة فى المحرم سنة (١٧ هـ) وكان بين نزول الكوفة ووقعة القادسية سنة وشهر ، وقيل أكثر فلما نزلها كتب إلى عمر ، فكتب إليه بالبناء على الوجه الذى تقدم فى سيرة عمر (رضى الله عنه) وأقام سعد والياً على الكوفة وتوابعها نحو ثلاث سنين ونصف ، وكان حسن الإمارة ، كثير التتبع لأحوال الرعية ، منصفاً بين المسلمين ، شديداً على المعتدين ، وكان عمر لا يفتأ يسأل عن سيرته كما هو دأبه مع جميع العمال ، فوفد عليه مرة عمرو بن معد يكرب الزبيدى فسأله عنه فقال : متواضع فى خبائه ، عربى فى نمرته ، أسد فى تاموره ، (عرينه) يعدل فى القضية ، ويقسم

بالسوية ، ويبعد فى السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة .

إلا أن أهل الكوفة لما أخلدوا إلى الراحة وأخذ يتولد فيهم الفساد ، ويظهر التحزب ، وجعلوا يأنفون من سيادة قريش لإدلالهم بالفتح وطول معاناتهم للحرب مع الفرس وغيرهم ، سعى قوم منهم بسعد بن أبى وقاص وألبوا عليه ، وكان أكثرهم من بنى أسد وكان ممن تحرك فى أمره الجراح ابن سنان الأسدى . وكان مما عابوه عليه أنه لايحسن الصلاة . فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للفرس فى نهاوند ، فسأل عن سيرته فى الكوفة فكلهم قال خيراً ، سوى من مالأ الجراح فإنهم سكتوا ولم يقولوا سوءا ولا يسوغ لهم حتى انتهوا إلى بنى عبس ، فسألهم فقال أسامة بن قتادة: اللهم إنه لايقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية ولا يغزو فى السرية : فقال سعد : اللهم إن كان قالها رياء وكذباً وسمعة ، فأعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن : فأصابته دعوة سعد . ثم دعا سعد على أولئك النفر فأصيبوا وأصيب الجراح ، إذ قطع بالسيوف يوم بادر الحسن بن على رضى الله عنه ليغتاله بساباط .

وخرج محمد بسعد وبهم معه إلى المدينة فقدموا على عمر فأخبروه الخبر: فقال كيف تصلى ياسعد : قال أطيل الأوليين وأخفف الأخريين : فقال هكذا الظن بك يا أبا إسحاق : ثم إن عمر دفعاً للفتنة فى وقت يريد به تجهيز الجيوش لنهاوند ، حيث يعد الفرس العدة العظيمة لحرب المسلمين عزل سعداً ، وولى مكانه خليفته على الكوفة وهو عبد الله بن عبد الله بن عتبان : وأراده عمر على الإمارة مرة ثانية فأبى ، وقال كيف أتأمر على قوم يزعمون أنى لا أحسن أصلى : ولما طعن عمر أوصى الخليفة بعده أن يؤمر سعداً فأعاده عثمان رضى الله عنه إلى الكوفة ثم عزله ، لأنه اقترض من عبد الله

ابن مسعود من بيت المال قرضا ، وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالقبيح ورفع سعد يده ليدعو على ابن مسعود . فقال له : ويحك قل خيراً ولا تلعن : وبلغ عثمان الخبر فعزله عن الكوفة ، فاعتزل فى منزله فى العقيق قرب المدينة . وقدمنا أن عمر رضى الله عنه كان يصادر عماله فلما كان سعد أميراً من قبله على الكوفة شاطره ماله ، فقال له سعد لقد هممت قال عمر : بأن تدعو على ؟ قال : نعم قال : إذاً لاتجدنى بدعاء ربى شقياً .

نبذ من أخباره واعتزاله الفتنة

(صدقه فى الحديث) كان سعد رضى الله عنه صادق الحديث ، صادق الرواية ، لما فطر عليه من صدق اللهجة وقول الحق : روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبى وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مسح على الخفين ، وأن عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : إذا حدثك سعد عن رسول الله فلا تسأل عنه غيره . وفى رواية : فلا تبتغى وراء حديثه شيئاً .

وقد بلغ به الحرص على صدق الحديث أن كان يضن بالرواية خوف التحريف ، ونقل مالم يقل ، ففى رواية ابن عساكر عن السائب بن يزيد : قال خرجت مع سعد إلى مكة فما سمعته يحدث حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رجعنا إلى المدينة : وروى عن عائشة بنت سعد قالت سئل سعد عن شىء فاستعجم ، فقيل له فى ذلك، فقال إنى أكره أن أحدثكم حديثا فتجعلوه مائة حديث .

ومن البديهى أن سعداً ما قال هذا القول إلا لأنه يخاف كما كان يخاف كبار الصحابة ، ومنهم عمر وأبو عبيدة من كثرة الرواية وتحريف النقل ، ووضع الحديث ، ومن علم بما حدث من الوضع لاسيما فى أيام الفتن العظمى ،

التى ثار ثائرها بين المسلمين عذر هؤلاء الصحابة وأشباههم على تجنب رواية الحديث والنهى عنه إلا ماتعلق منه بالأحكام ، وحسب الأمة ما أصابها من البلاء وتفريق الكلمة مما وضعه يومئذ الشيعة وأعداؤهم من الأحاديث ، التى يريد بها كل فريق تأييد دعواه وتعزيز جانبه ، ولو لم يكن من البلاء إلا ما دخل فى نفوس العامة ووقر فى آذانهم من أخبار المهدى المنتظر لكفى ذلك ، وهنا على الأمة وهونا على الأمة وهونا لها لترك عامتها التذرع بالأسباب عند حلول كل حادث جلل اعتماداً على ظهور ذلك المنتظر ، وطالما تظاهر أناس بهذه الدعوى الباطلة وغشوا العامة بأكاذيبهم المفتراة ، ولم ينشأ عن دعواهم من دفع البلاء الذى يرجوه العامة إلا زيادة فى البلاء ، وسفكا للدماء ، وتفريقا بين الأمة وتشتيتاً للكلمة ، ومع هذا فليس ثمة من يعتبر بكذب تلك الأخبار المفتراة ، ويزدجر عن غى النفس وإضلال العقل وغش الضمير : وماذا عسانا نقول عن واضعى أمثال تلك الأخبار . وما أصاب الأمة من جرائها شاهد عدل يشهد بأنهم لم يريدوا بها الإسلام خيرا . ومن كان هذا شأنه فأحرى به ألا يحشر مع المؤمنين . ولنا كلام على أحاديث المهدى وما جرت من المصائب على الأمة نرجئه لمحل آخر ، وكلام أعم منه يجول فى الضمير ويحجم عنه اللسان ، أدبا مع أسلافنا الغابرين وتفادياً من تهجم الجاهلين .

(ومن محاسن أقواله) ما رواه ابن عساكر عن المدائنى قال : قال سعد لابنه : إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فإنه من لم يكن له قناعة لم يغنه مال .

(ومن جميل خلق سعد) ما رواه ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال : كان بين سعد وخالد بن الوليد كلام فذهب رجل يقع فى خالد عند سعد فقال : مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننا .

وما أخلق بأهل الفضيلة وأرباب العقل والدين الختم على أفواه النمامين ،

والأخذ على أيدى المغتابين كما صنع سعد رضى الله عنه ، إذ ليس أفسد للقلوب وأفصم لعرى التآلف وأدعى لبث روح البغضاء بين الأفراد من الغيبة والنميمة ، وشر الناس الذين هم شرٌّ على المجتمعات النمامون المغتابون الساعون بالتفريق الدائبون على الوشاية . ومن أراد أن يعلم مصير الأقوام الذين يتفشى بينهم هذا الداء العضال ، والمرض القتال مرض الوشاية فليطلق نظر المتأمل على ما أصاب بعض الممالك الإسلامية ، ليرى من تباغض الأفراد وتناكر القلوب وتداعى أركان العمران ، وهدم بيوت المجد وتقويض أسس السعادة القومية والإخاء الجنسى والدينى مالا دليل على سوء مغبة النميمة أعظم منه .

واعلم أنه وإن كان أكثر ما يؤثر على حياة الأمم ويبعث على زوال الدول هو فساد الأخلاق عامة ، إلا أن لفعل هذا الخلق « أى خلق النميمة والسعاية » خاصة أثراً قبيحاً فى الوجود يربو على كل أثر من آثار فساد الأخلاق وفقد التربية ، لأنه إذا فشا فى قوم فأكثر ما ينزع إليه الأمراء توصلا بزعمهم إلى اكتناه كنه القلوب ، ووقوفا على ضمائر الرعية وهيهات أن يجدوا وسيطا لنقل أخبار الناس إليهم ، إلا من انغمس فى حمأة الشر واطّرح رداء الحياء وغلب عليه حب الشهرة وفقد المروءة ، وتجرد عن الفضيلة فيسعى فى التفريق بين الأمير والمأمور والحاكم والمحكوم ، لزلفى يريدها ودناءة يتوخاها وفى هذا من المضرة مالا يخفى على أعمى فضلا عن البصير ، إذ كلمة سوء واحدة تلقى لسلطان جائر مثلا تكفى لهدم ملك كبير ، واستمراء شر عظيم ، وقيام فتن عمياء ، تضطرب لها الدهماء ، كما سيمر عليك مفصلا فى محله من هذا الكتاب إن شاء الله .

(ومن أخباره فى القادسية) ما رواه صاحب الأغانى أن عمر بن الخطاب كتب إليه ، أن نض ما زاد من أموال الغنائم على حملة القرآن ، فأتاه عمرو

ابن معد يكرب فقال له : مامعك من كتاب الله تعالى ؟ فقال إنى أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن : قال مالك فى هذا المال نصيب : وأتاه بشر بن ربيعة الخثعمى فقال : مامعك من كتاب الله ؟ قال بسم الله الرحمن الرحيم . فضحك القوم منه ولم يعطه شيئاً فقال عمرو فى ذلك :

إذا قُتلنا ولا يبكى لنا أحدٌ — قالت قريش ألا تلك المقاديرُ
نعطى السوية من طعن له نفذٌ — ولا سوية إذا تعطى الدنانيرُ

وقال بشر بن ربيعة :

أنختُ بباب القادسية ناقتى — وسعدُ بنُ وقاص علىّ أميرُ
وسعد أمير شره دون خيره — وخير أمير بالعراق جريرُ
وعند أمير المؤمنين نوافل — وعند المثنى فضة وحريرُ
تذكر هداك الله وقع سيوفنا — بباب قُدَيس والمكر عسيرُ
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم — يعار جناحى طائر فيطير
إذا مافرغنا من قراع كتيبة — دلفنا لأخرى كالجبال تسير
ترى القوم فيها أجمعين كأنهم — جمال بأحمال لهن زفيرُ

فكتب سعد إلى عمر رضى الله عنه بما قال لهما ، وما ردا عليه وبالقصيدتين ، فكتب إليه أن أعطهما على بلائهما . فأعطى كل واحد منهما ألفى درهم .

اعتزال الفتنة :

نريد بالفتنة فتنة عثمان وعلى طلحة ومعاوية والزبير التى تحزب فيها المسلمون أحزابا كل حزب بما لديهم فرحون ، وهى الفتنة التى يقف دونها عقل الحكيم حائراً بين الأقدام على خوض عبابها واستكناه كنه خباياها، وبين الإحجام عنها وإلقاء أخبارها على علاتها وغض الطرف عما انطوى

فى ثناياها . لا لأنها أول بادرة بدرت فى الملك وفتنة ظهرت فى الدول ، كلا إن قيام الدول واستصفاء الملك إنما يتم بوجود أحزاب ينصرون النازع إلى الملك ، وأعوان يتبعون القوة أو يناضلون عن صاحب الحق فى كل قوم وعصر . وإنما صبغ السلف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذى يجعل الباحث بين إقدام وإحجام مع أنها فتنة سياسية تابعة لمجرى السنن الطبيعية فى الدول، إذ مادامت شؤون البشر لا تستقيم إلا بالوازع والمجتمعات لا تقوم إلا بحاكم يدبر أمورها وينظم شؤونها وينفذ قوانينها ، فالخلاف على رئاسة الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين إليه القادرين عليه ، فى كل أمة وجيل ، وتنازع البقاء فى الملك أمر طبيعى كما هو فى كل الأشياء كما سنفيض فى هذا البحث عند الكلام على هذه الفتنة ، وإنما اجتزأنا عنه بهذه المقدمة تمهيداً لما سيتلوه من الكلام فى غير هذا المحل إن شاء الله .

رأى سعد بن أبى وقاص أن الأمة انقسمت فى أمر الخلافة إلى أحزاب، كل حزب يرى أن صاحبه على حق ، وأنه بالخلافة أحق ، وأن الأمر لا ينقضى إلا بالمغالبة بين النفر المتطلعين إلى الخلافة ، وهذا يجر إلى سفك الدماء وامتداد شواظ الحرب ، وإن فتنة هذا شأنها فالغالب والمغلوب ملوم فيها ، وليس فى طوقه رتق فتق فتقه الطموح إلى الخلافة وسد ثلمة اندفع منها تيار الأمة ، فلم يسعه إلا اعتزال الفتنة والبعد عن مواقف الحرب حتى ينجلى الغبار وتنتهى الأمور إلى حدها ، ويعود السيف إلى غمده ، فاعتزل خارج المدينة وأمر أن لا يخبروه بشىء حتى يجتمع الناس على إمام .

واعلم أن سعداً من الحقيقين بالخلافة وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد إليهم عمر ، وقد كان له عصبية كبيرة تريدها على الخلافة وهو يأباها لا عن ضعف بل عن حب للسلامة . وتجنب للانغماس فى الدماء ، يدلك عليه أن ابنه عمر وابن أخيه هاشم أرادا أن يدعو إلى نفسه وقال له ابن أخيه إن مائة ألف سيف تريده على الخلافة فأبى .

روى ابن عساكر عن بعض أهل العلم أن هاشما قال له : إن ههنا مائة ألف سيف يرونك أنك أحق الناس بهذا الأمر : فقال أزيد من مائة ألف سيف سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع : فانصرف من عنده إلى على بن أبى طالب فكان فى أصحابه وقاتل معه .

وروى عن المطلب عن عمر بن سعد أنه جاءه ابنه عامر (يدعوه لطلب الخلافة) فقال : أى بنى أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأساً ، لا والله حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مسلما نبا عنه ، وإن ضربت به كافراً قتله .

وإنما يريد بهذا أنه يعلم أن المتقاتلين جميعهم من أهل الإسلام ، وأن له من صدق إيمان الجميع الظاهر ، وليس له أن يعلم السرائر ليقاتل الباغى بسيفه فإذا قتله فلا يأثم ولا يلام .

ولما اشتد الأمر على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعانى من شيعته ماعاناه من أعدائه ، قام على منبر الكوفة فقال : قد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فعصيتمونى : فقام إليه فتى آدم فقال : إنك والله مانهيتنا ولكنك أمرتنا فدمرتنا ، فلما كان منها ماتكره برأت نفسك ونحلتنا ذنبك فقال على : وما أنت وهذا قبحك الله ، والله لقد كانت الجماعة فكنت بها جاهلا فلما ظهرت الفتنة نجمت فيها نجوم قرن الماعز ، ثم التفت إلى الناس فقال يغبط سعداً وعبد الله بن عمر على اعتزالهما الفتنة : لله منزل نزله سعد وابن عمر لئن كان ذنباً إنه لصغير مغفور ، وإن كان حسناً إنه لعظيم مشكور ، (أخرجه ابن عساكر) .

وأما معاوية فقد طمع فى اعتزاله واعتزال ابن عمر ومحمد بن مسلمة ، وكاتبهم يستميلهم للقتال معه فأجابوه بالرفض ، وكان كتب إلى سعد بن أبى وقاص ماصورته :

سلام عليك ، أما بعد فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش ، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ونصره طلحة والزبير ، وهما شريكاك فى الأمر ونظيراك فى الإسلام ، وخفت لذلك أم المؤمنين فلا تكره ما رضوا ، ولا ترد ماقبلوا ، وإنما نريد أن نردها شورى بين المسلمين والسلام :

فأجابه سعد بما صورته :

أما بعد فإن عمر لم يدخل فى الشورى إلا من تحل له الخلافة ، فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ، غير أن علياً كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه ، ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ولو بأقصى اليمن ، وهذا الأمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره . وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما . والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت : وفى هذا الجواب من اعتدال اللهجة وعدم مساس جانب أحد من المتقاتلين ما يعرف منه ابتعاده عن سوء الظن بأحد منهم ، وتبرأوه بتاتا من أمرهم . وروى أنه كتب إليه أبيات شعر ، ولعلها كانت جوابا بالكتاب آخر كتبه إليه وهى:

معاوى داؤك الداء العياء ... وليس لما تجىء به دواء
أيدعونى أبو حسن على ... فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له اعطنى سيفاً بصيرا ... تميز به العداوة والولاء
أتطمع فى الدنيا أعيا عليا ... على ماقد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حياً ... وميتا أنت للمرء الفداء

ويؤخذ من هذه الأبيات أن قلب سعد كان مع على رضى الله عنهما ، لكنه رأى الحياد أسلم فلزمه واعتزل بحيث لا يكون له ولا عليه ، وقد عظم عليه قتل عثمان رضى الله عنهما واشتد عليه أمر هذه الفتنة لهذا قال : مابكيت

من الدهر إلا ثلاثة أيام يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويوم قتل عثمان . واليوم أبكى على الحق فعلى الحق السلام : رواه ابن عساكر) .

ولما استتبت الخلافة لمعاوية جاء سعد بن أبى وقاص فدخل على معاوية ، فقال له أين كنت فى هذا الأمر ؟ فقال : إنما مثلنا ومثلكم كمثل ركب كانوا يسيرون فأصابتهم ظلمة فقالوا : أخ أخ : فقال معاوية ما فى كتاب الله : أخ أخ : ولكن فى كتاب الله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله »، فبايعه سعد وماسأله شيئاً إلا أعطاه (أخرجه ابن عساكر) عن حفص وأخرجه من طريق آخر بمعنى آخر ، وربما جاء معنا فى غير هذا المحل إن شاء الله .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الأمر له قال له : السلام عليك أيها الملك : فضحك معاوية وقال، ما كان عليك يا أبا إسحق لو قلت : يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أتقولها جذلان ضاحكا ، والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به : يريد أنه وليها بالسيف ، لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا فقال له « أيها الملك » استخفافا بشأن الملك وتعظيما للخلافة التى ذهبت مع الراشدين رضى الله عنهم أجمعين .

وفاته وصفته وولده

أجمع أهل الأخبار على أن سعداً رضى الله عنه اعتزل بعد الفتنة فى منزل له بالعقيق على عشرة أميال من المدينة حتى توفاه الله ، ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من صوف فقال : كفنونى فيها لأنى لقيت المشركين فيها يوم بدر وهى علىّ وإنما كنت أخبؤها لهذا .

ولما مات حمل من العقيق على أعناق الرجال حتى أتى به المسجد ، فوضع عند بيوت النبى صلى الله عليه وسلم بفناء الحجر فصلى عليه مروان بن الحكم . وكان والياً على المدينة وذلك سنة خمس وخمسين . وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة ، على قول من قال إنه أسلم وهو ابن بضع عشرة سنة ، وأما على قول من قال إنه أسلم وهو ابن بضع وعشرين سنة فقد كان يوم وفاته ابن ثلاث وثمانين سنة . وهو آخر العشرة الكرام موتا .

وترك سعد ثروة حسنة لأنه كان غنيا . قيل إنه ترك مائتين وخمسين ألف درهم : وعن بنته عائشة أنه أرسل مرة إلى مروان بن الحكم بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم .

صفته :

قال الواقدى : قالت عائشة بنت سعد كان أبى رجلا قصيرا دحداحا غليظا ذا هامة شثن الأصابع (١) .

---

(١) قولها دحداحاً أى قصيرا ، وقولها شثن الأصابع أى خشنها .

ولده :

قال ابن قتيبة ، ولد سعد : عمر ، ومحمد ، وعامر ، وموسى ، ومصعب وعائشة ، وغيرهم . فأما عمر فقتله المختار بن عبيد ، لأنه كان أميراً على الجيش الذى حارب الحسين بن على رضى الله عنهما وقتله : وأما محمد فخرج مع الأشعث بن قيس فقتله الحجاج صبراً ، وأما عامر فكان يروى عنه الحديث ومات سنة أربع ومائة ، وأما مصعب فقد مات سنة ثلاث ومائة ، وقد روى عنه الحديث ، وممن أعقب من أولاده عمر ، ومحمد ، وموسى .

* * *

انتهى ما أردنا إيراده من سيرة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ويليه عمرو بن العاص وهو آخر من نذكر سيرته من أشهر مشاهير الرجال فى دولة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

عمرو بن العاص

حاله فى الجاهلية

نسبه وأصله :

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمـــرو ابن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى السهمى ، وكنيته أبو عبدالله وقيل : أبو محمد وأمه النابغة بنت حرملة من بنى عترة (وقيل عنزة) وأخوه لأمه عمرو بن أثاثة العدوى . وعقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى : وسأل رجل عمرو بن العاص عن أمه فقال : سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بنى عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة . ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له فأنجبت فإن كان جعل لك شىء فخذه(1).

صناعته ومكانته فى قومه :

كان عمرو بن العاص كما ذكرنا فى صدر الجزء الأول جزاراً ، ثم كان يختلف بالتجارة إلى الشام ومصر ، ويقال إن سبب توجه فكره لفتح مصر هو ذهابه مرة إلى الإسكندرية وعلمه بغنى البلاد وثروتها ، وأما مكانته عند قومه فقد كانت عالية ، لشهرته بالدهاء والمكيدة حتى عدوه من دهاة العرب فى الجاهلية ، وقالوا إن دهاتهم فى الإسلام عمرو بن العاص . والمغيرة

---

(1) كان عمرو بن العاص يعير بأمه لأنها كانت سبية لهذا قال للسائل ما قال

ابن شعبة . وقيس بن سعد بن عبادة . وأخباره في الدهاء كثيرة ستأتى فيما يلى من سيرته إن شاء الله .

إسلامه وصحبته

إسلامه :

تأخر إسلام عمرو بن العاص إلى ما قبل فتح مكة بستة أشهر أى سنة ثمان من الهجرة ، وأما سبب إسلامه فإن قريشا أرسلته إلى النجاشى فى طلب جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فلم يجب النجاشى طلبه . وقال له ياعمرو ؟ كيف يعزب عنك أمر ابن عمك فوالله إنه لرسول الله حقا ؟ قال : أنت تقول ذلك : قال إى والله فأطعنى فخرج من عنده مهاجراً إلى النبى صلى الله عليه وسلم : رواه فى أسد الغابة : وروى ابن عساكر فى تاريخه عن محمد بن حفص التيمى : قال لما كانت الهدنة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش ووضعت الحرب أوزارها خرج عمرو ابن العاص إلى النجاشى يكيد أصحاب رسول الله عنده ، وكانت له منه ناحية فقال له : ياعمرو تكلمنى فى رجل يأتيه الناموس كما يأتى موسى بن عمران ، قال : وكذلك هو أيها الملك ؟ قال نعم : قال فأنا أبايعك له . فبايعه له على الإسلام ثم قدم مكة فلقى خالد بن الوليد فقال : ما رأيك قد استقام الميسم والرجل نبى : قال خالد : وأنا أريده (وقد كان خالد على أهبة المهاجرة إليه) قال وأنا معك . قال عثمان بن طلحة وأنا معك : فخرجوا فقدموا على النبى صلى الله عليه وسلم قال محمد بن سلام قال أبان قال عمرو بن العاص وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدبر أمرهما فبايعا على أن لهما ما تقدم من ذنوبهما . فأضمرت على أن أبايعه على ما تقدم وما تأخر ، فلما أخذت بيده بايعته على ما تقدم ونسيت ما تأخر .

وفى رواية له أيضا عن الحافظ أبى نعيم أن أصحاب عمرو لما بلغهم إسلامه أخذوه فغموه فأفلت منهم مجرداً ليس عليه قشرة فأظهر للنجاشى إسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله ورده عليه .

وبالجملة فإن عمرو بن العاص أسلم بعد طول أناة ، وبعد أن تحققت لديه نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وشهد له بها النجاشى ، وأيدها ما كان يخالج ضميره من النزوع إلى الإسلام بعد إذ ظهرت كلمة أصحابه ظهوراً لا يخفى على من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد : لهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » وقال « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام » رواه ابن عساكر فى تاريخه .

واعلم أنما أبطأ بعمرو وأضرابه من قريش عن الإسلام التقليد والاستمساك بالعوائد التى تكاد تكون ملكة فى النفوس لا ينزعها إلا أحد أمرين : إما طول المعالجة والصبر ، وإما القوة والقهر ، وهى ملكة من أقبح الملكات المتسلطة على نفوس البشر لقيامها مقام الحاجز بين الحق والنفس فلا تصل إليه إلا بعد عناء شديد ، وإحجام طويل ، وهذا كان شأن قريش مع النبى صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى التوحيد الذى تدرك البداهة ويؤيد العقل والحس أنه خير من الشرك وعبادة الأصنام ، وإنما أبطأ بهم عن قبول الإسلام تسلط العوائد واستحكام ملكة التقليد يدلك عليه ما رواه ابن عساكر عن الزبير بن بكار قال : قيل لعمرو بن العاص ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت فى عقلك : فقال إنا كنا فى قوم لهم علينا تقدم وبين توازن حلومهم الجبال ، ما سلكوا فجاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلا ، فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتدبرناه ، فإذا الأمر بين فوقع فى قلبى الإسلام فعرفت قريش ذلك فى إبطائى عما كنت

أسرع فيه من عونهم على أمرهم ، فبعثوا إلىّ فتى منهم فقال : أبا عبد الله إن القوم قد ظنوا بك الميل إلى محمد : فقلت له : يا بن أخى إن كنت تحب أن تعلم ما عندى فوعدك الظل من حراء : فالتقينا هنالك فقلت إنى أنشدك الله الذى هو ربك وربّ من قبلك ومن بعدك ، أنحن أهدى أم فارس والروم : قال اللهم بك نحن : فقلت أفنحن أوسع معاشا وأعظم ملكا أم فارس والروم : قال بل فارس والروم : قلت فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم فيها أكثر فيها أمراً . قد وقع فى نفسى أن ما يقول محمد من البعث حق ليجزى المحسن فى الآخرة بإحسانه والمسىء بإساءته . هذا يا بن أخى الذى وقع فى نفسى ولا خير فى التمادى فى الباطل .

وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص : لقد عجبت لك فى ذهنك وعقلك ، كيف لم تكن من المهاجرين الأولين : فقال له عمرو وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره ، لا يستقر التخلص منه إلا إلى ما أراد الذى هو بيده : فقال عمر صدقت :

صحبته :

إن عمرو بن العاص وإن كان ممن تأخر إسلامهم إلا أنه كان حسن الصحبة ، محبباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد روى عنه أنه قال ما عدل بى رسول الله وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه فى حربه منذ أسلمت (رواه ابن عساكر) وذلك بلا ريب لثقته بإسلامهما وكفاءتهما فى أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحهما العظيمة فى مصر والشام بعد .

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم رئيساً على جيش فيه أبو بكر وعمر وذلك فى غزوة ذات السلاسل التى تقدم الخبر عنها فى سيرة أبى عبيدة لما نازعه ثمة على الإمارة ، وقد أظهر فى هذه الغزوة من الكفاءة وحسن المكيدة ما حمده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى ابن عساكر عن إسماعيل بن أبى خالد عن عمرو بن العاص أن رسول الله بعثه إلى ذات السلاسل ، فسأله أصحابه أن يأذن لهم أن يوقدوا النار ليلا لبرد أصابهم فمنعهم . فكلموا أبا بكر أن يكلمه فى ذلك فأتاه . فقال لأبى بكر لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها : فلقوا العدو فهزموهم فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم : فلما انصرف ذلك الجيش إلى رسول الله شكوه إليه فقال : يارسول الله إنى كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم : وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم (أى للعدو) مدد فيعطفوا عليهم : قال فأحمد رسول الله أمره :

وأرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى عمان والياً على الصدقة وأن يدعو الناس إلى الإسلام فذهب ودعاهم إلى الإسلام فآمنوا ، وكان الذى ساعده على ذلك جيفر وعياذ ابنا الجلندى ، وكان الملك منهما جيفر فأسلما وخليا بينه وبين الصدقة فكان يأخذها من الأغنياء ويردها على الفقراء ، ولم يزل مقيما هناك حتى أتاه نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه كتاب أبى بكر مختوما وفيه : أن لا يحل عقالا عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا يعقل عقالا عقله رسول الله : فلما قرأ الكتاب بكى بكاء طويلا ثم خرج على القوم فأعلمهم الخبر فعزوه . ثم لما اضطرمت نار الردة شخص إلى المدينة ومر منصرفه من عمان بمسلمة فدعاه إلى أمره وقرأ عليه من قراءته . فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك كذاب : ثم انصرف فمر بقرة بن هبيرة وقال له قرة : إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة : فأجابه جوابا يدل على بعد نظره وقوة جنانه إذ أظهر استهانته بردة العرب ، وهدد قرة بالحرب احتقاراً لشأن العرب ، وإظهاراً للجلد الذى هو أنفع شىء للمسلمين فى مثل موقفهم ذلك ، وقد مر الخبر عن ذلك فى سيرة أبى بكر رضى الله عنه .

وبالجملة فقد كان عمرو حسن الصحبة نافعا فى إسلامه ، وحسبه فضيلة كبيرة وخدمة عظيمة فتحه مصر ، وطرابلس الغرب ، وحروبه مع الأمراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب ، وسترى فيما يلى إن شاء الله : إلا أنه أخذ عليه دخوله فى غمار الفتنة العظمى ، وكونه كان اليد القوية فيها والكلام على هذا سيأتى فى محله إن شاء الله .

حروبه وفتوحاته

فتح مصر وبرقة :

قد مضى معنا فى سيرة عمر بن الخطاب ذكر المواقع التى حضرها عمرو بن العاص فى سورية ، والفتح الذى فتحه فى فلسطين ، لما كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ثمة فلم نر حاجة لإعادة ذكر ذلك ، وإنما نأتى هنا على خبر فتحه مصر وطرابلس الغرب ، لا نفراده بهذه المأثرة الجليلة التى هى من أعظم مآثر ذلك الرجل الكبير فى الإسلام فنقول .

كان عمرو بن العاص محباً للإمارة طامحاً للعلا ، ذا نفس عالية لا ترضى بالحقير من الأعمال بل تطلب جليلها مهما قام دونها من المصاعب ، وترتب عليها من التبعات يدلك عليه إقدامه على دخول مصر بجيش قليل ، وعدة ضعيفة لما أذن له عمر بقصدها ، حتى كان مما قاله عثمان لعمر يومئذ (إن عمراً لجرىء الجنان ، وفيه إقدام وحب للإمارة فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة) ومن تصفح تاريخ حياته ووقف على أعماله سواء فى الفتح والإمارة ، أو فى دخوله غمار الفتنة ، علم أنه رجل قل أن تنجب بمثله الأمهات لولا طمع فيه ربما أوخذ أحيانا عليه . على

أنه لم يكن طمعه فى دنيات الأمور بل فى أبعدها غاية وأعصاها على غيره منالا وأى قائد غير عمرو بن العاص يقدم على دخول مصر ، ويرغب فى تدويخ ملك الفراعنة ، بجيش يقل عن الأربعة آلاف مقـــاتل ، يريد أن يقهر به أمة كان يربو عددها على العشرة ملايين ، وكان فى البلاد من حامية الروم وحدها أضعاف ما معه من المقاتلة يحمون ذمارها ويذبون عنها .

إن الذى أطمع عمراً بمصر ذهابه إليها فى الجاهلية وعلمه بحالها ووقوفه على ثروة أهلها وخيرات أرضها ، ولـكن إقدامه على قصدها بجيشه القليل يدل أنه رأى بعين البصيرة عقب وقائع الشام أن دولة الروم دالت وقواها خارت ، وأن الله موف وعده المسلمين قلوا أو كثروا . وأن جدة الدين والدولة ونزوع العرب إلى الفتح وتكاتفهم على إعلاء شأن الإسلام فرصة لا ينبغى للعاقل تركها ، واستمهال عزيمة النفس فى انتهازها فاقتحم البلاد اقتحام الواثق بالنصر العارف بأساليب الحرب ، المعتمد على كفاءة جند المسلمين ، الواقف على شئون البلاد فافتتحها من أدناها إلى أقصاها ، ورفع أعلام الإسلام على ربوعها ، فـكان له بهذا العمل العظيم أعظم الفخر وأشرف الذكر أبد الدهر .

قلنا فيما سبق إن سبب رغبة عمرو فى فتح مصر هو دخوله إليها فى الجاهلية ، ووقوفه من أحوالها على ما يجب . وقد نقل المقريزى عن ابن عبد الحكم فى سبب دخول عمرو إلى مصر ما خلاصته أن عمراً قدم إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش ، فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية ، قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح ، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه، وكانت رعية الإبل نوبا بينهم ،

فبينا عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه ، وكانت إلى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها . فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها فقال لعمرو : ما هذه ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها . فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال : قد أحيانى الله بك مرتين . مرة من شدة العطش ، ومرة من هذه الحية : وسأله عما أقدمه هذه البلاد فأخبره أنه قدم مع أصحابه للتجارة ، فرغب إليه أن يصحبه إلى الإسكندرية ليكافئه على عمله فأبى ، وما زال به حتى قبل أن يصحبه إلى الإسكندرية بعد أن أخذ عليه العهد والميثاق ليفين بعهده معه وانطلق إلى أصحابه فاستشارهم وقال لهم : انتظرونى ولكم على أن أشاطركم على النصف مما آخذ : وأخذ منهم معه واحداً يأنس به ، فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس حتى انتهوا إلى مصر فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها ، وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ، ومضى إلى الإسكندريه ، فنظر إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة أهلها فازداد عجباً . ووافق دخول عمرو الاسكندرية فيها عيداً عظيما يجتمع فيه أشرافهم فى ملعب مشهور ، ولهم كرة من ذهب يترامون بها فمن وقعت فى كمه لم يمت حتى يملكهم ، وكان ذلك فيما اختبروه من تلك الكرة على ماوصفها به من مضى منهم ، وكان الشماس ألبس عمراً ثوب ديباج وأجلسه مع القوم فى ذلك المجلس ، حيث يترامون بتلك الكرة فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة أترى هذا الأعرابى يملكنا ؟ هذا مالا يكون أبدا : ثم إن الشماس وفى بما وعد به عمراً ، وجمع له من أهل المدينة ألفى دينار وأصحبه برسول ودليل ، فانطلق عمرو إلى أصحابه وشاطرهم على النصف مما أخذ .

هذا ما نقلوه عن سبب دخول عمرو إلى مصر فى الجاهلية، وسواء صحت هذه الحكاية أو لم تصح فإنه ليس فيها شىء من الغرابة إلا قولهم عن الكرة أن القوم اختبروا أمرها واعتقدوا أن من وقعت فى كمه هذه الكرة صار ملكا عليهم . وليست المسألة مسألة اعتقاد بل ربما كانت من قبيل التفاؤل أو أن بعض الإمارات التى يتناوبها الأشراف كإمارة الجيش كانت لا تعطى إلا على هذا الشرط فأخطأ مؤرخو العرب فى النقل : وبالجملة فالذى أثار فى نفس عمرو الرغبة فى فتح مصر هو ماسبق له من دخولها ، والوقوف على أحوالها وأحوال أهلها ، يضاف إليه ماغرز فى نفسه من حب الإمارة والإقدام على جلائل الأمور ، كما قال عنه عثمان رضى الله عنه . وقد تقدم معنا الخبر فى سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن كيفية مسير عمرو إلى مصر ، وكان أول موضع قوتل فيه الفرما[1]، قاتلته الروم قتالا شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله عليه ، وقيل إنه كان بالإسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين فلما بلغه قدوم عمرو إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً ، فإذا صحت هذه الرواية يكون أكبر عون لعمرو على فتح الفرما هم القبط ، لأن الفرما كانت حصينة جداً ، وفى رواية أن فتح الفرما كان بعد فتح دمياط وتنيس .

ثم تقدم عمرو ولا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فحاصرها حصارا شديدا ونقل المقريزى عن الواقدى أن المقوقس زوج ابنته ارمانوسه

(١) اختلف المؤرخون فى موقع الفرما فمنهم من قال إنها كانت على البحر الرومى، ومنهم من قال إنها على بحيرة تنيس وقد صارت خرابا وغمرتها المياه ، والمرجح أنها لم تكن على البحر الرومى بل بعيدة عنه لرواية نقلها المقريزى عن يحيى بن عثمان قال كنت أرابط فى الفرما وكان بينها وبين البحر قريب من يوم يخرج الناس والمرابطون على الساحل ثم علا البحر على ذلك كله . ويظهر من رواية ابن خرداذبه فى الممالك والمسالك أن بين الفرما وبين بلبيس ثلاثة وثمانون ميلا وبين هذه والفسطاط أربعة وعشرون ميلا .

من قسطنطين ابن هرقل وجهزها بأموالها وحشمها لتسير إليه حتى يبنى عليها فى مدينة قيسارية (من سورية) ، فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها وأرسل أبوها جندا إلى حدود الشام كى لا يتركوا أحداً من الروم أو غيرهم يدخل أرض مصر مخافة أن يتحدث الناس بغلبة المسلمين على الشام فيدخل الرعب فى قلوب عساكره . ولما أتى عمرو بلبيس حاصرها حصارا شديدا ، وقاتل من بها ، وقتل منهم زهاء ألف فارس وانهزم من بقى إلى المقوقس ، وأخذت أرمانوسه وجميع مالها وسائر ما كان للقبط فى بلبيس ، فأحب عمرو ملاطفة المقوقس فسير إليه ابنته مكرمة فى جميع مالها مع قيس بن أبى العاص السهمى فسر بقدومها . وكان هذا العمل من عمرو عملا جميلا يدل على حسن سياسة وبعد نظر .

ثم إن عمراً سار من بلبيس إلى بابل أو باب ليون وهو حصن كان بناه الفرس أيام تملكهم لمصر ، وكان يسميه العرب قصر الشمع وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة أو الفسطاط ، ويقابله على ضفة النيل الغربية مدينة منف عاصمة البلاد يومئذ ومقر المقوقس صاحب مصر . وكان فيه حامية عظيمة وعليها قائد اسمه الأعيرج وكان المقوقس مع الحامية أيضا .

وقد اختلف المؤرخون فيمن كان على مصر يومئذ فمنهم من قال الأعيرج ، ومنهم من قال الأرطبون ، ومنهم من قال المقوقس ، ومنهم من قال إن المقوقس كان فى الإسكندرية . كما اختلفوا فى أصل المقوقس هل هو يونانى أو مصرى ، والذى ظهر لى أن الأعيرج والأرطبون قائدان لأن أحدهما وهو الأرطبون كان على جيوش الروم فى بيت المقدس ، وفر إلى مصر لما أخذها المسلمون .

وأما المقوقس فهو أمير مصر بلا ريب من قبل الروم ، وكان قصدى

استقصاء خبر المقوقس للوقوف على جلية أمره، لكن مجلة المقتطف نقلت فى الجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين فصلا عن كتاب انكليزى ألفه أحد علماء الانجليز - وهو الدكتور بطلر فى تحقيق من هو المقوقس أغنانا عن معاناة البحث، وخلاصة حكم المؤلف فى هذا الكتاب على ما جاء فى المقتطف أن المقوقس كان والياً وبطريركا على مصر من قبل الإمبراطور هرقل، وهو حكم يقرب من الصواب بدليل نفوذ سلطة المقوقس على المصريين يومئذ نفوذاً لا يكون إلا لمن بيده قوة السلطة الدينية، على أن القرائن التى تحتف أخبار المقوقس مع القبط ومخابراته مع المسلمين تؤيد كونه كان بطريركا نافذ الكلمة فى القبط. وكلمة صاحب القبط التى جاءت فى تواريخ العرب ومخابرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمذكور ودعوته وقومه إلى الإسلام، كافية لتأييد ما ذهب إليه الدكتور والفصل الذى لخصه عن كتابه المقتطف لا يخلو من فائدة فليراجعه من أحب.

نازل عمرو بن العاص الحصن وحاصر من فيه وقاتلهم قتالا شديداً يصبحهم ويمسيهم؛ ولما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه بذلك، فأمده بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. وقيل إن الرابع كان خارجة بن حذافة وكان عمرو يومئذ فى عدة قليلة، فكان يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم، وقيل إن الزبير جاءه بإثنى عشر ألف مقاتل، ولما علم عمرو بقدوم الزبير تلقاه ثم أقبلا يسيران فلم يلبث الزبير أن ركب ثم طاف بالخندق ثم فرق الرجال حول الخندق، وألح عمرو على القصر ووضع عليه المنجنيق فلم يتيسر أخذه وأبطأ الفتح، وكان الزبير رضى الله عنه من الشجعان المعروفين فقال: إنى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلما على جانب

الحصن ، ثم صعد فأمرهم إذا سمعوا تكبيرة أن يجيبوه جميعاً ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر ، وكبر الزبير فكبرت الناس معه ، وأجابهم المسلمون من خارج فلم يشك الروم أن العرب اقتحموهم جميعاً فهربوا وعمد الزبير وأصحابه إلى الباب ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن وفر القبط إلى الجزيرة (أى جزيرة الروضة) على مراكب أعدوها لذلك .

وتم بذلك الفتح وكان على يد البطل الجليل الزبير بن العوام رضى الله عنه كما رأيت ، لهذا ينكر بعضهم الفضل لعمرو بن العاص فى فتح مصر وهو جهل فاضح وتعصب منكر ، لأن فتح البلاد كلها إنما كان بحسن قيادة عمرو ودربته ، ولم يكن عمرو بأقل شجاعة من الزبير أيضاً رضى الله عنهما ، وعن كل رجال الفتح ، فإن لكل منهم فضيلة فى عمل وخـــدمة جليلة للإسلام .

رأى المقوقس شدة قتال المسلمين وصبرهم ، وعلم أنهم لايزالون يقاتلون الروم والقبط حتى تصير إليهم البلاد ، فاستشار أصحابه بمصالحة القوم وبعث إلى عمرو يقول : إنكم قوم قـــد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا . وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل (وكان الوقت وقت الفيضان) وإنما أنتم أسارى فى أيدينا فابعثوا إلينا رجالا منكم ، نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما نحب وتحبون ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم .

ولما أتت الرسل إلى عمرو وحبسهم عنده يومين وليلتين ليروا حال المسلمين ، ثم ردهم وأرسل معهم للمقوقس يقول :

إنه ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فالجزية . وإما جاهدناكم بالقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين .

علمنا أن عمراً حبس رسل المقوقس ليروا حال المسلمين ويخبروا قومهم عنه ، لعلمه أن سيرة المسلمين وحدها كانت كافية يومئذ لاعتبار القوم ، واتعاظهم وتسليمهم بالأيدى للمسلمين ، وقد أصاب عمرو بهذا الأمر المرمى ولم يخطىء فى الظن إذ لما عاد رسل المقوقس سألهم : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا :

« رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » :

هذه الأخلاق الطاهرة والسيرة الجميلة التى رفعت من أقدار القوم وملأت منهم قلوب الأعداء ، وعيونهم فى كل مكان حلوه وبلد قصدوه ، فكانت الشعوب لاتلبث أن ترى سيرتهم وتسمع بأخلاقهم فتعطيهم أيدى الطاعة وتترك إليهم مقاليد الأمور توخيا للسلامة ورضا بسيادة قوم ذلك حالهم ، وتلك السيرة الطيبة سيرتهم : ومنهم المقوقس الذى لما سمع من الرسل ما سمع قال لقومه : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها . وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبوا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم . ثم أرسل إلى عمرو أن يبعث إليه من يكلمه بشأن الصلح

فبعث عبادة بن الصامت ، وقيل بل طلب منه الاجتماع به وكان مما بعث به إليه قوله :

إنى لم أزل حريصا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت إلى بها . فأبى ذلك من حضرنى من الروم والقبط ، فلم يكن لى أن أفتات عليهم ، وقد عرفوا نصحى لهم وحبى صلاحهم ، ورجعوا إلى قولى فأعطنى أمانا أجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعا وإن أبيتم رجعنا إلى ما كنا عليه .

فاستشار عمرو أصحابه وكانوا عرفوا جانب الضعف من القبط ، وطمعوا بالفتح فأشاروا عليه بأن لا يجيبه إلى الصلح ، وكان عمرو ينزع إليه ويعرف فائدته ، فأخبرهم بعهد عمر إليه فى أن من أجابه إلى خصلة من الثلاث يصالحه ، ثم اجتمع عمرو بالمقوقس ، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ، ديناران ، ديناران عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ولا الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء . وعلى أن للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها ، فشرط ذلك كله على القبط خاصة ، وأحصوا عدد القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران : رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها ستة آلاف ألف نفس « ستة ملايين » فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار « اثنى عشر مليونا » .

هكذا نقل المقريزى رواية هذا العهد وعدد المصريين الذين ضربت عليهم الجزية فى سياق خبر الصلح مع المقوقس ، وفى هذا نظر لايخفى على بصير ، إذ أن الذى يظهر من سياق الأخبار أن صلح المقوقس لم يشمل كل المصريين ، لأن من البلاد ما أخذ عنوة بعد عقد الصلح . وعلى تقدير شمول الصلح لكل المصريين كيف يعقل أن يكون من بلغ الحلم من المصريين من الرجال وحدهم ستة ملايين ، مع أن البالغين الحلم لو كانوا ربع سكان البلاد للزم أن يكون عدد جميع سكانها من شيوخ وأطفال وشبان ونساء أربعة وعشرين مليونا . وهو بعيد عن الصواب ، لا سيما وقد جاء فى بعض الروايات أن جزية مصر وخراجها معاً بلغا على عهد عمرو بن العاص ألفى ألف دينار « مليونى دينار » . ومنها مارواه البلاذرى فى فتوح البلدان عن يزيد بن أبى حبيب قال : جبى عمرو بن العاص خراج مصر وجزيتها ألفى ألف . وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح « فى خلافة عثمان » أربعة آلاف ألف . فقال عثمان لعمرو : إن اللقاح بمصر بعدك قد درت ألبانها : قال : ذلك لأنكم أعجفتموها .

والفرق بين هذه الرواية والرواية الأولى عظيم كما ترى ، على أنه جاء فى بعض الروايات أيضا أن الذى جباه عمرو هو اثنا عشر مليوناً والذى جباه ابن أبى سرح أربعة عشرمليونا . وكما يضطرب الفكر فى مقدار، تلك الجزية يضطرب أيضا فى قولهم إن الصلح تم مع المقوقس لما فتح عمرو بابليون عن جميع القبط فى أسفل مصر وأعلاها وأحصوا بالأيمان المؤكدة مع أن هذا منقوض بالبداهة التى تؤيدها رواية لابن عبد الحكم نقلها المقريزى فى فتح الإسكندرية، إن عمرو بن العاص إنما صالح المقوقس لما فتح الإسكندرية وهكذا قال الطبرى وابن خلدون وهو الأقرب للتوفيق بين تلك الروايات ، إذ ما نخال وقوع هذا الإحصاء سواء صح عدده أو لم يصح إلا بعد فتح الإسكندرية

وبقية البلاد ، وإجراء الجميع مجرى الصلح لما هو المشهور عن عمر بن الخطاب فى أنه اعتبر كل القبط أهل ذمة وعهد وأقرهم على أراضيهم ، وروى البلاذرى أن قرى من مصر قاتلت فوقع سباؤهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة ، وبالجملة فهذا بحث طويل يحتاج إلى تمحيص وربما نعود إليه فى الكلام على حالة مصر الاجتماعية إن شاء الله (١) .

لما تعاهد عمرو والمقوقس على ما تعاهدا عليه شرط المقوقس للروم على أن يخيروا بين الرضا بما رضى به القبط ، وبين اللحاق ببلاد الروم ، وكتب المقوقس إلى ملك الروم بما تم عليه الصلح ، فكتب إليه كتابا يوبخه فيه على التسليم ويوهن جانب المسلمين ، وكتب بمثل ذلك إلى قواد الروم فى الإسكندرية وغيرها ، فأعادوا الكرة على المسلمين فقاتلهم عمرو حتى ألجأهم إلى الإسكندرية ثم حاصرهم فيها وافتتحها عنوة وجلا عنها الروم .

هكذا انتهى فتح بابليون وأعطى المقوقس بيده ويد القبط للمسلمين مع أنه يونانى الأصل . وأكثر الروم وقتئذ أبوا أن يوافقوه على الصلح وقاتلوا المسلمين فى كل بلد أراد فتحه عمـــرو وقواده الذين بعثهم لإتمام فتح البلاد .

---

(١) بعد كتابة ما كتبناه هنا قرأنا كتاب العهد الذى أعطاه عمرو للمقوقس كما تراه مبسوطا فى باب أخباره ، فاتضح لنا منه أن عمرا كتب للمقوقس فى كتاب العهد على أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا العهد، أى إذا رضوا به جميعهم بعد تمام الفتح . وبهذا انحل الإشكال واتضح أن المصريين جميعهم قبلوا بما صالح عليه المقوقس عمرو بن العاص بعد الفتح ومن ثم كان الإحصاء .

والذى يظهر للمتأمل فى أخبار فتح بابليون أن نظام الدفاع فى البلاد المصرية كان مختلا جداً ، إذ أن عمرو بن العاص كان قليل الجند ، ولا يسعه ترك حامية من جنده فى البلاد التى افتتحها فى دخوله إلى مصر لتحفظ خط الاتصال بينه وبين جيوش المسلمين بالشام ، فهو بالضرورة جاء بكل جيشه إلى بابليون وأصبح فى قلب البلاد فلو كان ثمة نظام حسن للدفاع عند الروم كما كان ذلك فى سورية لانكفئوا عليه من أطراف البلاد، وحاصروه فى مستقره حصاراً لامناص له بعده من الموت أو التسليم ، ولعل السلطة العامة لم تكن يومئذ متوفرة للمقوقس ، وكان عمال الأطراف كل واحد منهم مستبد على الآخر ، يعد أسباب الحيطة لنفسه دون غيره . وربما كان هذا الأمر من أهم الأسباب التى دعت لتسليم المقوقس وطلبه الصلح والأمان للقبط ، كما كانت لهذا أسباب أخرى أيضا — منها نفور القبط من سلطة الكنيسة الشرقية وتأففهم من سلطان الروم كما يقول مؤرخو المسيحيين ، ومنها تحقق المقوقس من علو شأن المسلمين واستحالة التخلص من الرضوخ لسيادتهم ، بعد أن دوخوا الشام وأزعجوا دولة الروم ، وقهروا الإمبراطور هرقل وكسرى يزدجرد ، يدلك على هذا اجتهاد المقوقس فى منع أخبار المسلمين عن المصريين لما قهروا الروم فى سورية خوفاً من أن يفت ذلك فى عضدهم ويدخل الوهن والفزع على نفوسهم .

ومنها وهو الأتم تواتر الأخبار عن حسن سيرة المسلمين فى البلاد التى افتتحوها ، وإطلاقهم لأهلها حرية الفكر والدين ، وعدم مسهم بشىء من الأذى والجور كما مرت الشواهد الكثيرة على ذلك فى هذا الكتاب .

وهذا مادعا البطريرك بنيامين إلى ممالأة عمرو وتحريضه القبط على التسليم كما سترى الخبر عن ذلك آخر الفصل ، ويحتمل أيضاً أن تكون

مساعدة المقوقس للمسلمين ناشئة عن طمعه بالاستقلال لأنه من أصل مصري ، وكان ميالا للاستقلال منذ دخول الفرس إلى مصر كما يقول جبون لو لم يوهن هذا الرأي إجماع أكثر المؤرخين على أنه من أصل يوناني ، وجبون يقول إنه كان من أشراف البلاد وكان ربما تظاهر بالاستقلال على أن الدكتور بطلريري أن نفوذه على القبط إنما كان كبيراً لأنه كان والياً وبطريركا معاً كما تقدم قوله هذا والله أعلم .

لما بعث الإمبراطور إلى المقوقس ينكر عليه فعله ويوبخه جمع جماعة الروم عنده ، وأعلمهم أنه لم يصالح المسلمين إلا صوناً لمصلحة البلاد ، بسبب ما عرف عنهم من القوة والشجاعة ، وما سبق لهم من قهر الإمبراطور وجيوشه في سورية ، وما شاهده من أخلاق العرب وأحوالهم ودرجة قوتهم واستعدادهم ، ثم قال لهم : واعلموا معشر الروم أني لا أخرج مما دخلت فيه وما صالحت العرب عليه ، وإني لأعلم أنكم سترجعون غداً إلى قولي ورأيي وتتمنون لو كنتم أطعتموني ، وذلك أني رأيت وعاينت وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ، أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً في دهره على نفسه وماله وولده بدينارين في السنة ، ثم أقبل المقوقس إلى عمرو فقال له : إن الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب إلي وإلى جماعة الروم أن لا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم . ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه ، وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني ، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقدتهم . وأما الروم فأنا منهم بريء وأنا أطلب إليك أن تعطيني ثلاث خصال — لا تنقض بالقبط وأدخلني معهم ، وألزمني ما ألزمهم ، وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاقدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب ،

وأما الثانية إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً ، فإنهم أهل ذلك لأنى نصحتهم فاستغشونى ، ونظرت إليهم فاتهمونى ، وأما الثالثة فأطلب إليك إن أنا مت أن تأمرهم أن يدفنونى بجسر الإسكندرية .

فأنعم عليه عمرو بذلك وأجابه إلى ماطلب ، على أن يضمنوا له الجسرين ويقيموا لهم الأنزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية فتم له ذلك ، وصارت القبط له أعواناً كما جاء فى الحديث .

وأنت ترى أن هذا الكلام يوهم أن الصلح تم مع كل القبط ، فى أعلى مصر وأسفلها ، مع أن عمراً تمم بعد فتح بابليون فتح البلاد التى لم تذعن بالطاعة كما أشرنا إليه قبل ، فلا ندرى هل استعصى أهلها بعد ورود كتب الروم على أمراء الروم بعدم التسليم والطاعة وبمحاربة المسلمين ، أم كان الذين دخلوا بالحرب بعد ذلك مع المسلمين هم حامية الروم التى فى البلاد . وإليك بقية أخبار الفتح فمحصها إن شئت .

روى البلاذرى أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله بن حذافة السهمى إلى عين شمس ، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط . ووجه خارجة بن حذافة العدوى إلى الفيوم والأشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك . ووجه عمير بن وهب الجمحى إلى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقهلة ، وبنا ، وبوصير ففعل مثل ذلك . ووجه عقبة بن عامر الجهنى ويقال وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك ، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج .

وذكر المقريزى أن الذى بعثه عمرو إلى دمياط هو المقداد بن الأسود

وأن الذى بعثه إلى الفيوم هو ربيعه بن حبيش بن عرفطة الصدفى ، فأما أهل الفيوم فلم يقاتلوا وأعطوا بأيديهم ، وأما أهل دمياط فقاتلوا وكان على دمياط أمير اسمه الهاموك استعد لقتال المسلمين فلما جاءه المقداد قاتله وقتل ابنه فانهزم ، وعاد إلى دمياط واستشار قومه وكان فيهم رجل حكيم عاقل قد حضر الشورى فقال : أيها الملك إن جوهر العقل لاقيمة له ، وما استغنى به أحد إلاهداه إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك ، وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية ، وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد ، وما لأحد عليهم قدرة . ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع ، وأن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر . والرأى أن نعقد مع القوم صلحاً ننال به الأمن . وحقن الدماء . وصيانة الحرم فما أنت بأكثر رجالا من المقوقس .

هذه النصيحة ولا نكران للحق نصيحة صادق عاقل وهى نافعة لو وجدت من الهاموك أذناً صاغية ، ولكنها لم تجد لأنه لم يعبأ بقوله وغضب عليه فقتله ، وشر الأخلاق الحمق والتسرع . وكان للرجل ابن عاقل أيضاً اسمه شطا فعرف جناية أبيه على الرجل وعلى قومه أيضاً ، إذا أصر على قتال العرب وكان له دار ملاصقة للسور فخرج إلى المسلمين فى الليل ودلهم على عورات البلد ، فاستولى المسلمون عليها ، ولما علم الهاموك بما وقع سقط فى يده واستأمن المقداد فتسلم المقداد البلد ، وجاءه شطا وأسلم ثم لكى يظهر صدقه وصداقته للمسلمين خرج إلى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحى ، وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس[1] ، وكان عليها رجل من العرب المتنصرة يقال

---

(١) تنيس هذه كانت قرب دمياط على عشرة أميال منها وقد أطنب بذكرها المقريزى ، وذكر أنه كان فيها من البساتين والمصانع والمعامل والغنى والثروة مالايوجد فى بلد من مصر ، وكان يصنع فيها ثوب للخليفة يسمى البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لاتحوج إلى تفصيل ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار ولم

له أبو ثور فبرز إليهم فى نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبى ثور فى أيدى المسلمين وانهزم أصحابه وامتلك المسلمون البلد .

قدمنا أن الإمبراطور كتب إلى من بالإسكندرية من الروم بأن يأذنوا العرب بالحرب وبعث بالعدة والجند . وكان عمرو بن العاص ينتظر انحسار النيل ليتمكن من الخروج. ولما أمكنه ذلك خرج وقد عقب له القبط الأسواق وأقاموا له الجسور وفاء بالمعاهدة التى تمت بينهم ، وسمع بذلك الروم فاستجاشوا واستعدوا وقدمت عليهم مراكب عليها جمع عظيم من الجند بالعدة والسلاح ، فخرج إليهم عمرو متوجهاً إلى الإسكندرية فلم ير أحداً حتى بلغ مريوط ، فلقى فيها طائفة من الروم فقاتلهم قتالا خفيفاً فهزمهم ، ومضى عمرو بمن معه حتى لقى جمع الروم بكوم شريك فاقتتلوا ثلاثة أيام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم أكتافهم . ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بضعة عشر يوماً ، وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة فأصابته جراحات كثيرة فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فأنشد :

أقول لها إذا جشأت وجاشت رويدك تحمدى أو تستريحى

ثم رجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال : فقال عمرو : هو ابنى حقاً : وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف . ثم فتح الله على المسلمين وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة ، واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية فتحصن بها الروم وكان عليها حصون متينة لا ترام حصن دون حصن ، فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة .

= تزل تنيس عامرة حتى خربها الملك الكامل فى سنة أربع وعشرين وستمائة (لمهاجمة الفرنج لها) فاستمرت خراباً ولم يبق منها إلا رسومها فى وسط البحارة .

والذى أحسبه أن القبط إنما ألجأهم إلى الانحياز للمسلمين أنهم لما عاقدوهم على الصلح وغضب من ذلك الإمبراطور هرقل خافوا أن ينتقم منهم ومن المقوقس إذاهو ظفر بالمسلمين ، فكانوا عونا لهؤلاء تخلصا من سيادةالروم وتفاديا من الوقوع ثانية فى شرك الإمبراطور وأن ينالهم منهم أذى على ممالأتهم للمسلمين .

اهتم الإمبراطور هرقل بمهاجمة العرب للإسكندرية وحصارهم لها ، وخاف من تقلص ظل سلطانه عنها كما تقلص عن سورية ، فعزم على الشخوص بنفسه إلى الإسكندرية وبينما هو يتجهز للسفر فاجأته المنون ، وكانت وفاته على قول العرب سنة عشرين مع أنه توفى سنة (٦٤١ م) وهى توافق سنة (٢١ هـ) فلعل وفاته كانت فى الحصار الثانى للإسكندرية فانكسرت بموته شوكة الروم ، واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية، واقتحموا الحصن فجاشت عليهم الروم وقاتلوهم أشد قتال حتى أخرجوهم من الحصن جميعاً إلا أربعة نفر تفرقوا فى الحصن وأغلقت عليهم الأبواب ، وهم عمرو بن العاص ، ومسلمة بن مخلد ، واثنان آخران ، فالتجأوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه واحترزوا فكلمهم واحد بالعربية أن يخرجوا والروم يفادون بهم أسراهم فأبوا وخاف الروم من اقتحامهم فقال لهم الرومى هل لكم إلى خصلة وهى نصف فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم ، فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه فتداعوا إلى البراز فبرز رجل من الروم وقد وثقت الروم بنجدته وشدته ، فأراد عمرو أن يبارزه فمنعه مسلمة وقال ما هذا ؟ تخطىء مرتين تشذ من أصحابك وأنت أمير، وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك لايدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل فإن قتلت كان ذلك بلاء على

أصحابك ، مكانك !! وأنا أكفيك إن شاء الله تعالى : فقال عمرو دونك فربما فرجها الله بك ، فبرز مسلمة للرومى فتجاولا ساعة ثم أعانه الله وقتل الرومى ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا ولا يدرى الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك وأسفوا .

وكان مسلمة برز لرجل رومى وهم على الحصار فصرعه الرومى فأسمعه عمرو كلاماً يؤذيه ، فلما خرجوا هذه المرة ورأى عمرو من كرم أخلاق مسلمة ما رأى ، استحيا عمرو منه وقال له استغفر لى ما كنت قلت لك فاستغفر له ، وقال عمرو ما أفحشت قط إلا ثلاث مرات مرتين فى الجاهلية وهذه الثالثة وما منهن مرة إلا ندمت ، وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت ، ووالله إنى لأرجو أن لا أعود إلى الرابعة .

أبطأ على عمر بن الخطاب خبر الفتح وقال والله ما أبطأوا بالفتح إلا لما أحدثوا ، وكتب إلى عمرو يلومه على الإبطاء ويحذره من أن يحدث المسلمون فى أخلاقهم ما يبطىء بهم فى الفتح ، ويأمره أن يخطب الناس ويحضهم على القتال والصبر وحسن النية . ويقدم الأربعة القواد الذين أرسل له معهم المدد وهم الزبير ، والمقداد ، ومسلمة ، وعبادة ، فى صدر الجيش ويصدم بهم العدو صدمة واحدة ، فلما جاءه الكتاب قرأه على المسلمين وفعل ما أمره به عمر فكان الفتح ودخل المسلمون المدينة بعد حصار ستة أشهر وقيل أكثر من ذلك .

وتتبع عمرو الفارين فى البر من الروم وقيل ترك حامية فى المدينة وقفل إلى الفسطاط ، فبلغه نكث الروم فى الإسكندرية وقدوم مراكب تحمل العدة والرجال وأنهم قتلوا الحامية فعاد إلى الإسكندرية فوجد الروم قد تحصنوا وامتنعوا فحاصرهم حتى افتتحها وكان فتحها الثانى على يد رجل يدعى ابن

بسامة طلب من عمرو أن يؤمنه على أرضه وماله ففعل، ففتح له ابن بسامة الباب فدخل عمرو إلى المدينة وفر الروم فى البحر حيث أعدت لهم المراكب، وأرسل عمرو بخبر الفتح إلى عمر بن الخطاب مع معاوية بن خديج ، ثم كتب إليه يصف له حال المدينة وعمرانها وأن المسلمين يطلبون قسمتها بينهم فكتب له ينهاه عن قسمتها ويأمره بأن يجعل الإسكندرية ذمة ويضرب على أهلها الخراج ليكون عونا لهم على عدوهم ، ففعل وتحول عمرو من الإسكندرية إلى الفسطاط ، وما زال عمر بن الخطاب بعد ذلك يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الإسكندرية ، وكان لا يغفلها ويكثف مرابطتها خوفاً من الروم .

هكذا تم لذلك الفاتح الجليل فتح الإسكندرية التى كانت أجمل مدن العالم فى وقتها وأغناها وأوسعها تجارة وأزهاها وذلك ما ذكره مؤرخو العرب عن كيفية فتح الإسكندرية ، وأما ما ذكره الإفرنج فأكثره مأخوذ عن تواريخ العرب ، ومنهم المؤرخ الانكليزى الشهير جبون فإنه نقل أخبار فتحها كما جاء فى تواريخ العرب وزاد عليها ما نقله عن بوتيخوس المؤرخ القبطى أن العرب حاربوا على أسوار الإسكندرية كالأسود وأنهم فتحوها بعد حصار ١٤ شهراً وقتل ٢٣ ألفاً من المسلمين ، على أنا لا نسلم له بهذه الرواية لأن جيش المسلمين كله لم يبلغ هذا العدد يومئذ .

تحقيق الكلام فى حريق مكتبة الأسكندرية :

لغط بعض المتأخرين بحادثة حريق مكتبة الإسكندرية وأن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وجد فيها مكتبة عظيمة ، فاستأذن أمير المؤمنين عمر عن حرقها وأحرقها ، وهو خبر مختلق لا أصل له من الصحة ، وأغرب ما فيه من الإغراق فى الكذب الذى يدل على عدم صحته أن قالوا إن عمرو

ابن العاص أمر بتوزيع تلك الكتب على الأربعة آلاف حمام التى ذكروا أنها كانت موجودة فى الإسكندرية ، وأنها كفتها ستة أشهر ، فلو أن ذلك الأخرق الذى كتب هذا الخبر قدر لكل حمام فى كل يوم مائة مجلد (وهو قليل) لبلغ عدد المجلدات التى أحرقت ٧٢ مليون مجلد ، فأى مكتبة فى العالم يوجد فيها مثل هذا العدد من الكتب ، وأى عاقل يتصور صدق هذا الخبر الذى ينقض بعضه بعضاً ، على أن المشهور عن هذه المكتبة طروء الحريق عليها أكثر من مرة قبل الفتح الإسلامى ، وأن الذى بقى منها نقل بعضه امبراطرة الرومان إلى القسطنطينية ، وما بقى أحرقه الامبراطور تيودورس لما أمر بحرق الهياكل الوثنية فى الإسكندرية ، وأيد هذا الرأى سديو فى تاريخه المسمى خلاصة تاريخ العرب .

والذى يدلك على اختلاق هذا الخبر أنه لم يرد فى تواريخ المتقدمين من أهل الأخبار كالطبرى واليعقوبى والكندى وابن عبد الحكم والبلاذرى ، وهذه هى التواريخ التى نقل عنها المتأخرون أخبار الفتح وهى موجودة بين أيدينا إلا تاريخ الكندى وتاريخ مصر لابن عبد الحكم ، ومع ذلك فقد نقل عنهما المقريزى والسيوطى أخبار الفتح ولم يأت فى تلك الأخبار ذكر لمكتبة الإسكندرية البتة ، بل أغرب من ذلك أن يوتيخوس الذى هو مؤرخ معاصر لذلك الفتح لم يذكر حريق تلك المكتبة ، وهذه كتب المحدثين التى أحصت بالسند الصحيح كل سيرة عمر بن الخطاب لم يرد فيها شىء من ذلك البتة وإنما نقل هذا الخبر بعض المتأخرين عن غير روية ولا تحقيق ، ونقله الإفرنج على صورته الغريبة عن أبى الفرج الملطى مع أنه لم يرد فى تاريخ أحد من المتقدمين على تلك الصورة الغريبة ولا على غيرها ، على أن الخبر على ما فيه من الغرابة والإغراق فى الباطل الذى يكذب بعضه بعضاً قد صار عند علماء البحث مفروغا منه لتحقق بطلان نسبة حرق هذه المكتبة لعمرو

ابن العاص ، وإنما أوجد فكرة هذا البحث وجود ذلك الخبر فى تاريخ أبى الفرج . وإنا زيادة فى البيان ودفعاً للريبة ننقل هنا كل ما عثرنا عليه من كلام العلماء والمؤرخين عن هذه المكتبة فنقول :

أفرد جبون فى تاريخه (سقوط الإمبراطورية الرومانية) فصلا مخصوصاً بحث فيه عن حرق مكتبة الإسكندرية ، ومما جاء فى ذلك الفصل بعد حكايته لكيفية حرقها وما ذكره أبو الفرج عنها قوله : « بعد ما نقل كتاب أبى الفرج إلى اللاتينية وتناقل خبر تلك المكتبة لكتاب تأسفوا كلهم على احتراقها لضياع كثير من العلم والأدب فيها ، وأما أنا (يعنى نفسه) فإنى شديد الميل إلى إنكار الحقيقة والنتيجة » : يعنى أنه ينكر حقيقة حرقها وينكر أنه كان فيها شىء من العلم والأدب .

وجاء فى ذلك الفصل أيضاً قوله :

والغريب أن هذه الرواية يكتبها رجل من أطراف مادى (مملكة الفرس) ويسكت عنها مؤرخان مسيحيان من مصر وأقدمهما يوتيخوس الذى كتب تاريخ الإسكندرية فى القرن السادس .

وجاء فى ذلك الفصل أيضاً : أن تعاليم الإسلام تخالف هذه الرواية ، لأن تعاليمه أن الكتب الدينية اليهودية والنصرانية المأخوذة فى الحرب لايجوز إحراقها وأما كتب العلم والفلسفة والشعر وسواها من العلوم غير الدينية فإنه يجوز الانتفاع بها .

ويقول فى خاتمة ذلك الفصل إذا كان ما أحرق من هذه المكتبة فى الحمامات من كتب المجادلات الدينية بين الآريوسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة فكل عاقل حكيم يضحك سروراً بأن ذلك حصل لخدمة البشر .

هذه خلاصة ما جاء فى تاريخ جبون إلا أن فى حاشية هذا الفصل الذى كتبه جبون كتابة يرد فيها كاتبها عليه بظهور كتب عربية (يعنى فى أوربا) بعد عصر تأليف التاريخ تؤيد ما جاء فى تاريخ أبى الفرج ، وذكر من تلك الكتابة تاريخ ابن خلدون ورحلة عبد اللطيف البغدادى وغيرهما كما سنرى بعد فى الفصل الآتى المنقول عن رسالة شبلى أفندى النعمانى أستاذ اللغة العربية فى مدرسة على كده بالهند سابقا وناظر مدرسة العلوم بحيدر آباد الدكن الآن .

ألف ذلك الفاضل رسالة باللغة الأوردية ترجمت إلى الإنكليزية فى الرد على من قال بحرق عمرو لمكتبة الإسكندرية ، إلا أنا لم نظفر بتلك الرسالة فاجتزأنا من مضمونها بما لخصته عنه مجلة الهلال فى سنتها الثانية قالت بعد مقدمة حسنة فى تقريظ الرسالة .

وخلاصة ما أراد إثباته (يعنى مؤلف الرسالة) أن أول من نسب حريق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو بن العاص مؤرخ اسمه أبو الفرج بن طبيب يهودى اسمه قارون ولد سنة (١٢٢٦ م) فى ملاطية ، وكان والده قد تنصر فشب هو على النصرانية وأتقن اللغتين السريانية والعربية فعين وأسقفاً لمدينة جوبا وهو فى الحادية والعشرين من عمره وما زال يرتقى حتى لم يبق فوقه من الاكايريكية إلا منصب البطريك ، ثم ألف تاريخاً فى اللغة السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا التاريخ كتاباً فى العربية سماه مختصر الدول وهو أول كتاب ذكرت فيه مسألة حريق الإسكندرية وتناقلها عنه كتاب الافرنج إلى هذه الغاية ، حتى قام المؤرخ جيبون الانكليزى فانتقد هذا الرأى (وهو الانتقاد الذى تقدم) وأظهر ارتيابه فى صحته ، لعدم وجود الأدلة عليه لأنه كتب بعد فتح الإسكندرية بستمائة سنة ، ولم يذكره أحد قبل ذلك، فانتبه مؤرخو الإفرنج

من غفلتهم وأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا القول . غير أن المجتهدين منهم في خلع هذه التهم عن الإفرنج وإلباسها للعرب عادوا فقالوا إن هذه الحادثة لم يذكرها أبو الفرج فقط ، وإنما ذكرها المقريزى وعبد اللطيف البغدادى وحاجى خليفة من مؤرخى الإسلام حتى قال بعضهم إن ابن خلدون أيضا قد ذكرها .

قال الهلال ثم أخذ صديقنا (أى مؤلف الرسالة) فى تفنيد هذه الأسانيد فقال :

أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا ، وكل من اطلع عليه يعلم أن لاذكر لهذه الحادثة فيه على الإطلاق . أما المصادر الثلاثة الباقية فأثبت أولا أنها لا تعتبر ثلاثة مصادر مستقلة ، لأن المقريزى ذكر المكتبة نقلا عن عبد اللطيف حرفا حرفا فيبقى عبد اللطيف وحاجى خليفة . أما عبارة حاجى خليفة فلا ذكر فيها لمدينة الإسكندرية وإنما أشار إلى أن العرب فى صدر الإسلام لتعلقهم فى الوحى وخوفهم من تسلط العلوم الأجنبية على عقولهم كانوا (على ماقيل) يحرقون الكتب التى يعثرون عليها فى البلاد التى يفتتحونها . فيظهر من ذلك أن عبارة حاجى خليفة لا تفيد ما أرادوه لأنه إنما يريد الإشارة إلى عدم اعتناء العرب بالعلم ، ولكى يؤيد قوله ألمح إلى مسألة حريق الكتب وهو لم يذكرها كأنها حقيقة .

أما عبد اللطيف البغدادى فقد ذكر حرق المكتبة أثناء كلامه عن عمود السوارى ، وهذا نص عبارته « وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه ارسططاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلوم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بأمر عمر رضى الله عنه » فيظهر من

نص العبارة أنه ذكر مسأله المكتبة بطريق العرض ، وكانت أشبه بخرافة تتداولها الألسنة فذكرها على علاتها على أن عبارته هذه بجملتهاغير صحيحة كما ثبت بالبحث .

ثم أعقب هذا بالأدلة على عدم إمكان احتراق المكتبة بأمر الخليفة عمر أو غيره من الخلفاء أو الأمراء المسلمين ، وأثبت أخيراً أنها إنما احترقت قبل الإسلام أحرق نصفها يوليوس قيصر الرومان وأتم على باقيها بطاركة الإسكندرية قبل الإسلام .

انتهى مالخصه الهلال عن رسالة شبلى أفندى النعمانى وإليك ما كتبه المرحوم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية فى شأن هذه المكتبة نقلا عن مؤرخى الإفرنج قال :

قد ذكر أعيان مارسلون عند التكلم على السيرابيوم « بناء قـــديم بالإسكندرية ومحله يعرف بعامود السوارى » إنه كان به دار الكتب الكبيرة التى كانت ملحقة بالسرايات . ويؤيد ذلك ماذكره وتروف حيث قال إنه كان بمدينة الإسكندرية دار كتب غير الكبيرة ولم يكن ثم غير الموجودة فى معبد السيرابيوم ، ولبعدها عن الميناء لم تصلها الحريقة التى احترقت فيها السراية وملحقاتها عند محاصرة الاسكندرانيين قيصر . وقد قيل إن عدد ما كان بها من الكتب يبلغ ٣٠٠ر٠٠٠ مجلد وفى زمن كيلوباترة أضيف إليها مائتا ألف مجلد كانت بدار كتب مدينة بيرجام فأخذها انتوان معشوقها أهداها إليها ، وبعد احتراق دار الكتب الكبرى صار لا يوجد بمدينة الإسكندرية غيرها .

وبعد أن كانت المدرسة ودار التحف من ضمن ملحقات السرايات ألحقتا بمعبد السيرابيوم ، ومن ذلك الحين اتسعت شهرته إلى القرن الرابع من الميلاد . ونقل أمبير الفرنساوى أن هذا المعبد احترق مرتين مرة فى زمن القيصر ماركوبل ، ومرة فى زمن القيصر كومول . وفى خطط الفرنساوية أن إحراق السيرابيوم كان بأمر البطريق بتوفيل بعد توقف كثير من العلماء والأهالى ، ثم بنى محل السيرابيوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر أركاديوس المتولى تخت القيصرية بعد القيصر تيودوز الأكبر ، وجعل فيها دار كتب جمع فيها ما أبقته النار وشيئا كثيرا من كتب النصرانية ، هى التى ينسب حرقها إلى عمرو بن العاص ، لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك إليه ، فإن هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين فى عصره من النصارى وغيرهم ، ولم يظهر ذلك إلا فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، عن كتاب ينسب إلى أبى الفرج بطريق حلب مع أنه لم يذكرها فى تاريخه العام[1] وفى النبذة السنوية لمجلس مصر (اللانبستيتو) أى المجلس العلمى من ضمن ما قيل فى جلسة أغستوس سنة ١٨٧٤ ميلادية أن بولص أوروز من تلامذة مارى

---

(١) قوله لم يذكرها فى تاريخه العام لعله يريد به تاريخ مختصر الدول المطبوع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٠ م ، فهذا المطبوع حقيقة لم نر فيه ذكراً لمكتبة الإسكندرية ، مع أن شبلى أفندى النعمانى قد ذكر أن الجملة إنما جاءت فى تاريخ مختصر الدول هذا ! وجبون قال إنها جاءت فى ترجمة تاريخه اللاتينية ولا نعلم هل كانت الترجمة اللاتينية هى ترجمة تاريخه السريانى ، أم تاريخه العربى المعروف بمختصر الدول فلا يخلو الأمر إما أن الطابع تبرئة لأبى الفرج ولالصاق لهذا الخبر بالمسلمين حذف هذه الحكاية من تاريخ مختصر الدول قبل طبعه ثم طبعه ، وإما أنها جاءت فى تاريخه السريانى وأنه هو الذى ترجم إلى اللاتينية ونقل عنه الإفرنج ، والذى يظهر هذه الحقيقة أنى ظفرت عند صديق لى من المشتغلين بالنسخة السريانية إلا أنها مكتوبة بالخط الكلدانى الذى تصعب قراءته على من لا يعرفه جيداً ، وقد كلفت صديقى بقراءة الخبر على فتح الإسكندرية فلم يجد فيه حكاية مكتبة الإسكندرية ، فبقى أن الذين طبعوا الكتاب هم الذين حذفوا منه الخبر . وقد جرت عادة اليسوعيين بالتصرف بالكتب التى يطبعونها فيحرفون فيها ويزيدون وينقصون .

اجستان ومارى جيروم لم يجد شيئا من الكتبخانة حين مروره بالإسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد ، يعنى قبل دخول سيدنا عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة . فالظاهر أن القول بأن إحراق كتبخانة إسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو محض افتراء اختلقته قسوس النصارى ، فإنه قد حصل إحراقها مرارآ قبل دخول الإسلام . والكتب القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدى النصارى : انتهى كلام الخطط ومنه يعلم تضارب روايات القوم فى حرقها وانحصار تحقيقهم فى زمن وقوعه قبل الإسلام ، لأنه كان كذلك ومن المستحيل أن يبقى فى هذه المكتبة مع توالى الحرق عليها والنقل منها ما تصل إليه يد عمرو بالحرق أو ما يكون فيه فائدة يؤسف على فقدها والسلام .

عود إلى خبر الفتح :

أتم عمرو رضى الله عنه بفتح الإسكندرية فتح مصر ، وتحول بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الفسطاط بعد أن أقره واليآ عليها ، فكان خير وال وأعظم قائد ، وأحب الولاة إلى الرعية ، وأشدهم قياما على العدل والنظر فى عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عونا للمسلمين ، فلم يدرك المصريين فى ولايته ما أدركهم فى ولاية غيره من الجهد ، وهابه الروم وتمهدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها ، لذلك كان شأن مصر عنده عظيما ، وإمارتها إليه محببة ، حتى شبه يوما إمارتها بالخلافة ، إذ روى عن ابن لهيعة أنه قال كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة : وكان القبط على عهد الدولة الرومانية كعبيد لأهل الدولة من الروم ، وبين الفريقين نفور شديد لتباين فى المذهب والاعتقاد أدى إلى العداوة وهى العداوة المذهبية التى ابتلى به كل أرباب الأديان ، فلما فتح عمرو مصر أطلق القبط من أسر الضيم الذى عانوه

على عهد الدولة الرومانية ، وكان أول ما بدأ به بعد أن استقرت له الأمور أن كتب أمانا إلى البطريرك بنيامين بطريرك الإسكندرية ورده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه ١٣ سنة منها عشر سنين على عهد استيلاء الفرس على مصر . ومنها ثلاث سنين بعد رجوع سلطة الإمبراطور هرقل إليها ، فسر ذلك العمل البطريرك وشكره عليه كما ذكر ذلك المقريزى . وهذا من جملة السياسة النافعة التى اشتهرت عن عمرو .

وقد ذكر هذا الخبر أيضا جبون فى تاريخه ، وقال إن البطريرك بنيامين كان يثنى على عمرو بن العاص وبقدر عمله قدره .

ولا جرم أن وجود البطريرك بعيداً عن كرسيه مدة ١٣ سنة ، ثم عوده إليه على عهد الحكومة الإسلامية يوجد فى نفسه ونفس القبط ثقة كبرى بالمسلمين ، ونحن لانشك بأنه إذا كان هناك يد لأحد بمساعدة عمرو على فتح مصر ، فإنما هى لذلك البطريرك ، يدلك عليه مانقلناه عن بعض مؤرخى العرب عند الكلام على فتح الفرما من قولهم إنه كان بالإسكندرية أسقف اسمه أبو ميامين ، كتب إلى القبط يعلمهم بقرب زوال ملك الروم ويأمرهم بتلقى عمرو حتى كان قبط الفرما أعوانا لعمرو . وإنما اشتبه على العرب الاسم فاخطئوا فى نقل الحكاية، والذى يظهر أن الذى كتب ما كتب هو البطريرك بنيامين ، وأنه كتب من منفاه فى منف لامن الإسكندرية ، والقرائن كلها تدل على أن له يداً فى مساعدة العرب ، وإنهاض القبط لتعضيدهم فإن جبون ذكر أن عمراً لما فتح مصر سر القبط الذين هم على مذهب اليعاقبة سرورا عظيما ،وأخذوا من ثم يخطبون باسم مذهبهم على المنابر مع أنه قال إن أهل المذهب الملكى وهو مذهب الدولة كانوا نحو عشر السكان ، فهذا يدل على أن هذا العشر كان مضطهداً لبقية السكان حتى ما كانوا يستطيعون الدعاء باسم مذهبهم والجهر به ، وإن قوما هذا شأنهم مع

حكومتهم لجديرون بموالاة المسلمين ، لا سيما مع علمهم بأن الحكم الإسلامى مؤسس على إطلاق حرية الأديان ، وأن المسلمين لا يتعرضون لأهل البلاد المفتتحة فى عوائدهم ودينهم بشىء البتة .

وبالجملة فقد كانت إمارة عمرو على مصر من أبرك الإمارات وأرغبها للقبط وغيرهم . ولم تقف به همته الشماء ونفسه العالية عند الغناء بفتح مملكة الفراعنة ، بل طمح إلى ما هو أبعد غاية وهى بلاد المغرب ليبسط جناح الإسلام على كل أفريقيا الشمالية فتقدم بجيشه سنة (٢١ هـ) يخترق الصحراء حتى بلغ برقة فافتتحها وافتتح فرضتها بنغازى ، ثم طرابلس الغرب ، ولما عزم على التوجه منها إلى أفريقيا (تونس) فالجزائر ثم الغرب الأقصى ، جاءه كتاب أمير المؤمنين عمر (رضى الله عنه) ينهاه فيه عن التغرير بنفسه وبالمسلمين ويأمره بالوقوف عند ذلك الحد كما مرّ الخبر عن ذلك فى سيرة عمر ، فعاد مكرها بعد أن استخلف على البلاد بطل أفريقيا عقبة بن نافع الفهرى القرشى الذى صار إليه بعد ذلك فتح المغرب .

ولقد والله يحار عقل الحكيم فى إقدام أولئك الفاتحين وجرأتهم على التغلغل والإمعان فى أقاصى الممالك بعددهم القليل وعدتهم الضعيفة ، حتى افتتحوا فى ثلاثين سنة مالم يفتحه غيرهم فى أجيال ، ومهما بحث العاقل عن علة هذا التوفيق الغريب لايجده إلا حسن السيرة والسير مع الأمم المغلوبة على نهج الحق والعدل . وإن فى هذا لتبصرة وذكرى للعاقلين .

ولايته على مصر

آثاره فيها وأخباره مع عمر وما كان من المكاتبات بينهما

قلنا إن عمرو بن العاص تحول إلى الفسطاط بعد فتح الإسكندرية وسبب تحوله أنه لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها ، هم أن

يسكنها وقال : مما كن قد كفيناها : فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء : قال نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل : فكتب إلى عمرو إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف : فتحول عمرو إلى الفسطاط ولم يكن فسطاطا بل كان أرضا فيها بعض جنات مما يلي بابليون إلى الجهة الشمالية وبعض كنائس للنصارى ، وقيل في تسميته الفسطاط إن عمراً لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال الروم أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو : لقد تحرم منا بمتحرم : فأمر به فأقر وأوصى به صاحب القصر . فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا : أين تنزل . قالوا الفسطاط : لفسطاط عمرو الذي كان خلفه وقيل سمي فسطاط عمرو : أي مدينة عمرو : لأن الفسطاط لغة هو المدينة ولعله هو الصواب .

لما تحول عمرو إلى الفسطاط ورأى تنافس القبائل على المواضع أمر بتخطيط مدينة هي مدينة الفسطاط التي هي من آثاره العظيمة في هذا القطر ، لأن اختط عاصمة جديدة لمصر على ضفة النيل الشرقية تقابل منف[1] على الضفة الغربية ، فأصبحت حاضرة البلاد المصرية ، ولم تزل كذلك بعد بناء القاهرة إلى الآن . ولما عزم عمرو على تخطيط الفسطاط ولى على الخطط (وهي الحارات) معاوية بن خديج التجيبي ، وشريك بن سمي الغطيفي ، وعمرو بن قحزم الخولاني ، وحيويل بن ناشرة المغافري ، فاختطوا لكل قبيلة خطة . واختطوا مكان الجامع المعروف إلى الآن بجامع عمرو إذ كتب عمر إلى عمرو بن العاص بذلك كما كتب لكل الأمراء يأمرهم أن يبنوا في كل مدينة مسجداً جامعاً ولا يتخذ القبائل كل قبيلة مسجداً .

---

(١) لا تقابلها تماما بل منف كانت إلى جهة الجنوب عن سمت الفسطاط جهة دهشور وسقارة الآن .

وجعلوا ذرع المسجد خمسين ذراعاً فى عرض خمسين ، وجعلوا سقفه مطأطأ جداً ، واتخذ عمرو فيه منبراً من أعواد ، فكتب إليه عمر يعزم عليه فى كسره ويقول . أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره : ولم تكن الجزية تقام فى زمن عمرو بن العاص بشىء من أرض مصر إلا بهذا الجامع .

ثم إن المسجد ضاق بالمصلين بعد فى ولاية مسلمة بن مخلد ، فاستأذن معاوية فى الزيادة فيه ، فأذن له بذلك فزاد به وطلاه بالنورة وزخرف سقفه. وأمر معاوية ببناء الصوامع (المنائر) للأذان ، فبنى مسلمة فيه أربع صوامع وفرشه بالحصر وكان مفروشا بالحصباء : ثم هدمه عبد العزيز بن مروان فى سنة تسع وسبعين من الهجرة ، وهو يومئذ أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك ، وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التى كانت بحريه ، ولم يجد فى شرقيه موضعاً بوسعه ، ثم هدم فى زمن قرة بن شريك فى خلافة الوليد وزيد فيه وغير وبدل، وهكذا كان يتعاوره الخلفاء والأمراء بالإصلاح حتى اختطت القاهرة وكثرت الجوامع والمساجد ، وقل ساكنو الفسطاط فترك الجامع وهو لم يزل إلى الآن متروكا ويحتفل بالصلاة فيه آخر جمعة من رمضان ، لكنه فى حالة لاترضى أبداً . ولو كان المصريون ممن يعنيهم حفظ آثار الرجال لجعلوا هذا الجامع من أحسن جوامع مصر ، إحياء لذكر صاحبه وتخليداً لذكر الفتح .

وأما تقسيم الخطط وترتيبها بالفسطاط لما خطط فى زمن عمرو فالكلام عليه يطول ، وهو مبسوط فى كتاب الخطط للمقريزى فليراجعه من أحب .

ومن آثاره المشكورة فى مصر حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين وعرف بعد بخليج القاهرة، الذى كان يمتد من الفسطاط إلى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الأحمر والهند . والخليج قديم جداً

قبل الإسلام إلا أنه طم وتعطل قبل الفتح ، فحفره عمرو بن العاص وكان سبب حفره على ما نقل المقريزى عن ابن الحكم بروايته عن الليث بن سعد قال : إن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة . فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر .

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاصى : سلام أما بعد فلعمرى ياعمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك من أهلك ، أن أهلك أنا ومن معى فياغوثاه ثم ياغوثاه :

(فكتب إليه عمرو) من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين ، أما بعد . يالبيك ثم يالبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فبعث إليه بعير (قافلة) عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضاً . فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ، ودفع إلى كل أهل بيت بالمدينة وما حولها بعيراً بما عليه من الطعام ، وبعث عبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص يقسمونها على الناس ، فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام، ليأكلوا الطعام ويأتدموا بلحمه ويحتذوا بجلده ، وينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره ، فوسع الله بذلك على الناس، فلما رأى ذلك عمر رضى الله عنه حمد الله وكتب إلى عمرو أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه . فقال عمر ياعمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطعام ، وقد ألقى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر ، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة ، فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد : فانطلق أنت

وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم : فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر . فثقل ذلك عليهم وقالوا نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر ، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلا : فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر رضى الله عنه حين رآه وقال : والذى نفسى بيده (كأنى أنظر إليك ياعمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم ، وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له إن هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد له سبيلا : فعجب عمرو من قول عمر وقال : صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر على ما ذكرت : فقال عمر (رضى الله عنه) انطلق بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى : فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد ، ثم احتفر الخليج فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين فساقه من النيل إلى القلزم (السويس) فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة ، فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى خليج أمير المؤمنين: ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبدالعزيز ، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع ، فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم : انتهت رواية ابن عبد الحكم .

وقد أجهزت الحكومة المصرية على الباقى منه لهذا العهد فأمرت بطمه من عشرات السنين ، وأصبح الجزء الذى يخترق القاهرة شارعا مد عليه خط الترامواى ودعى بخط الخليج .

وجاء فى سبب حفر هذا الخليج روايات أخرى ، منها ما ذكره أبو الفداء أن عمرو بن العاص أشار على عمر بفتح خليج البرزخ وهو الذى يصل

بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط فأبى عليه عمر فتحه خوفا من وصول الروم إلى البحر الأحمر ، ويقال إن خليج البرزخ هذا كان موجوداً فى عهد البطالسة وأن أثره كان باقياً لعهد عمرو بن العاص ؛ لهذا أشار على عمر بفتحه فكان رأى عمر أن لا يفتح ونعم ذلك الرأى فإن فتح خليج السويس كان من أشد الآفات على ممالك الشرق ، وفى الخطط التوفيقية كلام مشبع عن هذا الخليج والخليج الذى يقال إنه كان من قبل فليرجع إليه من أحب .

وقد كان عند المصريين عادة قديمة وهى أنهم كانوا يحتفلون بزيادة النيل احتفالا عظيما يسمى جبر البحر ، ويسمى الآن فتح الخليج وكانوا يعملون هذا الاحتفال عند وفاء النيل ، فكانت من عوائدهم القبيحة فيه أن يلقوا فيه كل سنة بنتاً من الأبكار بعد أن يزينوها بالحلى والحلل زعما منهم أنه لا يفى لهم إلا بهذه الضحية : ويقال إن الإمبراطور قسطنطين أبطل هذه العادة فى عصره لكن المصريين عادوا إليها ، بدليل أن مؤرخى العرب ذكروا أنها كانت موجودة لحين دخول عمرو بن العاص إلى مصر فأبطلها هذا بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وتحرير الخبر على ما نقله المقريزى عن ابن عبد الحكم أن عمراً لما فتح مصر أتى أهلها إليه حين دخل بؤنة من أشهر القبط ، فقالوا له أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم وما ذلك : قالوا إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى النيل : فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله .

فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى وتوت وهو لا يجرى قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء ، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك :

فكتب إليه عمر أن قد أصبت إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى النيل إذا أتاك كتابى .

فلما قدم الكتاب إلى عمرو فتح البطاقة فإذا فيها (من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر : أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك) فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب ، وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا وقطع السنة السيئة عن مصر (١) :

وكان القبط يزعمون أن النيل لا يزيد إلا إذا احتفلوا له بعيد يسمونه عيد الشهيد ، ولهم تابوت يضعون فيه أصابعاً من أصابع أسلافهم الموتى فى اليوم الثامن من شهر بشنس أحد الشهور القبطية فيلقونه فى النيل ، فأبطل ذلك العيد الأمير بيبرس الجاشنكير لما كان يقع فيه من الفتن والانغماس فى الفجور ، ذكر ذلك صاحب الخطط التوفيقية وقال أظن أن هذا العيد هو العادة التى أبطلها عمرو بن العاص : أى هذا العيد تخلف عن تلك العادة .

والذى أدركناه لهذا العهد أن البنت قد استبدل بها صورة مصنوعة من طين ، تلقى فى البحر يوم الاحتفال بفتح الخليج تسمى عروسة النيل ، وهذا يدل على صعوبة اقتلاع جذور العوائد القديمة من نفوس البشر لاسيما العوائد الوثنية — التى تسربت إلى أرباب الأديان الإلهية مع شدة نكير هذه الأديان على أهل تلك العوائد .

---

(١) فى هذه الحكاية بحث ونظر راجع تحقيقه فى المجلد الثانى من مجلة المنار (ص ٥٥٠)

ومن آثاره الجليلة مدة ولايته على مصر توزيع الجباية بالعدل وقسمتها إلى ثلاثة أقسام ، قسم لترميم الجسور وحفر الترع ، وما يلزم لعمران البلاد وقسم لأعطيات الجند ، والباقى يرسله إلى الخليفة وقد كانت الجباية قبله على عهد المقوقس تبلغ عشرين مليون دينار كما رواه المقريزى فجباها اثنى عشر مليونا ، كما تقدم الخبر عن ذلك وعن الخلاف فيه ، ولما رتب الجباية استشار المقوقس فيما كان يفعله وقال له : أنت وليت مصر فبكم تكون عمارتها : فقال بخصال ـ تحفر خلجانها وتسد جسورها وترعها ، ولا يؤخذ خراجها إلا من غلتها ولا يقبل مطل أهله ، ويوفى لهم بالشروط ويدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا وترفع عن أهله المعاون والهدايا ، فبذلك تعمر ويرجى خراجها : فعمل بذلك وكان يخفف الجباية فى السنين التى لا يفى فيها النيل وربما كسرها وذلك للعهد الذى كتبه للمصريين ونصه كما رواه الطبرى : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماأعطى عمرو بن العاص أهل مصر ، من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم ، لا يزيد شىء فى ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب : وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (كذا) وعليه ممن جنى نصرتهم ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مالهم وعليه ماعليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا ، وعليهم ماعليهم أثلاثاً فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم : على مافى هذا الكتاب عهدالله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين : وعلى النوبة الذين استجابوا كذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة : شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا الكتاب فلان . . اهـ

فدخل أهل مصر في هذا الصلح جميعهم ، وعليه مشى عمرو بن العاص في تقسيم الجباية ومراعاة حال النيل في الزيادة والنقص ، وربما اضطر أحياناً إلى كسر الخراج ، فكان عمر يظن فيه الظنون ، ولما استبطأه مرة في الخراج كتب إليه ما نصه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو ابن العاص : سلام الله عليك : أما بعد فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر ، وإنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب ، ولقد أكثرت في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر (قلة) ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ذلك : فإذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي : لست قابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك . ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك ، فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة . وإن كنت مضيعا نطعا إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت أن أبتلي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك ، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء ، وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفا . وعندي بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه ، فلا تجزع أبا عبد أن يؤخذ منك الحق وتعطاه . فإن النهر يخرج الدر والحق أبلج ، ودعني وما عنه تلجلج ، فإنه قد برح الخفاء والسلام[1] .

---

(١) « تفسير الألفاظ اللغوية الواردة في هذا الكتاب » قوله تأتيني بمعاريض تعبأ بها . المعاريض هي التورية بالشيء عن الشيء وتعبأ بها أي تظنها ما يعبأ به أي يهتم له وهي لا شيء عندي =

فكتب إليه عمرو بن العاص :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لعبدالله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام الله عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو : أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منذ كان الإسلام ، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر . لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها . وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وتربت . وعلمت أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات . ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا . نرى غير ذلك قبيحا والعمل به شيئا ، فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قلبنا ، معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، والاجتراء على كل مأثم ، فأمض عملك فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها ، بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا ، والله يا بن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضبا لنفسى ولها إنزاها وإكراما . وما عملت من عمل أرى عليه فيه متعلقا . ولكنى حفظت مالم تحفظ . ولو كنت من يهود يثرب مازدت ، يغفر الله لك ولنا ، وسكت عن أشياء كنت عالما بها . وكان اللسان بها منى ذلولا . ولكن الله عظم من حقك مالا يجهل اهـ

= وقوله وإن كنت مضيما نطعا ، النطع المتشدق بالكلام ، وقوله لئن ابتلى ذلك منك أى امتحن . وقوله توالس وتلفف بمعنى واحد . وقوله ألحق أبلج أى مضىء مشرق لا يخفيه التمويه ، ومعنى تلجلج التلجلج التردد فى الكلام . وقوله برح الخفاء برح زال وانكشف .

فكتب إليه عمر رضى الله عنه :

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . سلام إليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو : أما بعد فإنى قد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلى بثنيات الطرق ، وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين لما رجوت من توفير الخراج وحسن سياستك . فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين . وعندى ماقد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب إليه عمرو بن العاص :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام . . . أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ، ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق . وإنى والله ما أرغب عن صالح ماتعلم ، وإن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلاتهم فنظرت للمسلمين ، فكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق (الخرق ضد الرفق) بهم فيصيروا إلى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام

فقيل إن عمر رضى الله عنه كتب إليه أن ابعث إلى رجلا قديما من القبطة . فاستخبره عمر رضى الله عنه عن مصر وخراجها قبل الإسلام . فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر إلى العمارة وإنما يأخذ ماظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد :

فعرف عمر ماقال القبطى وعلم منه جلية الأمر فقبل من عمرو ما كان يعتذر به .

ولا يتبادرن إلى ذهن القارىء أن إلحاح عمر رضى الله عنه على عمرو بأمر الخراج يريد به إجهاد القبط أو التوصل إلى الخراج كيف ما كان الحال ،

معاذ الله أن يخطر هذا لعمر بن الخطاب فى بال ، وإنما هو استبطأ الخراج مع عدم وقوفه على حاجة البلاد وعلمه بطمع عمرو ، فكتب إليه ما كتب وإلا فإنه رضى الله عنه كان من أشد الخلفاء حرصا على الرعية ، وقياما على العمران ، ومحافظة على العهود ، وخصوصا مع القبط الذين استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم . وإليك ما كتبه عمر أمير المؤمنين إلى عمرو ابن العاص يستوصيه بالقبط ، ويأمره بأن يأخذ من الخراج ما يحتاج إليه مما لا بد منه لإصلاح البلاد ، ويأخذ لنفسه عطاءه ويعطى الأعطيات لأربابها ومايفيض يرسله إليه وأن لا يأخذ الخراج إلا من حقه ، وهذا نص الكتاب كما أخرجه ابن سعد عن موسى بن جبير عن شيوخ من أهل المدينة قالوا : كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص :

أما بعد : فإنى فرضت لمن قبلى فى الديوان (أى فرض العطاء) ولمن ورد علينا فى المدينة من أهل المدينة وغيرهم ممن توجه إليك وإلى البلدان . فانظر من فرضت له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ، ومن نزل بك ممن لم أفرض له فافرض له على نحو مما رأيتنى فرضت لأشباهه ، وخذ لنفسك مائتى دينار [1] . فهذه فرائض أهل بدر من المهاجرين والأنصار . ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك غيرك لأنك من عمال المسلمين فألحقتك بأرفع ذلك ،

---

(١) لعل هذا الفرض الذى فرضه لعمرو هو جرايته (مرتبة) على عمله لا فرض العطاء إذ أن عمر (رضى الله عنه) كان يجرى على العمال جراية هى غير نصيبهم من العطاء ، فقد ذكر فى سراج الملوك أن عمر أجرى على عمار فى كل شهر ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ، ومن كان يلى معه لما بعثه وبعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق ، وأجرى عليه كل يوم نصف شاه وأرسلها وجلدها وأكارعها ، ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم) وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم فى كل شهر ، وربع شاة فى كل يوم وأجرى ، على شريح القاضى مائة درهم فى كل شهر وعشرة أجربة . ومن هذا يعلم أن عماله كان لهم جرايات على هذه النسبة وهى غير العطاء كما يتضح ذلك من قوله (مع عطائه) وإنما نبهنا على هذا الأمر هنا لأهميته ولأنه فاتنا ذكره والتنبيه إليه فى سيره عمر رضى الله عنه .

وقد علمت أن مؤ نا تلزمك فوفر الخراج وخذه من حقه ، ثم عف عنه بعد جمعه ، فإذا حصل إليك وجمعته أخرجت عطاء المسلمين وما يحتاج إليه مما لا بد منه . ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله إلىّ . واعلم أن ماقبلك من أرض مصر ليس فيها خمس وإنما هي أرض صلح(1) وما فيها للمسلمين فيء: تبدأ بمن أغنى عنهم في ثغورهم (أي المرابطين) وأجزأ (أقضى) عنهم في أعمالهم ثم أفض مافضل بعد ذلك على من سمى الله (أي في القرآن) .

واعلم ياعمرو أن الله يراك ويرى عملك ، فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه « واجعلنا للمتقين إماماً » يريد أن يقتدى به . وإن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما » ورحمهم أن أم إسماعيل منهم. وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » احذر ياعمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصما فإنه من خاصمه خصمه . والله ياعمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة وآنست من نفسى ضعفاً ، وانتشرت رعيتى ورق عظمى فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط . والله إنى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعا أن أسأل عنه اه .

لو لم يكن لعمر إلا هذا الكتاب لكفاه فضيلة في نفسه وفضلا على رعيته ، فكيف وكل أعماله شاهدة على تفرده بالعدل وحسن السيرة في الرعية ، ومضاء الفكر في السياسة وشدة الأخذ على أيدى العمال

---

(1) قوله ليس فيها خمس وإنما هي أرض صلح يدل على أن مصر فتحت صلحاً وأن ما فتح عنوة أجرى بعد ذلك مجرى الصلح الذي دخل فيه كل القبط للعهد الذي أخذه لهم المقوقس وهذا يؤيد ماجاء في كتاب العهد الذي مر معنا ذكره وأن عمر وعمرو بن العاص حفظا للمقوقس العهد وأجرياه له بعد تمام الفتح .

واليقظة فى الأمور جليلها وحقيرها فرضى الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء .

كلمة ثانية فى أهل الذمة :

هذا الكتاب يمثل لنا سيرة عمر بن الخطاب مع أهل الذمة ويبين شدته على العمال فى منعهم عن إيذاء أهل الكتاب اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعملا بأمره ومن تكون هذه سيرته مع أهل الذمة أفيعقل أن يريد بهم أذى بقول أو فعل ؟ كلا إن العقل والبديهة يرفضان نسبة أى قول أو فعل إليه يشتم منه ولو رائحة الجفاء فضلا عن امتهان الذمى أو ظلمه .

وإذ علم هذا فالذى يدعو إلى العجب هو غفلة نقلة الأخبار ورواتها عن مقاصد عمر رضى الله عنه ، التى هى مقاصد الشرع الإسلامى الذى جاء للتأليف بين القلوب وعدم استحيائهم من جميع المتناقضات من الأخبار ، ونقلهم الموضوعات منها بلا تمحيص لصحيحها من كاذبها وبدون ترو فى النافع والضار منها .

كتبنا فى منتصف هذا الكتاب فصلا عن أهل الذمة نقلنا فيه رواية لابن الجوزى فى أن عمر تقدم إلى أحد عماله بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص[1] وأبنا ثمة وجه الضعف فى هذا الخبر ، وعجبنا من مثل ابن الجوزى كيف ينقل مثل ذلك الخبر مع أنه ليس فى الدرجة التى تؤلم النفس ، إذ لو صح لحمل على قصد سياسى أو إدارى على تعبير المتأخرين ، يراد به ضبط إحصاء أهل الجزية من الذميين لا امتهانهم اقتداء بالدول الفاتحة قبل الإسلام كالرومان والفرس الذين ثبت أنهم كانوا يضربون على الرعية الجزية ، وربما كانت هذه العادة

---

(١) المراد بختم رقاب أهل الذمة بالرصاص هو حمل طوق فيه علامة من الرصاص كما فى بعض التواريخ .

متبعة عندهم فى إحصاء أهل الجزية ، وقد زاد عجبنا أضعافاً إذ رأينا هذا الخبر فى الخطط نقله صاحبها المقريزى عن ابن عبد الحكم بزيادة أحر بها أن تكون محض افتراء على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإذ قلنا بوهن الرواية الأولى فى جانب العقل وهى لأحد حفاظ الحديث ، فما أحرانا بتكذيب الرواية الثانية . وإليكها بنصها مع الزيادة التى أوردها المقريزى قال :

كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه ، وكانت فريضة مصر لحفر خلجها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفاً (أى من العمال) ، معهم الطور والمساحى والأداة يعتقبون ذلك لا يدعون ذلك صيفاً ولا شتاء . ثم كتب إليه عمر أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف (جمع أكاف وهو البردعة) عرضاً ، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسى ، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يتشبهوا بالمسلمين .

فانظر أيها العاقل إلى هذا الكتاب وقابله بكتاب عمر الذى يوصى فيه عمرو بن العاص بأهل الذمة هل تجد بينهما التشاماً بالوجهة ؟ أم بينهما من البون البعيد ما بين الحق والباطل . وقد أوضحنا من قبل ضعف أمثال هذه الأخبار بما فيه الكفاية ، وإنما عدنا إليها الآن لأمر ظهر لنا بعد البحث والروية : وهو أن واضعى هذه الأخبار إنما ألجأهم لوضعها أمران :

الأمر الأول أن الشئون الإدارية وأهمها دواوين الخراج كانت تناط فى أكثر الأوقات بأهل الذمة ، بل استمرت تكتب بلغتهم أيضاً إلى عهد عبد الملك بن مروان ، فكانوا يستطيلون أحياناً على رجال الدولة وأهل المكانة ، وربما تحرج منهم أحياناً بعض الفقهاء ، فوضعوا لهم أمثال تلك الأخبار تنقيصا لهم وحطا من مكانتهم عند الخلفاء والملوك ، وإبعاداً لهم عن مناصب الدولة وإنما ألجأهم إلى نسبة هذه الأخبار إلى عمر كونه كان

رضى الله عنه قدوة فيما لم يرد بخصوصه شيء فى الشرع ، وهذا بلا ريب يعد من أولئك الوضاعين تناهيا فى ضعف الرأى لا سيما إذا علموا بأحوال أهل التقى والعدل من الخلفاء ، ومعاملتهم الجميلة لأهل الذمة كعمر بن عبد العزيز ومن حذا فى ذلك حذوه من الخلفاء ، وبالأخص الخلفاء من بنى العباس الذين كان أكثرهم متفقها فى الدين واقفاً على أخبار السلف كالمنصور والمهدى والرشيدوالمأمونوأمثالهم ممنأتى بعدهم،فكانوا يوسدون كثيراً من شئون الدولة إلى أهل الذمة ويقربونهم منهم لا سيما الأطباء والكتاب بلا أدنى تحرج فى الدين ، وأى حرج فى الدين يمنع من محاسنة الذميين وعدم إيذائهم بمثل ذلك الامتهان المشين من كلام الوضاعين ، ومن وقف على أخبار ماسويه وحنين بن إسحق وأضرابهما مع المأمون والمتوكل يعلم هذا . وكذلك كان حالهم مع خلفاء الفاطميين فى مصر فكان القبط أرباب الكلمة العليا عند الخلفاء وكانوا كما نقل المقريزى يتولون دواوين الخراج ، ويركبون البغال الفارهة ، ويتصرفون بأموال الدولة بل بلغ بالخلفاء أن كانوا يعطون ألقاب التشريف الخاصة بالعلماء والملوك وهى الألقاب المضافة إلى الدين للأطباء والكتبة من النصارى واليهود ، وما نذكره من هؤلاء (الشيخ موفق الدين بن البورى الكاتب النصرانى) والحكيم (موفق الدين بن المطران) وغيرهما ممن لم تحضرنى أسماؤهم الآن :

هذا هو السبب الأول . وأما السبب الثانى لوضع تلك الأخبار فنشوء نزوع بعض الأمراء الى إجهاد الرعية من مسلمين وذميين بالضرائب ونكث عهود هؤلاء القديمة ، ولما لم يروا ، فى الشريعة مخرجا ثم يتوصلون به إلى الاستبداد بالرعية وتحميل الذمى فوق ماحدده الشرع من الخراج والجزية ، كما حملوا المسلم لاسيما والأخبار النبوية آمرة بالوفاء معهم بالعهد والمحافظة على ما لهم من حقوق الذمة والجوار ، وأنهم أهل ذمة الله وذمة رسوله — مهدوا لأغراضهم السبيل بالإيعاز إلى بعض مقربيهم بوضع مثل ذلك الخبر

مقدمة لاستباحة امتهانهم ثم إجهادهم بالضرائب ، يدلك ماعليه حدث فى عهد المروانيين من الاجتراء على استزادة الخراج والجزية فى مصر وغيرها من غير حقها ، كما ستراه مبسوطاً فى محله إن شاء الله .

على أن سيرة الصحابة ورجال الفتح فى الصدر الأول مع أهل الذمة وحدها كافية لدحض أمثال تلك الأقوال الواهية ، حتى إنهم افتتحوا بحسن السيرة وجميل المجاورة والمعاملة مالا يقوى عليه الحسام ، ويخرج عن طوق عددهم القليل بالنسبة لبقية الأقوام[1] وحسبك من أدبهم مع أهل الذمة من الكتابيين أن ما روى عنهم من أخبار الحروب مع الروم لم يستعملوا فيه لفظ الكافرين والمشركين البتة مع أنهم كانوا يعبرون عن مجوس الفرس ووثنيي العرب قبل الإسلام بالمشركين ويقولون عن أولئك : الروم والقبط مثلا كانهزام الروم . وقاتل القبط ونحوه . يؤيد هذا كتب التاريخ التى نقلت إلينا أخبار الفتح بالرواية كالطبرى وأشباهه ، ولو فرض وجود شيء من تلك الألفاظ فيها فإنه نزر يسير وهو من حشو النساخ ، وأما كتب

(١) قد كان المسلمون كلهم كعمر من حيث العمل بمراعاة أهل الذمة ولزوم وتجنب إيذائهم بالقول أو الفعل خصوصاً عماله ، يدلك عليه ماذكره فى سراج الملوك فى حكاية طويلة لا محل لذكره هنا ، وخلاصتها أن عمير بن سعد عامل عمر على حمص وفد عليه مرة فسأله عن أشياء ثم قال له عد الى عملك ، فقال عمير أنشدك الله أن لا تردنى الى عملى ، فإنى لم أسلم منه حتى قلت لذمى : أخزاك الله . ولقد خشيت أن يخصمنى له محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقد سمعته يقول (أنا حجيج المظلوم فمن حاججته حججته) ولكن ائذن لى الى أهلى . فأذن له فأتى أهله ... ألخ الحكاية .

وإذا كان مثل عمير بن سعد يستعفى من عمله لكلمة قالها لذمى ، وخاف الذمى أن يخصمه رسول الله عليها لأنه قال « من ظلم ذميا فأنا خصمه يوم القيامة » ، فهل يسوغ العقل أن يؤذى عمر وعماله الذميين بمثل جز النواصى والركوب على الأكف ، ونحو ذلك من أنواع الإيذاء الذى لاشيء بالنسبة الى قول عمير للذمى : أخزاك الله .

فاللهم ، إنا نبرأ إليك مما كتبه الوضاعون وأخذ به الفقهاء على غير روية ولا تحكيم للعقل ه

المتأخرين أو المقلدين فإن أصحابها لم يراعوا فيها ماراعاه السلف من الأدب وحسن الأداء ، لما وقر فى نفوسهم من التعصب الذى حدث فى القرون الوسطى ولم يكن له أثر فى النفوس فى صدر الإسلام لعلم أهل ذلك الصدر أن الإسلام جاء للتأليف والوئام ، لا للتفريق بين الأقوام ، وإن اختلاف الأديان لا يوجب الفرقة والخصام ، لقوله تعالى « لكم دينكم ولى دين » ولأن القرآن نطق بأن أهل الكتاب أقرب مودة المؤمنين وذلك فى قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » ولهذا سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصارهم على مجوس الفرس كما ذكرنا ذلك من قبل فى حكاية هرقل مع الفرس ، وهى القصة التى جاءت فى قوله تعالى « ألم غلبت الروم » الآية فلتراجع فى محلها .

هذا ما أردنا بسطه ليكون فيه ذكرى للذاكرين ، وإنما أطلنا الكلام فى هذا الباب إظهاراً لبراءة عمر رضى الله عنه مما عزى إليه وتنبيها لأولى النهى من المسلمين إلى أن دينهم يأمر بمحاسنة الذميين وينهى عن مخاشنة الكتابيين ، وإن مرض التعصب الذميم إنما طرأت أعراضه على الأمة تدريجا سيما على عقب الحروب الصليبية ، وإن من آثار ذلك التعصب القبيح مايلاقيه المسلمون لهذا العهد من ضروب الإهانة والعسف من الدول المسيحية التى حكمت بعض الممالك الإسلامية ، ولم تراع فى حكم المسلمين حقوق الإنسانية ولا الدين بحجة الانتقام المسيحية . والمسيحية والإسلام يبرآن إلى الله من ظلم البشر بعضهم لبعض ، ولكن ما الحيلة والإنسان مهما ترقت مداركه وسما عقله ، فإنه لا يزال يتقاصر دون الوصول إلى مرتبة العلم الكامل الذى يجعل البشر كلهم بالإضافة إلى وجوب التعاون والاجتماع سواء ، وإن اختلفوا فى المذاهب والأهواء إذ كل امرىء مسئول عن اعتقاده عند الله . وأنه

سبحانه يبين آياته للناس فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها . ولكن : إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

عود لخبر عمرو :

لما تم لعمرو بن العاص افتتاح مصر وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بذلك . كتب إليه كتابا يشكره فيه ويقول له أن صف لى حال مصر فكتب إليه ما نصه :

ورد إلىّ كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاه يسألنى عن مصر : اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء ، طولها شهر، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخطوسطها نهر مبارك الغدوات، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر . له أوان يدر حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانبين . فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب . وخفاف القوارب . وزوارق كأنهن المخائل ، أو ورق الأصائل ، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ فى جريته ، وطمى فى ردته ، فعند ذلك تخرج ملة محقورة ، وذمة مخفورة[1] يحرثون بطون الأرض، ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب . لغيرهم ماسعوا من كدهم ، فناله عنهم بغير جدهم ، فإذا أحرق الزرع وأشرف سقاه الندا ، وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، فإذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة زرقاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء والذى يصلح هذه البلاد ويقر قاطنها فيها أن لا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، ولا يستأدى خراج ثمره إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل

(١) قوله ملة محقورة وذمة مخفورة يدلك على ما كان يلاقيه فلاحو مصر من الجور والإهانة فى دولة الروم .

جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال ، على هذه الأحوال، تضاعف كارتفاع المال ،والله يوفق إلى حسن الحال .

استقر أمر عمرو بن العاص فى مصر ونال من السلطان عليها ما كان يتمناه فتبسط فى المعيشة وتوسع فى أمور دنياه فأنهى إلى عمر بن الخطاب أنه فشت لعمرو فاشية من خيل ومتاع،ونزعت نفسه إلى الراحة والاستمتاع وهيهات لمثله أن يتم له ماأراد ويتقلب على وثير النعم ، وخليفته يعانى شظف العيش ويقهر النفس على الرضا بالكفاف ، ويؤدب عماله بأدبه ويحملهم على طريقته تعففا عما بأيدى الناس ، واكتفاء بأجر الصبر والتماسا لرضا الله والرعية .

روى البلاذرى عن عبد الله بن المبارك قال : كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولاهم ، ثم يقاسمهم مازاد على ذلك وربما أخذه منهم، فكتب إلى عمرو بن العاص « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر » .

فكتب إليه عمرو « إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج إليه لنفقتنا » .

فكتب إليه « إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك إلى كتاب من أقلقه الأخذ بالحق، وقد سؤت بك ظنا . وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك فاطلعه طلعه وأخرج إليه ما يطالبك وأعفه من الغلظة عليك فإنه برح الخفاء » فقاسمه ماله .

لم يسع عمرو بن العاص على دهائه وعلو مكانته ، وبعده عن أمير المؤمنين ودرته ، إلا الخضوع لما أمره به ومقاسمته ابن مسلمة ماله، ذلك لأنه يعلم منه الجد فى القول ، وقد قال له فى كتابه « وأعفه من الغلظة عليك » فإنه لو لم يقاسمه راضياً لقاسمه مكرهاً حين لا ينفعه عقله ودهاؤه ولا يشفع

له ماله ولا جنده . فلله ما أعظم ذلك الرجل الكبير فعلا . وأعلاه في النفوس مكانة وما أهيبه في القلوب وأرهبه للعمال ، على ماعرف به من التواضع للرعية والرأفة بفقراء الناس .

وأخرج البلاذري أيضاً عن عيسى بن يزيد قال : لما قاسم محمد بن مسلمة عمرو بن العاص قال عمرو : لن زماناً عاملنا فيه ابن حنتمة (يعني عمر) هذه المعاملة لزمان سوء ، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج : فقال محمد : مه لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفيت معتقلا عنزاً بفناء بيتك يسرك غزرها ويسوءك بكؤها (١) .

قال أنشدك الله ألا تخبر عمر بقولي فإن المجالس بالأمانة : فقال لا أذكر شيئاً مما جرى بيننا وعمر حي .

هكذا كان يقهر عمر عماله كسعد وعمرو وأشباههما ومن هم ؟ هم أصحاب ذلك الفتح العظيم الذين دوخوا له الممالك وكافحوا جنود فارس والروم . وإنما كان يريد بهذه المعاملة ترويض نفوسهم على الطاعة ، وترك الإدلال بالفتح والتعجرف على الرعية أو على من دونهم من الناس بما لهم من السابقة والفضل في فتوح الممالك والبلدان .

فأين هذه السياسة الجميلة ممن صاروا بعده يحكمون العمال بنفوس الأمة لكلمة سوء يتقرب بها واحدهم إليهم ، أو بدعة شر يعرضها عليهم لا لفتح الممالك والبلدان ، ولا لمكافحة جيوش فارس والرومان ، وإنما تأذن الله بزوال أكثر دول الإسلام لحيدهم عن طريق الشرع في سياسة الرعية ، وإطلاقهم يد العمال في معاملة الأمة بالعنف والتعسف بالحكم

---

(١) أي رابطاً بساحة بيتك عنزة يسرك كثرة درها ويسوءك قلته يقال بكأت الناقة والشاة إذا قل لبنها .

جراً لمنافعهم الذاتية ، وتهاوناً بأمور الرعية ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

هذا ومازال عمرو بن العاص أميراً على مصر حتى ولى الخلافة عثمان رضى الله عنه فعزله وولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وكانت ولاية عمرو على مصر نحو خمس سنين ثم وليها فى زمن معاوية ، ولم تطل مدة ولايته الثانية وتوفى فيها كما سنذكر ذلك بعد .

دهاؤه وأخباره مع عثمان ومعاوية

وكلمة فى الفتنة

أخباره مع عثمان :

قبل الكلام على دخول عمرو فى فتنة على ومعاوية رأينا أن لا نغفل ما نقلوه عن دخوله فى فتنة عثمان بياناً للحق واستيفاء لأخباره ما كان له منها وما عليه ،

نقم المسلمون من عثمان رضى الله عنه أشياء ليس هذا محل بسط الكلام عليها ، وكان أهمها إيثاره ذوى قرابته على غيرهم من جلة الصحابة فى توليتهم على الأطراف وتسليمهم أزمة الدولة بعد تتبع أمراء الأعمال الأول بالعزل وإبعادهم عن مناصب الدولة ، وكان من جملة من عزلهم عثمان عن الإمارة عمرو بن العاص فنقم منه مع من نقم ، ولو أنصف عمرو وكل من نقم من عثمان وأنكر عليه تأمير ذوى قرباه ، ونظروا إلى الظروف التى صار إليها فى خلافته والأحوال التى اكتنفته فى ولايته وما أحرجه به مناظروه لما نقموا منه عمله ذلك لأنه أراد به تثبيت دعائم خلافته بمن يأمن بهم غائلة النزوع إلى الفتنة والتوثب على الخلافة تحزباً مع زيد أو انتصاراً لبكر ، كما سنبسط ذلك فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله .

عزل عمرو بن العاص عن إمارة مصر فجاء إلى المدينة . فكان عثمان رضى الله عنه يميل إلى استشارته فى أموره ، ويضعه موضع الثقة منه ، حتى إنه لما اشتدت عليه الأزمة دعاه فيمن دعاهم إليه من ذوى قرابته وعماله ، واستشارهم فيما يصنع لإطفاء نار الفتنة فكان مما قاله له عمرو بن العاص كما فى رواية أبى جعفر الطبرى :

يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت الناس ببنى أمية فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدل ، أو اعتزل ، فإن أبيت فاعزم عزماً ، وامض قدما .

فقال له عثمان : مالك قمل فروك أهذا نجد منك : فسكت عمرو حتى تفرقوا ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك ، ولكنى علمت أن بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً .

وفى رواية للطبرى أيضاً قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرض على عثمان ويغرى به ، ولقد خطب عثمان يوماً فى آخر خلافته فصاح به عمرو ابن العاص : اتق الله ياعثمان فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك فتب إلى الله نتب .

فناداه عثمان : وإنك ههنا يابن النابغة قملت، والله جبتك منذ نزعتك عن العمل .

وفى رواية له أيضاً قال : كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان وكان يقول : والله إن كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان فضلا عن الرؤساء والوجوه . فلما سعر الشر بالمدينة خرج إلى منزله بفلسطين فبينما هو بقصر ومعه ابناه عبد الله ومحمد وعندهم سلامة بن روح الخزامى إذ مر بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان فقال محصور : فقال عمرو :

أنا عبد الله (العير يضرط والمكواة فى النار) : ثم مر بهم راكب آخر فسألوه فقال : قتل عثمان . فقال عمرو : أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها . فقال سلامة بن روح : يامعشر قريش إنما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه : فقال نعم أردنا أن نخرج الحق من حاصرة الباطل ليكون الناس فى الأمر شرعا سواء .

هذا كل ماقيل فى شأن دخول عمرو فى فتنة عثمان ، وهذا الخبر الأخير مع مافيه من الضعف بالنسبة لما تضمنه الخبر الأول ، وإنه يحتاج إلى تمحيص فلو صح لدل دلالة صريحة على أن كل ما نقم من عثمان رضى الله عنه إنما هو إيثاره بنى أمية على غيرهم فى الأعمال ، وقد زعم بعضهم أن عمرو ابن العاص هو الذى حرك المصريين على عثمان ولا دليل عليه، إذ الذى حرك المصريين فى الحقيقة هو محمد بن أبى حذيفة وابن السوداء اليهودى كما سيأتى فى محله ، وما كان لعمرو فى هذه الفتنة إلا ما كان لكل الصحابة الذين حضروا قتله ، وأحسن مايعتذر به عن عمرو هو أنه دخل فيما دخل فيه معظم القوم كما كان ذلك فى فتنة على ومعاوية ، يدلك عليه مانقله ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة من رواية الواقدى عن شعبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال . قلت له (أى لسعد) كيف لم يمنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عثمان فقال إنما قتله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويريد بهذا أنهم شهدوا قتله ولم يكونوا القيام من قام عليه كارهين، وأما أنهم أرادوا قتله فمعاذ الله وإنما هم نقموا منه ما نقم الناس ، وظنوا أن عثمان إذا اشتد عليه الأمر وضايقه المحاصرون له يخلع نفسه من الخلافة فتعود شورى بين الناس ، وهذا غاية ما كان يطمح إليه المهاجرون الذين هم من أهل الشورى ، والذين كان لكل حزب يريده على الخلافة ، ويرى أنه أحق بها

من عثمان ولكن أعجلهم أهل الفتنة وطراز الآفاق الذين حاصروا عثمان وبادروا إلى قتله لما علموا أنهم إن عادوا إلى ديارهم مع بقاء الخليفة عثمان حياً أخذوا لامحالة ، وهذا بحث طويل لامحل له هنا بل سنعود إليه ونتبسط فيه من كل وجوهه فى سيرة عثمان فى هذا الكتاب إن شاء الله .

أخباره مع معاوية

وكلمة فى الفتنة

ذكرنا فى سيرة سعد بن أبى وقاص فى التمهيد الذى مهدناه لأخبار الفتنة أن هذه الفتنة سياسية لا دينية ، وأن سعداً اعتزلها حباً بالسلامة، وقد جاراه على ذلك جماعة من الصحابة كابن عمر ومحمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة وعبادة ابن الصامت ونفر غيرهم . واعلم أن اعتزال هؤلاء وطلبهم للسلامة إنما كان لعدم تحققهم الحق من غيره من فريقى المتخاصمين ، إذ القوم كلهم مسلمون ، وفى الفريقين من كبار الصحابة والمهاجرين وجلة الأنصار من لم يشك فى دينهم أو يقدح فى عدالتهم ، والحكم على فريق منهم أنه على غير الحق حكم على الآخر إذ الكل متساوون فى الإسلام متكافئون بالصحبة ، وإن امتاز بعضهم على بعض بالسابقة أو قدم الهجرة ، وكل مازعمه بعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة والشيعة من أن الفريق الذى حارب علياً رضى الله عنه من الهالكين على رأى الفرقة الأولى ، ومن الكافرين على رأى الفرقة الثانية مجازفة وافتئات على الدين وتكفير لكل المسلمين يومئذ ، لأنهم كلهم دخلوا فى الفتنة ، فإذا صح كما يزعمون أن الفتنة لها مساس بالدين شمل زعم أولئك الفرق كل المسلمين ، وهم أبرأ إلى الله مما يزعمون .

والعجيب فى أولئك الفرق أن يتنازع أشخاص من الصحابة على رئاسة دنيوية بل ولو دينية أيضاً ، يرى كل شخص منهم أنه الأحرى بها والأليق

للقيام بأعبائها فيجعلون ذلك التنازع تنازعا دينياً كأنه تنازع على أن الله واحد أو أكثر، ينجو من آمن بوحدانيته ويهلك من قال بتعدده فيرسخ فى أذهانهم تكفير نصف المسلمين يومئذ ، مع أن فى الحديث (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بالكفر) فما بالك بمن يكفر نصف المسلمين ، لا لأنهم أشركوا بالله أو نبذوا الدين بل لأنهم نصروا طالب رئاسة على آخر يطلبها مثله ، وكل يرى صاحبه أولى بها لمزايا عرفت فيه ليست فى الآخر .

نعم إن لتلك الفرق أن يقولوا إن علياً رضى الله عنه حقيق بإمرة المؤمنين، لسابقته وقرابته وورعه وتقواه ولما شاءوا من الأوصاف الفاضلة التى هو بها جدير رضى الله عنه وأرضاه ، ولكن ليس لهم أن يقولوا إن من نازعوه على الخلافة وأنصارهم كفار ، لماذا ؟ لأنهم نازعوه عليها . مع أنه ليس هناك أمر إلـهى بتخصيص الخلافة فى شخص بعينه بل ولا أمر نبوى أيضاً ، وكل ما قيل وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى شأن على وآله نصاً ووصاية كما يقولون، فقد ثبت أنه موضوع وإن حاول مؤسسو مذهب الشيعة ورافعو دعامته إثباته بوجوه كلها مردودة ، وحسبك شاهداً على ذلك أن الصحابة لما ناقشوا الأنصار يوم السقيفة لم يحتجوا عليهم إلا بحديث (الأئمة من قريش) ولما ناقش على أبا بكر وعمر لم يحتج عليهما بالوصاية ، بل بالسابقة والقرابة ، ثم أجمعوا جميعهم وعلى معهم على الرضا ، بخلافة أبى بكر ، ولو كان هناك نص على على لعلم لديهم جميعهم يومئذ ولم يعدلوا بعلى أحداً إلا إذا اعتقد الشيعة بوجود النص، وأن الصحابة كلهم كتموه وخالفوا أمر النبى صلى الله عليه وسلم لأنهم غير مؤمنين إلا على ابن أبى طالب فإنه كان وحده كل المسلمين . وما نخال أن الجهل يبلغ بأحد إلى مثل هذا الاعتقاد لذا لم يعتقد مثله إلا طائفة حقيرة منهم ، ظهرت فى المغرب تنسب إلى الطائفة النحلية قد بلغ أفرادها الغاية من خسة الطينة والبعد عن تحكيم العقل ومحاسبة الوجدان ، فالتحقوا بسائمة البشر الذين قالوا بنبوة على وألوهيته وغير ذلك من الهذيان .

وبالجملة فمن الفضول فى أمر مضى زمنه ، وخلاف انقضى أمره بين المختلفين فيه فى عصرهم ، أن ينقسم الناس لأجله شيعاً إلى هذا اليوم . وإنما كان يصلح تشيع كل فريق لصاحبه حين مطالبته بالخلافة تعضيداً له وأخذاً بناصره وتوصلا لإمرته . وأما التشيع لفريق دون فريق إلى هذا اليوم فأى فائدة فيه للمتشيع له غير ما يقوله الإمامية من وجوب الخلافة لآل علىّ للنص أو العصمة ، وهم غير مغنيهم عن هذا الوجوب شيئاً إلا ما كان فى بعض العصور الإسلامية من قيام الدعاة لآل على يتذرعون بذلك للسيادة والملك أو الالتفات حول صاحب الدولة[1] وناهيك بما نشأ عن هذه الدعوة

(١) هذا القول يحتاج كما لا يخفى الى دليل لهذا عزمنا على أن نفرد له فصلا مخصوصا فى سيرة على رضى الله عنه . نأتى به على ملخص تاريخ أكثر زعماء الشيعة والقائمين بهذه الدعوة طلباً للدنيا أو للاستئثار بالرياسة دون صاحب الدعوة ، وإنما قلنا الزعماء لأن العبرة فى تاريخ تلك النحل الإمامية للرؤساء القائمين بها لا لعامة أهلها ، اذ هؤلاء أتباع الرؤساء وأسرى التقليد فى كل نحلة يدينون بما دان به آباؤهم كيفما كان . على أن كلامنا فى هذا الفصل جميعه اجمالى أتى معنا استطرادا ، والتفصيل لغير هذا المقام فلا تظن أن ما كتبناه هنا عام يشمل سائر معتقدات الشيعة كلا فإن من هؤلاء أقواما على جانب من الاعتدال فى مذاهبهم ، ومنهم زيدية اليمن وأكثر المعتزلة ومن جاراهم فى القول بجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، وبناء مذهب الإمامة على أساس معقول لا يدعو الى كل هذا التباين بين الشيعة وأهل السنة ، ولا يوجب وجود البغضاء بين المسلمين ، على أنى أعتقد أن أكثر عقلاء الشيعة والمستنيرين بنور العلم والحكمة ولا سيما خاصة أمة الفرس منهم ، ينكرون على الغلاة أشد الإنكار ويتأففون من ذلك الخلط الذى مزق أحشاء الإسلام ، وكل من شممت منه رائحة الاعتدال من عقلائهم وفاتحته بحال المسلمين وما آل إليه أمرهم من جراء هذه المذاهب الداعية الى الفرقة والشقاق الباعثة على تهكم الغير لم ينكر على هذا القول ، بل أظهر من الألم من سوء مغبة هذا التعصب الأعمى والجهل مثلما أحس به أنا وكل من عنده شعور ولو قليلا بخطر مصير صار إليه المسلمون بإزاء الأمم الأخرى لتضييعهم أيام مجدهم وإبان شباب دولتهم ، بمثل هذه السفاسف التى ليست على شىء من الدين والحق حتى شغلتهم هذه الأمور عن كل شاغل ، فاسترسلوا فى تيه الغفلة عما يكون من مجد الأمم وسعادتها ولم يتنبهوا من هذه الغفلة حتى أخذتهم صيحة الغرب من كل مكان وساقت عليهم جيوش العلم والاختراع وسدت دونهم منافذ النجاة من خطر الاستعباد لأمة الغرب الراقية التى عرف أفرادها قيمة العقل فاستخدموه فيما ينفع الإنسان ويبسط لهم جناح السلطان فاللهم ألف بين قلوبنا وألهمنا الرشد الى طريق سعادتنا واهدنا لتوحيد كلمتنا والعمل بما فيه صون جامعتنا من شوائب الجهل ومصائب الخرافات والأوهام ، وحسبنا من جزائك العادل أن صرنا وراء الأمم ، وأشرفنا على هوة العدم ، والعياذ بالله .

من تفريق المسلمين وسفك دماء الناس ، وما كان فوق هذا من غلو فريق كبير في آل على حتى جعلوه وآله آلهة تعبد من دون الله كالخرمية والبنانية والإسماعيلية أو الباطنية وغيرهم من الفرق الكثيرة ، التي بلغ ببعضها الجهل والتناقض في ضعف العقول أن قالوا إن رؤية الإمام وحدها كافية لإسقاط الفرائض ، واستباحوا بهذا الاعتقاد كل محرم ، كما سيأتي الخبر عن هذا فيما يلي من هذا الكتاب إن شاء الله .

كل هذه الوثنية والابتداع والبلاء العظيم نشأ عن التشيع ومذهب القائلين بإمامة آل على ، وعن هذا نشأ ذا ؟ عن منازعة أشخاص على إمارة المؤمنين ، أو رئاسة الدولة قد لاقوا ربهم ومضى زمنهم ، وانتهى أمر خلافهم ولم ينته بين المسلمين سوء الفهم والتشيع والانقسام إلى هذا اليوم ، حتى صاروا هذا بسنيته ، وذلك بتشيعه والآخر بطريقته كالسمك بعضهم عدو بعض ، يسطو قويهم على الضعيف وربما اغتفر لهم ذلك الخصام والانقسام بالنسبة لغابر الزمان ، ولكن مارأى الأمة ، وقد فغر حوت المغرب فاه ليلتهم القوى والضعيف ، ويأتى على الآكل والمأكول ، مادام الكل في الفرقة والخصام مسترسلين ، يحملون معاول الخلاف لهدم بنيان مجدهم ووحدتهم باسم الدين ، والدين برىء مما يعملون .

إذا تقرر هذا فقد علمت أنه نتج مما تقدم أمور ينبغى النظر فيها وهى :

(ا) أن مسألة الخلاف على الخلافة في ذلك العصر مسألة سياسية ، باعتبار أن الخلافة رئاسة دنيوية (كما قدمنا في صدر هذا الكتاب) واجبة عقلا لرعاية مصالح البشر الدنيوية .

(ب) أن الذى دعا فرق الشيعة إلى إلصاقها بالدين وجعلها واجبة ديناً باعتبار أنها ركن من أركان الدين إنما هى السياسة نفسها ، وهى إرادة تفويض هذه الرئاسة لشخص يرون أن لهم عليه حق النصرة ، ويقولون إنه أهل

لإدارة مصالح الأمة على محور الشرع أكثر من غيره ، ولـكن لما علموا أن الأهلية لاتنحصر فى الحقيقة فى شخص بعينه قالوا بالنص والتخصيص ، أى أن صاحب الشرع نص على علىّ ثم جرهم ضرورة سوق الإمامة إلى أولاده إلى اعتقاد العصمة فى علىّ وآله ، تدعيما لدعواهم الباطلة ثم لم يكتف غلاتهم بذلك بل أنزلوهم منزلة النبوة وتارة الألوهية أخرى ، وهم رضى الله عنهم برآء مما يقول الظالمون .

(ج) أن كل فريق من الفرق المتحاربة أيام الفتنة معذور باعتبار أن النفر الذين تطلعوا إلى الخلافة وانقسم لأجلهم المسلمون ، إنما تنازعوا على أمر مازال يتنازع عليه الأكفاء من أهل العصبية فى كل دولة من الدول وعصر من العصور .

(د) إنا كما عذرنا أولئك النفر ينبغى أن نعذر عمرو بن العاص على دخوله فى الفتنة لأن له أسوة يومئذ بكل المسلمين ، ولا يؤخذ عليه من ذلك إلا ما صنعه يوم التحكيم ، وهو وإن أدى فيما صنع حق الخدمة لمن انحاز إليه وعمل بما تقضى به صفة السياسة والدهاء الموصوف بهما ، إلا أنه أوجد من الأمور أمور أنتجت نتائج كبيرة فى مستقبل الأمة ، فهو إذا أوخذ فإنما يؤاخذ من هذه الجهة لامن جهة أنه كفر وألحد ، بإعانته على علىّ رضى الله عنه كما يتخرص به أولئك المتخرصون . إذ ما كان ليضر علياً ممالأة عمرو عليه لو أحسن شيعته الطاعة له فى حرب معاوية رضى الله عنه،ويوم اختيار الحكم ، ولـكن لله فى هذا شأناً هو بالغة .

* * *

أن عمرو بن العاص كان من شيوخ قريش ورجالهم فى الجاهلية والإسلام، وكان له مكانة كبيرة عند المسلمين لخدمته الكبيرة فى فتح فلسطين ومصر وطرابلس الغرب ، وقد رأى ما رأى من قيام المطالبين بالخلافة وتحزب

كافة المسلمين لأولئك النفر من قريش ، فلم يسعه مع حبه للرياسة والتقدم في الأمور ماوسع النفر المعتزلين من حب السلامة ، بل رأى أن انتفاع فريق من أولئك المختلفين برأيه ربما كان فيه تعجيل بإطفاء شواظ الفتنة . وحسم لمادة الاختلاف الذى أهريق فيه دم الأمة . وتربص ريثما انجلت الفتنة الأولى عن قتل طلحة والزبير وانحاز الأحزاب كلهم إلى على ومعاوية رضى الله عنهما ، فنظر فرأى على بن أبي طالب رجل دين وورع لا يعبأ بخدع السياسة ومعاريض الساسة ولا يصيب مصاحبه شيئاً من دنياه : وأن معاوية رجل دنيا لا يفوته الانتفاع بمثل عمرو بن العاص كما لا يفوت عمراً الانتفاع منه وأخذ الشهرة عليه ، بل ربما أضمر أن ينازعه الخلافة كما نازع هو علياً عليها إذ أظفره بمطلوبه وانفرد وإياه في الأمر كما سترى بعد ، فانحاز إلى معاوية وكان له من الشأن بعدُ ماهو معروف وما سنذكره هنا إن شاء الله .

روى ابن عساكر في سبب ارتحال عمرو إلى معاوية عن عبد الله ابن الزبير : أن الفتنة وقعت وما رجل من قريش له نباهة أعمى بها (١) من عمرو بن العاص ، وقال وما زال معتصما بمكة ليس في شيء مما فيه الناس حتى كانت وقعة الجمل . فلما كانت وقعة الجمل بعث إلى ابنيه عبد الله ومحمد فقال لهما ، إني رأيت رأياً ولستما باللذين تردانى ولكن أشيرا على ، إني رأيت العرب صاروا عادين (٢) يضطربان وأنا طارح نفسي بين حرارى مكة ، ولست أرضى بهذه المنزلة ، فقال إلى أي الفريقين أعمد .

فقال له عبدالله ابنه إن كنت لا بد فاعلا فإلى على ، فقال عمرو : ثكلتك

---

(١) وجاءت هذه الكلمة في كل من نسخة مكتبة دمشق ونسخة مكتبة الجامع الأزهر « أعماها » وهى غير مفهومة كما لا يخفى

(٢) لعلها « عاديين » أو محرفة عن مثنى عديد أو عد وكلاهما بمعنى القرن والند

أمك إنى إن أثبت عليا قال لى أنت رجل من المسلمين . وإن أثبت معاوية يخلطنى بنفسه ويشركنى فى أمره : فأتى معاوية . وروى ابن عساكر من طريق آخر قال لما بلغ عمرو بن العاص بيعة الناس عليا دعا ابنيه عبد الله ومحمداً واستشارهما : فقال له عبد الله . صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى وهو عنك راض . وصحبت أبا بكر وعمر فتوفيا وهما عنك راضيان . ثم صحبت عثمان فقتل وهو عنك راض ، فأرى أن تلزم بيتك فهو أسلم لدينك .

وقال له محمد أنت شريف من أشراف العرب وناب من أنيابها ، لاأرى أن تختلف العرب فى جسيم أمورها ولايرى مكانك .

فقال لعبد الله أما أنت فأشرت على بما هو خير لى فى آخرتى وأما أنت يا محمد فأشرت على بما هو أنبه لذكرى ارتحلا : فارتحل إلى معاوية .

وفى رواية أن علياً رضى الله عنه كتب إلى معاوية كتاباً بعث به مع جرير بن عبد الله البجلى يدعوه إلى البيعة فطاول فى الجواب ريثما استوثق من أهل الشام ، ثم استشار بأخيه عتبة بن أبى سفيان فأشار عليه أن استعن بعمرو بن العاص فكتب إليه مانصه :

أما بعد فقد كان من أمر على وطلحة والزبير ماقد بلغك ، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم فى نفر من أهل البصرة ، وقدم علينا جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وقد حبست نفسى عليك فاقبل أذاكرك أموراً لاتعدم صلاح مغبتها إن إن شاء الله :

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه عبد الله ومحمداً فأشار عليه الأول بالجلوس والثانى بالخروج إلى معاوية فارتحل إليه .

فلما قدم إليه دعاه إلى جهاد على ومطالبته بدم عثمان ؛ وصغر له من شأن

على رضى الله عنه فقال : والله يامعاوية ما أنت وعلى حملى بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولاصحبته ولا جهاده ولافقهه ولا علمه . والله إن له مع ذلك لحظا فى الحرب ليس لأحد غيره . ولكنى قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاء جميلا ، فما تجعل لى إن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر :

قال معاوية : حكمك : قال عمرو : مصر طعمة : فتلكأ معاوية وقال له : أبا عبد الله أما تعلم أن مصر مثل العراق : « يريد أن العراق بيد على ومصر بيد عمرو فماذا يبقى له) قال عمرو : بلى ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك ، وإنما كانت لك إذا غلبت علياً على العراق .

وافترقا فلما حضر عتبة بن أبى سفيان قال لمعاوية : أما ترضى أن تشترى عمراً بمصر إن هى صفت لك : وبات تلك الليلة عند أخيه فأسمعه بالليل أبياتاً يقول فيها :

أيها المانع سيفاً لم يهز   إنما ملت على خزٍّ وقزّ

إلى أن قال :

واسحب الذيلَ وبادر فوقها   وانتهزها إن عمراً ينتهز

أعطه مصرا وزده مثلها   إنما مصر لمن عزّ فبز

واتركَ الحرص عليها ضلة   واشُبب النار لمقرور يكز (١)

إن مصرا لعلىّ أو لنا   يُغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع قوله أوسل إلى عمرو فأعطاه مصر على أن يعطى عطاءهم وأرزاقهم وما بقى فله . فرجع عمرو إلى عبد الله ابنه فقال : الله قد أخذنا

---

(١) قوله وأشبب النار أى أشعلها . وقوله لمقرور يكز المقرور الذى أصابه البرد ويكز بمعنى ينقبض .

مصر : فقال وما مصر فى سلطان العرب . فقال له : لا أشبع الله بطنك إن لم تشبعك مصر :

وكتب معاوية بمصر كتاباً لعمرو أراد أن يكايده حتى إذا أراد الرجوع عن عهده رجع فكتب إليه فيما كتب « على أن لا ينقض — أى عمرو — شرط طاعة » فأدركها عمرو وكتب « على أن لاتنقض طاعة شرطاً » وهو قلب فى العبارة بلغ الغاية فى اللطف وقلب المقصود الذى قصده معاوية إلى مايقصده عمرو من أن الطاعة لاتوجب التخلى عن مصر .

على أن معاوية لمـا استقر له الأمر حاول الرجوع على عمرو بمصر ثم أصلح بينهما معاوية بن خديج[1].

روى ابن عساكر عن أبى عون قال : لما صار الأمر كله فى يدى معاوية استكثر طعمة لعمرو ماعاش : ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتدبيره وعنايته وسعيه فيه وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر : فلم يفعل معاوية . فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس وظنوا أنه لايجتمع أمرهما . فدخل بينهما معاوية بن خديج فأصلح أمرهما وكتب بينهما كتابا وشرط فيه شروطا لمعاوية وعمرو خاصة وللناس عامة ، وأن لعمرو ولاية مصر سبع سنين ، وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتواثقا وتعاهدا على ذلك وأشهدا عليهما به شهودا ، ثم مضى عمرو بن العاص إلى مصر والياً عليها ، وذلك فى آخر سنة تسع وثلاثين فوالله ما مكث سنتين أو ثلاثا حتى مات .

ولا يتبادر إلى ذهن القارىء من قوله فى هذه الرواية « لمـا صار الأمر كله فى يدى معاوية . . الخ » أن مصر انتهت إلى معاوية بعد استصفاء معاوية

---

(١) ضبطه ابن الأثير فى التاريخ ابن خديج بالحاء المهملة وجاء فى أسد الغابة له أيضاً بالخاء المعجمة وفى أكثر كتب الأخبار كذلك .

للخلافة وموت على والحسن رضى الله عنهما ، كلا بل أخذ عمرو مصر من محمد بن أبى بكر لمـا كان والياً على مصر من قبل على رضى الله عنه كما سترى بعد .

هذا وكان جرير بن عبد الله البجلى ينتظر جواب معاوية لعلى فاستشار معاوية عمراً فيما يصنع فقال إن رد ربيعة عن علىّ خطر شديد ، ورأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندى وهو عدو لجرير المرسل إليك فابعث إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا فى الناس أن علياً قتل عثمان . وليكونوا أهل رضا عند شرحبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ماتحب وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشىء أبدا .

فنعل معاوية ما أشار به عمرو كما سنذكره فى محله إن شاء الله ، فأغرى شرحبيل بحرب على ، وتم لمعاوية ما أراد من جمع أهل الشام على حربه وكان بعد ذلك ما كان من حرب صفين وغيره مما سيرد فى هذا الكتاب إن شاء الله .

مهد عمرو لمعاوية بدهائه مامهد وارتحل معه إلى صفين حيث كانت الحرب بين على ومعاوية فأتى هناك بمكيدتين دلتا على عظيم دهائه وكبير عقله إلا أنهما كانتا كالبركان إذا انفجر ، لا يبقى ولا يذر ، فأما المكيدة الأولى : فهى إشارته برفع المصاحف فى وجوه أصحاب على ، وذلك أن عمراً كان فى آخر يوم من أيام صفين بحيال الاشتر فقال لوردان ، مولاه : أتدرى مامثلى ومثلك ومثل الأشتر : قال لا : قال كالأشقر إن تقدم عقر وإن تأخر عقر ، لئن تأخرت لأضربن عنقك : قال أما والله ياأبا عبد الله لأوردنك حياض الموت ضع يدك على عاتقى ، ثم جعل يتقدم ويقـــول لأوردنك حياض الموت واشتد القتال ، فلما رأى عمرو أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك ، قال لمعاوية هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ، ولا يزيدهم إلا فرقة : قال نعم : قال نرفع المصاحف ثم نقول

لما فيها : هذا حكم الله بيننا وبينكم : فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغى لنا أن نقبل ، فتكون فرقة بينهم ، وإن قبلوا مافيها رفعنا القتال عنا إلى أجل .

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا : هذا حكم الله بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهله « أى من يحميها من العدو » من لثغور العراق بعد أهله : فلما رآها الناس قالوا نجيب إلى كتاب الله .

ومن ثم استعرت نار الفتنة بين جند أمير المؤمنين على بن أبى طالب وألزموه بوضع السلاح على غير رضا منه بما صار ، بعد أن كادت جنوده تدحر جنود الشام :

وأما المكيدة الثانية فهى خداعه لأبى موسى الأشعرى يوم التحكيم حتى خدعه وقدمه على نفسه ، فخلع صاحبه وثبت عمرو صاحبه كما سيرد تفصيل هذه الأخبار فيما يأتى من هذا الكتاب إن شاء الله .

اجتهد عمرو بنصرة صاحبه وتأييد جانبه فنجح فى مكيدتيه الأولى والثانية ، لكن ماذا كان من وراء ذلك الأيد ؟ وماذا نشأ عن ذلك الكيد ؟ إن غاية ماكان يرجوه عمرو بن العاص من وراء المكيدة الأولى أن يقبل دعاءه قوم ويرفضه آخرون ، فيدب الفشل حيناً فى جيش على بن أبى طالب رضى الله عنه يلم فى غضونه جيش معاوية شعثه . ويعد للكرة عدتها أو يعد عمرو للأمر حيلته ويهىء لعمل آخر أسبابه ، فجاءه الأمر فوق ماأراد ووقع سهمه وراء الغرض إذ كانت كلمته أشبه بنار وقعت على بارود فالتهب ، أو أصابت جسما فاضطرب ، فنزعت من القوم نازعة كأنها كانت فى عقل فتنشطت ، ونعقت ناعقة كأنها كانت فى قفص فأفلتت ، فنادت إلام تعضنا هذه الحرب بنابها ، وعلام تأخذنا قريش بجريرتها ، وما لنا وللأمراء

من عدنان أو قحطان وأمير كلّ امرىء دينه ، وحاكمه وجدانه ، هلم فلنخرج عن جماعة الأمراء ، ولنقتلهم فى ليلة ظلماء ، ونثير على الأمة كلها غارة شعواء ، فإما أن تفىء معنا إلى كتاب الله وإما أن نموت شهداء .

هؤلاء هم الخوارج الذين كانوا فتنة وضراً على علىّ وأصحابه ، ومعاوية وأحزابه ، ومروان وجنده ، وعبد الملك وكيده ، والخلفاء من بعدهم ، صبغوا أديم الأرض بدماء المسلمين ، وكدروا صفاء الدول عدداً طويلا من السنين ، ولولا غلو فى معتقدهم ، وإغراب فى بوادر ألسنتهم ، وتطرف فى مذهبهم ، استلحموا به الناس قتلا وحربا لالتف الناس لفهم ، وأخذوا جميعا أخذهم ، فاستأصلوا جذور الارستقراطية من أعماق الوجود ، وقلبوا أوضاع الدول ، ولكن أكلتهم الحروب ، وفرق جمعهم الخلفاء ، وأضعفهم الشذوذ فى الاعتقاد ، فلم يصلوا إلى مبتغاهم وضاع أثرهم (١) بعد أن ضاع تعبهم ، اللهم إلا أثراً فى النفوس تركوه ، وطريقاً لحرية القول مهدوه ، فدب فى الأمة من ذلك اليوم دبيب الجدل لكن فى الدين ، وحبب إليهم الانطلاق ، لكن عن قيود الوحدة فى المشرب والفكر ، والكلام على هذا نستوفيه فى غير هذا المحل إن شاء الله .

هذا ما أنتجته مكيدة عمرو الأولى ، ولو علم بمثل هذه النتيجة لما فعل . (وأما المكيدة الثانية) فحسبها أن حولت قواعد الخلافة الشرعية إلى الملك العضوض ، والشورى إلى المغالبة ، والاختيار إلى الوراثة ، ولو استقرت الخلافة لابن أبى طالب رضى الله عنه بعد إذ ذهب مناظروه من أقيال

---

(١) لان الخوارج تفرقوا فى مذاهبهم السياسية والدينية فرقا شتى لم يبق منهم الى هذا العهد الا فرقة واحدة تسمى الأباضية ، ويوجد منها ناس على شطوط البلاد العربية مما يلى المحيط الهندى وناس فى زنجبار ومثلهم فى بلاد تونس والجزائر تغيرت مذاهبهم بتغير الزمان وتطاوله .

قريش ، لما بقى للمغالبة بعده أثر ، لأن النفر الذين كان لهم السابقة والتقدم على الناس ، والنزوع إلى تلك الرياسة العظمى ، وكان الناس يساقون معهم طوعا بحكم التقدم والشرف والسابقة ، قضوا ولم يك يبقى بعد ذلك للناس وجهة يتوجهون إليها إلا اختيار السابقين فى الأهلية لرياسة الأمة ، وكانت رسخت ليومئذ فى نفوس الأمة مبادىء الشورى ، ونمت فيهم ملكة الاستعداد لوضع قواعد الحكم الديموقراطى على أساس متين فاستحال أن تدكه أيدى المتغالبين على الملك ، الطامعين فى استعباد الناس .

الملك طرفان مطلق ومقيد فتنازعهما على ومعاوية ، فكان على آخر الأمراء المقيدين ومعاوية أول الأمراء المطلقين ، ومع ما عرف عن الثانى من الحلم وحسن السياسة وكف يد الظلم التى يبسطها عادة الرؤساء المطلقون فإن هذا لم يغن الأمة شيئا عن خلافة على بن أبى طالب التى كانت أحب إلى الأمة وأسد سبيلا فى مستقبل الأيام للخلافة الشرعية ، وضم عقد الرعية كافة فى سلك واحد تتوحد فيه مشاربهم السياسية ، فينقطع دابر النازعين إلى الملك من غير ذوى الأهلية ، وينحسم أصل النزاع على السلطان أو التسلط على الرعية ، فيكون الناس أمة واحدة تخضع لقانون واحد . وهيهات للمسلمين ذلك بعد مكيدة عمرو هيهات ، والكلام على هذا طويل سنفصله فيما هو آت .

قلنا فيما تقدم إن عمرو بن العاص إنما كاد ما كاد وفاء بعهده مع معاوية لا ينظر إلى ما تصير إليه الأمور فى مستقبل السنين ، بل ينظر إلى قضاء لبانة عرضت له والأعمال التى يترتب عليها من النتائج العظمى ما ترتب على عمل عمرو ، وممالأته لمعاوية هى أمور مخبوءة فى باطن الأيام ، يتبع بعضها بعضاً فى الظهور وقد لا تظهر بمثل احتكاك عمرو أو أشد منه أيضاً ، فلا ينبغى الإغراق فى مؤاخذة عمرو بن العاص ما دامت تلك النتائج غير

مقصودة له بالذات ، وإنما جاءت بالعرض لاسيما وأنه ربما كان يرمى إلى غرض آخر من ممالأته لمعاوية ، وهو مصير الخلافة إليه إذا قضى على ومعاوية رضى الله عنهما فى تلك الحرب . يدلك عليه تغريره بمعاوية فى كثير من المواضع ليطوح بنفسه إلى الهلاك .

ومنها تغريره له فى مبارزة على بن أبى طالب فى وقعة صفين ، وتحرير الخبر أن على بن أبى طالب نادى معاوية : علام يقتل الناس بيننا هلم أحاكمك إلى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور .

فقال له عمرو : أنصفك : قال معاوية : ما أنصفت إنك لتعلم أنه لم يبرز إليه أحد إلا قتله : فقال له عمرو : ما يحسن بك ترك مبارزته : فقال له معاوية : طمعت بها « أى الخلافة » بعدى .

ومنها إغراؤه له بقتل أسرى صفين ، وقد كان عند على بن أبى طالب أسرى أطلقهم فى تلك الساعة فجاءوا إلى معاوية ، وإن عمراً ليكلمه فى قتل أسراه : فقال له معاوية لو أطعناك فى هؤلاء الأسارى لوقعنا فى قبيح من الأمر .

ومنها إغراؤه له بقتال قيس بن سعد بن عبادة بعد تنازل الحسن له عن الخلافة ، وقد كان قيس من شيعة على ومعه جيش كثيف كلهم مستقتل خوف الوقوع بعد صلح الحسن فى يدى معاوية ، وكان قيس من أشجع الناس ودهاتهم فى وقته فأبى معاوية حربه وأعطاه وأصحابه الأمان . ولو حاربه لكان معه على خطر عظيم يعرفه عمرو بن العاص كما عرفه معاوية أيضا فلم يقع فيه .

وبالجملة شايع عمرو معاوية وهو يحب لنفسه أكثر مما يحب له ، وأخذ مصر طعمة منه ، وكان بعد وقعة صفين والتباس الأمور وقع الفشل

فى المسلمين وظهرت الفوضى فى البلاد ، واختلف الناس على محمد بن أبى بكر فى مصر وهو أمير عليها من قبل على (رضى الله عنه) فاستشار معاوية أصحابه فى أخذ مصر فأشاروا عليه بإرسال عمرو ، وكتب إلى شيعة عثمان بمصر ، فأجابه منهم مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج بسرعة العمل ، وبعث الأمداد فسير عمراً ومعه عشرة آلاف مقاتل ، فتلقاه محمد بن أبى بكر بألفين فانهزم ثم اختفى فى خربة أخذه منها معاوية بن خديج وقتله ، وصفت مصر لعمرو بن العاص فى خلافة معاوية ، ولبث أميراً عليها نحو سنتين أو ثلاث وتوفى وهو أمير عليها .

ومن أخباره مع معاوية ما رواه ابن عساكر أن معاوية دعا عمرو بن العاص «يوم التحكيم» ، وهو متحزم عليه ثيابه وسيفه وحوله أخوته وأناس من قريش ، وقال يا عمرو : إن أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبى موسى وهو لايريده ونحن بك راضون . وقد ضم إليك رجل طويل اللسان كليل المدية، له بعد حظ من دين . فإذا قال فدعه فليقل ، ثم قل وأوجز . واقطع المفصل . ولا تلقة بكل رأيك . وأعلم أن خفى الرأى زيادة فى العقل . فإن خوفك بأهل العراق نخوفه بأهل الشام . وإن خوفك بعلى خوفه بمعاوية . وإن خوفك بمصر خوفــه باليمن . وإن أتاك بالتفسير فأته بالجميل .

فقال له عمرو يا أمير المؤمنين أنت وعلى رجلا قريش ، ولم يقل فى حربك مارجوت ، ولم تأمن ماخفت ، ذكرت أن لعبد الله دينا وصاحب الدين منصور ، وايم الله لأبينن علله ولأستخرجن خبيئه ، ولكن إذاجاءنى بالإيمان والهجرة ومناقب على فما عسيت أن أقول .

فقال معاوية : قل ما ترى : فقال له عمرو فهل تدعنى وما أرى : وخرج

مغضباً فقال لأصحابه إنما أراد معاوية أن يصغر أبا موسى لأنه علم أنى خادعه فأحب أن يقول : لم يخدع أريباً : فقد كذبته بالخلاف عليه ، وقال فى ذلك شعراً :

يشجعنى معاوية بن حرب كأنى للحوادث مستكين
وإنى عن معاوية غنىٌّ بحمد الله والله المعين

فى أبيات :

فلما بلغ معاوية شعره غضب من ذلك وقال : لولا مسيره كان لى فيه رأى : فقال عبدالرحمن بن أم الحكم : أما والله إن أمثاله من قريش لكثير ، ولكنك ألزمت نفسك الحاجة إليه فألزمها الغنى عنه .

وأنت ترى من هذا ومما تقدم من أخباره معه أنهما كانا متفقين ظاهراً متنافرين باطناً وأن عمراً لم يشايع معاوية رضى الله عنه حباً به أو مودة له بل طلبا للرياسة ، ولم يكن معاوية أيضاً بأقل بغضاً له منه ، يدلك عليه ماروى أن معاوية قال يوما لجلسائه : ما أعجب الأشياء . فقال يزيد : أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعمه شىء من تحته ، ولا هو منوط بشىء من فوقه : وقال آخر : حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل ، : وقال آخر أعجب الأشياء مالم ير مثله : وقال عمرو ابن العاص : أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق : (يعرض بعلى ومعاوية) فقال معاوية : بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان مالا يستحق إذا كان لايخاف ، (يعرض بعمرو ومصر التى أخذها طعمة) فنفث كل منهما بما فى صدره من الآخر ، وهذا يدل على أن علياً رضى الله عنه لو تألف عمراً واستدناه إليه لانتفع به ، ولصدقه الخدمة أكثر منها لمعاوية ، ولكن إغراق على فى حب الفضيلة دعاه إلى ترك الحيلة بمثل عمرو كما دعاه إلى عدم قبول إشارة من أشار عليه ، بتألف معاوية وتثبيته على ولاية الشام كاسترى بعد .

نبذة من أقواله وأخباره

أقواله :

رؤى عمرو بن العاص بمصر وهو على بغلة قد شاب وجهها من الهرم ، فقيل له . أيها الأمير تركب هذه البغلة ؟ قال : إنى لا أمل دابتى ماحملتنى . ولا زوجتى ماأحسنت عشرتى . ولا جليسى مالم يصرف وجهه عنى .

وروى ابن عساكر أنه قال لابنه يوماً : يابنى إمام عادل ، خير من مطر وابل ، وأسد حطوم ، خير من إمام ظلوم ، وإمام ظلوم غشوم ، خير من فتنة تدوم ، يابنى مزاحمة الأحمق خير من مصالحته ، يابنى زلة الرجل عظم يجبر ، وزلة اللسان لاتبقى ولاتذر ، يابنى « استراح من لاعقل له » : فأرسلها مثلا .

وروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية : إن الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع ، فسد خصاصة (حاجة) الكريم ، واقمع اللئيم .

وفى رواية أخرى له : قال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين لا تكون بشىء من أمور رعيتك أشد تعمداً لخصاصة الكريم حتى تعمل فى سدها ، ولطغيان اللئيم حتى تعمل فى قمعه ، (إزالته) واستوحش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ، فإن الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع :

وهذا الكلام من بدائع الحكم ومن أسد النصائح .

وروى أيضا عن هشام الكلبى عن أبيه قال معاوية لعمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ قال من كان رأيه راداً لهواه ، قال فمن أسخى الناس ؟

قال من بذل دنياه فى صلاح دينه . قال فمن أشجع الناس ؟ قال من ردّ جهله بحلمه :

وعن سفيان بن عيينة ، قال قال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشرّ . ولكنه الذى يعرف خير الشرين .

وروى ابن عساكر عن عمرو أنه قال : الرجال ثلاثة . فرجل تام . ونصف رجل . ولا شىء ، فأما الرجل التام فالذى يكمل دينه وعقله ، فإذا أراد أمراً لم يمضه حتى يستشير أهل الرأى والألباب ، فإذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلا يزال كذلك فى مضيه موفقاً . ونصف الرجل الذى يكمل الله له دينه وعقله فإذا أراد أمراً لم يستشر فيه أحداً ، وقال أى الناس كنت أطيعه أو أترك رأيى لرأيه . فيصيب ويخطىء : والذى لا شىء الذى لا دين ولا عقل له ، ولا يستشير فى الأمر. فلا يزال ذلك مخطئاً مدبراً ، ووالله إنى لأستشير فى الأمر الذى أردته حتى خدمى . وما على بعرض عقولهم وأسمع .

وسأله معاوية بن أبى سفيان : ما السرور يا أبا عبد الله ؟ قال الغمرات ثم تنجلى « كناية عن الخلاص من الشدة » .

وعن سفيان بن عيينة قال قال عمرو بن العاص : ماوضعت عند أحد من الناس سراً فأفشاه فلمته . أنا كنت به أضيق صدراً حتى استودعته إياه .

ومن غرر أقواله ما نقله صاحب سراج الملوك وهو :

موت ألف من العلية أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة .

وهو قول حق أجمع عليه الحكماء وأيدته التجارب ، إلا أنه لا يسلم من كل الوجوه ، وإنما هو ينطبق على من كان خسيس الفطرة دنىء النفس يرتفع من حضيض المهانة بوسائط سافلة وأسباب غير طبيعية ، فهذا مهما

بلغ من علو المكانة فإنه بعيد عن الفضيلة ، لأنه لم يستمسك فى ارتفاعه بأسبابها ، ولم يأت البيوت من أبوابها ، فيكون شراً فى مبدإ أمره ، شراً فى منتهاه ، ففى ارتفاعه شر على الناس لأنه يستعمل نعمة الارتفاع آلة للإضرار بالناس ، ووسيلة للاستكثار من متاع الحياة الدنيا ، ولو من غير طرقه المشروعة ، لهذا نهى الحكماء عن توسيد المناصب العالية فى الحكومة للسفلة ، لئلا يفسد السفلة أمرها ، ويوهنوا بنيانها ، ويرى بعضهم فى هذا العصر لهذا السبب أن أحسن الدول حكومة وأضبطها إدارة وأسدها عملا ، وأسلمها من آفات الرشا وسوء القصد دولة انكلترا التى مع أنها دولة ملكية مقيدة تشبه حكومة الأشراف الأرستقراطية ، لأنها قائمة على دعائم الإشراف وأهل الغنى والثروة ، لا توسد مناصبها العالية إلا لأهل البيوتات العريقة بالمجد والإمارة ، وهم القابضون على أزمة الدولة المباشرون لشؤونها العظمى ، وهذا وإن كان يخالف من بعض الوجـــوه مذاهب الشعوب الديمقراطية والحكومات الشورية ، إلا أنه يوافق أصول التجارب وينطبق فى كثير من الأحوال على مقاصد الحق والعدل ، والكلام عليه يحتاج إلى بيان وتمحيص وربما نعود إليه فى محل آخر إن شاء الله .

هذا من جهة من ينطبق عليه قول عمرو بن العاص ، وأما جهة من لا ينطبق عليه فهو الذى يرتفع بأسباب غير طبيعية . ونريد بالطبيعية الاستعداد والجد والعمل ، لا الطفرة والاتفاق أو التذرع بالوسائط السافلة غير المشروعة ، فإن من يرتقى باستعداده وجده ويكون بطبعه عالى النفس سليم الفطرة ، يرتقى بحكم الاستعداد والفطرة من طريق الفضيلة ، فيكون فاضلا فى مبدأ أمره فاضلا فى منتهاه ، فلا يستعمل ارتفاعه سلاحاً يتهجم به على الناس ، بل بالعكس يستعمله لمعونة الناس فهذا لا مضرة من ارتفاعه بل ارتفاعه ضرورى لازم بحكم العقل والعدل ، فلا يشمله معنى قول عمرو ولعله لا يعنيه ، ولكن يا للأسف إن أمثال هذا عددهم قليل ، فى كل قبيل ،

خطبة له :

رأينا فى تاريخ ابن عساكر خطبة نفيسة لعمرو بن العاص من أحسن أقواله ، يوصى بها الناس بالقصد وعدم السرف وحسن معاملة القبط ، وصرف العناية إلى خيل الجند بالقيام على تربيتها وسمنها ، وغير ذلك من الوصايا الجميلة النافعة رواها ابن عساكر عن بحير بن داخر المعافرى قال :

ركبت أنا ووالدى إلى صلاة الجمعة ، وذلك آخر الشتاء بعد حمم (كذا) النصارى بأيام يسيرة ، فأطلنا الركوع إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يؤخرون الناس ، فذعرت فقلت يا أبت من هؤلاء ؟ قال يابنى هؤلاء الشرط . وأقام المؤذن الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر ، فرأيت رجلا قصير القامة أدعج أبلج [١] عليه ثياب موشية (أو موشاة) كأن بها العقيان تتألق [٢] عليه ، وعليه عمامة وجبة . فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس فأمرهم ونهاهم ، فسمعته يحض على الزكاة وصلة الرحم ، وينهى عن الفضول وكثرة العيال وقال فى ذلك :

يا معشر الناس إياى وخلالا أربعاً فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العز . إياى وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، فى غير درك ولا نوال ، ثم إنه لا بد من فراغ يأول المرء إليه فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ، فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد [٣] والنصيب الأقل ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب نفسه من العلم فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه عادلا ، يا معشر الناس قد تدلت الجوزاء وركبت الشعرى ، وأقلعت [٤] السماء ، وارتفع الوفاء ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السمائم [٥]

---

(١) الادعج أسود العين الأبلج المضىء المشرق (٢) العقيان الذهب الخالص
(٣) أى بالاعتدال (٤) وأقلعت السماء أى كفت وهو كناية عن انقطاع المطر
(٥) كذا فى الأصل ولعلها السوائم وهى الماشية .

وعلى الراعى حسن النظر . فحى بكم على بركة الله على ريفكم فتناولوا من خيره ولبنه . ومرافقه وصيده، واربعوا بخيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم[1] من عدوكم وبها تنالون مغانمكم وأثقالكم . واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيراً . وإياى والمومساة[2] المفسدات فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم . فلأعلمن ما أتانى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه[3] واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، ولإشراف قلوبهم إليكم ، وإلى داركم ، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض) فقال له أبو بكر : ولم ذاك يا رسول الله ؟ قال : (لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة) فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما أولاكم وأقيموا فى ريفكم ما بدالكم . فإذا يبس العود . وسخن العمود ، وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح[4] البقل وانقطع الورد فحى على فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن أحد منكم على عياله إلا ومعه تحفة لعياله ما أطلق من سعته أو عسرته اهـ .

---

(١) الجنة هى الوقاية .

(٢) المواهر .

(٣) جواب قسم محذوف أكد بالنون الثقيلة ، وما مصدرية أى فوالله لأعلمن لإتيان رجل موصوف بما ذكر ، وفى طيه من الترهيب مالا يخفى ، وقد بين بعد جزاء من فعل ذلك بقوله فمن أهزل فرسه الخ .

(٤) صوح أى يبس أعلاه .

أخباره :

(من أخباره فى حسن الخلق) ما رواه ابن عساكر عن الشعبى عن قبيصة بن جابر ، قال صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين طريقاً ولا أحلم جليساً منه .

وعن قبيصة أيضاً قال : صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلا أقرأ لكتاب الله ، ولا أفقه فى دين الله ولا أحسن مداراة منه .

وصحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلا أعطى لجزيل من غير مسألة منه .

وصحبت معاوية بن أبى سفيان فما رأيت رجلا أثقل حلماً منه .

وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين (أو قال أنصع) طريقاً منه ، ولا أكرم جليساً ولا أشبه سريرة بعلانية منه .

وصحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر لخرج من أبوابها كلها .

ونادت امرأته مرة جارية لها فأبطأت فقالت يازانية : فقال لها عمرو أو رأيتها تزنى ؟ قالت لا . قال لتضربن بها يوم القيامة سبعين سوطا : فطلبت من الجارية العفو فقال يصح العفو إذا أعتقتها فأعتقتها .

(ومن أخباره) التى تدل على علمه وتعقله وبعده عن الأوهام ، ما رواه ابن عساكر عن موسى بن على قال سمعت أبى قال : كنت مع عمرو بن العاص بالإسكندرية فانكسف القمر فأصبحنا مع عمرو ، فقال له رجل من القوم لقد حدثنا شيطان هذه المدينة أن القمر سيكسف من الليلة : فقال رجل من الصحابة كذب عدو الله هذا ، هم علموا ما فى الأرض فما علمهم ما فى السماء ! قال فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيراً ثم قال له : إنما الغيب خمسة فما

سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون : ثم قرأ الآية (إن الله عنده علمُ الساعة ويُنزل الغيث ويعلمُ ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسبُ غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت) إلى آخر الآية .

ولا شك أن هذا الدليل الكتابى يفحم الرجل بل وينبه كل غافل جاهل بسنن الله وحكمة الخلق ، أن الله تعالى لم يحجب عن العقل شيئاً من أسرار الوجود ، ولم يحرم على الإنسان أن يتناول بالبحث والنظر ما شاء من مجالى الطبيعة ، وأرشده إلى أن الغيب الذى يعلمه الله وحده هو غير ما يتوهمه العقل أحيانا عند تضاؤله عن إدراك الشىء وضعفه عن الوصول إليه .

وحبذا لو تنبه إلى حكمة الله هذه الذين يقولون هذا حلال وهذا حرام ويحولون بين المرء وعقله بغياً من عند أنفسهم وتحكما فى الدين وصرفاً للأمة عن الأخذ بالعلوم النافعة التى قام بها الآن مجد الأمم ، وأصبح المحرومون منها على وشك العدم وليس بعد شاهد العيان برهان .

(ومن أخباره) ما رواه صاحب الأغانى قال حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبى سفيان ، فخرج إليهم حاجبه أبو درة فقالوا له استأذن للأنصار فدخل إليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم . فقال له عمرو ماهذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ اردد القوم إلى أنسابهم . فقال « أى الحاجب » هى كلمة إن مضت عرتهم ونقصتهم وإلا فهذا الاسم راجع إليهم : فقال له « أى عمرو » اخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فقالها الحاجب . فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار . فنظر معاوية إلى عمرو نظر منكر ، فقال له باعدت جداً . فقال اخرج فقل من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل : فخرج فقالها فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير الأنصارى وهو يقول :

يا سعد لا تجب الدعاء فما لنا ... نسبٌ نجيب به سوى الأنصار

نسب تخيره الإله لقومنا   أثقل به نسباً إلى الكفّار
إن الذين ثووا ببدر منكمُ   يوم القليب هم وقودُ النار

فقال معاوية لعمرو : قد كنا لأغنياء عن هذا ا هـ.

ولا ندرى إن كان أراد عمرو بهذا المباعدة بين معاوية وبين الأنصار إتماما لمقاصده السياسية فى إغراء مثل الأنصار بمعاوية ، أو هو يريد الحط من قدر الأنصار فقط لأنهم شايعوا علىّ بن أبى طالب أيام الفتنة خلا النعمان ابن بشير فإنه كان من شيعة معاوية يومئذ .

(ومن أخباره فى استعطاف الخاطر والاعتذار) ماروواه محمد بن سعيد عن إبراهيم بن حويطب ونقله فى العقد قال : قال عمرو بن العاص لعبد الله ابن عباس بعد قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه . إن هذا الأمر الذى نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاء وقد بلغ الأمر بنا وبكم إلى ما ترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياء ولا صبراً ، ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكننا نقول ليتها لم تكن ، كانت فانظر فيما بقى بغير ما مضى ، فإنك رأس هذا الأمر بعد علىّ فإنك أمير مطاع ومأمور مطيع ، ومشاور مأمون وأنت هو .

وليس أحسن من هذا الكلام تملصاً واعتذاراً ولا أبلغ منه فى رأب الصدع وجمع القلوب . وقد نقل فى العقد خبراً آخر عن عمرو وابن عباس فيه من التهاتر والسباب مايدل على وضعه فلم نشأ نقله أدبا مع أولئك الرجال .

(ومن أخباره فى التقى والإنابة) ما رواه ابن عساكر عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : وقع بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص كلام فى الوهط ، (وهو بستان لعمرو بالطائف) فسبه المغيرة فقال عمرو بن العاص : يال هصيص يسبنى المغيرة : فقال له عبد الله ابنه : إنا لله وإنا إليه راجعون أدعوة القبائل وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : فأعتق عمرو بن العاص ثلاثين رقبة عنها .

وطالما كان يتحاشى هذه الدعوة كبار الصحابة ، لما فيها من تفريق الكلمة والرجوع إلى العصبية ، وقد نهى عنها رسول الله أشد النهى جمعاً لكلمة الأمة واستمساكا بوحدة الدين وتأليفاً للقلوب ، ولكن تهاون الناس بهذه الربطة الكبيرة فرق بينهم فى المشارب والأهواء والغايات فانقلبت الأمة حرباً على بعضها ، يتجاذبها الأمراء أو المتوثبون على الملك تارة باسم الجنسية ، وأخرى باسم المذهب ، وآونة باسم الدين حتى أنهكوا قواها وذهبوا بآثار مجدها وسطوتها ، ولا يزال كثير منهم لهذا العهد ينتحلون أسباب التفريق انتحالا توصلا للرياسة ، ولا سيما فى شبه جزيرة العرب التى تفرق أهلها قدداً وجماعات ، وأصبحوا فوضى مع أهواء الأمراء العديدين ، وقد كانت أحق بأن يجمع أهلها رابطتا الدين والجنس ، كما جمعهم النبى صلى الله عليه وسلم على كلمة الإسلام ، فعملوا بقوة اجتماعهم ما لم تستطع عمله أمة قط ، ولكن أين من يعقل والأهواء غالبة والعلم بمجرى السنن الطبيعية مفقود ، والنفوس عن الاتعاظ بما لحق أكثر الثغور العربية من الاحتلال الأجنبى غافلة والله أعلم بعاقبة الأمور .

وأخرج ابن عساكر عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص كان يسرد (يتابع) الصوم ، وكان يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن فصلا بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر » .

وروى عن ربيعة بن لقيط قال : سمعت عمرو بن العاص وهو يصلى بالليل وهو يبكى ، ويقول : اللهم آتيت عمراً مالا فإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وإنك آتيت عمراً أولاداً فإن كان أحب إليك أن تثكل عمراً ولده ولا تعذبه بالنار فاثكله ولده ، وإنك آتيت عمراً سلطانا فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه .

وفاته وولده

وفاته وكلمة مجملة فيه :

قضى عمر بن العاص حياته كلها بالجد وطلب العلاء كما رأيت ، فما قصد غاية إلا بلغها ولم يبال بالعقبة تقوم دونها ، وكان له بين ذلك هنات تغتفر له في جانب جهاده العظيم فى فتوح مصر وغيرها ، ولا يلام على شيء من أمور الفتنة التى انغمست فيها قريش كلها وساقوا الأمة إليها ، إلا بما يلام به سائرهم وإنما هو سبقهم بأعماله الكبار ، بالإضافة إلى شهرته بالدهاء وحبه للظهور ، ومهما ترتب على أعماله تلك من النتائج فى مستقبل الدولة فإنه غير مقصود له بالذات ، كما أبنا ذلك ، فالعدل والحق يقضيان على من عرف تاريخ الرجل أن يقر له بثبات الجأش وقوة الإرادة وصدق العزيمة والرأى ، وإنه من رجال الإسلام العظام وحسبه أنه كان من أعوان عمر بن الخطاب وأمرائه الكبار ، وعمر رضى الله عنه لايضع ثقته بغير الأكفاء كما هو معروف عنه ، ونحن لانشك كما لايشك عاقل معنا فى أن ممالأته على على بن أبى طالب إنما كانت لإعراض هذا عنه ، ولو رغب فيه لوجد منه من صدق الخدمة وجميل الصحبة ما وجده عمر ومعاوية ، وإنما كان على رضى الله عنه قليل العناية بأمثال عمرو من رجال السياسية ، أولا لثقته من نفسه . وثانيا لكونه يرى سلوك السبيل السوى فى القول والعمل خير صاحب ومعين ، وهو اعتقاد حق لايعتقد غيره من كان مثل على بن أبى طالب وفى مرتبته من الفضيلة ، لكنه رضى الله عنه لم ينظر إلى ما اكتنفه من الأحوال وما أحاط به من الدسائس لاسيما وأن البيئة فى وقته صارت غيرها فى زمن أبى بكر وعمر ؛ ومع ذلك فقد كانا يسيران سير الوجل ويدفعان فى كل وجهة صاحبها ويتألفان قلوب الرجال الذين يشك فى

صدقهم وصداقتهم ، كما تألف رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب المنافقين مع أنهم من أعداء الدين .

وبالجملة فعمرو بن العاص يعد على حسن بلائه فى الإسلام وسلامة يقينه من دهاة الأمة فى عصره ، وكبار رجالها الذين افتتحوا الممالك ورفعوا منار الدولة ، لا سيما وأنه كان على جانب من التقى لا ينكر على مثله كما تقدم ، وكان شديد الرهبة من الله والخوف مما بعد الموت كما يظهر ذلك من أقواله التى فاه بها قبيل وفاته رحمه الله ورضى عنه .

روى ابن عساكر عن ابن شماسة المهرى قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى ساعة الموت ، وولى وجهه إلى الحائط وجعل يبكى طويلا فقال له ابنه : ما يبكيك أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا أما بشرك رسول الله بكذا قال : ثم أقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما يعد علىّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إنى قد رأيتنى على أطباق ثلاثة : لقد رأيتنى وما أحد من الناس أبغض إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحب إلى أن أكون استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال كنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله ابسط يدك لأبايعك فبسط يمنيه فقبضت يدى، فقال « مالك يا عمرو » فقلت أردت أن اشترط . فقال « تشترط ماذا » قلت أن تغفر لى ماتقدم ، قال « أما علمت ياعمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » فبايعته فما كان أحد أجل فى عينى منه ، إنى لم أكن أستطيع أن أملأ عينى منه إجلالا له ، فلو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء لا أدرى ما حالى فيها ، فإذا أنا مت فلا تتبعنى نائحة ولا نار ، فإذا دفنتمونى فى قبرى فسنوا علىّ التراب سنا (أى صبوه صباً)، فإذا فرغتم

من دفنى فأقيموا عند قبرى قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها ، حتى أعلم ما أرجع به رسل ربى فإنى أستأنس بكم اهـ .

وروى هذا الخبر أيضاً من طرق أخرى باختلاف قليل فى اللفظ .

وروى عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو أن أباه قال حين احتضر : اللهم إنك أمرت بأمور ونهيت عن أمور ، تركنا كثيراً مما أمرت ووقعنا فى كثير مما نهيت ، اللهم لا إله إلا أنت : ثم أخذ بإبهامه فلم يزل يهلل حتى مات : وفى رواية أنه وضع يده موضع الغل من ذقنه ثم قال : اللهم أمرتنا فتركنا ، ونهيتنا فركبنا ، ولا تسعنا إلا مغفرتك ، : فكانت تلك هجراه حتى مات .

وكانت وفاته بمصر يوم الفطر سنة ثلاث وأربعين فى خلافة معاوية وهو متجاوز السبعين ، وقيل إنه تجاوز الثمانين ، ودفن فى المقطم فى جهة الفخ وكان طريق الحجاز كما ذكر ذلك ابن قتيبة . وكان عمرو قصيراً يخضب بالسواد ، وكان غنياً جداً على ما يظهر من سيرته ، وقد روى ابن عساكر أن عمراً كان يقيم كروم الوهط (بستان له بالطائف) بألف ألف خشبة كل خشبة بدرهم ، فالكرم الذى يحتاج إلى خشب بمليون درهم كم تكون غلته هذا إذا صح الخبر . وقد كان له دور كثيرة منها داره بمصر وتعرف بدار عمرو قرب الجامع ، وكان له دور بدمشق منها دار بجيرون ، ودار فى ناحية باب الجابية بين دار السعادين وزقاق الهاشميين ، ودار تعرف بدار بنى أحيحه أو بنى جحيحة فى رحبة الزبيب ، ودار تعرف بالمارستان الأول عند عين الحمى . كذا جاء فى تاريخ ابن عساكر ، وقد ذكر المؤرخون عن مقدار ثروته مالا يقبله العقل فضربنا صفحاً عن ذكره .

* * *

والده .

ولد له عبد الله ومحمد ، وكان عبد الله يكنى أبا محمد وأسلم قبل أبيه وكان عاقلا فاضلا شجاعا يضرب بسيفين وكان يقرأ بالسريانية وقد نهى والده عن دخول الفتنة وأشار عليه باعتزالها كما رأيت فيما مر طلبا للسلامة ، وتوفى بمكة عن اثنتين وسبعين سنة ، وله عقب من زوجه عمرة بنت عبيد الله ابن عباس ومنهم عمرو بن شعيب وكان سرياً ربما قسم فى المجلس الواحد من صدقة جده خمسين ألفاً كما ذكر ذلك ابن قتيبة اﻫ .

* * *

عُثمان بن عَفّان

حاله فى الجاهلية

نسبه وأصله :

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى القرشى الأموى ، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو وكنيتان مشهورتان له وأبو عمرو أشهرهما .

ولد فى السنة السادسة بعد الفيل ، أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ، وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صناعته ومكانته فى قومه :

كان عثمان رضى الله عنه تاجراً بزازاً كما ذكرنا ذلك فى صدر هذا الكتاب ، وقدم الشام مرة فى تجارة فى رواية لابن عساكر وكان غنياً كريماً حسن الشيمة محبباً فى قومه مأموناً عندهم محترما لديهم ، يدلك عليه ما أخرجه ابن عساكر عن الشعبى قال : كان عثمان فى قريش محبباً يوصون إليه ويعظمونه وإن كانت المرأة من العرب لترقص صبيها وهى تقول :

أحبك والرحمن حب قريش عثمان

إسلامه وصحبته

إسلامه :

كان إسلامه بدعوة أبى بكر رضى الله عنه وكان لأبى بكر نظر واختبار

ومعرفة برجال قريش وأخلاقهم ، وكان لقريش ثقة به وركون إليه ولعلمه بنقاء ضمير عثمان وسعة مداركه وسلامة طبعه من شائبة العناد والمكابرة دعاه إلى الإسلام هو والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله كما فى أكثر كتب الأخبار والحديث فأجابوه وأسلموا ، فكانوا من السابقين الأولين الذين لهم فضل السبق وفضيلة القيام بنصرة الحق ، ومضافرة النبي صلى الله عليه وسلم على وضع أساس التوحيد الذى هدم بعد أركان الوثنية واستفاض نوره فى أرجاء الأرض ، وكان لعثمان رضى الله عنه نصيب كبير من الخدمة الخالصة للإسلام ، ومعاضدة نبيه عليه الصلاة والسلام كما سترى بعدُ .

لاريب فى أن الإسلام إنما قام بقوة إلهية وروح عالية أودعت فيه ، وجعلته سهلا مقبولا لدى العقول ، حقيقاً بالنمو والانتشار لكن هذا لا يمنعنا أن نقول إن النفر الذين سبقوا إلى تلقيه ، كانوا دعامة الإسلام وممهدى طريقه ، وناصرى دعوته والقدوة الصالحة للعرب فى اتباعه ، لما أنهم من أخيار قريش ووجوه العرب وصريح ولد إسماعيل ، لذا أثنى عليهم القرآن وقربهم منه النبي عليه الصلاة والسلام .

ومما رواه ابن الأثير فى أسد الغابة عن ابن عباس أن قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) الآية نزلت فى عشرة : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن مسعود . ومن قرأ تاريخ النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتاريخ دعوته بإمعان ، علم فضل عثمان وإخوانه من السابقين رضوان الله عليهم ، بسبقهم للإسلام وقيامهم بأعباء الدعوة وتمهيدهم السبيل لنشر كلمة التوحيد بتلك السرعة المعروفة ، مع مايعهد من أمر كل دعوة من البطء فى السير والمناهضة التى تلقاها من أسراء العوائد والتقليد فى كل الأمم . فجزاهم الله عن الأمة الإسلامية خير الجزاء .

صحبته

كان فى صحبته محبوبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرما عنده عزيزاً عليه ، فحباه من كرامة المصاهرة بابنتيه بما يغبط عليه تكريما له وتقديراً لحسن بلائه فى الإسلام وإخلاصه فى تأييد الدعوة ومبادرته لتلقى كلمة التوحيد ، فقد روى ابن الأثير فى أسد الغابة وابن عبد البر فى الاستيعاب وغيرهما من المحدثين وأهل الأخبار ، أن عثمان لما أسلم زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته رقية (وفى رواية السيوطى أنه تزوجها قبل النبوة) وماتت رقية فى السنة الثانية من الهجرة ، يوم ظفر رسول الله بالمشركين فى وقعة بدر ، وكان عثمان رضى الله عنه تخلف فى المدينة لأجل تمريضها فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم ، فعد لذلك بدرياً ، وإن لم يحضر وقعة بدر ، ثم زوجه بعدها بابنته أم كلثوم ، ولذا سمى ذا النورين ، أى لأنه كان ختن رسول الله على بنتيه ، وتوفيت أم كلثوم فى السنة التاسعة من الهجرة ، فلما توفيت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن لنا ثالثة لزوجناك ، وهذا يدل على مكانته عنده وثقته به وحبه له .

ويحق له أن يرى من نبيه مثل هذا التفضل لتغاليه فى طاعته ، وأداء واجب الصحبة له ، وصبره بين يديه على المكاره واستمساكه بعروة الإسلام وبذله ماله فى سبيله وتحمله الأذى من أجله ، ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد عن محمد بن الحارث بن إبراهيم التيمى قال : لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه رباطا ، وقال ترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ، والله لا أدعك أبداً حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه .

ولما رأى أن اضطهاد قريش له واقع لا محاله ، وأن الفرار بدينه أسلم ،

هاجر إلى الحبشة مع رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أول من هاجر . ففى رواية عن أنس قال : أول من هاجر إلى الحبشة بأهله عثمان ابن عفان ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط : ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة .

ومما يؤثر عن كرمه العجيب وبذله العظيم فى سبيل الله ورسوله وفى منفعة المؤمنين ، تجهيزه جيش العسرة بألف بعير فقد نقل فى الاستيعاب عن قتادة قال : حمل عثمان فى جيش العسرة على ألف بعير وخمسين فرسا ، ونقل فى رواية أخرى أنه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً ، وأتم الألف بخمسين فرسا وجيش العسرة كان فى غزوة تبوك .

وأخرج الترمذى عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره ، فجعل رسول الله يقلبها ويقول ـ ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم ـ مرتين .

ومن هذا القبيل أيضاً ابتياعه بئر رومة وجعلها للمسلمين يستقون منها ، وتحرير الخبر على ما نقله ابن عبد البر فى الاستيعاب أن بئر رومة كانت ركية ليهودى يبيع المسلمين ماءها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشترى بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان رضى الله عنه إن شئت جعلت على نصيبى قرنين[1] وإن شئت فلى يوم ولك يوم : قال بل لك يوم ولى يوم . فكان إذا كان عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فلما رأى

---

(١) حبلين .

ذلك اليهودى قال أفسدت عليّ ركيتى فاشتر النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم(١).

ومن هذا القبيل أيضاً زيادته فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ماله ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يزيد فى مسجدنا: فاشترى عثمان موضع خمس سوار (جمع سارية) فزاده فى المسجد . هكذا ذكره ابن عبد البر ورواه غيره بهذا المعنى أو مايقرب منه .

وبالجملة فقد كان عثمان رضى الله عنه جليل الأعمال جميل الصحبة ، حريصاً على رضا النبي صلى الله عليه وسلم ، بذولا المال فيما يرضيه وينفع المسلمين ، لهذا أجل النبي صلى الله عليه وسلم قدره ونوه باسمه ، وقد وردت عن النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تشهد بفضله ، فليراجعها من أحب فى كتب الحديث ، وحسبه أنه أحد العشرة الكرام حوارى النبى عليه الصلاة والسلام ، وأحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى ، وأخبر أن رسول الله توفى وهو عنهم راض ، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن بل قال السيوطى قال ابن عباد: لم يجمع القرآن من الخلفاء إلا هو والمأمون . وقد شهد مع النبى صلى الله عليه وسلم بعض المشاهد ، وكان يستخلفه على المدينة فى بعضها ، ولم يحضر واقعة بدر كما تقدم السبب ولا بيعة الرضوان ، لأن هذه كانت من أجله وذلك لما أرسله رسول الله إلى أهل مكة رسولا ليخلوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر الكاذب بأن عثمان قد قتل فجمع أصحابه فدعاهم إلى البيعة فبايعوه على قتال أهل مكة يومئذ ، ثم جاءه الخبر بأن عثمان لم يقتل ، وهذا يدلك على مكانته عنده وحبه له .

أخرج الترمذى عن أنس قال . لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله إلى أهل مكة فبايع

(١) وفى بعض الروايات أن عثمان هو الذى حفر بئر رومة

الناس فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله. فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

خلافته والشورى وكلمة فى البيعة

والخلافة والدين

كلمة فى الخلافة والدين :

علم القارىء مما بسطناه فى صدر هذا الكتاب وفى منتصفه أيضاً عن كيفية استخلاف أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وبيعتهما، أن الأولى اعتدها عمر فلتة وقى الله المسلمين شرها، لأنها لم تكن شورى بين المسلمين، ومع ذلك فقد رضيها المسلمون أتم رضا ولم يخالف على أبى بكر أحد من الصحابة ورضى بها من خالف ولو بعد حين . وأن الثانية تمت لعمر بعهد من أبى بكر ثم برضا الأمة وأن عمر ترك الخلافة بين ستة ليختاروا منهم واحداً، ويؤخذ من مجمل ما نقلناه بهذا الصدد أن البيعة وإن كان يتوقف عقدها على رضا الجمهور إلا أنها لم تتأسس على قاعدة محض الاختيار أعنى اختيار الأمة أو من ينوب عنها من أهل الحل والعقد ، ولو تأسست على تلك القاعدة لكانت الحكومة الإسلامية أقرب للجمهورية منها للملكية ، وكذلك لو استمر العهد بالخلافة من واحد إلى آخر على شرط تقييد الأمير بقانون الشورى لكان أسلم عاقبة وأسد لذرائع الخصام والانقسام ، كما قال ذلك معاوية بن أبى سفيان لابن حصين حين وفد عليه(١) ، ولكن لما لم تكن كذلك وأخذ أصل البيعة شكلا

(١) قالوا إن زياد بن أبيه أوفد ابن حصين على معاوية فخلا به ليلة ، فقال له يا ابن حصين قد بلغنى أن عندك ذهناً وعقلا فاخبرنى عن شىء أسألك عنه . قال سلنى عما بدالك، قال أخبرنى ما الذى شتت أمر المسلمين وملأهم وخالف بينهم قال نعم قتل الناس عثمان ، قال ما صنعت شيئاً : قال فسير على إليك وقتاله إياك ، قال ماصنعت شيئاً : قال فسير طلحة والزبير وعائشة وقتال على إياهم، قال ماصنعت شيئاً: قال ماعندى غير هذا: يا أمير المؤمنين، قال فأنا أخبرك

بين شكلين ، شكل الشورى وشكل الاستبداد، أوشكل الإطلاق والتخصيص ، تولدت فى ثنايا الخلافة جراثيم النزاع حتى أفضى الأمر بعد إلى التغالب ، والغالب بالضرورة قهار قلما يراعى أميال الأمة وتحرى قاعدة الشورى التى نوه بمحاسنها الشرع ، فلا جرم أن تستحيل حكومة ذلك مآل رياستها إلى استبداد قاهر بعيد عن مقاصد الإسلام غالب للمسلمين على أمرهم كما حصل بعد ، وكان سبباً عظيما لكمون الضعف فى ثنايا القوة المريعة التى قامت بها دول الإسلام ، حتى إذا آن أوان الراحة والنزوع إلى التمتع بجنى الإسلام أخذ ذلك الضعف يظهر فى كل جزء من أجزاء الأمة ، وفى كل عضو من أعضائها حاكما كان أو محكوماً حتى بلغ لهذا العهد غاية تنذر بانحدار سريع لا وقوف معه ، من شاهق ذلك المجد القديم والقوة الماضية التى بلغت فى عصرها أقصى ما تبلغه قوى الدول القائمة فى إبان زهوها .

إن الدول ما زالت تقوم وتقعد وتضعف وتقوى ، والأمم كذلك ، غاية ما فى الأمر أن الضعف إذا تناهى يغير أحياناً شكل الأمم ، كما لو قيل إن الرومان أخلفهم الطليان وإن اليونان أخلفهم البيزنطيون ، وإن هؤلاء أخلفهم الأروام ، والأصل فى الحقيقة لكل شعب واحد تقمص قديمه بجديده

إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التى جعلها عمر إلى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله إليه وقدم أبا بكر للصلاة ، فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم ، فعمل بسنة رسول الله وسار بسيرته حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ثم جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه ، وتطلعت إلى ذلك نفسه ، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلفه أبو بكر ما كان فى ذلك اختلاف اهـ

وقول معاوية هذا فيه روح من الحق والصواب ، ولكن عمر رضى الله عنه لم يرد فيما صنع إلا الخير لأنه رأى أن لا يتحمل تبعة الخلافة ميتاً كما تحملها حياً ، فلم يعهد إلى شخص بعينه وخاف أن يتركها لرأى الأمة واختيارها ، فيقع الخلاف الذى أشار إليه معاوية ووقع من حيث ظنه عمر رضى الله عنه لا يقع .

فى شكل آخر ولو مزيجاً، وأقام له دولة غير الأولى . وهكذا الشأن فى كل أمم المغرب مع ما لاقته من ضروب الشقاء والاستبداد، وما انتابها من القوة والضعف، فإنها مازالت تسقط وتقوم وتعالج أنواع الأرزاء، وتحاول بعد الهبوط إلى الحضيض العروج إلى السماء، حتى بلغت من الحياة هذا المبلغ الذى يرى الآن، وتقمصت فى شكل جديد لم تر مثله عين الزمان .

رب سائل يسأل كيف إذن لم يتلاف المسلمون أمر ذلك الضعف، واستمروا منذ أخذوا بالتقهقر فى منحدرهم الذى لا نهاية له غير الموت والخذلان، مع مايشاهدونه من حال الملل الأخرى التى صار إليها ملك الإسلام . فالجواب عنه أن ذلك الضعف الذى أشرنا إلى أنه كمن فى ثنايا القوة منذ تأسست دولة المسلمين إنما منع المسلمين عن تلافيه، بل وألجأهم للإعراض عن معالجته أمران : الأول : ما قدمناه من عدم توافر شروط الشورى والاختيار فى البيعة، بحيث أخذت الخلافة شكلا ترك ثغرة كبرى للولوج إليها من طريق القوة والتغالب فأوجد نزاعا مستمراً من أجلها فى الأمة أفضى إلى مصير الأمر ليد الغالب والغالب لا يتقيد بالشورى ولا يجارى رغائب الأمة بالضرورة .

والأمر الثانى : اصطباغ الدولة منذ نشأتها بصبغة دينية مهدت السبيل لأولياء أمر الأمة بعد الخلفاء الراشدين، للأخذ على أيدى الرعية وأفواهها باسم الدين وجعل الحياة السياسية للأمة حياة دينية لا سبيل معها لنوابغ الأمة، وعقلائها للتنقل بها فى مدارج الرقى الطبيعى الذى تقتضيه حالة كل عصر سواء كان فى حياة الأمم السياسية أو حياتها الاجتماعية، لا سيما بعد أن قالوا بحرمة الاجتهاد ووقفوا عند حد محدود من الفروع، وهذا ما جعل ذلك الضعف الكامن ينمو فى جسم الأمة نمواً جعلها تأنس بحياة السكون والاستسلام، وتعطى بأزمتها إلى الأمراء والحكام حتى فى عصر زال فيه

الاعتقاد بوجوب الطاعة العمياء للأمراء وجوباً دينياً ، وعرف أكثر عقلاء المسلمين أن الدين لن يكون مانعاً من قيام الدول على قاعدة مراعاة الأصلح وإنما هو تأثر النفوس بحكم العادة المألوفة للآباء أخذ بأعنة الأبناء إلى سلوك سبيل الاقتداء .

واعلم أن الشارع جوز الاجتهاد بأحكام المعاملات دون العبادات ، وهى العقائد والأعمال لأن الأولى تتعلق بمصلحة المسلمين الدنيوية ، والثانية تتعلق بمصلحتهم الدينية والنصوص الدينية لا اجتهاد فيها لأنها قطعية ، وأما المعاملات فقد اعتبرها الشارع دنيوية وأجاز فيها الاجتهاد تيسيراً على الأمة فى وضع الأحكام بإزاء الحوادث التى لا تتناهى . هذا فى المعاملات فما بالك بأمور الأمة السياسية التى يناط بها قيام الدول ، لا جرم أنها أولى أن تعتبر دنيوية وأن تكون لذلك حياة المسلمين السياسية غير حياتهم الدينية . ولا يعترض هنا أن الكتاب الكريم أمر بالشورى ، ووعد المؤمنين بالاستخلاف فى الأرض ، وأن فى هذا إشارة إلى كيفية وضع الحكومة ووجوب كونها شورية ، فاستلزم ذلك أن تكون دينية إذ هذه أصول أو كليات يتمشى عليها ما يتمشى على كليات الأحكام الأخرى ، من جواز الاجتهاد فى جزئياتها وفروعها لجعلها دائرة مع المصلحة الدنيوية . ومقومات الحكومة كثيرة لا تنحصر فى الكليات ولا تختص بزمان أو مكان ، بل هى تابعة للحاجة سائرة مع ترقى الزمان ، ومن ثم كانت حياة المسلمين السياسية بعيدة بالضرورة عن الحياة الدينية لأنها قائمة بالاجتهاد السائر مع الحاجة الدائر مع المصلحة .

لا جرم أن الصحابة عرفوا هذا الأصل لجنح الخلفاء الراشدون منهم إلى الشورى فى تدبير أمور الدولة كما رأيت من سيرة الخليفتين ما فيه الكفاية وعرفوا أن لهم ماوراء ذلك الأصل أن يأخذوا بما هو نافع لهم من مقومات الملك ، لأنه منوط بالمصلحة التى يقتضيها التيسير على المسلمين وتستلزمها حاجة

الدولة فأخذوا أصول الحكومة الإدارية عن الفرس ، كتدوين الدواوين وفرض العطاء ومسح الأرضين وإحصائها ووضع الخراج عليها واستعمال التاريخ ، وغير ذلك مما مر بك ذكره فى هذا الكتاب وفاتهم أن يأخذوا عن الرومان أصول الحكومات النيابية الثابتة التى تقوم بالتكافل بين أفراد الأمة وتضمن استمرار قاعدة الشورى التى أوجبها الكتاب الكريم ، وإنما أذهلهم عن هذا أن ليس لديهم تاريخ فى أصول الحكومات يرجعون إليه ، وكانت الحكومات النيابية بعيدة العهد يومئذ من مجاوريهم الرومانيين فلجئوا إلى إناطة كل شئون الدولة السياسية والدينية بالخليفة ومضى هذا الأمر على وجهه ، حتى جاء عصر كان الإمام فيه هو المتسلط على كل شئون الدولة تسلطاً ملازما لتسلطه الدينى فكما أن له أن ينيب عنه إماماً فى الصلاة فله أن ينيب عنه قاضياً للقضاء ، وكانت الخلافة لذلك أشبه بالدينية منها بالسياسة وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين امتزاجاً أدى إلى استمرار سير الحكومة على نمط واحد وجمود الأفكار على مبدأ الخضوع المطلق للأمير باعتبار أن الأمير رئيس دينى تجب له الطاعة مع التغاضى عما يجب عليه فى مقابلها من العدل .

إن اصطباغ المسلمين فى حياتهم السياسية بصبغة الدين حول الأحزاب السياسية التى تقوم فى الدول لخير الأمة ومصلحة الشعب إلى فرق دينية كانت فى الإسلام آفة الدين ، ومفرق شمل المسلمين ، ومثاله أن الأحزاب السياسية التى قامت فى الصدر الأول لمطلق الغرض السياسى أو الانتصار لزيد والأخذ بناصر بكر ما لبثت أن انقلبت إلى فرق دينية ، ومشت إلى الانتحال فى الدين كالخوارج مثلا فإنهم بعد أن كانوا يذهبون إلى عدم لزوم الخلافة ووجوب العمل بمبدأ التعاون العام فى أمور الدين والدنيا ، انقلبوا إلى نحل دينية فرقت شمل المسلمين . وكالشيعة فإنهم بعد أن كانوا ينتصرون لعلى رضى الله

عنه لاعتقاد أنه أهل للخلافة ويريدونه عليها ولو بالقوة انقلبوا أيضاً إلى اعتقاد وجوبها لآل البيت وجوباً دينياً وانفردوا بمذاهب خاصة ، كلها ترمى إلى الدين وبالدين ، وكان فى غضون ذلك ما كان من الفتن التى أنهكت قوى المسلمين ، وصبغت بدمائهم أديم الأرض باسم الدين . والدولة الإسلامية واقفة بين كل هذه الفتن والشقاق ، والتحزب والافتراق ، فى مركز واحد ومتجهة إلى وجهة واحدة لم يطرأ على صبغتها تغيير إلا بتحولها من الشورى إلى الاستبداد ، مع أن المعهود فى الدول التى تنتابها الفتن وتقوم فيها الأحزاب أن ينتاب صبغتها التغيير وتتقلب أشكالها بتقلب الزمان وقيام الفتن بين الأحزاب السياسية فى كل مكان .

هذا الإجمال ينبئك كيف استحكم داء الضعف فى الأمة الإسلامية مع أنه عارض قد كان فى الإمكان تلافيه ، قبل أن يستحيل إلى جمود أذهل الأمة لهذا العهد عما يحيط بها فى هذا الوجود وظهر أثره حتى على أعمال المسلمين وأخلاقهم وعقائدهم وعوائدهم ، بحيث صاروا لا يقبلون أى جديد إلا باسم الدين ويرفضون كل أمر نافع إذا لم يعرف عن أسلافهم الميتين ، حتى سبقتهم فى مضمار الحياة كل الأمم المسيحية والوثنية وسادت على دولهم أضعف الدول الغربية ، وهم يدافعون الخير ويأبون مجاراة الأمم لمطلق التوهم فى أن مجاراة السابقين خروج عن الدين وأن الإسلام والعياذ بالله قد حرم كل أمر نافع على المسلمين ، إلا ما قال بحله شيخ من الشيوخ الماضين ، وهذه غاية من الهوس بالدين لم تبلغها أمة فى الأولين ولا الآخرين ، والله يشهد ورسوله والملائكة والعقلاء كافة أن الإسلام برىء مما يزعمون . وإليك مثالا من هذا الهوس الذى جعلوه آلة لهدم تعاليم الإسلام وهم لا يشعرون .

قامت فى هذه الأثناء فتنة كبرى بين أميرين من أمراء نجد وهما يتنازعان الإمارة فرأيت بعض نبهاء النجديين ونصحته فى تلافى أسباب هذه الفتنة

بالانضمام إلى الدولة العثمانية قبل أن تمتد إلى البلاد يد أجنبية ، فأجابنى إن هذا منى النفوس ، لكن النجديين يأبون دخول المستحدثات العصرية إلى بلادهم ولا سيما نظام الجندية الحديث ، والدولة العثمانية تريدهم على مثل هذا النظام وهو فى نظرهم من الحرام الخ .

فانظر يا أخى إلى هذه الأمة التى خاضت بخيلها على عهد الفتح الإسلامى شطوط المحيطين، وبلغت دولتها من القوة الحربية مبلغاً لم تصل إليه دولة قط ، كيف بلغ بها الهوس بالدين إلى هدم أهم ركن من أركانه وهو الجهاد الذى لا يتم إلا بالعمل بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الآية ، ومن البديهى أن مبلغ الاستطاعة فى هذا العصر هو تنظيم الجندية على وجه تضارع به قوة الأعداء القائمة بنظام الجندية أيضاً ، وترتيبها على هذا النمط الجديد المعروف لهذا العهد الذى ثبت عند كافة الأمم أنه خير ما انتهى إليه العقل البشرى فى استكمال أسباب القوة وحفظ البيضة والذود عن حياض الملك والاستقلال ، هذا من وجه ،ومن وجه آخر فإن نظام الجندية الحديثة الذى يراه أولئك القوم من المحرمات له مزية إعداد الأمة بأجمعها للحرب وتعويدها على تحمل أعباء الجندية ، حتى تصير بطبعها أمة حربية تتجافى جنوبها عن مضاجع الراحة وتأنف الإخلاد إلى ظل القصور ، وهذا خلق طبيعى فى العرب ، فما الذى يدعوهم إلى الهروب منه واعتقاد حرمته إلا ما ذكرناه من هوس الأمة بالدين . على غير علم بأنها تهدم بهذا الهوس أركان الدين ، وتنحدر فى تيار الاضمحلال العاجل مع المنحدرين ، وبالإجمال فإن حياة المسلمين السياسية لما لم تقم على أصول الشورى القانونية وجعلت من مبدأ تكوين الدولة حياة دينية ترك فيها القياد إلى أمير واحد تناط به كل شئون الدين والدولة ، فقد دخل عليها الاضطراب من عهد الخليفة الثالث كما سترى بعد وانصبغت بسببها الأمة بصبغة الدين فى كل شئونها الدنيوية .

على أن اصطباغ الأمة بهذه الصبغة الدينية وإن تأتى عن جعل الحياة السياسية حياة دينية كما قدمنا ، إلا أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يريدوا بها إلا تحرى المصلحة على قدر ما وصل إليه علمهم واجتهادهم ، وفيما عدا هذا فإنهم لم يحرجوا أنفسهم ولا المسلمين فى أمور الدولة الإدارية وأمور المسلمين الاجتماعية بمقدار ما أحرج هؤلاء بعد سوء الفهم وندرة المفهمين ، إذ الصحابة أخذوا عن مشركى الفرس وأهل الكتاب كل ما بلغ إليه علمهم من الأمور النافعة التى هى من ضروريات حياة الأمم والدول بلا أدنى تحرج فى الدين كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وخصوصاً فى سيرة عمر رضى الله عنه .

خبر الشورى وخلافة عثمان :

نقلنا فى النصف الأول من هذا الكتاب شيئاً من خبر الشورى عما رواه ابن عبد ربه فى العقد ، ووعدنا باستيفاء البحث وقد رأينا روايات كثيرة فى خبر الشورى أعدلها لهجة وأقربها للحق والصواب وأبعدها عن التحريف ما اختاره ابن جرير الطبرى ، فآثرنا نقله على غيره من الروايات لوثوقنا باعتدال الطبرى وتحريه لأصدق الحديث ، وقد روى الطبرى فى أول قصة الشورى ما هو بمعنى ما نقلناه عن العقد وزاد فيه أن عمر رضى الله عنه لما عهد للستة أمرهم بالاجتماع قريباً منه ليتشاوروا فيما بينهم ، فاجتمعوا وتناجوا ثم ارتفعت أصواتهم فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله إن أمير المؤمنين لم يمت بعد : فأسمعه فانتبه فقال : ألا أعرضوا عن هذا أجمعون ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شىء له من الأمر ، وطلحة شريككم فى الأمر فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم . ومن لى بطلحة : فقال سعد

ابن أبى وقاص. أنالك به ولا يخالف إن شاء الله . فقال عمر أرجو أن لا يخالف إن شاء الله . وما اظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين . علىّ وعثمان . فإن ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على ففيه دعابة وأحرِ أن يحملهم على طريق الحق . وإن تولوا سعداً فأهلها هو وإلا فليستعن به الوالى فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف . ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبى طلحة الأنصارى . يا أبا طلحة إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلا من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال للمقداد بن الأسود إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبدالرحمن بن عوف وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شىء له من الأمر وقم على رءوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه أو اضرب رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رءوسهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

فخرجوا فقال على لقوم كانوا معه من بنى هاشم : إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبداً . وتلقاه العباس فقال ، عدلت عنا . فقال وما علمك . قال : قرن بى عثمان وقال كونوا مع الأكثر فإن رضى رجلان رجلا ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف . فسعد لا يخالف ابن عمه عبدالرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن

عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن : فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بله أني لا أرجو إلا [1] أحدهما . فقال العباس . لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأخراً بما أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت . وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت. احفظ عني واحدة . كلما عرض عليك القوم فقل لا إلا أن يولوك ، واحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا ، وايم الله لا يناله إلا بشر لا ينفع معه خير ، فقال عليّ أما لئن بقي عثمان لأذكرنه ما أتى ، ولئن مات ليتداولنها بينهم . ولئن فعلوا ليجدني حيث يكرهون ثم تمثل .

حلفتُ بربِّ الراقصات عشيَّةً　　غدون خِفافاً فابتدرنَ المُحَصّبَا
لَيَخْتَلِيَنْ رهْط ابنِ يَعْمَرَ مارئاً　　نجيعاً بنو الشُداخ ورْداً مُصَلّبَا

والتفت فرأى أباطلحة فكره مكانه ، فقال أبو طلحة لم ترَعْ أبا الحسن .

فلما مات عمر وأخرجت جنازته تصدى علي وعثمان أيهما يصلي عليه ، فقال عبد الرحمن كلاكما يحب الإمرة لستما من هذا في شيء هذا إلى صهيب استخلفه عمر يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على إمام : فصلى عليه صهيب .

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المِسْوَر بن مخرمة ، ويقال في بيت المال ، ويقال في حجرة عائشة بإذنها ، وهم خمسة معهم ابن عمر وطلحة غائب وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم وجاء عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة فجلسا بالباب ، فحصبهما سعد وأقامهما وقال . تريدان أن تقولا حضرنا وكنا في أهل الشورى

(١) لعل (ألا) زائدة إذ الظاهر أن ليس معه أحد يستثنيه هنا فليحرر

فتنافس القوم فى الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة . أنا كنت لأن تدافعوها أخوف منى لأن تنافسوها لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمرتم ثم أجلس فى بيتى فأنظر ماتصنعون .

فقال عبد الرحمن أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد . فقال ، فأنا أنخلع منها ، فقال عثمان أنا أول من رضى فقد سمعت رسول الله يقول (أمين فى الأرض أمين فى السماء) فقال القوم قد رضينا وعلى ساكت . فقال مانقول يا أبا الحسن . قال أعطنى موثقاً لتؤثرن الحق ولاتتبع الهوى ولاتخص ذا رحم ولا تألوا الأمة .

فقال أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت ، ولكم على ميثاق الله أن لاأخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين ، فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله . فقال لعلى إنك تقول إنى أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ولم تبعد ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ قال عثمان ، وخلا بعثمان فقال تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمه لى سابقة وفضل فلن يصرف هذا الأمر عنى . ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال ، على . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان ، ثم خلا بسعد فكلمه . فلقى على سعداً فقال له : اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا : أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرحم عمى حمزة (١) أن لاتكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً علىّ فإنى أدلى بما لايدلى به عثمان .

---

(١) قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة . رحم حمزة من سعد هى أن أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبدمناف بن زهرة ، وهى أيضاً أم المقوم . وحجل واسمه المغيرة . والعوام =

ودار عبد الرحمن لياليه يلق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ، ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التى يستكمل فى صبيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة بعد ابهيرار[1] من الليل فأيقظه فقال : ألا أراك نائماً ولم أذق فى هذه الليلة كثير غمض ، انطلق فادع الزبير وسعداً ، فدعاهما ، فبدأ بالزبير فى مؤخر المسجد فى الصفة التى تلى دار مروان ، فقال له خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر : قال نصيبى لعلى ، وقال لسعد إذا وانت كلالة[2] فاجعل نصيبك لى فأختار . قال إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى : أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رءوسنا . قال يا أبا إسحق إنى قد خلعت نفسى منها على أن اختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها إنى أريت كروضة خضراء كثيرة العشب فدخل فحل لم أر فحلا قط أكرم منه فمر كأنه سهم لا يلتفت إلى شىء مما فى الروضة حتى قطعها لم يعرج ، ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج من الروضة ثم دخل فحل عبقرى[3] يجر خطامه[4] يتلفت يمينا وشمالا ويمضى قصد الأولين حتى خرج . ثم دخل بعير رابع فرتع فى الروضة ولا والله لا أكون الرابع ، ولا يقوم مقام أبى بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس عنه قال سعد . فإنى أخاف أن يكون الضعف قد أدركك فامض لرأيك فقد عرفت عهد عمر .

= ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هؤلاء أربعة بنو عبدالمطلب من هالة وهالة هذه هى عمة سعد بن أبى وقاص لحمزة لذن ابن عمة سعد ، وسعد ابن خال حمزة .

(١) أى بعد انتصافه

(٢) الكلالة بنو العم الأباعد

(٣) العبقرى القوى

(٤) الخطام أى الزمام

وانصرف الزبير وسعد وأرسل (أى عبد الرحمن) المسور بن مخرمة إلى على فناجاه طويلا وهو لا يشك أنه صاحب الأمر ، ثم نهض . وأرسل المسور إلى عثمان فكان فى نجيهما حتى فرق بينهما أذان الصبح قال عمرو بن ميمون قال لى عبد الله بن عمر ياعمرو من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف علياً وعثمان فقد قال بغير علم فوقع قضاء ربك على عثمان .

فلما صلوا الصبح جمع (عبد الرحمن) الرهط وبعث إلى من حضره من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد ، فاجتمعوا حتى التج (ازدحم) المسجد بأهله فقال . أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد إنا نراك أهلا لها .فقال أشيروا على بغير هذا .فقال عمار: إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً . فقال المقداد بن الأسود صدق عمار إن بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا . قال ابن أبى سرح إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبى ربيعة صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا . فشتم عمار بن أبى سرح وقال متى كنت تنصح المسلمين . فتكلم بنو هاشم وبنو أمية . فقال عمار أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم . فقال رجل من بنى مخزوم لقد عدوت طورك يا بن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها . فقال سعد بن أبى وقاص يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس . فقال عبد الرحمن إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا علياً وقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده . فقال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى . قال نعم . فبايعه فقال على

حبوته حبو دهر ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو فى شأن . فقال عبد الرحمن يا على لا تجعل على نفسك سبيلا فإنى قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج على وهو يقول . سيبلغ الكتاب أجله . فقال عمار يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون . فقال يا عمار والله لقد اجتهدت للمسلمين . قال إن كنت أردت بذلك الله فأثابك الله ثواب المحسنين . وقال المقداد ما رأيت مثل ما أوتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم ، إنى لأعجب لقريش أنهم تركوا رجلا ما أقول إن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل ، أما والله لو أجد أعوانا .

فقال عبد الرحمن يا مقداد اتق الله فإنى خائف عليك الفتنة . فقال رجل للمقداد . رحمك الله من أهل هذا البيت ومن هذا الرجل . قال أهل البيت بنو عبد المطلب والرجل على بن أبى طالب . فقال على إن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها (وفى نسخة تنظر فى صلاح شأنها) فتقول إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً وما كانت فى غيرهم من قريش تداولتموها بينكم وقدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه لعثمان . فقيل له بايع عثمان . فقال أكل قريش راض به قيل نعم فأتى عثمان فقال له عثمان أنت على رأس أمرك إن أبيت رددتها . قال أتردها . قال نعم . قال أكل الناس بايعوك . قال نعم . قال قد رضيت لا أرغب عما قد اجتمعوا عليه . وبايعه .

وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن يا أبا محمد قد أصبت إن بايعت عثمان وقال لعثمان لو بايع عبد الرحمن غيرك مارضينا ، فقال عبد الرحمن . كذبت يا أعور لو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة .

وكان المسور بن مخرمة يقول . ما رأيت رجلا بذ [١] قوماً فيما دخلوا فيه بأشد مما بذهم عبد الرحمن بن عوف .

هذا ما رواه الطبرى فى تاريخه عن خبر الشورى وقد أورد بعد هذه الرواية رواية أخرى لا تخرج عن معنى ما تقدم فى الرواية الأولى ، إلا أنه أورد فيها ما دار من الخطب بين أهل الشورى مما لم نر حاجة لإيراده خوف التطويل ، وزاد فيها أن عبد الرحمن بن عوف لما بايع عثمان ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر ، فقعد عبد الرحمن مقعد النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه ، وتلكأ على فقال عبد الرحمن (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) فرجع علىّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول . خدعة وأيما خدعة . قال وإنما سبب قول على خدعة ، أن عمر بن العاص كان قد لقى علياً فى ليالى الشورى فقال إن عبد الرحمن رجل مجتهد وإنه متى أعطيته العزيمة [٢] ، كان أزهد له فيك ولكن الجهد والطاقة فإنه أرغب له فيك . قال : ثم لقى عثمان فقال إن عبد الرحمن رجل مجتهد وليس والله يبايعك إلا بالعزيمة فأقبل : قال فلذلك قال على . خدعة :

واختلفوا فى اليوم الذى بويع فيه عثمان ، ففى رواية للطبرى أنه بويع يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤، وفى رواية أخرى له أيضاً أن عثمان استخلف لثلاث مضين من المحرم سنة ٢٤ فخرج فصلى بالناس العصر، ولعله الأصح .

---

(١) أى غلبهم

(٢) أى متى أسرعت بالتسليم لما يشترطه عليك .

هل هناك تحامل على على :

هذا ما أورده الطبرى من قصة الشورى وأنت ترى من ظاهر هذه القصة أن القوم ربما تحاملوا على علىّ رضى الله عنه بصرف الخلافة عنه إلى عثمان رضى الله عنه ، والذى أعتقده أن قريشا وإن كانت لا تريد استخلاف علىّ لأسباب سيأتى بيانها إلا أن الخلافة من أبى بكر إلى عثمان ثم على ترتيب طبيعى أتى بحكم الحاجة وعلى وفق المعروف يومئذ للمسلمين ، والثابت عندهم من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم التى تشير إلى مثل هذا الترتيب [١] ، فى المقام والدرجة التى وضع كلا منهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى نفسه يعرف ذلك ويعترف به فقد أخرج الحافظ بن عساكر فى تاريخه من طرق شتى عن عمر بن حريث وعن شريح القاضى أنهما سمعا على بن أبى طالب يقول (ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر . ثم عثمان) وأخرج هذا الحديث الإمام أحمد وقال الذهبى إنه متواتر ، كما أن أخلاق الأربعة واستعدادهم وأعمارهم أهلت كل فرد منهم

---

(١) منها قوله صلى الله عليه وسلم (أرحم أمتى بأمتى أبو بكر . وأشدهم فى أمر الله عمر . وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم على الخ . أخرجه أبو يعلى عن ابن عمر ورواه أحمد والترمذى عن أنس ، لكن ليس فيه على ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم انطلق حتى تأتى أبا بكر فتجده فى داره جالسا محتبيا فقل له إن النبى يقرأ عليك السلام ويقول أبشر بالجنة وانطلق إلى عمر ... وانطلق إلى عثمان ... الحديث ، أخرجه ابن عساكر فى تاريخه .

ومنها ما رواه البخارى عن ابن عمر قال : كنا نخير بين الناس زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عثمان وزاد الطبرانى فى الكبير فيعلم بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا ينكره ، ومثله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر قال كنا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فضل أبا بكر وعمر وعثمان وعليا . وقد ورد كثير من مثل هذه الأحاديث ولاسيما ما يشير منها إلى ما يحصل لعثمان وعلى وما يكون من الفتنه فى عصرهم وكلها تشير إلى هذا الترتيب فلتراجع فى مظانها من كتب الحديث

الخلافة فى العصر الذى استخلف فيه ليس باعتبار أن كل واحد أفضل من الآخر أو آهل منه ، كلا بل إن لكل واحد منهم خصالا فاضلة تجعله أهلا لذلك المنصب ، لكن فى الوقت الذى أسند فيه إليه ، فأبو بكر لما كان رجلا مسناً طويل الأناة رءوف القلب وله فى النفوس هيبة الصحبة القديمة واحترام الشيخوخة كان مصير الخلافة إليه والإسلام غضاً طرياً والإيمان لم يأخذ مكانته من قلوب الأمة العربية ، والأعداء كثيرون يتربصون بالمسلمين الشر من قبيل وضع الشيء فى محله ، وملافاة المرض بطبيبه يدلك عليه قول ابن مسعود الذى مر معنا فى أخبار الردة (لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبى بكر الخ) وابن مسعود إنما قال ما قال وهو الثقة الخبير عن مشاهدة وعيان وتقدير لعمل أبى بكر رضى الله عنه يومئذ ، وحسب العاقل أن ينظر فى سيرة أبى بكر وأخباره مع أهل الردة وتأنيه فى مثل تلك الخطوب التى استقبلها بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم المسلمون فيعلم أن كلام ابن مسعود حق لا ريب فيه تؤيده سيرة أبى بكر رضى الله عنه .

استخضع أبو بكر أولئك الخارجين بالحرب ، واستسلس بعد ذلك قياد زعمائهم بالإحسان إليهم والصفح عن مسيئهم ، وألان جانبه للمسلمين فأطاعوه وأحبوه فرمى بهم جيوش الفرس والروم ، ولما تمهد لهم طريق الفتح ، وفتح أمامهم باب مستقبل سعيد تولد فى النفوس من الآمال ومر عليها من الخواطر ما أزعجها عن مطمئن الراحة ، ونفث فيها روح الكبرياء والتنافس هذا مع اتساع دائرة الإسلام وكثرة الداخلين فيه من جفاة الأعراب فاحتيج إلى رجل شديد مهاب بعيد عن نزق الشباب وضعف الشيوخ يلين تارة من غير ضعف ، ويشتد أخرى من غير عنف ، وكان عمر بن الخطاب معروفا بالشدة والإرهاب حائزاً لهذه الشروط ، فعهد إليه أبو بكر بالخلافة وهى له بطبيعة الحال وحكم الحاجة ولو لم يعهد إليه بها أبو بكر ، والذى يراجع ما كتبناه

من سيرته يعلم ذلك ويرى كيف كانت الأمة والزمان والمكان فى حاجة إلى مثله تسوق الخلافة إليه سوقاً ، ثم كان عمر شديداً بطبعه ميالا إلى التقشف والقصد ، وقد أخذ على شكائم النفوس أخذاً ضيق فى وجوه القوم مذاهب التبسط فى العيش والتطلع إلى كل رغائب النفوس مع إقبال الدنيا عليهم ، ومصير ذلك الملك العريض إليهم احتاجوا بعده إلى سائس يبسط إليهم كف العطاء . ويلين لهم جانب العقوبة ويطلق يدهم فى جنى ثمرات النصب فى ذلك الفتح . وينشر عليهم جناح الرأفة . وكان المترشحون للخلافة من الستة هما عثمان وعلى وعثمان معروف لديهم بلين الجانب وكرم اليد وأناة الشيخوخة ، كما كان على معروفا بالشدة وحب القصد كعمر بن الخطاب اتجهت رغائبهم إلى استخلاف عثمان فاستخلف بطبيعة الحال وحكم الحاجة أيضا ، لهذا رأينا كل من استشاره عبد الرحمن بن عوف من المسلمين يومئذ فيمن يوليه أشار عليه بعثمان . فعبد الرحمن بن عوف وغيره من الذين أشاروا باستخلاف عثمان سيقوا إلى هذا بسائقة الحاجة والرغائب ومحض الاعتقاد بأهلية عثمان يدلك عليه ما رواه ، ابن سعد وابن عساكر والحاكم عن ابن مسعود أنه قال لما بويع عثمان (أمرنا خير من بقى ولم نأل) فإذا كان هذا مبلغ اعتقادهم بعثمان رضى الله عنه ، وهذه شهادة ابن مسعود له مع أنه ممن ضربهم عثمان ونقم منه فيمن نقم ، لأجل هذا فليس هناك شىء من التحامل كما يتبادر إلى ذهن القارىء من قصة الشورى . وما روى فى تلك القصة عن حكاية عمرو بن العاص وخدعته فهو إذا صح وما إخاله صحيحا فإنما هو بمحض رأى عمرو ، لا يد لعبد الرحمن رضى الله عنه فيه ، وعمرو سيق إلى هذه الرغيبة كما سبق إليها غيره من المهاجرين والأنصار ، لاسيما وأنه لاقى من شدة عمر بن الخطاب ما كان أقله مصادرته فى ماله ، كما رأيت فى سيرته فيما مضى فهو بالضرورة يميل إلى عثمان لسهولته أكثر من ميله لعلى لشدته .

وهكذا يقال أيضاً عن على فى خلافته وأنه استخلف فى الوقت الذى

كادت تخرج فيه الأمة عن سبيل القصد وتمعن فى طرق الاستمتاع ، وتفلت بل وأفلتت فيه من قيد الرهبة الذى قيدها به ابن الخطاب فلم يك وقتئذ أمثل للخلافة وأكبح لجماح النفوس من استخلاف على رضى الله عنه لما عرف به من الشدة والورع وحب القصد مع بلوغه السن الذى يؤهله لهذا المنصب الرفيع.

وقد ذهب بعضهم إلى أن علياً ضعيف الرأى ، لهذا غلبه على الخلافة الثلاثة الذين سبقوه بها وربما احتجوا بقول عمه العباس رضى الله عنه له (لم أدفعك فى شىء إلا استأخرت إلى بما أكره) إلى آخر الخبر الذى مر فى قصة الشورى ، واحتجاجهم بمثل هذا وهم وتسرع فى الحكم لا نصيب له من التأمل فيما اكتنف عليا رضى الله عنه من الأحوال والبواعث التى بسطناها للقارىء ، وإنما كان هذا الترتيب فى الخلافة أشبه بالانتخاب الطبيعى كما رأيت ، فماذا ينفع فيه الرأى والحيلة لاسيما وأن علياً رضى الله عنه كان كما قلنا فيما سبق من هذا الكتاب شديد الاستمساك بالفضيلة ، لا ينزع إلى خدع السياسة وليس هذا وايم الحق بعيب يعاب به مثل على ، وقد نشأ على التقوى والفضيلة فهو معذور إذا لم يلجأ إلى الحيلة فى بعض الأحيان أنصفه القوم أو لم ينصفوه .

وجملة القول إن ماروى من الصحابة من صرف الخلافة عن على أو التنحى عن نصرة بنى هاشم فى كثير من الأحوال وإن كان فيه شىء من الخوف من سيادة بنى هاشم الدنيوية فوق سيادتهم الدينية ، ثم استئثارهم إذا صارت الخلافة إليهم بهذا المنصب الرفيع كما أشار إلى هذا على فى خبر الشورى ، وأشياء أخرى سنأتى على ذكرها فى غير هذا المحل، إلا أنهم كانوا مسوقين إلى ذلك أيضا بأحكام الضرورة ودواعى الزمان والمكان ومراعاة رغائب الجمهور فى بعض الأحيان ، وهذا ما أراه موافقاً للحقيقة فى هذه المسألة والله أعلم بما وراء ذلك .

أول أعماله فى خلافته

لما بويع عثمان رضى الله عنه خطب الناس خطبة غراء فى الوعظ ستأتى فى باب خطبه ، وقيل أرتج عليه لما أراد أن يخطب فقال : أيها الناس إن أول مركب صعب وإن بعد اليوم أياماً وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله : (أخرجه ابن سعد) . قالوا وزاد فى الأعطيات مائة مائة ووفد أهل الأمصار : قال الطبرى وهو أول من فعل ذلك وكان عبيدالله بن عمر لم يزل محبوساً عند سعد بن أبى وقاص منذ أخذه بعد قتله الهرمزان وجفينة ، فلما تمت البيعة لعثمان جلس فى جانب المسجد ودعا بعبيدالله وقال لجماعة من المهاجرين والأنصار . أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الإسلام مافتق . فقال على أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم : وإنما أشار على بقتله لأنه ثبت يومئذ أن الهرمزان لما ضربه عبدالله بالسيف قال لاإله إلاالله، كما أنه لم يثبت اشتراكه مع أبى لؤلؤة فى جريمته ، إلا بماشهد به عبد الرحمن بن أبى بكر من رؤيته ليلة الحادثة مع أبى لؤلؤة ، وفى يدهذا خنجر سقط منه لما رهقهما عبد الرحمن . وكان على شديداً فى الحق فأشار بقتله ، وأشار غيره بعدم قتله ، والأمر كما لا يخفى على الناقد يوجب الحيرة والموقف حرج يحتاج إلى أناة وكان ممن حضر يومئذ عمرو بن العاص فقال : ياأمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان إنما كان هذا الحدث ولاسلطان لك . قال عثمان أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى ، وانتهى الإشكال .

هكذا رواها الطبرى قال وكان رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد البياضى إذا رأى عبيد الله بن عمر قال :

ألا يا عبيد الله مالك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر

أصبت دماً والله فى غير حله   حراماً وقتل الهرمزان له خطر

فى أبيات . فشكا عبيد الله إلى عثمان، فدعا زياد بن لبيد فنهاه ، فأنشأ زياد يقول فى عثمان أبياتا منها :

أبا عمرو عبيـــد الله رهن   فلا تشكك بقتل الهرمزان

وفى رواية أخرى للطبرى ، عن القماذبان بن الهرمزان أن عثمان دعاه فأمكنه من عبيد الله قاتل أبيه ليقتله فرجاه المسلمون بالعفو عنه فعفى عنه ، وفى هذا الخبر نظر لأنه لو صح لما بقى على بن أبى طالب مصراً على قتل عبيد الله حتى خلافته ، حيث دعا ذلك عبيد الله إلى الفرار والانحياز إلى معاوية بن أبى سفيان .

ومن أحسن أعمال عثمان رضى الله عنه التى عملها عند استخلافه كتبه التى كتبها إلى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس ، فقد كتب إلى كل فريق من هؤلاء كتاباً بلغ الغاية فى النصح والإرشاد ، وحمل العمال على طريق العدل وحثهم على القيام على أخذ الحق من وجهه ، وصرفه فى وجهه ، والمساواة بين الناس مسلمهم ومعاهدهم ، كما سترى ذلك فى باب كتبه إن شاء الله .

وكان عمر بن الخطاب قال قبل وفاته (أوصى الخليفة من بعدى أن يستعمل سعد بن أبى وقاص فإنى لم أعزله عن خيانة) ففى رواية أن أول عامل بعثه عثمان سعد بن أبى وقاص على الكوفة وعزل المغيرة بن شعبة والمغيرة يومئذ بالمدينة فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى : قال الطبرى وأما الواقدى فقد قال إن أسامة بن زيد بن أسلم حدثه عن أبيه أن عمر أوصى أن يقر عماله سنة ، فلما ولى عثمان أقر المغيرة بن شعبة على الكوفة ثم عزله ، واستعمل سعد بن أبى وقاص ثم عزله ، واستعمل الوليد بن عقبة فإن صح ما رواه الواقدى من ذلك فولاية سعد الكوفة من قبل عثمان كانت سنة ٢٥

فتوحاته

فتح أرمينيا والقوقاز وجغرافيتهما :

تحد أرمينيا من جهة الشمال بالبحر الأسود وكرجستان ، ومن الشرق بكرجستان أيضا وجزء من بلاد فارس ، ومن الجنوب بكردستان والجزيرة ، ومن الغرب بآسيا الصغرى . هذه حدود أرمينيا الآن إلا أن العرب كانوا يتوسعون بهذا الاسم فربما أدخلوا فى أرمينيا قسما من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو أران المشتمل على مقاطعتى إيروان وتفليس ، وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران وهو يمتد شمالا إلى داغستان . وشرقا إلى آزربيجان وبحر الخزر ، وأما من جهة الجنوب فقد كانوا يدخلون فيها قسما من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من أرمينيا الرابعة التى يجعلون نهاية حدها الجنوبى الجزيرة ، لهذا لم يذكر مؤرخوهم من المتقدمين فتح القوقاز على حدة بل جعلوه مضموماً إلى فتح أرمينيا . ولكى يكون القارىء على بينة من الأماكن التى ورد ذكرها فى فتح هذه البلاد فى كتب المؤرخين ويفرق بين ما هو تابع منها لأرمينيا وما هو تابع للقوقاز ، رأيت من اللازم التوسع فى جغرافية هذين القطرين، وقبل أن أبسط جغرافية القوقاز أذكر هنا بعض الأماكن الشهيرة فى أرمينيا زيادة فى الإيضاح .

فمن مدن أرمينيا الشهيرة خلاط وقاليقلا وأرزروم أو أرزن الروم (ويقول أبو الفداء إنها نفس قاليقلا) وإلى جهة الغرب منها أرزنجان ثم أرجيش على بحيرة وان ووان المنسوبة إليها هذه البحيرة وهى فى الطرف الشرقى منها وفى الجهة الشرقية من سلسلة جبال أرمينيا جبل الجودى أو أراراط الذى رست عليه سفينة نوح . ومن أنهرها الفراة وأراس المعروف عند العرب بنهر الرس وينحدر من الجبال قرب أرزروم ، ويمر بين مقاطعتى القارص وأرزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقى مع نهر كور الآتى من أعالى القارص ويصبان فى بحر الخزر .

وأما القوقاز فيحدها شمالا الروسيا ، وجنوبا العجم ، وتركية أسيا وشرقاً بحر الخزر الذى يفصلها عن بقيـة آسيا الروسية ، وغربا البحر الأسود ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق ، وربمـا دعوها باسم بلاد الران (أران) من قبيل تسمية الكل باسم الجزء . فمن أقسام هـذه البلاد الجنوبية أيبريا أو كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور ، وهى جزء من بلاد شروان الممتدة شمالا إلى داغستان ، ويظهر من سياق خبر الفتح فى تاريخ البلاذرى أن العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان ، وأنه يمتـد غربا إلى آسيا الصغرى . ومن مدن الران الشهيرة إيروان وفيها كنيسة كبرى للأرمن ، ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان وبردعة والباب أو باب الأبواب[1] والبيلقان : قال الأصطخرى : ليس فى أران مدينة أكبر من بردعة والباب وتفليس ، ومن أقسامه الشمالية بلاد الجركس فى الجهة الشمالية من جبل قوقاز ويجرى فيها نهر قوبان الذى يصب فى البحر الأسود ونهر كوما وترك (ته رك) اللذان يصبان فى بحر الخزر : ومن أقسامه داغستان على بحر الخزر ، وفيها يجرى نهر سمور فى السهول الواقعة شمال داغستان . ومن مدنها الشهيرة باكو التى فيها منابع النفط ، ولعلها التى يسميها القرمانى فى جغرافية بالوية . ودربند على شاطىء بحر الخزر وهى ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذى اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى بجيشه إلى السهول الشمالية ، حيث قتل على نهر ترك الذى يسميه العرب نهر بلنجر كما سيأتى الكلام على ذلك .

وأما فتح أرمينيا والقوقاز فقـد اضطربت الروايات فى فتحهما لتعدد

---

(١) قال القرمانى فى تاريخه ما خلاصته إن باب الأبواب على شاطىء بحر الخزر وإن سبب هذه التسمية أن كسرى أنو شروان لما بناها جعلها على سور فى البحر يمتـد مسافة شاسعة ، وجعل له أبواباً أسكن فى كل باب قوماً يمنعون سكان البلاد المتصلة بالجبل من الهجوم على بلاده .

الغزوات التى غزاها المسلمون لهذه البلاد فى خلافة عمر وعثمان رضى الله عنهما ، فبعضها يقول إن الفتح الأول لهذه البلاد كان سنة ١٨ على يد بكير ابن عبدالله ، وعبدالرحمن بن ربيعة الباهلى وحذيفة بن اليمان من جهة الشرق، وحبيب بن مسلمة الفهرى من جهة الغرب ، وإن عبد الرحمن قتل يومئذ فى بلنجر وفى بعضها أن عبد الرحمن قتل ثمة سنة ٣٠ ھ فى خلافة عثمان ، وفى بعضها أن الذى قتل فى البنجر أخوه سلمان وذلك سنة ٢٦ وبعضها لا يقول بقتل سلمان بل ببلوغه مدينة الباب فقط فى غزوته الثانية ، والذى يؤخذ من مجموع الروايات التى جاءت فى فتح أرمينيا أن عبد الرحمن وأخاه سلمان قتلا فى بلاد الترك أو الخزر على نهر ترك الذى يسميه العرب نهر بلنجر، وقد ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب فى ترجمة كل من عبد الرحمن وسلمان وجاراه على ذلك ابن الأثير فى أسد الغابة إلا أنهما لم يحققا السنة التى قتل فيها سلمان بل قالا قيل إنه قتل سنة ٢٦ وقيل إنه قتل سنة ٢٨ وقيل سنة ٣٠ ، وقالا إن أخاه عبد الرحمن قتل لثمان سنين مضين من خلافة عثمان. والاختلاف فى زمن قتل سلمان وعبد الرحمن اختلاف بالضرورة فى زمن الفتح أيضاً .

والظاهر أن الاضطراب فى هذه الروايات عند مؤرخينا أدخل الغلط فى سرد أخبار هذا الفتح على مؤرخى الإفرنج أيضاً ، فقد ذكر ديفرجى أن عبدالرحمن غزا أرمينيا قبل قتل يزدجرد بمدة ولم يعين تاريخ دخوله أرمينيا، ثم نقل عن أحد مؤرخيهم وهو المسيو سان مرتان خبر دخول سلمان وحبيب وفتحهما البلاد فى خلافة عثمان (سنة ٦٣٩ م) أى سنة (١٨ ھ) مع أن الخليفة فى هذا التاريخ كان عمر بن الخطاب وأن سلمان قتل فى بلنجر فى هذه الغزوات وجلا العرب عن أرمينيا بعد قتله ثم قال : لكن العرب عادوا إليها بقوة عظيمة سنة (٦٤٦ م) (٢٦ھ) وأكرهوا أمراء البلاد على دفع الجزية .

ويؤخذ من هذا أن ديفرجى وهم بالتاريخ فوضع الحرب الثانية فى

مكان الأولى إذ لا خلاف بين المؤرخين فى أن العرب دوخوا أرمينيا مرتين، الأولى على عهد عمر والثانية على عهد عثمان ، وقد أيد هذا تواريخ الأرمن أيضاً ، وأشار إليه القس جبرائل الخانجى فى مختصر تاريخ الأرمن وإن لم يذكر أسماء الفاتحين من العرب فى الحرب الأولى والثانية ولم يعين تاريخهما بالضبط ولا عبرة بخطأ ديفرجى بالتاريخ ، إذ الثابت عنده وعند مؤرخينا أن الحرب وقعت على عهد عمر مرة وعلى عهد عثمان مرة وكانت الأولى سنة (١٨ هـ) والثانية (سنة ٢٦ هـ) وإنما تشابه الوقائع وسلوك الفاتحين طريقاً واحداً فى الفتح الأول والثانى أدخل هذا الوهم على مؤرخى الإفرنج ، لذا رأيت أن أمحص هذه الروايات وأسوق الخبر ملخصاً عن مؤرخينا وما ورد فى تاريخ ديفرجى ومختصر تاريخ الأرمن على وجه لا يضطرب فيه الذهن فأقول :

قد كان بكير بن عبدالله وعتبة بن فرقد فتحا فى خلافة عمر رضى الله عنه بلاد آزربجان الواقعة إلى الشرق من أرمينيا ، ولما كتب بكير إلى عمر بالفتح كتب عمر إلى سراقة بن عمرو بغزو الباب وجعله على حربها أى أميراً للحرب وجعل عمر على مقدمة سراقة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ، وعلى إحدى مجنبتيه (جناحيه) ابن أسيد الغفارى ، وعلى الأخرى بكير بن عبدالله المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة ، وكتب إلى حبيب بن مسلمة الفهرى أن يمد سراقة وهو يومئذ بالجزيرة ،ونهض سراقة على هذا الترتيب من البصرة ، ولما سارت هذه الجيوش تقدم عبد الرحمن بن ربيعة إلى أرمينيا الشرقية وأخذ يفتح البلاد حتى بلغ الباب على شطوط بحر الخزر والملك عليها يومئذ شهريار فكاتبه شهريار واستأمنه ، ولما فرغ سراقة من الباب بعث الأمراء والقواد إلى ما يليه من بلاد أرمينيا فأرسل بكير بن عبد الله إلى موقان وحبيب بن مسلمة الفهرى إلى تفليس عاصمة كرجستان وحذيفة بن اليمان إلى جبال اللان (القوقاز) فاشتبكت جنوده فى أطراف أرمينيا مع الأمير أوهان بن كامساراكان وأخيه ديران فقتلا وتشتت جندهما وذلك بخيانة أحد قواد

الأرمن المسمى ساحور الذى خان أوهان وانضم بجيشه إلى العرب كما يقول ديفرجي وصاحب مختصر تاريخ الأرمن .

وأما حبيب بن مسلمة الفهرى فقد قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له تيودور أحد أمراء البلاد، وكانت يومئذ منقسمة على بعضها ، واجتهد فى أن يضم كل أمراء أرمينيا تحت راية واحدة لقتال المسلمين فلم يفلح، مع أنه كان يساعده على هذا القصد البطريرك استراس الذى يئس من نجاح مسعاه فمات كمداً، وبينما كان الأرمن يشتغلون فى إقامة بطريرك غيره ، إذ فاجأهم جند الإسلام بقيادة حبيب بن مسلمة الفهرى ووضعوا الحصار على مدينة دوفان[1] التى هى مقر البطريرك. ويقول ديفرجي إن الحصار بدأ فى نوفمبر سنة (٦٣٩ م) وهو يوافق ذا القعدة (سنة ١٨ هـ) واستمر إلى اليوم السادس من يناير من السنة التالية وهو يوافق يوم ٥ محرم من سنة (١٩ هـ) حيث فتحها حبيب ، ثم أخذ بإتمام فتح أرمينيا وكرجستان ففتح ، وأن ونخشوان وسيس على الضفة الثانية من نهر الرس ويسميه الجغرافيون (أراس وأراكس) ومنها سار إلى أرمينية الغربية ، ثم عطف على أيبريا التى هى جزء من شروان وكرجستان الحالية ، وأخذ عاصمتها تفليس والمدن الأخرى الكبرى ، وفى أثناء ذلك مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقرة عمر رضى الله عنه على فرج الباب وأمره بغزو الترك فسار شمالا واستخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شطوط بحر الخزر ، وكان سكانها من الجهالة والتوحش على جانب عظيم ، وأمعن عبد الرحمن فى البلاد حتى بلغ دربند واجتاز مضيقها إلى السهول الشمالية وبلغت خيله على مائتى فرسخ من بلنجر ، ثم عاد إلى الباب ولم يزل يردد الغزو فيهم حتى قتل فى إحدى غزاته على نهر ترك (ته رك) الذى يسميه العرب نهر بلنجر قتله خاقان ملك الخزر . واخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق

---

(١) وفى مختصر تاريخ الأرمن : تفين

جيلان شمالى أرزنجان وبعضهم سلك طريق الباب إلى أرمينيا ، وهنا نقطة الخلاف بين المؤرخين هل قتل عبد الرحمن فى خلافة عمر أو فى خلافة عثمان أم قتل هو فى خلافة عمر وأخوه فى خلافة عثمان ، فإذا سلمنا بما رواه الطبرى من أن عثمان كان أمد عبد الرحمن بأخيه سلمان وأن الفارين من جند عبدالرحمن التقوا بسلمان فى الطريق فنجاهم الله ، فتكون وفاة عبدالرحمن فى خلافة عثمان ولا عبرة بتعيين السنة التى قتل فيها بل العبرة فى الفتح وهل حصل فى زمنه أم لا ، ومما لا خلاف فيه أن عبد الرحمن بلغ فى فتوحه شمال القوقاز من جهة بحر الخزر كما بلغه حبيب من جهة البحر الأسود فى خلافة عمر بن الخطاب ، أى ما بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ هـ إلا أن ذلك الفتح كان فتحاً هيناً على الجزية ، ثم تراجع الأمراء الذين فرقهم سراقة بن عمرو للفتح ، كما نقل ذلك ابن خلدون فى كلامه على فتح جبال أرمينيا إلا عبدالرحمن ابن ربيعة فقد بقى فى بلاد الخزر ، ومما يؤيد أن هذا الفتح لم يكن فتحاً تثبت فيه البلاد على طاعة الخليفة ما نقله ابن خلدون أيضاً ، من أن سراقة كتب إلى عمر بخبر الأمراء وتوجيههم إلى فتح تلك البلاد : فلم يرج عمر تمام ذلك لأنه فرج عظيم : أى أن عمر لم يكن على ثقة من إمكان فتح تلك البلاد وتملكها ، لاتساع فروجها أى ثغورها وتنائى أطرافها التى تحتاج إلى كثير من الجند المرابط ، ولعله صدق حذره حتى قال ديفرجى إن المسلمين اضطروا عقب ظفر الخزر على نهر ترك إلى الجلاء عن كل أرمينيا وعادوا إليها بقوة أعظم سنة (٦٤٦ م) أى سنة (٣٦ هـ) وهى السنة التى وجه فيها عثمان رضى الله عنه حبيباً وسلمان إلى استرداد البلاد وفتح أرمينيا والقوقاز ففتحاها وكان الفتح الأول فى الحقيقة تمهيداً للفتح الثانى الذى صارت به البلاد تابعة إلى اليوم للدول الإسلامية ، ولم تنتقض إلا فى فترات قليلة ، ثم استتب فيها الأمر للمسلمين، وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الأرمن إلى تسليم الأرمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد ولاية سنباط بن فارازديزوس من قبل إمبراطور القسطنطينية،

إذا كان الأرمن طلبوا والياً من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التى كانت متسلطة عليهم ، وزالت سلطتها منذ بدأت حروبها مع العرب فولى الإمبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مقدار سنة ومات وأخلفه ابنه سنباط .

وإليك بيان ماذكره المؤرخون عن سبب إرسال عثمان رضى الله عنه لحبيب وسلمان إلى أرمينيا وكيفية فتحهما للبلاد وذلك سنة (٢٦ هـ) ولا عبرة بما يوجد فى سياق خبر الفتح الثانى من الشبه بسياق الخبر الأول ، فإن حبيباً وسلمان سلكا على ماأرى فى هذا الفتح عين الطريق الذى سلكاه فى الفتح الماضى ، أى أن سلمان أخذ إلى القوقاز من شرق أرمينيا وحبيباً أخذ إليها من قلب أرمينيا وغربها .

وقد أشار ديفرجى فى كلامه على فتح أرمينيا إلى أن العرب لما عادوا إلى فتحها فى المرة الثانية سنة (٦٤٦ م) (٢٦ هـ) انتهوا إلى أراراط من الولايات المتحدة التى دخلوا إليها أول مرة .

انتقضت أرمينيا وأزربيجان أيضاً بعد الفتح الذى كان فى خلافة عمر رضى الله عنه ، إما لقلة الجنود المرابطة فى البلاد ودخول الوهن على نفوسهم بعد قتل عبد الرحمن بن ربيعة ثم تنحيهم إلى الأطراف والثغور التى من جهة فارس والجزيرة . وإما لأن الأمراء الذين فتحوا البلاد يومئذ اكتفوا من السكان بالجزية ثم تراجعوا إلى الثغور كما تقدم ذكره ، لثقتهم بضعف أمراء البلاد عن النهوض إلى الثورة والخروج عن الطاعة . أو لعدم كفاية الجند الذين معهم للمحافظة على البلاد وبسط جناح السلطة على تلك الأرجاء السحيقة عن مقر الخلافة البعيدة عن مستودع القوة والأمداد كالبصرة والكوفة والشام ، فلما استخلف عثمان رضى الله عنه وعزل عتبة بن فرقد عن أزربيجان بلغه أن البلاد

انتقضت فاستغزى الوليد بن عقبه والى الكوفة فغزاها فصالحه أهل كور آزربيجان على صلح حذيفة بن اليمان ، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلى إلى أرمينيا فى اثنى عشر ألفاً فسار إليها وأثخن، ثم انصرف إلى الوليد وعاد الوليد إلى الكوفة وجعل طريقه على الموصل ، فلقيه كتاب عثمان إن الروم أجلبوا على معاوية بالشام ، فابعث إليهم رجلا من أهل النجدة والبأس فى عشرة آلاف فخطب الوليد فى الجند واستحثهم على نصرة أهل الشام فانتدب منهم ثمانية آلاف ، فسار بهم إلى الشام ثم دخلوا بلاد الروم مع حبيب بن مسلمة الفهرى فشنوا الغارات واستفتحوا الحصون .

المعروف أن مؤرخينا إذا ذكروا بلاد الروم إنما يعنون بها آسيا الصغرى ، التى كانت يومئذ تابعة لإمبراطورية القسطنطينية وكل ما هو تابع لها من الجزر أيضاً ، وربما أطلقوها أحيانا على كل البلاد التى تلى الثغور الشامية والجزرية ، وهى أرمينيا والأناضول فإذا اعتبرنا هذا الإطلاق فى هذه الرواية فيكون فتح أرمينيا على عهد ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة ، وإلا فيكون مسير هذه الجنود إلى بلاد الروم لصد هجمة أرادها الإمبراطور قسطنطين على سورية أو لإمداد أهل أرمينية على حبيب بن مسلمة الفهرى ، كما ترى فى الرواية الآتية التى هى أصح الروايات الواردة فى أخبار فتح أرمينيا فى خلافة عثمان وهى :

لما استخلف عثمان رضى الله عنه كتب إلى معاوية بولايته على الشام ، وولى عمير بن سعد الأنصارى الجزيرة ثم عزله ، وجمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها ، وأمره أن يغزو شمشاط وهى أرمينيا الرابعة أو يغزيها ، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهرى فتحها مع عياض بن غنم فى خلافة عمر ثم أقفلت . وكان لحبيب رضى الله عنه أثر جميل فى فتوح الشام والجزيرة وأرمينيا فوجهه معاوية فى ستة آلاف مقاتل إلى فتح أرمينيا ، وقيل بل

كتب إليه عثمان يأمره بذلك فنهض إليها حتى أناخ على قاليقلا سنة ٢٦ ﻫ)
فخرج إليه أهلها فقاتلهم حتى ألجأهم إلى المدينة فطلبوا الصلح على الأمان
أو الجزية فأجابهم إلى ذلك ، فجلا منهم من جلا وأقام من أقام .

وقولهم إن حبيبا نهض إلى قاليقلا يدل على أن مايليها من البلاد إلى
الجزيرة لم يخرج يومئذ عن الطاعة ، إذ أن المؤرخين لم يذكروا لحبيب قتالا
مع أحد فيما دون قاليقلا . ولما فتح حبيب قاليقلا أقام عليها أشهراً فبلغه
أن بطريق أرمنياقس واسمه الموريان قد جمع له جموعاً عظيمة ، وانضمت
إليه أمداد أهل اللان وأفخاز وسمندر من الخزر . وقال ابن الأثير إن
أرمنياقس هى بلاد ملطية وسيواس واقصرا وقونيه وما والاها من البلاد
إلى خليج القسطنطينية ، وهذه الزيادة لم يذكرها البلاذرى ولا غيره من
المتقدمين فى سياق هذا الخبر ، وإنما ذكرها ابن الأثير من عنده وهى خطأ
على ماأرى إذ ليست الولايات التى ذكرها ابن الأثير من أرمينيا ، بل هى
من ولايات آسيا الصغرى التابعة لإمبراطورية القسطنطينية ، وإنما كانت
سيواس قديما تعتبر من أرمينيا ثم انضمت إلى الإمبراطورية الشرقية ، فأما
أن يكون الموريان يومئذ بطريقاً على أرمينيا الغربية فسموه والى أرمينياقس ،
وهو الذى أجلب عليهم بجموع من بلاد الخزر والقوقاس وأرمينيا الغربية
ولا دخل فى هذه التسمية لقونيه واقصره وغيرها من ولايات الإمبراطورية
الشرقية الشرقية ، وأما أنه كان والياً على سيواس التى هى أرمينيا الإمبراطورية
وأجلب عليهم بجيوش رومية من هذه الولايات الآسيوية من قبل إمبراطور
القسطنطينية وعندى أن الأول أرجح .

لما انتهى إلى حبيب هذا الخبر كتب إلى عثمان رضى الله عنه يسأله المدد
فكتب إلى معاوية أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن
يرغب فى الجهاد فبعث إليه معاوية ألفى رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم بها
القطائع وجعلهم مرابطة بها ، وكتب أمير المؤمنين عثمان إلى سعيد بن العاص

أيضاً وهو عامله على الكوفة بعد الوليد يأمره بإمداده بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلى وهو سلمان الخير، وكان غزاء فاضلا خيراً فسار سلمان بستة آلاف من أهل الكوفة ، وقد أقبلت الروم ومن معها ، فنزلوا على الفرات ، وقد أبطأ على حبيب المدد ورأى حبيب أن يبيتهم ليلا فأمر جنوده فبيتوهم فاجتاحوهم وقتلوا قائدهم .

ومما يؤثر عن شجاعة النساء المسلمات وقوة جأشهن ومشاركتهن للرجال بشدائد الحروب يومئذ أن أم عبد الله الكلبية امرأة حبيب قالت ليلتئذ له : أين موعدك : قال سرادق الطاغية (يعنى الموريان) أو الجنة : فلما انتهى إلى السرادق وجدها عنده .

وحق لنساء مثل هذه المرأة الفاضلة التى تسابق الرجل إلى الشرف أو الموت أن يربين رجالا عظاما وأبطالا كراماً مثل أولئك الرجال الذين فتحوا تلك الممالك الواسعة وسادوا على الأمم الكثيرة . وما أقبح بالمرأة أن تفرط بالرفاهة وتستسلم لعوامل الضعف والسكينة ، وهى أم الرجل الذى تقوم على كواهله دعائم الحياة البيتية فإما سعيدة وإما شقية .

ثم إن سلمان ورد وقد فرغ حبيب فأراد سلمان أن يتآمر على حبيب فأبى عليه حبيب ، حتى قال أهل الشام لقد هممنا بضرب سلمان فقال أوس ابن مغراء فى ذلك وهو من جند سلمان .

فإن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم ... وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا ... وهذا أمير فى الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغـــر كنا حماته ... ليالى ترمى كل ثغر وننكل

هكذا روى البلاذرى فى تاريخه أن الاختلاف بينهما وقع فى هذه الغزوة ، وذكر البيت الأول من الأبيات الثلاثة، لكن الطبرى أورد هذه

الأبيات فى أخبار سنة (٣٢هـ)، وقال إن هذا الاختلاف وقع بينهما فى هذه السنة فى بلاد الخزر ، حيث كان سعيد بن العاص استعمل سلمان على ثغر الباب وأمده عثمان بحبيب بن مسلمة الفهرى ، وفى البيت الثانى والثالث ما يدل على أن هذا الخلاف كان فى الباب ، إذ كان ثغر المسلمين يومئذ وهو تابع لعامل الكوفة وأميره يومئذ سلمان كما يظهر ذلك من قوله وأن تقسطوا إلى آخر البيت ، فإذا صح أن هذه الحادثة كانت سنة ٣٢ فيكون سلمان لم يقتل فى الخزر وإنما الذى قتل أخوه فقط ، وذلك لأن الذى كان يغزو الخزر بجند الكوفة من الباب يومئذ هو حذيفة بن اليمان ، وكان أميراً للحرب فيها ، ومازال يغزوهم حتى قتل عثمان رضى الله عنه كما روى الطبرى فى تاريخه .

لما انتهى سلمان إلى حبيب وقد فرغ من القوم سار إلى غزو أران ، ومن ثم افترق القائدان ، فتوغل حبيب فى ارمينيا الغربية متجها إلى الشمال واتجه سلمان إلى أرمينيا الشرقية آخذاً نحو الشمال ، ففتحا البلاد التى بين البحر الأسود وبحر الخزر حتى القوقاز حبيب من جهة الغرب ، أى من جهة البحر الأسود وسلمان من جهة الشرق أى من جهة بحر الخزر . فأما ما فتحه حبيب ابن مسلمة من البلاد فرجئه إلى خبر فتوحاته الذى سيرد فى ترجمته إن شاء الله ، لأنا عزمنا أن نفرد له ترجمة خاصة مع رجال عثمان رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

وأما سلمان فإنه سار إلى أران ففتح مدينة البيلقان (فيتقران) صلحاً واشترط على أهلها أداء الجزية والخراج ، ثم أتى بردعة وعسكر على نهر الترثور على فرسخ منها فامتنعت عليه فعاناها أياما ، فصالحه أهلها على مثل صلح البيلقان وفتحوا له أبوابها فدخلها وأقام بها ووجه خيله ففتحت غيرها من البلاد والرساتيق فى أران ، ودعا أكراد البوشنجان (أو البلاسجان)

إلى الإسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية ، وأدى البعض الصدقة ممن دخلوا فى الإسلام ، ثم سار إلى مجمع نهر الكر (كور بالكاف الثقيلة) والرس « أراس » فعبر الكر ففتح قبالة وكل البلاد الواسعة التى على الضفة الشمالية من نهر الكر ويسميها ديفرجى بلاد سشاكى ثم دخل بلاد سشيوان وصالحه صاحب شكن وشيروان والباب ، وكل هذه البلاد واقعة إلى الشمال الشرقى من نهر الكر حتى داغستان . ومن ثم اختلف المؤرخون فبعضهم قال إن سلمان انتهى إلى الباب ولم يتجاوزها ومنهم ابن خلدون ، وبعضهم يقول إنه استخضع كل أمراء الجبل ، ثم اجتاز مضيق دربند حيث قتل مع معظم جيشه على نهر بلنجر، وفيه أوفى أخيه عبد الرحمن وفى قتيبة ابن مسلم فاتح تركستان ، يقول ابن جمانة الباهلى مفتخراً بهما لأنهما باهليان.

وإن لنا قبرين قبر بلنجر　　وقبر بصينستان يا له من قبر

فذاك الذى فى الصين عمت فتوحه　　وهذا بأعلى الترك يسقى به القطر

ولا جرم أن قتيبة وسلمان وأخاه ليسوا بفخر باهلة فقط بل هم وأمثالهم من الفاتحين فخر الأمة الإسلامية ، والذكر الخالد لها الذى يمثل عظمة رجالها الفاتحين تمثيلا تزدهى به صفحات التاريخ .

هذا ما انتهى إليه تحقيقنا فى فتح أرمينيا والقوقاز الذى بلغ به المسلمون نهر ترك الذى يصب فى بحر الخزر ماراً فى السهول الواقعة وراء جبل القوقاز، وفى اعتقادى أن المسلمين لو لم ينكبوا بنكبة نهر ترك ويخرب الخزر ما بينهم وبين مدينة الباب من البلاد والقلاع . صداً لهجماتهم المتوالية على تلك الأصقاع السحيقة كما ذكر ذلك سديو لتجاوزوا فى فتوحاتهم يومئذ نهر فوما ، وأمنوا فى روسيا الشرقية على قسمين قسم ينعطف على بلاد القلموق واستراخان ويدور حول بحر الخرز أى بحر قزوين حتى ينتهى إلى جرجان ، حيث يلتقى بالجيوش الإسلامية الضاربة فى أنحاء ولاية خراسان ويسير إليه

معاونة الجيوش الآخذة بتلابيب يزدجرد الذى قتل على نهر المرغاب . وقسم يتتبع مجرى نهر ولغا إلى قازان وما والاها والله أعلم .

دخول معاوية إلى بلاد الروم وفتح قبرص :

كان أولئك الفاتحون كالتيار الجارى إذا صد من جهة انقلب إلى جهة أخرى ، فإن تذامر الخزر على قتال المسلمين واجتماعهم لصدهم عن التوغل فيما وراء بحر قزبين حول وجهة الفاتحين ثانية إلى بلاد الروم ، وقد كانت إمبراطورية القسطنطينية منذ فصل عنها المسلمون مصر وسورية ، والجزيرة تنظر إلى جيوش المسلمين نظر الحذر وتراقب حركات الجيوش الإسلامية مراقبة الواقف لعدوه بالمرصاد ، وكان القواد وزعماء الفتح الإسلامى عرفوا من الدولة البيزنطية هذا الحذر فتحولوا عن مهاجمتها إلى جهات أخرى ، وهكذا إلى سنة (٢٥ أو ٢٦ هـ) ، حيث أغار معاوية بن أبى سفيان على الأناضول من جهة إقليمى قبادوكيا وفريجيا فأخذ عمورية[1] ثم ارتد ولو رأى غرة من الروم لأمعن فى البلاد حتى جدران القسطنطينية ، لكن الظاهر أنه وجد القوم فى مكانة من اليقظة والتحصن ، وجد بها الوصول إلى بغيته من جهة البر أمراً دونه الصعاب ، فاتجه خاطره إلى البحر ، وقد كان شديد الرغبة بالغارة على سواحل الأناضول وجزر البحر الأبيض من عهد عمر بن الخطاب ، ولكن عمر رضى الله عنه لم يأذن له بذلك فاستشار عثمان رضى الله عنه هذه المرة أى سنة ٢٧ بغزو الروم من جهة البحر ، فأذن له على شرط أن يخير الناس ، فمن اختار الغزو فى البحر يحمله معه ، فأعد لهذه الغزوة أسطولا من سواحل الشـــام وكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامل مصر بإعداد

---

(١) كبادوكيا مقاطعة فى الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلى أرمينيا ، وكانت تسمى قديماً بهذا الاسم وفريجيا أوفروغيا مثلها أيضاً ، وهى من المقاطعات الوسطى فى آسيا الصغرى وأما عمورية فقد قال لاروس فى قاموس العلوم الجديد (Nouveau Larousse illustré) : إنها من مدن فريجيا الكبرى واقعة على حدود غلاطية ، وكانت موطن ومنشأ الإمبراطور تيوفيل ، وقد تخربت فى حروب المسلمين ضد الإمبراطورية الشرقية .

أسطول آخر ، واستعمل عبد الله بن قيس الجاسى على البحر ، وسار الأسطولان فاجتمعا فى قبرص فصالحهم أهلها بعد قتال شديد على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم إليهم ، ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم ، بمعنى أن تكون قبرص مستودعاً حربياً فى البحر الأبيض للمسلمين ، ومركز اتصال بينهم وبين أساطيلهم الماخرة فى هذا البحر تلجأ إليها عند الحاجة .

وقد ذكر سديو فى تاريخه أن معاوية فتح سنة (٢٩ هـ) أيضاً إقريطش (كريد) وجزيرة كوس ، وجزيرة رودس ، ومؤرخونا لم يقولوا بهذا ، والظاهر أن هذه الجزر فتحها معاوية فى خلافته أيام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لأسطولهم العظيم ، ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتى خبر ذلك كله فى سيرة معاوية رضى الله عنه

فتح بلاد المغرب وجغرافيتها :

بلاد المغرب أو أفريقيا الشمالية الغربية يحدها من الشمال الأوقيانوس الأطلانتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط . وشرقا بلاد مصر والبحر المتوسط أيضاً ، وجنوباً الصحراء الكبيرة ، وغرباً الأوقيانوس ، وكانت تنقسم فى صدر الإسلام إلى ثلاثة أقسام كبرى وهى (المغرب الأدنى) وفيها ولايتا طرابلس وتونس ، وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس ، (والمغرب الأوسط) وهى المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط ، (والمغرب الأقصى) وقاعدته فاس ومراكش . وينقسم كل من هذه الأقسام إلى أقسام صغرى ، فطرابلس الغرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام : طرابلس وفزان وبنغازى وهى تابعة للدولة العلية ، (وتونس) ولاية مستقلة تحت حماية فرنسا وتنقسم إلى أقسام كثيرة صغرى ،

(والجزائر) وتنقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى وهى الجزائر ، ووهران وقسنطينة وهى تابعة للدولة الفرنساوية ، وأما القسم الثالث وهو المغرب الأقصى فأشهر أقسامه عمالات فاس . ومراكش . والسوس . ودرعه وتافيلالت وهو مستقل يحكمه السلطان عبد العزيز وأشهر مدن المغرب الأدنى : طرابلس الغرب : وهى فرضة بحرية : وبرقة : وكانت تسمى قديماً انطابولس وفرضتها بنغازى : وتونس وهى قرب أطلال قرطاجنة القديمة [1] وتسمى قديماً إفريقياً وربما سموا إقليم تونس بهذا الاسم ، ثم سموا القارة كلها به من قبيل تسمية الكل باسم الجزء ، وهى على البحر ويليها : قابس : وبنزرت وصطفورة المعروفة قديماً بصوفيطوله وبالقرب من تونس مدينة القيروان أسسها عقبة بن نافع الفهرى ، وجعلها قاعدة البلاد ، وبالقرب من القيروان مدينة : رقادة : وإلى الجنوب الشرقى منها مدينة صفاقس .

ومن مدن المغرب الأوسط الشهيرة مدينة الجزائر المعروفة بجزائر

---

(١) قرطاجنة مدينة عظيمة على البحر الأبيض المتوسط ، أسسها الفنيقيون سكان سواحل سورية وكان لها فى التاريخ شأن عظيم ، ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذى غزا الرومانيين فى عقر دارهم ، وما زالت قرطاجنة التى كانت ضرة رومة شجى فى حلق الرومانيين حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخربها القائد سيبون سنة (١٤٩) قبل المسيح والظاهر أن الخراب لم يأت عليها كلها ، بل حفظت شيئاً من رونقها القديم إلى العصر الإسلامى وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم فى حصونها العظيمة ، ولما اشتدت الفتنة الكبرى فى إفريقيا على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان الغسانى لاستخضاع أهلها ، فقصد البربر وقاتلهم ثم قصد قرطاجنة ، وافتتحها ، ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع إليها وحاصر أهلها حتى ألجأهم للتسليم بعد أن فر منهم من طريق البحر من فر ، ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن أنقاضها عمرت مدينة تونس . وهذا التخريب وإن عد عند الأثريين سيئة لحسان إلا أنه عند السياسيين ليس بشىء ، لأن الدول من دأبها أن يمحى اللاحق منها أثر السابق ، وإذا خرب المسلمون فى إفريقيا هذه المدينة فقد أقاموا مدناً غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقيروان والقاهرة وغيرهن ، وإنما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار أنها أثر قديم من آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير فى التاريخ . لذا فليس ببدع أن يأتى حسان ما آتاه ويأتيه غيره فى كل دولة من الدول ، لاسيما وأن اعتبار البلدان التاريخى الأثرى لم يكن فى تلك العصور بالمنزلة التى انتهى إليها فى هذا العصر .

مزغنة أو مزغنان : ومدينة تلمسان : وهما من الإقليمين المعروفين قديماً بموريتانية القيصرية والسيتفية : ومدينة قسنطينة : وهى حاضرة الإقليم المعروف قديماً بإقليم نوميديا : ومدينة مستغانم وهى على البحر ، ويصب قربها نهر الشليف أو شلف، ومدينة بونه أو عنابه وهى على البحر المتوسط أيضاً ، ووهران مثلها أيضاً .

ومن مدن القسم الثالث مراكش وفاس ومكناس أو مكناسة الزيتون فى جهة الشمال والوسط،وططوان وسبتة ومليلا على شواطىء البحر المتوسط، ومغادر وطنجة ، الرباط وسلا على شواطى الأوقيانوس الاطلانتيك وطفيلة والسوس فى جهات الجنوب والجنوب الشرقى . ومن جبالها جبل درن وغمارة ومديونة ويسر ، وكلها شعب من جبال أطلس الشهيرة .

أما فتح بلاد المغرب فقد تقدم معنا فى سيرة عمرو بن العاص أنه فتح برقة وطرابلس فى خلافة عمر رضى الله عنه وضرب على أهلها الجزية ، ثم عاد بعد أن استخلف عقبة بن نافع الفهرى على البلاد ، وقيل إنه لم يستخلفه وإن عثمان رضى الله عنه أرسله إليها لما أمر ابن أبى سرح بغزوها، وتحرير الخبر عن ذلك أن عثمان رضى الله عنه استعمل على الحرب فى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح وأمره بغزو أفريقيا سنة (٢٤ هـ) أو سنة (٢٥ هـ) وقال له إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم ، فأمر عقبة بن نافع بن عبد القيس على جند ، وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر ، وسرحهما فخرجوا إلى أفريقيا فى عشرة آلاف ، وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ، ثم إن عبد الله بن سعد بن أبى سرح شكا عمراً إلى عثمان لخلاف وقع بينهما ، فاستقدمه عثمان واستقل ابن أبى سرح على إمارتى الخراج والحرب فى مصر ، وكتب عبدالله يستأذن عثمان فى قصد أفريقيا ثانية ويستمده فاستشار عثمان رضى الله عنه الصحابة ، فأشاروا به فجهز العساكر من المدينةوفيهم جماعة من الصحابةوأبناء

الصحابة ، منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وكثير غيرهم ، وساروا مع عبد الله بن سعد ابن أبى سرح سنة (٢٦هـ) ، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ، ثم ساروا إلى طرابلس فقاتلهم الروم قتالا خفيفاً فبث عبد الله السرايا فى كل ناحية ، وسار إلى إفريقيا (تونس) فقابله عند مدينة يعقوبة، وفى رواية سبيطلة حاكم (بطريق) إفريقيا الشمالية من قبل إمبراطور القسطنطينية ، واسمه غريغوار ويسميه العرب (جرجير) بمائة وعشرين ألف مقاتل ، واشتبك بينهم القتال وجاءهم عبد الرحمن بن الزبير[1] مدداً من قبل عثمان فشهد الحرب ، وقد غاب عنها عبد الله بن سعد فسأل عنه ، فقيل له إنه سمع منادى جرجير يقول من يقتل ابن أبى سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى ، فخاف وتأخر عن حضور القتال ، فقال له ابن الزبير تنادى أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ، ولما سمع جرجير بوصول المدد سقط فى يده إلا أنه جالد المسلمين جلاداً عظيما ، فلما أبطأ عليهم الفتح أشار عبد الله بن الزبير على عبد الله بن سعد بأن يترك جماعة من أبطال المسلمين متأهبين للحرب ، ويقاتل العدو بباقى العسكر إلى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرة ففعل وركبوا من الغد إلى القتال وألحوا على الأعداء حتى أتعبوهم ، ثم افترقوا وقد أنهكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين ، وحملوا حملة واحدة حتى غشوا عسكر جرجير فى خيامهم ، فانهزموا وقتل عبد الله بن الزبير جرجير (غريغوار) وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير ، وحاصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح سبيطلة ففتحها ، وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألف ، وهو فتح عظيم لم يفتح على أحد مثله .

(١) الزبير هنا بفتح الزاى كما صححه فى أسد الغابة وهو غير الزبير (بضم الزاى) ابن العوام والد عبد الله الذى قال بعض المؤرخين ، إنه جاء مدداً لعبد الله بن سعد مع أنه كان فى الجيش الذى بعثه عثمان رضى الله عنه لابن سعد — قبل هذا كما رأيت .

ثم إن عبد الله بن سعد بعث سراياه إلى أنحاء البلاد وعليها القواد ومنهم ابن الزبير، فجالوا فى أقطار المغرب غرباً وشرقاً وجنوباً ، فأغاروا من جهة الجنوب على إقليم بيزاسنه المعروف ببلاد النخل أو الجريد، ومن الشمال والغرب على إقليمى نوميديا وموريتانيا فى الجزائر، ثم بلاد فاس ومراكش المعروفة بموريتانيا الطنجية ، وهكذا حتى انقادت لهم البلاد إلى بوغاز جبل طارق ، ودفع أهلها لهم الجزية التى كانوا يدفعونها لقيصر الروم ، كما ذكر ذلك سديو فى خلاصة تاريخ العرب ، وأما مؤرخونا فقد اختصروا جداً فى أخبار هذا الفتح ، وذكروا الصلح الذى عرضه عظماء أفريقيا على ابن سعد وهو أن يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب أى مليونين وخمسمائة ألف دينار ونيفاً، فقبل ذلك منهم ، وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس إلى أمير المؤمنين عثمان فاشتراه مروان بخمسمائة ألف دينار. قال ابن خلدون وغيره : وبعضهم يقول أعطاه إياه « أى الخمس » ولا يصح وإنما أعطى عبد الله بن سعد بن أبى سرح خمس الغزوة الأولى .

أما عبد الله بن سعد فمن قائل إنه عاد إلى مصر ولم يول على أفريقيا أحداً ، قال بهذا البلاذرى فى روايته عن الواقدى ، وقال الطبرى إن عثمان صرف عبد الله بن سعد عن أفريقيا وولى عليها عبد الله بن نافع بن عبد القيس ، وقال ابن خلدون وغيره إنه ولى عليهم والياً منهم ، ولعله الأصح كما يستدل على ذلك بمجىء قائد من قبل إمبراطور الروم، وطرده للوالى الذى ولاه المسلمون كما سترى ، هذا ولما أصاب ابن سعد من إفريقيا ما أصاب ، ورجع إلى مصر ، جهز قسطنطين بن هرقل (هراقليوس) إمبراطور القسطنطينية أسطولا كبيراً مؤلفاً من ستمائة مركب ، أراد أن يهاجم به الإسكندرية على قول ابن خلدون ، وابن الأثير لم يذكر الجهة التى كان يريدها قسطنطين ، وفى ظنى أنه كان يريد إفريقيا بدليل التجاء الإمبراطور إلى جزيرة صقليا (سيسليا) بعد انكساره

فى هذه الغزوة وهى قريبة من تونس ، ولما بلغ المسلمين خروج هذا الأسطول خرج لملاقاته فى البحر أسطولان، أسطول من الإسكندرية مع عبد الله بن سعد ، وأسطول من سورية مع معاوية بن أبى سفيان ، والتقيا معه فى عرض البحر فقرنوا السفن إلى بعضها واقتتلوا قتالا شديداً ، حتى استحرّ القتل فانهزم قسطنطين جريحا إلى صقليا بما بقى معه من الروم ، ولما علم أهل صقليا بفراره قتلوه ، وسمى المسلمون هذه الغزوة غزوة ذات الصوارى ، والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصوارى .

ثم إن الإمبراطور قونستانس الثانى غضب على أهل أفريقيا لما أعطوه من المال لعبد الله بن سعد ، لأنه أكثر مما كانوا يعطونه لإمبراطرة الروم ، واغتنم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم فى التنازع على الخلافة ، فأرسل من قبله بطريقاً ليأخذ منهم مثله فأبوا ، فقاتلهم وطرد البطريق الذى ولوه عليهم بعد جرجير (غريغوار) فالتجأ إلى معاوية بن أبى سفيان ، وقد اجتمع له الأمر فنصره ، وبعث معه ابن خديج لتدويخ البلاد وطرد الروم عنها ثانية ، كما سترى ذلك فى خلافة معاوية رضى الله عنه .

تتمة فتح بلاد فارس وخراسان وطبرستان وقتل يزدجرد :

علمنا مما تقدم فى سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن المسلمين فتحوا قسما عظيما من بلاد فارس ، أو مملكة الأكاسرة المعروفة قديماً ببلاد مادى، وقد رأيت أن أبين هنا أقسام هذه المملكة ليكون القارىء على بينة مما فتح منها على عهد عمر رضى الله عنه وما فتح على عهد عثمان رضى الله عنه فأقول:

بلاد فارس تنقسم إلى ثلاثة أقسام : فارس الغربية وهى مملكة إيران ، وفارس الشرقية وهى مملكة أفغانستان وبلوجستان ، وكان العرب يقسمونها إلى أقسام كثيرة يسمونها كور (فالقسم الشمالى منها) مما يلى أرمينيا غرباً والقوقاز شمالا يعرف بكورة أزربيجان ، ومن مدنه الشهيرة تبريز وزنجان والبير والموقان والطيلسان ، وإلى الشرق منها قزبين الواقعة شمال بلاد

الجبل ، حيث كانت تسمى بلاد الديلم ، ثم إلى شرقى هذا القسم فى الجهة الجنوبية من بحر الخزر أو بحر قزبين طبرستان وجرجان ومن مدنها الشهيرة دماوند (أو دنباوند) واستراباذ والدامغان وقومس فى جهة الجنوب ، وأبيورد ونسا وسرخس ومرو الشاهجان فى جهة الشمال ، والشرق من هذا القسم والجزء الغربى منه يعرف بمازندران (والقسم الغربى منها) يعرف بالعراق العجمى ، وخوزستان وبلاد الجبل، ومن مدن العراق العجمى الشهيرة المدائن والنهروان على دجلة ، ومنازر وقصر شيرين ثم نهاوند وقاشان وأصفهان من بلاد الجبل والأهواز ورامهرمز والسوس وجنديسابور من حوزستان ، (والقسم الجنوبى منها) يعرف بفارس وكرمان ومكران أوكورة السند (وتعرف الآن ببلوجستان) وسجستان وهى بين مكران وخراسان ، ومن مدن فارس الشهيرة إصطخر وفسا ودارابجرد وكازرون وجور ثم جيرفت وهميد والسيرجان من مدن كرمان، ثم مكران وقندابيل وقنزبور وأرمائيل وبيرون والديبل (ثغر على المحيط الهندى من كرمان أو السند) ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان ، (لعلها صحراء لوط) وزرنج التى يؤخذ منها إلى وادى سناروز والكش من ناحية الهند ورشت وناشروز من سجستان ، (والقسم الشرقى والشمالى الشرقى) يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان ، وهذا القسم أكثره واقع الآن فى أفغانستان، وكان العرب يقسمونه إلى أقسام كثيرة أو كور ، فنها كورة مرو وهراة وطوس ونيسابور من ولاية خراسان ، وغزنة وكابل من زابلستان ، وبلخ من طخارستان ، وأشهر مدن خراسان نيسابور الواقعة فى الجهة الشمالية الغربية من خراسان ، وطوس إلى الشمال منها أيضاً ، ومن مدن نيسابور زام وبشت وباخرز وجوين وأبرشهر وبيهق واسفرائن وأرغيان وغيرها، ثم هراة ومرو الروذ فى الجهة الشرقية من خراسان ، ومن مدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وباغون وطاغون وسنج وغيرها ،

أما طخارستان الواقعة شرقى خراسان وشمال زابلستان وجنوب السغانيان فإن من مدنها الشهيرة بلخ ، وهى عاصمتها ، وهى من بلاد التتار الجنوبية الواقعة جنوبى نهر جيحون ، والجوزجان والفارياب والطالقان وغيرها : وأما زابلستان فمن مدنها الشهيرة كابل وغزنه اهـ .

هذا ما أحببت بيانه من جغرافية هذه البلاد ، وأما فتحها فقد تقدم الخبر عن فتح القسم الأكبر منها فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وقد رأيت اختلافاً فى بعض الروايات عن فتح خراسان هل كان على عهد عمر أو على عهد عثمان ، والذى اتفق عليه أكثر المؤرخين أن فتح خراسان وسجستان وقسم من طخارستان كان على عهد عمر بن الخطاب ، ثم انتقضت أكثر بلاد فارس ، فأعاد المسلمون الكرة عليها على عهد عثمان رضى الله عنه ودوخوا هذه المملكة إلى المحيط جنوباً والهند شرقاً وجيحون شمالا ، فاستكمل لهم فتح فارس الشرقية والغربية ، وجزء من السند وقسم من تركستان ، وإليك مجمل خبر الفتح .

فى السنة الثالثة من خلافة عثمان رضى الله عنه انتقضت آمد وبلاد الأكراد ، فعزم أبو موسى الأشعرى والى البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم إلى الطاعة ، فحمل ثقله على أربعين بغلا بعد أن كان يحض على الجهاد مشياً ، فتألب عليه أهل البصرة ، وذهب منهم وفد إلى أمير المؤمنين عثمان فاستعفوه منه ، وتولى كبر ذلك غيلان بن خرشة الضبى فعزله عثمان وولى عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة القرشى وهو ابن خال عثمان ، وكان ابن خمس وعشرين سنة ، وجمع له جند أبى موسى وجند عثمان بن أبى العاصى من عمان والبحرين ، فصرف عبيدالله بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة إلا أصلحها ، ثم ولى عليها فى السنة التالية أمير بن أحمر

اليشكرى وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس ، واستعمل على سجستان عبدالله ابن عمير الليثى ، فأثخن فيها إلى كابل ثم عمران بن الفضيل البرجمى ، وعلى مكران عبيد الله بن معمر فأثخن فيها حتى بلغ النهر .

ثم إن أهل فارس ثاروا وانتقضوا بعبيد الله بن معمر فسار إليهم فالتقوا على اصطخر فقتل عبيدالله وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس ، وكان على مقدمته عثمان بن أبى العاصى وفى المجنبتين أبو برزة الأسلمى ومعقل بن يسار وعلى الخيل عمران بن حصين وكلهم له صحبة ، فلقيه الثائرون باصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزموا وفتح اصطخر عنوة ، وسار بعدها إلى دار ابجردومدينة جور ، وكان هرم ابن حيان محاصراً لها ، فلما جاء ابن عامر فتحها ، ثم عاد إلى اصطخر ، وقد انتقضت ثانية فحاصرها طويلا ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة ، ففنى فيها أكثر أهل البيوتات والأساورة لأنهم كانوا قد لجأوا إليها ، ووطئ ابن عامر أهل فارس وطأة لم يزالوا منها فى ذل ، وكتب إلى عثمان رضى الله عنه بالفتح فكتب إليه أن يستعمل على بلاد فارس هرم بن حسان اليشكرى ، وهرم بن حيان العبدى ، والخريت بن راشد ، والمنجاب بن راشد ، والترجمان الهجيمى ، وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة ، فيجعل الأحنف بن قيس على المروين ، وحبيب بن قرة اليربوعى على بلخ ، وخالد ابن عبدالله بن زهير على هراة ، وأمير بن أحمر على طوس ، وقيس بن الهيثم السلمى على نيسابور ، ثم إن عثمان رضى الله عنه جمع هذه الولاية قبل موته لقيس ، واستعمل أمير بن أحمر على سجستان .

لما رجع ابن عامر إلى البصرة بلغه نقض أهل خراسان ونكثهم فأتاه الأحنف بن قيس وقال له أيها الأمير إن عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة ، فسر فإن الله ناصرك ، ومعز دينه ، فتجهز وسار

واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثى وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمى ، وتقدم هو إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان ففتحهما عنوة ثم سير أمراءه إلى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت ، ثم تقدم ابن عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس، كذلك وهراة وأعمالها كما سيأتى تفصيل الخبر عن ذلك فى سيرة ابن عامر إن شاء الله.

وسير ابن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان فأتى سوانجرد فصالحه أهلها على ثلاثمائة ألف درهم ، ثم مضى إلى مرو الروذ فقاتله أهلها ثم صالحوه ، وسير سرية فاستولت على رستاق بغ فعظم الأمر على أهل طخارستان ، فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومعهم ملك الصغانيان (من تركستان الشرقية) ، فقاتلهم الأحنف قتالا شديداً حتى هزمهم وفل جمعهم وفتح البلاد المذكورة ، ثم سار إلى بلخ وهى مدينة (عاصمة) طخارستان فافتتحها ، ثم انعطف على خوارزم الواقعة على نهر جيحون فى تركستان الغربية وحاول فتحها، فلم يتيسر له ذلك ، فعاد إلى بلخ وسيأتى الكلام على ذلك مفصلا فى سيرة الأحنف إن شاء الله .

وأما مجاشع بن مسعود السلمى الذى سار افتتح كرمان فإنه فتح هميد ثم أتى السيرجان وهى مدينة كرمان فحاصرها أياماً ثم افتتحها ، وفتح جيرفت عنوة ثم سار فى كرمان فاستخضع أهلها ودوخ مدنها ، وهرب كثير من أهل كرمان فلحقوا بمكران وسجستان فأقطعت العرب أراضيهم فعمروها واحتفروا لها القنى فى مواضع منها وأدوا العشر عنها .

وأما الربيع بن زياد الحارثى الذى سار إلى فتح سجستان فإنه قطع المفازة (لعلها مفازة كوهستان وهى غير قوهستان التى مر ذكرها) فأتى

حصن زالق وأغار على أهله وأسر الدهقان فافتدى نفسه بأن غرز عنزة[1] وغمرها ذهباً وفضة ، وصالحه على صلح فارس ثم فتح كركويه ثم أتى روشت بقرب زرنج فقاتله أهله وأصيب رجال من المسلمين ، ثم انهزم أهلها ثم أتى ناشروذ ثم شرواذ ثم زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم فصالحه مرزبانها على مال كثير ، ودخل المسلمون المدينة، ثم ذهب إلى وادى سناروذ ثم رجع وأقام فى زرنج سنة وعاد إلى ابن عامر بعد أن استخلف عليها عاملا ، فأخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا ، فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب ابن عبد شمس على سجستان ، فسار إليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفى ألف درهم (مليونين) ، وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الداون ، فلما انتهى إلى بلد الداون حصرهم فى جبل الزوز ثم صالحهم ، ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين ، ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر، وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع . وفتح عبد الرحمن كابل وزابلستان وهى ولاية غزنة ثم عاد إلى زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان ، فاستخلف عليها أمير بن أحمر وانصرف فعادوا إلى العصيان .

ولما تم لابن عامر مثل هذا الفتح العظيم قيل له لم يفتح لأحد ما فتح عليك ، فقال لا جرم لأجعلن شكرى لله على أن أخرج محرماً من موقفى هذا ، فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان ، فاستخلف قيس بن الهيثم على خراسان فعاد القوم إلى العصيان وجمع أمير منهم اسمه قارن جمعاً كبيراً من ناحية الطبسين ، وأهل باذغيس وهراة وقهستان ، وأقبل فى أربعين ألفاً لمحاربة المسلمين ، فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم وقال ما ترى .

---

(١) العنزة بفتحتين أطول من العصا وأقصر من الرمح ، وفيها زج كزج الرمح .

قال أرى أن تخلى البلاد فإنى أميرها ومعى عهد من ابن عامر إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها ، وأخرج كتاباً كان قد افتعله عمداً فكره قيس منازعته وخلاه والبلاد ، وأقبل إلى ابن عامر فلامه ابن عامر ، قال جاءنى بعهد منك .

أما ابن خازم فسار لملاقاة قارن بأربعة آلاف ، فلما قرب منه أمر الجند أن يدرج كل رجل منهم على زج رمحه قطناً مغموساً بالدهن أو النفط ، فلما أمسى أمرهم أن يشعلوا النيران فى أطراف الرماح وانتهت مقدمته إلى قارن نصف الليل فناوشوهم ، وهاج الأعداء على دهش وكانوا آمنين من البيات ، ولما دنا ابن خازم منهم ورأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتنخفض وترتفع هالهم ذلك ، ثم غشيهم ابن خازم بجنوده فانهزموا وقتل قارن وتم الفتح ، وكانت مكيدة ابن خازم سبب النصر فكتب إلى ابن عامر بالخبر فرضى وأقره على خراسان ، فلبث عليها حتى انقضى أمر الجمل ، وأقبل إلى البصرة فشهد وقعة ابن الحضرمى وكان معه فى دار سنبل .

هذا ما أحببت إيراده من فتح فارس وخراسان ، وأما طبرستان فقد كان فتحها على يدى سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة (٣٠ هـ) ، وذلك أن سعيداً سار من الكوفة يريد خراسان بجيش فيه جماعة من الصحابة ، منهم حذيفة بن اليمان وفيه الحسن والحسين ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم ، وكان ابن عامر قد خرج من البصرة قاصداً خراسان ، فلما وصل سعيد وجده قد نزل ابرشهر فنزل قومس وهى صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض ، وأتى جرجان فصالحوه على مائتى ألف ، ثم أتى طميسه وهى كلها من طبرستان متاخمة جرجان ، وهى على ساحل بحر الخزر أى بحر قزوين فقاتله أهلها قتالا شديداً ، حتى صلى صلاة الخوف ، وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه ، وحاصرهم

فسألوا الأمان فأعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند ، وأعطاه أهل الجبال مالا . ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طبرستان ونواحيها ، فربما أعطوا الإتاوة عفواً وربما أعطوها بعد قتال ، ومازالت هذه البلاد (أى جرجان وطبرستان) ، على شيء من الاستقلال يأبى أهلها الخضوع التام للدولة الإسلامية مدة الخلفاء الراشدين وبعض الأمويين ، حتى استخضعها يزيد بن المهلب فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان .

مقتل يزدجرد :

كانت جيوش المسلمين فى عهد عمر بن الخطاب ألجأت يزدجر للفرار إلى حلوان ثم أصفهان ، وكانت كلما تقدمت فى البلاد يفر أمامها حتى استقر على ما يقال فى كرمان ، ولما انتقضت البلاد من فارس وخراسان على عهد عثمان ودوخها ثانية عبد الله بن عامر كما رأيت أخذ بمطاردة يزدجر ، وأرسل فى أثره هرم بن حيان فأتبعه إلى كرمان فهرب منها إلى خراسان ، ثم لحق بمرد الروذ وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخزر فأمدوه فسار بهم إلى سجستان وقيل إلى جرجان ، فالتقى بجيوش المسلمين فهزموه فالتجأ إلى مرو الشاهجان فمنعه صاحبها من الدخول ، وكتب إلى نيزك طرخان من ملوك الترك يستقدمه لقتل يزدجر ومصالحة العرب عليه وأن يعطيه كل يوم ألف درهم ، فجاء نيزك إلى يزدجر متظاهراً بنصرته واحتال عليه ليقتله ، فأحس يزدجر بالدسيسة ففر بنفسه وآوى إلى أرحاء على نهر المرغاب ، وهو نهر يسيح فى مرو الروذ ثم يغيض فى رمال الصحراء ، ثم يظهر فى مرو الشاهجان فقتله صاحب الرحى وألقى شلوه فى الماء . ويقول (سديو) فى تاريخه إن الذى أمد يزدجر هو ملك الصين والتتار المسمى تائى تسنغ ، وأنه هو الذى سلط عليه بعد ذلك من قتله ، فقتل على شاطىء نهر المرغاب ، وانقضت بقتله أيام الدولة الساسانية التى استمرت دولتها زاهية ، وأعلامها على تلك الممالك خافقة ، نحو ثلاثمائة وتسع وعشرين سنة ، والملك بيدالله يؤتيه من يشاء .

أهم الأخبار والحوادث فى عصر عثمان

سقوط خاتم النبى فى بئر أريس :

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من فضة ، نقش عليه ثلاثة أسطر «محمد . ورسول . والله . » ولما توفى تختم به أبو بكر ثم عمر، ثم تختم به عثمان ست سنين ، فحفروا بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين فقعد عثمان على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده فى البئر فطلبوه فيها فلم يقدروا عليه ، فجعل مالا عظيما لمن يأتى به ، واغتم لذلك غماً شديداً ، فلما يئس من أمره صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقى فى إصبعه حتى قتل ، وذهب الخاتم فلم يدر من أخذه ، وكان فقد هذا الخاتم مما أوخذ عليه عثمان رضى الله عنه لما بدأت المطاعن عليه .

الطعن على العمال

خبر الوليد بن عقبة :

كان الوليد بن عقبة[1] عاملا لعمر رضى الله عنه على عرب الجزيرة ، فلما كان بين سعد بن أبى وقاص وبين عبد الله بن مسعود ما كان مما سبق ذكره فى سيرة سعد ، عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولاها الوليد بن عقبة فقدم الكوفة وسار فى الناس سيرة حسنة ، فكان أحب الناس فى الناس وأرفقهم بهم فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب ، حتى نقم منه

(١) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط أبان بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان بن عفان لأمه ، وأمهما أروى بنت عامر ابن كريز

بعض الناس أموراً ، منها اتهامه بشرب الخمر ، وأفاضوا فى الطعن عليه ، حتى استقدمه عثمان رضى الله عنه ، وأقام عليه الحد ، وملخص الخبر على ما جاء فى تاريخ الطبرى أن شباباً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعى وكاثروه ، فنذر(١) بهم فخرج عليهم بالسيف فلما رأى كثرتهم استصرخ فقتلوه وأشرف عليهم أبو شريح الخزاعى من سطح داره فصاح بهم ، وأقبل إليهم الناس فأخذوهم وفيهم زهير بن جندب الأزدى ، ومورع بن أبى مورع الأسدى ، وشبيل بن أبى الأزدى وغيرهم ، فشهد عليهم أبو شريح وابنه فكتب الوليد بهم إلى عثمان ، فكتب إليه فى قتلهم ، فقتلهم على باب القصر فى الرحبة ، فقال فى ذلك عمرو بن عاصم التميمى من أبيات .

لا تأكلوا أبداً جيرانكم سرفاً   أهل الدعارة فى ملك ابن عفان

ولهذا نقم على الوليد آباء المقتولين وأخذوا يترقبون به العثرات ، وكان شاعر من بنى تغلب اسمه أبو زبيد للوليد عليه يد مذ كان على عرب الجزيرة ، وقد كان نصرانياً فما زال به الوليد وعنه حتى أسلم فى آخر قدمة قدمها ، وحسن إسلامه ، فاستدخله الوليد فأتى آت أبا زينب وأبا مورع وجندباً وهم يحقدون عليه مذ قتل أبناءهم ، فقال لهم هل لكم فى الوليد يشارب أبا زبيد ، فثاروا فى ذلك وقالوا لأناس من وجوه أهل الكوفة هذا أميركم وأبا زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر ، فقاموا معهم ، ومنزل الوليد فى الرحبة مع عمارة بن عقبة وليس عليه باب فاقتحموا عليه من المسجد وبابه إلى المسجد فلم يفجأ إلا بهم فنحى شيئاً ، فأدخله تحت السرير فأدخل بعضهم يده فأخرجه ، فإذا طبق عليه تفاريق عنب ، وإنما نحاه استحياء أن يروا طبقه ليس عليه إلا تفاريق عنب ، فقاموا فخرجوا وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ،

---

(١) نذر بهم أى علم بهم فحذرهم .

وسمع الناس بذلك فأقبل الناس يسبونهم ويلعنونهم ويقولون أقوام غضب الله لعملهم . فدعاهم ذلك إلى التجسس والبحث ، فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ، ولم يدخل بين الناس فى ذلك بشىء ؛ وكره أن يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر : قالوا وجاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا. الوليد يعتكف على الخمر ، وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس .فقال ابن مسعود . من استتر عنا بشىء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره ، فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فأتاه فعاتبه فى ذلك ، وقال أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين (أى لهم عليه ثار) بما أجبت على . أى شىء استتر به . إنما يقال هذا للمريب . فتلاحيا « تلاوما » وافترقا على تغاضب ، ولم يكن بينهما أكثر من ذلك ، ثم أتى للوليد برجل يدعى السحر ووجب عليه الحد ، فجاء جندب فضربه قبل أن يأمر به الأمير بشىء ، فاجتمع الوليد وابن مسعود على حبسه فحبس ، ثم أطلق بأمر عثمان وغضب لجندب أصحابه فخرجوا إلى المدينة فاستعفوا عثمان من الوليد ، فقال لهم عثمان : تعملون بالظنون وتخطئون فى الإسلام وتخرجون بغير إذن ارجعوا ، فردهم فلما رجعوا إلى الكوفة لم يبق موتور فى نفسه إلا أتاهم فاجتمعوا على رأى فأصدروه (أى تآمروا فيما بينهم على أن يكيدوا للوليد فكادوا له) ، ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب، فدخل عليه أبو زينب الأزدى وأبو مورع الأسدى فسلا خاتمه ، ثم خرجا إلى عثمان فشهدا عليه بشرب الخمر ومعهم نفر ممن يعرف عثمان ممن قد عزله الوليد عن الأعمال فسألهما عثمان ، كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقىء الخمر : فقال مايقىء الخمر إلا شاربها فبعث إليه : فحلف له الوليد وأخبره خبرهم : فقال نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخى : وأمر سعيد بن العاص بجلده ، وكانت عليه خميصة فنزعها عنه على بن أبى طالب ثم إن عثمان رضى الله عنه ولى مكانه سعيد بن العاص :

وفى رواية أن الوليد سكر وصلى الصبح بأهل الكوفة أربعاً وقال: أزيدكم: فقال ابن مسعود مازلنا معك فى الزيادة منذ اليوم، وشهدوا عليه عند عثمان فأمر علياً بجلده فأمر على عبد الله بن جعفر فجلده.

وروى الطبرى أن الناس كانوا فى الوليد فرقتين، العامة معه والخاصة عليه، وفى رواية له أيضاً أن الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد، ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك وكان يسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن:

يا ويلنا قد عُزِل الوليد   وجاءنا مجوّعاً سعيدُ
ينقص فى الصاع ولا يزيد   فجوع الإماءُ والعبيد

وفى رواية له عن الشعبي أن كان مما زاد عثمان الناس على يد الوليد، أن ردعلى كل مملوك فى الكوفة من فضول الأموال ثلاثة فى كل شهر يتسعون بها، من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم.

من نظر إلى هذه الروايات بنظر الناقد البصير. لا يرى فيها دليلا يؤيد صحة التهمة، بل يرى منها النافية ومنها المثبتة، ولقد يضطرب الذهن دون التثبت من حقيقة حادثة الوليد، إذ أى مجنون بله العاقل يجلس فى منزل ليس عليه باب ولا حجاب يعاقر الخمر، وهو يعلم أنه بين قوم موتورين يترقبون به الفرص ويتتبعون العثرات وقد أحس منهم بالشر، وعلم منهم إرادة الغدر، على أنه سواء صحت هذه التهمة أو لم تصح، فالذى يظهر من مجمل تلك الروايات أن هناك أموراً دبرت بليل يراد بها مطلق الطعن على العمال تذرعاً للوثوب على الخلافة، وإيقاظ الفتنة النائمة. وحسبك دليلا على هذا أن سعيد ابن العاص لما جعل غاشيته من القراء وأهل السابقة بعد الوليد، لقى من أهل الكوفة من الطعن عليه والشكوى منه مثل مالقى الوليد الذى يزعمون أنه كان يعكف على الخمر، كما سترى بعد.

لو كان أهل الكوفة على حق فى الطعن على العمال لظلم أصابهم ، أو استبداد ظهر من أمرائهم ، لعد عملهم حسنة من حسنات الحرية التى كانت تتمتع بها الأمة يومئذ ، والعدل الذى لا تضام به نفس . ولا يهضم به حق ، ولكن لما لم يكن الأمر كذلك وكانت البواعث أخفى مما يعلنون ، فالتاريخ والعدل يشهدان بمؤاخذتهم كما سنبسط كل شىء فى محله إن شاء الله .

ولاية سعيد بن العاص الكوفة :

كان سعيد بن العاص مقيما مع معاوية بالشام ، وكان نشأ يتيما فى حجر عثمان ، فتذكر عمر يوماً قريشاً وسأل عن سعيد فيمن يتفقد من أمور الناس، فقيل له إنه بدمشق وإنه مريض ، فأرسل إلى معاوية أن أرسل إلى سعيداً فى منقل (محفة) ، فبعث به إليه وهو دنف فما بلغ المدينة حتى أفاق فقال له يابن أخى قد بلغنى عنك بلاء وصلاح ، فازدد يزدك الله خيراً ، هل لك من زوجة ، قال لا : فقال عمر لعثمان مامنعك من هذا الغلام أن تكون زوجته ، قال قد عرضت عليه فأبى ، فزوجه عمر ولم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس ، وقد كان عمومته ذوى بلاء فى الإسلام وسابقة حسنة، وقدمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هذا ملخص ما رواه الطبرى عن سعيد ، وذكر صاحب الأغانى فى خبر أبى قطيفة بن الوليد بن عقبة من سيرة سعيد مايدل على أنه كان من الكرم وعلو النفس على جانب عظيم، فذكر أنه مات فى قصره خارج المدينة وعليه من الدين ثلاثمائة ألف فأوصى لابنه بقوله : فإذا واريتنى فانطلق إلى معاوية فانعنى له ، وانظر فى دينى ، واعلم أنه سيعرض عليك قضاءه فلا تفعل واعرض عليه قصرى هذا ، فإنى اتخذته للنزهة وليس بمال ، فلما نعاه ابنه إلى معاوية سأله عن دينه ليقضيه ، فأخبره بوصيته، فأخذ معاوية قصره بدينه وهو ثلاثمائة ألف درهم ، ولما أرادوا وفاء الديون وجدوا أكثرها هبات كتب بها

على نفسه صكوكا كى لا يرد سائلا سأله شيئاً فوفوها عنه . وهذا منتهى مايروى عن كرم النفس، وشرف الطباع ، وإنما أوردت هذا الخبر ليكون دليلا على سيرة بعض عمال عثمان رضى الله عنه .

هذا ولما ولى سعيد على الكوفة وذلك سنة (٣٠ هـ) خرج وخرج معه الأشتر وأبو خُشَّة الغفارى ، وجندب بن عبد الله ، وأبو مصعب بن جثامة ، وكانوا فيمن شخص مع الوليد فرجعوا مع هذا ، فلما بلغ سعيد الكوفة صعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره ، ولكنى لم أجد بدآ إذ أمرت أن أتمر إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ، والله لأضربن وجهها حتى أقمعها (أزيلها) ، أو تعيينى ، وإنى لرائد نفسى اليوم ، ثم نزل .

وسأل عن أهل الكوفة فأقيم على حال أهلها ، فكتب إلى عثمان بالذى انتهى إليه ، أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم ، والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت ، وأعراب لحقت ، حتى ماينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها.

فكتب إليه عثمان رضى الله عنه ، أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد . وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلة وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق، فإن المعرفة بالناس (أى بحقوقهم ومراتبهم) بها يصاب العدل .

فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية فقال : أنتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبىء عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة (أى الحاجة) ، وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق

والروادف ، وخلص بالقراء والمتسمتين (الخاصة) فى سمره ، ففشت القالة والإذاعة ، وانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة إلى بعضهم ، وجعلوا يعيبون التفضيل ويعدونه جفوة ، فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشىء أو أعرابى أو محرر (معتوق) استحلى كلامهم ، فكانوا فى زيادة وأولئك فى نقصان حتى غلب الشر ، فكتب سعيد إلى عثمان بذلك ، فنادى منادى عثمان الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فأخبرهم بالذى كتب إليه سعيد وقال : يأهل المدينة إن الناس يتمخضون بالفتنة ، وإنى والله لأتخلصن لكم الذى لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك ، فهل ترونه حتى يأتى من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه فى بلاده ؟

فقام أولئك وقالوا ، كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين ؟ فقال نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ، ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن فى حسابهم اهـ .

وإنما أراد عثمان بهذا الاستبدال إما أن يجعل من شهد الفتوح فى العراق وأهل السابقة والأيام يقيمون فى تلك الديار ، ليكثر سوادهم ويغلب على سواد العامة والروادف الذين هم من جفاة الأعراب ، ومنهم ظهر الشر وبهم استعان أهل الفتنة ، وإما ليفرق الروادف الذين هم تبع فى العطاء لأهل السابقة عن العراق ليقيموا مع هؤلاء حيث يقيمون ويندفع شرهم عن الناس ونعم الرأى هذا من عثمان رضى الله عنه ، لو لم تكن الفتنة قد بذرت بذورها وتمخض الناس بها فلابد من ظهورها .

حادثة أبي ذر

والقول بحرمة اكتناز المال

كان أبو ذر من المشهورين بالتقى والصلاح ، شديد التمسك فى الاعتقاد جريئاً فى قول الحق ، وكان مقيما بالشام مع معاوية ، وكان يعتقد أن كل أموال الفىء هى من حقوق المسلمين ، وليس للإمام أو من ينوب منا به أن يحتجن[1] شيئاً منها ، بل ينبغى أن تقسم على الناس شيئاً فشيئاً ، كما كان ذلك على عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، والظاهر أن معاوية كان يتوسل إلى ادخار المال لصرفه فى وجوه المصالح العامة ، التى تقتضيها حالة الدولة وتدرجها فى مدارج الحضارة بقوله : المال مال الله . ومعناه يضعه الإمام حيث يشاء ، فوجد دعاة الفتنة من هذا القول ضالة الغرض الذى ينشدونه ، إما للتشويش على عثمان رضى الله عنه ، والتأليب على عماله لمقاصد سياسية . وإما لمطلق الإفساد بين المسلمين تشفياً وانتقاماً ، فانطلق من هؤلاء ابن السوداء أو ابن سبأ اليهودى إلى الشام ، واندس على أبى ذر وأمثاله من الصحابة ، يوسوس لهم بما يوسوس، فلم تنطل حيلته على غير أبى ذر ، وإليك ما رواه الطبرى بهذا الصدد عن يزيد الفقعسى قال

لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال ، يا أبا ذر : ألا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ، ألا أن كل شىء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين ، فأتى أبو ذر معاوية وقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله . قال معاوية يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟ قال فلا تقله . قال فإنى لا أقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين

---

(١) احتجن المال ضمه واحتواه .

قال يزيد وأتى ابن السوداء أبا الدرداء ، فقال له من أنت أظنك والله يهودياً ، فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به ، فأتى به معاوية فقال هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر .

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول ، يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء : بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء مايلقون من الناس ، فكتب معاوية إلى عثمان إن أبا ذر قد أعضل بى ، وقد كان من أمره كيت وكيت فكتب إليه عثمان إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثبت فلا تنكأ القرح[1] ، وجهز أبا ذر إلىّ وابعث معه دليلا ، وزوده وارفُق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت .

فبعث إليه بأبى ذر ومعه دليل ، فلما قدم المدينة ورأى المجالس فى أصل سلع قال : بشر أهل المدينة بغارة شعواء[2] ، وحرب مذكار[3] ، ودخل على عثمان فقال يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذر بك[4] ، فأخبره أنه لا ينبغى أن يقال مال الله ، ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا . فقال يا أباذر على أن أقضى ماعلىّ ، وآخذ ماعلى الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد . قال فتأذن لى فى الخروج فإن المدينة ليست

---

(١) قوله فقد أعضل بى أى أعيانى وقوله أخرجت خطمها أى مقدم أنفهـا ، وقوله فلاتنكأ القرح أى لاتدميه ، والقرح هو الجرح .

(٢) أى متفرقة . (٣) أى ذلك أهوال لايقدم عليها إلا ذكور الرجال .

(٤) أى حدة لسانك .

لى بدار . قال أو تستبدل إلا شراً منها ، قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخرج منها إذا بلغ البنا سلعاً . قال فانفذ لما أمرك به . فخرج أبو ذر حتى نزل الربذة فخط بها مسجداً ، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل ، وأعطاه مملوكين ، وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً ففعل

وروى الطبرى أيضاً عن ابن عباس قال كان أبو ذر يختلف من الربذة إلى المدينة مخافة الأعرابية ، وكان يحب الوحدة والخلوة ، فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار . فقال لعثمان لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغى للمؤدى الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات . فقال كعب الأحبار من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه . فقال له أبو ذر يا ابن اليهودية ما أنت وما هاهنا ، والله لتسمعن منى ، أو لأدخل عليك ، ورفع محجنه فضربه فشجه . فاستوهبه عثمان فوهبه له وقال (لأبى ذر) يا أبا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك اه .

واعلم أن قول أبى ذر بوجوب بذل المعروف والإحسان إلى الناس على الوجه الذى يقوله ناشىء عن استمساكه الشديد بالدين ، وما أشرب به قلبه من فضائل الإسلام وتعاليمه التى ترمى إلى ذلك الغرض الجليل ، لتجعل الناس كلهم بالتمتع بثمرات الحياة شرعاً سواء ، إلا أنه كان يتغالى بهذا المشرب تغالياً تستخشن مركبه النفوس الميالة من طبعها إلى المزيد من كل شىء ، على أن القصد والتوسط فى هذا المذهب هو المطلوب ، وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين فى المال ، المغالين فى حب الذات ، فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته ، لكانوا أعز الأمم جانباً وأسعدها حالا ، إذ خلق التعاون على البر إذا نشأ بنشوء الأمة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة فى الصدور ، تنمو بنمو

الحياة القومية ، ومن العجيب أن لا يتأصل هذا الخلق ولا تنمو هذه الملكة فى نفوس الأمة التى نزل كتابها بالحث عليه ، والتخلق به . وقام من سلفها من ينبه العقول الغافلة عنه منذ نبت الإسلام ، واجتمع على كلمته أولئك الأقوام ، وعسانا نلم بشيء من هذا البحث فيما يلى من هذا الكتاب إن شاء الله .

هذا وقد جاء فى حكاية شخوص أبى ذر إلى الربذة روايات أخرى غير ماتقدم تحاشينا إيرادها كما تحاشاه الطبرى وابن الأثير وغيرهما من محقق المؤرخين ، علماً منهم بضعف تلك الروايات ، ولا جرم أن كل ناقد بصير إذا رأى روايتين متضادتين يرجح المعتدلة منهما ، لارتياح الضمير إليها بالإضافة إلى عصر الخلفاء الراشدين الذى هو خير العصور الإسلامية بشهادة التاريخ نفسه .

وأما أبو ذر رضى الله عنه فقد توفى فى الربذة سنة (٣٣ هـ) أى بعد حادثته هذه وشخوصه إلى الربذة بثلاث سنين .

آثاره فى الخلافة

من أعظم آثار عثمان رضى الله عنه ، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء ، جمعه الناس على مصحف واحد ، بعد أن تعددت القراءات واختلف فيها أهل الأمصار ، وفضله فى ذلك كفضل أبى بكر رضى الله عنه فى جمع القرآن وتحرير الخبر عن ذلك كما ذكره ابن الأثير وابن عساكر أن حذيفة بن اليمان لما قفل مع سعيد بن العاص من غزوة أزربيجان والباب ، قال حذيفة لسعيد إنى قد سمعت فى سفرى هذا أمراً لئن ترك الناس عليه ليختلفن فى القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً ، قال وما ذاك ، قال رأيت أهل الشام حين قدموا علينا فرأيت أناساً من أهل حمص يزعمون لأناس من أهل الكوفة أنهم

أصوب قراءة منهم ، وأن المقداد أخذها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الكوفيون مثل ذلك وأنهم أخذوا قراءتهم عن ابن مسعود ورأيت من أهل دمشق قوماً يقولون لهم لا، نحن أصوب منكم قراءة ،ويقول هؤلاء لهم مثل ذلك . فلما رجع إلى الكوفة دخل المسجد فحذر الناس مما سمع في غزاته تلك ، وحذرهم مايخاف، فساعده على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أخذ عنهم وعامة التابعين . وقال له أقوام ممن قرأ على عبدالله بن مسعود وماتنكر ألسنا نقرأ على قراءة ابن أم عبد ؟ وأهل البصرة يقولون على قراءة أبي موسى ويسمونها لباب الفؤاد ، وأهل حمص يقولون على قراءة المقداد وسالم . فغضب حذيفة من ذلك والصحابة والتابعون وأبناؤهم ، وقالوا لهم إنما أنتم أعراب فاسكتوا فإنكم على خطأ .

وقال حذيفة والله لئن عشت حتى آتى أمير المؤمنين لأشكون إليه ذلك ولأشيرن عليه أن يحول بينهم وبين ذلك حتى يرجعوا إلى جماعة المسلمين ، والذى عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد بن العاص ، وغضب حذيفة فقاموا وتفرقوا ورحل حذيفة إلى عثمان حتى قدم عليه ، فأخبره بالذى حدث وقال أنا النذير العريان فأدركوا هذه الأمة ، فجمع عثمان الصحابة وأقام حذيفة فيهم بالذى رأى وسمع ، وبالذى عليه حال الناس ، فأعظموا ذلك ورأوا جميعاً مثل الذى رأى ، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها ، وكانت هذه الصحف التى كتبت فى أيام أبى بكر على الوجه الذى ذكرنا فى سيرته ، وأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ؛ وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان إذا اختلفتم فا كتبوها بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا ، فلما نسخوا الصحف ردها عثمان إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف وحرق

ما سوى ذلك . وفى رواية لابن عساكر عن مصعب بن سعيد ، أن عثمان خطب يومئذ فى الناس وعزم على كل رجل عنده شىء من كتاب الله لما جاء به ، فكان الرجل يجىء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دعاهم رجلا رجلا فناشدهم أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك ؟ فيقول نعم : فلما فرغ من ذلك عثمان قال من أكتب الناس ؟ قالوا كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت . قال فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص قال فليمل سعيد، وليكتب زيد فكتب زيد مصاحف ففرقها فى الناس ، قال وسمعت بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقول ، قد أحسن وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لما أحرق عثمان المصاحف ، لو لم يصنعه هو لصنعته أنا ، فجزى الله عثمان عن الأمة خير الجزاء ، فقد أحسن وبر فيما صنع ، وكان له فضل فى رد الناس إلى قراءة واحدة كفضل أبى بكر فى جمع القرآن .

زيادته فى المسجد الحرام وفى مسجد الرسول :

فى سنة (٢٦ هـ) زاد عثمان فى المسجد الحرام ووسعه ، وابتاع من قوم وأبى آخرون فهدم عليهم ووضع الأثمان فى بيت المال فصيحوا[1] بعثمان فأمر بهم إلى الحبس، وقال أتدرون ماجرأكم على؟ ماجرأكم إلا حلمى قدفعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به . ثم كلمه فيهم عبدالله بن خالد بن أسيد فأخرجوا .
وفى سنة (٢٩ هـ) زاد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسعه ، وابتدأ فى بنائه فى شهر ربيع الأول وكان الجص يحمل إليه من بطن نخل ، وبناه بالحجارة المنقوشة ، وجعل عُمُدَه من حجارة فيها رصاص . وسقفه ساجاً وجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه مائة وخمسين ذراعاً ، وجعل أبوابه على ما كانت عليه على عهد عمر ستة أبواب .

(١) صيح صوت بأقصى طاقته .

محمدة مآثره :

من مآثره الجميلة أن رزق المماليك دون أن ينقص شيئاً من رزق (مرتب) مواليهم ، كما مر الخبر عن ذلك فى الكلام على عزل الوليد بن عقبة وزيادته فى الأعطيات للناس . ومن مآثره ترتيب الطعام فى شهر رمضان لأهل المدينة ، وإقامته دور الضيافات فى الكوفة كما روى ذلك الطبرى ، ومن مآثره إقطاعه الأرضين التى جلا أهلها عنها للعرب ، لكى يعتملوا فيها ويعمروها ، كما مر بك الخبر عن مثل ذلك فى فتح كرمان ، وقد كان عمر رضى الله عنه لا يأذن باعتمال العرب فى الأرضين كما علمت من سيرته ، وأذن لهم عثمان رضى الله عنه لما اتسع الفتح وانتشر العرب فى البلاد وجلا من جلا من أهلها ، ورأى ضرورة إحياء ما تركوه من الأرضين وأن يقوم العرب على عمرانها ضناً بها أن تهمل ويخسر ثمرتها الدولة والناس .

ومن مآثره اتخاذه دار القضاء كما يظهر ذلك من رواية رواها ابن عساكر عن أبى صالح مولى العباس ، قال : أرسلنى العباس إلى عثمان أدعوه فأتيته فى دار القضاء إلى آخر الحديث فإذا صح فيكون عثمان هو أول من اتخذ فى الإسلام داراً للقضاء ، وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء فى المسجد كما هو مشهور .

أولياته :

نقل السيوطى عن الأوائل للعسكرى أن عثمان أول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من خلّق (نقش) المسجد ، وأول من أمر بالأذان الأول فى الجمعة ، وأول من رزق المؤذنين ، وأول من أرتج عليه (من الخلفاء) فى الخطبة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم .

وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه ، وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد (المشهور أن أول من اتخذها معاوية) وأول ما وقع الاختلاف فى زمانه بين الأمة ، فخطأ بعضهم بعضاً فى أشياء نقموها عليه ، وكانوا قبل ذلك يختلفون فى الفقه ، ولا يخطىء بعضهم بعضاً ، هذا ما نقله السيوطى من أوائل العسكرى ، وزاد عليه أنه أول من هاجر إلى الله بأهله وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة اهـ

أخلاقه ومناقبه

سياسته وعدله :

كان عثمان رضى الله عنه لين الجانب ، رءوف القلب ، محسناً إلى الرعية ، ومن أبطرته النعمة وغره حلم الأمير . ولم يكن له زاجر من نفسه . ورقيب عليه من خلقه . ربما انقلب إلى الإساءة فى مقابل الإحسان كما وقع ذلك لعثمان رضى الله عنه فيمن أحسن إليهم ، كمحمد بن أبى حذيفة وأمثاله ، من الذين حرضوا عليه وأساءوا إليه ، لذا كانت سياسة اللين والإناة التى اتبعها عثمان محمودة فى نفسها مذمومة فى نتائجها ، والعرب وإن كانوا يومئذ ذوى أخلاق عالية يندر وجودها فى غيرهم من الأمم ، كالكرم وبذل المعونة والشجاعة والإقدام إلا أنه كان ينقصهم النظر فى العواقب ، وعدم التجارب لبعدهم عن سياسة الملك ولوازم الحضارة ، ويذرى بهم الاستغراق فى البدٰوة وفقدهم لأصول التربية الصحيحة ، وشرههم إلى الفخر بالعصبية والاعتزاز بالقبيلة ، وكل هذا من الأمور التى تبعث على حب الشقاق ، وهدم أركان الألفة وتسرع بخطى الناس إلى مواقع الفتن ، لهذا فالقوم يومئذ قل أن تنجع فيهم سياسة كلها لين ، بل الأنجع فيهم والأولى فى تقويم أودهم سياسة وسط بين الشدة واللين ، ريثما تأنس بالطاعة نفوسهم ، وتستنير بنور الإسلام عقولهم ، ومن تأمل فيما جاء به الإسلام من الزواجر القامعة .

والقوارع الزاجرة ، والوعيد الشديد ، علم لماذا اختار الشارع طريق الشدة في استصلاح القوم ، وقد انتهج أبو بكر وعمر هذا المنهج في سياسة العرب فمضت أيامهما والأمة في شاغل من الرهبة واشتغال بالفتح ، ليس فيها من يجرؤ على شق عصا المسلمين ، أو مناهضة الخليفة في شأن من شئون الدولة ، إلا ما كان من نصيحة يؤدونها ، أو رأى صالح يبدونه ، أو كلمة حق يقولونها بسائق الحرية التي ألفوها ، والواجب الذي يدعوهم الدين إليه ، فلما ولى عثمان وانكشف لهم من لينه جانب الضعف ناهضه قويهم ، واجترأ على قول غير الحق ضعيفهم ، حتى إذا أراد أن يبسط على بعضهم يد القوة ، ويأخذ منهم على الشكائم ، نفروا منه ، وتحولوا بكليتهم عنه ، فكان إحسانه إليهم ولينه معهم سبب إساءتهم إليه ، وافترافهم في مذاهب الاختلاف عنه يدلك عليه ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن سالم بن عبد الله قال .

لما ولى عثمان حج سنواته كلها إلى آخر حجة حجها ، وحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم معه كما كان يصنع عمر فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه ، وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد هذا في مؤخر القطار وهذا في مقدمته ، وأمر الناس[1] فكتب في الأمصار أن توافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم ، وكتب إلى الناس والأمصار أن ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ؛ فإني مع الضعيف على القوى ما دام مظلوماً إن شاء الله ، فكان الناس كذلك فجر ذلك إلى أن اتخذه أقوام وسيلة إلى تفريق الأمة اهـ (أى بحجة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) وربما يعجب القارىء أن يجر مثل هذا الحلم ، والتناهى فى الرأفة والعدل ، إلى ما كان من الفتن ، والجرأة على التوثب على الخليفة ، لكن ما بسطناه من أخلاق القوم يكفى للدلالة على أن عثمان جر على نفسه ماجر

(١) الناس تطلق على الواحد فأكثر فقوله أمر الناس أى أمر واحداً ، وفى رواية الطبرى فأمن الناس وكتب الى الأمصار الخ الحديث .

بسياسة اللين التى لا تصلح لقوم شأنهم ما ذكرناه ، لا سيما إذا أضفنا إلى هذا من سياسة عثمان رضى الله عنه أمرين عظيمين (الأول) إطلاقه سراح المهاجرين من المدينة ، وقد كان يمنعهم عن الخروج منها عمر (والثانى) استبداله بعض العمال بمن ليسوا فى مقدرة من اختارهم عمر للأعمال ، كسعد ابن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص وأشباههما (فأما الأمر الأول) فقد ذكروا أن عمر كان حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل[1] وروى ابن عساكر عن محمد وطلحة قالا فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان أخذهم به عمر ، فانساحوا فى البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع إليهم من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام وكان مغموراً فى الناس وصاروا أوزاعا إليهم ، وأملوهم وتقدموا فى ذلك وقالوا يملكون فنكون عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة ليس لها ذلك ا ه .

وأنت ترى من هذا الخبر مقدار الخطر الذى جره على نفسه عثمان ، بمثل هذه السياسة التى وإن كانت فى نفسها عدلا وحسن صنع ، ومنة على قريش كمنته فى بذل جانب اللين ، والإحسان لعامة المسلمين ، إلا أنها جاءت قبل أوانها فكانت فتنة للمهاجرين وضراً على الخلافة ، كما سترى ذلك فى غير هذا المحل إن شاء الله .

وأما الأمر الثانى وهو استبداله من هو أقوى من العمال بمن هو أضعف

---

(١) روى الطبرى عن الشعبى قال لم يمت عمر حتى ملته قريش ، وقد كان حصرهم بالمدينة وامتنع عليهم ، وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد ، فإن كان الرجل ليستأذنه فى الغزو وهو ممن حبس فى المدينة من المهاجرين ، ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة ، فيقول قد كان لك فى غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك .

فقد كان سببه استضعاف أعدائه له واغترارهم بحبه للإنصاف إذا طلب أحد من الناس أن ينصفهم من أحد عماله ، فكانوا يكيدون لعماله المكائد لكى يستعفوه ممن لا يريدونه منهم ، وكان من أكثر عماله يقظة وأشدهم أخذاً برقاب أهل الفساد ، وأسدهم سياسة فى الرعية عمرو بن العاص ، فما زال به أهل مصر حتى عزله عثمان ، وجمع إمارتى الخراج والحرب لعبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، وقد كان عبد الله أميراً على الحرب فى خلافة عثمان ، وأميراً على الصعيد الأعلى فى خلافة عمر ، وتوفى عمر وهو أمير على الصعيد ولم يكن ابن أبى سرح بالضعيف ولا الجبان ، إلا أنه كان لهم من سابقته فى إهدار رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه ، وقرابته من عثمان وسيلة يتوسلون بها فى كل وقت إلى مناهضة مثله ، ومحاجة عثمان بولايته ، وقد كان ذلك كذلك كما سترى بعد . وأما تسرع عثمان رضى الله عنه فى عزل مثل عمرو بن العاص بدسائس أولئك الناس فقد رواه ابن عساكر عن يزيد الفقعسى قال:

لما خرج ابن السوداء إلى مصر أعمر فيهم (أى لزمهم) ، فأقام فنزل على كنانة بن بشر مرة ، وعلى سودان بن حمران مرة ، وانقطع إلى الغافقى فشجعه الغافقى فتكلم وأطاف به خالد بن ملجم وعبد الله بن زريم وأشباه لهم ، فصرف لهم القول فلم يجدهم يجيبون إلى شىء مما يجيبون إلى الوصية (أى وصية على) فقال عليكم ناب العرب وحجرهم ولسنا من رجاله ، فأروه أنكم تزرعون ولا تزرعون العام شيئاً حتى ينكسر الخراج فتشكونه فيعزل عنكم ونسأل من هو أضعف منه ، ونخلو بما نريد ، ونظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان أسرعهم إلى ذلك وأعلاهم فيه محمد ابن أبى حذيفة ، وهو ابن خال معاوية وكان يتيما فى حجر عثمان ، فلما ولى استأذنه فى الهجرة إلى بعض الأمصار فخرج إلى مصر ، وكان الذى دعاه إلى ذلك أنه سأله العمل . فقال (أى عثمان) لست هناك ، ففعلوا ما أمرهم

به ابن السوداء ثم إنهم خرجوا أو من شاء الله منهم، وشكوا عمراً واستعفوا منه . فكان كلما نهنه (زجر) عثمان عن عمرو قوماً وسكنهم وأرضاهم ، وقال إنما هو أمير ، انبعث آخرون بشيء آخر وكلهم يطلب عبدالله بن سعد ابن أبي سرح . فقال لهم عثمان أما عمرو فسننزعه عنكم لما زعمتم أنه أفسد ، وأما الحرب فسنقره عليها ونولى من سألتم . فولى عبدالله بن سعد خراجهم خراج مصر وترك عمراً على صلاتها ، فمشى في ذلك سودان بن حمران وكنانة بن بشر وخارجة وأشباههم فيما بين عمرو وعبد الله بن سعد ، وأغروا بينهما حتى احتمل كل واحد منهما على صاحبه ، وتكاتبا على قدر ما أبلغوا كل واحد منهما . فكتب عبدالله بن سعد (أى لعثمان) أن خراجي لايستقيم مادام عمرو على الصلاة ، فخرجوا فصدقوه واستعفوا من عمرو ، وسألوا عبد الله فكتب عثمان إلى عمرو أنه لاخير لك فى صحبة من يكرهك فأقبل : وجمع مصر لعبدالله صلاتها وخراجها . فقدم عمرو فقال له عثمان : أبا عبدالله ماشأنك أستحيل رأيك : فقال . ياأمير المؤمنين دعنى فوالله ماأدرى من أين أتيت ومااتهم عبدالله بن سعد ، وإن كنت لأهل عملى كالوالدة وماقدر العارف والشاكر على معونتى اه .

وقد تقدم فى سيرة عمر وسياسته مع عماله أنه كان لايعزل عاملا عن شكاة إلا بعد أن يرسل محمد بن مسلمة لتحقيق وجوه الشكوى ، ويستقدم الشاكي والمشكو منه إلى المدينة ليقف بنفسه على جلية الأمر ، كما أنه لم يول الأعمال أحداً من ذوى قرباه ، لذا لم يجعل لأحد من الناس سبيلا عليه ولا على عماله إلا بالحق ، بخلاف عثمان فإنه لما لم يسلك فى سياسته مع العمال هذا الطريق الأسد ، والنهج الأوضح ، وأطلق للقوم عنان القول بحق وبغير حق ، فجعل يسرع بالعزل تارة ويمسك من شاء أخرى ، أوجد للقوم سبيلا إليه فقلبوا له ظهر المجن ، وملئوا عليه الأرض بالفتن ، كما سيأتى الكلام عليه فى محله إن شاء الله .

وأما عدله فما يروى عنه ماأخرجه ابن عساكر عن عطاء بن فروخ مولى القرشيين قال : اشترى عثمان من رجل أرضاً فأبطأ عليه فقال مامنعك من قبض مالك . قال إنك غبنتني فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومني، قال أذلك يمنعك ؟ قال نعم قال فاختر بين أرضك ومالك ، ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أدخل الله الجنة رجلا كان سهلا مشترياً أو بائعاً . وقاضياً ومقتضياً) .

ومنه ماأخرجه ابن سعد عن موسى بن طلحة قال . رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان أصفران ، فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسعارهم وعن أخبارهم وعن مرضاهم : وهذا يدل على أنه كان دائم التفقد لحال الرعية والسؤال عنهم .

أدبه وتأديبه

أدبه مع نفسه ومع الرسول :

أخرج ابن عساكر عن ابن عيينة أنه قال . قال عثمان بن عفان ماتغنيت ولاتمنيت ولاشربت خمراً فى جاهلية ولا إسلام ، ولامسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقوله ولامسست الخ تناه فى الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاحترام ليده الشريفة التى مس بها يده ليس بعجيب صدوره عن عثمان ، مع ماعرف به من حب الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه له ، وبذل ماله فى سبيل مرضاته فرضى الله عنه وأرضاه .

تأديبه لنفسه :

نقل فى الرياض النضرة فى فضائل العشرة من رواية ابن السمان عن أبى الفرات قال . كان لعثمان عبد فقال له إنى كنت عركت أذنك فاقتص

منى ، فأخذ بأذنه . ثم قال عثمان . اشدد ياحبذا قصاص فى الدنيا لا قصاص فى الآخرة .

وهذه مكانة من كرم الأخلاق وخفض الجناح والتقوى ، وإعطاء الحق لايبلغها إلا أولئك الصحابة الكرام الذين تخلقوا بخلق نبيهم عليه الصلاة والسلام .

تأديبه المسلمين :

من أخباره فى التأديب ماأخرجه ابن عساكر عن أبى الزناد أنه ذكر أن رجلا من ثقيف جلد فى الشراب فى خلافة عثمان بن عفان ، وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ومجلس فى خلوته ، فلما جلد أراد ذلك المجلس فمنعه إياه وقال ، لاتعود إلى مجلسك أبداً إلا ومعنا ثالث .

وروى الطبرى أن رجلا استخف بالعباس فى منازعة كانت بينهما . فضربه عثمان فقيل له فى ذلك . فقال نعم أيفخم رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه وأرخص فى الاستخفاف به ، لقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك ومن رضى به منه .

تواضعه :

كانت أخلاق عثمان رضى الله عنه كلها فضائل ، اتشح بردائها وأخذ نفسه بها ، ولو لم يأت عليه الكبر فيضعفه وتضطرب سياسته من أجل ذلك فى أواخر خلافته ، فيكون من الطعن عليه ماكان لما شاب سيرته شائبة ولكانت كسيرة صاحبيه ، وأما ماعدا تلك الحوادث التى حدثت له ومهدت لبعضهم سبيل الإنكار عليه فهو فى المكانة العليا من الأخلاق البارة والشيم الجميلة وأخصها التقوى والكرم والتواضع والحياء . فمما جاء من

أخبار تواضعه ما أخرجه ابن عساكر فى تاريخه عن الحسن. قال: رأيت عثمان نائماً فى المسجد ورداؤه تحت رأسه ، فيجىء الرجل فيجلس إليه ثم يجىء الرجل فيجلس إليه ، ويجىء الرجل فيجلس إليه كأنه أحدهم . وروى عن الحسن أيضاً أنه سئل عن القائلة فى المسجد ، فقال رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة يقيل فى المسجد ، ويقوم وأثر الحصى بجبينه فقيل هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين .

وأخرج عن على بن مسعدة عن عبد الله الرومى ، قال كان عثمان يلى وضوء الليل بنفسه ، فقيل له لو أمرت بعض الخدم فيكفوك قال لا الليل لهم يستريحون فيه . وعن الزبير بن عبد الله قال . حدثتنى جدتى أن عثمان كان لا يوقظ أحداً من أهله إذا قام من الليل ، إلا أن يجده يقظان فيدعو فيناولوه الوضوء وكان يصوم الدهر .

حياؤه .

كان عثمان (رضى الله عنه) مشهوراً بشدة الحياء وهو خلق جميل ، وأدب نفسى ، يزين المرء إذا توسطه ولم يفرط فيه ، ولعل من جملة ما أطمع الناس فى عثمان شدة حيائه وحلمه ، كما أشرنا إلى ذلك فى سياسته ولا عجب فى ذلك فإن من الناس من إذا استحييت منه لم يستح منك وجرأه حياؤك عليك ، ومما جاء من أخباره فى الحياء ما رواه ابن عساكر عن سالم أبى جميع الهجيمى قال ذكر عند الحسن حياء عثمان ، وأنا أسمع قال (أى الحسن) كان عثمان ليكون فى جوف البيت والباب عليه مغلق ، فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء أن يرفع صلبه .

شفقته على الرعية :

نقل فى الرياض النضرة عن سليمان بن موسى أن عثمان بن عفان دعى

إلى قوم كانوا على أمر قبيح ، فخرج إليهم فوجدهم تفرقوا ، ورأى أمراً قبيحاً فحمد الله إذ لم يصادفهم وأعتق رقبة .

واعلم أن الصحابة وأخصهم الخلفاء الأربعة كانوا يتحاشون فضيحة الناس ، خصوصاً فيما يترتب عليه حد من الحدود اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وسنفرد للكلام على هذا الأمر باباً مخصوصاً فى هذا الكتاب إن شاء الله .

كرمه :

كرم عثمان معروف وقد سبق فى هذا الكتاب ذكر تجهيزه لجيش العسرة من ماله بما لم يسبق لأحد قبله ، ولما ولى الخلافة زاد فى أعطيات الناس ، ورزق المماليك كما قدمنا ، وأغدق على ذوى رحمه ووصلهم وأغناهم ، وكان هذا مما أنكر عليه ونقم منه لأجله ، وكان حبه للكرم تابعاً لمذهبه فى البذل والتوسع فى المعيشة والتنعم بالرزق ، ولم يكن ميالا للتقشف وشظف العيش ، لذلك فكما كان يحب أن يوسع على نفسه يحب أن يوسع على أهله وعشيرته ، وليس فى هذا ما يقدح فى عفته أو دينه ، إذ الدين يأمر بصلة ذوى الرحم ويبيح التمتع بطيب العيش ، وطريقة أبى بكر وعمر قبله فى الزهد والتقشف التى أخذا بها أنفسهما ليست بالأمر المستطاع لكل مسلم ، وإنما هى تورع واتباع لطريقة النبى صلى الله عليه وسلم فى الزهد ، وهى محمودة فى نفسها للخلفاء وليست بواجبة بل الواجب هو القصد وعدم السرف والعفة عن الفضول ، وقد كان عثمان رضى الله عنه عفيف النفس بالضرورة لأن الكرم يكون مع العفة لا مع الشره ، وهو من أكرم الناس ولم ينحصر كرمه فى ذوى قرابته بل تعداه إلى غيرهم أيضاً ، ومما يروى عن كرمه غير ما تقدم ذكره ما أخرجه ابن عساكر عن ابن سعيد بن يربوع

ابن عنكشة المخزومى ، قال انطلقت وأنا غلام فى الظهيرة ومعى طير أرسله من المسجد والمسجد بيننا ، فإذا شيخ جميل حسن الوجه نائم تحت رأسه لبنة أو بعض لبنة ، فقمت أنظر إليه أتعجب من جماله ففتح عينيه ، فقال من من أنت يا غلام . فأخبرته فنادى غلاماً قريباً منه فقال لى ادعه فدعوته فأمره بشىء وقال اقعد . قال فذهب الغلام فجاء بحلة وجاء بألف درهم ، فنزع ثوبى وألبسنى الحلة وجعل الألف درهم فيها . فرجعت إلى أبى فأخبرته فقال يا بنى من فعل هذا بك ، فقلت لا أدرى إلا أنه رجل فى المسجد نائم لم أر قط أحسن منه . قال ذلك أمير المؤمنين عثمان .

وروى ابن عساكر عن أبى إسحق السراج قال . قال لى أبو إسحق القرشى يوماً من أكرم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت عثمان ابن عفان قال كيف وقعت على عثمان من بين الناس ؟ قلت لأنى رأيت الكرم فى شيئين . فى المال والروح ، فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاد بروحه على أقاربه . قال لله درك : وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً فقال له يوماً قد تهيأ مالك فاقبضه ، قال هو لك معونة على مروءتك (وكان طلحة جواداً لذلك قال له ماقال) .

صلاته وتقواه :

كان كثير التقوى والقنوت ، كثير الصلاة كثير قراءة القرآن ، شديد الولع به والاستظهار له ، وسئل ابن عمر عن قوله تعالى (أمَّنْ هو قانت آناء الليل) الآية قال نزلت فى عثمان (رواه ابن عساكر) وأخرج عن إسرائيل ابن موسى قال سمعت الحسن يقول : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا ، إنى أكره أن يأتى على يوم لا أنظر فى المصحف . وروى ابن عساكر من طرق كثيرة أن عثمان كثيراً ما رؤى فى المقام يصلى من أول الليل إلى بزوغ الفجر .

وأخرج عن الحسن قال لما كان من بعض هيج الناس ما كان . جعل رجل يسأل عن أفاضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل لا يسأل أحداً إلا ودله على سعد بن مالك (أى ابن أبى وقاص) فجلس أياماً لا يسأله عن شىء حتى استأنس به فذكر الحديث . قال أخبرنى عن عثمان : قال كنا إذ نحن مع رسول الله صلى عليه وسلم كان أحسننا وضوءاً وأطولنا صلاة . وأعظمنا نفقة فى سبيل الله اهـ .

كتبه وخطبه

كتبه :

لما استخلف عثمان رضى الله عنه كتب كتباً غراء إلى عماله وولاته والعامة ، يوصيهم فيها بالقيام على الحق وحسن السيرة، وقد أوردهذه الكتب الطبرى فى تاريخه وهذه صورتها .

١ — كتابه إلى عماله :

أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ، ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء ، والأمانة والوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوا بما عليهم . ثم تثنوا بالذمة (أى أهل الذمة) فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم . ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء . . اهـ

فانظر كيف يحرّض الخلفاء الراشدون فى كتبهم وخطبهم على حسن معاملة أهل الذمة ، والوفاء للعدو المحارب ، وقد رأيت من هذا شيئاً كثيراً فى

سيرة عمر رضى الله عنه ، وليت شعرى هل للمسلمين أن يعقلوا ، وللمسيحيين أهل الذمة والأجانب منهم أن يعدلوا .

٢ — كتابه إلى أمراء الأجناد فى الثغور :

أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم[1] ، وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا ، بل كان عن ملإ منا . ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله مابكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه .

٣ — كتابه إلى عمال الخراج :

أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ، ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم .

٤ — كتابه إلى العامة :

أما بعد فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الدنيا صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم ، تكامل النعم[2] ، وبلوغ أولادكم ، من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر فى العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا .

---

(١) أى المدافعون عنهم

(٢) النعم ضد البؤس

٥ — وكتب إلى عماله أيضاً :

أما بعد استعينوا على الناس وكل ما ينوبكم بالصبر والصلاة ، وأمر الله أقيموه ولاتدهنوا فيه ، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك ،وارضوا من الشر بأيسره فإن قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذى ألف بين القلوب هو الذى يفرقها ويباعد بعضها من بعض ، سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة : ابن عساكر

٦ — وكتب إليهم أيضاً :

إن الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) وهو مفرقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بحد قبل استيجابه ، فإن الله تعالى قال (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر) من كفر داويناه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه ، حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله : ابن عساكر .

٧ — وكتب أيام الفتنه إلى المسلمين يعلمهم حاله وما صبر عليه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) إلى المؤمنين والمسلمين سلام عليكم : أما بعد فإنى أذكركم الله الذى أنعم عليكم ، وعلمكم الإسلام ، وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر ، وأراكم من البينات ، ونصركم على الأعداء ، ووسع عليكم من الرزق ، وأسبغ عليكم نعمته، فإن الله عز وجل يقول (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته . . إلى . . يهتدون) ، (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير إلى . . المفلحون) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا . . إلى عظيم) وقال (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه . . إلى . سمعنا وأطعنا) وقال (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ . . إلى . . حكيم)

وقال (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا .. إلى .. أليم) وقال (واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم .. إلى . يفعلون) ، (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم .. إلى .. تختلفون) ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم .. إلى .. أليم)، (ولا تشتروا بعهد الله إلى تعلمون) ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (ولا تشتروا بآيات الله : الآية) وقال أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ...إلى تأويلا) وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض .. إلى .. الفاسقين) إن الذين يبايعونك .. إلى .. عظيما) ابن عساكر :

٨ — وكتب مثله أيضاً :

(بسم الله الرحمن الرحيم) : أما بعد : فإن الله قد رضى لكم السمع والطاعة ، وكره لكم المعصية والفرقة والاختلاف ، وقد أنبأكم فعل الذين من قبلكم وتقدم إليكم فيه لتكون له الحجة عليكم إن عصيتموه . فاقبلوا نصيحة الله واحذروا عقابه ، فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف ولا يكون لها إمام يجمعها ، ومتى ما تفعلوا ذلك تفرقوا دينكم وتكونوا شيعاً ، قال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً . إلى .. يفعلون) وإنى أوصيكم بما أوصاكم الله به وأحذركم عذابه ، وإن القرآن نزل لنعتبر به وننتهى إليه (أولا ترون إلى شعيب قال لقومه يا قومى لا يجرمنّكم شقاقى إلى .. بعيد) وياقومى استغفروا ربكم .. إلى .. ودود) ابن عساكر .

٩ — وكتب كتاباً آخر مثله أيضاً :

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فإن أقواماً ممن كان يقول فى هذا

الحديث ، أظهروا للناس إنما يدعون إلى كتاب الله والحق ، ولا يريدون الدنيا ولا منازعة فيها ، فلما عرض عليهم الحق إذا الناس فى ذلك شتى ، منهم آخذ للحق ونازع عنه حين يعطاه ، ومنهم تارك للحق رغبة فى الأمر ، يريدون أن يبتزوه بغير الحق . وقد طال عمرى وراث (أبطأ) عليهم أملهم فى الإمرة واستعجلوا القدر . وإنى جمعتهم والمهاجرين والأنصار فنشدتهم فأدوا الذى علموا ، فكان أول ماشهدوا به أن يقتل من دعا إلى نفسه أوإلى أحد ، وفسر لهم ما اعتدوا به عليه (أى الطعانون) وما أجابهم فيه الخ . .) ابن عساكر[1] .

١٠ — وكتب كتاباً أيام الحصار بعثه مع نافع بن طريف إلى أهل مكة ومن حضر موسم الحج هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عثمان أمير المؤمنين ، إلى من حضر الحج من المسلمين : أما بعد : فإنى كتبت إليكم كتابى هذا وأنا محصور أشرب من بئر القصر ، ولا آكل من الطعام ما يكفينى ، خيفة أن تنفد ذخيرتى فأموت جوعاً أنا ومن معى ، لا أدعى إلى توبة أقبلها . ولا تسمع منى حجة أقولها ، فأنشد الله رجلا من المسلمين بلغه كتابى إلا قدم على ، فأخذ الحق فى ومنعنى من الظلم والباطل (عن الإمامة والسياسية) .

١١ — ومن كتبه التى كتبها للأمراء وأهل الأمصار يستغيثهم بها ، كتابه إلى معاوية وأهل الشام وهذه صورته :

أما بعد : فإنى فى قوم طال فيهم مقامى ، واستعجلوا القدر فى ، وقد

---

(١) هذا الكتاب والكتابان اللذان قبله أوردها ابن عساكر متفرقة وأوردها الطبرى فى كتاب واحد مع اختلاف قليل فى اللفظ ، وذكر فى آخر الكتاب ما كتبه عثمان من قول الطعانين فيه وما أجابهم عنه ، مما لم أر حاجة لإيراده لذ أوردنا من سيرة عثمان وأخبار الفتنة ما هو بمعناه ، فمن أراد الكتاب برمته فليراجعه فى المجلد السادس من تاريخ الطبرى .

خيروني بين أن يحملوني على شارف[١] من الإبل الدحيل[٢] ، وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كساني ، وبين أن أقيدهم ممن قتلت ، ومن كان على سلطان يخطىء ويصيب ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه ، ولا أمير عليكم دوني ، فالعجل العجل يا معاوية وأدرك ثم أدرك ، وما أراك تدرك (الإمامة . .) .

١٣ — ومثله ما كتبه لأهل الأمصار :

(أما بعد) فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق بشيراً ونذيراً وبلغ عن الله ما أمره ثم مضى ، وقد قضى الذي عليه ، وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه ، وبيان الأمور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا ، فكان الخليفة أبو بكر : ثم عمر . ثم دخلت في الشورى في غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة . ثم اجتمع أهل الشورى عن ملأ منهم ، ومن الناس عن غير طلب ولا محبة مني . فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون تابعاً غير مستتبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف ، فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله ، بدت ضغائن وأهواء على غير اجترام ولا ترة فيما مضى ، إلا إمضاء الكتاب . فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا على أشياء عن ملأ ، من أهل المدينة لا يصلح غيرها ، فصبرت لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب ، أو من غزانا بأحد إلى ما يظهرون . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق اهـ (عن التمهيد والبيان) .

---

(١) الشارف الناقة المسنة (٢) الدحيل هكذا بالأصل ولم أجد لها معنى فلتحرر .

خطبــه

أول خطبة له :

قد تقدم معنا فى الكلام على استخلاف عثمان رضى الله عنه ذكر الخلاف فى أول خطبة لعثمان ، وإن من المؤرخين من يقول إنه أرتج عليه ، ومنهم من يقول إنه خطب ، وقد أورد هذه الخطبة الطبرى فى تاريخه من رواية سيف عمن رواها قال :

لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة ، فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال :

إنكم فى دار قلعة[1] وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أتيتم ، صبحتم أو مسيتم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى . ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها[2] وعمروها ومتعوا بها طويلا ، ألم تلفظهم؟[3] ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلا فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء . . إلى قوله . . أملا) .

٢ — وفى رواية أخرى للطبرى إن أول خطبة خطبها عثمان هى هذه :

أما بعد فإنى قد حملت وقد قبلت ، ألا وإنى متبع ولست بمبتدع . ألا وإن لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم : وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملإ : والكف عنكم إلا فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها : اهـ .

---

(١) أى عارية (٢) عمروها بالزراعة (٣) لفظ الشىء من فمه : رماه

٣ — وخطب أيضاً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس اتقوا الله فأن تقوى الله غنم وإن أكيس الناس من دان نفسه [١] ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله نوراً لظلمة القبور ، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيراً . وقد يكفى الحكيم جوامع الكلام ، والأصم ينادى من مكان بعيد ، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئاً ، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده ، اهـ عن ابن عساكر .

٤ — وخطب مرة فقال :

إن الناس يبلغنى عنهم هنات وهنات [٢] ، وإنى والله لا أكون أول من فتح بابها ، ولا أدارر حاها ألا وإنى زام نفسى بزمام وملجمها بلجام فأقودها بزمامها وأكبعها « أمنعها » بلجامها ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف ، ومن لم يتبعنى فنى الله خلف منه ، وعزاء عنه ، ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهداً ، سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها ، فمن كان يريد الله بشىء فليبشر ، ومن كان إنما يريد الدنيا فقد خسراه (ابن عساكر) .

٥ — وخطب وهو محصور فقال :

أيها الناس ، إن عمر بن الخطاب صير الأمر شورى فى ستة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عنهم راض ، فاختارونى وأجمعوا على ، ولم آل عن العمل بالحق وما توفيقى إلا بالله . وما أعلم أن لى ذنباً أكثر من طول ولايتى عليكم ، ولعل بعضكم أن يقول ليس كأبى بكر وعمر ،

---

(١) أى العاقل من قهر نفسه بمنعها عن الشهوات استعداداً لما بعد الموت .
(٢) أى يبلغنى عنهم أمور شرور وفساد كما فى لسان العرب .

أجل أجل لست كهما ، والأشياء أشباه قريبة بعضها من بعض ، وقد زعمتم أنكم تخلعونى فلا دون أن تعرونى (١) بأمر لا يحل لى إلا خلعها من عنق ، وأما العتبى فلكم ونعمت العتبى اهـ (مفتاح الأفكار) .

٦ — وخطب وهى آخر خطبة :

أما بعد إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى . فلا تُبطرنّكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله جل وعز فإن تقواه جنة (٢) من بأسه ، ووسيلة عنده واحذروا من الله الغير والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً اهـ (رواها الطبرى وابن عساكر) .

أخبار الفتنة ومقتل عثمان

مبادئ الفتنة :

أجمع الرواة وأهل الأخبار أن عثمان رضى الله عنه قضى الشطر الأكبر من خلافته وهو أحب إلى الناس من عمر رضى الله عنه ، لشدته ورأفة عثمان ولينه وإقبال الدنيا على الناس على عهده ، وتبسطهم فى المعيشة وامتلاء أيديهم من المغانم ، لكن غلب عليه بنو أمية فى أواخر مدته فآثرهم على غيرهم من قريش ، ووصلهم بالأموال الكثيرة فانحرفت عنه من أجل

---

(١) عره لطخه بشر يريد أنهم لا سبيل لهم الى خلعه إلا بسبب صحيح يستوجب الخلع ويحل له ترك الخلافة

(٢) الجنة الترس والوقاية .

ذلك القلوب ، ونظرت إليه قريش بغير عـــين الرضا ، ونهض لمناقشته الحساب أهل الأمصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية ، أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء ، كانت نتيجتها ضعف السلطة الشرعية ، وغلبة القوة والأثرة على الملك إلى اليوم .

أخرج ابن عساكر عن الحسن أنه قال ، أدركت عثمان على مانقموا عليه ، قل مايأتى على الناس يوم إلا ويقتسمون فيه خيراً فيقال لهم يامعشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم اغدوا على أرزاقكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم اغدوا على السمن والعسل ، الأعطيات جارية والأرزاق دارة والعدو منفى ، وذات البين حسن ، والخير كثير ، ومامؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان ، ألفته ونصيحته ومودته ، قد عهد إليهم أنها ستكون أثرة فإذا كانت أن تصبروا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأسيد بن حضير : ستلقون بعدى أثرة ، قال فما تأمرنا ، قال أن تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله : قال الحسن لو أنهم صبروا حين رأوها ، وأخذوا بأمر رسول الله لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير ، قالوا لا والله ما نصابرها فو الله ما ردوا ولاسلموا والأخرى كان السيف مغمداً عن أهل الإسلام ما على الأرض مؤمن يخاف أن يسل مؤمن عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم ، فوالله مازال مسلولا إلى يوم القيامة اه .

أما مبادىء الفتنة فقد قال ابن جرير الطبرى كان عثمان مستضعفاً طمع فيه الناس ، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بنى أمية عليه ، وكان ابتدا الجراءة عليه أن إبلا من إبل الصدقة قدم بها عليه فوهبها لبعض ولد الحكم ابن أبى العاص ، فبلغ ذلك عبدالرحمن بن عوف فأخذها وقسمها بين الناس ، وعثمان فى داره فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان ، وقيل إنه

خطب يوماً وبيده عصا كان رسول الله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها فأخذها جهجاه الغفارى من يده وكسرها على ركبته ، فلما تكاثرت أحداثه وتكاثر طمع الناس فيه كتب جمع من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من بالآفاق بذلك ، وبأن يقدموا لخلع عثمان فهاج الناس وكان ما كان .

وقد كان أول ما تكلم به فى الخارج محمد بن أبى حذيفة ، ومحمد بن أبى بكر ، إن عابا عثمان فى غزوة ذات الصوارى التى غزاها مع عبد الله بن سعد ابن أبى سرح فى البحر سنة إحدى وثلاثين وأظهروا عيبه ، وما خالف به أبا بكر وعمر ، وأنه استعمل عبد الله بن سعد رجلا أباح دمه رسول الله ونزل القرآن بكفره ، ونزع أصحاب رسول الله عن الأعمال وولاها مثل عبد الله بن سعد وسعيد بن العاص إلى غير ذلك من الكلام الذى ساء عبد الله فعزلهما عن المسلمين ، فى مركب ليس فيه غير القبط حتى رجع الجيش إلى مصر وأخذ ابن أبى حذيفة يفسد قلوب المسلمين على عثمان .

والذى يؤخذ من سياق أخبار الفتنة التى أوردها الطبرى وغيره من المؤرخين ، ولم يصرح به أحد منهم وإنما هو يستخرج من ثنايا الأخبار ، أن بذار الفتنة بذرت فى أنحاء المملكة وعواصمها الكبرى ، كمصر والبصرة والكوفة ، بدعوة سرية قام ببثها عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء (وكان يهودياً من حمير وأسلم على عهد عثمان) بإيعاز جمعية سرية [1] تريد بهذا

---

(١) لنا كلام طويل على الجمعيات السياسية فى الإسلام وأنها طالما قلبت كان الوجود السياسى وقامت بها دول نرجئه إلى سيرة على بن أبى طالب عند الكلام على الخوارج والشيعة ليرى القارىء ماذا كانت تفعل الجمعيات وكيف كان حال المسلمين ومكانتهم من الحياة العالية أيام شبابهم وكيف صاروا الآن إلى أرذل العمر ، وماتت فيهم كل مشاعر الحياة .

أحد أمرين إما تفريق المسلمين فى الدين أو تفريقهم فى السياسة ، وذلك لأن الدعوة التى قام بها ابن سبأ مشتركة بين الأمرين : الوصاية والرجعة : ومن مقتضى الأولى وجوب الخلافة لعلى دون غيره ، والوثوب على عثمان لنزع الخلافة منه ، ومن مقتضى الثانية الاعتقاد فى النبى صلى الله عليه وسلم أنه يرجع كما رجع عيسى : وتحرير الخبر عن ابن سبأ ودعوته أن هذا الرجل لما أسلم نزل فى البصرة على حكيم بن جبلة العبدى ، واجتمع إليه نفر فأخذ يغريهم بالدعوة التى قام بها فقبلوا منه ، وبلغ ابن عامر أمره فطرده من البصرة ، فخرج فأتى الكوفة فأخرج منها أيضاً فأتى الشام فأخرج منها فأتى مصر واستقر فيها ، والتف عليه ناس من أهل مصر منهم كنانة بن بشر وسودان بن حمران وخالد بن ملجم وأشباههم . فقال لهم : العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع : فوضع لهم الرجعة (١) فقبلت منه . ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان لكل نبى وصى ، وعلى وصى محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه . وإن عثمان أخذها بغير حق فانهضوا فى هذا الأمر ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا به الناس . وبعث دعاته وكاتب من استفسد فى الأمصار وكاتبوه ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم ، حتى تم لهم الأمر كما ستري بعد .

وأنت ترى أن الدعوة فى قسمها الأول أى القول بالوصاية سياسية ، وفى قسمها الثانى أى القول بالرجعة دينية ، فمصدرها إما أن يكون من جماعة سرية

---

(١) الظاهر أن الرجعة جعلها ابن سبأ بعد ذلك فى على لانتشار هذا الاعتقاد عند فريق من الشيعة يومئذ فى على وبنيه ، وقد نقل ابن حزم فى الملل والنحل ، أن ابن سبأ قال لما قتل على رضى الله عنه لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً .

من غير أهل الإسلام يريدون إدخال الوهن على عقيدة المسلمين وتفريق كلمتهم، وإما أنهم من جماعة سياسيين يريدون نزع الخلافة من عثمان خوفاً من استفحال الصبغة الأموية فى الدولة كما سترى بعد : هذا إن كان الجماعة من قريش ، وإن كانوا من غيرهم فإنما يريدون التذرع بأسباب الرياسة بتقربهم من على أو غيره ، وقد توسل أولئك الأحزاب السياسيون بالدين ، لأنه أقرب إلى التسلط على الأذهان بين قوم لم يخالط عقولهم شيء بعد من أمور السياسة والاجتماع . ولا يظنن القارىء أن قيام الدعوة باسم على رضى الله عنه تستلزم أنه الداعى لها كلا ، فإن هناك أموراً تدل على براعة القائمين بهذا الغرض بتوجيه الأفكار إلى على ، لقربه من رسول الله وفضائله الذاتية التى يعرفها يومئذ كل المسلمين ، وحسبك من براءته من هذا الأمر الكتب التى جاءت باسمه إلى أهل العراق وباسم غيره أيضاً وظهر أنها مفتعلة ، لم يكن لعلى بها علم كما سترى بعد ، وإنما هى مكائد تدبر وأكثر القوم عنها غافلون ، يضاف إليها نزوع العرب إلى منازعة قريش السيادة وضعف عثمان وانحرافه عن طريقة صاحبيه فى بعض الأمور الاجتهادية انحرافا مهد سبيل الطعن عليه ، وأوجد قلوباً واعية حتى من كبار الصحابة لما يقال فيه . ولما هالهم إجماع أهل الأمصار على الشكوى منه ، والطعن عليه خذلوه على ظن أنه يخلع نفسه من الخلافة وتطفأ بذلك ثائرة القوم ، فلم يفعل حتى قتل ، وهم لاعتزاله منصب الخلافة منتظرون ولقتله كارهون .

هذا وقد عقب انتشار الطعن على عثمان من ابن أبى حذيفة وابن السوداء ومن على شاكلتهم فى مصر ، قيام حمران بن أبان فى البصرة لإفساد القلوب على عثمان ، لأنه كان حاقداً عليه إذ ضربه على زواجه بامرأة فى العدة . واجتراء أهل الكوفة على التظاهر بالعداء وتجاوز الحشمة والتطلع إلى الفتنة وقد تقدم أن سعيد بن العاص لما ولاه عثمان رضى الله عنه الكوفة

جعل غاشيته من وجوه الكوفة وأهل القادسية ، فكان يسمر عنده مثل مالك بن كعب الأرحبي ، وعلقمة بن قيس النخعى ، وثابت بن قيس الهمدانى ، وجندب بن زهير الغامدى ، وعروة بن الجعد ، وصعصعة بن صوحان ، وابن الكواء وطليحة بن خويلد فى أشباه لهم ، وكانوا يفيضون فى أيام الوقائع وفى أنساب الناس ، وأخبارهم وربما ينتهون إلى الملاحاة والمشاتمة والضرب فإذا عزلهم حجاب سعيد نهروهم وضربوهم ، وقيل إن سعيد بن العاص قال يوماً إنما هذا السواد (يريد سواد الكوفة أى أراضيها) بستان قريش : فقال له الأشتر : السواد الذى أفاء الله علينا بأسيافنا تزعم أنه بستان لك ولقومك : وخاض القوم فى ذلك فأغلظ لهم عبد الرحمن الأسدى صاحب شرطته ، فوثبوا عليه وضربوه حتى غشى عليه ، فمنع سعيد بعدها السمر عنده ، فاجتمعوا فى مجالسهم يثلبون سعيداً وعثمان والسفهاء يغشونهم ، فكتب سعيد وأهل الكوفة إلى عثمان فى إخراجهم ، فكتب أن يلحقوهم بمعاوية ، وكتب إلى معاوية : أن نفراً خلقوا للفتنة فقم عليهم وانههم ، وإن آنست منهم رشداً فاقبل وإن أعيوك فارددهم على .

فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم من الرزق ما كان لهم بالعراق ، وأقاموا عنده يحضرون مائدته فقال لهم يوماً . إنكم قوم من العرب لكم أسنان (أعمار) وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم ، وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشاً ، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة ، إن أئمتكم لكم جنة (وقاية) فلا تفترقوا عن جنتكم ، وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون عنكم المؤونة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم السوء ، ولا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد وفاتكم : فقال رجل منهم وهو صعصعة : أما

ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها فى الجاهلية ، وأما ماذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا .

فقال معاوية عرفتكم الآن وعلمت أن الذى أغراكم على هذا قلة العقول وأنت خطيبهم ولا أرى لك عقلا ، أعظم عليك أمر الإسلام وتذكرنى بالجاهلية ، أخزى الله قوماً عظموا أمركم ، افقهوا عنى ولا أظنكم تفقهون ، إن قريشا لم تعز فى جاهلية ولا إسلام إلا بالله تعالى لم تكن بأكثر العرب ولا أشدها ، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً ، وأمحضهم أنساباً ، وأكملهم مروءة ولم يمتنعوا فى الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً إلا بالله ، فبوأهم حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم ، هل تعرفون عربيا أو عجميا أو أسود أو أحمر إلا وقد أصابه الدهر فى بلده وحرمته ، إلا ما كان من قريش فإنهم لم يردهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خده الأسفل ، حتى أراد الله أن يستنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة ، فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشا ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم ، فلا يصلح ذلك إلا عليهم فكان الله يحوطهم فى الجاهلية وهم على كفرهم ، أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه ؟ أف لك ولأصحابك ، أما أنت ياصعصعة فإن قريتك شر القرى ، أنتنها بيتاً وأعمقها واديا وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً ، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سب بها ثم كانوا ألأم العرب ألقاباً وأصهاراً نزاع الأمم ، وأنتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنت شر قومك ، حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس ، أقبلت تبغى دين الله عوجاً وتنزع إلى الذلة ولا يضر ذلك قريشا ولا يضعهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم ، إن الشيطان عنكم غير غافل ، قد عرف بالشر فأغرى بكم الناس وهو صارعكم ، ولا تدركون بالشر أمراً أبداً إلا فتح الله

عليكم شراً منه وأخزى ، ثم قام وتركهم فتقاصرت إليهم أنفسهم . فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال إنى قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً أبداً ولا يضره ، ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة ، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ، ولا يبطرنكم الإنعام فإن البطر لا يعترى الخيار . اذهبوا حيث شئتم فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم . وكتب معاوية إلى عثمان إنه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان أضجرهم العدل لا يريدون الله بشىء ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم ، وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم فإنه سعيداً ومن عنده عنهم فإنهم ليسوا الأكثر من شغب ونكير .

فقيل إنهم خرجوا يريدون الجزيرة فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو بحمص ، فدعاهم ووبخهم وقيل كتب عثمان إلى معاوية بردهم إلى الكوفة فأطلقوا ألسنتهم ، فكتب سعيد يشكوهم فأمره عثمان بإشخاصهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص وكان على حمص فقال لهم يا آلة (حربة) الشيطان ، لا مرحباً بكم ولا أهلا قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد فى نشاط خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم يا معشر من لا أدرى أعرب هم أم عجم ، ثم مضى فى توبيخهم على ما فعلوا وما قالوا لسعيد ومعاوية فهابوا سطوته ، وطفقوا يقولون نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله ، حتى قال تاب الله عليكم وسرح الأشتر إلى عثمان تائباً : فقال له عثمان أحلك حيث تشاء ، فقال مع عبد الرحمن . قال ذلك إليك فرجع إلى أصحابه .

وقد نقل ابن أبى الحديد وابن الأثير من رواية المدائنى زيادة فى هذا الخبر ، وكلاماً طويلا جرى بين القوم وبين معاوية ، وأنهم تطاولوا عليه ومسك أحدهم بلحيته وناقشوه فى سيرته ، فألان لهم القول فزادهم ذلك جرأة عليه ، فغضب منهم وكتب إلى عثمان بأمرهم فأمره بإشخاصهم إلى

عبد الرحمن ، ولم نشأ نقل هذه الرواية كلها حباً بالاختصار ، والاكتفاء بما تقدم من خبرهم معه .

كلمة فى هؤلاء الناقمين على عثمان وفى أهمية تاريخ الصحابة :

إن من يطالع هذا الخبر من أسراء الاستبداد ، وأليفى الاستعباد ، يعجب من جرأة القوم وتجاوزهم حدود الحشمة مع وجوه الصحابة ، وأعجب منه عندهم أن يتجاوز عن القوم ولا ينالهم أدنى عقاب على ما فعلوه سوى التوبيخ إذ لو حدث من غيرهم ما حدث منهم فى حكومة أخرى غير الحكومة الإسلامية يومئذ لما كان جزاؤهم إلا القتل ، أو قضاء الحياة فى أعماق السجون ، ولكن شأن العرب وشأن الإسلام وحكومته يومئذ لا يضاهيه شأن الأمم الأخرى وحكوماتها ، إذ العرب قد اعتادوا بأصل الفطرة على حرية الفكر والقول وشرائع الإسلام لم تكن مصادمة لتلك الفطرة بل هى معينة لها داعية لتهذيبها وارتقائها ، فالقرآن يأمر المسلمين عامة بقول الحق وأن يقوموا بالقسط ويشهدوا بالحق ولو على أنفسهم ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وفى هذا كله ما يجيز لهم الانتقاد على الأمراء والعمال ويطلق لهم العنان فيما اعتادته فطرتهم من حرية القول ، بشرط أن لا يترتب على قولهم حد من الحدود الشرعية ، كالقذف وكل ما يمس بالشرف والعرض ويدعوا إلى إقامة الحد أو أية عقوبة من عقوبات التعزير ، لهذا قام هؤلاء الناس وغيرهم فى الأمصار الإسلامية يظهرون الطعن على عثمان وعماله باسم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وليس من يجرؤ على معاقبتهم أو الضرب على أيديهم من العمال ، لأنه حق من الحقوق التى خولتها لهم الفطرة والشرع ولم يظهر عليهم النكير إلا بعد أن ترتب على عملهم حق من حقوق الله فى قتل عثمان رحمه الله ورضى عنه ، وهذا عين ما يشاهد الآن فى الممالك الأوربية الحكومات الشورية من إطلاق ألسنة الانتقاد على الحكومة ومناقشة أهل الشورى للوزراء فى كل جليل وحقير ، وكثيراً ما يلجئون الوزراء إلى

اعتزال مناصبهم إذا رأوا منهم مايستدعى ذلك ، فيعتزلونها صاغرين وشأنهم هذا شأن المسلمين فى ذلك العهد مع أمرائهم كما رأيت ، وترى العبرة فى عثمان رضى الله عنه وعماله ونهوض الأمة لمؤاخذته على أمور هى ولا نكران للحق أقل مما يأتيه أصغر عامل من عمال الدول المطلقة فى هذا العصر وفى كل عصر ، ومع هذا فقد أفضى الأمر إلى طرد عماله من الأمصار ثم إجلاب الناس عليه بالخيل والرجل من كل مصر ، وقتله بين ظهرانى إخوانه من المهاجرين والأنصار . فليت شعرى كيف نسى المسلمون تاريخ هذه النشأة التى نشأ عليها أسلافهم وأهملوا أمور شريعتهم ، التى عمل بها مؤسسو دولتهم فاستخذوا بعـــد ذلك للأمراء ، واستسلموا للقضاء ، حتى صاروا أسراء الاستبداد وتعبدهم الملوك فى كل الأنحاء ، وسامتهم الدول الحاكمة عليهم من إسلامية ومسيحية ضروب الخسف . وأذاقتهم أنواع الامتهان . وأين تلك الروح البارة والنفس العالية التى كانت تأبى الهضيمة وتغضب للحق فترى الموت والحياة سيان فى سبيل الذود عن حقوقها والاحتفاظ بحريتها .

لا جرم أن الأمة الإسلامية قد أنسيت ذلك لأمرين (الأول) عدم العناية بوضع قواعد الشورى على الأصول الثابتة منذ نشوء الدولة كما سبق (والثانى) تحريم العلماء بإيعاز الأمراء الخوض[1] فى تاريخ الخلفاء الراشدين وأخبار الصدر الأول التى كلها حياة . كلها عبر . كلها حرية ، وليس فى كل ما كان بين الصحابة من الأمور العظام ، والفتن الجسام ، مايدعو ديناً أو أدبا إلى اجتناب الخوض فى أخبارهم ، والنظر فى تاريخهم ، تعظيما لهم واحتراماً لجانبهم ، وتسليما بسلامة مقاصدهم كما يذهب

(١) نريد بالخوض هنا معناه اللغوى وهو من قولهم خاض الماء أى تغلغل فيه ، فإذا كان مراد القائلين بحرمة الخوض فى أخبار الصحابة هذا التغلغل فلا نسلم لهم بحرمته ، وإذا كان مرادهم به المعنى المجازى كالخوض فى الباطل ونحوه ، فهذا مالا ننكره عليهم ، بل هو مما نقوله ونسلم به وأنا أريد بالخوض هنا المعنى الأول فليتنبه له .

إليه خدام الأمراء من بعض العلماء ، إذ لو كان فى أخبارهم ما يمنع من الخوض فيها ديناً أو أدبا لاستلزم أنها أعمال تحط من منزلتهم وتقلل من احترامهم ، وهذا باطل بالبداهة ، والحقيقة هى أن هذا التحريم لم يكن إلا بإيعاز الأمراء الجبارين ، والزعماء المستبدين ، لأن تاريخ الصدر الأول وأخبار الصحابة كلها تدل على حياة منبثة فى صدور القوم ، ومقاصد عالية تعلى شأن أولئك الرجال ، ووالله ليس فى تاريخ من تواريخ الأمم فى بدء نشأتها وإبان ظهورها ، ما فى تاريخ الخلفاء الراشدين ، ووقائع الصحابة من الحوادث التى ترمى كلها إلى غرض الحرية ، وتمحيص الحق مما قل أن يكون فى أمة حديثة النشأة ، ودولة جديدة التكوين ، أما أن فريقاً منهم أخطأ وفريقاً أصاب . وفريقاً بغى ، وفريقا بغى عليه ، فهذا الحكم إنما هو تابع للمقاصد ، والمقاصد كانت كلها متجهة إلى تمحيص الحق والرغائب العالية ، فمن العبث أن يحكم بخطأ فريق مادام يعتقد أنه على صواب ، ومثاله هؤلاء المحرضون على عثمان فإنا مع اعتقادنا أن عثمان رضى الله عنه خير من كثير غيره ، ممن أتى بعده من الخلفاء، ومع علمنا أنه لم يأت من حب النفس أو الأثرة بجزء مما يأتيه حتى أشهر من اشتهر بالعدل من الخلفاء الأمويين أو العباسيين أو غيرهم ، فإن أولئك الثائرين على عماله الناقمين منه مهما كان الدافع لهم إلى ذلك العمل ، فإن غايتهم التى يقصدون إليها بحسب الظاهر هى العدل بين الناس بعدم الاستئثار بمصالح المسلمين ومنافع الأمة ، كما تعودوا ذلك من الخليفتين السابقين ،وإن كانت سيرتهما فى الخلافة وسياسة الملك فوق المستطاع لمن عداهما ، لهذا لم يستطع أن يمد إليهم العمال يد السوء ، فهم إذا أوخذوا فإنما يؤاخذون من جهة أنهم كانوا يطلبون من عثمان فوق ما يستطاع بالنسبة إليه ، وأنهم غالوا فى ذم سيرته تذرعا لمحو الصبغة الأموية من الدولة غلواً يلامون عليه ، مادام ذلك الغلو لغرض آخر يرمون إليه .

وأما قتلته فإنهم أخزاهم الله ليسوا بمؤاخذين فقط بل هم ملعونون على لسان كبار الصحابة ، كحذيفة بن اليمان وأضرابه ، وهم مسئولون عن عملهم دون غيرهم ، وقد جنوا على الأمة فى مستقبلها جناية كبرى ، كما سنشير إليه بعد إن شاء الله .

إذا تقرر هذا فاعلم أن أخبار الصحابة إنما حرم بعضهم الخوض فيها لأنها أخبار قوم ملأت صدورهم بالحياة ، ونفوسهم بالعزة ، وهم بالضرورة قدوة الأمة ، والمنادون منذ نشأت الدولة بصوت العدل والحرية والحق ، فوقوف الناس على أخبارهم والأخذ والرد فيما حدث بينهم ، يحيى فى القلوب روح الحرية ، ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التى يصادمون بها آلات الاستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة إلى الملك العضوض ، وأمعنوا فى التمكن من رقاب الناس . لهذا ولما كثر خوض الناس فى أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها ، فأوعزوا إلى الوضاع والقصاصين بوضع أخبار المغازى وقصة عنترة وأشباهها ، فى أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق ، إلا إذا صح نسبة أكبر تلك الكتب إلى الواقدى والأصمعى فإنها تكون فى عصر العباسيين ، وذلك ليتلهى بها العامة عن التاريخ الصحيح الذى يبعث فى النفوس روح الجرأة على قول الحق . والتشبه بسلف الأمة ورجالها ، ورافعى دعامة دولتها فى مناهضة أرباب العتو والجبروت ، ومحى الاستبداد وآلهة الملك . هذا ما أراه فى هذا الباب والله أعلم بالصواب .

ما أنكره الناس عليه واعتذاره عن بعض ما أنكر عليه :

ذكر الطبرى فى تاريخه وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ، وابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ، وابن خلدون فى التاريخ ، الأحداث التى كانت على عهد عثمان رضى الله عنه ، وخالف بها صاحبيه وأنكرها الناس عليه ، وزاد بعضهم على بعض ، ونقل بعضهم مالم ينقله البعض ، فرأيت أن أستقصى هنا ما نقلوه ليضعه القراء موضع المحاكمة والبحث .

فمنها إتمامه الصلاة فى منى وعرفة ، مع أن الأمر فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخين بعده كان على القصر ، ومنها زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة . ومنها إخراج أبى ذر من الشام والمدينة إلى الربذة، ومنها سقوط خاتم النبى من يده فى بئر أريس . ومنها إفشاؤه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه من بنى أمية ، وما كان من الوليد بن عقبة وشربه الخمر ، ومنها صلته لأهله وبنى عمه بالأموال وإقطاعهم القطائع . وحملهم على رقاب الناس واستئثاره برأيه ورأيهم ، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستشيرهم ولا يستعملهم وأنه أعطى مروان خمس غزوة إفريقيا ، ووصل عبد الله بن خالد بن أسيد بأربعمائة ألف درهم ، وأقطع الحرث بن الحكم موضع سوق بالمدينة ، كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ، وأنكح الحرث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال . وحمى الحمى (المراعى) حول المدينة ، إلا عن بنى أمية ورد الحكم بن أبى العاص طريد رسول الله إلى المدينة ، وأعطاه مائة ألف درهم ، ومنها مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس . ومنها تطاوله فى البنيان ، حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة . داراً لنائلة ، وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته، ومنها ضربه عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعا من أضلاعه .

هذه هى الأحداث التى نقمها الناس على عثمان وآخذوه عليها ، وقد أجمع أهل السنة وأفاضل المعتزلة تبعاً لرأى كبار الصحابة ، على أن ما صح منها وإن كانت أحداثا ، إلا أنها لا تبلغ المبلغ الذى يستباح به دمه . ولعثمان رضى الله عنه أعذار اعتذرها عن بعض ما عزى إليه ونقمه القوم منه فمنها ما رواه الطبرى فى أخبار سنة (٢٩هـ) أن عثمان صلى بمنى أربعا (أى صلاة المقيم) فأتى آت عبد الرحمن بن عوف فقال ، هل لك فى أخيك قد صلى بالناس

أربعاً . فصلى عبد الرحمن بأصحابه ركعتين ، ثم خرج حتى دخل على عثمان فقال له : ألم تصل فى هذا المكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين قال بلى . قال أفلم تصل مع أبى بكر ثم عمر ركعتين ؟ قال بلى . قال ألم تصل صدراً من خلافتك ركعتين ؟ قال بلى فاسمع منى يا أبا محمد ، إنى أخبرت أن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس ، قد قالوا فى عامنا الماضى إن الصلاة للمقيم ركعتان ، هذا إمامكم عثمان يصلى ركعتين وقد اتخذت بمكة أهلا فرأيت أن أصلى أربعا لخوف ما أخاف على الناس . وأخرى قد اتخذت بها زوجة ولى بالطائف مال . فقال عبد الرحمن بن عوف ما من هذا شىء لك فيه عذر ، أما قولك اتخذت أهلا فزوجتك بالمدينة ، تخرج بها إذا شئت وتقدم بها إذا شئت إنما تسكن بسكناك . وأما قولك ولى مال بالطائف ، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال ، وأنت لست من أهل الطائف ، وأما قولك يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون هذا إمامكم عثمان يصلى ركعتين وهو مقيم ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحى والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل ، ثم أبو بكر مثل ذلك ، ثم عمر ، فضرب الإسلام بجراته فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين ، فقال عثمان هذا رأى رأيته .

وروى ابن عساكر من طرق عن عبد الرحمن بن الحارث بن ذباب قال : صلى عثمان بأهل منى أربع ركعات فلما انصرف (أى بوجهه) إليهم قال إنى صليت بكم أربعا إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أتى أهل المسافر فى بلدة فهو من أهلها يصلى صلاة المقيم أربعا ، وإنى تأهلت بها منذ قدمتها فلذلك صليت بكم أربعا .

فإذا صحت هذه الرواية فاعتذار عثمان لعبد الرحمن اعتذار صحيح ، لا سيما وأنه صلى لدفع شبهة جفاة الأعراب فى اعتباره مقيما لزواجه فى مكة فإذا صلى القصر مع ذلك الاعتبار ربما اتخذوه حجة فى جعل الصلاة لكل مقيم ركعتين ، ففعل مافعل من قبيل البلاغ والاحتياط .

هذا اعتذاره عن صلاة المقيم . وقد روى ابن عساكر فى اعتذاره عن الحمى الذى حماه عن أبى سعيد مولى أبى أسيد الأنصارى قال : سمع عثمان ابن عفان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم ، فلما سمعوا به أقبلوا نحوه وكره أن يقدموا عليه المدينة فأتوه فقالوا له ادع بالمصحف فافتح السابعة وكانوا يسمون سورة يونس السابعة . فقرأها حتى أتى على هذه الآية ﴿قل أرأيْتُمْ ما أنزلَ اللهُ لكم من رزقٍ فجعلتُمْ منه حراماً وحلالاً . قل آللهُ أذنَ لكم أمْ على الله تَفْتَرُون﴾ قالوا له قف أرأيت ما حميت من الحمى آللهُ أذِنَ لك أم على الله تفترى : فقال امضه نزلت فى كذا وكذا ، فأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلى لإبل الصدقة ، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت فى الحمى كما زادت إبل الصدقة . وزاد عليه فى بعض الروايات ، إنى قد وليت وإنى لأكثر العرب بعيراً وشاة ، فما لى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى .

وهذا الخبر يدل على أنه حمى من المراعى حول المدينة زيادة عما كان حماه عمر ، فعدوها مخالفة لعمر ونقموها منه .

وقد أجمع الرواة وأهل الأخبار أن مانقموه من عثمان فى تقريبه أهله منه ، وصلتهم بالأموال قد تأول فيه الصلة التى أمر الله بها ، وقال إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ماهو لهما وأخذت ماهو لى فقسمته فى أهلى ، ومع هذا فلما استعرت نار الفتنة أشاروا عليه أن يستعيد ما أعطاه لمروان ولخالد بن أسيد ، فاستعاده منهما ورده لبيت المال .

وفى حديث طويل رواه ابن عساكر فى اعتذار عثمان عما أنكروه عليه ، قال فيه بعد اعتذاره عن الأشياء المتقدمة بمعنى ماتقدم : وقالوا إنى رددت الحكم والحكم مكى ، سيره رسول الله إلى الطائف ثم رده : وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمع محتمل مرضى (يريد به عبد الله بن

عامر) ، وهؤلاء أهل عمله (أى أهل البصرة وكانوا حضوراً) فسلوهم عنه ، وقد ولى من قبلى أحدث منه ، وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة بن زيد ، وقالوا إنى أعطيت بن أبى سرح مما أفاء الله عليه ، وإنى إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس ، فكان مائة ألف ، قد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم . إلى آخر الحديث وقد مر ماهو بمعناه .

هذه أعذار عثمان رضى الله عنه ، التى اعتذر بها للناس عما نقموه عليه ولم تقبل منه ، ولم يدفع أكثر المسلمين عنه ، إذ كانوا يريدون منه سيرة أبى بكر وعمر ، وأن يحذو حذوهما فى التعفف والتقشف ، والسير على طريق النبوة الذى لايستطاع لكل الناس ، وقد جاهرت له بذلك أم سلمة إحدى أمهات المؤمنين ، ونصحته بتوخى السبيل التى توخاها أبو بكر وعمر ، فى كلام طويل أجابها عنه بما يأتى :

ياأمنا قد قلت فوعيت ، وأوصيت فاستوصيت . إن هؤلاء النفر رعاع غثرة [١] ، تطأطأت لهم تطأطؤ الماتح الدلاء [٢] ، وتلددت [٣] لهم تلدد المضطر ، فأرانيهم الحق إخواناً ، وأراهمونى الباطل شيطاناً ، أجررت المرسون [٤] منهم رسنه ، وأبلغت الراتع مسقاه ، فانفرقوا على فرقاً ثلاثاً ، فصامت صمته أنفذ من صول غيره : وساع أعطانى شاهده ومنعنى غائبه ، ومرخص له فى مدة رينت [٥] على قلبه ، فأنا منهم بين ألسن لداد [٦] .

---

(١) سفلة .

(٢) أى الذى يتناول الماء من أعلى البئر .

(٣) تلفت يميناً وشمالا .

(٤) أمكنت المشدود منهم من زمامه يريد خليته وأهملته يرعى كيف شاء .

(٥) أى أوقعته فيما لا يستطيع الخروج منه .

(٦) أى شديدة الخصومة .

وقلوب شداد ، وسيوف حداد ، عذيرى الله ألا ينهى منهم حليم سفيها . ولا عالم جاهلا ، والله حسبى وحسبهم يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

ظهور الفتنة :

لما فشت الإذاعة فى الأمصار ، وسرت روح الثورة فى الصدور . وامتلأت القلوب بالسخائم من عمال عثمان ، ومما يدسه دعاة الثورة فى الأذهان ، وكثر الطعن والإرجاف على الأمراء ، اعتزم سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة أربع وثلاثين وكان قبلها قد ولى على الأعمال أمراء من قبله ، فولى الأشعث بن قيس على أذربيجان ، وسعيد بن قيس على الرى ، والنسير العجلى على همذان ، والسائب بن الأقرع على أصبهان ، ومالك بن حبيب على ماه ، وحكيم بن سلامة على الموصل ، وجرير بن عبد الله على قرقيسيا ، وسلمان بن ربيعة على الباب ، وجعل على حلوان عتيبة ابن النهاس ، وعلى الحرب القعقاع بن عمرو ، وخرجوا لأعمالهم وخرج هو وافداً على عثمان ، واستخلف عمرو بن حريث وخلت الكوفة من الرؤساء ، فاغتنم الطعانون هذه الفرصة فأظهروا أمرهم ، وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان ومعه الذين كان ابن السوداء يكاتبهم ، فبادره القعقاع ابن عمرو ، فقال إنما نستعفى من سعيد بن العاص فتركه . وكتب يزيد إلى الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص فى القدوم ، فساروا إليه وسبقهم الأشتر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول : جئتكم من عند عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم على مائة درهم ، أى من العطاء ، ورد أولى البلاء منكم إلى ألفين . ويزعم أن فيئكم بستان قريش : فهاج الناس لهذا الخبر الكاذب والإفك المفترى ، ونادى يزيد فى الناس من شاء أن يلحق بيزيد لرد سعيد فليفعل ، فخرجوا وذوو الرأى يعزلونهم

فلا يسمعون ، وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ، ونزل يزيد وأصحابه الجرعة لاعتراض سعيد ورده ، فلما وصل قالوا ارجع فلا حاجة لنا بك : قال إنما كان يكفيكم أن تبعثوا واحداً إلى وإلى عثمان رجلا . وقال مولى له ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع فقتله الأشتر : ورجع سعيد إلى عثمان ، فأخبره بخبر القوم وأنهم يختارون أبا موسى الأشعرى فولاه الكوفة وكتب إليهم .

أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد ، ووالله لأفرضنكم عرضى ولأبذلن لكم صبرى ، ولاستصلحنكم بجهدى . فلاتدعوا شيئاً أحببتموه لايعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لايعصى الله فيه إما استعصيتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم ، حتى لايكون لكم عند الله حجة ، ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ماتريدون .

ولما انتهى إليهم الكتاب خطبهم أبو موسى الأشعرى وأمرهم بلزوم الجماعة وطاعة عثمان فرضوا ، وكان قد جاء بعض الأمراء من قرقيسيا وحلوان وغيرها لأجل استصلاح القوم ، فلما بلغهم لزومهم للطاعة رجعوا من قرب الكوفة .

وكانوا يسمون اليوم الذى ثاروا فيه لرد سعيد يوم الجرعة باسم المكان، وذكروا عن سبب هذا اليوم رواية ثانية رواها الطبرى ونقلها غيره من المؤرخين ، ومؤداها أن أهل الكوفة أجمعوا رأيهم أن يبعثوا إلى عثمان ويعذلوه فيما نقم منه ، فاتفقوا على إرسال عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن عبد الله من بنى تميم ، ثم من بنى العنبر ، فأتاه وقال له إن ناساً اجتمعوا ونظروا فى أعمالك فوجدوك ركبت أموراً عظاماً فاتق الله وتب إليه ، فقال عثمان ألاتسمعون إلى هذا الذى يزعم الناس أنه قارىء ثم يجىء

يكلمنى فى المحقرات (أى الصغائر) ، ووالله لايدرى أين الله : فقال عامر بلى والله إنى لأدرى أن الله لبالمرصاد :

فأرسل عثمان إلى معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح، وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ، وعمرو بن العاص ، وكانوا بطانته دون الناس فجمعهم وشاورهم وقال لهم: إن لكل امرىء وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم .

فقال له ابن عامر أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك . وقال سعيد احسم عنك الداء ، فاقطع عنك الذى تخاف ، إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ، ولا يجتمع لهم أمر . وقال معاوية ، أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام . وقال عبد الله بن سعد إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم. ثم قام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدل أو اعتزل : إلى آخر ما قال وقد أوردنا قوله فى سيرته فى هذا الكتاب وهذا الرأى هو أنجع الآراء وأحسمها لمادة الفتنة ، ولو تبعه عثمان رضى الله عنه واعتدل فى ميله لبنى أمية . وجعل المهاجرين والسابقين من الصحابة بطانته وأهل شوراه ، كما كان الحال على عهد الخليفتين لما اجترأ أحد على قتله، ولدفع المهاجرون عنه غائلة الفتنة ، وإذا كان لم يستطع ذلك واعتزل كان نجا من القتل ، وقضى بقية حياته محترم الجانب ، مكرماً من الناس ، لسابقته وسنه وتقواه ، ولعله أراد ذلك فما مكنه بنو أمية مما يريد بعد أن صارت إليهم مقاليد الأمور ، ولله فى هذا شأن هو بالغه .

رأى عثمان أن يشغل الناس عنه بالحروب والغزوات كما أشار عليه

ابن عامر ، فرد العمال إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس فى البعوث ، ليكون لهم فيها شغل ، وهذا دواء وقتى لا يستأصل ذلك الداء ، بل هو من قبيل وضع المخدر على محل الألم ، لا يلبث أن يسكن ساعة ثم يعود . ولما رجع الأمراء ، وعاد سعيد إلى الكوفة لقيه القوم بالجرعة ، فردوه كما مر فى الخبر الأول .

استمر الناس ينالون من عثمان فى المدينة وغيرها ، ويتكاتب بعضهم إلى بعض ، وليس أحد من الصحابة ينهى إلا نفر منهم كانوا يذبون عنه ، مثل زيد بن ثابت ، وأبى أسيد الساعدى ، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت ،فلم يغنوا عنه ، فاجتمع الناس إلى على بن أبى طالب فكلموه فى ذلك ، فدخل على عثمان : وقال : الناس ورائى وقد كلمونى فيك والله ما أدرى ما أقول لك. ولا أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعلم ما أعلم ، ما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشىء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت منه ونلت صهره ، وما ابن أبى قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك ، وأنت أقرب إلى رسول الله رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينالاه ، وما سبقاك إلى شىء ، فالله الله فى نفسك فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهالة ، وإن الطريق لواضح بين ، وإن أعلام الدين لقائمة ، اعلم ياعثمان أن أفضل عباد الله إمام عادل ، هدى وهدى ، فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة متروكة ، فو الله إن كلا لبين ، وإن السنن لقائمة لها أعلام ، وإن البدع لقائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وأضل ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإنى أحذرك الله وسطواته ونقماته ، فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذى يقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، ويلبس أمورها عليها ويتركها شيعاً لا يبصرون الحق

لعلو الباطل ، يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجا .

فقال عثمان : قد علمت والله ليقولن الذى قلت أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ، ولا أسلمتك ، ولا عبت عليك . وما جئت منكراً إن وصلت رحما وسددت خلة (حاجة) وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى . أنشدك الله يا على ، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك : قال نعم : قال فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم : قال فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ قال على إن عمر كان يطأ على صماخ (أذن) من ولى . إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة . وأنت لا تفعل . ضعفت ورفقت على أقربائك . قال عثمان وهم أقرباؤك أيضاً : قال أجل إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم : قال عثمان هل تعلم أن عمر ولى معاوية فقد وليته ؟ فقال على أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ غلام عمر ؟ قال نعم : قال على فإن معاوية يقتطع الأمور دونك ، ويقول للناس هذا أمر عثمان ، وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه .

ثم خرج على من عنده ، وخرج عثمان على أثره فجلس على المنبر ثم قال :

أما بعد فإن لكل شىء آفة ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة ، عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ويسترون عنكم ما تكرهون ، يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون أول ناعق . أحب مواردهم إليهم البعيد ، لا يشربون إلا نغصاً (كدراً) . ولا يردون إلا عكراً ، ولا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور ، ألا والله فقد عبتم على ما أقررتم لابن الخطاب بمثله . ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم . ولنت لكم وأوطأتكم كتفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على ، أما والله لأنا أعز نفراً ، وأقرب ناصراً ، وأكثر عدداً وأحرى ، إن قلت هلم أتى إلى ، ولقد عددت لكم

أقراناً وأفضلت عليكم فضولا ، وكثرت لكم عن نابى ، وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه ، ومنطقاً لم أنطق به . فكفوا عنى ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم ، فإنى كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا . ألا فما تفقدون من حقكم ، والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلى ، ولم تكونوا تختلفون عليه .

فقام مروان بن الحكم فقال إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف . نحن وأنتم والله كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنون فى دمن الثرى

فقال عثمان اسكت لا سكت ، دعنى وأصحابى ما منطقك فى هذا . ألم أتقدم إليك أن لا تنطق ، فسكت مروان ونزل عثمان عن المنبر فاشتد قوله على الناس وعظم وزاد تألبهم عليه .

إقبال من أقبل لحصار عثمان وقتله :

رأيت مما تقدم إلى أى حد بلغ تيار الفتنة وغليان السخائم فى الصدور ، وتأجج نار الثورة فى الأطراف ، وشيوع الطعن على عثمان وعماله فى كل مصر من الأمصار الكبيرة ، وإن سببه استئثار بنى أمية بعثمان وانقطاعهم إليه وركونه إليهم دون المهاجرين والأنصار ، ثم تدرع دعاة الفتنة بهذا إلى الإنكار عليه ومؤاخذته على أمور فيها ما يعتذر عنه ، واستنهاضهم الناس بهذا للجرأة عليه وطرد عماله وخلعه من منصب الخلافة . وليس من يذب عنه وينتصر له إلا نفر قليل من الصحابة ، وما عداهم من المهاجرين والأنصار كلهم ناقم منه ، مغض عن نصرته ، ينتظر منه إما الرجوع إلى سيرة أبى بكر وعمر ، وإما التخلى عن منصب الخلافة ، ليكون الأمر كما قال عمرو بن العاص بين الناس شرعاً سواء . وذلك لأن الأمة كما علمت جديدة النشأة ، ميالة

بفطرتها إلى الحرية والمساواة ، وقد اعتادت من أبي بكر وعمر العدل بين الناس فى المعاملة ، وعدم استئثارهما بشيء من أمور الدولة ، أو انقطاعهما بالرأى والمشورة إلى فريق مخصوص من الناس ، وهو ما تنزع إليه أخلاق القوم ويأمر به الإسلام ، لهذا لما خالف عثمان صاحبيه بالاستبداد بالرأى والانقطاع إلى فريق مخصوص من أهله وعشيرته يستبدون عليه ، وعلى كبار الأمة ووجوه الصحابة بالأمور ، هالهم ذلك وخافوا من أن تنقلب الدولة أموية بعد أن كانت شورية إسلامية ، ليس لقوم أن يستأثروا بشأن من شؤونها دون آخرين ، ومما لا ريب فيه أن الدولة إذا اصطبغت بصبغة قومية وغلب على أمورها قوم دون آخرين ، لا تلبث أن تتنازعها أطماع الغالبين بحكم القوة والعصبية التى تتخلل جسم الدولة ، ومن ثم أدرك الصحابة وبالخصوص المرشحون للخلافة من المهاجرين مغبة الأمر ، وخافوا من اصطباغ الخلافة بالصبغة الأموية ، إذا استمر عثمان فيها والآخذون بمقاليد أمورها هم بنو أمية، فلما رأوا أن الأمة تجارى رغائبهم وتشاركهم بالإحساس بمثل هذا الخطر ، لم يمنعوا عن عثمان وربما كان لبعضهم يد فى استجاشة الخواطر عليه ، كطلحة بن عبيد الله ونفر غيره ممن كان يكاتبهم أهل الأمصار كما سترى بعد ، ولكن لم يبلغ منهم الأمر مبلغ إهدار دمه أو الممالأة على قتله، معاذ الله وإنما هم أرادوا الوصول إلى خلعه فقط فغلب على رأيهم جفاة الأعراب لما عظمت الفتنة ، واشتد صخب المتألبين عليه ، لما أبى الاعتزال وترك منصب الخلافة ، ومع هذا فقد كان عامة أهل المدينة أخف وطأة وألزم للصبر والأناة من أهل الأمصار الذين ملئوها عليه بالفتنة ، شأن الأمم التى تجرى منها قوة الشباب مجرى الروح من الجسم ؛ فلا تبصر إذا اندفعت لأمر فى أى طريق تسير .

لهذا لما تواترت الأخبار وتوالت على أهل المدينة الإذاعات الفاشية فى الأمصار ، أرادوا التثبت من الأمر والأخذ بالأحوط رأفة بعثمان رضى

الله عنه ، فأتوه وسألوه عن علمه بما يجرى فى الأمصار وأخبروه خبر الناس فلم يجدوا عنده علما ، وقال لهم أشيروا على وأنتم شهود المؤمنين : قالوا تبعث من تثق به إلى الأمصار يأتوك بالخبر ، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة . وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ، وغيرهم إلى سواها . فرجعوا وقالوا ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره علماء المسلمين . هكذا نقل الطبرى وابن الأثير وابن خلدون وأكثر المؤرخين ولم يزيدوا ، وظاهر أنهم يريدون من عدم إنكارهم لشيء أى من سيرة العمال التى يتذرع بها الناقمون إلى الثورة ، وهذا يؤيد ماقلناه من أن ما نقموه من عثمان هو غير مانسبوه إلى عماله وإليه من الأحداث التى أكثرها مما يمكن الاعتذار عنه ، وإن استيلاء بنى أمية على عثمان واستبداده وإياهم بالأمر هو العلة الحقيقية فى تذمر المتذمرين ، ولو كان هناك شيء مما يذيعه الناقمون من المظالم وسوء سيرة العمال لما خفى على أولئك الرسل ، وهم من خيرة الصحابة ولكان العلماء أفضوا إليهم به ولم يكتموه ، وكذا العامة على أن تلك العلة الحقيقية ليست بالأمر الهين أيضاً كما علمت ، لما فيها من الخطر على الخلافة الشرعية والخطر على حياة الشورى والخطر على المترشحين ، لهذا المنصب من المهاجرين ، يضاف إلى هذه العلة مايدسه دعاة الفتنة كعبد الله بن سبأ ومحمد ابن أبى حذيفة وغيرهما للناس . ومايجهر به عمار ومحمد بن أبى بكر وابن جعفر من التشنيع على عثمان انتقاماً لأنفسهم منه ، لأمور سبقت لهمعهم[1] ،

---

(١) روى الطبرى عن سعيد بن المسيب أن سائلا سأله ما الذى دعا محمد بن أبى حذيفة إلى الخروج على عثمان ، فقال كان يتيما فى حجر عثمان وكان عثمان والى أيتام أهل بيته ومحتمل كلهم ، فسأل عثمان العمل (الولاية) حين ولى ، فقال يابنى لو كنت رضى ثم سألتنى العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال فأذن لى فلأخرج فلأطلب ما يقوتنى . قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغيرعليه أن منعه الولاية . قيل (أى للشعبى) فعمار : قال كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبى لهب كلام فضربهما عثمان : وأما محمد بن أبى بكر فقد أخرج ابن عساكر والطبرى أنه لزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فتقمها منه محمد وسيأتى خبره فى غير هذا المحل إن شاء الله.

ورغبة فى مصير الخلافة بعده إلى على رضى الله عنه ، يدلك عليه ماروه ابن عساكر عن عمرو بن محمد ، قال بعثت ليلى بنت عميس إلى محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر فقالت . إن المصباح يأكل نفسه ويضىء للناس ، فلا تأثما فى أمر تسوقانه إلى من لا يأثم فيه . فإن هذا الأمر الذى تحاولون اليوم لغيركم غداً فاتقوا أن يكون عليكم اليوم حسرة عليكم غدا . فلجا وخرجا مغضبين يقولان لا ننسى ماصنع بنا عثمان ، وتقول ما صنع بكما إلا ما ألزمكما الله هـ .

هذا ولما رجع الرسل من الأمصار تأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه ، وكتب عثمان إلى أهل الأمصار كتاباً هذه صورته عن ابن عساكر .

أما بعد فإنى آخذ العمال بموافاتى فى كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الائتمار بالمعروف والنهى عن المنكر . فلا يرفع إلى شىء على أو على أحد من عمالى ، إلا أعطيته . وليس لى ولا لعمالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم . وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرين يضربون . فيا من ضرب سراً وشتم سراً من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم « موسم الحج » ، وليأخذ بحقه كيف كان منى أو من عمالى . أوتصدقوا فإن الله يحب المتصدقين .

فلما قرىء هذا الكتاب فى الأمصار بكى الناس . ودعوا لعثمان وما أطوع الإنسان ، لرب الإحسان ، ولو ثبت على مثل هذا عثمان رضى الله عنه ولم يحفل بإغراء مروان ومن على شاكلته ومضى فى تألف الناس على وجهه لما تمكنت جذور الفتنة فى البلاد ، وقعد له القوم بالمرصاد .

ولما كتب ذلك الكتاب بعث لعمال الأمصار أن يوافوه فى الموسم

فقدموا عليه ، وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد ومعاوية ، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمرو بن العاص فقال : ويحكم ماهذه الشكاية والإذاعة إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ومايعصب « يحاط » هذا إلا بى . فقالوا له ألم يرجع إليك رسلك ويخبروك أن أحداً لم يشافههم بشيء ، والله ماصدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة : فقال أشيروا على : فقال سعيد هذا أمر مصنوع يلقى فى السر فيتحدث به الناس . ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من عندهم : وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتهم الذى لهم فإنه خير من أن تدعهم : وقال معاوية قد وليتنى فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخبر والرجلان أعلم بناحيتهما والرأى حسن الأدب : وقال عمرو ابن العاص ، أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين .

فقال عثمان قد سمعت كل ما أشرتم به على ، ولكل أمر باب يؤتى منه . إن هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن . فنكفكفه(١) باللين والمواتاة(٢) إلا فى حدود الله فإن فتح فلا يكون لأحد على حجة . وقد علم الله أنى لم آل(٣) الناس خيراً ، وإن رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها .

ثم لما عاد عثمان إلى المدينة وعاد معه القوم دعا علياً وطلحة والزبير وعنده معاوية فحمد الله معاوية ثم قال : أنتم أصحاب رسول الله صلى الله

---

(١) ندفعه (٢) حسن الموافقة (٣) لم أفتر ولم أقصر

عليه وسلم وخيرته من خلقه وولاة أمر هذه الأمة لايطمع فيه أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم (يعنى عثمان) عن غير غلبة ولا طمع وقد كبر وولى عمره ، ولو انتظارتم به الهرم لكان قريباً مع أنى أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك ، وقد فشت مقالة خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء فهذه يدى لكم به ، ولا تطمعوا الناس فى أمركم فوالله إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً ألا إدباراً .

ولا يخفى على اللبيب أن معاوية يعرض بالقوم ويشير إلى ما فى نفوسهم من الطمع بالخلافة ، وأنهم يستعجلونها مع كبر عثمان وقرب مصيرها إليهم بالضرورة ، لهذا انتهره على رضى الله عنه وقال له : اسكت لا أم لك : فقال دع أمى فإنها ليست بشر أمهاتكم قد أسلمت ، وبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأجبنى عما أقول لك : فقال عثمان صدق ابن أخى أنا أخبركم عنى وعما وليت . إن صاحبي اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ، ومن كان منهما بسبيل احتساباً ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى قرابته وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شيء من ذلك لما أقوم به فيه ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمرى لأمركم تبع : فقالوا له قد أصبت وأحسنت . قد أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً . وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً : فأخذ منهما ذلك . فرضوا وخرجوا راضين ، وقال له معاوية اخرج معى إلى الشام فإنهم (أى أهل الشام) على الطاعة قبل أن يهجم عليك ما لا قبل لك به : فقال عثمان لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ولو كان فيه خبط عنق . قال فإن بعثت إليك جنداً منهم يقيم معك لنائبة إن نابت : قال أضيق على جيران رسول الله : فقال والله لتغتالن ولتغزين فقال حسبي الله ونعم الوكيل .

وصية معاوية للمهاجرين بعثمان :

فلما ودع معاوية عثمان خرج من عنده وعليه ثياب السفر ، فمر على نفر من المهاجرين فيهم علي . وطلحة . والزبير . فقام عليهم فتوكأ على قوسه بعد ما سلم عليهم ثم قال : إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذ الناس يتغالبون إلى رجال ، فلم يكن منهم أحد إلا وفي قبيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمور دونه، ولا يشهده ولا يؤامره حتى بعث الله تعالى نبيه وأكرم به من اتبعه ، فكانوا يرأسون من جاء بعدهم وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون فيه بالسابقة والقدمة والاجتهاد . فإن أخذوا بذلك وقاموا به كان الأمر أمرهم والناس لهم تبع . وإن صغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك . ورده الله إلى من جعل له الغلب ، وكان يرأسهم أولا فليحذروا الغير فإن الله على البدل لقادر ، وله المشيئة في ملكه وأمره . إني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه[1] تكونوا أسعد منه بذلك : ثم ودعهم ومضى .

هذه الوصية أوردها ابن عساكر في تاريخه ، وأوردها غيره مختصرة ، فأحببت نقلها عن ابن عساكر لأنها أجمع ، وكل ما فيها غرر تاريخية تبين ما كان عليه حال العرب قبل الإسلام وما صاروا إليه بعده ، وإن التفاضل في الإسلام ليس إلا بالسابقة وإن الرئاسة التي ارتبطت بالشورى بعد الفوضى الماضية إنما صارت إلى السابقين بسبقهم ، فإذا انتهت إلى التغالب صارت إلى من دخل الإسلام بعدهم ، لأن في هؤلاء من هو أقوى عليها منهم، ولعل معاوية يعرض بنفسه وقد أنبأهم عن أمر واقع لا محالة وحذرهم من شيء لا تغني الحيطة من الوقوع فيه ، مادامت روح التغالب سرت في القوم فاشرأبت أعناق غير السابقين إلى ما كان لهم بحكم الجامعة الإســـلامية

---

(١) ارفقوه به .

والاستحقاق ، وليت تلك الروح لم تكن كانت فى عصر كان الناس فيه أحوج إلى خلافة عثمان وعلى وأضرابهما من أهل السابقة الذين تأدبوا بآداب النبوة ، فكانوا أرأف بالأمة وألزم لطريقة الشورى والعدل ، وكان يرجى لو استمرت جيلا آخر نمو مبادىء الشورى فى الدولة ، ونشوء الجيل القابل على حبها والتوجه إلى وضع قواعدها على أصول ثابتة . لاتقوى عليها أيدى المستبدين وأطماع الطامعين . على أن أولئك النفر من المهاجرين الذين خاطبهم معاوية قد أعظموا قوله وصدقوا نصيحته ، إذ قال على : إن كنت لأرى أن فى هذا خيراً : فقال الزبير لا والله ما كان قط أعظم فى صدرك وصدورنا منه اليوم .

عودة إلى مانحن بصدده :

هذا ولما دعا عثمان رضى الله عنه الأمراء إلى الموسم ، وخلت منهم البلاد ، اتعد المنحرفون عن عثمان أن يثبوا فى مغيب الأمراء فلم يتهيأ لهم ذلك ، فلما رجع الأمراء كتب بعض أهل المدينة إلى المنحرفين عن عثمان فى الأمصار بالقدوم عليهم ، وكان الذين يكاتبون أهل مصر محمد بن أبى بكر ومحمد ابن جعفر وعمار بن ياسر وسراً أناس من الناس ، كما فى رواية ابن عساكر من حديث طويل .

فتكاتبوا من أمصارهم فى القدوم على المدينة ، فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى فى خمسمائة وقيل فى ألف ، وفيهم كنانة بن بشر الليثى ، وسودان بن حمران السكونى ، وميسرة أوقتيرة بن فلان السكونى، وعليهم جميعاً الغافقى بن حرب العكى . وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدى ، والأشتر النخعى ، وزياد بن النضر الحارثى ، وعبد الله ان الأصم العامرى . وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدى ،

وذريح بن عباد ، وبشر بن شريح القيسى ، وابن المحرش . وعليهم حرقوص ابن زهير السعدى ، وكلهم فى مثل عدد أهل مصر . وخرجوا جميعاً فى شوال مظهرين للحج ، ولما كانوا من المدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل البصرة وكان هواهم فى طلحة ، فنزلوا ذا خشب وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم فى الزبير ، فنزلوا الأعوص ونزل معهم ناس من اهل مصر ، وكان هواهم فى على وتركوا عامتهم بذى المروة ،وقال زياد بن النضر وعبدالله ابن الأصم من أهل الكوفة لاتعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا أنهم عسكروا لنا فوالله إن كان حقاً لايقوم لنا أمر . ثم دخلوا المدينة ولقوا علياً وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين ، وأخبروهم أنهم إنما أتوا للحج وأن يستعفوا من بعض العمال ، واستأذنوا فى الدخول فمنعوهم ، ورجعوا إلى أصحابهم فتشاوروا فى أن يذهب من أهل الكوفة وكل مصر فريق إلى من هواهم فيه ، وقال كل فريق منهم إن بايعنا صاحبنا وإلا كذبناهم وفرقنا جماعتهم ثم رجعنا عليهم حتى نبغتهم .

هذا ما أجمع رأيهم عليه من الكيد ، وهو فى الظاهر دهاء وتحيل على نيل المقصود ، إلا أن الحقيقة أن ليس فى القوم رجل على بصيرة من الأمر، إذ لو فرض أن عثمان رضى الله عنه أصبح غير أهل للخلافة ، ووجب على الأمة خلعه واستبداله بمن هو أقدر منه اتباعاً للمصلحة ومراعاة للشرع ، أفلا يكون من المصلحة التى يتحراها أولئك الثائرون لأنفسهم ، وللأمة أن لا يكون بعد خلعه خلف وشقاق ، وأن تتوجه القلوب إلى مقصد واحد ووجهة واحدة ، حتى بذلك تتم لهم المصلحة ولا يضطرب حبل الدولة بأشد مما كان فيه من الاضطراب فى عهد عثمان ، وإنما يتم لهم ذلك باتفاقهم جميعاً على من يخلف عثمان ، والقوم يومئذ غايتهم واحدة وهى خلع عثمان ، وقلوبهم شتى فيمن يخلفه ، وكل فريق منهم يميل إلى شخص بعينه، فكأنهم

مساقون إلى حيث لا يعلمون . لذا فأنهم مع صعوبة الأمر الذى قاموا به وأنه من المراكب الخشنة التى لا يركبها إلا الأقوام ذوو الحياة العالية والشعور الصحيح ، لم يهتدوا إلى طريق الخير والمصلحة التى يتوخاها أهل العقول فى مثل هذه الحال . فكانوا بعملهم هذا أضر على المرشحين للخلافة ، وعلى الأمة بما جلبوه على الجميع وعلى أنفسهم أيضاً من مصائب الحروب والمنازعات الطويلة التى لما لم تكن فى بدايتها قائمة على أساس الحكمة والتدبير ، انتهت بتغلب بنى أمية على الملك ، وتحول حال الدولة من الشورى إلى الاستبداد ولله الأمر .

هذا وبعد أن اتفق القوم على ما اتفقوا عليه ، أتى المصريون علياً وهو فى عسكر عند أحجار الزيت ، وقد بعث ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع عليه وعرضوا على علىّ أمرهم : فصاح بهم وطردهم ، وقال إن جيش ذى المروة وذى خشب والأعوص ملعونون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علم ذلك الصالحون : وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير ، فقالا مثل ذلك : فانصرفوا وافترقوا عن هذه الأماكن إلى عسكرهم على بعد ، وتفرق أهل المدينة فلم يشعروا إلا والتكبير فى نواحيها ، وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بأمان من كف يده ، وصلى عثمان بالناس أياما ولزم الناس بيوتهم ، ولم يمنعوا الناس من كلامه . وغدا عليهم على وقال ما ردكم بعد ذهابكم ، قالوا أخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا ، وقال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير مثل ما قاله أهل مصر ، وأنهم جاءوا لينصروهم . فقال لهم على كيف علمتم بما لقى أهل مصر ، وكلكم على مراحل من صاحبه ، حتى رجعتم علينا جميعا ، هذا أمر أبرم بليل . فقالوا اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا ، ثم منعوا الناس من الاجتماع معه ، وكتب عثمان إلى الأمصار يستنجدهم ويخبرهم ما الناس فيه ، فخرج أهل الأمصار على الصعب والذلول فبعث عبدالله

ابن سعد من مصر معاوية بن حديج ، وبعث أبو موسى من الكوفة القعقاع ابن عمرو ، وبعث عبد الله بن عامر من البصرة مجاشع بن مسعود السلمى ، وبعث معاوية من الشام حبيب بن مسلمة الفهرى ، وقيل إن معاوية تربص به فقام فى أهل الشام يزيد بن الأسد القسرى فتبعه خلق كثير ، فسار بهم إلى عثمان ، فلما وصل إلى وادى القرى بلغهم قتل عثمان فعادوا وكذلك الجيوش التى أقبلت من الأمصار لما انتهت إلى الربذة وبلغها قتل عثمان رجعوا جميعاً ، وكان قد قام فى الأمصار جماعة كبيرة من الصحابة والتابعين يحرضون على إعانة أهل المدينة ، وإنجاد عثمان فأجابهم إلى ذلك الناس ولكن أعجلهم المحاصرون فقتلوا عثمان قبل أن يصل أحد إلى نجدته .

ولما جاءت الجمعة القابلة خطب عثمان وقال : يا هؤلاء الله الله فو الله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب : فقال محمد بن مسلمة أنا أشهد بذلك فأقعده حكيم بن جبلة وقام زيد بن ثابت فأقعده آخر وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وأصيب عثمان بالحصباء فصرع وقاتل دونه سعد بن أبى وقاص ، والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة ، ودخل عثمان بيته وعزم عليهم بالانصراف فانصرفوا ودخل على وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بنى أمية فيهم مروان فقالوا لعلى أهلكتنا وصنعت هذا الصنع ، والله لئن بلغت الذى تريد لتمرن عليك الدنيا ، فقام مغضباً وعادوا إلى منازلهم وصلى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً ، ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أمير المصريين الغافقى ، وقيل أبو أيوب الأنصارى وقيل سهل بن حنيف حتى قتل عثمان .

وقد قيل فى قتل عثمان إن محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان ، فلما خرج المصريون مظهرين للحج خرج معهم محمد

ابن أبى بكر وسار على آثارهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح فلما كان عبد الله بأيلة (العقبة) بلغه أن ابن أبى حذيفة غلب على مصر، فرجع سريعاً إليها فمنع منها ، فأتى فلسطين وقيل عسقلان وأقام بها حتى قتل عثمان وقيل إنه اعتزل الفتنة فلم يدخل فيما دخلت فيه قريش والعرب بعد حتى مات .

أما المصريون فلما نزلوا ذا خشب ، جاء عثمان إلى بيت على ومت (توسل) إليه بالقرابة فى أن يركب إليهم ويردهم لئلا تظهر الجرأة منهم : فقال له قد كلمتك فى ذلك فأطعت أصحابك وعصيتنى : يعنى مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبى سرح وسعيد بن العاص : فعلى أى شىء أردهم فقال على أن أصير إلى ما تراه وتشيره ، وأن أعصى أصحابى وأطيعك ، فركب على فى ثلاثين من المهاجرين والأنصار فأتوا المصريين وتولى الكلام معهم على ومحمد بن مسلمة ، فرجعوا إلى مصر ورجع القوم إلى المدينة ودخل على على عثمان وأخبره برجوع المصريين ، وأشار عليه أن يسمع الناس ماعول عليه من النزع قبل أن يجىء غيرهم ، ففعل وخطب خطبته التى ينزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال : أنا أول من اتعظ أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه ، فمثلى نزع وتاب فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليروا فى رأيهم ، فو الله لئن ردنى الحق عبداً لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم : ثم بكى وبكى الناس حتى اخضلت لحاهم .

أعطى الناس من نفسه الحق ، ووعد بأن ينحى بنى أمية عنه ، وهذا كل مايطلبه منه الناس ، وكادت تطفأ نار الثورة وتزول أسباب الإرجاف لكن بنى أمية قد استحوذوا على عثمان ، وملكوا منه الجنان ، لكبر سنه وضعفه

فلم يرقهم ما قال ووعد ، فلما دخل منزله جاءه نفر منهم فيهم مروان وسعيد فعذلوه فى ذلك ، فوبختهم نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان وقالت لهم ، لا تزالون به حتى يقتلوه ، فلم يرجعوا إلى قولها واستذلوه فى إقراره بالخطبة والتوبة عند الخوف ، واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً ، فقال لمروان كلمهم ، فكلمهم وأغلظ لهم فى القول ، وقال جئتم لنزع ملكنا من أيدينا ، والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله مانحن بمغلوبين على مافى أيدينا .

هكذا كان عثمان رضى الله عنه بين عدو فى الداخل يثير عليه تأثرة النفوس ، وبين عدو فى الخارج يتربص به العثرات ، ويحس من بطانته بالخطر على الخلافة الشرعية ، والنزوع إلى الاستئثار بالسلطة ، وحسبك من حقد القوم على بطانته من بنى أمية ما ذكروه أن عثمان مر مرة بجبلة ابن عمرو الساعدى وهو فى نادى قومه وفى يده جامعة ، فسلم فرد القوم عليه ، فقال جبلة لم تردون على رجل فعل كذا وكذا ، ثم قال لعثمان والله لأطرحن هذه الجامعة فى عنقك أو لتتركن بطانتك هذه الخبيثة ، مروان ، وابن عامر وابن أبى سرح ، فمنهم من نزل القرآن بذمه ومنهم من أباح رسول الله دمه ه .

والعجيب أن بنى أمية يرون الشر المقبل عليهم وعلى عثمان من التصاقهم به ، واقتطاعهم الأمور دونه ويسمعون من الناس مثل هذا الكلام ولا يرفقون بعثمان وبأنفسهم وبالمسلمين ، ويسلكون فى هذا الأمر مسلك الحكمة والاعتدال ويرقبون عن بعد حالة الفتنة حتى إذا تحققوا الخطر على عثمان دفعوا عنه بما فى الإمكان ، وما نخال الفتنة تصل إلى هذا الحد لو كان بنو أمية بعيدين عن عثمان

هذا وبلغ خبر ما قال مروان علياً فنكر ذلك ، وقال لعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث . أسمعت خطبته بالأمس ومقالة مروان للناس اليوم ، يالله وللناس إن قعدت فى بيتى قال تركتنى وقرابتى وحقى ، فإن تكلمت فجاء مايريد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول وقام مغضباً إلى عثمان فقال له : أما رضيت من مروان ورضى منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه . والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا نفسه . وايم الله إنى لأراه يوردك ولا يصدرك . وما أنا عائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك أذهبت شرفك . وغلبت على رأيك ، ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول على ، فعذلته فى طاعة مروان ، وقالت إنما تركك الناس لمكانه ، فأرسل إلى على فاستصلحه . فبعث إليه فلم يأته فأتاه عثمان إلى منزله يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه فقال على بعد أن قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم . فخرج عثمان وهو يقول خذلتنى وجرأت الناس على . فقال على : والله إنى أكثر الناس ذباً عنك ، ولكنى كلما جئت بشىء أظنه لك رضا جاء مروان بأخرى فسمعت قوله وتركت قولى : ولم يعد على يعمل ما كان يعمل إلى أن منع عثمان الماء فغضب وأمر بادخال الروايا على عثمان .

والحق يقال إن على بن أبى طالب مع تيقنه من مصير الخلافة إليه بعد عثمان ، فإنه لم يأله نصحاً ولم يضن عليه بمد يد المعونة له والذب عنه ، ومهما كان فى نفس على من جهة بنى أمية وعثمان ما فيها ، فإن شيمه الجميلة وغلبة الفضيلة على رغائبه النفسية جعلته أقرب فى مشربه السياسى إلى الاعتدال ، وأرأف من بقية المهاجرين بعثمان ، وكان عثمان يعلم ذلك ويأنس بمشورة على أكثر من غيره ، يدلك على هذا ما ذكروه فى بعض الروايات أن علياً كان عند حصر عثمان بخيبر ، فاشتد الطعن بعد خروجه على عثمان ، وربما

الزبير وطلحة أن يميلا إليهما قلوب الناس ويغلبا عليهم واغتنما غيبة علي .
فكتب عثمان إلى علي .

أما بعد فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وارتفع أمر الناس في شأني فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي ، وطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب ، فأقبل على أولى

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزق

ولما جاء علي إلى المدينة وجد الناس مجتمعين عند طلحة ، وقدم عليه عثمان وقال له ، أما بعد فإن لي حق الإسلام . وحق الإخاء والقرابة والصهر . ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في الجاهلية لكان عاراً على بني عبد مناف أن ينتزع أخو بني تيم (يعني طلحة) أمرهم : فقال له علي سيأتيك الخبر ، ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهو في خلوة من الناس . فقال له يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه ، فقال يا أبا الحسن بعد ما مس الحزام الطبيين . فانصرف علي إلى بيت المال وأعطى الناس ، فانصرفوا عن طلحة وسر بذلك عثمان ، وجاء إليه طلحة تائباً . فقال والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً فالله حسيبك يا طلحة .

وذكروا سبباً آخر لعود المصريين وحصار عثمان ، وهو أن عبد الله ابن سعد بن أبي سرح ضرب رجلا ممن كانوا شكوه إلى عثمان حتى قتله ، فركب المصريون إلى المدينة وبسطوا الأمر لكبار الصحابة ، فاجتمعوا على عثمان وألحوا عليه في إنصاف القوم من عامله ، فقال لهم اختاروا رجلا أوله عليهم فقالوا استعمل محمد بن أبي بكر فكتب عهده ، وولاه ، وخرج معه

عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر ، وبينما هم على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة رأوا راكباً يدنو منهم ويبتعد عنهم، فقبضوا عليه وسألوه ، فقال أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر ، وقيل بل كان الذي قبضوا عليه ليس بغلام عثمان ، وقيل إنه أبو الأعور السلمي ففتشوه فوجدوا معه أنبوبة رصاص وفيها كتاب إلى عامل مصر ففتحوه فإذا فيه : إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وأبطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي .

وسواء صح خبر ولاية محمد بن أبي بكر على مصر أو لم يصح ، فإن المصريين لما أخذوا الكتاب وفيه الأمر بقتل بعضهم أو جلدهم رجعوا ورجع الكوفيون والبصريون ، وقرءوا الكتاب في محضر من الصحابة ، وقام علي ومحمد بن مسلمة فأتيا عثمان وقالا له ما قال المصريون : فأقسم بالله ما كتبه ولا علم به : فقال محمد بن مسلمة صدق هذا من عمل مروان : ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرف الشر فيهم . وذكر ابن عديس ما فعل ابن أبي سرح بالمسلمين وأهل الذمة والاستئثار بالغنائم ، فإذا قيل له في ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين ، ثم ذكروا له أمر الكتاب فحلف أنه ما كتبه ولا علم له به ، وسألوه عمن كتبه فقال لا أدري ، فقالوا كيف يكتب بمثل هذه الأمور العظيمة وينقش عليها خاتمك ، وأنت لا تعلم فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع ، وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك ، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه فاخلع نفسك كما خلعك الله :

فأجابهم عثمان أني لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله ولكني أتوب وأنزع : قالوا لو هذا أول ذنب تبت منه قبلنا ، لكنا رأيناك تتوب ثم تعود ، ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك ، أو تلحق أرواحنا بالله تعالى ولمن منعك أصحابك نقاتلهم حتى نخلص إليك اهـ .

سبب امتناع عثمان عن اعتزال الخلافة :

هذا آخر سهم فى المنزع وآخر الجد فى أمر الفتنة ، وقد رأى ذلك عثمان وأحس به . وتوالت عليه النذر بحصوله ، فلم يتنح عن الخلافة وفضل القتل على ترك ذلك المنصب الرفيع ، لاحباً بالرياسة على مايظهر ، إذ الرياسة المشوبة بمثل ذلك الكدر المحاطة بتلك المنغصات المفضية إلى إزهاق النفس لاتحب ، وليست مما يحرص عليه ، وإنما هو امتنع عن اعتزال المنصب لسبب من ثلاثة أسباب (إما) لضعف الإرادة الناشىء عن كبر السن (وإما) خوفاً من أن يتهم نفسه بالعزل فيسجلون عليه مااتهم به من الأحداث مع اعتقاده أنه لم يستحل محرماً فيما فعل (وإما) عملا برأى مروان وأضرابه من الأمويين الذين لايرون لأنفسهم حقاً بالتقدم فى أمور الملك والدولة ، إلا إذا اقتضى السيف وأهريق الدم مادام غيرهم من المهاجرين وأهل السابقة فى الإسلام موجودين ، وإليهم ينتهى المسلمون فى الاختيار والمشورة وتسليم أزمة الرياسة ، ولا أرى لتمنع عثمان عن ترك الأمر سبباً غير أحد هذه الثلاثة أسباب والله بالحقيقة عليم .

عودة إلى ماكنا بصدده

لما أبى عثمان أن يخلع نفسه جد القوم فى حصاره ، ولو كان لهم رغبة فى قتله من مبدأ الأمر لقتلوه ، وخرج فى أثناء الحصار أناس كثيرون عن المدينة ، ونصح بعضهم عثمان بالخروج فأبى [1] ، وكتب للولاة يستمدهم

---

(١) جاء فى حديث رواه ابن عساكر أن القوم دخلوا واستولوا على المدينة ، كتب عثمان الى الناس يستمدهم فى أمصارهم ويخبرهم الخبر ، فخرج عمرو بن العاص من المدينة متوجهاً نحو الشام فقال يا أهل المدينة والله لا يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل ، إلا ضربه الله بذل من لم يستطع نصره فليهرب ، فسار الى فلسطين وخرج معه ابناه محمد وعبد الله ، وخرج بعده حسان ابن ثابت وتتابع الناس على الخروج وروى عن عبد الله بن مروان عن المغيرة بن شعبة أنه

وصار بينه وبين القوم أخذ ورد ، رأوا بعده أن يمنعوا عنه الماء وكل صلة له بالناس تضييقاً عليه ، لعله يذعن لطلبهم دون سفك دم ، وكان ذلك التضييق بإشارة من طلحة ، إذ ذكر الطبرى أن القوم كانوا ببابه يتناجون ، فمنهم من يقول اقتلوه ومنهم من يقول انظروا على أن يراجع ، فمر طلحة فقام إليه ابن عديس فناجاه ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده . فقال عثمان وقد كان يرى ماوراء بابه ، هذا ما أمر به طلحة . اللهم اكفنى طلحة . فإنه حمل على هؤلاء وألبهم علىّ ، والله إنى لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يسفك دمه .

وكان القوم بلغهم مسير من سار إليهم من الأمصار ، فكانوا كلما حاولوا الدخول على عثمان منعهم من ذلك الحسن والحسين ابنا علىّ ، ومحمد بن طلحة ، وابن الزبير ، وكثير من أبناء الصحابة جزاهم الله عنه خير الجزاء ، وكانوا ربما قاتلوهم وقاتلهم معهم أبو هريرة ، وسعيد بن العاص ، ومروان وكثير من الصحابة حتى ضربوا مروان وقطعوا له عرقا من عروقه ،

= دخل على عثمان وهو محصور فقال: إنك أمام العامة وقد نزل بك ما ترى ، وإنى أعرض عليك خصالا ثلاثاً اختر إحداهن : إما أن تخرج فتقاتلهم ، فإن معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل : وإما أن نخرق لك باباً سوى الباب الذى هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة ، فإنهم لن يستحلوك وأنت بها : وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية : فقال عثمان . أما أن أخرج فأقاتل فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بسفك الدماء . وأما أن أخرج إلى مكة فإنهم لن يستحلونى بها فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم ، فلن أكون أنا . وأما أن ألحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية فلن أفارق دار هجرتى ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ .

وهذا منتهى الاستسلام من عثمان رضى الله عنه ، ومن كان هذا شأنه فبأن يوصف بسلامة الصدر والرضا بالقضاء أولى منه أن يوصف بالاستبداد والأثرة ، إذ المستبد لا يبالى أن يلجأ إلى القوة والحيلة ، ويستعمل نهاية الحزم فى دفع الأذى عنه ولا يمنعه عن مقاصده مانع ولو بسفك الدماء فأمر عثمان هذا مع اتفاق جمهور عظيم من أهل عصره على الشكوى منه ، يترك الباحث فى حيرة لا يدرى كيف يحكم وماذا يقول .

واحتمل وهم يظنون أنه مات كل هذا وعثمان لم يأمرهم بقتالهم ، بل كان ينهاهم عنه ، فلما طال عليهم الأمر وخافوا وصول المدد ، ويئسوا من تسليم عثمان لهم بالأمر، ورأى محمد بن أبي بكر أن الحسن أصيب بجراح ، وخشى من أن يراه بنو هاشم فيأتوا ويكشفوا الناس . فأمرهم باقتحام الدار من الدور المجاورة فاقتحموها عليه ، من دار عمرو بن حزم ولم يشعر بهم أحد ممن يدافعون عنه على الباب ، وانتدبوا له رجلا يقتله ، فدخل عليه البيت فقال له اخلعها وندعك فأبى ، ووعظه فخرج ودخل آخر وآخر كلهم يعظه فيخرج ، ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلا ، فاستحيا وخرج ، ثم دخل عليه السفهاء فتولى قتله كنانة بن بشر ، وطعنه عمرو بن الحمق عدة طعنات ، ودافعت عنه نائلة فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها ، وجاء غلمان عثمان فقتلوا من قاتليه سودان بن حمران وغيره . وبلغ الخبر عليا وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة ، فخرجوا وقد اضطربت عقولهم للخبر الذي جاءهم ، حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا ، وقال على لابنيه كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ، ورفع يده فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ، وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله ، وفي رواية أن علياً كان غائباً عن المدينة لما قتل عثمان : وكان قتل عثمان رضى الله عنه وأخزى قاتليه لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة (٣٥ ﻫ) ودفن من ليلته ، وقيل بل بقى في بيته ثلاثة أيام ثم جاء حكيم بن حرام وجبير بن مطعم إلى علي ، فأذن لهم في دفنه فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ، فدفنوه في وحش كوكب وصلى عليه جبير وقيل مروان وحش كوكب قرب البقيع ، وقد كان معاوية أمر في خلافته بضمه للبقيع فاتصل بمقابر المسلمين .

هذا ما اخترت إيراده من أخبار الفتنة وحصار عثمان وقتله ، وقد تركت شيئا كثيراً من أخباره أيام حصاره فليرجع إليها من شاء في المطولات

كتاريخ الطبرى ، وابن الأثير ، وابن عساكر وابن خلدون ، والإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى والتمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ، وهى الكتب التى نقلت عنها أخبار الفتنة .

وكان عمره لما قتل بين الثانية والثمانين والتسعين وخلافته اثنتى عشرة سنة إلا بضعة أيام على قول من قال إنه قتل سنة (٣٥ ﻫ) وأما على قول من قال إنه قتل سنة (٣٦ ﻫ) فأكثر والأول أصح .

وقد كان لمحمد بن أبى بكر وطلحة بن عبيد الله أثر غير محمود فى أمر عثمان رضى الله عنه ، وربما اغتفر ذلك لطلحة لأنه كبقية الصحابة الذين كانوا يتربصون بعثمان العزل ولا يظنون أن الأمر يبلغ إلى قتله ، ومهما كان من بعضهم فى هذه الفتنة فإن الدواعى السياسية ساقت بعضهم طوعا وبعضهم كرها إلى الممالأة على عثمان ، رجاء إذعانه لما أجمعت عليه الأفكار من لزوم اعتزاله للأمر كما رأيت فيما سبق ، ولكن أبى رضى الله عنه ورحمه وغفر له إلا الموت ، فأقدم عليه أولئك السفهاء وقتلوه بعد إنذار كثير وجد ظاهر لايخفى على مثل عثمان ، فذهب شهيداً مبروراً وترك وراءه من الاضطراب فى أمر الدولة والخلافه ماترك ، ولو اعتزل الخلافة منذ رأى الجد من القوم لما كان ما كان ولله الأمر .

وأما محمد بن أبى بكر فقد أخرج ابن عساكر وأبو جعفر الطبرى من رواية سيف عن مبشر قال : سألت سالم بن عبد الله عن محمد بن أبى بكر مادعاه إلى ركوب عثمان ؟ فقال الغضب والطمع . فقلت ما الغضب والطمع ؟ قال كان من الإسلام بالمكان الذى هو به وغره أقوام فطمع ، وكانت له دالة ولزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن . فاجتمع هذا إلى هذا فصار مذمما بعد أن كان محمداً .

شذرات مما يتعلق بمقتل عثمان

وبحث فى دخائل الفتنة وكلمتى فيها وفى سبب استمساك بنى أمية

قد ذكر الرواة والمؤرخون أشياء كثيرة مما يتعلق بالفتنة وقتل عثمان غير ماذكرناه مما لايخلو النظر فيها من وجوه العبر والوقوف على شىء من دخائل الفتنة ، فلا ينبغى أن نخلى هذا الكتاب منها بعد أن وعدنا القراء بالتوسع فى سيرة عثمان إجابة لرغائب كثير منهم ، خلافا لما اشترطناه فى فاتحة الكتاب من لزوم الاختصار فى سيرته وسيرة على رضى الله عنهما . فمن ذلك ماذكروه عن المكاتبات السرية التى كانت بين الثوار وبعض الصحابة فمنها المختلق ومنها الصحيح ، روى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ، عن حويطب بن عبد العزى أنه قال أرسل إلى عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدا لى أن أتهم نفسى لهؤلاء ، فأت علياً وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم فتولوه ، واصنعوا ماشئتم : فخرجت حتى جئت علياً فوجدت على بابه مثل الجبال من الناس ، والباب مغلق لايدخل عليه أحد ، ثم انصرفت فأتيت الزبير فوجدته فى منزله ليس ببابه أحد ، فأخبرته بما أرسلنى به عثمان ، فقال قد والله قضى ماعليه أمير المؤمنين هل جئت علياً ؟ قلت نعم فلم أخلص إليه . فقمنا جميعاً فأتينا طلحة بن عبيدالله فوجدناه فى داره وعنده ابنه محمد ، فقصصنا عليه ماقال عثمان . فقال قد والله قضى ماعليه أمير المؤمنين هل جئتم علياً ؟ قلنا نعم فلم نخلص إليه . فأرسل طلحة إلى الأشتر فأتاه : فقال لى أخبره فأخبرته بما قال عثمان ، فقال طلحة وقد دمعت عيناه ، قد والله قضى ماعليه أمير المؤمنين . فقام الأشتر وقال تبعثون إلينا وجاءنا رسولكم بكتابكم ، وهاهو ذا وأخرج كتاباً فيه بسم الله الرحمن الرحيم (الخ الكتاب وهو فى الإمامة والسياسة فليراجعه من أحب) أليس هذا كتابكم إلينا فبكى طلحة ، فقال الأشتر لما حضرنا أقبلتم تعصرون أعينكم

والله لا نفارقه حتى نقتله وانصرف ، وسكوت طلحة عن إنكار هذا الكتاب يدل على صحته إذا صحت الرواية . وأما المختلق فقد روى ابن عساكر والمدائنى أن المصريين لما عادوا جاءوا إلى على وقالوا له قم معنا إلى عثمان ، فقال والله لا أقوم معكم . قالوا فلم كتبت إلينا ؟ قال والله ما كتبت إليكم كتاباً . فنظر بعضهم إلى بعض وخرج على من المدينة ، وفى رواية الأعمش ونقلها صاحب العقد الفريد عن عيينة عن مسروق قال قالت عائشة مصتموه[1] موص الإناء حتى تركتموه كالثوب الرحض[2] نقياً من الدنس ثم عدوتم فقتلتموه فقال لها مروان هذا عملك كتبت إلى الناس تأمريهم بالخروج عليه ، فقالت والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد فى بياض حتى جلست فى مجلسى هذا : قال فكانوا يرون أنه كتب على لسان على وعلى لسانها كما كتب أيضاً على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر . فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً للفتنة .

ولا جرم أن لهذه الكتب أثراً كبيراً فى إشعال نار الفتنة ولكن من هو مصدرها ومن هم المختلقون لها ؟ هذا مالا يظهر إلا للمنقب فى سيرة عثمان ، الواقف على مقاصد الأحزاب الكثيرة ، التى كانت تسعى فى إضرام نار الثورة فلبنى أمية حزب ولطلحة حزب ، وللزبير مثل ذلك ، ولعلى مثله أيضاً ، وكان حزب على أشدهم تشيعاً له وطمعاً فى مصير الخلافة إليه ، ومنهم محمد بن أبى بكر وابن جعفر وعمار بن ياسر الذى كان شديد الحب لعلى ، شديد التأليب على عثمان والتحريض عليه . نقل فى العقد أن سعد بن أبى وقاص قال لعمار بن ياسر لقد كنت عندنا من أفاضل أصحاب محمد حتى لم يبق فى عمرك إلا ظمء الحمار[3] فعلت وفعلت (يعرض له بقتل عثمان) ، فقال عمار أى شىء أحب إليك مودة على دخل أو هجر جميل ؟ قال هجر

---

(١) الموص الغسل اللين (٢) المغسول

(٣) أى يسير لأنه ليس شىء أقصر ظمأ منه

جميل . قال فلله على أن لا أكلمك أبداً : وروى ابن حزم فى الملل والنحل أن عماراً كان ممن يقول بالتفضيل أى تفضيل علىّ على الثلاثة : وناهيك بابن السوداء ومقالته فى على أيضاً ، ومن أخذ برأيه من جفاة الأعراب الذين قل أن يفهموا من الدين شيئاً ، ينهى ضمائرهم عن الاستسلام لمثل مقالة ابن السوداء الذى ينكرها على نفسه ويبرأ إلى الله منها ، وقد علمت مما قررناه فيما سبق أن تغير القلوب على عثمان بسبب استئثاره بأمور الأمة وانقطاع بنى أمية إليه ساعد المرشحين للخلافة بعده على الجهر مع الناس فى الإنكار عليه توصلا لنزع الخلافة منه وإبعاد الأمويين عنه ، ولهم فى ذلك شبه عذر مادام ليس لهم رأى فى قتل عثمان ، فلما رأى منهم أحزابهم الميل إلى آرائهم فى الإنكار عليه ، أخذ كل حزب يمهد لصاحبه سبيل الوصول إلى الخلافة بمثل الإنكار الشديد ، وبث روح القيام على عثمان على الوجه الذى تقدم شرحه ، وربما تجاوز بعضهم الأمر إلى اختلاق مثل تلك الكتب على غير علم ممن تكتب على لسانهم ، رغبة فى استمرار الفتنة ، وتوكيداً لأهل الأمصار لرضا وجوه الصحابة بالقدوم لخلع عثمان ، لكن بسبب الصلة المعنوية التى كانت بين المرشحين للخلافة وبين أحزابهم كان بعض كبار الصحابة لايخلونهم من التبعة فيما وقع لعثمان ، ففى العقد من رواية العتبى عن رجل من ليث قال . لقيت الزبير قادماً فقلت أبا عبدالله مابالك ؟ قال مطلوب مغلوب يغلبنى ابنى ويطلبنى ذنبى : قال فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبى وقاص فقلت يا أبا إسحاق من قتل عثمان ؟ قال قتله سيف سلته عائشة ، وشحذه طلحة ، وسمه على . قلت فما بال الزبير ؟ قال أشار بيده وصمت بلسانه :

(وفى العقد أيضاً) قال حسان بن ثابت لعلى إنك تقول ماقتلت عثمان ولكن خذلته . ولم آمر به ولكن لم أنه عنه . فالخاذل شريك القاتل . والساكت شريك القائل .

وأنت ترى من هذا أنهم إنما يعرضون بمثل هذا التعريض بهؤلاء ، لأن لأحزابهم والمقربين منهم دخلا فى قتل عثمان ، وقل ماتبرأ شيعتهم لاسيما شيعة على من الممالأة على قتل عثمان كما يتبرأ منه على وإخوانه ، أخرج ابن عساكر عن الشعبى قال لقى مسروق الأشتر ، فقال مسروق للأشتر قتلتم عثمان : قال نعم ، قال أما والله لقد قتلتموه صواماً قواماً ، قال فانطلق الأشتر فأخبر عماراً ، فأتى عمار مسروقاً فقال والله ليجلدن عماراً وليسيرن أبا ذر (يعنى إلى الربذة) ، وليحمين الحمى وتقول قتلتموه صواماً قواماً . فقال له مسروق فوالله مافعلتم واحدة من اثنتين : ماعاقبتم بمثل ماعوقبتم به . وماصبرتم فهو خير للصابرين . قال فكأنما ألقمه حجراً .

وهذا يدل أيضاً على أنهم كانوا يعتقدون أنهم غير مخطئين فى قتل عثمان ، والناس فى هذا فى خلاف كبير كما سترى بعد ، وأما على وإخوانه فإنهم كانوا لايرون قتله ولا يريدونه البتة ، وإنما هم كانوا يرون وجوب عزله فقط ، فغلبوا على أمرهم لكثرة ماكان يدسه الشيع والأحزاب على عثمان ، ومما يدلك على أنهم غلبوا على أمرهم مارواه الطبرى من أن عثمان أرسل إلى على وطلحة والزبير وعائشة يخبرهم بما هو فيه من الحصار ، وعدم وجود الماء عنده فبادر على إليه وأنب المحاصرين على منعه الماء ، وقال لهم بم تستحلون حصره وقتله ؟ فقالوا لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب ومنعوا علياً عن الدنو منه، فجاءت أم حبيبة زوج النبى ﷺ على بغلة تحمل الماء فمنعوها وأهانوها ، وطلب مروان إلى عائشة أن تبقى فى المدينة وقد كانت عزمت على الشخوص إلى مكة فأبت ، وخافت أن يصنع بها كما صنع بأم حبيبة، وفرت إلى مكة وبلغ طلحة والزبير مالقى على وأم حبيبة فلزموا بيوتهم ، كل هذا لما غلبوا على أمرهم وخرج الأمر من يدهم .

والظاهر من مجمل ما ذكروه من أخبار الفتنة أن علياً كان أقدر الناس

على الدفع عن عثمان لو شاء ، لأن أكثر القائمين بها من شيعته وحزبه .

وربما تطرف بعضهم بالاعتقاد لهذا السبب أن لعلي يداً شديدة في التأليب على عثمان ، والحقيقة أن الأمر ليس على ظاهره ، إذ علي سيق إلى ماسيق إليه القوم بحكم الضرورة والمتابعة ، فلما استعصى أمر الفتنة خرج عن طوقه تسكين الثأر ولم يواته حزبه على مايريد ، والذي ألصق كثيراً من دخائل الفتنة بعلي هم الشيعة لما أكثروه من الحط على عثمان ، توصلا بزعمهم لتبرير عمل علي في القيام على عثمان ، ولقد دسوا على علي رضي الله عنه أخباراً كثيرة من هذا القبيل ، كقوله لما سئل مرة عن عثمان (الله قتله وأنا معه) وغير هذا من الأخبار التي يأبى تصديقها العقل السليم ، بالإضافة إلى ماعرف عن علي من حب الفضيلة وعلو النفس ، ولأنها تنافي ماروه الثقات من الأخبار الكثيرة في براءته من دم عثمان ، ولو أردنا أن نستقصي ماجاء من الروايات التي تدل على براءة علي خاصة من قتل عثمان لاحتاج ذلك إلى كتاب مخصوص فنجتزىء عنها بما يأتي :

روى ابن عساكر عن طاوس عن ابن عباس قال : قال علي ما أمرت ولاقتلت ولكني غلبت : وروى عن قيس بن عباد قال سمعت علياً يوم الجمل يقول : اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ، لقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي ، وجاءوني للبيعة فقلت والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلا ، قال له رسول الله ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة : وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيل في الأرض لم يدفن بعد فانصرفوا فلما دفن رجع الناس يسألونني البيعة فقلت اللهم إني لمشفق مما أقدم عليه . ثم جاءت عزمة فبايعت فلما قالوا أمير المؤمنين فكأنما صدع قلبي : وأخرج من طرق عن أبي جعفر الأنصاري قال ، شهدت الدار يوم قتل عثمان فمررت في المسجد فإذا رجل في ظلة المساء محتب سيفه عليه ، عمامة سوداء ،

فإذا على قال ماصنع بالرجل ؟ قلت قتل . قال تباً لكم آخر الدهر .

هذا قليل من كثير مما جاء فى براءة على من دم عثمان ، ولا نشك أيضاً أن إخوانه طلحة والزبير مثله فى البراءة من هذا الإثم ، إلا أن أشياعهم دفعوا إلى هذه الفتنة بالعوامل الكثيرة التى كانت قائمة يومئذ ، وما كانوا ينكرون عليهم لاعتقادهم بأن عثمان مخطىء فى بعض الأمور التى أتاها وإن كان هو لا يعتقد خطأه بشىء من ذلك ، لذا ترى كل ماجاء من الأخبار عن الفتنة مجمعة على رضاهم وتحريض بعضهم عليه ، وكان أشدهم عليه طلحة بن عبيدالله وأهونهم الزبير [1] كما رأيت فيما تقدم ، وكان عثمان كما مر مع تحققه من أن علياً

---

(١) أخرج ابن عساكر عن موسى بن عقبة عن أبى حبيبة قال ، لما حضر عثمان جاء بنو عمرو بن عوف الى الزبير ، فقالوا يا أبا عبدالله نحن نأتيك ثم تصير الى ما تأمرنا به ، قال فأرسلنى الزبير الى عثمان فقال أقره السلام ، وقل يقول لك أخوك لن بنى عمرو بن عوف جاءونى ووعدونى أن يأتونى ، ثم يصيروا الى ما أمرتهم به ، فإن شئت أن آتيك فأكون رجلا من أهل الدار يصيبنى مايصيب أحدهم ، فعلت ، ولئن شئت انتظرت ميعاد بنى عمرو فأدفع بهم عنك فعلت ، قال فدخلت عليه (يعنى على عثمان) فوجدته على كرسى ذى ظهر ، ووجدت رياطاً مطروحة ، ومراكن مملوءة ، ووجدت فى الدار الحسن بن على ، وابن عمر ، وأبا هريرة ، وسعيد بن العاص ، ومروان ابن الحكم وعبد الله بن الزبير ، فأبلغت عثمان رسالة الزبير ، فقال الله أكبر الحمد لله الذى عصم أخى ، قل له إنك لئن تأت الدار تكون رجلا من المهاجرين حرمتك حرمة رجل ، وعناؤك عناء رجل ، ولكن انتظر ميعاد بنى عمرو بن عوف فعسى الله أن يدفع بك . قال فقام أبو هريرة فقال : أيها الناس لقد سمعت أذناى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تكون بعدى فتن وأحداث: فقلت وأين المنجاء منها يارسول الله . قال الأمير وحزبه : وأشار الى عثمان . فقال القوم ائذن لنا فلنقاتل ، فقد أمكنتنا البصائر . فقال (أى عثمان) عزمت على أحد كانت لى عليه طاعة ألا يقاتل . قال فبادر الذين قتلوا عثمان ميعاد بنى عمرو بن عوف فقتلوه اهـ ولنما أوردنا هذا الحديث لما فيه من الأدلة على أن الزبير كان أهون على عثمان من غيره ، ولئن قيل إنه من المنكرين على عثمان

أرأفهم به ، وأخفهم وطأة عليه ، يعرف منه انحرافه عنه ، وعدم رضاه عن عمله ورغبته فيما كان من الأمر (مادون القتل) ، يدلك عليه ما نقله فى العقد عن أبى رافع قال : قال زيد بن ثابت رأيت علياً مضطجعاً فى المسجد فقلت أبا الحسن إن الناس يرون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان . فجلس ثم قال والله ما أمرتهم بشىء ، ولا دخلت فى شىء من شأنهم ، قال فأتيت عثمان فأخبرته فقال .

وحرق قيس قيس على البلا　　د حتى إذا اضطرمت أحجما

وقد كان كثير من الصحابة ممن شهد الفتنة أو لم يشهدها ، منهم من سكت ، ومنهم من حرض ، ومنهم من لم يدفع عن عثمان ، وكلهم راض من الثائرين عليه بمادون القتل ، حتى إذا قتل استعظموا ذلك ، وأكبروه وعدوه ظلما ، كما استعظمه على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس . فقد أخرج ابن عساكر من طرق عن ابن عباس أنه قال : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء : وفى رواية لأبى الحسن المدائنى نقلها فى العقد قال كان ابن عباس يقول ليغلبن معاوية وأصحابه علياً وأصحابه لأن الله تعالى يقول (ومن قتل مظلوماً فقدجعلنا لوليه سلطانا) ويريد ابن عباس بالولى معاوية لأنه المطالب بدم عثمان . وذكر الطبرى عن حذيفة بن اليمان أنه لما قفل من غزاته فى بلاد الترك ولقيه مقتل عثمان قال اللهم العن قتلته وشتامه . اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا فاتخذوا ذلك سلماً إلى الفتنة. اللهم لا تمتهم إلا بالسيوف . ومن حديث الزهرى قال لما قتل مسلم بن عقبة أهل المدينة يوم الحرة قال عبد الله بن عمر : بفعلهم فى عثمان ورب الكعبة .

بقى أن يقال إن عثمان رضى الله عنه هو الذى جرأ القوم على القيام عليه ، ثم قتله بإصراره على ما أنكروه عليه أولا ، ثم بعدم اعتزاله منصب الخلافة ثانياً ، بعد أن رأى مارأى من الشر فى وجوه القوم: فأما الأمر الثانى

فقد ذكرت فيما سبق رأيي في إصراره عليه . وأما الأمر الأول فإصراره على ما أنكر عليه ينحصر على ما أرى في تقريبه بني أمية منه، وإعطاء ذوي قرابته ولايات الأمصار ، وما عدا هذا من الأحداث التي عدوها عليه ، فمنها ما تاب عنه ومنها ما لا يؤاخذ عليه في الحقيقة ونفس الأمر ، لأن كله أو جله مما يعتذر عنه ، أما إفضاؤه إلى بني أمية بأموره دون غيرهم من أهل الشورى والسابقين واستئثارهم بالسلطة ، واقتطاعهم الأمور دونه ، فهو الأمر الذي اهتزت له أصحاب المهاجرين، وحذر عاقبته عقلاء المسلمين ، خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الأموية كما بسطنا هذا في محله فيما مر . ويدلك عليه كثرة ما كان يؤنبه بعضهم في شأن بطانته من الأمويين ، ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لأولئك النفر من أهله وعشيرته، وإن أكثر ما أهاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالأمر الذي لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين ، لا سيما لأولى السابقة منهم والمهاجرين ، فقد كان حريصاً على أن لا يتخلى عنهم ولا يجيب ملتمس الأمة فيهم ، وليس لهذا الإصرار على ما يظهر لنا من سبب إلا أحد أمرين : إما لأن قومه استلانوا جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم ; وإما أنه أحس منذ عهد عمر للستة ووقع الاختيار عليه بظهور تحزب بين القوم، وتشيع يجر إلى الاختلاف عليه والكيد له فخشي إن هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته، أن يتوثب عليه عمال الأمصار ، فلا يجد دون أهله عاصماً مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه ، فاستمسك بذوي قرابته وولاهم على الأمصار ، فلما كثر الإرجاف بهم والطعن عليهم ورغب إليه الناس في عزلهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك في التشيع، فولى شكايتهم ظهره، وأصر على بقاء الولايات في ذوي قرابته وركن إليهم واعتمد في الأمور عليهم ، فكانت له ولهم أثرة أنكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الإنكار ، وتذرع الثائرون عليه بتلك الأحداث إلى خلعه تخلصاً من سلطان أهله ، وكانت الأثرة هي السبب الأول في استفحال

أمر الفتنة التي لما استعرت نارها، واشتد أوارها، أصبح إطفاؤها خارجاً عن طوق كبار للصحابة، وقادة الناس، وربما ندموا حينذاك على ما تقدم، ولات ساعة مندم. أخرج ابن عساكر عن الأوزاعى أنه قال: قيل لعلى ابن أبى طالب أفقتل عثمان منافقاً، قال لا ولكنه ولى فاستأثر، وجزعنا فأسأنا. وكل سيرجع إلى حكم عدل. فإن تكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فيما شاء الله.

هذا وأما الداعى إلى قيام هذه الأحزاب فى خلافة عثمان وسبب افتراق القوم وانقسامهم، فهو كما قال معاوية لابن حصين جعل عمر الشورى إلى ستة نفر، رأى كل شخص نفسه أنه أحق بها من غيره، فتطلع إليها وصار له حزب يريده عليها، ولما أخذها عثمان بقى فى أنفسهم ما بقى، ثم ما زالت تنمو هذه الرغبة فى نفوسهم، وتعظم أحزابهم، حتى انفجر بركان الأحزاب، وطم ذلك العباب، فأفضى إلى التغالب لعدم تقيد الأمر بالشورى الصحيحة منذ أول خليفة كان، كما بسطنا الكلام على هذا فى فصل الخلافة والدين.

هذا ما اخترت بيانه من أخبار الفتنة وأسبابها ودخائلها، وقد علقت على كل فصل منها ما رأيته من تلك الأسباب بقدر ما انتهى إليه عقلى وبلغه بحثى واستقصائى، وإنى أستغفر الله مما أخطأ به ظنى، وسبق إليه قلمى ولأنى لم آت بشيء من عندى، إلا ما كان بطريق الحدس أو الاستنتاج، فإذا صح فهو المطلوب، وإلا فمردود على حظى، لأنى مؤرخ لا جدلى فيطلب منى البرهان، بأكثر مما توخيته من البيان، وإنما ذلك مطلوب من علماء الدين الذين ينظرون إلى الفتنة من جهة دينية. فيقولون عمل هذا حلال، وعمل هذا حرام، وأما أنا فإنى لم أرد فى كل ما علقته على أخبار الفتنة إلا الوجهة السياسية والاجتماعية، ولم أحكم على شخص بخطأ أو تصويب إلا فيما يعود على مصالح الأمة الدنيوية وحقوقها السياسية، وأما حقوق الله تعالى فهى بينه وبين خلقه يأخذ بها من

يشاء ، ويعفو عمن يشاء ، وليس أضل عقولا من بعض الفرق الإسلامية التى حصرت النظر من أخبار الفتنة وأشخاصها فى الوجهة الدينية ، فقالت هذا استحل وهذا حرم ، وهذا يعاقب وهذا يثاب ، وفاتها أن ماتعلق بحقوق الله فلله وأما ماتعلق بالمسلمين فللمسيئين ، وليس لهم أن يحكموا على شخص يقول ربى الله إلا بالخطأ إذا أخطأ ، وبالصواب إذا أصاب هذا فيما يتعلق بأمور الأمة الدنيوية، وحياة الدولة السياسية. وأما الحكم على هذا بالكفر، وهذا بالإيمان مع ثبوت أنهم جميعاً من الموحدين، فذلك محض افتراء وفضول إذ الحكم فى هذا راجع إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو المطلع على السرائر ويعلم ما تكنه الصدور ، وأن مما أضاع تاريخ هذه الأمة المملوء بالعبر لاسيما تاريخ الصدر الأول ، جعل كل حوادثه الكبرى دينية محصورة فى الحكم ، أن زيداً كفر وعمراً فسق وهذا لم يكفر وذلك لم يفسق ، كأنه ليس لأعمال المسلمين عمل لاتعلق له بالدين لأنه لا حظ لهم من الحياة الدنيا قط .

نعم إن لمثل هذه الأحكام والمباحث اتصالا بالأمور السياسية والأعمال الدنيوية ، فلا تخلو من فائدة وسند لمن يريد الحكم على الأشخاص بأعمالهم السياسية والاجتماعية ،ومن منهم المؤاخذ ومن منهم غير المؤاخذ، ولكن أين من مؤرخينا من نظر إلى تاريخ القوم من هذه الوجهة بعد أن حال بينهم وبينهم الدين ، فتقيدوا بإيراد الأخبار كما أخذوها ،وتجنبوا الخوض فيها والحكم بشىء من عندهم عليها ،اللهم إلا النذر اليسير من المؤرخين ،مع أن الصحابة والرواة من التابعين ، ومن أتى بعدهم لم يضنوا بشىء من مخبئات التاريخ وأخبار الرجال بل غالوا فى حرية النقل حتى أوردوا لبعضهم من المثالب مالا يذكر عن غيرهم ولم يجرؤ على نقل مثله مؤرخ من مؤرخى الدول، وتجاوزوا هذا أيضا إلى وضع الأخبار واختلافها ،ولم يراعوا جانب البررة من الصحابة والصالحين المحسنين منهم ، ومع هذا فقد نقلها مؤرخونا على علاتها وزعموا أن من الأدب

أن لا يتكلم أحد من الناس فيها ، حاشا فريق المحدثين الذين عنوا بالبحث فيها ، وفرقوا بين الكاذب والصادق منها ، ونوهوا بلزوم تمحيصها والتدقيق فيها.

هذا وإذ قد استوفينا الكلام على الفتنة وأخبارها ومقدماتها ، فقد رأينا أن نقول كلمة فى نتائج قتل عثمان رضى الله عنه ، وما تأتى عن حادثه العظيم من الأمور فى مستقبل الأمة ، ونعقبه بفصل فيما قيل عن قتل عثمان وأسبابه واعتذار المسلمين من أرباب النحل عنه ، فنقول :

إن أول وهن دخل على الدولة الإسلامية هى الفتنة ، وأول ما فرق المسلمين هو قتل عثمان ، وسواء كان القيام على عثمان رضى الله عنه والنكير عليه بحق أو بغير حق ، فإن الفتنة التى ثار ثائرها يومئذ أمر متوقع الحصول فى الدول التى تقوم على أساس الحرية والأمم التى تنشأ على الانطلاق عن قيود الاستعباد لإرادة الزعماء عند أول صدمة تصيبها من صدمات السياسة ، فما بالك بتلك الأمة القريبة العهد بصاحب شريعتها صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم »[1] إلا أن الناس قل ما تفكروا يومئذ بما يعقب قتل عثمان من الخطر على الخلافة ، من حيث ظنوا أن الخطر ببقائه فيها ، فقد رأوا بنى أمية غلبوا على الخليفة فخافوا أن يغلبوا على الخلافة فتكون الثانية أشد من الأولى ، فثاروا ثورتهم على عثمان رضى الله عنه فطالبوه بالاعتزال ، ولم يكتفوا بطلب العدل بين أصناف الأمة فأبى فقتلوه ، ولو أصروا على طلب العدل لكان أهون عليه من الاعتزال ، وأسلم لهم من الوقوع فى خطر الفرقة والشقاق ، وأقرب لرفع غائلة الأمويين التى كانوا يخشونها على الخلافة وعثمان حى ، فكانت وعثمان مقتول .

قتل عثمان فافترقت الأمة بادىء ذى بدء فى أمر قتله إلى أربع فرق ، ثم فصل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ثوبان ، وخضراءهم أى سوادهم .

منهم صنف آخر فصاروا خمسة كما فى رواية ابن عساكر عن ميمون بن مهران فى حديث طويل ذكر فيه هذه الفرق ، بعد أن بين ما كان عليه المسلمون من الاتفاق والوئام فى عهد أبى بكر وعمر ، والسنين الأولى من خلافة عثمان فقال عن تلك الفرق إنهم (١) شيعة عثمان (٢) شيعة على (٣) المرجئة (٤) من لزم الجماعة (٥) الحرورية (فأما) شيعة عثمان فأهل الشام وأهل البصرة . وقال أهل الشام ليس أحد أولى بطلب دم عثمان من أسرة عثمان وقرابته ، ولا أقوى على ذلك من معاوية . وقال أهل البصرة ليس أحد أولى بطلب دم عثمان إلا طلحة والزبير ، لأنهما من أهل الشورى (وأما) شيعة على فهم أهل الكوفة (وأما) المرجئة فهم الشكاك الذين شكوا وكانوا فى المغازى ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً ، وكان أولى بالعدل وأصحابه . وبعضكم يقول كان على أولى بالحق وأصحابه : كلهم ثقة وعندنا مصدق فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجىء أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما (وأما) من لزم الجماعة فمنهم سعد بن أبى وقاص ، وأبو أيوب الأنصارى . وأسامة بن زيد ، وحبيب بن مسلمة الفهرى ، وصهيب بن سنان ، ومحمد بن مسلمة فى عشرة آلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين ، قالوا جميعاً نتولى عثمان وعلياً ، ولا نتبرأ منهما ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالإيمان ، ونرجو لهم ونخاف عليهم (وأما) الحرورية فقالوا نشهد على المرجئة بالصواب ، ثم خلطوا بعد ذلك وكفروا كل من خالفهم.

وأنت ترى أن هذه الفرق لا تعد إلا أحزاباً سياسية ، أو هى عين الأحزاب التى كانت فى مبدأ الفتنة ، لكن هذه الأحزاب نمت بعد ذلك ، وانقسمت حتى بلغت سبعين فرقة كلها منتحل فى الدين ، بعد أن كان مبدأ أمرها سياسياً لمحض النزاع على الخلافة ، ولتحقيق هل كان عثمان بعمله

ظالماً يستوجب الخلع أم لا ، كما هى العادة فى كل أمة ودولة إسلامية كانت أو غيرها سنة الكون التابعة لمجرى الأحوال السياسية منذ عرف الاجتماع إلى الآن ، وهذا الذى يدع العقول فى حيرة من أمر هذه الأمة وإلصاقها كل شىء بالدين كما بسطناه لك فى فصل سابق .

هذا من جهة ما أنتجه حادث عثمان من الانقسام بين الأمة ، وأما من جهة ما كان من الخطر على الخلافة ، فقد تمهد للأمويين بقتل عثمان وقيام طلحة والزبير لمغالبة على ومنازعته سبيل القيام على على ، بدعوى الطلب بدم عثمان ، وصدق ما أنبأهم به معاوية من ذهاب الأمر من يدهم ، إذا صاروا إلى التغالب فطمح إلى الخلافة ، ونهض إلى منازعة على فى الأمر ومغالبته على الإمارة ، وكان ما كان من مصير الخلافة إلى الأمويين بقوة الغلب وهدمهم أساس الشورى والانتخاب ، واستئثارهم بالملك بقوة الإرهاب وسطوة الغالبين ، فكان مصير الأمر إليهم مبدأ انقلاب سياسى عظيم ، أتى على نظام الخلافة الشرعية والحكومة الديموقراطية فى الإسلام ، وبذر فى بيوت الملك والخلافة بذور الحكم المطلق فأنبتت فى قصور الجبارين نبات العلقم الذى سموا به عقول الأمة وأجسامها ، وأماتوا به شعورها بالظلم وإحساسها بهذه الحياة إلى هذا اليوم ، حيث صارت إلى حال من الخنوع للأمراء ، والاستخذاء لأرباب السطوة ، والرضا بتحمل الظلم والهوان ، لا يرضاها لنفسه الحيوان بله الإنسان ، وقد انكفأت جيوش المغرب لهذا العهد على ممالك الإسلام وأخذت المسلمين الصيحة من كل مكان ، فلم يرعهم من ذلك رائع البوار المتوقع اعتماداً على زعمائهم واستسلاماً لأمرائهم ، الذين انغمسوا فى حمأة الشهوات ، وتربوا فى سجون القصور ووراء الجدران الشاهقة ، فلم يعرفوا من سياسة الملك إلا إرهاب الأمة وقتل عواطف الرعية ، وإرهاق المسلمين بالظلم والاستبداد وحرمانهم من كل علم نافع ، ومن كل حق ناصع ، من حقوق السيطرة التى خولهم إياها الإسلام ، حتى فقدت الأمة كل استعداد فطرى ، وكل قوة مليـة

تدفع بهما عن نفسها ، وتذود عن حوضها لخط عليها الجهل بكلكله ، وتمكن منها العدو بقوته وعلمه ، وليس فى أمراء المسلمين من يرحمهم ويرحم نفسه فيطلق لرعيته منهم عنان الحرية ، ويأخذهم بالعلم ويتساند معهم على إحياء مجد الدولة ، وسلوك سبيل النجاة بمجاراة الأمم الغربية ، والحكومات الشورية الأوربية ، كما أنه لم يبق فى المسلمين معنى من معانى الحياة الملية والشعور الإنسانى يصور لهم شكل الحرية والعلم ، فى صورة من الكمال والقوة والمجد ، جعلت الشعوب المسيحية تترامى على الموت ، ويستهين ألوف منهم بالحياة ، ويخاطرون بالنفس والمال توصلا إليها وتهافتاً عليها : وليت شعرى هل من الحرص على الحياة أن يحيا الإنسان ذليلا مهاناً ، مهضوم الجانب ، مسلوب الحق ، كما يتوهم المسلمون ، فيستخذون لآلهة العروش من الأمراء ، مثل ذلك الاستخذاء ، ولا يشعرون بما يشعر به غيرهم من الشعوب الذين حولوا قصور الأمراء إلى دور تنبعث عنها أشعة العلم والعدل ، بعد أن كانت هياكل للظلم ، ومواقد لنيران الاستبداد ، ترسل شواظها على البسيط ليأكل الخضراء واليابسة ، ويأتى على المال والولد ، ويذهب بكل أصول المجد والقوة والحياة : فاللهم إنا نعوذ بك من الخذلان ، ونسألك أن تلهم المسلم رشده ، ليطرح عنه رداء الهوان ، ولباس الجبن والخوف الذى ألبسه إياه طواغيت الأمة وعباد السلطة القاهرة ، والملك المطلق ، الذى لا يكون إلا حيث يسود الجهل وتفقد كل بواعث الحياة .

ما رثى به عثمان

أكثر الشعراء بعد قتل عثمان من رثائه ، فمن ذلك ما رثاه به :

حسان بن ثابت :

أتركتم غزو الدروب وراءكم　　وغزوتمونا عند قبر محمد
فلبئس هدى المسلمين هديتم　　ولبئس أمر الفاجر المتعمد

ولـه أيضاً

إن تمس دار ابن أروى منه خاوية　　باب صريع وباب محرق خرب
فقد يصادف باغي الخير حاجته　　فيها ويهوى إليها الذكر والحسب
يأيها الناس أبدوا ذات أنفسكم　　لا يستوى الصدق عند الله والكذب
قوموا بحق مليك الناس تعترفوا　　بغارة عصب من خلفها عصب
فيهم حبيب شهاب الموت يقدمهم　　مستلئما قد بدا فى وجهه الغضب

وله غير هذا أشعار كثيرة فى رثاء عثمان .

وممن رثاه أيضاً كعب بن مالك الأنصارى وله فى رثائه أبيات طويلة منها :

يا للرجال للبك المخطوف　　ولدمعك المترقرق المنزوف
ويح لأمر قد أتانى رائع　　هدّ الجبال فانقضت برجوف
قتل الخليفة كان أمراً مفظعاً　　قامت لذاك بلية التخويف

وقال الوليد بن عقبة بن أبى معيط

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة　　قتيل التجيبى الذى جاء من مصر

وقال الحباب بن زيد المجاشعى :

لعمرو أبيك فلا تجزعن　　لقد ذهب الخير إلا قليلا

لقد سفه الناس فى دينهم　　وخلى ابن عفان شراً طويلا
أعاذل كل امرىء هالك　　فسيرى إلى الله سيراً جميلا

خطبة ابنة عائشة بمرقدها

قالت بعد أن حمدت الله وأثنت عليه : ياثارات عثمان إنا لله وإنا إليه راجعون ، أفنيت نفسه ، وطل دمه فى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنع من دفنه ، اللهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله عز وجل حاكما. ومن المسلمين ناصراً . ومن المهاجرين شاهداً . حتى يفىء إلى الحق من سدر عنه . أو تطيح هامات . وتفرى غلاصم . وتخاض دماء . ولكن استوحش مما أنستم به . واستوخم ما استمرأتموه . يامن استحل حرم الله ورسوله واستباح حماه . لقد كره عثمان ما أقدمتم عليه ، ولقد نقمتم عليه أقل مما أتيتم إليه ، فراجع فلم تراجعوه ، واستقال فلم تقيلوه .

رحمة الله عليك ياأبتاه احتسبت نفسك . وصبرت لأمر ربك حتى لحقت به . وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل وإذكاء الشنآن . وكوامن الأحقاد . وإدراك الإحن والأوتار . وبذلك وشيكا كان كيدهم وتبغيهم : وسعى بعضهم ببعض . فما أقالوا عاثراً . ولا استعتبوا مذنباً . حتى اتخذوا ذلك سبباً إلى سفك الدماء ، وإباحة الحمى وجعلوا سبيلا إلى البأساء والعنت : فهل علنت كلمتكم وظهرت حسكتكم إذ ابن الخطاب قائم على رءوسكم ماثل فى عرصاتكم يرعد ويبرق بإرعابكم . يقمعكم غير حذر من تراجعكم الأمانى بينكم . وهلا نقمتم عليه عوداً وبدءا إذ ملك ويملك عليكم من ليس منكم بالخلق اللين والجسم الفصيل (كذا فى الأصل) يسعى عليكم وينصب لكم لاتنكرون ذلك منه خوفاً من سطوته ، وحذراً من شدته ، أن يهتف بكم متقسوراً ، أو يصرخ بكم متعذوراً . إن قال صدقتم قالته ، وإن سأل بذلتم سألته . يحكم فى رقابكم وأموالكم كأنكم عجائز صلع

وإماء قصع ، فبدأ مفلتا لابن أبي قحافة بإرث نبيكم على بعد رحمه وضيق يده ، وقلة عدده ، فوقى الله شرها زعم لله رده ماأعرفه ماصنع . أو لم يخصم الأنصار بقيس ثم حكم بالطاعة لمولى أبي حذافة ، يتمايل بكم يمينا وشمالا ، قد خطب عقولكم ، واستمهر وجلكم ممتحنا لكم ، ومعترفا أخطاركم ، وهل تسمو هممكم إلى منازعته ، ولولا تيك لكان قسمه خسيساً ، وسعيه تعيسا ، لكن بدأ بالرأى وثنى بالقضاء ، وثلث بالشورى ، ثم غدا سامراً مسلطا درته على عاتقه فتأطأطأتم له تطأطؤ الحقة ، ووليتموه أدباركم حتى علا أكتافكم فلم يزل ينعق بكم فى كل مرتع ، ويشدد منكم على كل مخنق . لاينبعث لكم هتاف ، ولا يأتلق لكم شهاب ، يهجم عليكم بالسراء ، ويتورط بالحوباء ، عرفتم أو نكرتم لاتألمون ، ولا تستنطقون ، حتى إذا عاد الأمر فيكم ولكم وإليكم فى مونقة من العيش عرقها وشيج ، وفرعها عميم ، وظلها ظليل ، تتناولون من كثب ثمارها أنى شئتم رغداً ، وحليت عليكم عشار الأرض درراً ، واستمرأتم أكلكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم من خصب غدق وامق شرق ، تنامون فى الخفض وتستلينون الدعة ، ومقتم زبرجة الدنيا وحرجتها ، واستحليتم غضارتها ونضرتها ، وظننتم أن ذلك سيأتيكم من كثب عفواً ، ويتحلب عليكم رسلا ، فانتضيتم سيوفكم ، وكسرتم جفونكم ، وقد أبى الله أن تشام سيوف جردت بغيا وظلما . ونسيتم قول الله عز وجل (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) فلا يهنئكم الظفر . ولا يستوطن بكم الظلم . إلا على رجلين ، ولا ترن القوس إلا على سيتين ، فأثبتوا على الفرز أرجلكم فقد ضللتم هداكم فى المتيهه الخرقاء ، كما أضل أدحيه الحسل ، وسيعلم كيف تكون إذا كان الناس عباديد ، وقد نازعتكم الرجال . واعترضت عليكم الأمور ، وساورتكم الحروب بالليوث . وقارعتكم الأيام بالجيوش . وحمى عليكم الوطيس . فيوما تدعون من لايجيب ويوما تجيبون من لايدعو .

وقد بسط باسطكم كانتا يديه يرى أنهما فى سبيل الله فيد مقبوضة . وأخرى مقصورة . والرءوس تنزو على الطلى والكواهل كما ينقف التنوم . فما أبعد نصر الله من الظالمين ، وأستغفر الله مع المستغفرين اهـ

خطبة نوجة نائلة بنت الفرافصة :

قالت بعد أن حمدت الله وأثنت عليه . . عثمان ذو النورين قتل مظلوماً بينكم ، بعد الاعتذار وإن أعطاكم العتبى [١] ، معاشر المؤمنة وأهل الملة لاتستنكروا مقامى ، ولا تستكثروا كلامى ، فإنى حرى [٢] ، عبرى [٣] رزئت جليلا . وتذوقت [٤] ، ثكلا من عثمان بن عفان ثالث الأركان ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الفضل عند تراجع الناس فى الشورى يوم الإرشاد ، فكان الطيب المرتضى المختار حتى لم يتقدمه متقدم ، ولم يشك فى فضله متأثم ، ألقوا إليه الأزمة وخلوه والأمة ، حين عرفوا له حقه ، وحمدوا مذهبه وصدقه ، فكان واحدهم غير مدافع ، وخيرتهم غير منازع ، لا ينكر له حسن الغناء ، ولا عنه سماح النعماء ، إذ وصل أجنحة المسلمين حين نهضوا ، إلى رءوس أئمة الكفر حيث ركضوا ، فقلدوه الأمور ، إذا لم يكن فيهم له نظير ، فسلك بهم سبيل الهدى ، وبالنبى وصاحبيه اقتدى ، مخسئاً للشيطان إلى مداحره ، مقصياً للعدوان إلى مزاجره ، تنقشع منه الطواغيت ، وتزايل عنه المصاليت ، [٥] ، حتى امتد له الدين ، واتصل له السبيل المستقيم ، ولحق الكفر بالأطراف ، قليل

---

(١) العتبى الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضى العاتب .

(٢) عطشى .

(٣) من العبرة وهو تردد البكاء فى الصدر .

(٤) تذوقت أى ذقت مرة بعد مرة ، والثكل فقدان الحبيب .

(٥) المصاليت رجل مصلت إذا كان ماضياً فى الأمور وهو من مصاليت الرجال .

الألاف والأحلاف ، فتركه حين لا خير فى الإسلام فى افتتاح البلاد ، ولا رأى لأهله فى تجهيز البعوث ، فأقام يدكم بالرأى ، ويمنعكم بالأدنى يصفح عن مسيئكم فى إساءته ، ويقبل من محسنكم بإحسانه ويكافئكم بماله ، ضعيف الانتصار منكم ، قوى ، المعونة لكم ، فاستلنتم عريكته حين منحكم محبته ، وأجرركم أرسانكم (١) ، آمناً جرأتكم وعدوانكم ، فأراهكموه الحق إخوانا ، وأراكموه الباطل شيطانا ، فى عقب سيرة من رأيتموه فظاً ، وعددتموه غليظاً ، فهدكم منه بالقمع ، وطاعتكم إياه على الجدع يعاملكم الحبه (كذا فى الأصل) ويتخونكم بالضرب ، وكان والله أعلم بآدابكم ومصالحكم ، فالله هو كان قد نظر فى ضمائركم ، وعرف إعلانكم وسرائركم ، فحين فقدتم سطوته ، وأمنتم بطشته ، رأيتم أن الطرق قد انشعبت لكم ، والسبل قد اتصلت بكم ، فظننتم أن الله يصلح عمل المفسدين فعدوتم عدوة الأعداء ، وشددتم شدة السفهاء ، على التقى النقى الخفيف بكتاب الله عز وجل لسانا ، الثقيل عند الله ميزانا ، فسفكتم دمه ، وانتهكتم حرمه ، واستحللتم منه الحرم الأربع ، حرمة الإسلام ، وحرمة الخلافة ، وحرمة الشهر الحرام ، وحرمة البلد الحرام ، فليعلمن الذين سعوا فى أمره ، ودبوا (٢) ، فى قتله ، ومنعونا من دفنه ، اللهم إن بئس للظالمين بدلا وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً ، لتتعبدنكم الشبهات ، ولتفرقن بكم الطرقات ، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان ، وكيف بسخط الله من بعده ، وأين كنتم كعثمان ذى النورين منفس الكرب زوج ابنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب المربد (٣) ، ورومة ،

(١) أى خلاكم كما تشاءون والمعنى أنها أخبرت عن مسامحته وتركه التضييق عليهم (فهدكم منه بالقمع) هده ضعضعه وأذله والقمع القهر ، والمعنى أنه خوفكم منه بالقهر والغلبة وطاعتكم إياه على الجدع أى الهوان والصغار .

(٢) دبوا مشوا على هينتهم .

(٣) المربد موضع قرب المدينة ، ورومة بئر بالمدينة .

هيهات والله ما مثله بموجود ، ولا مثل فعله بمعدود ، يا هؤلاء إنكم فى فتنة عمياء صماء طباق السماء ممتدة الحران (١) شوهاء العيان فى كثير من الأمر ، قد توزع كل ذى حق حقه ، ويئس من كل خير خير أهله ، فلهوات الشر فاغرة (٢) ، وأنياب السوء كاشرة ، وعيون الباطل خزر (٣) ، وأهلوه شزر (٤) ، ولئن نكرتم أمر عثمان ، وبشعتم الدعة (٥) ، لتنكرن غير ذلك من غيره حين لا ينفعكم عتاب ، ولا يسمع منكم استعتاب .

ثم أقلبت بوجهها على قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : اللهم اشهد اه :

* * *

---

(١) الحران مقدم العنق .

(٢) اللهات اللحمة المشرفة على الحلق ، وفاغرة من فغر فوه انفتح .

(٣) الخزر النظر بلحظ العين .

(٤) الشزر الشدة والصعوبة .

(٥) الدعة سعة العيش .

ما قيل فى سبب الفتنة وقتلة عثمان والاعتذار عنه

ما قاله بعض الصحابة وأهل السنة :

رأيت كيف أن الصحابة أكبروا قتل عثمان حتى اعتدوا قتلته ظالمين ، فنهض للطلب بدمه طلحة والزبير وعائشة وأحزابهم، ومعاوية وحزبه، وأنكر على قتله ولعن قاتليه ، ونزيد هنا ما قاله بعض الصحابة ، ومنهم سعيد بن زيد أحد العشرة قال ، لو أن أحداً انقض للذى صنعتموه بعثمان لكان محقوقاً أن ينقض (أخرجه البخارى) ، وعن عبد الله بن سلام قال، لقد فتح الناس على أنفسهم بقتل عثمان باب فتنة لايغلق عنهم إلى قيام الساعة « أخرجه أبو عمر » .

وعن ابن عباس قال : لو اجتمع الناس على قتل عثمان لرموا بالحجارة من السماء (أخرجه الحاكم) . وقال مثل قولهم كثير من الصحابة وكلهم مجمعون على أن عثمان قتل ظلماً . وأن الأحداث التى كانت على عهده لاتستوجب القتل . هذا إذا صح أن كل ما أنكر على عثمان رضى الله عنه أحداث يؤاخذ عليها وللمتكلمين فى براءة عثمان وتعدى قاتليه كلام طويل ، وتفصيل يرجع إليه ، ومنهم ابن حزم، فقد أطال بهذا الصدد فى الملل والنحل ، وخلاصة قوله إجماع أهل السنة على بغى المحاربين لعثمان ، وأنه ليس فى عمله مايستوجب القتل ، ولجماعة غيره من العلماء كلام طويل فى الاعتذار عن عثمان ، « منهم » حافظ الحجاز المحب الطبرى فقد فتح باباً مخصوصاً فى كتابه «الرياض النضرة فى فضائل العشرة » رد فيه على من قال بصحة الأحداث التى نسبت إلى عثمان، « ومنهم » محمد بن يحيى الأشعرى المعروف بابن بكر فتح باباً مثله فى كتابه « التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان » استوفى فيه الكلام على ما نسب

إلى عثمان من الأحداث . وبين كل ما يمكن الاعتذار عنه من تلك الأحداث ، فأحببت أن أنقل هذا الفصل هنا برمته إتماماً للفائدة قال :

« اعلم رحمك الله أن الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان، وتعلقوا عليه بأشياء فعلها لا يثبت لهم عليه بها حجة ، قد ذكرنا أكثرها فيما مضى ، ونذكر الآن منها طرفاً ونذكر الجواب عنها بحسب الإمكان فنقول (فإن قيل) فإن ابن مسعود أنكر على عثمان فى أمر المصاحف وتحريفها : فالجواب : أن ابن مسعود دونه فى الفضل والمرتبة فكان عثمان أعلم بما فعل ، ولأن الرجل كان يقول للرجل قراءتنا خير من قراءتك فأزال عثمان هذا وجمعهم على شيء واحد ، وكان قد ولى زيد بن ثابت أمر المصاحف ، ولو كان ذلك متوجهاً إلى عثمان لكان ذلك طعناً على من قبله من الصحابة ، وقد روى أن علياً قال: عن ملأ منا أصحاب رسول الله فعل عثمان : ولو كان منكراً لكان على قد غيره لما صار الأمر إليه ، فلما لم يغيره علم أن عثمان كان مصيباً فيما فعل (فإن قيل) إنه اعتدى بتوليه الوليد بن عقبة ، وأنه سكر فصلى بهم الفجر ركعتين ، ثم التفت فقال أزيدكم : فالجواب : أنه قد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على الصدقة ففسق ، فأنزل الله سبحانه وتعالى (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) . فليس يلحق عثمان إلا ما لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وولى عمر ابن الخطاب قدامة بن مظعون البحرين فشرب الخمر متأولا فجلده عمر ، وقدامة بدرى من أولى السابقة والفضل، وكذلك عثمان ، وولى على المختار بن أبي عبيد المدائن فأتاه بصرة فقال هذه من أجور المومسات : فقال على رضى الله عنه قاتله الله لو شق عن قلبه لوجد فيه حب اللات والعزى وهو أفسق من الوليد: فأخذ المختار المال ولحق بمعاوية . وكان على يلقى من ولاته وعماله الأمر الشديد ، فكان يقول وليت فلاناً فأخذ المال ، ووليت فلانا فخانني إلى غير ذلك . ذكر هذا أبو نعيم فى كتاب الأمة (فإن قيل) فقد أنكر ابن مسعود

وأبو ذر إتمام عثمان الصلاة بمنى وأنه صلى أربعاً : فالجواب : أنه قد اعتذر عن ذلك ، وقال ذاك رأى رأيته ثم لو كان فعله خلاف الحق لما تبعاه ووافقاه ، فقيل لهما فى ذلك فقالا الخلاف شر . وقد روى جماعة من الصحابة . إتمام الصلاة فى السفر ، منهم عائشة وسلمان وأربعـــة من الصحابة والذى حمل عثمان على إتمام الصلاة أنه بلغه أن قوما من الأعراب شهدوا الصلاة معه بمنى ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا الصلاة ركعتان كذلك صليناها مع عثمان بمنى ، فلأجل ذلك صلاها أربعاً ليعلمهم ما بنوا به الخلاف والاشتباه ، وكذلك فعل عمر فى أمر الحج وأن يجمعوا بين الحج والعمرة فى أشهر الحج ، وخالفه ابنه عبد الله وقال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن تتبع ، وتابعه أبو موسى وجماعة من الصحابة على ترك الجمع بين الحج والعمرة ، مع علمهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقامته على الإحرام حتى دخل مكة معتمراً حتى فرغ من المناسك، ولم ينكروا ذلك على عمر ولو كان إنكاراً لما تابعوه على رأيه (فإن قيل) إنه أعطى من مال الصدقة ووفر أقرباءه فالجواب : أن عثمان أعلم ممن أنكر عليه ، والإمام إذا رأى المصلحة فى فعل شىء فعله فلا يكون إنكار من جهل المصلحة فى ذلك حجة على من عرفها ، فإنه لا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون فقد فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر فى المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة ، وترك الأنصار لما رأى فى ذلك من المصلحة حتى قالوا : تقسم غنائمنا فى الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم . وجهلوا ما رآه النبى عليه السلام من المصلحة ، وذلك أعظم مما فعله عثمان ، لأن مال المؤلفة من الغنيمة فلا يلزم عثمان من إنكار من أنكر عليه إلا مالزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم (فإن قيل) الذى أعطى رسول الله كان من الخمس ، قيل له لو كان من الخمس لما أنكرت الأنصار ذلك . ولما قالت غنائمنا . ولقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أعطيتهم من مال الله ، ألا تراه استمال قلوبهم بقوله : ألا ترضون أن يذهب

الناس بالأموال وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم : قالوا رضينا . والحديث مشهور (فإن قيل) إن عثمان ضرب عماراً قيل هذا لا يثبت ولو ثبت فإن للإمام أن يؤدب بعض رعيته بما يراه ، وإن كان خطأ ألا ترى أن النبي عليه السلام أقص من نفسه وأقاد ، وكذلك أبو بكر وعمر أدبا رعيتهما باللطم والدرة وأقادا من أنفسهما ، وذلك لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطن رجل بخشبة فجرحه فوقع قميصه وقال صلى الله عليه وسلم تعال: فاقتص: فعفا عنه. وجاء رجل إلى أبي بكر يستحمله فلطمه فأنكر ذلك الناس فقال أبو بكر إنه استحملني فحملته فبلغني أنه باعه ، ثم قال له دونك فاستقد فعفا عنه . وضرب عمر جارية لسعد بالدرة فساء ذلك سعداً ، فناوله عمر الدرة وقال له اقتص فعفا (فإن قيل) عثمان لم يقد من نفسه ، قيل له كيف ذلك ، وقد بذل من نفسه مالم يبذله أحد ، خصوصا يوم الدار فإنه قال ياقوم إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في قيد فضعوهما ، وقد ذكرنا أن عماراً تقاذف هو ورجل آخر فجلدهما عثمان حد القذف (فإن قيل) أعطى عثمان من بيت المال من ليس له فيه حق ، قيل لا يثبت ذلك عنه وكيف نقبل هذا وعثمان من أكثر الناس مالا وأكثرهم عطية ومعروفا ، مع أن العصر لا يخلو من جهال يقولون مالا يعلمون فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقال له رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله : فبلغ ذلك النبي عليه السلام فغضب ثم قال (رحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من ذلك فصبر) وقسم يوم حنين تبراً فقال له رجل اعدل يامحمد ، فقال له (ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل) فهذا رسول الله كان يلقى من الجهال هذا . فكيف بعثمان رضى الله عنه ، (فإن قيل) إنه ولى أقواماً لا يستحقون الولاية منهم الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وغيرهم . قيل . فمن أين لكم إن هؤلاء لم يعدلوا ، ولئن جاز لكم ادعاء الفسق في ولاة عثمان لجاز ذلك في ولاة عمر . فقد ولى المغيره البصرة فرمى بما لا يثبت .

(١) استحملني : أى طلب أن أحمله على دابة .

وولى أبا هريرة البحرين . فقالوا خان مال الله ، وولى قدامة البحرين فشرب الخمر متأولا . وولى على الأشتر وأمره ظاهر ، وولى ابن مخنف فأخذ المال وهرب . فلم خصصتم عثمان بالطعن مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ولى زيد ابن حارثه فطعن الناس فيه حتى قام خطيباً منكراً عليهم فيما طعنوا فيه ، وقالوا فيه وفي أسامة ابنه والحديث مشهور . وإنما طعن الناس على عثمان للينه وحيائه ، وكثر في أيامه من لم يصحب النبي عليه السلام ، ومن جهل فضل الصحابة . (فإن قيل) فقد نفى أباذر إلى الربذة فرداً : قيل لم يكن ذلك نفياً وإنما كان ذلك تخييراً له ، لأنه كان كثير الخشونة لم يكن يدارى من الناس ما يدارى غيره ، فخيره عثمان بعد استئذانه في الخروج من المدينة فاختار الربذة ليبعد عن الناس ومعاشرتهم . وذلك أنه كان بالشام فجرى بينه وبين معاوية مناظرة في هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) فقال معاوية هي في أهل الكتاب ، وقال أبو ذر هي فيهم وفينا فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك ، فكتب إلى أبي ذر أن أقدم على قال فقدمت عليه فانثال على الناس كأنهم لم يعرفوني ، فشكا ذلك إلى عثمان رضي الله عنه واستأذنه في الخروج من المدينة فخيره فاختار نزول الربذة ، لما يلحق من الناس واجتماعهم عليه فخاف الافتتان بهم هذا هو الصحيح : فأما الرافضة فيضعون عليه أشياء لا أصل لها . فإن جعل إشخاص أبي ذر من الشام وحبسه بالمدينة طعناً على عثمان : قيل : الأئمة إذا خشوا الفتنة والاختلاف فلهم أن يبادروا إلى حسمه . وقد فعل عمر مثل ذلك حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لأجل أحاديث حدثوها الناس ، ومنعهم من الخروج ، ومنعهم من لبس أشياء كانت مباحة خوفاً أن يتأسى بهم من لا علم له ، ولا ورع عنده فيرتكب بذلك ما ليس له مع أن للإمام أن ينفى أقواماً إذا خاف الافتتان بهم . وقد روى أن عمر بن الخطاب نفى نصر بن حجاج لما خاف أن

يفتتن به النساء، لحسن صورته وقصته مع أم الحجاج بن يوسف مشهورة وشعرها فيه:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

ونفى على رضى الله عنه النعمان عن ملأ من الصحابة. ونفى حسان أيضاً والله أعلم:

(فإن قيل) إن جماعة وافقوا حصره وقتله فقد روى أن حذيفة وعماراً قالا قتلناه كافراً، وإن طلحة فيمن حصره، وإن علياً أعان على قتله، وإن الناس خذلوه وأسلموه، إلى غير ذلك من الأمور: قيل: هذا لا يصح عن حذيفة[1] وإنما المنقول عنه خلاف ذلك، وإنما هذا من كلام الرافضة وإن نقل ذلك فلأنه لا يخلو أحد من الصحابة من حاسد، وممن يبغضه فكيف بعثمان وهو من أهل السابقة والفضل والكمال، والطعن على عثمان طعن على من تقدمه. وأما طلحة فإنه كان يقول يوم الجمل اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى. وأما على فإنه قال غير مرة. اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان. وقال والله ماقتلت عثمان ولا مالأت على قتله. ولما بلغه قتله قال، اللهم إنى لم أرض بقتله ولم آمر به، وقال فيه: كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين: وسئلت عائشة عن عثمان فقالت: قتل مظلوماً لعن الله قاتله أقاد الله من ابن أبى بكر، وساق الله إلى أغر بنى تميم هواناً، وأهراق الله دماء بنى بديل، وساق الله إلى الأشتر سهماً من سهامه: فوالله مامن القوم أحد إلا أصابته دعوتها. وأما ترك الصحابة الإنكار على من حصره، فلقد ناضحوا عنه، ولم يظنوا أن الأمر يبلغ إلى قتله، وإنما ظنوا أنها تكون معتبة. ومع ذلك فإن عثمان كان يعزم عليهم ليكفوا عن القتال، ولقد أنكروا وبالغوا فى الإنكار، منهم على وزيد بن ثابت وعبد الله بن سلام وابن عمر وأبو هريرة والمغيرة والزبير وابن عامر وحمل الحسن بن على يومئذ جريحاً ولبس ابن الزبير الدرع مرتين رضى الله عنهم.

(١) الصواب أنه محمد بن أبى حذيفة ولئن صح أن الرافضة قالوا إنه حذيفة فيكون ذلك افتئاتاً ظاهرياً منهم وتحريفاً مقصوداً، لأن حذيفة من القائلين بتولى عثمان، وممن لعن قاتليه كما رأيته فيما سبق من هذا الكتاب.

وعن ابن عون لقد قتل عثمان وإن فى الدار لسبعمائة رجل منهم الحسن وابن الزبير ولو أذن لهم لضربوهم حتى أخرجوهم من المدينة : وأما طلحة فإنه انصرف ولم يكن فيمن حصره كيف وهو يلعن قاتله مع عائشة صباحاً ومساء ، وكان هو والزبير وعائشة ومعاوية يطلبون بدمه فكيف يعينون عليه ويطلبون بدمه ، هذا خلف . ومع هذا فينبغى الكف عما شجر بين الصحابة والاستغفار لهم والإمساك عما نسب إليهم من الرذائل . وكذلك اتباع الأنبياء بذكر محاسنهم التى مدحوا عليها ويمسك عما سواه (فإن قيل) إن عثمان حمى الحمى ومنع منه الناس قيل روى أن المصريين جاءوا إلى عثمان فقالوا . ادع بالمصحف فدعا به ففتحوا سورة يونس وقرأ هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا) الآية فقالوا له أرأيت ما حميت من الحمى آلله أذن لك أم على الله تفترى : فقال هذه الآية نزلت فى كذا وكذا ، وأما الحمى فقد حمى الأئمة قبلى لإبل الصدقة. فلما زادت إبل الصدقة زدت فى الحمى ، فجعلوا لا يأخذونه بآية إلا قال نزلت فى كذا وكذا ، حتى أخذ عليهم أن لا يشقوا عصا المسلمين فأقبلوا راجعين إلى بلادهم راضين . فرأوا فى الطريق غلاماً معه كتاب فرجعوا إليه فقال إنى لم آمر به ولا شعرت به فحصروه باغين عليه ظالمين له ، وقد حمى النبى صلى الله عليه وسلم نقيع الخضمات لخيل المسلمين ، وقال البخارى . بلغنا أن النبى عليه السلام حمى النقيع وحمى عمر السرف والربذة ، واستعمل على الحمى مولى له يدعى هنياً فلم يثبت على عثمان ذنب ، ولو ثبت لما استحق بذلك القتل ، وانتهاك الحريم ، وشق العصا ، وتفريق الجماعة ، ولكن الله أكرمه بالشهادة . وألحقه بالنبى عليه السلام وصاحبيه فى الجنة ، حافظاً لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خلع القميص وحظى قاتلوه بالخزى واللعنة وانتهاك حرمة المدينة فى الشهر الحرام ، (فإن قيل) فقد رويتم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر فتنة تكون بعده ، وقال فى عثمان فاتبعوا هذا وأصحابه فإنهم على هدى فأخبرنا من أصحابه : قيل أصحابه أصحاب رسول

الله المشهود لهم بالجنة ، المذكور بعضهم فى التوراة والإنجيل ، الذين من أحبهم سعد ومن أبغضهم شقى ، مثل على بن أبى طالب وطلحة والزبير وسعد وسعيد وغيرهم من الصحابة ممن كان فى وقتهم ، فإنهم كلهم كانوا على هدى ،كما قال النبى صلى الله عليه وسلم وكلهم أنكر قتله ، وكلهم استعظم ما جرى على عثمان ، وشهدوا على قتلته أنهم فى النار . وهم الذين تجمعوا وتألبوا عليه مثل عبد الله بن سبأ وأصحابه ، الذين أشقاهم الله بقتله حسداً منهم له وبغياً عليه ، وإرادة الفتنة وأن يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لما سبق عليهم من الشقاء فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من العذاب الأليم ، فاجتهد الصحابة فى نصرته ، والذب عنه ، وبذلوا أنفسهم دونه ، فأمرهم بالكف عن القتال ، وقال إنى أحب أن ألقى الله سالماً مظلوماً ، ولو أذن لهم لقاتلوا عنه ، قال ابن سيرين كان معه فى الدار جماعة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، فقالوا يا أمير المؤمنين خل بيننا وبينهم .فعزم عليهم أن لا يقاتلوا (فإن قيل) فقد علموا أنه مظلوم وقد أشرف على الهلاك ، فكان ينبغى عليهم أن يقاتلوا عنه وينصروه ، وإن كان قد منعهم : قيل : إن القوم كانوا أهل طاعة لإمامهم وقد وفقهم الله تعالى للصواب من القول والعمل ، وقد فعلوا ما يجب عليهم من الإنكار بقلوبهم وألسنتهم ، وعرضهم لنصرته على حسب طاقتهم ، فلما منعهم من نصرته علموا أن الواجب عليهم السمع والطاعة له ، ولا يسعهم مخالفته ، وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان (فإن قيل) فلم منعهم عن نصرته وهو مظلوم ؟ وقد علم أن قتالهم عنه نهى عن المنكر وإقامته حق يقيموه : فالجواب : أن منعه إياهم يحتمل وجوها كلها محمودة : أحدها : علمه بأنه مقتول مظلوم لاشك فيه ، لأن النبى عليه السلام قد أعلمه أنه يقتل مظلوما ، وأمره بالصبر : فقال اصبر : فلما أحاطوا به تحقق أنه مقتول ، وأن الذى قاله النبى عليه السلام له حق لا بد أن يكون ، ثم علم أنه قد وعد من نفسه الصبر فصبر كما وعد ، وكان عنده من طلب الانتصار لنفسه والذب عنها ، فإذا رضى فليس هـــذا بصابر إذ وعده من نفسه الصبر ،

الوجه الثاني : أنه كان قد علم أن في الصحابة قلة عدد ، وأن الذين يريدون قتله كثير عددهم ، فلو أذن لهم بالقتال لم يأمن أن يتلف من أصحاب النبي عليه السلام بسببه ، فوقاهم بنفسه إشفاقاً منه عليهم ، لأنه راع عليهم ، والراعي يجب عليه أن يحفظ رعيته بكل ما أمكنه ، ومع ذلك فقد علم أنه مقتول فصانهم بنفسه.
الوجه الثالث : أنه لما علم أنها فتنة وأن الفتنة إذا سل فيها السيف لم يؤمن أن يقتل فيها من لا يستحق القتل ، فلم يختر لأصحابه أن يسلوا السيف في الفتنة إشفاقاً عليهم من نقم تذهب فيها الأموال ، وتهتك فيها الحريم ، فصانهم عن جميع هذا . ووجه رابع : وهو أنه يحتمل أن يكون صبر عن الانتصار ، لتكون الصحابة شهوداً على من ظلمه ، وخالف أمره وسفك دمه بغير حق لأن المؤمنين شهداء الله في أرضه ومع ذلك فلم يحب أن يهراق بسببه دم مسلم ، ولا يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك دم رجل مسلم ، فكان عثمان بهذا الفعل موفقاً معذوراً رشيداً مجبوراً ، وكان الصحابة في عذر ، وشقي قاتله وخاذله . والله أعلم اهـ

ما قاله المعتزلة :

وللمعتزلة ايضاً كلام طويل في الدفع عن عثمان بلغ الغاية من الاعتدال والتعقل ، شأنهم في مثل هذه المباحث ، وقد أورد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة فصلا بهذا الصدد نقله عن قاضي القضاة من شيوخ المعتزلة رأينا تلخيصه هنا إتماما للفائدة .

قال ابن أبي الحديد عند شرحه لكلام قاله علي في شأن الأحداث لما أشار عليه أصحابه بمحاربة أهل الشام .

ويجب أن نقول ههنا أحداثه وما يقوله أصحابنا في تأويلها وما تكلم به المرتضى في كتاب الشافي في هذا المعنى فنقول .. إن قاضي القضاة قال في المغني قبل الكلام في تفصيل هذه الأحداث كلاماً مجملا معناه ، أن كل من ثبتت عدالته ووجوب توليه إما على القطع وإما على الظن فغير جائز أن

يعدل فيه عن هـذه الطريقة إلا بأمر متيقن يقتضى العدول عنها .

ثم استطرد فى هذه المقدمة إلى لزوم تولى عثمان وتعظيمه ، وحمل ما نسب إليه من الأحداث على حسن النية لما لعثمان رضى الله عنه من المزايا التى توجب إحسان الظن به ، وإن ما نسب إليه من الأمور كلها محتمل، فأجدر بمثله أن تحمل أعماله على الوجه الصحيح فى مقدمة طويلة لا تخرج عن هذا المعنى إلى أن قال

« وقد طعن الطعانون فيه « يعنى فى عثمان » بأمور متنوعة مختلفة ، ونحن نقدم على تلك المطاعن كلاماً مجملا يبين بطلانها على الجملة ، ثم نتـكلم على تفصيلها ، وذلك أن شيخنا أبا على قد قال لو كانت هذه الأحداث مما يوجب طعناً على الحقيقة ، لوجب من الوقت الذى ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلا ينصب للإمامة ، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته . فإنه لاخلاف أنه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه أن الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه . فلما علمنا أن طلبهم لإقامة إمام إنما كان بعد قتله ، ولم يكن من قبل والتمـكن قائم . علمنا بطلان ما أضيف إليه من الأحداث . وليس لأحد أن يقول إنهم لم يتمكنوا من ذلك لأن المتعالم من حالهم أنهم حصروه ومنعوه من التمـكن من نفسه ، ومن التصرف فى سلطانه ، خصوصاً والخصوم يدعون أن الجميع كانوا على قول واحد فى خلعه والبراءة منه . ومعلوم من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حوصر فيها ، بل كانت تحصل من قبل حالا بعد حال ، فلو كان ذلك يوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الإنـكار عليه ، ولـكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد ، لأن أهل العلم والفضل بإنـكار ذلك أحق من غيرهم ، فقد كان يجب على طريقتهم أن تحصل البراءة والخلع من أول الوقت الذى حصل منه ما أوجب ذلك ، وأن لا ينتظر

حصول غيره من الأحداث لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينتـه إلى حد إلا وينتظر غيره . ثم ذكر أن إمساكهم عن ذلك إذا تيقنوا الأحداث منـه يوجب نسبة الجميع إلى الخطأ والضلال ، ولا يمكنهم أن يقولوا إن علمهم بذلك إنما حصل فى الوقت الذى حصر ومنع ، لأن من جملة الأحداث التى يذكرونها ما تقدم هذه الحال ، بل كلها أو جلها تقدم هذا الوقت ، وإنما يمكنهم أن يتعلقوا فيما حدث فى هذا الوقت بما يذكرونه من حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبى سرح بالقتل . وما أوجب كون ذلك حدثاً يوجب كون غيره حدثاً فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل . واحتمال المتقدم للتأويل كاحتمال المتأخر ، وبعد فليس يخلو من أن يدعوا أن طلب الخلع وقع من كل الأمة أو من بعضهم فإذا ادعوا ذلك فى بعض الأمة فقد علمنا أن الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجز إبطالها بلا خلاف ، لأن الخطأ جائز على بعض الأمة . وإذا ادعوا فى ذلك الإجماع لم يصح لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومن كان ينصره ، ولا يمكن إخراجه من الإجماع ، بأن يقال إنه كان على باطل لأن بالإجماع لم يتوصل إلى ذلك ولم يثبت . على أن الظاهر من حال الصحابة أنها كانت بين فريقين : أما من ينصره : فقد روى عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار . ائذن لنا بنصرك . وروى مثل ذلك عن ابن عمر وأبى هريرة والمغيرة بن شعبة . والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض إلا أنه لو ضيق عليهم الأمر فى الدفع ما قعدوا بل المتعالم من حالهم ذلك . قال ثم ذكر ما روى من إنفاذ أمير المؤمنين الحسن والحسين ، وأنه لما قتل عثمان لامهما على وصول القوم إليه ظناً منه أنهما قصرا ، وذكر أن أصحاب الحديث يروون عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: سيكون فتنة واختلاف وإن عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى : وما روى عن عائشة من قولها . قتل والله مظلوماً . قال ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الآحاديث فى ذلك لأنه ليس هناك أمر ظاهر بدفعه ، نحو دعواهم أن جميع

الصحابة كانوا عليه ، لأن ذلك دعوى منهم ، وإن كان فيه رواية من جهة الآحاد. وإذا تعارضت الروايات سقطت ، ووجب الرجوع إلى ما يثبت من أحواله السليمة ، ووجوب توليه ، ولايجوز أن يعدل عن تعظيمه وصحة إمامته بأمور محتملة، فلاشيء مما ذكروه إلا ويحتمل الوجه الصحيح . قال ثم ذكر أن للإمام أن يجتهد رأيه فى الأمور المنوطة به ، ويعمل فيه على غالب ظنه ، وقد يكون مصيباً وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة اه

هذا ما نقله ابن أبى الحديد عن قاضى القضاة إجمالا فيما يتعلق بالدفع عن عثمان .

وقد أورد بعده ما اعترض به عليه المرتضى من أئمة الشيعة ، وليس من غرض كتابنا إيراد اعتراضه . ومن أراد الاطلاع عليه فليراجعه فى شرح نهج البلاغة .

(ما قاله ابن خلدون)

(فى سبب القيام على عثمان)

لما تكلم ابن خلدون على بدء الانتقاض على عثمان افتتح الكلام بمقدمة صغيرة لا تخلو من فائدة فيما يراه من سبب تجنى العرب وقيامهم على عثمان، ولو أطال لأبدع فى المقال ، ولكن تقيد بما تقيد به المؤرخون وإليك ما قاله فى ذلك .

« لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار ، فى حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر ، وكان المختصون بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش ، وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم ، وأما سائر العرب من بنى بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة

والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم ، فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلا منهم ، وكانت لهم فى الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع مايدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحى وتنزل الملائكة ،فلما انحسر ذلك العباب وتنوسى الحال بعض الشيء وذل العدو ، واستفحل الملك ، كانت عروق الجاهلية تنفض، ووجدوا الرياسة عليهم للمجاهدين والأنصار من قريش وسواهم ، فأنفت نفوسهم منه ، ووافق أيام عثمان ، فكانوا يظهرون الطعن فى ولاته بالأمصار والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات والاستبطاء عليهم فى الطاعات ، والتجنى بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون فى النكير على عثمان ، وفشت المقالة فى ذلك فى اتباعهم، وتنادوا بالظلم من الأمراء فى جهاتهم ، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها وأفاضوا فى عزل عثمان ، وحمله على عزل أمرائه وبعث إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر :

ثم دخل فى أخبار الفتنة مما تقدم شرحه والمقصود هنا هذه المقدمة التى قدمها قبل الكلام على الفتنة ويشير فيها إلى بعض الأسباب .

رأى لأحد العلماء فى الفتنة :

وسألت مرة صديقى العالم الفاضل السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى رأيه فى هذه الفتنة ، لما أعهده فيه من الاطلاع وبعد النظر فأجابنى كلاماً إجمالياً جامعاً فى مقدماته العالية لما يلزم محبى التاريخ الاطلاع عليه قال .

ما جرى بين الصحابة :

إن الشيع التى قامت فى أواخر الثلث الأول من القرن الأول قد خفى على أكثر المؤرخين أمرها ، ولذلك دخل فى سيرتهم شيء من الاضطراب حتى

آل الأمر إلى كراهية فريق من الناس لقراءة التاريخ ، وقول فريق آخر « لانخوض فيما جرى بين الصحابة » ثم آل الأمر حتى صار هذا القول مسطوراً فيما يعتقده المحمدى مع أن هذه حادثة تاريخية ليست من العقائد فى شىء ، وعندى أنه يضر الجهل بهذه الحادثة التى هى من الحلقات الأول لسلسلة تاريخ الإسلام . وقد سألتنى أيها الصديق العزيز عن رأيى فى هذا الأمر وأنت أعرف به ، كأنك أردت أن تستعرض رأى غيرك مع رأيك الموفق ، وإنى ذاكر فى هذه الكلمات القليلة صفوة تاريخ صحيح مجمل :

لأجل الحكم بأمر ما على العرب بعد وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، يلزم أن نعرفهم فى أيام حياته . ولأجل هذه المعرفة يلزم أن نعرفهم قبل بعثته ﷺ وظهوره .

العرب قبل بعثة النبى :

العرب قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ينقسمون بحسب مواقعهم إلى :

١ — سكان الحجاز

٢ — سكان ما عن يمينه مستقبلا المشرق وهو اليمن

٣ — سكان ما عن شماله . وهو الشام (أى الشمال)

٤ — سكان العراق العربى

٥ — سكان ما بين ذلك كله وهى بلاد نجد .

من ثمة لا يسوغ لباحث أن يحكم بأمر عام على العرب من حيث أنهم شعب واحد يتكلمون بلغة واحدة بل يكون الحكم على كل قسم بحسب المؤثرات فيه من النحلة والعادة والمحلة والمعيشة .

فالعرب الذين هم قطان الشام والعراق واليمن كانوا بما آثروا شيئاً من زخارف الحياة وبما رغبوا من مجاورة الحواضر ذوات الأسواق الجامعة ، قد ألقوا سيطرة الملوك والرؤساء مهما كانت مطلقة، وقريب منهم قطان نجد.

أما قطان الحجاز فهم أبعد الناس عن قبول سيطرة الملوك ، كما أن الحجاز أبعد الديار العربية عن الحواضر، وأبعد الأرض عن شره الملوك ، وكان اليمن والحجاز سندين لسكان الشام والعراق إذا رأوا فيها محن السلطة . وكان الشام والعراق مرجعين لسكان الحجاز يلتمسون فيهما مايشتهون من أسباب النعيم .

فالحجاز وحده هو الوطن العربي الذى كان يرجى فيه حماية ذمار الشعب ، وإسقاط سلطة الشعوب الجائرة المجاورة ، وهو الوطن الذى اعتلى فيه أيما اعتلاء . شأن الحرية التى تربى الرجال والنساء أفضل تربية ، وإن العاقل لا يستطيع أن لا يعجب بما كان فى مكة التى شرفها الله تعالى من تأليف تلك الحكومة الجمهورية الوطنية العرفية ، التى تتجلى فى سمائها أنوار الحرية حتى يرجع الطرف عن بهائها وهو حسير ، وهذا من الأسباب فى أن قريشاً كانوا أرقى عرب الحجاز .

ولكن مع هذا كان ينقصهم معارف كثيرة من المعارف العليا ، التى تعرف الإنسان أنه لم يخلق سدى ، وتعرفه ما يجب أن يقدمه اليوم ليلقاه غداً ، ومن المعارف الدنيا التى يظهر بها مبلغ استعداد الإنسان للعلم والعمل . فجبر الله تعالى لهم هذا النقص ، إذ بعث فيهم منهم رسولا اصطفاه وعلمه من الحكمة والمعارف العليا ، ما تتزكى به النفوس ، وتسعد به الشعوب . ويسهل معه تحصيل المعارف الدنيا ، وجعل الأمة العاملة هى العليا .

العرب فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد بعثته :

كتب هذا الأمر العظيم للرسول المجتبى من قبل الله محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فقام ينشر بينهم هذه المعارف ، بيد أنهم لا قبل لهم بتلقيها لأنها من أفق أعلى مما تنظر إليه أفكارهم ، فأخذتهم الدهشة ونأوا بجانبهم ، وقال كل منهم بهذا الرسول على حسب ما بدا له من القول .

وينبغى للمرء أن لا يتعجب ولا يسارع بهجو قريش الذين كانوا أرقى العرب ، فإن كل غريب مستنكر بادىء بدء ، وقريش لم يعتادوا الخضوع الذى يشعر به معنى الدين ، وليس ما دعاهم إليه من تلك المعارف العليا بالذى يعقل بالبداهة ، بل لابد فيها من النظر والتأمل ، ولنا أن نلومهم على مافعلوه من إيذاء الرسول بالقول والفعل. ولكن هذا العيب لم يسلم منه (وياللأسف) طائفة من طوائف الماضين والحاضرين . [انظروا إلى مايتقوّله المقلدون اليوم فى المصلحين] على أن قريشاً لم تخل من رجال حكماء ، أدركوا هذا الفضل الذى جاءهم به ذلك المصطفى الكريم ، أفلم يكن أولئك الذين نصروا هذه الحكمة الجديدة بادىء بدء من أفاضل الحكماء ، ألم تكن قريش قبيلتهم، ألم يكن بطن مكة دارهم ، ألم تك تلك الأرض أرض الحرية مهدهم وظئرهم وحاضنتهم ؟

كأن قريشاً تلك الفتاة القوية كانت فى غفلة عما فى رحمها من الأرواح السامية ، فلما ظهرت لم تلق إليها بالا حتى عاينت مراقيها البديعة فى العالمين .

كان من مقتضى هذه الحكمة العالية انشراح الصدر لنوال البشر كلهم « على قدر استعداد كل منهم » أسباب السعادة — على ضد رأى الذين يريدون حصرها فى شعب مخصوص — ولذلك كانت دعوة هذا الرسول القرشى عامة لكل الشعوب ، فما لبث بعد أن دعا قومه حتى طفق يدعو مجاوريهم من القبائل ، ويراسل الملوك والأقيال ، وكان أهل يثرب من السابقين لقبول هذه الدعوة السعيدة ، وإليهم هاجر بعد ثلاث عشرة سنة أقام فيها يدعو المكيين ومن حولهم إلى هذه الحكمة المباركة ، واشتد فى أثنائها العداء بين أنصار هذه الحكمة الجديدة التى أوحاها الله ، وبين أنصار العبادات القديمة التى سنها الآباء ، فكانت الهجرة أسلم وأحكم ، وكانت هى باب ذلك الفوز العظيم .

حكمة بالغة قلبت الحجاز من طور إلى طور ، ثم صاح الحجاز بالعرب كلهم صيحة واحدة فإذاهم يتبدلون .

كان العرب قبائل متفرقة متعادية . يأكل القوى الضعيف، ويهجم القريب على القريب ، فما لبثوا حتى اجتمعت كلمتهم ، واتحدت وجهتهم ، ولانت منهم قسوة المتكبرين . واشتدت عزيمة المستضعفين ، وخضعوا جميعاً لأحكام إمام واحد يروضهم بالعدل ، ويروقهم بالفضل ، ينفذ فيهم أمره وقضاؤه ويحل فيما بينهم ثناؤه، يرضون عما رضى ، وينقمون عما نقم ، إن استنفرهم نفروا ، وإن صرفهم انصرفوا ، ثم إذا شاء استصرخهم فإذا هم يلبون .

يعد هذا الذى ذكرناه تبدلا عظيما فى العرب ، ولكن هل أصبح كل فرد من أفرادهم متخلياً عن كل المساوى التى نهى عنها، ومتحلياً بكل المحاسن التى أمر بها ؟ هل أصبح كل فرد منهم معصوماً من كذب كان قد اعتاده ، أو حسد كان قد خالط فؤاده . أو حقد اقتضاه مزاجه ، أو تهور مضى عليه منهاجه ؟ هل خلق لكل فرد منهم عقل من كل الوجوه جديد ، ورأى فى كل الأمور سديد ؟ ألم يبق فيهم من يشرب الخمر ، ولا من يأخذ الأموال بالقمر ؟ ألم يبق فيهم من زان، ولاقاتل، ولا سارق ، ولاغاصب ، ولا نمام ، ولا مغتاب ، ولا كذاب ، ولامرتاب، ولا ذى شهوة باطلة ، ولا ذى خصلة عاطلة ؟

سيحار فى الجواب عن هذه السؤالات كثيرون لما يتبعها ، أما الذين لا يرون العصمة لغير الأنبياء فإنهم لا يحارون ، وهم يقولون إن التبدل العظيم إنما وقع فى ثلاثة أشياء .

١ — فى تحول الأكثرين عن سنن الآباء إلى دعوة النبى من حيث الإجمال .

٢ — فى ترك الأكثرين للمنكرات الظاهرة من زنى . وقتل نفس وشرب خمر ، وقمار ، وسرقة ، وغصب مال . وإتيانهم للمعروفات الظاهرة من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وحج .

٣ — فى جمع الكلمة بعد التفرق .

قلنا « الأكثرين » ولم نقل « الكل » لأن تاريخ ذلك العصر على أصح الروايات يثبت وجود المنافقين الذين لم يؤمنوا إلا ظاهراً فقط . ووجود من كانوا يشربون الخمر ، ويقتلون النفس . ويزنون ويسرقون ، الخ . وإن كانوا قليلا . ودع عنك الذين كانوا يكذبون ، ويغتابون وينمون ، ويحسدون ، ويحقدون ، الخ .

العرب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك حالهم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرهم ، أما من بعده فيظهر أن القليلين من الذين كانوا لم يتخلوا عن المساوى ، ولم يتحلوا بالمحاسن قد صاروا كثيرين ، يدلنا لهذا نكول كثير من القبائل عن بعض أركان الدين كالزكاة حتى اضطر أبو بكر رضى الله عنه أن يعتبرهم كالمرتدين ، ويحاربهم كما كانوا يحاربون الكافرين .

فهذا يدعونا أن لا نفسر الصحابة بالتفسير المشهور (أى كل من رأى النبي وآمن به) إذ لو فسرنا هذا التفسير لما صح لأحد أن يقول كما هو المشهور إن كل فرد من أفراد الصحابة عدل .

بل نحن نفسر الصحابة بما تساعد عليه اللغة ويشهد له التاريخ الصحيح فهم الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم صحبة حقيقية يصلح أن يطلق عليها لغة وعرفاً اسم الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وأضرابهم رضى الله تعالى عنهم فهؤلاء وأمثالهم هم الصحبة الحقيقيون ، وهؤلاء وأمثالهم هم الثقات العدول ، وأما أولئك الأعراب الذين كانوا يفدون عليه فيسلمون له ولم يكونوا يلبثون عنده إلا عشية أو ضحاها ، فيقال هم مسلمون لمحمد عليه السلام ولا يصح على هذا التفسير الحقيقى أن يقال إنهم صحابته ، كما لا يصح عقلا ونقلا أن يقال إن كل فرد من أمثال هؤلاء عدل ثقة . وكذلك الصبيان الذين كان عمر أحدهم فى حياته صلى الله عليه وسلم سبعا أو تسعاً مثلا من السنين .

ثم إن الذين نقول عنهم إنهم عدول كما شهد لنا التاريخ لا يفرض علينا أن ننزههم كما ننزه الأنبياء ورب العالمين ، ولا يجب علينا أن نتخذ آراءهم ديناً كما يظنه بعض من لا يعرفون أصول الدين .

ولقد بعد عن الصواب ظن الذين يزعمون أنه لا فرق بين مايراه النبي صلى الله عليه وسلم ومايراه أحد أصحابه . لأنه إما أن يكون للنبي نص فى الشىء فالأمر ظاهر سواء وافق الصاحب النبي للعلم بالنص أو خالفه لعدم العلم بالنص ، وعدم العلم ببعض نصوص النبي جائز فى حق كل صاحب وغير شائن بأحد منهم . وإما أن لا يكون للنبي نص فيستوى الصحابة فى نظر بعضهم ولم يكونوا يساوون برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحداً بل يستوون فى نظر التابعين عليهم الرحمة .

ثم لاشك بأن الصحابة الحقيقيين عليهم الرضوان نجوم فضل وهدى ، ولكن حديث « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » قد صرح العلماء

بأنه موضوع ، وقد صح ما معناه « أن أمة النبي يردون عليه الحوض فيذاد ناس منهم فيقول يارب أصحابى . فيقال له لا تدرى ما أحدثوا بعدك » .

(الذى جرى بين الصحابة) إذا تمهد هذا فالاختلاف الذى جرى بين الصحابة لاشك بأن جرثومته من فئة لم تأخذ بنصيب واف من صحبة النبى ، ولم تتضلع من التهذيب المحمدى ، وإنى أجل من هذه الوصمة العشرة الكرام بل أجل مثلهم كثيرين من غيرهم ، ولكنى لا أثبت لغير الأنبياء عصمة مطلقة كعصمتهم فإن هذا من أصول هذا الدين .

هذا هو الإجمال ومنه يأخذ الأذكياء آراء مهمة عندما يقرءون الحوادث التى جرت ، ومن اضطر للتفصيل هنا فحسبى فى هذه المختصرة أن أضيف

من أجله إلى هذا الإجمال قضايا هي بمثابة منبهات لعين الفكر ، ومبصرات إياها بعض الدقائق :

١ — إن القبائل البدوية كانت آلة بيد رجال من قريش ، وأكثر أفرادها لم يكونوا قد رأوا النبي صلى الله عليه وسلم فضلا عن أن يصحبوه - ومن رآه منهم فقد يكون رآه ساعة من نهار ، ومن حارب معه فقد يكون حارب ابتغاء الغنائم . وهكذا حاربوا مع من بعده .

٢ — إن القبائل البدوية كانت متعادية في الجاهلية . ولما تآخت في الإسلام كان عرق العداوة يضرب في بعضها أحياناً ، فكانت كل قبيلة تشايع رئيساً من رؤساء قريش وتتمنى له الدولة ابتغاء أن تتميز لديه على أعدائها الأقدمين

٣ — إن القبائل البدوية كان قد أضر بها جهد العيش وكانت تتربص في البلاد التي افتتحتها أن تتضلع من نعيمها ، وكانت تتحين أن تنقلب رتبة الخلافة التي معناها اقتفاء أثر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رتبة سلطنة وملك ومعناها اقتفاء آثار الملوك الذين كانوا يعرفون سيرهم وسير كبرائهم في البذخ والاستيثار ، وتوارث المناصب بالأنساب والحيل ، لا بالمواهب والعمل .

٤ — إن الأمم العجمية - من روم وفرس وسريان وعبرانيين وغيرهم - من لم يدخل في الدين منهم لا ظاهراً ولا باطناً ، ومن دخلوا فيه ظاهراً فقط كانوا لا يألون جهداً ببث الدسائس ، ليهدموا ذلك المجد العربي الذي شادته تلك الدعوة المحمدية على أيدي أنصارها الحقيقيين . ومن دخل فيه ظاهراً وباطناً كانوا جهلاء به ولم ينزع من قلبهم حب عادات سالفة لهم قومية أو دينية ، ومازالوا بعد امتزاجهم بالعرب حتى أدخلوها عليهم ففسدت بها بعض مناهجهم .

٥ — بمجموع ما قدمنا الإشارة إليه اختل — بعض الاختلال — ذلك

المحيط الذى كان بالأمس أصبح محيط على الأرض . ولم يكن اختلاله فى أيام خلافة الصديق وأوائل خلافة الفاروق رضى الله عنهما إلا طفيفاً . وأما فى أواخر خلافة الفاروق فاشتد ذلك المرض الذى حاق بذلك المحيط وما برح يشتد فيما بعد ذلك حتى سقطت رتبة الخلافة فى أواخر أيام على رضى الله عنه ثم قامت مقامها حتى اليوم رتبة السلطنة والملك ، وهذا بعض ما كان يتمناه رجال من قريش والقبائل البدوية والأمم العجمية اﻫ .

* * *

هذا ماقيل فى فتنة عثمان من الوجهة الدينية والاجتماعية أوردته فى هذا الكتاب ، دون أن أعلق عليه شيئاً من الرأى إذ آرائى الخصوصية بسطتها كل رأى فى محله من هذا الكتاب ، فعلى القارىء أن يأخذ مما قلت وقال غيرى بما شاء إذا ظهر له أنه الحق ، إذ القصد الوقوف على الحقيقة ومعرفة الحق فيما شجر بين القوم يومئذ، وفيما تقدم جميعه كفاية لهذا الغرض والسلام .

صفة عثمان :

فى تاريخ ابن عساكر كان عثمان ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية ، عظيمها، أسمر اللون عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين ، كثير الشعر ، وكان يصفر لحيته ، ويشد أسنانه بالذهب .

ولده وعماله

ولده :

ولد عثمان بن عفان هم عبد الله الأكبر ، وأمه فاختة بنت غزوان ، وعبدالله الأصغر أمه رقية بنت رسول الله ﷺ . وتوفى صغيراً : وعمرو ، وأبان وخالد ، وعمر ، وسعيد : والوليد وأم سعيد ، والمغيرة ، وعبد الملك ، وأم عمرو : وعائشة وكان عمرو أسنى أولاده وأشرفهم عقباً . وكذلك ابنه

عبد الله الأكبر ، وله عقب كثير ، وممن أعقب من أولاده أيضاً خالد ، وقد درج عقبه وله من الأحفاد من ولد عمرو وعبدالله عدد كثير ذكرهم ابن قتيبة فى المعارف فاكتفينا عنه بما تقدم .

عماله :

كان عماله على الأمصار فى السنة التى توفى فيها على مكة عبدالله بن الحضرمى وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفى ، وعلى صنعاء يعلى بن منية ، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة ، وعلى البصرة عبد الله بن عامر ، وعلى الشام معاوية ابن أبى سفيان ، وعلى حمص من قبل معاوية عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة الفهرى ، وعلى الأردن أبو الأعور السلمى وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكنانى ، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزارى ، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعرى ، على صلاتها ، وعلى خراجها جابر بن فلان المزنى ، وعلى حربها القعقاع بن عمرو ، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد الله البجلى ، وعلى أزربيجان الأشعث بن قيس الكندى ، وعلى حلوان عتيبة بن النهاس ، وعلى الماه مالك بن حبيب ، وعلى همذان النسير ، وعلى الرى سعيد بن قيس ، وعلى أصبهان السائب بن الأقرع وعلى بيت المال عقبة بن عامر ، وعلى قضاء عثمان زيد بن ثابت ، وأما عامل مصر فقد كان عبدالله بن سعد كما رأيت فيما مر ، وتغلب عليها بعد خروجه منها محمد ابن أبى حذيفة .

ربما يتبادر إلى ذهن القارىء من أسماء هؤلاء العمال ، أن ليس فيهم من قرابة عثمان إلا معاوية ، وعبد الله بن عامر ، وعبد الله بن سعد ، مع أن الفتنة قامت لأجل أن عماله كلهم من ذوى قرابته ، فلكى يكون القارىء على بصيرة ننبهه إلى تقسيم الولايات فى عهد عمر بن الخطاب ، فيرى أن الولايات

الكبرى هى مصر والشام وقنسرين والبصرة والكوفة ، وما بقى فضموم إليها ففارس كلها الشرقية والغربية تابعة وعمالها للبصرة ، والكوفة وأرمينيا تابعة لقنسرين ، وأفريقيا تابعة لمصر ، والشام تتبعها أقسامها ، وكل هذه الولايات الكبرى مما عدا قنسرين ولاتها من ذوى قرابته والكوفة ، وإن كان عليها أبو موسى الأشعرى ، لكن كان قبله سعيد بن العاص كما مر تفصيل الخبر عن ذلك لهذا اقتضى التنبيه .

الحالة الاجتماعية على عهده :

ذكرنا كيف كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب ، وأن الأمة خطت يومئذ خطى قليلة إلى الأمام فى شئونها الاجتماعية ، ولم تخرج مع ماصار إليها من كنوز فارس والروم وملك الأكاسرة والقياصرة عن طريق القصد فى المعيشة ، لحمل عمر لهم على التوسط فى العيش وعدم الركون إلى الراحة فى إبان الفتح ، ومصادمة جيوش الأمم ، وأنه لذا كان لا يرضى للعرب الاشتغال بغير الحرب ولا يأذن لهم باعتمال الأرضين . ولما استكمل الفتح على عهد عثمان ، ونزع الناس بالضرورة إلى طلب الراحة ، وأخذوا بقسطهم من السيادة على الشعوب ، وجاوروا المترفين من أهل المدن ، واستخشنوا عيش البداوة ، واستقلوا ثمرة الضرع دون الحرث والزرع ، وكان عثمان ، رضى الله عنه ليس من الشدة عليهم ، والأخذ على شكائمهم بالمكانة التى كانت لعمر قبله طمحت إلى ذلك نفوسهم ، واتجهت لمجاراة الشعوب الأخرى رغائبهم ، فاستقطعوا من عثمان القطائع واستأذنوه فى استثمار الأرضين التى جلى عنها أصحابها من أهل الذمة فاقطعهم إياها ، فقاموا على حرثها وأخذوا باستثمارها كما رأيت ذلك فيما مضى من أخبار فتح سجستان وكرمان ، وروى البلاذرى فى فتوح البلدان ، أن عثمان لما ولى معاوية على الشام

والجزيرة أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ، ويأذن لهم في اعتمال الأرضين ، التي لا حق فيها لأحد فأنزل بني تميم الرابية ، وأنزل المازحين والمديبر أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم ، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك ، وألزم المدن والقرى والمصالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله ، وفي هذا دليل على تدرج القوم في مدارج الرقي وجنوحهم إلى الكسب من طرق التجارة والفلاحة وميلهم إلى الاستعمار ، وإذ كان عثمان غنياً جداً[1] ، محباً للعمران ميالا إلى التأنق في المعيشة والتطاول في البنيان وإنفاق المال في وجوه البذل ليوسع على الناس ، وخصوصاً على أهله وذوي قرباه ، فقد ماشاه الناس في ذلك وساروا سيرته فيه ، وكانوا في عصر عمر لا يجرءون على اقتناء الضياع والدور ، والإكثار من مظاهر الثروة والغنى ، مع إقبال الدنيا عليهم كما هي في عهد عثمان ، فلما أخذ عثمان نفسه باقتناء الدور والتوسع في العيش ، وبنى لنفسه ولنسائه وأولاده بضع دور بالمدينة كما سبق ذكره ، وشيد داره بالحجارة والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر وبنى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بالعمد المرفوعة ، وتأنق في بنيانه واقتنى الدور والضياع والجنات والعيون بالمدينة ، وأظهر بهذا أثر النعمة التي أنعمها الله على العرب ، اتبعه الناس في ذلك وتظاهروا بمظهر الغنى ، وجنحوا إلى الحصول على المال والتنعم في

---

(١) ذكر المسعودي أن عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار ومليون درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة ألف دينار ، وفي رواية لابن عساكر أن الثائرين انتهبوا ماله كله ، يوم قتل وكان ثلاثين ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم «أي ثلاثين مليونا ونصف مليون ومائة وخمسين ألف دينار وترك صدقات كان تصدق بها بين اريس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار ، وفي هذه الرواية من الإغراق والمبالغة ما لا يخفى ولعل رواية المسعودي أصح .

المعيشة فابتنى سعيد بن العاص ومروان بن الحكم القصور خارج المدينة ، وأخذ كبار الصحابة فى ذلك بمذهبه فذكر المسعودى منهم جماعة اقتنوا الضياع والدور ، وماتوا على مال كثير ونعم وفيرة منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة ، ودارا بمصر ، ومثلها بالإسكندرية والكوفة ، واقتنى كثيراً من المال والضياع حتى ضرب المثل بغناه : وقال المسعودى بلغ مال الزبير (لعله من النقد) بعد وفاته خمسين ألف دينار وألف فرس ومثلها من العبيد والإماء ، وخططاً بحيث ذكر من الأمصار ، وربما بلغت ثروته على ما فى قول بعضهم نحو نصف مليون ، وأكثر هذه الثروة كانت من التجارة ، فإنهم قالوا إن الزبير كان تاجراً مجدوداً (أى محظوظا) : قال المسعودى وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى ، ابتنى داره بالكوفة (المعروفة لعهد المسعودى بدار الطلحتين) ، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية شراة أكثر مما ذكر وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر (الطوب) والجص والساج ، وكانت ثروته من التجارة أيضاً ، فقد ذكر ابن قتيبة فى المعارف أن طلحة كان تاجراً بزازاً وما ذكره المسعودى عن ثروة طلحة ، وإن كان لا يخلو من إغراق ومبالغة إلا أنه يدل على ما صار إليه القوم من السعة والميل إلى اقتناء المال ، ثم ذكر غير من تقدم عبد الرحمن بن عوف [1] وزيد بن ثابت ويعلى بن أمية وأنهم

---

(١) وذكر فى أسد الغابة غنى عبد الرحمن بن عوف وقال ، إن عامة ماله من التجارة ، وأنه كان عظيم التجارة مجدوداً فيها ، حتى قدمت له مرة عير فيها سبعمائة راحلة تحمل البر والدقيق ، وكان كثير التصدق حتى تصدق مرة على عهد رسول الله بشطر ماله ، وتصدق مرة بأربعين ألف دينار ، وحمل على خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة فى سبيل الله ، وهذا يدلك على أن أكثر غنى الصحابة إنما كان من التجارة أيام اليسر ، وإقبال الدنيا على المسلمين ، وأنهم كانوا مع هذا الغنى على جانب عظيم من البذل ، وعفة النفس كما تدلك عليه أخبار عبد الرحمن وطلحة وأشباههم من كبار الصحابة ، وأغنيائهم الذين إنما تحصلوا على الثروة بالعمل والجد والاتجار ، وأنفقوها فى طريق البر وسبيل الخير والمحمدة ، ولأبى بكر =

بنوا الدور وشيدوا القصور وتركوا أموالا وضياعا كثيرة ، وأن سعد بن أبي وقاص ابتنى داره بالعقيق ، فرفع سمكها ووسع فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات ، ومثله فعل المقداد بداره فى الجرف على أميال من المدينة .

وفى كل هذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال إلى حال فى عصر عثمان ، وجنوحهم إلى التنعم بنعيم الحضارة وهذا أثر محمود من آثار الشكر المنعم إذا لم يتجاوز حد القصد إلى السرف ، ولم يتناول كل الطبقات ، ولم يتدرج منه الناس إلى المنكرات ، ومما لاريب فيه أن عصر الصحابة مهما انطلق أهله فى مجال السعة والنعيم ، لايتجاوزون الحد المشروع ولا يأخذون بغير المباح ، وقد فاضت عليهم الدنيا وكثر لديهم المال فلابد من صرفه فى وجوه التنعم ، بما أحله الله لهم من الطيبات دون المنكر والشهوات ، حتى لقد كان فى المدينة من آثار الرفاهة وحب التلهى ، لما فاضت الدنيا على المسلمين ، أن ظهر فيها طيران الحمام والرمى على الجلاهقات « قوس البندق » فعدوها منكراً أمر به عثمان فأزيل فى الحال ، واستعمل على ذلك رجلا من بنى ليث فقص الحمام وكسر الجلاهقات .

استكمل الفتح فى عصر عثمان ودال للعرب ملك فارس ، وصارت إليهم

= وعثمان وطلحة وعبد الرحمن وأضرابهم من أغنياء الصحابة أخبار كثيرة فى هذا الباب ، لامحل لذكرها هنا ، وكلها أدلة واضحة على وجوب السعى والعمل ، وأن العمل لازم من لوازم الحياة فأمر به الإسلام ، وأن الغنى والمال ضرب من ضروب العزة التى وصف الله بها المؤمنين ، لذا اشتغل فى اقتنائه الصحابة والتابعون فأخذوه من الطرق التى يأمر بها الشرع وأنفقوه فى الطرق التى يأمر بها الشرع فكانوا خير قدوة للمسلمين لو كانوا يعقلون ، لا سيما فى هذا العصر الذى اشتد فيه تزاحم الأمم على موارد الرزق وتفنن الأوربيون بضروب السعى والاحتيال على جلب الثروة حتى سدوا فى وجوه المسلمين منافذ الرزق لتقصير هؤلاء فى السعى وتقاصرهم عن تناول المال من طرق الجد والعمل ومجاراة الأوربيين فى فنون التجارة والصناعة .

وسبب ذلك كله الجهل بتاريخ سلفهم والاستسلام للأوهام الباطلة التى أوهنت عزائمهم وذهبت بملكة النشاط منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله

سياسة الممالك فساروا فى الناس سيرة جميلة ، أمر بها الإسلام وسلكوا من العدل والحق طريقاً توخاها الخلفاء ، وتبعهم فيها الولاة والأمراء ، فازدهر أمر الدولة الجديدة ، وعلت كلمة العدل ، وكثر المال وامتد رواق العمران وراجت التجارة وتصاعدت أثمان السلع والعقار ، وكل ما يباع ويشرى بنسبة كثرة النقد ، فبيعت جارية بوزنها ، وفرس بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم كما نقل هذا المحب الطبرى فى الرياض النضرة من رواية أبى عمر عن محمد بن سيرين ، وهذا غاية ما تصل إليه الممالك فى ترقى العمران ، وتوفر أسباب الكسب ، ونمو الثروة بين طبقات الناس .

بينما العرب فى مثل هذا الرخاء والرغد من العيش ، يستمتعون بما أفاء الله عليهم من تراث الأمم ، ويتسنمون ذرى الحضارة ويتبسطون فى العيش ، ويسيرون سيرهم الحثيث فى الفتح ، ويرفعون لأخلافهم بنيان المجد والدنيا مقبلة عليهم ، وملك الروم والفرس صائر إليهم ، وعثمان فى مأمن من رأفته بهم ولينه عليهم . إذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف بهم فى لج من التخاصم مابلغوا ساحله إلا وهم أحزاب متفرقة وشيع متباينة ، فكان عصر عثمان بهذا عصراً جمع بين الأضداد من الرخاء والشدة ، والراحة والتعب ، والغنى والطمع ، والقوة والضعف ، ومنه بدأت سلسلة الأحزاب السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية ، وإليه ينتهى تاريخ الانقلاب العظيم الذى طرأ على الدول الإسلامية وحول مجرى السياسة عن وجهتها الأصلية .

إن الدول إذا قامت فى أول نشأتها بقوة الحياة الملية والتناصر القومى ، ونشأت على أساس الوحدة فى الاعتقاد والوحدة فى الفكر بين أصناف الأمة ، وأخذت على نفسها إنصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من الشعوب الأخرى ، قل أن تتعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما

يعرض لها من الفتن أو يظهر فيها من الأحزاب والشيع ، لهذا فإن اضطراب أمور الدولة وتفرق أغراض الأمة فى عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة فى أرجاء ممالكها القاصية والدانية ، ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والأمم المغلوبة ، بل كأن الأمم استشعرت من تلك الضوضاء القائمة أنها نتيجة حياة قومية ونشاط عظيم ، يراد بهما تمحيص الحق وتدعيم أسس الخلافة ، فلبثت على الحياد تنتظر نهاية الأمر ، ولا تمد إلى الدولة يد الغدر ، حتى انجلت الفتنة عن قتل عثمان وقيام على والأحزاب الأخرى ، ثم مصير الخلافة إلى بنى أمية ، ولولا ماحبب إلى الناس من خلافة الراشدين ، ومابهرهم من قوة أولئك الفاتحين ، لربما كانت اشتعلت المملكة يوشئذ بالنار ، واستفز الطيش الأشرار ، لكن الملك الذى يتحصن بالعدل والدولة التى تقوم على الأساس الذى ذكرنا لايزعزعهما تفرق السالكين إلى أحزاب وشيع ولايطمع فى جانبهما الطامعون ، والله مع الذين آمنوا والذين هم متقون .

* * *

هذا مااخترت إيراده من سيرة عثمان رضى الله عنه وأسأل الله الغفران عن زلة القلم واللسان ، كما أسأل القراء المعذرة فى تبسطى فى أخبار الصحابة ، وتوسعى فى وضع أمور الفتنة موضع النقد والمحاكمة ، واسترسال قلمى من ذلك بما لم تألفه أنظارهم من كتب مؤرخينا الذين عاهدوا أنفسهم على إلقاء الكلام عن أخبار الصحابة على عواهنه تجنباً للخوض بزعمهم فى أخبارهم ، مع أن مانقلوه من المطاعن وملئوا به صحفهم من أخبار الفتنة هى بمجردها أضر على الصحابة ، وأشد جناية على التاريخ من التبسط فى أخبارهم ومحاكمة الرجال الذين نسبت إليهم إذ فى الوجه الثانى طريق للمؤرخ يسلكه فى تبرئة المتهمين منهم بباطل ، والاعتذار عمن يظن أنه أخطأ منهم ليدفع بهذا الشبه

التى تكاثفت سحبها على النفوس من قراءة أخبار الفتنة التى ترمى كبار الصحابة بوصمة التحزب على عثمان إذا حملت على ظاهرها ، كما رواها الرواة ونقلها المؤرخون ، فلو بحث المؤرخون فيما وراء الظاهر منها ، وتوسعوا فى التنقيب عنها والتدقيق فيها ، وبسطوا للقراء ماظهر لهم من أسبابها الخفية والجلية ، وكل مايتعلق بها من العوارض السياسية والاجتماعية ، لكان ذلك خيراً لهم وللصحابة من ترك الكلام الفج الساذج يأخذ مكانته من النفوس الضعيفة فتسىء الظن فى رجال هم دعائم الإسلام ، وبهم قامت الملة وقوى ساعد الدين ، وبجدهم تأسست دولة المسلمين ، وماضر الصحابى منهم لو نقبنا عن سيرته ، ورأينا مايوجب النقد فى أخباره ، فإذا التمسنا له العذر فلم نجده ، قلنا إنه مجتهد أخطأ فى اجتهاده ، وليست العصمة إلا لله وللرسل ، وما ادعاها لنفسه أحد من الصحابة قط . وهذا عمر بن الخطاب على علمه وجلالة قدره لما نهى عن الإسراف فى مهر النساء وردت عليه امرأة بجواب تحجه فيه من كتاب الله لم يسؤه ذلك ، بل قال : صدقت رجل أخطأ وامرأة أصابت ، وكذلك عثمان فإنه اعترف بخطئه على ملأ الناس أكثر من مرة كما رأيت فيما مر من سيرته : والشواهد على هذا كثيرة فى أخبار الصحابة لا محل لإيرادها هنا ، وفيما ذكر كفاية للعاقلين .

* * *

وهأنذا أبدأ بسيرة من اشتهر من الرجال فى دولة عثمان رضى الله عنه ، وهما : حبيب بن مسلمة الفهرى وعبدالله بن عامر بن كريز .

عبدالله بن عامر

نسبه ومولده و نشاته

نسبه :

هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى العبشمى ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، أم عثمان أروى بنت كريز وأمها وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبدالمطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم عبد الله دجاجة بنت أسماء بن الصلت السلمية .

مولده ونشأته :

ولد عبد الله بن عامر فى مكة بعد الهجرة بأربع سنين كما ذكر ذلك ابن عساكر ، وأسلم أبوه عام الفتح وقال ابن عساكر وقد أجمع علماء قريش أن رسول الله أتى بعبد الله بن عامر فى فتح مكة فجعل ينفث عليه ، وجعل عبدالله يبتلع ريق النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال إنه لمسقا ، وفى لسان العرب أنه صلى الله عليه وسلم قال له : أرجو أن تكون سقاء : أى لا تعطش . وفى رواية لابن عساكر أنه لما جيء به لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا ابن السلمية : قالوا نعم : قال هذا ابننا وهو أشبهكم بنا وهو مسقا : فلم يزل عبد الله شريفا سخياً كريماً كثير المال والولد .

فعبد الله بن عامر ولد مكياً ، ونشأ مسلماً مدنياً ، وقد كان يعد فى الطبقة الأولى من أهل المدينة كما فى رواية محمد بن سعد صاحب الطبقات : وكان

حسن النشأة معدوداً من نجباء قريش وكرمائهم ، لهذا اختاره عثمان بن عفان لولاية البصرة على حداثة سنه فوليها وعمره بين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين ، فقام بأعباء الولاية أحسن قيام ، وقاد الجيوش أعظم قياد وأكمله ، ففتح خراسان وسجستان وكرمان وما زال يطارد كسرى يزدجرد حتى قتل وانقرضت على يده الدولة الساسانية ، وصار إلى المسلمين ملك الأكاسرة تخفقت أعلامهم على أقاصى بلاد فارس الشرقية والغربية ، وبسطوا جناح السلطان على تلك الممالك الشاسعة بحسن قيادة عبد الله بن عامر ومن سبقه من رجال الفتح ، الذين خلدوا لتلك الأمة فخراً لا تطاول إليه الأعناق ، ولا يدانيهم به الفاتحون كما رأيت فيما مر من أخبارهم وأخبار ابن عامر فى هذا الكتاب ، وكما ترى من تتمة خبره فى فتح تلك البلاد مما يأتى إن شاء الله .

ولايته على البصرة وفتوحاته

ذكرنا فيما تقدم أن عثمان رضى الله عنه عزل عن البصرة أبا موسى الأشعرى ، وولى عليها عبد الله بن عامر سنة (٢٨ ﻫ) وقيل سنة (٢٩ ﻫ) فقال أبو موسى يقدم عليكم غلام كريم الجدات والعمات يجمع له الجندان ، وزاد فى رواية لابن عساكر . يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا . وجمع له عثمان جند أبى موسى ، وجند عثمان بن أبى العاص الثقفى من عمان والبحرين ، وأمره أن يستعمل على كور فارس وخراسان من سميناهم فى سيرة عثمان ، وأن يغزو البلاد التى انتقضت وهى فارس وخراسان فسار بالناس إلى فارس . والتقى بالثائرين فى اصطخر فقاتلهم حتى انهزموا ثم سار إلى أطراف ولاية فارس فدوخها وأخضع الثائرين فيها ، ثم قصد خراسان وفرق قواده وجنوده فى أطراف خراسان وسجستان وكرمان كما مر تفصيل

الخبر عن ذلك ، وقصد هو نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فافتتح أمامه الطبسين وهما بابا خراسان ، وسار إلى قهستان وأبر شهر ، فلقيه قوم يسمون الهياطلة فقاتلهم الأحنف فهزمهم ، وخرج إليه أهل قهستان فقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم وقدم عليها ابن عامر فصالحه أهلها على ستمائة ألف درهم ، ثم قصد ابن عامر البلاد التى من أعمال نيسابور كبشت وخواف واسفر أين وارغيان ، ثم قصد نيسابور بعد أن استولى على كل أعمالها ، فامتنعت عليه فحاصرها أشهراً وكان على كل ربع من أرباع المدينة مرزبان يحفظه ، فطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الأمان على أن يدخل المسلمين المدينة فأعطيه . فأدخلهم ليلا ففتحوا الباب وتحصن مرزبان المدينة فى حصنها ومعه جماعة وطلب الأمان والصلح على جميع نيسابور على وظيفة يؤديها فصالحه ابن عامر على ألف ألف (مليون) درهم وولى على نيسابور قيس بن الهيثم السلمى . ثم أرسل ابن عامر قواده يضربون فى أطراف البلاد ، وقدم فى أثناء ذلك بهمة والى أبيور على ابن عامر فصالحه على أربعمائة ألف درهم وأتى مرزبان طوس فصالحه على ستمائة ألف درهم ، ووجه ابن عامر جيشاً إلى هراة وقيل سار إليها بنفسه فقاتل أهلها فأعياهم ، فأتاه صاحب هراة فصالحه عليها وعلى بادغيس وبوشنج وكتب له ابن عامر كتاب عهد هذه صورته .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة وبوشنج وبادغيس ، أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين ، وإصلاح ماتحت يديه من الأرضين . وصالحه على هراة سهلها وجبلها على أن يؤدى من الجزية ما صالحه عليه ، وأن يقسم ذلك على الأرضين عدلا بينهم فمن منع ماعليه فلا عهد له ولا ذمة ، وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر اهـ .

وهذا الكتاب يدل على حرص الأمراء يومئذ على عمـــران البلاد

لشرطهم على المرازبة إصلاح الأرضين وقد مر مثله فى سيرة عمر وما كان يشترطه الأمراء فى فتوحهم من إصلاح الطرق والجسور على أهل البلاد المفتتحة .

كما يدل أيضاً على أن المسلمين كانوا يتركون المرازبة فى البلاد التى تدخل تحت سلطانهم صلحاً شبه ولاة من قبل الخليفة ، أو ولاة الثغور بدليل قوله فى أول الكتاب (هذا ما أمر به الخ) ويوصونهم بالعدل وتقوى الله وحسن النظر فى أمور البلاد ، لا سيما وأن المسلمين كانوا يعهدون إلى زعماء البلاد بالحكم بين أهلها فى أحوالهم الشخصية ، على ما تقتضيه شرائع البلاد وعوائد أهلها ، ويتركون لغير المسلمين الخيار فى ذلك بين الرجوع إلى عوائدهم ، وبين الرجوع إلى قضاة المسلمين وشرائعهم ، فالعدل وحسن السياسة يقضيان على الفاتحين ، بإيصاء حكام البلاد والتشديد عليهم فى القيام على العدل فيما وسد إليهم من أمور الرعية .

هذا وهنا أمر آخر نحب التنبيه عليه ، وهو أن أكثر البلاد التى أخذت صلحاً وترك أمرها لولاتها من الأعاجم لم يستقم أمرها للدولة ، بل كانت لا تلبث أن تخرج على سلطان المسلمين ، وينبذ أهلها طاعة الخليفة بإغراء أولئك الزعماء ، فإن أكثر البلاد النائية عن نظر ولاة الثغور البعيدة عن التأثر بسطوة الخلافة ، مثل خراسان وفارس الشرقية وطخارستان وأكثر البلاد الواقعة جنوب بحر قزوين كانت تنتابها الثورات إلى أوائل عهد الأمويين كما رأيت ، وسترى ، ولما استفحل الملك وتبسط العرب فى الممالك وانتظمت لهم الأمور واختلطوا مع الأمم فى المعاملة والمصاهرة والدين ، وتولوا بأنفسهم شؤون البلاد استقرت قدمهم فى البلاد وسكنت إليهم الشعوب. والعجيب فى هذا الأمر أن ينزع القوم إلى مناهضة الدولة ومحاولة الخروج عن الطاعة فى عصر مثل عصر الخلفاء الراشدين الذين ملئوا الأرض بالعدل

وهدموا دعائم الاستبداد المطلق والظلم الغابر ، وفى بلاد ترك لأهلها شبه استقلال عن الدولة ونيط بزعمائها أمر الحكم والسلطة ، ولما انقلب أمر الخلافة إلى الملك وبسطت عليهم يد الحكم المطلق وأخذتهم الدول الإسلامية بالإرهاب ونزعت من زعمائهم السيادة رضخوا للدولة وخضعوا لولاتها كل الخضوع ، ولا تعليل لهذا إلا أن الشرقيين أمم قد تأصل فى عروقها دم العبودية ، فصارت تستطيب القهر ، وتستلذ بالحجر ، فلا يحرك ساكنها الاستبداد ، ولا يطامن من أشرافها الاستعباد ، فهى مع الظالم أطوع له من الظل ، وأذل لسطوته من الذل ، كما يشاهد ذلك فيهم إلى الآن فى كل مكان ، فإنك حيثما نظرت فى المشرق تجد الاستبداد قد أخذ بنواصى الأمم والظلم نشر عليهم بنوده ، وتجاوز الحكم المطلق فيهم حدوده ، حتى أودى بهم إلى الهلاك ، وبدولهم إلى الزوال . وبملكهم إلى الاضمحلال ، وهم مع هذا خاضعون خائفون ليس فيهم حياة تحس ، ولا عروق تنبض . ولا رجال تقوم فتستحث منهم الهمم ، وتستنقذهم من هوةالعدم ، والمغرب أمامهم يسوق إليهم العبر سوقا ، ويعلمهم كيف تكون حياة الأمم ، وبماذا تسعد الشعوب ، وتشاد الممالك ، وكيف يقضى العلم على الظلم وأهليه ، والاستبداد وعاشقيه ، وبم يسود الإنسان ، وتعلو كلمة العدل فى كل مكان ، وهم عن ذلك فى شاغل من الخمول ، واشتغال بالسفاسف ، وإعراض عن شؤون الحياة الطيبة ، رضاء بالعبودية لطواغيت الرياسة ، واستسلاما للقضاء ، وما نهاية ذلك إلا الفناء العاجل بإزاء الأمم الغربية التى استفاض نور مدنيتها على الأرض ، واندفع تيارها على كل الممالك ، فلا يقوم فى وجهه إلا قائم العلم والحرية والعدل . والله عليم بعاقبة الأمور .

هذا وقد تقدم لنا تمام الكلام على ما فتحه قواد المسلمين فى ولاية ابن عامر من بلاد فارس الشرقية والغربيه ، وإنما اجتزانا هنا بذكر مافتحه

ابن عامر بنفسه وفاه بالوعد الذى تقدم لنا ، وبيانا لفضل هذا الرجل الصغير يومئذ سنا الكبير همة ونفساً فلا حاجة للمزيد .

ولايته الثانية على البصرة

وشىء من أخباره فيها

تلك ولاية عبد الله بن عامر الأولى وكانت فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد وليها مرة ثانية على عهد معاوية ، وذلك أن معاوية لما صفت له الخلافة أراد أن يولى عتبة بن أبى سفيان على البصرة ، فكلمه ابن عامر وقال له إن لى بالبصرة ودائع وأموالا فإن لم تولنى عليها ذهبت ، فولاه البصرة فقدمها سنة إحدى وأربعين وجعل إليه معاوية خراسان وسجستان ، فاستعمل على خراسان قيس بن الهيثم السلمى وكانت انتقضت بلخ وهراة وبوشنج وبادغيس على المسلمين ، فسار قيس إلى بلخ فنازلها فسألوه الصلح ومراجعة الطاعة فأعطاهم ما سألوا ، وكان المسلمون كما ذكرنا غير مرة حريصين على عمران البلاد وتسهيل السبل ، فتقدم إلى عطاء بن السائب مولى بنى ليث ببناء ثلاث قناطر على ثلاثة أنهر من أنهر عمالة بلخ فبناها وسميت قناطر عطاء ، ثم إن ابن عامر استبطأ قيساً بالخراج فعزله وولى عبد الله بن خازم فخاف قيس بن خازم وشغبه فقدم على ابن عامر قبل وصول ابن خازم وترك البلاد بلا أمير فازداد عبد الله بن عامر غضباً عليه ، لتضييعه الثغر وإهماله أمر البلاد وقد شغب أهلها ونكثوا فضربه وحبسه ، واستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة على سجستان ، فأتاها وأخذ بتدويخ البلاد التى نكث أهلها حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة ، فبات عليها عباد بن الحصين ليلة يجالد المشركين ويمنعهم عن سدها حتى أصبح ولم يقدروا على سدها ، وخرجوا من الغد يقاتلون

فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة ، ثم سار عبد الرحمن إلى زران وبست وخشك فظفر بأهلها وفتحها كلها ، ثم سار إلى زابلستان وهى غزنة وأعمالها وقد كان أهلها نكثوا أيضاً فقاتلهم وفتحها وعاد إلى كابل وقد نكث أهلها ففتحها .

شىء من أخباره فى البصرة :

هذه فتوح ابن عامر وولاته فى ولايته الثانية على البصرة ، وأما غير ذلك من أخباره فيها فقد كانت شوكة الخوارج يومئذ قويت وشرهم قد استشر فخرج منهم على ابن عامر سهم بن غالب الهجيمى فى سبعين رجلامنهم الخطيم الباهلى ، فنزلوا بين الجسرين والبصرة فمر بهم عبادة بن فرص الليثى من الغزو ومعه ابنه وابن أخيه ، فقال لهم الخوارج من أنتم ؟ قالوا قوم مسلمون ، قالوا كذبتم ، قال عبادة سبحان الله اقبلوا منا ما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منى ، فإنى كذبته وقاتلته ثم أتيته وأسلمت،فقبل ذلك منى. قالوا أنت كافر وقتلوه وقتلوا ابنه وابن أخيه ، فخرج إليهم ابن عامر بنفسه وقاتلهم وقتل منهم عدة ، وانحاز بقيتهم إلى أجمة (غيضة) وفيهم سهم والخطيم فعرض عليهم ابن عامر الأمان فقبلوه فأمنهم فرجعوا . فكتب إليه معاوية يأمره بقتلهم فأبى وكتب إليه إنى قد جعلت لهم ذمتك فقتلهم بعده زياد فى ولايته .

واستمر ابن عامر والياً على البصرة لمعاوية نحو ثلاث سنين وكان رءوفا بأهلها كريماً عليهم ، لين الجانب لا يأخذ على أيدى السفهاء منهم ، ففسدت عليه البصرة ولم ينفعه اللين والحلم ، لا سيما فى بلد كثر فيه الخوارج الذين هم أعداء كل سلطان ، والمناهضون لكل أمير يضاف إلى هذا ما فطر عليه القوم من الحرية وما اعتادوه من الجراءة على الأمراء ومواجهتهم بقول الحق وأخذهم لهم بالهفوات .

روى ابن عساكر عن أبى داود قال ، خرج عبد الله بن عامر إلى الجمعة (أى صلاة الجمعة) عليه ثياب رقاق وأبو بلال « هو مرداس ابن أدية من رءوس الخوارج» تحت المنبر وذلك فى يوم الجمعة ، فقال أبو بلال انظروا إلى أميركم يلبس لبس الفساق ، فقال أبو بكرة وهو تحت المنبر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول (من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله) .

لهذا وأشباهه فسدت عليه البصرة فشكا ذلك إلى زياد بن أبيه ، فقال له جرد السيف ، فقال إنى أكره أن أصلحهم بفساد نفسى ، وهذا منه منتهى العدل والتجافى عن الاستبداد بالناس والأخذ بالقوة إلا أنه نسب بذلك إلى الضعف ، فعزله معاوية عن العمل ، وذلك أن ابن عامر أوفد وفداً من البصرة إلى معاوية ، فوافقوا عنده وفد الكوفة وفيهم عبد الله بن أبى أوفى اليشكرى المعروف بابن الكواء ، فسألهم معاوية عن أهل العراق وعن أهل البصرة خاصة ، فقال ابن الكواء يا أمير المؤمنين إن أهل البصرة قد أكلهم سفهاؤهم وضعف عنهم سلطانهم ، ثم أخذ يعجز ابن عامر ويضعفه فلما علم معاوية حال البصرة عزم على عزل ابن عامر : لكن لم ير مفاجأته بالعزل ، إما احتراماً له وإعظاماً لشأنه ، وإما تحاشياً لغضبه مع ميل الناس إليه وحب قريش له ، فكتب إليه كما فى رواية ابن عساكر يسأله أن يزوره ، فقدم عليه ، وكان يأتيه ويتغدى عنده ، ثم دخل إليه يوما يودعه راجعاً إلى عمله : فقال له إنى سائلك ثلاثاً : فقال هى لك وأنا ابن أم حكيم : قال ترد على عملى (أى ولاية البصرة) ولا تغضب : قال قد فعلت : قال وتهب لى مالك بعرفة : قال قد فعلت : قال وتهب لى دورك بمكة : قال قد فعلت : قال وصلتك رحم .

فقال ابن عامر وإنى سائلك يا أمير المؤمنين ثلاثاً : فقل قد فعلت : قال معاوية قد فعلت وأنا ابن هند ، قال ترد إلىّ مالى بعرفة : قال قد رددت

إليك مالك بعرفة : قال وتنكحنى هند بنت معاوية ، قال قد فعلت ، قال ولاتحاسب لى عاملا ولاتتبع أثرى : قال قد فعلت .

هكذا نقلوا هذا الخبر بدون بيان لسبب طلب معاوية دور ابن عامر بمكة ، وعدم تردده فيما طلبه ابن عامر منه مع أن معاوية لايفعل عبثاً وليس هو فى حاجة لدور ابن عامر ، والسر فى هذا أن معاوية عارف بمكانة ابن عامر عند الناس، وأنه أصبح من رجال قريش النجباء ، وأبنائهم العظماء ، أنه ممن يشار إليهم بالبنان ، لما اشتهر به من الكرم والإحسان ، يدلك عليه مارواه ابن عساكر عن قبيصة بن جابر قال : لما سأله معاوية عمن ترى لهذا الأمر (يعنى الخلافة) من بعدى : قال وأما فتاها حياء وحلما وسخاء فابن عامر .

إن بلوغ ابن عامر هذه المكانة من نفوس الأمة هو الذى دعا معاوية لأن يتلطف بعزله ويطلب منه ماله فى عرفة ، ودوره فى مكة . وذلك كى لا يقصد بعد عزله مكة ، وكى يذهب ذهاب دوره منها بأمله فى السكنى فيها والإقامة فى ربوعها ، حيث يكون بعيداً عن نظر معاوية قريباً من هش النازعين إلى الفتنة ومناهضة معاوية من قريش ، ولذا رأى معاوية من الحزم أيضاً أن يجيب طلبه لبنته وينكحها له استبقاء له عنده وتحت نظره ، وذا من جملة ماعرف عن معاوية من الدهاء والحزم والاحتياط وتألف الرجال ، وبمثل هذا الحزم صفت له الخلافة واستخلص لنفسه الملك واستلم قياد الرجال .

ماذا كان منه فى الفتنة

لما كانت فتنة عثمان كان أشد أهل الأمصار عليه أهل الكوفة وأهل مصر ، وأما أهل البصرة فقد كانوا أخفهم عليه ، لأن ابن عامر كان لحسن خلقه وكرمه يحببه إلى الناس ، لهذا لما استعفى عثمان من عماله كان فيما شرطوا عليه أن يقر ابن عامر على البصرة ليتحببه إليهم ، كما ذكر ذلك ابن عساكر ولما كثر الإرجاف بالعمال واستعرت نار الفتنة دعا عثمان رضى الله عنه ابن عامر مع من دعاه من عماله واستشارهم فيما يصنع كما مر الخبر عن ذلك بما يغنى عن الإعادة ، ثم لما حوصر عثمان أرسل ابن عامر مجاشع بن مسعود على جيش لإنجاده ، حتى إذا كانوا بأدانى الحجاز خرجت خارجة من أصحابه فلقوا رجلا ، فقالوا ما الخبر ، قتل عدو الله نعثل وهذه خصلة من شعره ، فحمل عليه زفر بن الحرث وهو يومئذ غلام مع مجاشع بن مسعود فقتله ، فكان أول مقتول فى دم عثمان ، ثم رجع مجاشع إلى البصرة ، فلما رأى ذلك ابن عامر حمل ما فى بيت المال واستعمل على البصرة عبد الله بن عامر الحضرمى ، ثم شخص إلى مكة فوافى بها طلحة والزبير وعائشة ، وهم يريدون الشام ، فقال لا بل ائتوا البصرة فإن لى بها صنائع ، وهى أرض الأموال وبها عدد الرجال ، والله لو شئت ما خرجت حتى أضرب بعض الناس ببعض ، فقال طلحة هلا فعلت أأشفقت على مناكب تميم ، ثم أجمع رأيهم على المسير إلى البصرة فأقبل بهم إليها. هكذا روى ابن عساكر، وروى الطبرى فى ذهاب ابن عامر إلى البصرة وتحريضه القوم على قصد البصرة مثل ذلك ، وأنهم قالوا له قبحك الله . فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب ، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفى بك وتأتى الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ، فلم يجدوا عنده جواباً مقبولا .

وأنت ترى من هذا أن ابن عامر كان محل الظن فى أن يعمل عملا كبيراً بعد قتل عثمان ، وتشتت رأى الأمة لأنه كان من وجوه قريش وذوى الكلمة العليا فى الناس فلم يفعل من ذلك شيئاً واختار الحياد حتى وصل مكة ، فانضم إلى طلحة والزبير ، ولذا أنبه القوم على تركه البصرة مع قدرته على المقام فيها ، والاستقلال بعمل يدبره ، حتى استضعف جانبه لذلك ، كما يؤخذ من رواية الطبرى عن مسير أمراء على إلى الأمصار بعد البيعة له ، إذ جاء فى تلك الرواية ما نصه :

وأما عثمان بن حنيف (أى عامل البصرة) فسار فلم يرده أحد عن دخول البصرة ولم يوجد فى ذلك لابن عامر رأى ، ولا حزم ، ولا استقلال بحرب ، وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ، ودخلت فرقة فى الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا ، اه

فقولهم ولم يوجد لابن عامر استقلال بحرب فيه شبه استغراب أو تأنيب وإنما يستغرب عدم الرأى والاستقلال ممن تظن فيه القدرة على العمل كما لا يخفى على الناقد ، وكيفما كان الأمر فإن ابن عامر لم يستقل بعمل فى الفتنة فى بادىء الأمر ، سواء كان لرغبته فى الحياد أو لعدم الحزم فانضم إلى طلحة وحزبه وعاد معهم إلى البصرة وحضر وقعة الجمل ، ولو انفرد بنفسه فى عمل لرأى أعواناً كثيرين لما ذكرناه من شهرته وميل القلوب إليه ، ولأنه من وجوه قريش وأجادهم كما يدلك عليه مارواه ابن عساكر عن جويرية ابن أسماء عمن سمعه يقول : قال على بن أبى طالب يوم الجمل أتدرون من حاربت ؟ حاربت أمجد الناس أو أنجد الناس : يعنى ابن عامر : وأشجع الناس يعنى الزبير : وأدهى الناس : يعنى طلحة .

قال ابن عساكر بعد أن أورد حديث إقبال القوم إلى البصرة ومعهم

ابن عامر : فلما كان من أمر الجمل ما كان وهزم الناس ، جاء عبد بن عامر إلى الزبير فأخذ بيده فقال : أبا عبد الله أنشدك الله فى أمة محمد فلا أمة محمد بعد اليوم أبداً : فقال الزبير خل بين العارين يضطربان فإن مع الخوف الشديد المطامع : فلحق ابن عامر بالشام حتى نزل دمشق وقد قتل ابنه عبد الرحمن يوم الجمل وبه كان يكنى . فقال حارثة بن بدر بن العباس العدانى فى خروج ابن عامر إلى دمشق :

أتانى من الأنباء أن ابن عامر أناخ وألقى فى دمشق المراسيا
يطيف بحمّامى دمشق وقصره فعيشك إن لم يأتك القوم راضياً

ولم يزل ابن عامر مع معاوية بالشام حتى ولاه البصرة كما ذكرنا ، ولم يسمع له بذكر فى صفين كما قال ذلك ابن عساكر وغيره ، فهو قد اعتزل الفتنة منذ وقعة الجمل التى يظهر من قوله للزبير ما قال أنه ندم على دخوله فيها وخشى على المسلمين من مغبتها ، وهذا ما وقفت عليه من أخباره فى الفتنة والله أعلم .

مآثره ومناقبه

كان عبد الله بن عامر عالى الهمة جليل المآثر ، ومن مآثره العظمى التى خلدت له فى بطون التاريخ أعظم الفخر ، وأشرف الذكر ، فتحه خراسان كلها وأطراف فارس ، وسجستان وكرمان وهرات وزابلستان وهى غزنة وأعمالها ، أى أنه فتح قسما من فارس الغربية المعروفة الآن بإيران أو أعاد فتحه ، وكذلك معظم فارس الشرقية المعروفة الآن بأفغانستان فقضى على دولة الفرس ، وقتل فى ولايته كسرى يزدجرد ، وانتهت أيام الدولة الساسانية فى تلك المملكة الشاسعة الأكناف ، المترامية الأطراف ، ورفع الإسلام على ربوعها أعلامه ، وسادت على أهلها كلمته إلى اليوم .

بعد أن انتظم لابن عامر أمر الفتح وخلد لنفسه هذه المنقبة سمت همته إلى العمران ، ورمى بطرفه إلى أقصى غاية فى الإحسان ، فعول على جعل أراضى البصرة جنة تنبت الريحان ، وأن يصل ما بين العراق والحجاز بالقرى العامرة ، والمياه النابعة ، لتذهب وحشة البادية من النفوس ، ويتمهد طريق القوافل ، ويأمن ابن السبيل ، وتسهل مسالك التجارة ، فأخذ باحتفار الأنهر فى سواد البصرة ، فاحتفر كما فى رواية ابن قتيبة ثلاثة أنهر : نهر البصرة الذى يمر فى السوق ، والنهر المعروف لذلك العهد بنهر أم عبد الله وهى أمه ونهر الأبلة : ثم بدأ بالبادية فاتخذ فيها النباج وهى قرية بالبادية فغرس فيها الغرس ، فكانت تدعى نباج ابن عامر : واتخذ القريتين وغرس بها نخلا ، وأنبط عيوناً تعرف بعيون ابن عامر ، وبينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة ، وحفر الحفير ثم حفر السمينة ، واتخذ بقرب قباء قصراً وجعل فيه زنجاً ليعملوا فيه : وكلها أماكن ومياه بين البصرة والحجاز أزهرت جوانبها وسالت بهمته وجده عيونها ، وكان يرمى بطرفه لأبعد من هذه الغاية لو استمر فى ولاية البصرة ، ويريد جعل القرى والمحطات ، بين البصرة ومكة كالسلسلة المتصلة الحلقات ، فقد نقل ابن قتيبة أن ابن عامر كان يقول : لو تركت لخرجت المرأة فى حداجتها (محفتها) على دابتها ، ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافى مكة ، وروى ابن عساكر وابن الأثير وابن عبد البر أن ابن عامر اتخذ الحياض بعرفة ، وأجرى إليها العين وسقى الناس الماء ، فذلك جار إلى اليوم ، واتخذ فى البصرة السوق واشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً ، فهو كما أراد بشق الأنهار إحياء الأرضين واستثمارها ، وترغيب الناس بالزراعة وجنى خيرها ، أراد بتمهيد السبل وإقامة الأسواق ترويج التجارة ، وترغيب أهلها والقيام على شؤونها ، أداء لحق الرعية وقياماً بواجب الإمارة والعدل ، هذه الهمة التى لا مرتقى فوقها لهمة ، والمنزلة التى لا متناول بعدها لذى إحسان ، فلقد بلغ ابن عامر بأعماله غاية من الجد ،

وتحرى المصلحة ،والإتيان بكل ماهو نافع للأمة والدولة ، ليس وراءها متجاوز لعامل ، فحقيق به المدح ، وحرى به الاقتداء ، ولو سار كل عمال عثمان سيرته لاستحال على دعاة الفتنة والمنكرين على عثمان التذرع إلى الإيقاع به بسيرة العمال ، والطعن على الولاة فرحمه الله ورضى عنه .

كرمه :

مناقب ابن عامر كثيرة وأخلاقه كلها جميلة . قال ابن عبد البر فى الاستيعاب ، كان عبد الله بن عامر سخياً كريماً ، حليما ، ميمون النقيبة كثير المناقب : وقال ابن الأثير فى أسد الغابة : كان أحد الأجواد الممدوحين : وأخرجه الثلاثة :

ولا جرم فقد كان من أخص صفاته وأعظم مناقبه شهرة بين الناس الكرم الذى تحلى بحلاه ، وبلغ غاية مداه ، فإنه كان موطأ الأكناف ، طويل اليد بالمعروف ، رحب الصدر بالقاصد ، كثير الصلة خصوصاً لذوى قرابته من قريش ، نقل ابن عساكر من رواية ابن إسحق قال ، قدم ابن عامر على عثمان فقال له : صل قومك من قريش ، ففعل وأرسل إلى على بن أبى طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة . فلما جاءه به قال (أى على) : الحمد لله إنا نرى تراث محمد يأكله غيرنا : فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك ، أترسل إلى على بثلاثة آلاف درهم ، قال كرهت أن أغرق ولم أدر مارأيك ، قال فأغرق ، فبعث إليه بعشرين ألف درهم وما يتبعها ، فراح على إلى المسجد فانتهى إلى حلقة وهم يتذاكرون صلات ابن عامر هذا الحى من قريش ، فقال على هو سيد فتيان قريش غير مدافع : قال وتكلمت الأنصار فقالت : أبت الطلقاء إلا عداوة ، فبلغ ذلك عثمان فدعا ابن عامر فقال : أبا عبد الرحمن ق عرضك ودار الأنصار فألسنتهم ما قد علمت ، فأفشى فيهم الصلات والكسا فأثنوا عليه ، فقال له عثمان انصرف إلى عملك .

فانصرف والناس يقولون . قال ابن عامر وفعل ابن عامر : فقال عبد الله ابن عمر ، إذا طابت المكسبة زكت النفقة .

وروى الطبرى عن سحيم بن حفص قال : كان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريك عثمان فى الجاهلية ، فقال العباس بن ربيعة لعثمان . اكتب لى إلى ابن عامر يسلفنى مائة ألف ، فكتب فأعطاه مائة ألف وصله بها وأقطعه داره دار العباس بن ربيعة اليوم :

وروى ابن عساكر عن ميمون بن مهران قال ، أراد ابن عمر شراء أهل بيت كان يعجبهم ، فأعطى بهم ألف دينار فأبى عليه ذاك ، فاشتراهم عبد الله بن عامر بن كريز بعشرة آلاف دينار وأعتقهم .

وهذه غاية من كرم الخلق وبسط اليد بالمعروف لا يبلغها إلا القليل من الأجواد ، وإن إعتاق أهل بيت برمتهم من الرق ، وبذل مثل ذلك الثمن فيهم لمطلق الأجر ، وبلا عوض إلا حسن الذكر ، لعمل جليل محمود ، وأثر كبير معدود ، فرحم الله تلك النفوس الطاهرة التى بلغت من الفضيلة والفضل مكاناً ليس وراءه غاية لمستزيد .

ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه عن عبد الله بن محمد القروى قال اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبى معيط داره التى فى السوق ، ليشرع بها داره على السوق بثمانين أو سبعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله : ما هؤلاء : فقيل له يبكون دارهم . فقال ياغلام فأتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً .

وعن الأصمعى قال أرتج على عبد الله بن عامر بالبصرة يوم أضحى فمكث ساعة ثم قال : لا أجمع عليكم عياً ولؤماً ، من أخذ شاة من السوق فهى له وثمنها على .

وقيل لما ولى ابن عامر البصرة انحدر إليه صديقان له من أهل المدينة ، كان أحدهما عبدالله بن جابر الأنصارى ، والآخر من ثقيف ، فأقبلا يسيران حتى إذا كانا بناحية البصرة ، قال الأنصارى للثقفى هل لك فى رأى رأيته . قال اعرضه . قال رأيت أن ننيخ رواحلنا ونتناول مطاهرنا ، ونمس ماء ثم نصلى ركعتين ، ونحمد الله على ما قضى من سفرنا ، قال هذا الذى لا يُرد ، فتوضيا ثم صليا ركعتين ركعتين ، فالتفت الأنصارى إلى الثقفى فقال . يا أخا ثقيف ما رأيك ؟ قال موضع رأى هذا قضيت سفرى ، وأنصبت بدنى ، وأنضيت راحلتى ، ولا مؤمل دون ابن عامر . فهل لك رأى غير هذا؟ قال نعم إنى لما صليت هاتين الركعتين فكرت ، فاستحييت من ربى أن يرانى طالبا رزقا من غيره . اللهم رازق ابن عامر ارزقنى من فضلك ، ثم ولى راجعاً إلى المدينة ودخل الثقفى البصرة ، فمكث أياما فأذن له ابن عامر فلما رآه رحب به ثم قال ، ألم أخبر أن ابن جابر خرج معك[1] فخبره خبره فبكى ابن عامر ثم قال . أما والله ما قالها أشراً ولا بطراً ، ولكن رأى مجرى الرزق ومخرج النعمة ، فعلم أن الله الذى فعل ذلك فسأله من فضله ، ثم أمر للثقفى بأربعة آلاف درهم وكسوة ومُطرف ، وأضعف ذلك كله للأنصارى فخرج الثقفى وهو يقول :

أمامة ما حرص الحريص بزائد فتيلا ولا زهد الضعيف بضائرى

خرجنا جميعاً من مساقط روسنا على ثقة منا بجود ابن عامر

فلما أنخنا الناعجات ببابه تأخر عنى اليثربى ابن جابر

وقال ستكفينى عطية قادر على ما يشاء اليوم بالخلق قاهر

وإن الذى أعطى العراق ابن عامر لربى الذى أرجو لسد مفاقرى

(١) نقل هذا الخبر ابن عساكر من طريقين قال فى الأول منهما وكان لابن عامر رجل مقيم بالمدينة فكتب إليه بشخوص من شخص يريده ولا يقدم الرجل إلا على جائزة معدة . وهذا سبب قوله للثقفى ألم أخبر ... الخ الخبر .

ولقد كان ابن عامر لكرمه ولين شيمته ، ولما تعوده منه قاصدوه من عدم المطال ، إذا أبطأ على أحدهم بالعطا عاتبه ثقة بسعة صدره ، ومؤكداً نواله ، ومن ذلك ما نقله ابن عساكر قال وعد ابن عامر أنس بن أبي أنس شيئاً وقد كان عوده ذلك فمطله ، فقام إليه بمكة في الموسم فقال :

ليت شعرى عن خليلى ما الذى　　غاله فى الود حتى ودعه
لا تهنى بعد إذ أكرمتنى　　وقبيحٌ عادة منتزعة
واذكر البلوى التى أبليتنى　　ومقالا قلته فى المجمعة
لا يكن برقك برقا خلبا　　إن خير البرق ما الغيث معه

وفى ابن عامر يقول زياد الأعجم مادحا له :

أخ لك لا تراه الدهر إلا　　على العلات بساما جواداً
أخ لك ما مودته بمزق　　إذ ماعاد فقر أخيه عادا
سألناه الجزيل فما تلكا　　وأعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا　　فأحسن ثم عدت له فعادا
مراراً ما رجعت إليه إلا　　تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا

وفاته :

روى ابن عساكر عن عمر بن ميمون أن عبد الله بن عامر حين مرض مرضه الذى مات فيه دخل عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم ابن عمر . قال : ما ترون فى حالى ، فقالوا ما نشك لك فى النجاة ، قد كنت تقرى الضيف وتعطى المختبط[1] . وعن ميمون قال : بعث عبد الله بن عامر حين

---

(١) قال أبو عبيد المختبط الذى يسأله عن غير معرفة كانت بينهما ولا يد سلفت منه إليه ولا قرابة .

حضرته الوفاة إلى مشيخة أهل المدينة ، وفيهم ابن عمر فقال . أخبرونى كيف كانت سيرتى ، قالوا كنت تتصدق وتعتق وتصل رحمك . قال وابن عمر ساكت . فقال يا أبا عبد الله ما يمنعك أن تتكلم . قال قد تكلم القوم . قال : عزمت عليك لتكلمن فقال ابن عمر إذا طابت المكسبة زكت النفقة وستقدم فترى .

قال ابن منده توفى النبى صلى الله عليه وسلم ولعبد الله بن عامر ثلاث عشرة سنة وتوفى ، هو سنة تسع وخمسين ، وقال الحافظ أبو نعيم إنه توفى سنة ستين ، وفى أسد الغابة أنه توفى سنة ثمان وخمسين ، وأوصى لعبد الله ابن الزبير ، وروى ابن عساكر أن عبد الله بن عامر توفى قبل معاوية ، يرحم الله أبا عبد الرحمن بمن نفاخر وبمن نباهى :

وإن رجلا تفاخر به قريش ، ويقول به معاوية مثل هـــذا القول لرجل كبير جدير بالإعظام ، حقيق بتخليد الذكر ، فرحمه الله ورضى عنه ، وكان ابن عامر كثير المال والولد ، فكان له النباج الذى يقال له نباج ابن عامر (مر ذكره) وله الجحفة ، وله بستان ابن عامر على ليلة من مكة ، وله آبار فى الأرض كثيرة ، كما ذكر ذلك ابن عساكر . وروى عنه المحدثون حديثاً واحداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو (من قتل دون ماله فهو شهيد) [1] انتهى .

---

(١) قال ابن عساكر فى سبب روايته لهذا الحديث أن معاوية أراد أن يستصفى ماله وهو أمير على البصرة فقال ابن عامر والله لأقاتلنه دون مالى فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول .. الحديث.

حبيب بن مسلمة الفهري

نسبه ومولده ونشأته

اسمه :

هو حبيب بن مسلمة بن مالك الأكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة ابن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر القرشي الفهري ، يكنى أبا عبد الرحمن ، ويقال له حبيب الدروب ، وحبيب الروم ، لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم .

مولده ونشأته :

ذكر فى أسد الغابة أن حبيب بن مسلمة كان له من العمر لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم اثنتا عشرة سنة . وقد كانت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فى صفر من سنة (١١ هـ) ولذا فيكون مولد حبيب قبل الهجرة بسنتين ، فهو مكى المولد إسلامى النشأة . وقد اختلفوا فى هل كانت له صحبة أم لا ، وأكثرهم يقول كان له صحبة إلا أنه لم يغز مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية لابن عساكر عن ابن أبى مليكة عن حبيب ابن مسلمة الفهري . نه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فأدركه أبوه فقال يا نبي الله يدى ورجلى . فقال له النبي ارجع معه فإنه يوشك أن يهلك ، فهلك أبوه فى تلك السنة ، وفى رواية له أيضاً أنه رجع إلى المدينة وغزا مع النبي آخر غزوة وهى غزوة تبوك ، وهذه الرواية تؤيد قول من قال إن له صحبة ، وقد كان حبيب من أشرف قريش كما فى رواية عن الزبير بن بكار ذكرها فى أسد الغابة . بل كان من شجعانهم وسراتهم ورافعى راية مجدهم ، وللبرزين فى الحزم وحسن القيادة منهم . وهو على ما أرى فى طبقة خالد بن الوليد ،

وأبى عبيدة ، فى الشجاعة والإقدام والأثر الجميل فى الفتح ، ذلك لأنه شب منذ نعومة الأظفار على الحرب ، وألف من صغره الطعن والضرب ، فقضى معظم أيام حياته فى الحروب . فكان له فى تشييد دعائم الإسلام فى البلاد القاصية ، والممالك النائية ، جهاد طويل ، وعمل فى الفتح جليل ، لاسيما فى الجزيرة وأرمينيا والقوقاس كما سترى ، ومما يدل أنه نشأ من صغر سنه على الحرب مارواه ابن عساكر أن حبيباً ذهب فى خلافة أبى بكر إلى الشام للجهاد فكان على كردوس من الكراديس فى اليرموك . لذا لما أدمن الحرب من صغر سنه نشأ قائداً محنكا من أعاظم قواد الفتح فى عصره ، كما يعلم ذلك من سيرته فيما يلى إن شاء الله .

فتوحاته :

اختلف الرواة فى هل إن عمر بن الخطاب ولى حبيباً فى خلافته أم لا والأرجح أن أبا عبيدة بن الجراح فى عهد ولايته على الشام ، ولاه أنطاكية ثم لما فتح عياض بن غنم الجزيرة كان حبيب على بعض جيوشه ، ولما ولى عمر بن الخطاب سراقة بن عمرو على غزو الباب ، وكتب إلى حبيب فيمن كتب إليهم بإمداد سراقة ، سار حبيب من الجزيرة إلى أرمينيا ، ومنها إلى القوقاس كما مر الخبر عن ذلك فى الكلام على فتح أرمينيا والقوقاس ، وفتح هو وعبد الرحمن وسراقة وغيرهم من القواد بلاد أرمينيا ، ثم انتقضت ثانية فغزاها فى خلافة عثمان ، حتى أتم فتحها كما رأيت ، وقد وعدنا فيما مضى بإيراد الخبر عن مسير حبيب إلى أرمينيا وفتحه فيها ، وما كان له من البلاء الحسن فى الحروب التى كانت للمسلمين فى الجزيرة وأرمينيا فنقول :

كان حبيب بن مسلمة مع أبى عبيدة بن الجراح فى حروبه فى شمال سورية ، ولما فتح أبو عبيدة إنطاكية الفتح الثانى بعد انتقاضها ولى عليها حبيب ابن مسلمة فتولاها ، وقاد الجند بنفسه لأول مرة على ما أظن ، فقصد جبل

اللكام وكان فيه قوم أشداء يسمون الجراجمة فلم يقاتلوه ، بل بدروا بطلب الأمان والصلح ، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية ماداموا من أعوان المسلمين وجندهم . ودخل معهم في هذا الصلح وعلى هذا الشرط كثير من الأنباط وأهل القرى ، فكانوا يستقيمون تارة للولاة ويعوجون أخرى ، حتى غزاهم مسلمة ابن عبدالملك وأجلاهم عن جبل اللكام ، وأن ينزلوا حيث أحبوا من البلاد ويكونوا جنداً للدولة ويبقوا على نصرانيتهم ، ولا تؤخذ منهم الجزية ، وأن يجرى عليهم الرزق كبقية الجند ، فنزل بعضهم حمص ، وبعضهم تيزين (من عماله حماة) وغيرها ، ولعل الحى الموجود إلى هذا العهد في مدينة حماه المعروف بحارة الجراجمة ينسب إلى أولئك القوم لأنه نزل منهم فريق فيه .

ثم لما سار عياض بن غنم إلى فتح الجزيرة كان حبيب في جملة قواده ، ففتح سميساط وقرقيسيا وقرى حولها ، ثم فتح شمشاط وملطية وغيرها ، ثم سار إلى أرمينيا بأمر عمر ، ففتح منها مافتح ، وذلك الفتح الأول الذى انتقضت بعده ، وقصدها مرة ثانية على عهد عثمان ، وقد بسطنا كيفية مسيره إليها ، وأنه لما انتهى إليه سلمان بن ربيعة الباهلى الذى كان أرسله عثمان رضى الله عنه مدداً له ، سار حبيب من غرب أرمينيا وسلمان من شرقيها ، وقد ذكرنا مافتحه في طريقه سلمان وأوردنا الخلاف بين المؤرخين في خبر ذلك الفتح ، وفي المكان الذى اجتمع فيه حبيب وسلمان ، وبقى أن نذكر مافتحه حبيب بن مسلمة يومئذ حتى بلغ القوقاس من جهة الغرب ، كما بلغه سلمان من جهة الشرق .

ذكرنا في سيرة عثمان أن سلمان بعد أن فتح قاليقلا أجلبت عليه الروم بجموع عظيمة ، وأنه بيتهم قبل وصول المدد إليه فاجتاحهم ، وذكر في فتوح البلدان أن حبيبا لما سار من قاليقلا بعد وصول المدد إليه نزل مربالا فأتاه بطريق خلاط ، بكتاب عياض بن غنم ، وكان عياض قد أمنه على نفسه وماله

وبلاده ، وقاطعه على إتاوة فأنفذه حبيب له ، ثم نزل منزلا بين الهرك ودشت الورك ، فأتاه بطريق خلاط بما عليه من المال ، وأهدى له هدية لم يقبلها منه ، ونزل خلاط ثم سار إلى الصيسانة فلقيه فيها صاحب مكس ، وهى ناحية من نواحى البسفرجان فقاطعه على بلاده ، ووجه معه رجلا وكتب له كتاب صلح وأمان ، ووجه إلى قرى أرجيش وباذغيس من غلب عليها ، ثم أتى ازدساط واجتاز نهر الرس ، وأتى مرج دبيل وغلب على جميع تلك النواحى ، حتى بلغ سراج طير وبغروند فأتاه بطريق دبيل فصالحه عنها على إتاوة يؤديها ، وعلى مناصحة المسلمين وقراهم (ضيافتهم) ، ومعاونتهم على أعدائهم ، وهذه صورة كتاب صلح دبيل .

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهرى ، لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم ، إنى أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم ، فأنتم آمنون ، وعلينا الوفاء لكم بالعهد ماوفيتم ، وأديتم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيدا . وختم حبيب بن مسلمة وأتاه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده ، وقصد السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب عليهم وسار إلى جرزان فأتاه رسول بطريقها ، وقدم إليه هدية وسأله كتاب صلح وأمان فكتب حبيب إليه :

أما بعد فإن (نقلى) رسولكم قدم على وعلى الذين معى من المؤمنين ، فذكر عنكم أنا أمة أكرمنا الله وفضلنا ، وكذلك فعل الله وله الحمد كثيراً ، وصلى الله على محمد نبيه وخيرته من خلقه وعليه السلام ، وذكرتم أنكم أحببتم سلمنا ، وقد قومت هديتكم وحسبتها من جزيتكم ، وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شروطاً ، فإن قبلتموه ووفيتم به ، وإلا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، والسلام على من اتبع الهدى .

وأنت ترى من مضمون هذا الكتاب كيف كان المسلمون يتجاوزون عن كثير من الضرائب التى كان يتناولها غيرهم من الدول الفاتحة ، ونقول ضرائب لأن الهدايا التى كان يقدمها الولاة لأرباب الدولة سواء كان فى فارس أو غيرها كانت كضريبة مقررة لامناص لهم منها ، يدلك عليه ماسبق إيراده فى أخبار الفتح من ذكر الهدايا التى كانت تقدم للأمراء الفاتحين من المسلمين وكانوا يأبون قبولها إلا إذا احتسبت من الخراج أو الجزية ، وما نعرف فى تاريخ الصحابة أحداً قبل مثل هذه الهدية دون احتسابها من الصلح الذى يصالح عليه العدو إلا عبد الله بن عامر إذ قدم لأحد أمرائه فى خراسان هدية فسأل سببها ، فقيل له هذه عادة عندنا فأبى قبولها إلا بعد استشارة الأحنف بن قيس الأمير يومئذ من قبل ابن عامر ، فلما استشاره عنها أبى قبولها أيضاً وأمره أن يعرضها على ابن عامر فلما عرضها عليه أخذها : فقالوا ضمها القرشى وكان مضماً ، إشارة إلى عدم الرضا عنه بقبوله لها . وإن مثل هذه العفة من أولئك الفاتحين تدل على بلوغهم غايه من العدل وحسن السيرة لايبلغها غيرهم من رجال الفتح ودول الاستعمار ، ومن دقق النظر فى تاريخ تلك الأمة يعجب من عاصرها من المؤرخين ، ومن بعدهم من أهل الملل الأخرى ، فى عدم إنصافهم لها وإعراضهم عن ذكر أخلاقها على الوجه الذى يقتضيه الحق والعدل ، لا الوجه الذى يقتضيه الغرض والتعصب الذميم .

هذا ثم إن حبيباً سار إلى تفليس (عاصمة كرجستان) فصالحه أهلها ، وكتب لهم كتاب صلح هذه صورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس ، من منجليس من جرزان القرمز بالأمان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على إقرار بالصغار والجزية على كل أهل بيت

دينار ، وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوتات تخفيفاً للجزية . ولا لنا أن نفرق بينهم استكثاراً منها ، ولنا نصيحتكم وضلعكم على أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ما استطعتم ، وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا ، وإن انقطع برجل من المسلمين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المؤمنين إلا أن يحال دونهم ، وإن أنبتم وأقمتم الصلاة فأخواننا فى الدين وإلا فالجزية عليكم ، وإن عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم ، هذا لكم ، وهذا عليكم ، شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيدا اهـ .

ثم إن حبيباً فتح كسفر بيس وسمسخى وخنان والجردمان وكستسجى شوشت وبازليت وقارجيت وثرياليت وخاخيط وخوخيط وأرطهال ، وغيرها من بلاد إيبريا وأرمينيا الغربية ، منها ما هو بالحرب ومنها ما هو بالصلح حتى بلغ القوقاس من جهة البحر الأسود كما بلغه سلمان من جهة بحر قزيين ، كما مر الخبر عن ذلك فى سيرة عثمان رضى الله عنه . ولما فتح حبيب ما فتح من أرمينيا كتب إلى عثمان بذلك فوافاه كتابه ، وقد نمى إليه سلمان فهم أن يوليه جميع أرمينيا ، ثم رأى أن يجعله غازياً بثغور الشام والجزيرة لغنائه ونكايته فى الروم ، فورد عليه كتاب عثمان يأمره بالانصراف فانقلب راجعاً إلى الشام ، ونزل حمص ثم أخذه معاوية إلى دمشق وكان يردد الغزو إلى الروم ، وله فى الحروب معهم بلاء حسن ، لما عرف عنه من الشجاعة والإقدام ، وحسن قيادة الجيوش ، فقضى كل أيام حياته فى الجهاد ، وتدويخ البلاد ، فكان من خيرة قواد المسلمين . وأبطال الفاتحين كما رأيت من أخباره فى فتح الجزيرة وأرمينيا فرحمه الله ورضى عنه

أخباره فى الفتنة

لما نزل بعثمان ما نزل كان حبيب بن مسلمة بالشام ، وأرسله معاوية لنجدته فلم يدركه بل قتل قبل وصوله إلى المدينة .

روى فى التمهيد والبيان عن سعيد بن عبد الله الجمحى ، قال ، قال حبيب ابن مسلمة رأيت فيما يرى النائم أن بعيراً عربياً سميناً ، وبينا هو قائم انتهى إليه أعراب مذلى [1] ، فأطافوا به ، نخفتهم عليه وصحت بهم فبادروه فعقروه ثم انتهبوه ، فلما أصبحت أتانى أصحابى وإنى لأقصها عليهم إذ جاءنى رسول معاوية فأتيته ، فقال ياحبيب إن عثمان قد ترك منزولا به ، ولا أدرى إلى ما يترامى هذا الأمر فتجهز وأعجل ، فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم الخبر واستكتمتهم الرؤيا ، فبينا نحن فى ذلك قدم عليهم كتاب آخر وقد حصر ، فأرسل إلىّ (أى معاوية) وأخبرنى الخبر ، وأخرجنى فخرجت فأقمت لأصحابى بالطريق حتى يلحقونى .

وروى عن أبى حارثة وأبى عثمان قالا ، لما اتى معاوية الخبر أرسل إلى حبيب بن مسلمة الفهرى فقال : إن عثمان قد حصر ، فأشر على برجل ينفذ الأمر ولا يقصر ، فقال ما أعرف ذلك غيرى ، قال أنت لها فأشر على برجل أبعثه على مقدمتك ، لايتهم رأيه ولا نصيحته ، أعجله فى سرعان الناس فقال أمن جندى أم من غيرهم ؟ فقال من أهل الشام ، فقال إن أردته من جندى أشرت عليك ، وإن كان من غيرهم فإنى أكره أن أغرك بمن لا علم لى به ، فقال فهاته من جندك قال يزيد بن شجعة (أو مشجعة) الحميرى ، قال كما تحب ، فإنهم لفى ذلك إذ قدم الكتاب بالحصر (لعله كتاب عثمان) فدعاهما ثم قال لهما ، النجاء سيرا ، فأغيثا أمير المؤمنين وتعجل يا يزيد ، فإنى

---

(١) أى خائفون غير مطمئنين .

قدمت يا حبيب وعثمان حى فهو الخليفة ، والأمر أمره فانفذ لما يأمرك ، وإن وجدته قد قتل فلا تدعن أحداً أشار إليه ، ولا أعان عليه إلا قتلته ، وإن أتاك شيء قبل أن تصل فأقم حتى أرى من رأى ، وبعث يزيد بن شجرة فأمضاه على المقدمة فى ألف فارس على البغال يقودون الخيل معهم ، الإبل عليها الروايا (القرب) واتبعهم حبيب بن مسلمة وهو على الناس ، وخرجوا جميعاً ، وأخذ يزيد السير فانتهى إلى ما بين خيبر والسقيا ، فلقيه الخبر ثم لقيه النعمان بن بشير بالخبر ، ومعه القميص الذى قتل فيه عثمان (رضى الله عنه) مخضب بالدماء فرجع يزيد وحبيب ، وفى هذا الخبر ما يدل على اهتمام معاوية بأمر عثمان وإسراعه فى إنجاده منذ وصله الخبر ، خلافاً لما جاء فى بعض الروايات من أنه تباطأ فى إغاثة عثمان رضى الله عنه والله أعلم .

هذا وقد ذكر بعض الرواة أن حبيباً حضر وقعة صفين مع معاوية ولم يزل معه فى حروبه ، وقال أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب ، روينا أن الحسن بن على رضى الله عنهما قال لحبيب بن مسلمة فى بعض خرجاته بعد صفين . يا حبيب رب مسير لك فى غير طاعة الله . فقال له حبيب : أما إلى أبيك فلا. فقال له الحسن بلى والله ، ولقد طاوعت معاوية على دنياه، وسارعت فى هواه ، فلئن كان قام بك فى دنياك ، لقد قعد بك فى دينك ، فليتك إذ أسأت الفعل ، أحسنت القول ، فتكون كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً) ولكنك كما قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) على أنه مما يضعف هذه الرواية شهرة حبيب بالصلاح ، وحسن اعتقاده بعلى وعثمان ، وأنه من فريق المعتدلين الذين قالوا نتولى عثمان وعلياً ولا نتبرأ منهما ، ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالإيمان ، ونرجولهم ونخاف عليهم ، كما روى ذلك ابن عساكر فى حديث مر معنا ذكره فى أخبار الفتنة ، ولو فرضنا صحة خبر أبى عمر

الذى قال فيه حبيب للحسن ما قال لكان ذلك الخبر دليلا واضحاً على أن
كل فريق من المختلفين فى الفتنة كان يرى نفسه على حق ، إذ لا يتأتى لمثل
حبيب بن مسلمة على تقواه وطول جهاده وشهرته بالصلاح أن ينضم إلى
معاوية وهو يعتقد أنه على غير حق ، ويقول للحسن ما قال ، وأما إن معاوية
طالب دنيا وعلى طالب آخرة فلا يمنع ذلك كل حزب من أحزابهما من
الاعتقاد بفضل صاحبه ، وأنه أهل للخلافة ما دام كل منهما يطالب بها ويقاتل
عليها إلا أن هناك فرقاً بين على ومعاوية ، فى أن الأول يطلبها بحق البيعة
التى وقعت له وبحق الصحبة القديمة وشرف القرابة من الرسول صلى الله عليه
وسلم ولو تمت له لكان خيراً للمسلمين ، وأبقى على أصول الشورى الانتخابية.
والثانى يطلبها بالقوة ، والخلافة التى تؤخذ بالقوة مصيرها إلى الاستبداد ،
ولكن ليس لهذا نصر معاوية حبيب وأمثاله من وجوه المسلمين وصلحائهم،
بل لمحض الاعتقاد بأهلية معاوية ولأن القوم لم يكن يعتقد بعضهم العصمة
أو النبوة أو ألوهية فى البعض الآخر ، كما حدث ذلك بعد بين المسلمين ،
بل كانوا يرون أنهم كلهم فى الإسلام والصحبة سواء وإن امتاز بعضهم عن
بعض بالفضائل الشخصية والخصال الجميلة ، لذا كان مما يدلك على أن حبيباً وأمثاله
لم يمالئوا معاوية إلا لمحض الاعتقاد الحسن به لا لغرض آخر ، وأن حبيباً كان
لا يزال يطالب معاوية بسنة أبى بكر وعمر حتى مات كما سترى بعد ، وهذا
ما يدعونا إلى أن نحسن الاعتقاد بكل الصحابة الذين كان لهم يد مع على
أو معاوية ، وضلع فى تلك الفتنة ، ولو جزمنا بأن علياً كان أحق من معاوية،
إذ أن كل فريق من المتحاربين يومئذ كان يرى لصاحبه من الحق ما لم نره
نحن وما يوجب انتصاره له والانضمام إليه ، فحكمنا على فريق بأنه على غير
الحق حكم على الفريق الآخر ، كما بسطنا الكلام على هذا فى أكثر من محل
من هذا الكتاب ، وإنما عدنا إلى الإشارة إليه تنبيهاً للشيع الإسلامية التى
لا يزال بعضها يغلو فى مدح بعض الصحابة والاعتقاد بهم غلواً ينزلهم فى منزلة

الأنبياء ، ويغلو فى وصم بعضهم بكل شنيعة غلواً ينزلهم فى منزلة العامة والدهماء ، وكلا الأمرين تفريط وإفراط يعيبان تاريخ الأمة ، لا سيما منها أهل ذلك الصدر الذين سبق لهم من الفضل على المسلمين فى بث دعوة الإسلام. وتدويخ الممالك والبلدان ، وتأسيس بنيان الدولة التى نشرت على معظم الأرض جناح السلطان ، ما يوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عنده ذرة من العقل ، وقليل من الإنصاف ، أن يقدرهم قدرهم ، ولا يبخسهم من الثناء حقهم ، ويعترف على ملأ الشعوب بفضل كل فريق منهم ، والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم ، وقادة الأمر منهم ، إعلاء لشأنهم ، وتنويهاً بجليل عملهم ، وجميل صحبتهم ، وسداً لذرائع القدح فيهم ممن يحاول احتقار أعمالهم . واستصغار أقدارهم ، من خصوم المسلمين من أهل الملل الأخرى .

* * *

شيء من سيرته

أجمع الرواة على أن أهل الشام كانوا يثنون على حبيب بن مسلمة ثناء حسناً ، ويعتقدون فيه منتهى الصلاح ، لهذا كانوا يقولون كان مجاب الدعوة.

ومما يدلك على صلاحه ما رواه أبو عساكر أن حبيباً دخل العلياء (١) بحمص فقال ، وهذا من نعيم مما ينعم به أهل الدنيا ، ولو مكثت فيه ساعة لهلكت ما أنا بخارج منه حتى أستغفر الله تعالى فيه ألف مرة ، قال فما فرغ حتى ألقى الماء على وجهه مراراً (لعله لأنه كان يخشى عليه) ، ومن شدة تقواه وصلاحه كان دائما يلح على معاوية بالعمل بسيرة أبى بكر وعمر ، وكان معاوية يخشاه لهذا السبب فقد روى ابن عساكر عن ابن عجلان قال : لما أتى معاوية

---

(١) قوله علياء يظهر من قرينة الكلام الذى جاء قبله أنه اسم حمام بحمص أو لعله بستان فليحرر .

موت حبيب بن مسلمة سجد، ولما أتاه موت عمرو بن العاص سجد، فقال له قائل: يا أمير المؤمنين سجدت لوفدين وهما مختلفان. فقال أما حبيب: فكان يأخذني بسنة أبي بكر وعمر، وأما عمرو بن العاص: فيأخذني بالإمرة الإمرة فلا أدري ما أصنع.

وفوده على عمر وولايته

روى ابن عساكر من طرق أن حبيب بن مسلمة كان يلي الصوائف على عهد عمر، ويبلغ عمر عنه ما يحب، ولم يثبته (أي بالجيش) حتى قدم عليه في حجه، وكان تام القامة فسلم على عمر: فقال له إنك لفي قناة رجل، قال إني والله وفي سنانها، وفي رواية أنه قال له إنك لجيد القناة، قال وجيد سنانها، قال عمر افتحوا له الخزائن، فليأخذ ماشاء، ففتحوها له فعدا عن الأموال وأخذ السلاح، وفي رواية لابن عساكر أن عمر لما عزل عياض بن غنم عن الجزيرة ولى حبيب بن مسلمة، وضم إليه أرمينيا وأزربيجان ثم عزله، وولى عمير بن سعد الأنصاري وسعيد بن عامر بن حذيم، وقد كان كثير الغزو إلى الروم والنكاية فيهم، فدخل مرة أرض الروم على جيش فاهتم عمر بأمرهم، فلما بلغه خروج حبيب ومن معه خر ساجداً لله.

ولإدمان حبيب الحرب أصبح مشهوراً بالشجاعة، محبوباً من الناس، منوها باسمه على ألسن الشعراء، وفيه يقول حسان بن ثابت بعد حادث عثمان رضى الله عنه:

يأيها الناس أبدوا ذات أنفسكم لا يستوى الصدق عند الله والكذب
قوموا بحق مليك الناس تعترفوا بغارة عُصب من بعدها عصب
فيهم حبيب شهاب الموت يقدمهم مستلئماً قد بدا في وجهه الغضب

وفيه يقول شريح بن الحارث من أبيات:

ألا كل من يدعى حبيباً وإن بدت مروءته يفدى حبيب بنى فهر

* * *

وفاته وولده

فى رواية لابن عساكر أن حبيباً دخل الحمام فأطال المكث فيه فمرض مرضه الذى مات فيه ، وقد اختلف المؤرخون فى محل وفاته فقال البلاذرى فى فتوح البلدان إنه لما أمره عثمان بالانصراف إلى الشام نزل حمص فنقله معاوية إلى دمشق فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ) وهو ابن ٣٥ سنة . وقال ابن عبد البر إن معاوية وجهه إلى أرمينيا والياً عليها فتوفى فيها سنة (٤٢ هـ) وكذلك قال ابن سعد وابن عساكر وأنه مات فيها ولم يبلغ الخمسين . فرحمه الله ورضى عنه .

ولده :

روى ابن عساكر عن أبى زرعة عبد الرحمن بن عمرو قال ، لحبيب بن مسلمة ولد كثير عندنا بحوران من جند دمشق ومنزلهم بطرف من أطراف حوران كثير عددهم وقد كان بعضهم يصير إلى فى منزلى .

[والحمد لله رب العالمين]

انتهى ما وصل إليه علمنا والله يتولى هدانا جميعاً وهو خير الراشدين ؟

اعتذار :

رغم ما بذلناه من مجهود فى تصحيح هذا الكتاب إلا أنه وقعت بعض أخطاء طفيفة تركناها وفطنة القارىء .

الفهرست

صفحة

أبو بكر الصدّيق

صفحة

صفحة

خالد بن الوليد

عمر بن الخطاب

صفحة

صفحة

عمال عمر وقواده

صفحة

سعد بن أبي وقاص

حاله فى الجاهلية

عمرو بن العاص

حاله فى الجاهلية

صفحة

عثمان بن عفان

صفحة

عبد الله بن عامر

نسبه ومولده ونشأته

حبيب بن مسلمة الفهري

نسبه ومولده ونشأته

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٣/٢٦٨٧